

إِصْدَارَاتُ مُؤَسَّسَةِ وَقْفِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ الْبَرَّاكِ (٥)

التَّحْلِيقُ وَالْإِضَاحُ
عَلَى

نَفْسِيرِ الْجَلِيلِ

تَأَلَّفَ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ الْبَرَّاكِ

المُجَلَّدُ الْأَوَّلُ
الْفَاتِحَةُ ، وَالْبَقَرَةُ

اَعْتَنَى بِهِ

مُؤَسَّسَةُ وَقْفِ الشَّيْخِ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ الْبَرَّاكِ



التعليق والإيضاح

على

تفسير الجلالين



ح مؤسسة وقف الشيخ عبدالرحمن بن ناصر البراك، ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البراك، عبدالرحمن بن ناصر

التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين. / عبدالرحمن بن ناصر

البراك - ط ١ - الرياض، ١٤٤٢ هـ

٧٠٤ ص؛ ٢٤×١٧ سم.

ردمك: ٩-٥-٩١٥٢٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ.العنوان

ديوي ٣، ٢٢٧ / ٢٦٠٧ / ١٤٤٢

رقم الإيداع: ١٤٤٢ / ٢٦٠٧

ردمك: ٩-٥-٩١٥٢٨-٦٠٣-٩٧٨

الطَبَعَةُ الْأُولَى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠ م

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ



المملكة العربية السعودية

الرياض

00966505112242 الجَوَّالُ

m@sh-albarrak.com البريد الإلكتروني

sh-albarrak.com الموقع الرسمي

إِصْدَارَاتُ مُؤَسَّسَةِ وَقْفِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ الْبَرَّاكِ (٥)

التَّعْلِيقُ وَالْإِضَاحُ

عَلَى

نَفْسِ الْجَلِيلِ

تَأَلَّفَ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ الْبَرَّاكِ

المجلد الأول

الفاتحة ، والبقرة

اعتنى به

مؤسسة وقف الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر البراك





مقدمة التحقيق

الحمدُ لله، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن
والآه؛ أمَّا بعد:

فهذه «حاشيةٌ على الجلالين: الفاتحة والبقرة»، لشيخنا العلامة عبد
الرحمن البراك - حفظه الله - سمّاها: «التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين»،
أملاها في مجالسٍ عديدةٍ تعليقيًا وتوضيحيًا لمُراد المؤلفين من عبارتهما في
تفسير الآيات، وصدّر ذلك بتفسيره - حفظه الله - على الآيات، ثم ثنى بالتعليق
على كلام المؤلفين، وقد تعقّبهما في المخالفات العقديّة، وكان هذا هو السببُ
والباعثُ الأوّلُ له على إخراج هذا الكتاب قبل أن يبدو لشيخنا أن يكتبَ تفسيرًا
على الآية - على وجه الإجمال والاختصار - قبل التّعليق.

ولا يخفى على طالب العلم أهمية تفسير الجلالين لمؤلفيه: جلال
الدين المحلي وجلال الدين السيوطي؛ فهو من التفاسير المختصرة الشائعة،
و«ظهرت خصائصه اللامعة بين الناس على اختلاف المستويات؛ فقد تميّز
بصنيع هذين العالمين معًا؛ إذ كان فيه إيجازٌ وافٍ بكثيرٍ من حاجات التفسير مع
الاحتفاظ بجميع النص القرآني، واستيعابُ جهود العلماء في القرون الإسلامية
التسعة»^(١).

وقد سِرنا في العمل على هذا الكتاب وفق المنهج التالي:

١ - مقابلةُ أصل الكتاب وضبطه على طبعة الدكتور: فخر الدين قباوة
وهو العمدة في هذه التعليقات، ونُنبّه في الهامش إلى ما قد يكون من اختلافٍ
بينهما وبين النسخ الأخرى، كما نُنبّه إلى بعض ما وقع في الكتاب من إشكالات،
ونقل ما يُصوّبه شيخنا في بعض المواضع منها.

(١) ينظر: مقدمة تحقيق «تفسير الجلالين» للدكتور قباوة.

- ٢- تعريف موجز بالكتاب، وبيان منزلته وأهم حواشيه ومن اعتنى به.
 ٣- ترجمة مختصرة للمؤلفين: جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي.

٤- تقسيم الكتاب إلى فقرات؛ كالتالي:

- نُصَدِّرها بالآيات المراد تفسيرها.
 - ثم يليها تفسير شيخنا للآيات.
 - ثم نُورِدُ تعليق الجلالين على الآيات.
 - ثم نُعقبه بتعليقات شيخنا على كلام الجلالين.
- وطريقة التقسيم هذه من عمل شيخنا، كما نص في مقدمته فيما سيأتي.
 ٥- توثيقُ النقول التي وردت في الكتاب وعزوها إلى مصادرها الأصلية.
 ٦- ربطُ مباحث الكتاب بكتب التفسير وعلوم القرآن وغيرها من سائر الفنون.

٧- إحالة بعض المباحث إلى مواضع أخرى موسَّعة من كتب وشروح شيخنا حفظه الله.

٨- ضبطُ الكلمات المشككة، والعنايةُ بعلامات الترقيم.

٩- عزو الآيات إلى مواضعها من كتاب الله **عَزَّوَجَلَّ**، وإثباتها على رواية حفص عن عاصم، أما الآيات في الجلالين؛ فقد أثبتناها بالخط العادي، وشكّلناها وفق ما ضبطه المحقق الدكتور فخر الدين قباوة لأنَّ القراءة التي اختارها المصنفان لآيات القرآن جمهورها الأساسي معتمد على قراءة إمام البصرة أبي عمرو بن العلاء ولم يلتزما ذلك، وقد أشرنا في الحاشية لاختلاف القراءات.

١٠- تخريجُ جميع الأحاديث والآثار الواردة في المتن، أو التعليق والشرح.

والطريقةُ في ذلك كالتالي:

أ- إذا كان الحديثُ في الصحيحين أو أحدهما يقتصرُ في العزو إليه إلا لفائدة؛ كأن يكون اللفظُ المذكورُ لغيرهما.

ب- إذا كان الحديثُ في غير الصحيحين:

- خرَّجه من أهم المصادر، وهي السننُ الأربعة وموطأ مالك ومسند أحمد، وغيرها من المصادر الحديثية المعتبرة.

- لا توسع بذكر الطرق والشواهد، وإنما نحيلُ إلى بعض المراجع لمن أراد التوسع والزيادة، وغالبًا ما تكون الإحالة إلى كتب التخريج، والعلل.

- نقل ما تيسر من كلام الأئمة النقاد المتقدمين عليه تصحيحًا أو تضعيفًا،

وإذا كان بين الأئمة خلافٌ نذكر أقوالهم دون حُكمٍ أو ترجيح، وقد نستأنس

- في هذه الحالة - بترجيحات المتأخرين، والمعاصرين ممن يشتغل بالتصحيح والتضعيف.

- إذا لم نجد للأئمة النقاد كلامًا في الحديث: لا نحكم على الحديث

صحةً أو ضعفًا، وغالبًا ما نعتمد في هذه الحالة على أحكام المتأخرين في ضوء قواعد النقاد.

ج- نذكر اسم الصحابي راوي الحديث إلا أن يُذكر في المتن، وإذا كان

الحديث مرويًا عن أكثر من صحابي ذكرنا صاحب اللفظ وأشرنا إلى غيره تبعًا.

١١- ترجمة الرواة من غير الصحابة والتعريفُ ببعض الأعلام.

١٢- بيان معاني الكلمات الغريبة.

١٣- التعريفُ بالفرق والمقالات.

١٤ - صنع فهرس تفصيلي للموضوعات، وللمصادر والمراجع.
ملاحظة: إذا ورد في الهوامش كلمة «شيخنا» فالمراد به صاحب التعليقات
شيخنا العلامة عبد الرحمن البراك - حفظه الله -.



للتواصل:

جوال: ٠٥٠٥١١٢٢٤٢

البريد الإلكتروني: m@sh-albarrak.com

التعريف بالجلالين

ألف هذا التفسير إمامان، ولقب كل واحد منهما جلال الدين، وهما:
جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي.

ترجمة جلال الدين المحلي:

هو محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد المحلي الأصل نسبة للمحلة الكبرى. ولد بالقاهرة سنة (٧٩١هـ) واشتغل وبرع في الفنون؛ فقهاً وأصولاً ونحوًا وغيرها، وكان آيةً في الذكاء والفهم؛ فكان بعض أهل عصره يقول فيه: إن ذهنه يثقب الماس. وكان يقول عن نفسه: أنا فهمي لا يقبل الخطأ. وكان من أهل الصلاح والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يواجه بذلك أكابر الظلمة والحكام، ويأتون إليه فلا يلتفت إليهم، ولا يأذن لهم بالدخول عليه، وإذا ظهر له الصواب على لسان من كان رجوع إليه، وكان متقشفًا في ملبوسه ومركوبه، ويتكسب بالتجارة، وألف كتبًا تشد إليها الرِّحال؛ في غاية الاختصار والتحرير والتنقيح، وقد أقبل عليها الناس وتلقوها بالقبول، وتداولوها؛ منها: «البدر الطالع بشرح جمع الجوامع»، و«كنز الراغبين شرح منهج الطالبين»، و«شرح الورقات»، وله مصنفات أخرى في شتى الفنون. توفي في أول يوم من سنة (٨٦٤هـ)^(١).

ترجمة جلال الدين السيوطي:

هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيرى السيوطي، ولد في رجب سنة (٨٤٩هـ)، نشأ في القاهرة يتيمًا إذ مات والده وعمره خمس سنوات،

(١) ينظر: «الضوء اللامع» (٧/٣٩-٤١)، و«حسن المحاضرة» (١/٤٤٣-٤٤٤)، و«طبقات المفسرين» للدودي (٢/٨٤-٨٥)، و«الأعلام» (٥/٣٣٣-٣٣٤)، و«معجم المؤلفين» (٨/٣٣١-٣١٢).

ختم القرآن العظيم وله من العمر دون ثمان سنين، ثم حفظ «عمدة الأحكام»، و«منهاج النووي»، و«ألفية ابن مالك»، و«منهاج البيضاوي»، وعرض الثلاثة الأولى على علماء عصره وأجازوه، ولما بلغ أربعين سنة من عمره أقام في روضة المقياس وأخذ في التجرد للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى، وشرع في تحرير مؤلفاته، وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك، وكان الأغنياء والأمرء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها، وطلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فيردها، وبقي على ذلك إلى أن توفي، وكان يلقب بابن الكتب؛ لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب، ففاجأها المخاض، فولدته وهي بين الكتب!

له العديد من المصنفات في شتى الفنون^(١)، منها في التفسير وعلومه: «الدر المثور في التفسير بالمأثور»، و«الإتقان في علوم القرآن»، و«لباب النقول في أسباب النزول»، و«مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع» توفي سنة (٩١١هـ)^(٢).

التعريف بكتاب تفسير الجلالين:

لم يضع الجلالان لهذا التفسير اسماً بل عُرف بين العلماء باسم «تفسير الجلالين»، أو «الجلالين» نسبة إليهما.

(١) ينظر: «دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها» لأحمد الخازندار ومحمد إبراهيم الشيباني - الطبعة الثانية-، فقد أورد فيه (١٠٨٠) عنواناً ما بين مخطوط ومطبوع ومجهول المكان أو مفقود، وهذا الرقم فيه الكثير من المكررات؛ لكون الكتاب الواحد ذا عناوين مختلفة.

(٢) ينظر: «حسن المحاضرة» (١/٣٣٥-٣٤٤)، و«الكواكب السائرة» (١/٢٢٧-٢٣٢)، وشذرات الذهب (١٠/٧٤-٧٩)، و«الأعلام» (٣/٣٠١-٣٠٢)، و«معجم المؤلفين» (٥/١٢٨-١٣١).

وقد ابتدأ جلال الدين المحلي تفسيره من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، ثم ابتدأ بتفسير الفاتحة، وبعد أن أتمها اخترمته المنية فلم يُفسّر ما بعدها، فجاء السيوطي وكَمَّل تفسير المحلي - في مدة ميعاد الكليم؛ أي: أربعين يوماً! -، فابتدأ بتفسير سورة البقرة، وانتهى عند آخر سورة الإسراء، وجعل السيوطي تفسير الفاتحة في آخر تفسير المحلي؛ لتكون منضمة لتفسيره^(١). وبعد أن اكتمل هذا التفسير انتشر بأيدي الناس واشتهر وقرّر في المعاهد وقرأ في المساجد.

مصادر الكتاب:

اعتمد الجلالان على عدة مصادر في هذا التفسير منها:
التفسير الكبير والصغير لأحمد بن يوسف كواشي^(٢)، ويعرف الأول بـ «تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر»، والثاني هو مختصره الموسوم بـ «التلخيص في تفسير القرآن العظيم»، وقد اعتمد عليهما المحلي، واعتمد السيوطي عليهما واقتبس من وضع المحلي واستفاد منه، واستفاد أيضًا من «الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» للواحدي، و«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للبيضاوي، و«تفسير القرآن العظيم» لابن كثير.

(١) ينظر مقدمة البقرة وخاتمة الإسراء للسيوطي (ص ٣)، و(ص ١٠٧٨)، و«حاشية الجمل» (٧/١)، (٧٠٧/٢) وما بعدها.

(٢) أحمد بن يوسف بن الحسن بن رافع بن الحسين بن سويدان الشيباني الموصلي، موفق الدين أبو العباس الكواشي، عالم بالتفسير، من فقهاء الشافعية، من أهل الموصل، من كتبه: «تبصرة المتذكر» في تفسير القرآن، و«كشف الحقائق» ويعرف بـ «تفسير الكواشي»، و«تلخيص في تفسير القرآن العزيز»، نسبته إلى كواشة أو كواشي، قلعة بالموصل. وكف بصره بعد بلوغه السبعين، وتوفي سنة ٦٨٠ هـ. ينظر: «النجوم الزاهرة» (٧/٣٥٢)، «هدية العارفين» (١/٩٨)، «الأعلام» (١/٢٧٤).

كما أشار السيوطي في ترجمته للإمام أحمد بن يوسف كواشي في بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة؛ فقال: «وله التفسير الكبير، والصغير، جود فيه الإعراب، وحرر أنواع الوقوف، وأرسل منه نسخة إلى مكة والمدينة والقدس.

قلت: وعليه اعتمد الشيخ جلال الدين المحلي في تفسيره، واعتمدت عليه أنا في تكملته مع الوجيز وتفسير البيضاوي وابن كثير^(١).

عناية العلماء بالكتاب:

حظي تفسير الجلالين باعتراف الناس وطلاب العلم للآتي:

- كونه أوجز التفاسير وأخصرها، وقد ذكر حاجي خليفة عن بعض علماء اليمن أنه قال: «عددت حروف القرآن وتفسيره للجلالين؛ فوجدتهما متساويين إلى سورة المزمّل، ومن سورة المدثر التفسير زائد على القرآن، فعلى هذا يجوز حمله بغير الوضوء»^(٢).

- اعتراف الكثير من أهل العلم بتدريسه، والإجازة فيه، وتقديره في المعاهد الشرعية.

- كثرة الحواشي والتعليقات التي أظهرت معناه، وكشفت عن كثير مما خفي.

وقد قام الكثير بشرحه، والتعليق عليه، وتوضيح دقائقه في مؤلفات وحواش كثيرة، منها المطبوع والمخطوط، والمفقود، والناقص، تزيد على الثلاثين، وأهمها^(٣):

(١) «بغية الوعاة» (١/٤٠١).

(٢) ينظر: «كشف الظنون» (١/٤٤٥).

(٣) ينظر: «جامع الشروح والحواشي» (١/٦٠٩-٦١٣).

- ١ - «مجمع البحرين ومطلع البدرين على تفسير الجلالين» لمحمد بن محمد الكرخي، توفي سنة (١٠٠٦هـ) في أربع مجلدات، وحققت أجزاء منه في رسائل جامعية، وله حاشية صغرى عليه^(١).
- ٢ - «حاشية الجمالين على الجلالين» للملا علي القاري، توفي سنة (١٠١٤هـ) طبع جزء منها^(٢).
- ٣ - «حاشية على تفسير الجلالين» لعبد الرحمن بن محمد القصري، الفاسي، المالكي، توفي سنة (١٠٣٦هـ)، طبع جزء منها في المغرب عام (١٤٣٦هـ) بتحقيق الدكتور السيد حسن عزوزي، نشره المجلس العلمي المحلي لإقليم مولاي يعقوب^(٣).
- ٤ - «كتاب الكوكبين النيرين في حل ألفاظ الجلالين» لعطية بن عطية الأجهوري، توفي سنة (١١٩٠هـ)، وحققت أجزاء منه في رسائل جامعية^(٤).
- ٥ - «الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين بالدقائق الخفية» والمعروفة بحاشية الجمل لسليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهرري، المعروف بالجمل، توفي سنة (١٢٠٤هـ)، وهو مطبوع مشهور.
- ٦ - «حاشية الكمالين على الجلالين» لسلام الله بن فخر الدين الدهلوي، المتوفي سنة (١٢٢٩هـ)، وقيل (١٢٣٣هـ)، طبعت سنة (١٣٨١هـ).

(١) ينظر: «كشف الظنون» (١/٤٤٥)، و«خلاصة الأثر» (٤/١٥٢)، و«الأعلام» (٧/٦١)، و«إيضاح المكنون» (٤/٤٣٣)، و«هدية العارفين» (٢/٢٦٣)، و«معجم المؤلفين» (١١/٢٦١).

(٢) ينظر: «كشف الظنون» (١/٤٤٥)، «الأعلام» (٥/١٢)، «هدية العارفين» (١/٧٥١).

(٣) ينظر: شجرة النور الزكية (١/٤٣٣)، و«معجم المؤلفين» (٥/١٩٤).

(٤) ينظر: الأعلام (٤/٢٣٧)، و«إيضاح المكنون» (٤/٣٩٥)، و«هدية العارفين» (١/٦٦٥) و«معجم المؤلفين» (٦/٢٨٧).

- ٧- «حاشية على الجلالين» لأحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي، توفي سنة (١٢٤١هـ)، وهو مطبوع مشهور.
- ٨- «حاشية على تفسير الجلالين» لمحمد بن صالح أبي السعود السباعي، توفي سنة (١٢٦٨هـ)، وهو في ثلاث مجلدات مخطوطة^(١).
- ٩- «قرة العين ونزهة الفؤاد» لعبد الله بن محمد الشافعي النبراي، توفي سنة (١٢٧٥هـ)، هي حاشية على تفسير الجلالين في أربع مجلدات، مخطوطة، وقد حققت أجزاء منه في رسائل جامعية^(٢).
- ١٠- «التعليق على الجلالين» لعبد الرزاق عفيفي، توفي سنة (١٤١٥هـ)، من سورة غافر إلى سورة الناس ضمن مقرر التفسير بالمعاهد العلمية.
- ١١- «قرة العينين على تفسير الجلالين» لمحمد أحمد كنعان، توفي سنة (١٤٣٢هـ)، أضاف إلى التفسير ما تدعو الحاجة إليه، وعلّق على بعض المواضع منه، وخرّج أحاديثه، طبعته شركة دار البشائر.
- ١٢- «تنبيهات مهمة على قرة العينين على تفسير الجلالين» لمحمد بن جميل زينو، توفي سنة (١٤٣١هـ)، وهو تنبيهات على بعض الأخطاء الواقعة في الكتاب السابق، وجعل فصلاً في ذكر تنبيهات مفيدة لمحمد كنعان.
- ١٣- «تهذيب تفسير الجلالين» لمحمد لطفي الصباغ، توفي سنة (١٤٣٩هـ)، طبعه المكتب الإسلامي.
- ١٤- «أنوار الهلالين في التعقبات على الجلالين» لمحمد بن عبد الرحمن الخميس، وهو تعقبات على بعض الأخطاء العقدية. طبعته دار الصميعي.

(١) ينظر: «الأعلام» (١٦٤/٦)، و«إيضاح المكنون» (٣٠٤/٣) و«هدية العارفين» (٣٧٣/٢)، و«معجم المؤلفين» (٨٣/١٠).

(٢) ينظر: «الأعلام» (١٣١/٤)، و«معجم المؤلفين» (١٤٢/٦)، و«معجم المفسرين» (٣٢٦/١).

١٥ - «حاشية هداية الموحدين على تفسير الجلالين» لهشام برغش،

طبعته مدار الوطن.

مذهب الجلالين العقدي:

ومما يؤخذ على هذا التفسير: أن مؤلفيه لم يلتزما منهج أهل السنة والجماعة في مسائل الأسماء والصفات التي أجمع السلف على إثباتها، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل؛ فوقعوا في زلات عفا الله عنهما؛ فقد سلكا مسلك التأويل لكثير من الصفات على طريقة الأشاعرة، وقد علق شيخنا عليها وحرّر مذهب أهل السنة والجماعة بما يقتضيه المقام بسطاً وإيجازاً.

نسأل الله أن يجزي شيخنا خير ما يجزي به العلماء الصادقين والدعاة الناصحين والأئمة المصلحين، كما نسأله **جَلَّ وَعَلَا** أن يتعمد العلامتين المحلي والسيوطي برحمته ويعفو عنها بمنه وكرمه؛ إنه غفور رحيم.

مقدمة التعليق

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أما بعد: فقد أشار عليّ بعض الإخوة الفضلاء أن أعلق على المواضع التي فيها مخالفة لعقيدة أهل السنة من «تفسير الجلالين»، فاستحسنت ذلك، ولكنني رأيت التعليق على جميع الكتاب مما يتعلّق بالعقيدة وغيرها، وذلك بتوضيح مُراد المؤلف من عبارته في تفسير الآيات.

ثم بدا لي أن أكتب تفسيراً على الآية - على وجه الإجمال والاختصار - قبل التعليق، ممّا فهمته منها وممّا حصل لي من قراءتي في بعض التفاسير، فصار ذلك تفسيراً مستقلاً متبوعاً بالتعليق على كلمات مؤلف تفسير الجلالين، فحصل بذلك الجمع بين التفسير والتعليق تكاملاً وتماماً فائدة في تفسير الآية. وقد أكتفي في بعض المواضع بتفسير الجلالين مع التعليق عليه إذا رأيت ذلك مُغنياً عن تفسيرٍ مُستقلٍّ للآية.

والمنهج الذي اتبعته في هذا: أن أسوق الآية أو الآيات أولاً، ثم أذكر تفسيرها، ثم أذكر نصّ تفسير الجلالين، وأتبعه بالتعليق عليه. أسأل الله أن يجعله عملاً خالصاً ومُعِيناً على فهم كتابه تعالى.

قال الإمام جلال الدين المحلي:

(سورة الفاتحة)

مكيّةٌ، سبعُ آياتٍ بالبسملة إن كانت منها، والسابعةُ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾ إلى آخرها، وإن لم تكن منها فالسابعةُ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ﴾ إلى آخرها، ويُقدَّرُ في أولها «قولوا» ليكون ما قبل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مناسباً له بكونه من مَقُولِ الْعِبَادِ.

قوله: (بالبسملة إن كانت منها): أي: إن كانت البسملة آيةً من الفاتحة، وفي ذلك قولان، والصواب: أنها ليست آيةً من الفاتحة^(١) بدليل الحديث القدسي؛ قال الله: ((قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ)) - يعني: الفاتحة - ((فَإِذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ قَالَ اللَّهُ: حَمْدُنِي عَبْدِي...))^(٢) الحديث، فبدأ بالحمد لله رب العالمين، ولم يذكر البسملة.

وقوله: (ويُقدَّرُ في أولها «قولوا»): لأنَّ الفاتحةَ كُلَّهَا تعليمٌ من الله لعباده المؤمنين، وقد تضمَّنت الحمدَ والثناءَ والتمجيدَ لله، والتوحيدَ والدعاءَ، فالمسلمُ يقرأها يقصدُ تلاوةَ كلامِ الله، ويقصدُ معانيها المذكورة، ومَن يقرأها غافلاً عن معانيها يكون قاصداً للتلاوة فقط فله أجرُ التلاوة؛ لأنَّ التلاوةَ مع الغفلة عن المعنى تكون ناقصةً.

(١) وهو مذهب مالك وأبي حنيفة ورواية عن أحمد هي المنصورة عند أصحابه، ومذهب جمهور الفقهاء والقراء. ينظر: «المجموع شرح المهذب» (٣/٣٣٣-٣٤٠)، و«المغني» (٢/١٥١-١٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١/٩٢-٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (١/١١٦-١١٧)، و«النشر في القراءات العشر» (١/٢٧٠-٢٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: (ليكون ما قبل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مناسباً له): يريد أن تقدير «قولوا»
 يجعل ما قبل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ - وهي الآيات الثلاث - إنشاءً من العبد بتعليم الله،
 حمداً وثناءً وتمجيذاً، ويؤيده قوله تعالى في الحديث القدسي: ((حمدني
 عبدي، أثنى علي عبدي، مجّدني عبدي))، وعليه يكون قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
 نَسْتَعِينُ﴾ التفاتاً، وهو انتقال من الغيبة إلى الحضور.



قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

الباء للاستعانة، والاسم هو اللفظ الدالُّ على المسمَّى، فالمعنى: استعينوا بالله ذاكراً لاسمه، كقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، الحاقة: ٥٢]، و﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

و﴿اللَّهُ﴾: أشهرُ أسمائه تعالى، والجامع لمعاني أسمائه وصفاته^(١)، وأصلُ كلمة الله الإله، فحذفت الهمزة وأدغمت اللام في اللام مع التفخيم^(٢).
﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: اسمان من أسماء الله يدلان على صفة الرحمة، والفرق بينهما أنَّ الرَّحْمَنَ يدلُّ على الرحمة الذاتية، وقيل: الرحمة العامة، والرَّحِيمَ يدلُّ على الرحمة الفعلية، وقيل: الرحمة الخاصة^(٣).



(١) ينظر: «بدائع الفوائد» (٧٨٢/٢)، و«التعليق على القواعد المثلى» لشيخنا (ص ٤٩-٥٠).
(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢٣-١٢١/١)، و«الكتاب» لسيبويه (١٩٥-١٩٦)، و«لسان العرب» (٤٦٧/١٣)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص ٢٣-٣٢)، و«بدائع الفوائد» (٧٨٢/٢).

(٣) هذا قول ابن القيم كما في «بدائع الفوائد» (٤٢/١)، واختاره شيخنا في «توضيح مقاصد العقيدة الواسطية» (ص ٦٧)، و«التعليقات على المخالفات العقدية في فتح الباري» (ص ١٠٤ رقم ٦٧). وينظر أقوال أخرى في التفريق بينهما في: «تفسير الطبري» (١٢٥-١٢٩)، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص ٢٨)، و«شأن الدعاء للخطابي» (٣٩-٣٥/١)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص ٣٨-٤٣).

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

«ال» في ﴿الْحَمْدُ﴾ للاستغراق، واللام في ﴿لِلَّهِ﴾ للاستحقاق، المعنى: الحمد كله مُستحقُّ لله، والجملة إنشاءً للحمد من العبد لربه، وهي خبرٌ من الله مدحاً لنفسه، وتعليماً لعبده، والربُّ: هو: المالكُ المنعمُ، المربي بالنعم، المستحقُّ للعبادة^(١).

و﴿الْعَالَمِينَ﴾: جمعُ عالمٍ، والمرادُ بهم في هذا الموضع: جميعُ الخلق، فكلُّ جنسٍ من المخلوقات عالمٍ، تقول: عالمُ الإنس، وعالمُ الجنِّ، وعالمُ الملائكة، وعالمُ الحيوان، وغير ذلك.

وقد يُرادُ بالعالمين: الجنُّ والإنسُ فقط؛ كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٢) [الفرقان: ١]، وقد لا يُرادُ بهم إلا البشر؛ كقوله تعالى - في بني إسرائيل -: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣) [البقرة: ٤٧، ١٢٢] (٢).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: جملةٌ خبريةٌ قُصد بها الثناءُ على الله بمضمونها من أنه تعالى مالكٌ لجميعِ الحمد من الخلق، أو مُستحقُّ لأن يحمده. و﴿الله﴾: علَمٌ على المعبود بحق. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي مالك جميع الخلق من الإنس والجنِّ والملائكة والدواب وغيرهم، وكلُّ منها يُطلقُ عليه «عالمٌ»، يقال: عالمُ الإنس وعالمُ الجن إلى غير ذلك، وغلب في جمعه بالياء والنون «أولو العلم» على غيرهم. وهو من العلامة؛ لأنه علامةٌ على مُوجده.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١/١٤٢-١٤٣)، و«اشتقاق أسماء الله» (ص ٣٢-٣٦)، و«شأن الدعاء» (ص ٩٩-١٠٠)، و«مجموع الفتاوى» (١٤/١٢-١٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/١٤٤-١٤٧)، و«نزهة الأعين النواظر» لابن الجوزي (ص ٤٤٤-٤٤٦، رقم ٢١٤).

وقول المؤلف: (جملة خبرية): أي من حيث اللفظ، أمّا من حيث المعنى فهي مدحٌ وثناءٌ على الله، ولهذا قال المؤلف: (قصد بها الثناء على الله بمضمونها).

وقوله: (مالك... أو مستحق): إشارة إلى أن اللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾: يُحتمل أن تكون للملك أو للاستحقاق، والأظهر: أنها للاستحقاق^(١).
 وقوله: (والله عَلَّمَ على المعبود بحق): هذا الاسم «الله» مختصُّ بربِّ العالمين، وهو الإله الحقُّ المعبودُ بحق، ولكن هذا الاسم ليس علمًا محضًا بل هو عَلْمٌ وصفةٌ؛ لأنَّ أصلَ اللفظ مُشتقٌّ، فأصلُ الله إله، بمعنى: مألوه أي: معبود، فحُذفت الهمزة، وأُدغمتِ اللامُ في اللام مع التفتيح كما تقدّم.
 وقوله: (وجُمع بالياء والنون)؛ أي: جُمع العالمُ جمعَ مذكّرٍ سالمٍ مع أنَّ العوالمَ منها ما يَعقلُ ومنها ما لا يَعقلُ، وما لا يَعقلُ لا يُجمعُ جمعَ مذكّرٍ، ولكن يقول المؤلف: غَلَبَ أولوا العلم؛ يعني: أولوا العقل؛ أي: غلبَ مَنْ يَعقلُ على ما لا يعقل فجمع جمعَ مذكّرٍ سالمٍ. والصحيحُ أنَّ عالمٌ قد فقد فيه ثلاثة شروطٍ من شروط ما يُجمعُ جمعَ مذكّرٍ سالمٍ:
 الأول: أنَّ العالمَ ليس بعَلْمٍ ولا صفة، وهذا شرطٌ فيما يُجمعُ جمعَ مذكّرٍ سالمٍ.

الثاني: أن يكون مذكّرًا حقيقيًا، والعالمُ مذكّرٌ لفظًا.
 الثالث: أن يكون ما يُجمعُ جمعَ مذكّرٍ سالمٍ عاقلًا، والعالمُ منه ما يعقلُ ومنه ما لا يعقلُ كما تقدّم.
 ولهذا كان الصواب: أنَّ العالمين مُلحقٌ بجمعِ المذكّرِ السالمِ.

(١) لأنها داخله بين معنى وذات. ينظر: «اللغات» للزجاجي (ص ٦٥)، و«مغني اللبيب» (ص ٢٧٥)، و«حاشية الصبان على الأشموني» (٢/ ٣٢٠).

وقوله: (وهو من العلامة): يريد أن العالم والعالمين سُمِّيَ بذلك لأنه دالٌّ على موجدِه، فكلُّ مخلوقٍ هو علامةٌ على الخالق سبحانه، وهذا معنى قول المؤلف: أن العالم مأخوذٌ اسمه من العلامة، والعلامة ما يعرف به الشيء ويدلُّ عليه^(١)، ويقال: له أيضًا آية، والآية والآيات بهذا المعنى هي الآيات الكونية، وهي: المخلوقات. والآية والآيات في القرآن يُرادُ بها في الغالب الآيات الكونية؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ [البقرة: ٢٤٨]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ [يونس: ٦٧]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ [الروم: ٢٠]، ويُرادُ بها تارةً الآيات الشرعية، وهي: آيات القرآن؛ كقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ [يونس: ١]، ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧].



(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (١/٥٥)، و«تفسير البغوي» (١/٥٢)، و«تفسير ابن عطية» (١/٧٤)، و«الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد» للهمداني (١/٧٥).

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

ما يتعلّق بهذين الاسمين تقدّم في البسملة، وقال الله في الحديث القدسي: ((وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي)).

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أي: ذي الرحمة، وهي إرادة الخير لأهله.

وقول المؤلف: (أي: ذي الرحمة، وهي إرادة الخير لأهله): تفسير الرحمة بالإرادة مبنيٌّ على نفي حقيقة الرحمة، وهو من مذهب الأشاعرة الذين لا يُثبتون إلا سبعا من الصفات^(١)، ومنها الإرادة، فيفسرون بها كثيرا من الصفات التي ينفونها؛ كالرحمة والغضب والمحبة والبُغض، والواجب إثبات هذه الصفات على حقيقتها اللائقة بالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** كما هو ظاهر القرآن، فالاسمان دالّان على أنّ الرحمة صفةٌ لله -تعالى- قائمةٌ به.



(١) وقد انتقد شيخ الإسلام هذا التقسيم عندهم. ينظر: «درء التعارض» (٣/ ٢١-٢٢)، و«بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٣٣٠)، و«موقف ابن تيمية من الأشاعرة» للمحمود (٣/ ١٠٤٩).

قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

«يوم الدين»: أحد أسماء يوم القيامة، ومعناه: يوم الجزاء والحساب للعباد على الأعمال.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: الجزاء، وهو يوم القيامة، وُحِصَّ بالذكر لأنه لا ملك ظاهراً فيه لأحدٍ إلا لله تعالى، بدليل: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ﴾ [غافر: ١٦]. ومن قرأ «مالك» فمعناه: مالك الأمر كله في يوم القيامة؛ أي: هو موصوفٌ بذلك دائماً كـ ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ [غافر: ٣]، فصَحَّ وقوعه صفةً للمعرفة.

وقول المؤلف: (حُصَّ بالذكر): معناه: حُصَّ يوم الدين بأن الله ملكه، والملك فيه له سبحانه مع أنه تعالى مالك الدنيا والآخرة، ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٣]، وَيُبَيِّنُ المؤلفُ وجهَ التخصيص بقوله: (لأنه لا ملك ظاهراً فيه لأحدٍ إلا لله تعالى)، بخلاف الدنيا ففيها ملوكٌ لكن ملكهم عارية، وهم: ذاهبون، ولهذا في الحديث الصحيح: أن الله إذا أخذ الأرض والسموات بيديه يقول: ((أنا الملك، أين ملوك الأرض؟))^(١)، فلا ملك لأحد يوم القيامة سواه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

وقوله: (ومن قرأ «مالك»...) إلى آخره: يدلُّ على أن في الكلمة قراءتين، و﴿مَلِكِ﴾ بلا ألف قراءة الجمهور^(٢)، واختارها ابن جرير^(٣). ووجه التخصيص بـ «يوم الدين» مثل: وجه التخصيص على القراءة الأولى.

- (١) رواه البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٢) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وأبو حاتم وخلف بإثبات ألف بعد الميم لفظاً، وقرأ الباقون بغير ألف. ينظر: «النشر في القراءات العشر» ١/ ٢٧١.
- (٣) «تفسير الطبري» (١/ ١٥٠).

وقوله: (أي: هو موصوفٌ بذلك دائماً): يريد أن إضافة الملك ليوم الدين يحتمل أنه ليس للتقييد والتخصيص بل ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ اسمٌ لله وصفةٌ له دائماً، وعلى هذا فيكون الاسم معرفةً بالعلمية، وعلى الأول يكون: معرفةً بالإضافة، فيصحُّ أن يكون صفةً للمعرفة على التقديرين، ولهذا قال المؤلف: (فصحَّ وقوعه صفةً للمعرفة)، لكن عبارته توهم أنه لا يصحُّ وقوعه صفةً للمعرفة إلا على التقدير الثاني.

ومضمون هذه الآية تمجيدُ الربِّ بوصفه بالملك في يوم الدين على قراءة الجمهور، وبمالك يوم الدين على القراءة الأخرى، وفي الحديث القدسي: ((وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال الله: مجدني عبدي)).



﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نخصُّك بالعبادة من توحيدٍ وغيره، ونطلبُ منك المعونة على العبادة وغيرها.

قوله: (نخصُّك بالعبادة): معناه: لا نعبدُ إلا إياك، وهذا قصرٌ أفاده تقديم المعمول وهو الضمير المنفصل المنسوب «إياك»، فتضمَّنت الآية توحيدَ العبادة.

وقوله: (ونطلبُ منك المعونة على العبادة وغيرها): كان الأولى أن يقول: ونخصُّك بطلب المعونة على العبادة وغيرها فلا نستعينُ غيرك؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يفيدُ القصر؛ كالجمله التي قبلها، فدلت الآية على توحيده سبحانه بالعبادة وبالاستعانة، فتضمَّنت الآية توحيدَ الإلهية في الجملة الأولى، وتوحيد الربوبية في الجملة الثانية، فكما لا معبودَ بحقٍ إلا الله؛

فلا مُستعانَ على الأمور كلها إلا الله، وتقديمُ العبادة على الاستعانة؛ قيل: هو من تقديم الغاية على الوسيلة^(١).

والعبادة هي: كمالُ المحبة مع كمالِ الذلِّ^(٢)، وهي: أيضًا اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة^(٣).

والاستعانة: طلبُ العون كما يفيد ذلك: «السين والتاء»؛ كالاستعاذة والاستغفار.

ويحسنُ التنبيةُ إلى أن مضمونَ الآيات الثلاث - وهو ما تدلُّ عليه من أسماء الله وصفاته - هو المقتضي لما تدلُّ عليه الآية الرابعة من التوحيد في العبادة والاستعانة.

وفي الآية الرابعة انتقالٌ من الغيبة إلى الخطاب، وهو ما يُسمَّى عند البلاغيين التفاتًا، وفي الحديث القدسي: «(فإذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال الله: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سألت)، ومعنى ذلك: أن العبادة لله والعون للعبد من الله.



(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨٤/١٠)، و«مدارج السالكين» (١١٧/١). تنبيه: في بعض كتب التفسير في هذا الموضوع مخالفات عقدية، والكلام عن الاستعانة هل هي قبل الفعل أو معه، ونحو ذلك؛ فليتبه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٩، ٥٦، ١٥٣، ٢٥١)، و«مدارج السالكين» (١١٥-١١٦)، و«التدمرية وشرحها» (ص ٤٨١).

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/١٤٩)، و«شرح التدمرية» لشيخنا (ص ٤٨١).

قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾... ﴿٦﴾ إلى آخر السورة.

هذا هو السؤال المشار إليه في الحديث القدسي، وقد تضمن سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم وهو: دين الإسلام الذي هو الدين عند الله، وهو: دين النبيين والمرسلين^(١). ومعنى «الصراط» في اللغة: الطريق المسلك الواضح الواسع المستقيم الموصل إلى المقصود^(٢).

والهداية المذكورة تشمل الهديتين: هداية الدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق، وكلاهما تطلب من الله^(٣).

والمراد بـ ﴿الَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: هم المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وهذا الصراط يُضاف إلى الله لأنه هو الذي شرعه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ويُضاف إلى المنعم عليهم لأنهم سالكوه كما في هذه الآية، ويُضاف إلى الرسول لأنه الدال عليه والداعي إليه كما في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]^(٤).

(١) جاء هذا التفسير مرفوعاً للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما رواه أحمد (١٧٦٣٤)، والحاكم (٢٤٥) عن النواس بن سمعان عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً... ثم قال: والصراط الإسلام». وروي أيضاً هذا التفسير: عن ابن مسعود، وابن عباس، وجابر بن عبد الله، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن الحنفية، ومقاتل، ورويت أقوال أخرى، وهي من اختلاف التنوع الذي منشأه تعدد الصفات أو الأسماء التي تكون لمسمى واحد. ينظر: «تفسير الطبري» (١/١٧٣-١٧٥).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٧/٣١٤)، و«بدائع الفوائد» (٢/٤١٦-٤١٧).

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/١٧١-١٧٢)، و«بدائع الفوائد» (٢/٤٤٥-٤٤٨).

(٤) ينظر: «الانتصار لأهل الأثر» (ص ٨٢)، و«مدارج السالكين» (١/١٥-١٦).

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: اهدنا طريق غير المغضوب عليهم والضالين، وهم: المنعم عليهم، واجنبنا طريق المغضوب عليهم والضالين، فتضمن هذا الدعاء سؤال الهداية لطريق المفلحين، وتجنب طريق الهالكين.

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: أرشدنا إليه، ويبدل منه: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالهداية، ويبدل من «الذين» بصلته ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود ﴿وَلَا﴾ وغير ﴿الضَّالِّينَ﴾ وهم النصارى. ونكتة البدل أفادت أن المهتدين ليسوا يهودًا ولا نصارى.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا أبدًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقول المؤلف: (أرشدنا إليه): فسّر الهداية إلى الصراط بالإرشاد، وهذا تفسير للهداية بأحد معنيها، فإن الهداية من الله لها معنيان: هداية الإرشاد والدلالة والبيان، وهداية التوفيق، والصواب: أن قوله: ﴿أَهْدِنَا﴾ شاملٌ للنعوين كما تقدّم.

وقوله: (ويبدل منه): يريد أن صراط الثاني بدل من الأول، فهو منصوبٌ بناصبه.

وقوله: (بالهداية): يريد أن النعمة التي أنعم الله بها على أوليائه هي الهداية إلى الصراط المستقيم بنوعها.

وقوله: (ويبدل من «الذين» بصلته): يريد أن «غير» بدل من الموصول ﴿الَّذِينَ﴾، فإن محله الجر بالإضافة، ومن تفسير القرآن بالقرآن أن الذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ﴾

مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴿النساء: ٦٩﴾. وقوله: (بصلته): يريد جملة ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّ الاسم الموصول لا يُعرَفُ المرادُ به إلاَّ بصلته.

وقوله: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ وهم النصارى: صحَّ هذا التفسيرُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١) ويشهد له آياتٌ من القرآن؛ كقوله تعالى في اليهود: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقوله في النصارى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

(١) أخرجه أحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٥٣)، و(٢٩٥٤)، وابن حبان (٧٢٠٦) من طريق سماك بن حرب، عن عباد بن حبيش، عن عدي بن حاتم، به. قال الترمذي: «حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب». وسماك صدوق في غير روايته عن عكرمة، التقريب (٢٦٢٤)، وعباد بن حبيش لا يُعرف إلا بهذا الخبر ولم يرو عنه غير سماك؛ لذلك قال الذهبي في «الميزان» (٤١١٢): «لا يعرف»، لكنه توبع في روايته عن عدي، تابعه مري بن قطري: أخرجه الطبري في تفسيره (١٨٦/١) من طريق محمد بن مصعب، عن حماد بن سلمة، عن سماك، به، بنحوه. وهذا إسناد لا بأس به في الشواهد؛ فإن مري بن قطري وثقه ابن معين كما في تاريخه برواية الدارمي (رقم ٧٦٦)، ومحمد بن مصعب - وهو القرقيساني - مختلف فيه، قال الحافظ: «صدوق كثير الغلط»، التقريب (٦٣٠٢).

وله طريق آخر: رواه الطبري (١٩٤/١) عن أحمد بن الوليد الرملي، عن عبد الله بن جعفر الرقي، عن سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم به. وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات رجال الشيخين؛ غير أحمد بن الوليد الرملي، وهو أبو بكر الأمي البغدادي؛ فقد ترجم له الخطيب وسكت عنه. «تاريخ بغداد» (٤١٩/٦)، رقم (٢٩١٢).

وله شاهد من حديث أبي ذر؛ ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٢/١) من رواية ابن مردويه من طريق عبد الله بن شقيق عنه. وقد حسن ابن حجر إسناده في «الفتح» (١٥٩/٨). والحديث صححه وأثبتته جمع من أهل العلم، منهم ابن حبان، وابن تيمية في «درء التعارض» (١٦٦/١)، و«مجموع الفتاوى» (٦٤/١)، و«منهاج السنة» (١١-١٢/٢)، وابن أبي العزفي في «شرح الطحاوية» (٨٠٠/٢)، والألباني في «الصحيحة» (٣٢٦٣).

وقوله: ﴿وَلَا﴾ وغير): يريد أن ﴿لَا﴾ بمعنى غير، فيكون المعنى: غير المغضوب عليهم وغير الضالين.

وقوله: (ونكته البدل...) إلى آخره: يريد أن جعل ﴿غَيْر﴾ بدل من الموصول ﴿الَّذِينَ﴾؛ ليفيد أن الذين أنعم الله عليهم ليسوا يهودًا ولا نصارى، فدلَّت الآية على طوائف الناس الثلاث:

الأولى: المنعم عليهم، المهتدون، الذين علموا الحقَّ واتبعوه وعملوا به.
الثانية: المغضوب عليهم، وهم الذين علموا الحقَّ فعاندوه ولم يعملوا بما علموا.

الثالثة: الضالون، وهم: الذين لم يعلموا الحقَّ، وعملوا بلا علم. فالأولون هم أهل الصراط المستقيم. والآخرون هم: الناكبون عن الصراط؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٤]، وفي الحديث القدسي: ((فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل))، فنسأل الله أن يجعلنا من أهل هذا الوعد الكريم من الربِّ الرحيم.



قال المؤلف جلال الدين السيوطي في مقدمة تفسيره:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله حمداً موافياً لنعمه مكافئاً لمزيده،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وجنوده.
هذا ما اشتدَّت إليه حاجةُ الراغبين، في تكملة تفسير القرآن الكريم،
الذي أَلَفَهُ الإمامُ المحقِّقُ جلالُ الدين محمد بن أحمد المحلِّي الشافعي
رَحِمَهُ اللهُ وتتميمُ ما فاتَه - وهو من أول سورة «البقرة» إلى آخر «الإسراء» -
بتممةٍ على نمطه، من ذكر ما يُفهمُ به كلامُ الله - تعالى - والاعتماد على
أرجح الأقوال، وإعرابٍ ما يُحتاج إليه، وتنبيةٍ على القراءاتِ المختلفةِ
المشهوره، على وجهٍ لطيفٍ وتعبيرٍ وجيزٍ، وتركِ التّطويلِ بذكرِ أقوالٍ غيرِ
مرضيةٍ وأعرابٍ محلَّها كتبُ العربيةِ.
والله أسألُ النفعَ به في الدنيا، وأحسنَ الجزاءَ عليه في العقبى، بمنَّه
وكرمه.

قولُ المؤلف: (الحمدُ لله حمداً موافياً لعمه مكافئاً لمزيده): هذا اللفظُ
مُقتبسٌ من حديثِ ذكر ابنِ القيم أنه لا يصحُّ عن النبي ولم يُروَ بإسنادٍ صحيح
ولا ضعيف، وإنما يُروى عن أبي نصر التمار^(١) عن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢)، قال ابن

(١) أبو نصر التمار: عبد الملك بن عبد العزيز، من أبناء أهل خراسان من أهل نسا، ونزل بغداد،
وتجر بها في التمر وغيره، وكان ثقةً فاضلاً، خيراً ورعاً، وثقه: أبو داود، والنسائي، وأبو
حاتم. توفي ببغداد سنة (٢٢٨هـ). ينظر: «الطبقات» لابن سعد (٧/٣٤٠)، و«سير أعلام
النبلاء» (١٠/٥٧١، رقم ١٩٩).

(٢) رواه أبو نصر التمار، عن محمد بن نصر الحارثي، عن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، به. كما قال ابن الصلاح
في «شرح مشكل الوسيط» (٤/٣١٦-٣١٧)، والنووي في «الأذكار» (ص ١١٣-١١٤)،
وابن حجر في «التلخيص» (٥/٣١٢٥)، و«تنتائج الأفكار» (٣/٢٨٨-٢٨٩).

القيم: «ولا يدري كم بين آدم وأبي نصرٍ إلا الله عزَّجَل»^(١)، ولا بن القيم رسالة تكلم فيها عن أصل هذا الحديث ومعناه^(٢)، ويبيِّن أنه لا يصح رواية ولا معنى، وذلك أنه لا أحد من الخلق يقدر على أن يحمداً الله حمداً يوافي نعمه كمًّا ولا كيفاً^(٣)؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لا أحصي ثناءً عليك))^(٤)، ورحم الله المؤلف وعفا عنه. وقوله: (سيدنا): لو قال نبينا كان أولى؛ لأن النبوة خاصيته ومناط الإيمان به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو كذلك سيدُّ ولد آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٥)، لكن مطلق السيادة يثبت لغيره من خيار الصحابة وخيار الأمة.

= وقال ابن القيم في «فتيا في صيغة الحمد» (ص ٤-٥): إنه من رواية أبي نصر التمار، عن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بإسقاط محمد بن نصر الحارثي، والصواب هو الأول، والله أعلم. وله شاهد ضعيف عن ابن عمر، رواه البخاري في الضعفاء كما في «الترغيب والترهيب» للمنزري (٢/ ٤٤١) ت عمارة، وبيض له الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (رقم ٩٦٢).

- (١) ينظر: «فتيا في صيغة الحمد» (ص ٤-٥).
- (٢) طبعت هذه الرسالة عدة مرات، طبعت أول مرة بعنوان «مطلع السعد بكشف مواقع الحمد»، بتحقيق فهد بن عبد العزيز العسكر في دار ابن خزيمة بالرياض عام ١٤١٣هـ. ثم طبعت بعنوان «جواب في صيغ الحمد»، بتحقيق: محمد بن إبراهيم السعران في دار العاصمة في الرياض عام ١٤١٥هـ. ثم طبعت بعنوان «فتيا في صيغة الحمد»، بتحقيق عبد الله البطاطي في دار عالم الفوائد ضمن آثار الإمام ابن قيم الجوزية، وهي الرسالة السابعة منه.
- (٣) ينظر: «فتيا في صيغة الحمد» (ص ١١-١٣)، و«عدة الصابرين» (ص ٢٦٦-٢٦٧).
- (٤) رواه مسلم (٤٨٦)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
- (٥) أخرج البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أنا سيد القوم يوم القيامة، هل تدرون بم؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد...)) وذكر حديث الشفاعة.

(سورة البقرة)

مدينة^(١)، وهي مائتان وست أو سبع وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ [البقرة: ١-٥].

اختلف المفسرون في المراد بالموصول في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾^(٢)، فقيل: إنه صفة ثانية للمتقين، وهو: معطوف على الموصول في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾. وقيل: إنه معطوف على المتقين، والمراد بهم: مؤمنو أهل الكتاب، والمراد بـ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ المؤمنون من غير أهل الكتاب، وعلى هذا فهم صنفان واختاره ابن جرير^(٣)، والأظهر أن الآيتين في عموم المؤمنين من أهل الكتاب وغيرهم، وهو الصواب؛ فكلُّهم يؤمنون بالغيب، وبما أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبما أنزل من قبل ﴿وَالْآخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٤).

(١) قال ابن عباس: هي أول ما نزل بالمدينة، وهذا قول الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وجابر بن زيد، وقتادة، ومقاتل. ينظر: «تفسير ابن عطية» (١/٩٨)، و«زاد المسير» (١/٢٤)، و«تفسير ابن كثير» (١/١٥٥).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (١/٧٠)، و«تفسير ابن عطية» (١/١٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (١/١٧٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٢٤٦).

(٤) وقاله مجاهد، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٢٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (١/١٧٠).

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ أي: بالدار الآخرة، وهي: دار القيامة في مقابل دار الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٣].
وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾؛ أي: على نورٍ وبيّنة وبصيرة واستقامة وسدادٍ.

﴿الم﴾ الله أعلم بمراده بذلك ﴿ذَلِكَ﴾ أي: هذا ﴿الْكِتَابُ﴾ الذي يقرؤه محمد ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شك ﴿فِيهِ﴾ أنه من عند الله، وجملته النفي خبرٌ مبتدؤه «ذلك»، والإشارة به للتعظيم ﴿هُدًى﴾ خبرٌ ثانٍ أي: هاد ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الصائرين إلى التقوى بامثال الأوامر واجتناب النواهي لا تقائهم بذلك النار ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصدّقون ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بما غاب عنهم من البعث والجنة والنار ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يأتون بها بحقوقها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم ﴿يُنْفِقُونَ﴾ في طاعة الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: التوراة والإنجيل وغيرهما ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أَوْلَيْكَ ﴿الموصوفون بما ذُكِرَ﴾ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴿الفائزون بالجنة النَّاجُونَ مِنَ النارِ﴾.

وقول المؤلف: (الله أعلم بمراده بذلك): هذا أحد الأقوال في الحروف المقطّعة في أوائل السور كالبقرة وآل عمران والأعراف وغيرها، ومعنى: هذا القول في الحروف المقطّعة أنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وقد اختار المؤلف هذا القول^(١)، ولهذا قال: (الله أعلم بمراده)، وفيها أقوالٌ أخرى^(٢): استوفاهما الإمام ابن جرير، ورواها بالأسانيد^(٣)، واختار أن الحروف

(١) روي هذا القول عن: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود رضي الله عنهم وعامر الشعبي، وسفيان الثوري، والربيع بن خثيم. ينظر: «تفسير القرطبي» (١/١٥٤).

(٢) ينظر الخلاف في المسألة، والأقوال فيها تزيد على العشرين قولاً في: «تفسير الطبري» (١/٢٠٤-٢٢٨)، و«زاد المسير» (١/٢٥-٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (١/١٥٦-١٦٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٢٠٤-٢١٠).

المقطّعة تحتملُ كلَّ المعاني التي قيلت، ولم يذكر أنها من المتشابه الذي لا يَعْلَمُ معناه إلا الله^(١)، ومن أحسن ما قيل: أن الحروف المقطّعة إشارةٌ إلى إعجاز القرآن، وذلك أنه مؤلّفٌ من هذه الحروف التي يتألّفُ منها سائر الكلام، وقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة مثل القرآن فلم يفعلوا، واستدلَّ لهذا القول بذكر القرآن بلفظ القرآن أو الكتاب أو التنزيل في مطلع كلِّ سورة افتُتحت ببعض هذه الحروف، إلا قليلٌ من السور إما بالإشارة إليه أو إلى آياته أو القسَم به أو التَّنويه بإنزاله أو إحكامه، وهو: قولٌ حسن، ولا ينافي ما جاء عن السلف في تفسير الحروف المقطّعة^(٢).

وقوله: (أي: هذا): يريد: أن ذلك من قبيل وضع إشارة البعيد موضع إشارة القريب، وتأويل **ذَلِكَ**؛ «بهذا» عزاهُ ابن جرير إلى عامّة المفسرين^(٣)، وهو: جائزٌ في اللغة^(٤)، وقيل: إن الإشارة في الآية على بابها، وهي: للبعيد، وأنها تدلُّ على علوِّ منزلة القرآن، وقد أشار المؤلّف إلى ذلك بقوله: (والإشارة به للتعظيم)^(٥).

وقوله: (الذي يقرؤه محمد): يريد: أن «أل» في الكتاب للعهد الذّهني.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٢٢٣).

(٢) حكى هذا المذهب: الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، كما ذهب إليه الزمخشري. ينظر: «الكشاف» (١/١٣٦-١٣٨)، و«تفسير الرازي» (٢/٢٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١/١٥٥)، و«العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير» (٣/٧).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٢٢٨).

(٤) ينظر: «شرح التسهيل» (١/٢٤٨)، و«التذيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل» لأبي حيان (٣/٢٠٦) وما بعدها.

(٥) ينظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي (١/١٨٤)، و«حاشية الطيبي على الكشاف» (٢/٤٤)، و«التحرير والتنوير» (١/٢٢١).

وقوله: (لا شك): هذا تفسير للريب بالشك، وهو المشهور^(١)، وسمي الشك: ريباً لأن أصل الريب القلق والاضطراب، والشك: يؤدي إلى ذلك. وقوله: (أنه من عند الله): هذا بيان لمتعلق الشك المنفي فيكون المعنى: لا ريب في أن هذا الكتاب من عند الله. وقوله: (وجملة النفي خبر): يريد أن جملة ﴿لَا رَيْبَ﴾ فيه خبر، فهي في موضع رفع، واسم الإشارة مبتدأ. وقوله: (والإشارة به للتعظيم): يريد أن وضع إشارة البعيد موضع إشارة القريب يفيد التعظيم للكتاب. وقوله: (خبر ثان): يريد أن ﴿هُدَى﴾ خبر ثانٍ للمبتدأ الذي هو اسم الإشارة، والخبر الأول جملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. وقوله: (هاد): يريد أن ﴿هُدَى﴾ مصدرٌ بمعنى اسم الفاعل. وقوله: (الصائرين إلى التقوى): معناه: الذين صاروا متقين بلزومهم التقوى بامثال الأوامر والنواهي، بفعل المأمورات واجتناب المنهيات، وسمي امتثال الأوامر والنواهي تقوى؛ لأن العبد يتقي بذلك غضب الله وعقابه، وخص المتقين بهداية القرآن مع أنه هدى لجميع الناس؛ لأنهم المتتبعون به^(٢)، وهداية القرآن: هي هداية الدلالة والإرشاد والبيان. وقوله: (يصدقون): هذا هو المشهور في معنى الإيمان في اللغة^(٣)، ومعناه في الشرع: تصديق خاص، ويتضمن القبول والانقياد، ويشمل الاسم جميع شرائع الدين^(٤)، وهي: شُعبُ الإيمان؛ كما جاء في الحديث^(٥).

(١) ينظر: «مقدمة التفسير» لابن تيمية (ص ٥٢-٥٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٣٤-٢٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٦١).

(٣) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية بعض التنبهات المهمة في الفرق بين الإيمان والتصديق لغة. ينظر: «الإيمان الكبير» (ص ٢٢٧-٢٣٠)، و«الإيمان الأوسط» (ص ٤١٣-٤٢٣)، و«شرح الطحاوية» لشيخنا (ص ٢٢٩-٢٣٠).

(٤) ينظر: «الإيمان الكبير» (ص ٢٢٦)، و«جواب في الإيمان ونواقضه» لشيخنا (٧-١٣).

(٥) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: (بما غاب عنهم): يُفهم منه أن الغيب مصدرٌ؛ بمعنى: اسم الفاعل.
 وقوله: (من البعثِ والجنةِ والنارِ): لو قال: كالبعثِ والجنةِ والنارِ كان
 أولى؛ لأنَّ الغيب الذي يجب الإيمانُ به أعمُّ من ذلك فيدخل فيه الملائكةُ،
 والعرشُ، وأخبارُ الأممِ الماضية، وغير ذلك، وأعظم ذلك ما يتعلَّقُ بشأنِ الربِّ
 تعالى، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩].
 وقوله: (بحقوقها): أي بما يجب لها وفيها من الشروط والأركان
 والواجبات.

وقوله: (في طاعةِ الله): يريد: أنهم يُنفقون النفقاتِ الواجبة والمستحبة،
 ولا يخرجون عن ذلك، وأوجبُ النفقاتِ: الزكاة المفروضة، ولذا يأتي الإنفاق
 مقرِّناً بإقام الصلاة في كثيرٍ من الآيات.
 وقوله: (يَعْلَمُونَ): أي علمَ اليقين.
 وقوله: (الموصوفونَ بما ذُكِرَ): أي من قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله:
 ﴿يُوقِنُونَ﴾، وعليه فتشمل الآياتُ المؤمنين من هذه الأمة، ومن أهل الكتاب،
 فاسم الموصول في الآيتين: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا
 أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾؛ صفتانٍ لموصوفٍ واحد، كما تقدَّم^(١).
 وقوله: (الفائزون بالجنةِ النَّاجُونَ مِنَ النَّارِ): يدلُّ له قوله تعالى: ﴿فَمَنْ
 زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهذا أعظم فلاح.



وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ^١ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً^٢ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^٣ [البقرة: ٦-٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي جحدوا الحق، وأصل الكفر في اللغة: السَّترُ والتغطية^(١)، والجاحدُ ساترٌ لما جحدَه.

وقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٦): خبرٌ من الله عن أولئك الكفار بأنهم مُقيمون على الكفر في حالِ إنزالهم وعدمهم، لذلك كان إنذارهم وعدمه سواءً بالنسبة لإيمانهم. ثم أخبر -تعالى- عن سبب إصرارهم على الكفر وعدم انتفاعهم بالندارة وهو الختمُ على قلوبهم وسمعهم فلا يعقلون الآياتِ ولا يسمعونها سماعَ تدبُّرٍ.

﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ﴾^(٢): غطاءٌ يمنعهم من النظر في آيات الله نظرَ تفكُّرٍ واعتبارٍ. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٧): وهو عذابُ جهنم الذي يصلُّونه يومَ القيامة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كَأبي جهلٍ وأبي لهبٍ ونحوهما ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ بتحقيقِ الهمزتين، وإبدالِ الثانية أَلْفًا وتسهيلها، وإدخالِ أَلْفٍ بين المسهلة والأخرى وتركه ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لعلمِ الله منهم ذلك فلا تطمعُ في إيمانهم، والإنذارُ: إعلامٌ مع تخويفٍ^(٣). ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ طبعَ عليها واستوثقَ فلا يدخلها خيرٌ ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ أي:

(١) ينظر: «مقاييس اللغة» (٥/١٩١).

(٢) ينظر: «المفردات» للراغب الأصبهاني (ص ٦٠٧).

(٣) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٤/٣٠٤).

مواضعه، فلا يتنفعون بما يسمعونَه مِنَ الحق ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾
 غطاءٌ فلا يُبصرون الحقَّ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قويٌّ دائمٌ.

وقول المؤلف: (كأبي جهل وأبي لهب): يُيِّنُ بهذا أن المراد بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الآية هم الذين عَلِمَ اللهُ أنهم يموتون على الكفر^(١)، ومنهم: أبو جهل وأبو لهب، وأصحابُ القليب، وهم: الذين قُتلوا في بدر من المشركين، وطُرحوا في القليب، فهم ممن قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧]، وقال الله فيهم: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠].

وقوله: (بتحقيق الهمزتين وإبدال الثانية ألفاً...) إلى آخره: يبيِّنُ بذلك القراءاتِ في الهمزتين، وذكرَ فيها أربعَ قراءاتٍ^(٢).

وقوله: (لعلم الله منهم ذلك): يريد أن الله أخبر بنفي إيمانهم، وما أخبر بنفيه لن يكون، ومن أخبر الله بنفي إيمانه فلن يؤمن، وحينئذٍ فإنذاره وعدمه سواء، ومن عَلِمَ أنه لا يؤمن فلا يُشرعُ إنذاره، ومثل هؤلاء مثل قوم نوح الذين قال الله فيهم: ﴿وَأَوْحِيْ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، ولذا أخبر -تعالى- أن الإنذار لا يُجدي، ولذا إنذاره إيَّاهم وعدمه سواء، فلا طمع في إيمانهم.

وقوله: (والإنذار: إعلامٌ مع تخويفٍ): ولذا يقترن الإنذارُ بذكرِ العذاب كثيراً؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]،

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (١/ ١١٠-١١١)، و«زاد المسير» (١/ ٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٧٣).

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٣٥) وما بعدها، و«الحجة للقراء السبعة» (١/ ٢٤٤).

وقوله: ﴿قِيَمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، وقوله في نوح: ﴿أَنْ أُنذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١].

وقوله: (طبع عليها واستوثق): يشير رَحْمَةُ اللَّهِ إِلَى الفرق بين الختم والطبع، وقد ذكر الله الختم على القلوب والأسماع في موضعين من القرآن؛ في هذه الآية، وفي آية الجاثية، وذكر الختم على القلوب في موضع ثالث من سورة الأنعام، وذكر الطبع على القلوب في مواضع كثيرة، والظاهر أن الختم أشدُّ، وهو: يدلُّ على الاستيثاق، كما في عبارة المؤلف.

وقوله: (أي: مواضعه): يريد أن الختم على مواضع السمع، وهي: آذانهم فلا يسمعون بها ما ينفَعُهُمْ، وأصل السمع: مصدرٌ سَمِعَ يَسْمَعُ، عَبَّرَ بِهِ عن الآذان، وأكثر ما يرد السمع مفردًا؛ لأنه مصدرٌ يَصْدُقُ على القليل والكثير^(١).

وقوله: (غطاءٌ فلا يُبصرون الحق): هذا غطاءٌ معنويٌّ سببه الإعراض عن التفكر في الآيات الكونية، وعن التدبر للآيات القرآنية، وكذلك الختم على قلوبهم وسمعهم هو أمر معنويٌّ سببه الإعراض.

وقوله: (قويٌّ دائمٌ): لو قال: «شديد» بدل «قويٌّ» لكان أولى؛ لأن هذا من صفتهم في آيات أخرى، والمراد به عذاب النار، وقد وُصِفَ بأنه شديدٌ وأليمٌ ومهينٌ وعظيمٌ.



(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٨٢-٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٩٠).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

[البقرة: ٨-١٠]:

يخبر -تعالى- في هذه الآية وما بعدها عن الصَّنَفِ الثالثِ مِنَ النَّاسِ، وهم المنافقون الذين يُظْهِرُونَ الإِيمَانَ وَيُبْطِنُونَ الكُفْرَ، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾؛ أي: بعضُ النَّاسِ الذي يقول بلسانه: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ﴾ وما هو بمؤمنٍ في الباطن، فهو يقول بلسانه ما ليس في قلبه، وهذا هو النفاق الأكبر. ثم أخبر -تعالى- عن هؤلاء المنافقين أنهم بنفاقهم يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَيُخَادِعُونَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أي: يفعلون ذلك ظانين أنهم يخدعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم ولكنهم لا يشعرون بأنَّ خِدَاعَهُمْ راجعٌ إلى أنفسهم، فهم المخدعون بهذا الخداع، ولا يروِّجُ على الله ولا على الذين آمنوا؛ لأنَّ الله يعلم السرائرَ فلا يخدعه المخادعون، والذين آمنوا يعرفونهم بلحنِ القول، وهذا ما دلَّ عليه الحصرُ في قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾.

ثم أخبر -تعالى- أنَّ في قلوب المنافقين مرضًا، وهو: الشكُّ في الحقِّ في الله ورسوله وكتابه وفي اليوم الآخر، ولذلك لم يكونوا مؤمنين على الحقيقة، بل يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ على مرضهم الأول فازدادوا كفرًا على كفرٍ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، وذلك بسبب كذبهم في دعوى الإيمان، وقد أكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨)، وقرئ: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بفتح الكاف وتشديد الذال^(١)، ورجَّح ابن جرير القراءة

(١) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿يَكْذِبُونَ﴾، خفيفة بفتح الياء وتخفيف الذال. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٤٣).

الأولى: بسكونِ الكاف وكسرِ الذال^(١)؛ لقوله في الآية السابقة: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٨) المعنى: أنهم كاذبون في قولهم: ﴿ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّومِ الْآخِرِ﴾.

ونزل في المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّومِ الْآخِرِ﴾ أي: يوم القيامة؛ لأنه آخر الأيام ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ رُوِيَ فِيهِ مَعْنَى «مَنْ» وَفِي ضَمِيرِ «يَقُولُ» لَفْظُهَا «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا» بِإِظْهَارِ خِلَافِ مَا أَبْطَنُوهُ مِنَ الْكُفْرِ لِيُدْفَعُوا عَنْهُمْ أَحْكَامَهُ الدِّنْيَوِيَّةَ ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ لِأَنَّ وَبَالَ خِدَاعِهِمْ رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ فَيُفْتَضِحُونَ فِي الدُّنْيَا بِإِطْلَاعِ اللَّهِ نَبِيِّهِ عَلَى مَا أَبْطَنُوهُ وَيُعَاقِبُونَ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يَعْلَمُونَ أَنَّ خِدَاعَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُخَادَعَةُ هُنَا مِنْ وَاحِدٍ كَعَاقَبْتُ اللَّصَّ، وَذَكَرُ اللَّهُ فِيهَا تَحْسِينَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شَكٌّ وَنِفَاقٌ فَهُوَ يَمْرُضُ قُلُوبَهُمْ أَي: يُضْعِفُهَا ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْقُرْآنِ لِكُفْرِهِمْ بِهِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُؤْلَمٌ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ أَي: نَبِيُّ اللَّهِ، وَبِالتَّخْفِيفِ أَي: فِي قَوْلِهِمْ: ﴿آمَنَّا﴾.

وقول المؤلف: (ونزل في المنافقين): يبيِّن أنَّ الآيات الآتية ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾، وهي: ثلاث عشرة آية كلُّها في صفة المنافقين، وأنَّ الآيتين المتقدِّمتين - السادسة والسابعة - في شأن الكفار وبيان مصيرهم. وقوله: (يوم القيامة): يريد أنَّ اليوم الآخر من أسمائه؛ وقوله: (لأنه آخر الأيام): يريد أنَّ يوم القيامة سُمِّيَ الآخر؛ لأنه لا ليلة بعده فلا يوم بعده؛ لأنَّ كلَّ يومٍ مسبوقةٌ بليلته، وكلُّ يومٍ من أيام الدنيا تأتي بعده ليلة^(٢).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٢٩٣-٢٩٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٢٧٨-٢٧٩).

وقوله: (رُوعِي فِيهِ مَعْنَى «مَنْ» وَفِي ضَمِيرِ ﴿يَقُولُ﴾ لَفْظُهَا): يَرِيدُ أَنْ «مَنْ» فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾: اسْمٌ مُوصُولٌ لَفْظُهُ مُفْرَدٌ، وَمَعْنَاهُ: جَمْعٌ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُمْ﴾ رُوعِي مَعْنَى: مَنْ، وَهُوَ الْجَمْعُ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿يَقُولُ﴾ رُوعِي لَفْظُهَا، وَهُوَ الْإِفْرَادُ.

وقوله: (بِإِظْهَارِ خِلَافٍ مَا أَبْطَنُوهُ مِنَ الْكُفْرِ): مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ خِدَاعَهُمْ لِلَّهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ هُوَ نِفَاقُهُمْ؛ فَهُمْ بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ وَإِبْطَانِ الْكُفْرِ يَقْصِدُونَ خِدَاعَ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا مِنْ جَهْلِهِمْ وَسَفَهِهِمْ؛ فَاللَّهُ لَا يَخْدَعُهُ أَحَدٌ؛ لِأَنَّهُ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْقُلُوبِ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ لَا يَضُرُّهُمْ خِدَاعُ الْمُنَافِقِينَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَفْضَحُ الْمُنَافِقِينَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾: مَشَى الْمُؤَلَّفُ عَلَى قِرَاءَةِ نَافِعٍ^(١) وَابْنِ كَثِيرٍ^(٢) وَأَبُو عَمْرٍو^(٣)، وَقَرَأَ جَمْهُورُ الْقُرَّاءِ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ بِحَذْفِ الْأَلْفِ^(٤)، وَاخْتَارَهَا ابْنُ جَرِيرٍ^(٥)، وَضَعَفَ الْقِرَاءَةَ الْأُولَى قَائِلًا: إِنَّهَا لَا

(١) نافع بن عبد الرحمن، أبو نعيم المدني، أحد القراء السبعة والأعلام، ثقة صالح، أخذ القراءة عرصًا عن جماعة من تابعي أهل المدينة، وأقرأ الناس دهرًا طويلًا نيفًا عن سبعين سنة، وانتهت إليه رئاسة القراءة بالمدينة وصار الناس إليها. مات سنة (١٦٩هـ) وقيل غير ذلك. ينظر: «معرفة القراء الكبار» للذهبي (ص ٦٤، رقم ٣)، و«غاية النهاية في طبقات القراء» لابن الجزري (٢/ ٣٣٠، رقم ٣٧١٨).

(٢) عبد الله بن كثير بن المطلب أبو معبد، مولى عمرو بن علقمة الكناني الداري المكي، إمام المكيين في القراءة وأحد القراء السبعة، توفي سنة (١٢٠هـ). ينظر: «معرفة القراء الكبار» (ص ٤٩، رقم ١٥)، و«غاية النهاية» (١/ ٤٤٣، رقم ١٨٥٢).

(٣) أبو عمرو زبان بن العلاء المازني المقرئ النحوي البصري الإمام، مقرئ أهل البصرة وأحد القراء السبعة، وليس في القراء السبعة أكثر شيوخًا منه، توفي سنة (١٥٤هـ). ينظر: «معرفة القراء الكبار» (ص ٥٨، رقم ١)، و«غاية النهاية» (١/ ٢٨٨، رقم ١٢٨٣).

(٤) ينظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني (ص ٢٧٦)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص ١٢٦-١٢٧).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٨٥).

تناسب مع قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأنها تؤدي إلى تضاد بين أول الآية وآخرها، ولأنها خلاف قراءة جمهور القرّاء.

وقوله: (لأنّ وبالّ خداعهم راجع إليهم): هذا وجه الحصر في قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾، فضررُ خداعهم لا يتعدّاهم، فلن يضرّوا الله شيئاً، ولا المؤمنين، والله يجزيهم بخداعهم بأن يخدعهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقوله: (فيفتضحون في الدنيا... إلى آخره): هذا وصفٌ لضرر خداعهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فضيحةٌ وتهديدٌ، وفي الآخرة خزيٌ وعذابٌ شديدٌ.

وقوله: (يعلمون أنّ خداعهم لأنفسهم): الشعور بالشيء هو العلم به^(١). وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ خبرٌ من الله بأنّ المنافقين لا يعلمون أنّ خداعهم لأنفسهم، فضرره عائدٌ إليهم، ولن يضرّ الله والمؤمنين شيئاً.

وقوله: (والمخادعة هنا من واحد كعاقبت اللص): يريد أنّ المخادعة في هذه الآية من طرفٍ واحد، وهم: المنافقون، فلا يقال: إنّ الله يُخادع المنافقين بل يخدعهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ...﴾ الآية [النساء: ١٤٢]^(٢)، والصواب: أنّ المخادعة من الأفعال التي تكون من فاعلين كالمخاصمة والمدافعة، وهذا اختيار ابن جرير^(٣).

وقوله: (وذكرُ الله فيها تحسین): يريد أنّ ذكرَ الله في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾؛ تحسینٌ للكلام وتشنعينٌ على المنافقين بقصدِهم خداعَ الله، وليس لأنّ الله يُخادع، وهذا مبني على ما اختاره المؤلّف من أنّ المخادعة في الآية من واحد، وهم المنافقون؛ كما تقدم، وتقدم أنّ الصواب خلافه.

(١) ينظر: «لسان العرب» (٤/٤٠٩).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/٤٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٨٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٢٨١-٢٨٣).

وقوله: (شكُّ ونفاقُ): الشكُّ ضدُّ اليقين، وهو تردد بين التصديق والتكذيب، وشكُّ المنافقين مرضٌ في قلوبهم، وهو شكُّهم في توحيد الله وصدق الرسول، وفي اليوم الآخر، وهذا الشكُّ الذي في قلوبهم مع قولهم بألسنتهم: ﴿أَمْنَا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هو حقيقةُ النفاق، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٧]. وسُمِّيَ الشكُّ في الحق مرضًا؛ لأنه علةٌ في الإيمان والاعتقاد، وأضافه إلى القلوب؛ لأنها محل الإيمان والاعتقاد؛ قاله ابن جرير^(١).

وقوله: (فهو يمرض قلوبهم أي: يُضعفها): أي: يُضعفُ إيمانهم واعتقادهم، فعبرَ بالمحلِّ وهو القلوب عن الحالِّ فيها، وهو الاعتقاد، كما تقدّم.

وقوله: (بما أنزله من القرآن لكفرهم به): معناه أن الله زادهم مرضًا؛ بسبب ما أنزله من القرآن لَمَّا كفروا به، فكفرهم به مرضٌ في قلوبهم متضمّنٌ للشك في قلوبهم، فيكون زيادةً على مرضهم الأول.

وقوله: (مؤلّم): يريد أن ﴿أَلِيمٌ﴾ فعيل بمعنى اسم الفاعل من أَلَمَ. وقوله: (بالتشديد...) إلى آخره: يشير إلى القراءتين في قوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾، بتشديد الدالِّ وتخفيفِها، وهي: قراءة الجمهور؛ أي: قراءة التخفيف، ورجحها ابن جرير^(٢)، قال: لأنها المناسبة لقوله تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، فدلَّ على أنهم يكذبون في قولهم: ﴿أَمْنَا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ولا شك أن قراءة التخفيف هي المناسبة لسياق الآيات، ومعناها هو الغالب على وصف المنافقين في القرآن، وقراءة التشديد صحيحةٌ، ومعناها حقٌّ؛ فإنَّ المنافقين في حقيقة أمرهم مُكذِّبون، وهم في دعوى الإيمان كاذبون.



(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٢٨٦-٢٨٨). (٢) تقدم في (ص ٤١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١١-١٢]:

يخبر - تعالى - في هاتين الآيتين عن هؤلاء المنافقين أنهم إذا قيل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي والصد عن سبيل الله ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، فجعلا الإفساد إصلاحاً إماً جهلاً وإماً عناداً، وهذا كقولهم في الآية الأخرى: ﴿إِن أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢]، فأكذبهم الله بقولهم: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، وأخبر خبراً مؤكداً أنهم ﴿هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والتعويق عن الإيمان ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وليس ما نحن فيه بفساد، قال الله - تعالى - رداً عليهم ﴿أَلَا﴾ للتنبيه ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

وقول المؤلف: (لهؤلاء): الإشارة إلى من تقدم ذكرهم قريباً، وهم: المنافقون.

وقوله: (بالكفر والتعويق عن الإيمان): هذا تفسير للإفساد في الأرض، ولا ريب أن الكفر والصد عن دين الله أعظم فساد وإفساد، كما أن الإيمان والدعوة إلى الله أعظم إصلاح في الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] وقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: دعوى كاذبة تتضمن مغالطة وهي نفي الفساد عن عملهم وأنه إصلاح.



وقوله: (بذلك): أي لا يعلمون أنهم هم المفسدون، وفي قوله تعالى:
﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ حصرٌ للإفساد فيهم يدلُّ على أنهم أمكنُ في الإفساد
من سائر المفسدين.



وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]:

هذا خبرٌ من الله عن المنافقين إذا دُعوا إلى الإيمان، وقيل: لهم آمنوا كما آمنَ الناسُ -الذين هم الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- رَدُّوا على مَنْ يَدْعُوهم إلى الإيمان؛ قائلين: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾، والسُّفَهَاءُ: هم ناقصو العقل وسيئو التدبير، فجمعوا بين ردِّ الحق وتنقُّص المؤمنين، فردَّ الله عليهم بنعتهم بالسُّفَهَاءِ الذي نعتوا به المؤمنين وقصره عليهم؛ فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [١٣] أي: لا يعلمون أنهم أحقُّ بهذا الوصف، وأيُّ سفَهٍ وأيُّ جهلٍ فوق تركِ الإيمان مع ازدراء المؤمنين؟

قال المصنف: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ أي: أصحابِ النَّبِيِّ ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الجُهَّال، أي: لا نفعل كفعلهم، قال -تعالى- رَدًّا عليهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

وقول المؤلف: (أَصْحَابِ النَّبِيِّ): معناه أنَّ المراد بالناس الذين دُعِيَ المنافقون أن يؤمنوا كإيمانهم هم أصحابُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقول المنافقين: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾: تسفيهٌ وتجهيلٌ لأصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إيمانهم؛ لذلك فهم لا يقتدون بهم في الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾: ردٌّ على المنافقين في رمي الصحابة بالسُّفَهَاءِ بقصرِ السُّفَهَاءِ على المنافقين، وفي هذا قلبٌ للحكم عليهم بإثبات السُّفَهَاءِ لهم، ونفيه عن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ^(١).

وقوله: (ذلك): أي لا يعلمون أنهم هم السُّفَهَاءُ.

(١) ينظر: توجيه لطيف في علة إثبات السُّفَهَاءِ لهم ونفيه عن الصحابة في: «تفسير الرازي» (٣٠٨/٢)، و«اللباب في علم الكتاب» لابن عادل (٣٥٧/١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾
[البقرة: ١٤-١٥]:

يُخْبِرُ -تعالى- أَنَّ الْمُنَافِقِينَ إِذَا لَقُوا الْمُؤْمِنِينَ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿ءَامَنَّا﴾، وَإِذَا ذَهَبُوا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ -وهم كبراءُهم ورؤسأؤهم- وَخَلَوْا بِهِمْ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِمْ عَنْ قَوْلِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿ءَامَنَّا﴾ بِأَنَّهُمْ مُسْتَهْزِئُونَ، وَالِاسْتَهْزَاءُ: نَوْعٌ مِنَ الْمَكْرِ بِإِظْهَارِ مَا يُحِبُّهُ الْمُسْتَهْزِئُ بِهِ وَإِخْفَاءِ مَا يَسُوؤُهُ.

ثم أخبر -تعالى- أَنَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ كَمَا فَعَلُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ اسْتَهْزَائِهِ -تعالى- بِالْمُنَافِقِينَ: إِظْهَارُ قَبُولِ إِيمَانِهِمْ بِعَصْمَةِ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَاعْتِبَارِهِمْ فِي عِدَادِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْعَيْشَ بَيْنَهُمْ، وَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمُ الدَّرَكَ الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ، فَكَانَ الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَمَعَ اسْتَهْزَاءِ اللَّهِ بِهِمْ يُمْلِي لَهُمْ لِيَزِدَادُوا طُغْيَانًا، وَهُمْ: ﴿يَعْمَهُونَ﴾؛ أَي: يَتَحَيَّرُونَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا^(١).

ثم أخبر -تعالى- عَنِ جَزَاءِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى اسْتَهْزَائِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ أَمْرَانِ:

الأول: أَنَّ اللَّهَ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَهَذَا مِنْ بَابِ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُ: الْاسْتَهْزَاءِ مِنَ اللَّهِ بِالْمُنَافِقِينَ.

الثاني: أَمْلَى اللَّهُ لَهُمْ بِجَعْلِهِمْ يَتِمَادُونَ فِي طُغْيَانِهِمْ، وَهَذَا مَعْنَى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾، وَفَرَّقَ أَهْلُ اللُّغَةِ وَالْمُفَسِّرُونَ بَيْنَ: مَدَّ يَمُدُّ، وَأَمَدَّ يَمُدُّ؛ فَقَالُوا: مَدَّ فِي الشَّرِّ، وَأَمَدَّ فِي الْخَيْرِ^(٢). وَالطُّغْيَانُ: مَجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي الْبَاطِلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يَتَحَيَّرُونَ.

(١) ينظر: «المفردات» (ص ٥٨٨).

(٢) حكى عن يونس بن حبيب الجرمي. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٣١٩)، و«لسان العرب» (٣/٣٩٢).

﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أصله لَقِيُوا حُذِفَتِ الضمة؛ للاستئقال، ثم الياء؛ لالتقاءها ساكنةً مع الواو ﴿الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا﴾ منهم ورجعوا ﴿إِلَى شِيَاطِينِهِمْ﴾ رؤسائهم ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ في الدين ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بهم بإظهار الإيمان ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يُجَازِيهِمْ باستهزائهم ﴿وَيَمُدَّهُمْ﴾ يُمَهِّلُهُمْ ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ بتجاوزهم الحدَّ في الكفر ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون تحيراً، حالً.

وقول المؤلف: (أصله لقيوا): يريد أن أصل الفعل قبل إسناده إلى واو الجماعة: لقي كرضي، فلما أسند إلى واو الجماعة ضمت الياء لمناسبة واو الجماعة، ثم نُقلت الضمة إلى القاف. وقوله: (حُذِفَتِ الضمة؛ للاستئقال): يريد الضمة التي على الياء، لمناسبة إسناد الفعل إلى واو الجماعة، والصواب: أن الضمة لم تُحذف بل نُقلت من لام الفعل وهي الياء إلى عين الفعل وهي: القاف، فسُكِنَتِ الياء ثم حُذِفَت؛ لالتقاء الساكنين الياء والواو.

وقوله: (منهم ورجعوا...) إلى آخره: يعني خلا المنافقون من المؤمنين بعد لقاءهم، ورجعوا إلى شياطينهم؛ وهم الرؤساء.

وقوله: (في الدين): يعنون أننا لم نحول عن ديننا في قولنا للمؤمنين عند لقاءهم: ﴿آمَنَّا﴾، بل نحن مُستهزئون بهم غير جادّين.

وقوله: (يُجَازِيهِمْ باستهزائهم): مضمونه تفسير الاستهزاء من الله بمجازاة المستهزئين، وهذا التفسير يتضمّن نفي حقيقة الاستهزاء عن الله، وصرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه، فيكون من قبيل التعبير بالسبب عن المسبب؛ من أجل المشاكلة اللفظية، والصواب: إجراء اللفظ على ظاهره وإثبات حقيقة الاستهزاء من الله بالمنافقين جزاءً على استهزائهم بالمؤمنين، فالجزء من جنس العمل،

وهكذا يقال: في المكر والكيد من الله - تعالى -، فكلُّ ذلك حقيقةٌ على ما يليق به - سبحانه - ولا موجبَ لصرفِ الكلامِ عن ظاهره^(١).

وقوله: (يُمَهِّلُهُمْ): هو تفسير يمدُّهم؛ أي: يزيدُهم في المدةِ إملاءً لهم واستدراجًا، وهو مِن مَدَّهَ الثلاثي، وذكر ابنُ جرير الخلافَ في الفرق بين مَدَّهَ وأمدَّه، والمشهور «مَدَّه» في الشرِّ، و«أمدَّه» في الخير، كما تقدَّم.

وقوله: (تجاوزهم الحدَّ في الكفر): لأنَّ المنافقين أغلظُ كفرًا من غيرهم؛ لجمعهم بين الكذب والتكذيب مع شدَّةِ العداوة للمؤمنين.

وقوله: (يتردَّدون تحيُّرًا): يريد أنَّ العمَّةَ هو التردُّدُ والحيرةُ، وهذه حال

المنافقين، ولهذا قال الله في وصفهم: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وقوله: (حالٌ): يريد أنَّ جملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حاليةٌ في موضعِ نصبٍ.



(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٤٧١/٢٠)، و«مختصر الصواعق» (٧٣٧-٧٤٧)، و«التعليقات على المخالفات العقدية في الفتوح» (ص ١٢٦، رقم ٨٥).

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٦﴾ [البقرة: ١٦]:

اسم الإشارة راجعٌ إلى المنافقين، والإشارة إليهم بإشارة البعيد يُشعر ببعيد منزلتهم في الشر، وبعدهم عن مواطن الرحمة والكرامة، يخبر -تعالى- عنهم أنهم بإيثارهم الكفر على الإيمان قد استبدلوا الضلالة بالهدى، فسمّى الله هذا الاستبدال اشتراءً؛ تشبيهاً لهم بالتاجر المغبون إذ خسر في الصفقة؛ لأنه قد باع الشيء الثمين بأبخس الأثمان، وكانت تجارته تجارةً خاسرةً ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾، وفي إسناد الربح إلى التجارة مجازٌ عقلي؛ لأنَّ الأصل أن يُسند إلى صاحب التجارة، فإنَّ المعنى: فما ربحوا ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي: استبدلوا بها ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ أي: ما ربحوا فيها بل خسروا لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ فيما فعلوا.

وقول المؤلف: (استبدلوا بها): أي استبدلوا الضلالة بالهدى، يريد أن معنى اشتروا: استبدلوا، وفي التعبير عن استبدلوا بـ ﴿اشْتَرُوا﴾ استعارةٌ تصريحية، علاقتها التشبيه؛ لأنه عبّر بالمشبه به عن المشبه، والضمير المنصوب في قوله: (استبدلوا).

وقوله: (أي: ما ربحوا فيها): يشير إلى أنَّ الأصل إسناد الفعل ربح إلى صاحب التجارة، وقد أسند إلى التجارة، فكان من المجاز العقلي الذي علاقه المحلية أو السببية.



وقوله: (بَلْ خَسِرُوا...) إلى آخره: يريد أنه لم يقتصر أمرهم على عدم الربح؛ بل خسروا خسراناً مبيناً.

وقوله: (فيما فعلوا): أي لم يكونوا على هدى في استبدال الضلالة بالهدى، وفي هذا تأكيدٌ لنفي الربح عنهم، ونفيٌ للاهتداء عنهم قبل أن يُظهروا الإسلام، ويفعلوا ما فعلوا من الاستبدال، وفي هذا احترازٌ من أن يُظنَّ أنهم كانوا على هدى قبل أن يفعلوا ما فعلوا.



وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْرٍ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٧-١٨]

هذا مثلٌ ضربه الله للمنافقين لإظهارهم الإيمان وما حصل لهم من الانتفاع بذلك في الدنيا من عصمة أموالهم وأولادهم وعيشتهم بين المسلمين، فإذا انتقلوا عن هذه الدنيا لم ينتفعوا بذلك الإيمان؛ لأنه لم يكن إيمانهم صحيحاً؛ بل يُصَيِّرُونَ إلى أسوأ العواقب، فمثلهم في ذلك ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ فانتفع بضوئها فيما حوله، ثم انطفأت النار فذهب الضوء واستحكمت الظلمة فصاروا ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾^(١)، واسم الموصول «الذي» بمعنى: «الذين»، فلفظه مفردٌ ومعناه الجمع؛ فعادة الضمائر أولاً باعتبار اللفظ ثم باعتبار المعنى^(٢). ومعنى ﴿مَثَلُهُمْ﴾: صفتهم، ﴿كَمَثَلِ﴾: أي كصفة الذي استوقد ناراً، وهذا من التشبيه التمثيلي، وحقيقته تشبيه هيئة مجتمعة من أشياء بهيئة مجتمعة كذلك.

وقوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْرٍ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾: هذا وصف آخر للمنافقين، أخبر الله فيه بأن المنافقين صُمُّ لا يسمعون سماع قبولٍ ينفعهم، بكم لا يتكلمون بخير، عمى: لا ينظرون بأبصارهم إلى آيات الله فيعتبرون ويهتدون، فلم ينتفعوا بأسماعهم ولا بألسنتهم ولا بأبصارهم، فلما لم ينتفعوا بشيء من ذلك كان وجودها كعدمها، فهذا وجه وصفهم بالصمم والبكم والعمى؛ فلذلك لا يرجعون من نفاقهم وطغيانهم وضلالهم.

(١) ويسمى هذا بالمثل الناري. ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/١٠٢-١٠٣)، و(١٩-٩٥)، و«إعلام الموقعين» (٢/٢٧٠-٢٧١)، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/٦٣-٦٨)، و«الوابل الصيب» (ص ١٢٥-١٢٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/٥٤)، «تفسير الطبري» (١/٣٣٢-٣٣٦)، و«الكشاف» (١/١٩١-١٩٢).

﴿مَثَلُهُمْ﴾ صِفْتُهُمْ فِي نِفَاقِهِمْ ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾ أَوْقَدَ ﴿نَارًا﴾ فِي ظِلْمَةٍ ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ أَنْارَتْ ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ فَأَبْصَرَ وَاسْتَدْفَأَ وَأَمِنَ مَا يَخَافُهُ ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أَطْفَأَهُ، وَجُمِعَ الضَّمِيرُ مِرَاعَاةً لِمَعْنَى «الَّذِي»، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ مَا حَوْلَهُمْ مُتَحَيِّرِينَ عَنِ الطَّرِيقِ خَائِفِينَ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ أَمَنُوا بِإِظْهَارِ كَلِمَةِ الْإِيمَانِ، فَإِذَا مَاتُوا جَاءَهُمُ الْخَوْفُ وَالْعَذَابُ، هُمْ ﴿صُمٌّ﴾ عَنِ الْحَقِّ فَلَا يَسْمَعُونَهُ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿بِكُمْ﴾ خُرُسٌ عَنِ الْخَيْرِ فَلَا يَقُولُونَهُ ﴿عُمِّي﴾ عَنِ طَرِيقِ الْهَدْيِ فَلَا يَرُونَهُ ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عَنِ الضَّلَالَةِ.

وقول المؤلف: (صِفْتُهُمْ): يريد أن معنى المثل الصفة؛ كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] (١)، ووصف الشيء قد يكون بتمثيله بشيءٍ آخر؛ كما في هذه الآية، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وقوله: (في نِفَاقِهِمْ): يريد أن المشبه في هذا المثل هم المنافقون، أظهروا الإيمان فانتفعوا بذلك عصمةً دمائهم وأموالهم، والعيش بين المسلمين، فشبَّهوا بالذي استوقد نارًا فأضأت ما حوله فانتفع بذلك وأبصر ما حوله وأمن، فانطفأ الضوء، وعادت الظلمة فصار لا يبصر وعاد الخوف، وهذا المستوقد شبَّه به المنافقون؛ آمنوا ثم كفروا وأبصروا ثم عموا (٢)، ويُسمَّى هذا التشبيه تشبيهاً تمثيلاً؛ لأنه تشبيه هيئة مجتمعة من أشياء بهيئة مجتمعة من أشياء، كما تقدم.

(١) ينظر: «الوجوه والنظائر» للدماغاني (ص ٤١٥-٤١٦)، و«نزهة الأعين النواظر» لابن الجوزي (ص ٥٥١-٥٥٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٣٣٦-٣٤٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٩٣).

وقوله: (أوقد): في تفسير استوقد؛ ليدلَّ على أنَّ السين والتاء في ﴿استوقد﴾ ليست للطلب، فهي كالتي في استجاب بمعنى: أجاب^(١).
 وقوله: (في ظلمة): معناه أنه أوقد النار في مكانٍ مظلمٍ لظلمة الليل أو غيرها، بدليل قوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ إلى آخر الآية.
 وقوله: (فأبصر واستدفأ): ليس في الآية إشارةً إلاَّ للأبصار دون الاستدفاء والأمن.

وقوله: (وجمع الضمير): يريد الضمير في قوله: ﴿بُنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ﴾.
 وقوله: (مراعاةً لمعنى «الذي»): يريد أنَّ الذي استوقد نارًا بمعنى الذين استوقدوا نارًا؛ لأنَّ المناسب تشبيهُ الجمع بالجمع.
 وقوله: (ما حولهم مُتَحَرِّينَ عن الطريق...): إلى آخره: هذا بيانٌ لوجه الشَّبه بين المشبَّه - وهم: المنافقون - والمشبَّه به - وهم: الذين استوقدوا نارًا -.
 وقوله: (هم ﴿صُمَّ﴾): يريد أنَّ ﴿صُمَّ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره: هم صم.

وقوله: (فلا يسمعونه سماعَ قبولٍ): فكان سماعُهم وجوده كعدمه لذلك قيل فيهم: ﴿صُمَّ﴾، وهكذا قوله: ﴿بِكُمْ عَمِّي﴾.
 وقوله: (عن الضلالة): أي لا يتوبون عن الضلالة، وترتيب نفي الرجوع على ما قبله؛ لأنهم لا ينتفعون بالآياتِ والمواعظِ بسببِ إعراضهم عنها.



(١) وهو قول الأخفش. ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/٥٣)، و«تفسير الطبري» (١/٣٣٥).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيءِ إِذْ أَنهَم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُخِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ [البقرة: ١٩-٢٠]:

هذا مثل آخر ضربَه اللهُ للمنافقين^(١)، فقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ...﴾ الآية، والتقدير: أو مثلهم كأصحاب صَيْبٍ؛ وهو المطرُ النازل من السحاب، وفي السحاب ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ ومع الرعد صواعقٌ، ولذا أصحابُ الصَّيْبِ الواقعون تحت السَّحاب يجعلون أصابعهم في آذانهم من أصوات الصواعق يَحذَرُونَ الموتَ.

فهذا المثل كالذي قبله؛ تشبيهٌ تمثيليٌّ، فالمنافقون مع القرآن وما فيه من الوعدِ والوعيدِ والتهديدِ المرعب للمنافقين هم كأصحاب هذا الصَّيْبِ مع ما فيه من الظلمات والرعد والبرق والصواعق، فالظلماتُ مثلٌ للشبهات التي يظهرها المنافقون، والرعد والبرق والصواعق مثلٌ لِمَا في القرآن من الوعد والوعيد والتهديد الشديد الذي يجعل المنافقين يخافون أن يؤخذوا ويُقتلوا^(٢).
وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُخِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾: تهديدٌ للمنافقين وتصريحٌ بإطلاق اسم الكفر عليهم.

وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾: بيانٌ لحال أهل الصَّيْبِ مع البرق الشديد، وأنه لشدة لَمَعَانِهِ يقرب أن يخطفَ أبصارهم، وأنه تارة يُضيءُ

(١) قال شيخ الإسلام: «فإن المفسرين اختلفوا: هل المثلان مضر وبان لهم كلهم، أو هذا المثل لبعضهم؟ على قولين، والثاني هو الصواب»، وذهب الطبري إلى أنهما صنف واحد. ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٣٥٤-٣٥٦)، و«الإيمان الكبير» (ص ٢١٧).

(٢) ويسمى هذا بالمثل المائي. ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠٢/١٠٣)، و(١٩-٩٥)، و«إعلام الموقعين» (٢/ ٢٧١)، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/ ٦٨-٧٢)، و«الوابل الصيب» (ص ١٢٧-١٣٢).

وتارةً يُظلم، فإذا أضاء مشوا ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي: وقفوا^(١)، وهذا مثل للمنافقين.

﴿أَوْ﴾ مثلهم ﴿كَصَيْبٍ﴾ أي: كأصحابِ مطرٍ، وأصله صَيْوَبٌ مِنْ صَابَ يَصُوبُ أي: ينزل ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ السَّحَابِ ﴿فِيهِ﴾ أي: السَّحَابِ ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ بتكاثفه ﴿وَرَعْدٌ﴾ هو الملكُ الموكَّلُ به، وقيل: صوته ﴿وَبَرْقٌ﴾ لمعانُ صوته الذي يزجره به ﴿يَجْعَلُونَ﴾ أي: أصحاب الصَّيْبِ ﴿أَصَابِعَهُمْ﴾ أي: أناملها ﴿فِي آذَانِهِمْ مِنْ﴾ أجل ﴿الصَّوَاعِقِ﴾ شدة صوتِ الرعد لئلا يسمعوها ﴿حَذَرَ﴾ خوف ﴿الموتِ﴾ من سماعها، كذلك هؤلاء إذا نزل القرآن وفيه ذكُرُ الكفر المشبَّه بالظلمات، والوعيد عليه المشبَّه بالرعد، والحجج البيِّنة المشبَّه بالبرق، يسُدُّون آذَانَهُمْ؛ لئلا يسمعوه فيميلوا إلى الإيمان وترك دينهم، وهو عندهم موتٌ ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ علماً وقدرةً فلا يفوتونه ﴿يَكَادُ﴾ يقربُ ﴿الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يأخذها بسرعة ﴿كَلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ أي: في ضوءه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ وقفوا تمثيلاً لإزعاج ما في القرآن من الحجج قلوبهم وتصديقهم بما سمعوا فيه مما يحبُّون ووقفهم عما يكرهون ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بمعنى أسماعهم ﴿وَأَبْصَارِهِمْ﴾ الظاهرة كما ذهب بالباطنة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾ ومنه إذهابُ ما ذُكِرَ.

وقول المؤلف: (مثلهم): يريد أن «أو» عاطفة على مثلهم الأول، ويحتمل أنها عاطفة على قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، و«أو» للتنويع.

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٧٠/١)، و«الكشاف» (٢٠٨/١)، و«تفسير ابن عطية» (١٤٢/١).

وقوله: (كَأَصْحَابِ مَطَرٍ): يريد أن ﴿صَيْبٍ﴾ على تقدير مضافٍ محذوف، والتقدير: أصحاب صَيْبٍ، وهم: المشبه به؛ فالمعنى: أو مثل المنافقين كأصحاب صَيْبٍ. والصَّيْبُ: المطر، وهو: من صابَ يصبُ إذا نزل، ووزنُ صَيْبٍ فَيَعْلُ، وأصله: صَيُوبٌ^(١).

وقوله: (السحاب): تفسيرٌ للسماء؛ لأنَّ السماءَ تُطلق على كلِّ ما علا وارتفع^(٢)، ولذا سُمِّيَ السحابُ سماءً.

وقوله: (هو الملك الموكَّل به، وقيل: صوته): هذان القولان معناهما واحد، فمن يقول: «الرعدُ هو الملك»؛ فإنه يُريد أن ما نسمعه صوت الملك الذي يزجرُ السحاب، ومن يقول: الرعدُ صوتُ الملك؛ فقوله راجعٌ للأول^(٣)، ولا ريب أن الرعد هو ذلك الصوت الذي ينطلق من السحاب، فتارةً يكون قاصفاً فيوجب الخوف، وتارةً يكون هادئاً، وأما مصدرُ الصوت فأكثرُ المفسرين على أنه ملكُ السحاب، وإذا لم يكن لهذا التفسير أصلاً من كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يجوزُ الجزم به نفيًا ولا إثباتًا، ولعل هذا التفسير المأثور مأخوذٌ عن بعض أهل الكتاب، والله أعلم.

وقوله: (لمعانُ صوته): أي صوت الملك، وتفسيرُ البرق بلمعان صوت الملك لا يظهر وجهه، وذكر ابن جرير أن البرق مخاريقٌ يزجرُ بها الملك السحاب^(٤).

وقوله: (أي: أناملها): الأناملُ: أطرافُ الأصابع، يريد أنهم لا يجعلون في الأذان كلَّ الأصبع بل طرف الأصبع، وهو الأئمة، ويقول أهل البلاغة: أن هذا من التعبير بالكلِّ عن البعض، وهو: مجازٌ مرسل.

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٤٢)، و«تفسير الطبري» (١/٣٥٠-٣٥١).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/١٠٨)، «لسان العرب» (١٤/٣٩٨).

(٣) ينظر الخلاف في: «تفسير الطبري» (١/٣٥٦-٣٦٢)، و«تفسير ابن عطية» (١/١٣٩)، و«زاد المسير» (١/٣٩-٤٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٣٦٢-٣٦٣)، وأسندُه لعلي بن أبي طالب، وابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وقوله: (أجل): يريد أن يُبينَ أنَّ «من» للتعليل؛ فالمعنى: أنهم يجعلون أصابعهم في آذانهم من أجل ما يسمعون من أصوات الصواعق لئلا يسمعوها. وقوله: (من سماعها): يريد أنهم يجعلون أصابعهم في آذانهم خوفاً من الموت بسبب سماعهم الصواعق.

وقوله: (كذلك هؤلاء...) إلى آخره: يريد أن يُبينَ وجهَ الشَّبه بين أصحاب الصيِّب والمنافقين، فالظلماتُ ما في قلوبهم من الكفر، والرعدُ ما يقرعُ أسمعهم من الوعيد في القرآن، والبرقُ ما في القرآن من الحُجج البيِّنة المبيِّنة للحقِّ، أو هي الآيات الدالَّة على إقرارهم على ما يظهرون، وذلك نافع لهم في أمر دنياهم.

وقوله: (علمًا وقدرةً): يريد أن معنى إحاطة الله بالكافرين إحاطة علمه وقدرته، فلا يخفى عليه من أمرهم خافيةٌ، وأنَّ قدرته محيطَةٌ بهم فلا يُعجزونه، ولا يمنعه منهم مانع، ولا يفوتونه إن طلبهم.

وقوله: (يقربُ) هذا معنى: يكاد، والنحويون يقولون: كاد من أفعال المقاربة ترفع الاسم، وتنصب الخبر، والبرق اسمها، والمضارع خبرها، ومعنى: يخطف: يذهب بالأبصار بسرعة من شدة ضوئه.

وقوله: (في ضوئه) يعني: أصحاب الصيِّب إذا أضاء لهم البرق الطريق مشوا فيه.

وقوله: (تمثيلٌ...) إلى آخره: يريد أن ما ذكر من حال أصحاب الصيِّب من أنهم تارةً يُضيء لهم البرق فيمشون، وتارةً ينطفئ البرق فيظلم عليهم المكان فيقومون؛ أي: يقفون متحيرين، فهذه الحال تمثِّل بها - أي تشبه - حال المنافقين، فإنهم إذا ورَدَ عليهم من أي القرآن ما يسرُّون به داموا على إيمانهم، وإذا ورَدَ عليهم ما يفضحهم صاروا متحيرين فصارت حالهم كحال أصحاب الصيِّب.

وقوله: (بمعنى: أسمعهم): يريد أنَّ سمع - وهو مفرد - معناه: الجمع، وهذا مُطَرِّدٌ في القرآن، يذكر السمع مفردًا، ومعناه: الجمع؛ كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [النحل: ٧٨].

وقوله: (الظاهرة): يريد أسمعهم وأبصارهم الحسيَّة بأذانهم وعيونهم. وقوله: (كما ذهب بالباطنة): يريد أنَّ الله جمع لهم بين عمى الأبصار وعمى القلوب.

وقوله: (شَاءَهُ): عبارته تقتضي أنَّ قدرة الله لا تتعلَّق إلا بما شاءه، والصواب: عدم التقييد بالمشيئة، فالله - تعالى - على كلِّ شيءٍ قديرٌ، سواء ما شاءه أو لم يشأه.

وقوله: (ومنه إذهابُ ما ذُكِرَ): يريد أنَّ إذهابَ الأسماع والأبصار داخلٌ في عموم قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.



وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]:

هذا أمرٌ من الله لجميع الناس بعبادته وحده لا شريك له، بأنه ربهم الذي خلقهم وخلق من قبلهم من آبائهم، وهو الذي خلق الأرض وجعلها فراشاً يستقرُّ عليه الناس، وخلق السماء وجعلها بناءً؛ أي: سقفاً مرفوعاً، وهو الذي أنزل على الأرض من السماء ماءً فأخرج به منها الزروع والأشجار، وأخرج به من أنواع الثمار رزقاً للعباد، فذكر - سبحانه - الحكم وهو وجوب عبادته، وذكر البرهان العقلي على ذلك، وهو أنه خالق الأولين والآخرين، وخالق السموات والأرض، ومنزل الغيث ورازق العباد، وكلُّ هذا من معاني ربوبيته ولا شريك ولا نِدَّ له في شيءٍ من ذلك، ولهذا نهى أن يجعل له أنداداً؛ أي: نظراء يُعبدون من دونه، فكما أنه - سبحانه - لا نِدَّ له في ربوبيته فلا نِدَّ له في إلهيته، فلا ربَّ غيره ولا إله سواه، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وبين - سبحانه - أن الغاية من العبادة تكون وقاية للعبد من عذاب الله، ولهذا قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فبدأت الآياتن بالأمر بالتوحيد: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، وختمتا بالنهي عن الشرك: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، وهذا الأمر والنهي هو معنى لا إله إلا الله، وعلم مما تقدّم أن الآيتين قد دلّتا على توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي: أهل مكة ﴿اعْبُدُوا﴾ و﴿حُدُوا﴾ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴿أَنْشَأَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿وَ﴾ خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿بِعِبَادَتِهِ عِقَابَهُ، وَلَعَلَّ فِي الْأَصْلِ لِلتَّرْجِي فِي كَلَامِهِ -تعالى- لِلتَّحْقِيقِ﴾ الَّذِي جَعَلَ ﴿لَكُمْ﴾ الْأَرْضَ فِرَاشًا ﴿حَالًا﴾ «بَسَاطًا» يَفْتَرِشُ

لا غايةً في الصلابة أو اللبونة فلا يمكن الاستقرارُ عليها ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾
سقفًا ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾
تأكلونه وتعلفون به دوابكم ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ شركاء في العبادة
﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه الخالق ولا تخلقون ولا يكون إلهًا إلا من يخلق.

وقول المؤلف: (أي: أهل مكة): يريد أن المخاطب في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هم الكفار من أهل مكة، وفي هذا التفسير نظر؛ لأن السورة مدنية، والصواب: أنه خطابٌ لجميع الناس من المؤمنين والكفار والمنافقين، وهم الطوائف المذكورة قبل.

وقوله: (وحدوا): فسّر العبادة بالتوحيد؛ لأن التوحيد هو عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا ما بعث الله به جميع المرسلين.
وقوله: (أنشأكم ولم تكونوا شيئًا): هذا معنى ﴿خَلَقَكُمْ﴾، ومعنى: أنشأكم: أوجدكم بعد العدم.

وقوله: (خلق): (خلق): يريد أن العامل في الموصول محذوف، والتقدير: وخلق الذين من قبلكم، والمعطوف هو الموصول، والمعطوف عليه ضميرُ المخاطبين، وكلاهما في موضع نصب.

وقوله: (بعبادته عقابه): يريد أن التقوى تتحقق بعبادة الله وحده لا شريك له، فمن عبد الله كما أمر فقد اتقاه، والمُتَّقَى: هو العقاب، ويصح أن يكون التقدير: لعلكم تتقون الله. وقوله: (ولعل... إلى آخره): يريد أن معنى «لعل» في الأصل: الرجاء، وهذا من المخلوق ظاهرًا، أمّا من الله فيقول المؤلف: إنها للتحقيق؛ مثل ما قالوا في «عسى» من الله واجبة^(١)، وقيل: أن «لعل» في مثل هذا السياق للتعليل.

(١) وهذا مروى عن ابن عباس، قال: «كل عسى في القرآن فهي واجبة»، أخرجه الطبري في تفسيره (٣٧٦/١١)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٧٦٦/٦)، رقم (١٠٠٦٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٣/٩)، رقم (١٧٧٥٣).

وقوله: (خلق): فسّر الجعل في هذه الآية؛ بمعنى الخلق، والأظهر أن ﴿جَعَلَ﴾ في الآية بمعنى صَيَّر؛ فتَنصَبُ مفعولين؛ المفعول الأول: ﴿الْأَرْضَ﴾، والثاني: ﴿فِرَاشًا﴾^(١).

وقوله: (حال): أعرب ﴿فِرَاشًا﴾ حال ﴿بِنَاءٍ﴾، على أن ﴿جَعَلَ﴾ عنده بمعنى: خلق، وهي لا تنصب إلا مفعولاً واحداً.

وقوله: (بساطاً...) إلى آخره: المعنى: جعل الأرض فراشاً مبسوطاً ومهاداً تصلح للاستقرار عليها والعيش فيها، فلم تكن صلبة كالحديد، ولا رخوة كالطين؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبا: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وقوله: (سقفًا): المعنى: جعل السماء سقفًا؛ أي: بناءً عاليًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ [الطور: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقوله: (أنواع): أي أصناف ثمرات الأشجار والزرورع من الفواكه والحبوب، رزقاً لكم ولدوابكم مما يأكل الناس والأنعام، والجار والمجرور الأول حال، و«من» بيانية، والجار والمجرور الثاني صفة لرزق، ومعنى الآية: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ - أي: السحاب - ﴿مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ رزقاً لكم من أنواع الثمار، والباء في ﴿بِهِ﴾ سببية.

وقوله: (تأكلونه...) إلى آخره: يبيّن أن الرزق عامٌ فيما يأكله الناس وما تأكله الأنعام، ويشهد له قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ﴾ [طه: ٥٤]، وقوله: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ [يونس: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ﴾؛ أي: لا تعتقدوا أن لله أنداداً، وتحكموا بذلك، والفاء للتفريع أو هي الفصيحة،

(١) ينظر: «تفسير الراغب» (١/١١١-١١٢)، و«تفسير البيضاوي» (١/٥٥)، و«الدر المصون» (١/١٩٢).

والأنداد: جمعُ ند، وهو: المثلُ والنظير^(١)، المعنى: لا تجعلوا لله نظراءَ في العبادة فتجعلوا معه آلهةً أخرى.
 وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنه الخالق) لهذه المخلوقات المذكورة في الآيات، فكما أنه لا خالقَ غيره؛ فلا إلهَ غيره.



(١) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٧٦٩).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

هذا خطابٌ من الله للكفار من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين
الشاكِّين فيما أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا القرآن؛ قاله: ابن جرير^(١)،
واحتجاجٌ عليهم إن كانوا شاكِّين فيما أنزل الله عليهم من القرآن بأن أتوا
بسورةٍ من مثله ثم ليدعوا شهداءهم؛ أي: أعوانهم وأنصارهم؛ رواه ابن جرير
عن ابن عباس^(٢)، ورجَّحه، ورجَّح أن الضمير في قوله: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ يعودُ إلى
القرآن^(٣).

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾: في زعمكم أن قد جئتم بسورةٍ مثل القرآن.
﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾: ما طُلب منكم من الإتيان بسورةٍ - ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ - وإذا فقد
قامت الحجَّة عليكم، فوجب عليكم أن تتَّقوا النارَ بالتوحيد والإيمان بالرسول
وبما جاء به، وهي النارُ التي وقودها الناسُ والحجارة، وهي معدَّة للكافرين،
فتضمَّنت الآياتان تقريرَ رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما تضمَّنت الآيتان قبل
تقرير التوحيد، فدلت الآيات على الشهادتين؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن
محمدًا رسول الله.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾: أي من الذي نزلناه، وهو القرآن. وقوله
تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: أي رسولنا الذي جاء بالقرآن، ذكره بوصف العبودية
الخاصة، وقد ذكره الله بهذا الوصف في أربع مقامات:

أحدها: مقام التحدي، وهو: المذكور في هذه الآية.
والثاني: مقام الإسراء، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، ومنه
مقام الوحي، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

(١) «تفسير الطبري» (١/٣٩٥).

(٣) «تفسير الطبري» (١/٣٩٧).

(٢) «تفسير الطبري» (١/٣٩٩).

والثالث: مقام الإنذار، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

والرابع: مقام الدعاء، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] (١).

﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ شَيْءٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد من القرآن أنه من عند الله ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: المُنَزَّل، و«مِن» للبيان أي: هي مثله في البلاغة وحسن النظم والإخبار عن الغيب، والسورة قطعة لها أول وآخر أقلها ثلاث آيات ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ ألهتكم التي تعبدونها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من غيره لِتُعِينَكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أَنَّ مُحَمَّدًا قَالَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، فافعلوا ذلك فإنكم عربيون فصحاء مثله، ولَمَّا عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ ما ذَكَرَ لِعَجْزِكُمْ ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ذلك أبدًا لظهور إعجازه - اعتراض - ﴿فَاتَّقُوا﴾ بالإيمان بالله وأنه ليس من كلام البشر ﴿النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ الكفار ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ كأصنامهم منها، يعني: أنها مُفرطة الحرارة تتقد بما ذَكَرَ، لا كِنَارِ الدُّنْيَا تتقد بالحطب ونحوه ﴿أَعَدَّتْ﴾ هِيَّتْ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ يُعَذَّبُونَ بِهَا، جملة مُسْتَأْنَفَةٌ أو حَالٌ لازمة.

وقول المؤلف: (شك): تقدم تفسيره للرَّيب بالشك، والرَّيب أَخْصُّ مِنَ الشك؛ لأنه شكٌ يفضي إلى الحيرة والقلق (٢).

وقوله: (أي: المُنَزَّل): يريد أن الضمير في قوله: ﴿مِثْلِهِ﴾ يعود إلى الموصول في قوله: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾، والمنزل: هو القرآن، وهذا أحد الوجهين

(١) ينظر: «روضة المحبين» (ص ٨٤)، و«مدارج السالكين» (١/١٥٦-١٥٧)، و(٣/٤٠٠).

(٢) ينظر: «توضيح مقدمة التفسير» لشيخنا (ص ٧٩-٨٠).

في مرجع الضمير، وقيل: أنه يعود إلى العبد^(١)؛ في قوله: ﴿عَبَدَنَا﴾ فيكون المعنى: فأتوا بسورةٍ من مثل الرسول؛ فالمماثلة بين من يأتي بالسورة، وبين الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؛ فمعنى: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ يعني: في البشرية، والأميَّة، و«مِنْ» على هذا القول ابتدائية.

وقوله: («مِنْ» للبيان...) إلى آخره: يريد أن «مِنْ» في قوله: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ بيانية، والمماثلة المطلوبة بين السورة التي يأتون بها والقرآن المنزل في البلاغة وحسنِ النظم، والإخبارِ عن الغيب؛ فتضمَّن الكلام وجهين من الإعجاز؛ أحدها: البلاغة وحسن النظم. الثاني: الإخبار بالغيب. وقوله: (والسورةُ قطعةٌ...) إلى آخره: يريد أنَّ السورة اسمٌ لقطعةٍ من الكلام لها أولٌ وآخر، والمراد: قطعة من القرآن، أقلُّها: ثلاث آيات كسورة الكوثر والعصر^(٢)، وتُطلق السورة في اللغة على المنزلة الرفيعة، ومنه: «سُور البلد» لارتفاعه^(٣).

وقوله: (آلهتكم...) إلى آخره: في هذا التفسير نظرٌ، بل غير مستقيم؛ لأنه خلافٌ ما جاء عن ابن عباس^(٤)، واختاره ابن جرير؛ قال: ﴿شُهَدَاءُكُمْ﴾: أعوانكم وأنصاركم على الإتيان بسورة، وأيضًا فإنَّ الآلهة أصنامٌ لا تشهد ولا تُستشهد.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٩٦-٣٩٩)، و«تفسير ابن عطية» (١/١٤٧)، و«زاد المسير» (١/٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (١/٣١٤) ط. أولاد الشيخ.

(٢) ينظر: «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (١/٢٦٣-٢٦٥).

(٣) ينظر: «لسان العرب» (٤/٣٨٦).

(٤) جاء عن ابن عباس: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني أعوانكم على ما أنتم عليه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٣٩٩)، و(١/٤٠١)، ورواه ابن أبي حاتم في التفسير رقم (٢٤٠).

وقوله: (أي: غيره..): فَسَّرَ ﴿دُونِ﴾ بغير، وهذا أحد معاني هذه الكلمة، وجاءت في القرآن بهذا المعنى كثيراً^(١).

وقوله: (في أَنَّ مُحَمَّدًا قَالَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ...) إلى آخره: المعنى: إن كنتم صادقين في زعمكم أن محمداً افترى هذا القرآن فهاتوا أنتم سورةً واحدةً مثل الذي جاء به محمد، واستعينوا على ذلك بمن شئتم ثم أخبر - تعالى - أنهم لم يفعلوا، ولن يفعلوا، وجواب الشرط في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله.

وقوله: (ما ذُكِرَ): يريد أن مفعول ﴿تَفْعَلُوا﴾ محذوف؛ تقديره: ما ذكر؛ أي: من الإتيان بسورة مثل القرآن؛ المعنى: فإن لم تأتوا بسورةٍ لعجزكم عن ذلك، وقد عجزوا فلم يفعلوا، ثم أخبر - تعالى - أنهم لن يفعلوا، والجملة معترضةٌ بين الشرط وجوابه، وفي هذا الاعتراض زيادة في التحدي.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾، وهو واقعٌ موقع الأمر بالإيمان؛ لأنه من التعبير بالمسبب عن السبب؛ لأن من آمن اتقى. وقوله: (بالإيمان بالله وأنه ليس من كلام البشر): يريد أن اتقاء النار يكون بذلك فالإيمان بالله ورسوله هو الواقي بتوفيق الله من عذاب النار.

وقوله: (الكفارُ): بيانٌ للمراد بالناس، فيكون الناس في الآية من العام الذي أُريد به الخصوص.

وقوله: (كأصنامهم منها): يريد أن من الحجارة التي توقد بها النار ما كان يعبده المشركون من الحجارة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

(١) ينظر: «المفردات» (ص ٣٢٤).

وقوله: (هُيَّتْ...) إلى آخره: تفسير لقوله تعالى: ﴿أَعِدَّتْ﴾، والصواب أن جملة: ﴿أَعِدَّتْ للكافرين﴾ مستأنفةٌ تضمّنت الخبر بأن النار مخلوقةٌ للكافرين.

وقوله: (يُعذَّبون بها): المعنى: هُيَّتْ لتعذيبهم.



وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ [البقرة: ٢٥]:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ النَّارَ وَمَنْ أَعَدَّتْ لَهُمْ إِنْذَارًا وَتَحذِيرًا أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَبْشِرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْجَنَّاتِ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَأَخْبَرَ -تعالى- أَنَّهُمْ يُرْزَقُونَ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الثَّمَرَاتِ الْمَخْتَلِفَةِ فِي الطُّعُومِ وَاللَّذَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ فِي الْأَلْوَانِ لِذَلِكَ كَلَّمَا رُزِقُوا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الثَّمَارِ؛ قَالُوا: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾، وَالصَّوَابُ أَنَّ الْمُرَادَ مَا رُزِقُوهُ مِنْ قَبْلُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَخْبَرَ -تعالى- أَنَّ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ أَزْوَاجًا مُطَهَّرَةً مِنَ الْعُيُوبِ الْخَلْقِيَّةِ وَالْخَلْقِيَّةِ، وَأَنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ خَالِدُونَ؛ أَي: مُقِيمُونَ أَبَدًا؛ نَسَأَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ.

﴿وَبَشِّرِ﴾ أَخْبِرُ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صَدَّقُوا بِاللَّهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مِنَ الْفُرُوضِ وَالنَّوَافِلِ ﴿أَنَّ﴾ أَي: بِأَنَّ ﴿لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ حَدَائِقُ ذَاتِ أَشْجَارٍ وَمَسَاكِنٍ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أَي: مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا ﴿الْأَنْهَارُ﴾ أَي: الْمِيَاهُ فِيهَا، وَالنَّهْرُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ يَنْهَرُهُ، أَي: يَحْفَرُهُ، وَإِسْنَادُ الْجَرِيِّ إِلَيْهِ مَجَازٌ ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا﴾ أُطْعِمُوا مِنْ تِلْكَ الْجَنَّاتِ ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي﴾ أَي: مِثْلُ مَا ﴿رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: قَبْلَهُ فِي الْجَنَّةِ لِتَشَابِهِ ثَمَارِهَا بِقَرِينَةِ ﴿وَأُتُوا بِهِ﴾ أَي: جِيئُوا بِالرِّزْقِ ﴿مُتَشَابِهًا﴾ يَشْبَهُ بَعْضُهُ بَعْضًا لَوْنًا، وَيَخْتَلِفُ طَعْمًا ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ مِنَ الْحُورِ وَغَيْرِهَا ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ مِنَ الْحَيْضِ وَكُلِّ قَدْرٍ ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مَا كَثُرْنَ أَبَدًا لَا يَفْتَنُونَ وَلَا يَخْرُجُونَ.

وقول المؤلف: (أخبر): البشارة: الإخبار بما يسرُّ المُخبر، والمبشِّر: الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمبشَّر هم: الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وقوله: (صدقوا بالله): فسّر الإيمان بالتصديق، ولا شك أن الإيمان؛ أصله في اللغة: التصديق، أو نوعٌ من التصديق، وفي الشرع: الإيمان بالله وبكلِّ ما يجب الإيمان به؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته...)) الحديث^(١).

وقوله: (من الفروض والنوافل): معناه أن الأعمال الصالحة تشمل جميع العبادات من الواجبات والمستحبات، و﴿الصَّالِحَاتِ﴾ في الآية صفةٌ لموصوفٍ محذوف؛ المعنى: عملوا الأعمال الصالحات، وعَطْفُ الإيمان على الأعمال من عَطْفِ الخاص على العام^(٢).

وقوله: (بأن): يريد أن جملة ﴿أَنَّ﴾ وما دخلت عليه في تأويل مصدرٍ مجرورٍ بالباء فالمعنى: بشَّروهم أيها النبيُّ بما أعدَّ الله لهم من الجنات وما فيها من النعيم.

وقوله: (حدائق ذات شجرٍ ومساكن): يريد أن الجنات -وهي البساتين-، وعبرَ عنها بحدائق فيها أشجار وأنهار ومساكن.

وقوله: (من تحت أشجارها وقصورها): يريد أن الأنهار ليست تحت أرض الجنة، بل فيها تجري تحت أشجارها وقصورها^(٣).

وقوله: (أي: الميأه فيها): يريد أن النهر في الأصل هو الحفر الذي يجري فيه الماء، فإسناد الجريان إليه مجازٌ مُرسلٌ علاقته المحليَّة؛ لأنه تعبيرٌ بالمحليِّ عن الحال، والأولى أن يُقال: إن النهر يُطلق على المجرى الذي هو الحفر،

(١) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة، ومسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «الإيمان الكبير» (ص ١٣٨-١٤٣)، و(ص ١٥٧-١٦١).

(٣) جاءت أحاديث فيها: أن الكوثر وأنهار الجنة تجري من غير أهدود. ينظر: «تفسير الطبري»

(١/٤٠٦-٤٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١/٢٣٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/٢٠٤).

وعلى الماء الجاري، والسياق والتركيب يُعَيِّنُ أَحَدَ المعنيين، إذًا: فالأنهار في الآية هي أنواع الأشربة من الماء واللبن والخمر والعسل وغيرها.
 وقوله: (وإسنادُ الجري إليه - أي: إلى النهر - مجازٌ): جعله من قبيل المجاز العقلي، والأظهر أن المجاز في كلمة ﴿الأنهار﴾ فيكون من المجاز المرسل؛ كما تقدم.

وقوله: (أَطْعَمُوا من تلك الجنات): يعني أوتي لهم بطعام من ثمار الجنة، و(من) في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ ابتدائية، وفي قوله: ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ بيانية، و﴿رِزْقًا﴾ مفعولٌ ثانٍ لِرِزَقُوا.
 وقوله: (مثل ما): يريد أن قولهم: ﴿هَذَا الَّذِي رِزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ مثله لا عينه.

وقوله: (قبله في الجنة): يريد أن المعنى أن الذي رُزِقوه من قبل هو من رِزْق الجنة، وهذا أحد القولين في الآية^(١)، وهو الصواب، وقيل: المراد: بما رُزِقوه من قبل في الدنيا، واختاره ابن جرير^(٢)؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّمَا رِزِقُوا﴾ فيدخل فيه أول رِزْقٍ يُرِزِقونه في الجنة، والصواب: هو القول الأول؛ لأن رِزْق الجنة لا يشبه رِزْق الدنيا، وإن كان يوافقُه في الاسم، ولقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾، وهذا مختصُّ بثمار الجنة^(٣).

وقوله: (جئوا بالرزق): هذا معنى ﴿أَتُوا بِهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ حالٌ من الرِزْق، ومعنى ﴿مُتَشَابِهًا﴾ أي: يشبهه بعضه بعضًا فاللون واحد والطعم مختلف.

(١) وهو قول يحيى بن أبي كثير، وأبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود. ينظر: «تفسير الطبري» (٤٠٩-٤١٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤١٠/١).

(٣) ينظر الخلاف وذكر الحجج في: «حادي الأرواح» لابن القيم (٣٥٨-٣٦٢)، وكأن ابن القيم يميل لما ذكره شيخنا؛ فقد عقب على حجج الطبري ولم يصرح بشيء.

وقوله: (من الحُور وغيرها): يريد أن أزواج المؤمنين في الجنة؛ أي زوجاتهم بعضهن من الحور التي خلقهن الله ليكن أزواجاً للمؤمنين، وبعضهن من غيرهن، وبعضهن من غير الحور من المؤمنات اللاتي يدخلن الجنة فهن من نساء الدنيا سواء كن في الدنيا مُزوّجات أو غير مُزوّجات، كما قال تعالى: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، والله أعلم بتفاصيل ذلك^(١).

وقوله: (من الحيض وكل قدر): المعنى: أن زوجات المؤمنين في الجنة مُطَهَّرات، من الحور العين وغيرهن، مُطَهَّرات من عيوب نساء الدنيا من الحيض والبول والغائط، الخلقية والخلقية وكل قدر، بل الأزواج من المؤمنات أكمل من الأزواج من الحور؛ بفضل الإيمان والعمل الصالح^(٢).

(١) للاستزادة ينظر: حادي الأرواح (١/٤٧٠-٥٠٦).

(٢) جاء معنى هذا في حديث طويل أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٧٠)، و«الأوسط» (٣١٤١) وأورده الضياء في «صفة الجنة» (١١٩) من طريق بكر بن سهل الدماطي، ثنا عمرو بن هاشم البيروتي، ثنا سليمان بن أبي كريمة، عن هشام بن حسان، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة، «... قلت: يا رسول الله، أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة»». قلت: يا رسول الله، وبم ذاك؟ قال: «بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله عزَّ وجلَّ». وقال الضياء: «لا أعلمه إلا من طريق سليمان بن أبي كريمة، وفيه كلام».

قلنا: ولا خلاف في ضعفه. قال العقيلي في «الضعفاء» (٢١٣٨، رقم ٦٢٧): «سليمان بن أبي كريمة عن هشام بن حسان، يحدث بمناكير ولا يتابع على كثير من حديثه»، وذكر هذا الحديث، وقال: «لا يعرف إلا به».

وقال ابن عدي في «الكامل» (٤/٢٥٠، رقم ٧٤٠): «وعامة أحاديثه مناكير، ويرويه عنه عمرو بن هاشم البيروتي».

وذكره ابن الجوزي في «الضعفاء والمتروكين» (٢/٢٤، رقم ١٥٤٢)، والذهبي في «المغني في الضعفاء» (١/٢٢٨، رقم ٢٦١٦)، وفي «ديوان الضعفاء والمتروكين» (ص ١٧٥، رقم ١٧٧٢).



وقوله: (ما كُثِّنَ أبدأ...) إلى آخره: يعني مقيمون في الجنة أبدأ فلا يموتون ولا يخرجون، كما قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ [الدخان: ٥٦]، ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].



وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧]:

يخبر - تعالى - أنه لا يستحيي من ضرب المثل ببعض الأشياء الحقيرة، بأنه - تعالى - حكيم يريد بيان الحق لعباده في كل طريق للعباد ويحصل لهم به الفرقان بين الحق والباطل؛ لهذا ضرب المثل بالذباب والعنكبوت، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ الآية [العنكبوت: ٤١]، ولو شاء - تعالى - لضرب المثل بأحقر من العنكبوت كالبعوضة.

ومن حكمته - تعالى - في ذلك: ابتلاء العباد ليمتيز المؤمن من الكافر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، وبضرب هذا النوع من الأمثال يهدي الله كثيرا ويضل به كثيرا؛ يهدي به المؤمنين، ويضل به الفاسقين الذين يعترضون على الله في كلامه وبيانه؛ فيقولون فيما ضربه الله من الأمثال معترضين على الله: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾. وأما الذين آمنوا فلا يعترضون على الله؛ لأنهم يعلمون أن ما جاء عن الله كله حق.

والفاسقون: هم الخارجون عن طاعة الله بالكفر والنفاق ونقض الميثاق، ومن فسقهم قطع ما أمر الله به أن يوصل، وإفسادهم في الأرض بالمعاصي وبالصد عن سبيل الله وقد حكم - تعالى - عليهم بالخسران؛ فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾، والكفار والمنافقون هم أخسر الناس؛ لأنهم صائرون إلى النار خالدين فيها، فبذلك يخسرون أنفسهم وأهليهم؛ كما قال

تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

ونزل ردًّا لقول اليهود لَمَّا ضرب الله المثل بالذباب في قوله: ﴿وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا﴾ والعنكبوت في قوله: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ﴾ يجعل ﴿مَثَلًا﴾ مفعولٌ أول ﴿مَا﴾ نكرةٌ موصوفة بما بعدها مفعولٌ ثانٍ أي: مثل كان، أو زائدة لتأكيد الخسَّة، فما بعدها المفعول الثاني ﴿بِعَوْضَةٍ﴾ مفردُ البعوض وهو صغارُ البقِّ ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: أكبرُ منها أي: لا يترك بيانه لِمَا فيه مِنَ الْحِكْمِ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي: المثل ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت الواقع موقعه ﴿مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ تمييزٌ أي: بهذا المثل، و«ما» استفهامٌ إنكارٍ مبتدأٌ و«ذا» بمعنى الذي، بصلته خبره أي: أيُّ فائدةٍ فيه؟ قال -تعالى- في جوابهم ﴿يُضِلُّ بِهِ﴾ أي: بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ عن الحقِّ لكفرهم به ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لتصديقهم به ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته ﴿الَّذِينَ﴾ نَعَتْ ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ ما عَهَدَهُ إِلَيْهِمْ فِي الْكُتُبِ مِنَ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ توكيده عليهم ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ وَالرَّحْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ و«أَنْ» بدلٌ من ضميرِ «به» ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي والتعويقِ عن الإيمان ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكِرَ ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لمصيرهم إلى النارِ المؤبَّدةِ عليهم.

وقول المؤلف: (ونزل ردًّا...) إلى آخره: يذكر هنا سببَ نزول هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾، وذلك أن الله لَمَّا ضرب المثل بالذباب وبالعنكبوت

لأصنام المشركين قال الكفار والمنافقون: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا﴾، ومعنى قولهم: أن هذه الأشياء حقيرة فكيف يضرب الله المثل بهذه الأشياء الحقيرة التي يُستحيا من ذكرها؟! فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾^(١)، فَإِنَّ ضَرْبَ الْأَمْثَالِ مِنْ طَرَقِ بَيَانِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ، لِذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْمَثَلَ بِمَا شَاءَ بَعُوضَةً أَوْ أَكْبَرَ مِنَ الْبَعُوضَةِ أَوْ أَصْغَرَ مِنَ الْبَعُوضَةِ. وقوله: (يجعل): فيه تفسير ضرب المثل بالجعل، والجعل: بمعنى: التصيير، ينصبُ مفعولين، وجعل المثل تشبيه الشيء بالشيء، ولذا جعل المؤلف مثلاً مفعولاً أولاً، و«ما» نكرة موصوفة.

وقوله: (لا يترك بيانه لما فيه من الحكم): يريد أن معنى الآية أن الله لا يترك ضرب المثل بما شاء من صغيرٍ وكبيرٍ؛ لأنَّ في ضرب المثل حكماً، وهو بيان الحق.

وقوله: (أي: المثل): يريد أن الضمير في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يعود إلى المثل الذي ضربه الله، فالمعنى: أن الذين آمنوا بالله ورسوله يؤمنون بأنَّ المثل الذي يضربه الله يعلمون أنه الحق، أي: الموافق للحكمة المحصل للمقصود.

وقوله: (تمييز): يريد أن ﴿مَثَلًا﴾ منصوبٌ على التمييز؛ لقولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا﴾، وقدَّره المؤلف بقوله: «ماذا أراد الله بهذا المثل مثلاً»^(٢)، فاسم الإشارة راجعٌ إلى المثل الذي ضربه الله في ضرب المثل بالعنكبوت والذباب. وقوله: (و«ما» استفهام إنكار مبتدأ...) إلى آخره: يريد أن «ما» في قولهم: «ماذا» اسم استفهام، وهي: مبتدأٌ فهي في موضع رفع، والاستفهام إنكار أي: استنكارٌ واعتراضٌ من الكفار على ما ضربه الله من المثل، فالمعنى: أيُّ فائدةٍ

(١) وهو قول ابن عباس كما في رواية عطاء وأبي صالح عنه، والحسن وقتادة ومقاتل. ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص ٢٣-٢٤)، و«العجاب» لابن حجر (١/ ٢٤٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٤٣٢).

من ضرب ذلك المثل؟ و«ذا» في قولهم ﴿مَاذَا﴾ اسم موصول بمعنى: الذي، وجملة ﴿أَرَادَ اللَّهُ﴾ صلة الموصول، والموصول وصلته خبر المبتدأ الذي هو: «ما» الاستفهامية.

وقوله: (قال - تعالى - في جوابهم...) إلى آخره: يريد أن قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ جوابٌ لقول الكفار: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، وقد تضمّن الجواب بيانَ حكمته - تعالى - في ضرب المثل؛ وهي ابتلاء العباد فيهدي به مَنْ آمن بأنه الحق - وهم كثيرٌ - ويُضِلُّ به مَنْ طعن في حكمة لله من ضرب المثل حتى قالوا: ماذا أراد الله بضرب هذا المثل، فإنه لا تظهر فيه حكمة فأبي فائدة في ضربه المثل؟ فصار ضَرْبُ المثل سببًا لهداية المؤمنين وسببًا لضلال الكافرين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾.

وقوله: (الخارجين عن طاعته): يريد أن الفاسقين هم الكفار والمنافقون، فَفَسَقُهُمْ هو الفسق الأكبر، وهو: المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَا وَاهُمْ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]. وفي قول المؤلف: (الخارجين) إشارةٌ إلى أصل معنى الفسق في اللغة، وهو الخروج عن الشيء، ومنه قولهم: «فسقت الرُّطبة من قشرها» أي: خرجت^(١).

وقوله: (نعت): يريد أن الاسم الموصول بصلته نعتٌ للفاسقين، فالموصول في محل نصب؛ لأنَّ الفاسقين مفعولٌ به ليضل، والاستثناء مُفْرَغ. وقوله: (مَا عَهْدُهُ إِلَيْهِمْ...) إلى آخره: هذا تفسيرٌ للعهد الذي ينقضونه، وهو أنَّ مما عهد الله به إلى أهل الكتاب أن يؤمنوا بالنبى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا

(١) ينظر: «لسان العرب» (١٠/٣٠٨).

بعث إليهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به^(١)، والآية عامة لكل عهدٍ من الله، والأول هو المناسب لسبب النزول^(٢).

وقوله: (توكيده عليهم): أصل الميثاق: العهد المؤكّد، لكنه هنا اسم مصدر؛ بمعنى: التوثيق؛ فالمعنى: ينقضون عهد الله من بعد توكيده عليهم. وقوله: (من الإيمان بالنبي والرّحم وغير ذلك): هذا بيانٌ من المؤلّف للمراد بالموصول في قوله تعالى: ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ أي: يقطعون الذي أمر الله بوصله.

وقوله: (و«أن» بدلٌ من ضمير «به»): يريد أنّ المصدر المؤول من «أن» والفعل بدلٌ من الضمير المجرور في «به» فيكون التقدير: أمر الله به بأن يوصل؛ أي: بوصله.

وقوله: (بالمعاصي والتعويق عن الإيمان): يريد أنّ الإفساد في الأرض يكون بمعاصي الله والصدّ عن سبيله.

وقوله: (الموصوفون بما ذُكِرَ): يريد أنّ اسم الإشارة: ﴿أُولَئِكَ﴾ راجعٌ إلى الموصوفين بنقض عهد الله، وقطع ما أمر الله بوصله.

وقوله: (لمصيرهم إلى النار المؤبّدة عليهم): هذا تعليل، فالمعنى: أنهم خسروا لمصيرهم إلى النار، وقد دلّ القرآن على الذي خسروه، وهو أنفسهم وأهلهم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَّا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، فهذا هو الخسران المذكور في هذه الآية، والله أعلم.



(١) نسبه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤٨/١) لابن عباس ومقاتل، واختاره الطبري في تفسيره (٤٣٦/١-٤٣٧) بعد أن ساق الأقوال، ولم ينسبها.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٣٥-٤٥٧)، و«المحرر الوجيز» (١٥٨-١٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (٢١٠/١).

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]:

هذا توبيخ من الله للكافرين بالله واليوم الآخر وتعجب من حالهم، وهم يعلمون أحوال الموت والحياة، وقد كانوا أمواتاً في الأصلاب والأرحام فأحياهم الله هذه الحياة الدنيا ثم يميتهم فيفارقون الدنيا، ثم يحييهم يوم القيامة فيبعثهم من القبور ثم يرجعون إلى الله ليجزيهم بأعمالهم، فهم يعلمون الموتين والحياة الأولى ويُنكرون الحياة الأخرى فكفروا بذلك بربهم.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يا أهل مكة ﴿بالله و﴾ قد ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ نُظْفًا فِي الْأَصْلَابِ ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ فِي الْأَرْحَامِ وَالِدُنْيَا بِنْفِخِ الرُّوحِ فِيكُمْ. وَالِاسْتَفْهَامُ لِلتَّعْجِيبِ مِنْ كُفْرِهِمْ مَعَ قِيَامِ الْبِرْهَانِ، أَوْ لِلتَّوْبِيخِ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تُرْدُونَ بَعْدَ الْبَعْثِ فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ.

وقول المؤلف: (يا أهل مكة): يريد أن الخطاب في الآية للكفار بمكة، وهذا التخصيص غير صحيح؛ لأن ذلك خلاف ظاهر الآية، بل الخطاب للكفار والمنافقين الذين تقدم ذكْرهم في أول السورة، وذُكروا فيما بعد، وأيضاً فالسورة مدنية فالمخاطب بها الكفار من أهل الكتاب والمنافقين.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾: زاد المؤلف «قد» الدالة على التحقيق، والواو للحال.

وقوله: (نُطْفًا فِي الْأَصْلَابِ): تفسير لقوله: ﴿أَمْوَاتًا﴾^(١)، وهي الموتة التي لم يتقدمها حياة، وهي الموتة الأولى في قوله - تعالى - عن الكفار: ﴿أَمْتَنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، والموتة الثانية: هي موثهم بعد إحيائهم في الدنيا، والإحياءة الثانية حين يُنفخ في الصور ويُبعثون من القبور، وهي المذكورة في قوله: ﴿ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقوله: (في الأرحام والدنيا بنفخ الروح فيكم): هذه الحياة الأولى، ومبدؤها نفخ الروح في الجنين، وتشمل هذه الحياة أطوار الإنسان جنيناً وطفلاً وما بعد ذلك من أطوار الإنسان في هذه الدنيا.

وقوله: (والاستفهام للتعجب...): إلى آخره: يريد أن الاستفهام في قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ المقصود منه: التعجب من كفرهم، أو التوبيخ على كفرهم^(٢) مع ما يعلمونه ويشاهدونه من خلق الله لهم، ونقلهم من طور إلى طور بالإحياء والإماتة، وذلك برهان على كمال قدرته وحكمته، فمنه المبدأ وإليه المعاد - وهو الرجوع إليه بعد البعث - للجزاء على الأعمال، ولهذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.



(١) جاء هذا التفسير عن ابن عباس في رواية عطاء عنه، وقتادة، وهناك أقوال أخرى. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٤٤٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٧٣)، رقم ٣٠٢، و«زاد المسير» (١/٤٩).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/١٠٧)، و«الإيضاح» لابن الأثير (١/٥١٠-٥١١)، و«الكشاف» (١/٢٤٨).

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]:

يخبر -تعالى- في هذه الآية ممتناً على عباده بأنه خلق لهم جميع ما في الأرض من أسباب المنافع من أنواع النبات والحيوان والمعادن، ثم صعد إلى السماء فخلق السموات وجعلهن سبعاً، ثم أخبر أنه بكل شيء عليم، فدلّت الآية على كمال رحمته وكمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يقتضي أنه الإله الحق، لا يستحقُّ العبادة سواه، وفي ضمن ذلك تقييد للذين كفروا به فأشركوا به وجحدوا ما أخبر به من البعث والجزاء، وبهذا يظهر اتصال هذه الآية بالتي قبلها، فالمخاطبون بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ﴾ هم الذين قيل لهم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمُوتًا﴾.

وقال دليلاً على البعث لما أنكروه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الأرض وما فيها ﴿جَمِيعًا﴾ لتتفنعوا به وتعتبروا ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ بعد خلق الأرض أي: قصد ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾ الضمير يرجع إلى السماء؛ لأنها في معنى الجملة الآية إليه، أي: صيرها كما في آية أخرى: ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ [فصلت: ١٢] ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا، أفلا تعتبرون أنَّ القادر على خلق ذلك ابتداءً -وهو أعظم منكم- قادرٌ على إعادتكم؟

وقول المؤلف: (أي: الأرض وما فيها): يريد أن قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ يتضمّن خلق الأرض وما فيها؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ كما فصل ذلك في سورة فصلت.

وقوله: (لَتَتَفَعُّوا بِهِ وَتَعْتَبِرُوا): يشير إلى ما تدلُّ عليه اللام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ من الامتنان بما خلقه الله في الأرض من النعم لمصلحة العباد. وقوله: (بعد خلق الأرض أي: قصد): هذا بيان لمعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾، وأن ذلك بعد خلق الأرض كما تدلُّ عليه الآيات في سورة فصلت، وفسر المؤلف: ﴿اسْتَوَى﴾ بقصد، وهو معنى قول بعضهم: عمد، وهو معنى صحيح^(١)، والأولى: تفسيره بصعد^(٢)؛ لأنَّ كلاهما يتعدى بـ«إلى».

وقوله: (الضمير يرجع إلى السماء): يريد ضمير جمع المؤنث (هُنَّ)، يقول: يرجع إلى السماء، وهو مفرد، فعوُدُ الضمير إليها بلفظ الجمع باعتبار ما هي صائرة إليه، وهو كونها سبع سموات، وأصل معنى السماء: العلو من سماء يسمو^(٣)، وكانت السماء دخاناً كما في آية فصلت: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، قال المفسرون: وهذا الدخان هو بخار الماء الذي عليه العرش^(٤)، فسوى الله من هذه السماء سبع سماوات، كما قال في سورة

(١) قاله: الفراء وابن كيسان وابن قتيبة، واختاره: ابن كثير والسعدي. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٢٥/١)، و«معاني القرآن» للزجاج (١٠٧/١)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٢١٣/١)، و«تفسير السعدي» (٥٢-٥٣).

وتفسير الاستواء هنا بالقصد ليس من التحريف المذموم؛ فإنَّ ﴿اسْتَوَى﴾ ترد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها: الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾، وتارة تكون بمعنى «علا وارتفع»، وذلك إذا عدت بـ«على» كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، وتارة تكون بمعنى «قصد»، كما إذا عدت بـ«إلى» كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات. ينظر: «تفسير السعدي» (٥٢-٥٣)، (٢٢-٢٣).

(٢) قال البغوي: قال ابن عباس وأكثر مفسري السلف: «أي: ارتفع إلى السماء»، واختاره الطبري. ينظر: «تفسير الطبري» (٤٥٦/١) (٤٥٧/١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧٥/١) رقم ٣٠٨، و«تفسير البغوي» (٧٨/١).

(٣) تقدّم (ص ٥٩).

(٤) روي بنحوه عن وهب بن منبه. ينظر: «تفسير الطبري» (٣٣٤/١٢)، و«زاد المسير» (٤٧/٤).

فصلت: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾
[فصلت: ١٢].

وقوله: (مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا): يريد أن الله يعلم كل الأشياء جملةً، ويعلم كل واحدٍ منها بمفرده، ويعلم الكليات والجزئيات.
وقوله: (أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ...) إلى آخره: يشير إلى أن ذكر خلق السموات والأرض وعلمه بكل شيء سيق للدلالة به على قدرته - تعالى - على البعث، وهذا في القرآن كثير؛ كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].



وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]:

يذكر تعالى بقوله حين قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: سأجعل فيها من يخلف من سبقه من المخلوقات وهو آدم وذريته، وهم أمم يخلف بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩]، وقد أطلع - سبحانه - الملائكة على ما يحصل من بني آدم من الإفساد في الأرض وسفك الدماء، لذلك قالوا متعجبين من خلق من هذه صفته من الإفساد وسفك الدماء وجعلهم خلفاء في الأرض، هذا وهم - أي: الملائكة - قائمون بما يليق بالله من حقه عليهم تسبيحاً وتحميداً وتقديساً، وإنما صدر هذا التعجب من الملائكة؛ لعدم علمهم بحكمته - تعالى - في خلقه وتدييره، ولذلك جاء الرد قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿و﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها، وهو آدم ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ يُريقها بالقتل كما فعل بنو الجن، وكانوا فيها فلماً أفسدوا أرسل الله عليهم الملائكة فطردوهم إلى الجزائر والجبال ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ مُتَلَبِّسِينَ^(١) ﴿بِحَمْدِكَ﴾ أي: نقول: سبحان الله وبحمده ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نُزِّهَكَ عما لا يليق بك، فاللام زائدة، والجملة حال، أي: فنحن أحق بالاستخلاف ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المصلحة في استخلاف آدم وأن ذريته فيهم المطيع

(١) في النسخة المحققة (ص ١٦): (مُتَلَبِّسِينَ)، وأشار المحقق لنسخة (مُتَلَبِّسِينَ) كما أثبتناه، وهو ما رجحه شيخنا.

والعاصي فيظهر العدل بينهم، فقالوا: لن يخلق ربُّنا خلقاً أكرمَ عليه منَّا ولا أعلمَ لسبقنا له ورؤيتنا ما لم يره، فخلق الله - تعالى - آدمَ من أديم الأرض أي: وجهها، بأن قبضَ منها قبضةً من جميع ألوانها وعُجنتُ بالمياه المختلفة وسوّاه ونفخَ فيه الروحَ فصار حيواناً حساساً بعد أن كان جماداً.

وقول المؤلف: (اذكر يا محمد): يريد أن الظرف «إذ» متعلقٌ بمحذوف تقديره: اذكر؛ فالمعنى: اذكر أيها النبي، حين قال الله للملائكة. وقوله: (يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها وهو آدم): ما ذكره المؤلف في تفسير الخليفة، وهو أن الخليفة آدم، وأنه خليفة عن الله في تنفيذ أحكامه، هذا أحدُ الأقوال في معنى الخليفة^(١)، واستشهد لهذا القول بقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]، قيل: ويؤيد هذا التفسير أن الخبر عن الخليفة ذَكَرَ توطئةً لقصة آدم، ويشكلُ على هذا قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؛ لأنَّ آدم لا يكون منه ذلك، وأيضاً الخليفة إنما يكون لمن يغيب أو يموت، فالله لا يجوز أن يكون له خليفة لهذا المعنى، بل هو - تعالى - يكون خليفة لمن شاء عند غيبته أو بعد موته كما جاء في دعاء السفر: ((اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل))^(٢)، وكما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث الدجال: ((إن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجِيجُكُمْ دونكم، وإن يخرج ولستُ فيكم فامرئٌ حجيجٌ نفسه، واللهُ خليفتي على كلِّ مسلمٍ))^(٣).

(١) وهو قول ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٤٧٩)، و«زاد المسير» (١/٥٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٤٢) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) عن النّوّاس بن سمعان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وبهذا يُعلم أن الصواب أن المراد بالخليفة آدم وذريته؛ فإن الله جعلهم خلائف في الأرض؛ أي: يخلف بعضهم بعضاً، وآدم عليه السلام خليفة عمّن سكن الأرض قبله من الجن أو الملائكة على قول جمهور المفسرين^(١)، وعليه: فخليفة فعلية بمعنى: فاعل، ويصح أن يكون بمعنى مفعول؛ أي: مُستخلف، فالله استخلف آدم عمّن قبله واستخلف ذريته بعضهم عن بعض وجعلهم خلائف في الأرض، وشواهد هذا المعنى في القرآن كثيرٌ.

وقوله: (بالمعاصي)، وقوله: (يُرِيْقَهَا بِالْقَتْلِ...) إلى آخره: تضمّن كلام المؤلف أن الإفساد في الأرض بفعل المعاصي؛ وهي جميع ما حرّمه الله، وأن سفك الدماء يكون بالقتل، وهو من الإفساد في الأرض، فعطفه على الإفساد من عطف الخاص على العام، وتضمّن كلام المؤلف الإشارة إلى سبب قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ﴾، وهو أنهم قاسوا آدم وذريته على سكان الأرض قبل آدم، وقد قيل: أنهم الجن كما أشار المؤلف^(٢). وقوله: (مُتَلَبِّسِينَ): يريد أن المعنى أننا نسبّحك مُتَلَبِّسِينَ بحمدك، فالباء للملابسة، فيصير المعنى: نقول: سبحان الله وبحمده أو سبحان الله والحمد

(١) حكي هذا القول عن الحسن البصري، واختاره ابن كثير. ينظر: المصادر السابقة، و«تفسير ابن كثير» (٢١٦/١).

وفي «مفتاح دار السعادة» (٤٢٧/١-٤٣٢) تفصيل في قول: «فلان خليفة الله في أرضه»، خلاصته: «إن أريد بالإضافة إلى الله أنه خليفة عنه، فالصواب قول الطائفة المانعة منها، وإن أريد بالإضافة أن الله استخلفه عن غيره ممّن كان قبله، فهذا لا يمتنع فيه بالإضافة، وحقيقتها: خليفة الله الذي جعله الله خَلِيفًا عن غيره. وبهذا يخرج الجواب عن قول أمير المؤمنين -يقصد علي بن أبي طالب-: «أولئك خلفاء الله في أرضه».

ولشيخنا مقال منشور في موقعه الرسمي بعنوان: هل يُقال: خليفة الله؟! وينظر أيضاً: «مجموع الفتاوى» (٤٦-٤٢/٣٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٨٢/١) وما بعدها، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧٧/١)، رقم ٣٢١-٣٢٣.

لله، والتسبيحُ: هو التنزيه عن النقائص والعيوب^(١)، والحمدُ: هو الثناء بصفات الكمال^(٢).

وقوله: ﴿نُنَزِّهَكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ...﴾ إلى آخره: فسّر التقديسَ بالتنزيه، وهذا معنى مَنْ فسّره بالتطهير، فيصير معنى نقَدِّسُكَ هو معنى نَسَبِحُكَ، وقد ذُكر التسبيح قبل فلا بدَّ من الفرق إذن بين التسبيح والتقديس، وقد ذُكِرَا معًا، والأولى تفسير التقديس بالتنزيه والتعظيم^(٣)؛ ليظهر وجه الجمع بينهما.

وقوله: (اللام زائدة): يريد اللام الداخلة على ضمير المخاطب، وهو: «الكاف» في قوله: ﴿نُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وقوله: (والجملة حالٌ): يريد أنّ الجملة الاسمية التي بعد الواو حال. وقوله: (من المصلحة في استخلاف آدم...) إلى آخره: في هذا ردُّ على الملائكة في تفضيلهم أنفسهم على الخليفة الذي يكون من ذريته مَنْ يُفسد وَيَسْفِكُ الدماء، وذلك لقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وأنهم لذلك أولى بالاستخلاف، ومما يعلمه - تعالى - من أمر الخليفة ما يكون من ذريته من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وما يكون من الابتلاء الذي يحصل به من الأعمال التي هي أحبُّ إلى الله من أعمال الملائكة؛ كالتوبة من الذنوب، والجهد في سبيل الله، وبذل الأنفس والأموال في ذلك مما جعل الله ثمنه الجنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ الآية [التوبة: ١١١]، فخلق الله آدمَ ليجعله الخليفة في الأرض للحكم التي يعلمها، ثم أظهر - سبحانه - فضل آدم على الملائكة بالعلم كما في الآيات التي بعد هذه الآية.

(١) ينظر: «لسان العرب» (٢/٤٧١).

(٢) ينظر: «بدائع الفوائد» (٢/٤٣٦)، و«الوابل الصيب» (ص ٢١٩).

(٣) جاء عن أبي صالح: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: نعظّمك ونمجّدك، وعن مجاهد نحوه. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٥٠٥-٥٠٦).

وقوله: (فَقَالُوا: لَنْ يَخْلُقَ رَبُّنَا خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَّا وَلَا أَعْلَمَ): نسبة هذا القول إلى الملائكة لا يجوز الجزم به - لأنه من الغيب - إلا بنقل صحيح^(١).

وقوله: (فَخَلَقَ اللَّهُ - تَعَالَى - آدَمَ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ...) إلى آخره: ما دل عليه من أن آدَمَ خُلِقَ من تراب من طين فهو معلوم بالضرورة من دلالة القرآن، وأمَّا سائر ما تضمَّنه الكلام من التفصيل فقد جاءت فيه آثارٌ كثيرة رواها ابن جرير وغيره^(٢)، ثم إنَّ قول المؤلف: (فَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ) يقتضي أن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ كان قبل خلقِ آدَمَ، وظاهرُ سياق القرآن أنه بعده، وخلقُ آدَمَ تعقبه وجودُ الملائكة له بأمرِ الله تعالى، ثم إنه - تعالى - أظهر فضلَ آدَمَ عليهم بتعليمه أسماءَ كلِّ شيء، وعجز الملائكة عن معرفتها حتى أنبئهم آدَمَ بها بأمرِ الله - تعالى - كما في الآيات التالية، وعلى هذا فقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ متقدِّمٌ على قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.



(١) لم يصح في ذلك خبر مرفوع، وقد روي بنحوه عن الربيع بن أنس، وعن أبي العالية. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٥٣٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٨٣، رقم ٣٥٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٤٨٢-٤٨٨).

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣١-٣٣]

يخبر -تعالى- في هذه الآيات أنه علم آدم الأسماء كلها، وهي: أسماء أجناس الأشياء^(١)، ثم إنه -تعالى- عرض هذه المسميات على الملائكة، قال: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، فاعتذروا وقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾، ثم إنه -تعالى- أمر آدم أن يُعلم الملائكة بأسماء هذه الأشياء، فلما أخبرهم آدم بها ظهر فضله بذلك عليهم، وقال الله للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ...﴾ أي: في السموات والأرض ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فلما علمه -سبحانه- وخفي على الملائكة الحكم والمصالح المترتبة على استخلاف آدم وذريته بالأرض؛ أقر الملائكة بالعجز وفوضوا العلم إلى الله -تعالى- وآمنوا بكمال علم الله وحكمته لقولهم: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ أي: أسماء المسميات ﴿كُلَّهَا﴾ حتى القصعة والقصيعة، والفسوة والفسية، بأن ألقى في قلبه علمها ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي: المسميات، وفيه تغليب العقلاء ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ﴾ لهم تبكيثاً: ﴿أَنْبِئُونِي﴾ أخبروني ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ المسميات ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أي لا أخلق أعلم منكم أو أنكم أحق بالخلافة، وجواب

(١) وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وجماعة من السلف. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٥١٤-٥١٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٨٠)، رقم ٣٣٦-٣٣٨.

الشرط دلّ عليه ما قبله ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك عن الاعتراض عليك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ إياه ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ تأكيد للكاف ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يخرج شيء عن علمه وحكمته. ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ﴾ أي: الملائكة ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ المُسَمَّياتِ فسمّى كلَّ شيءٍ باسمه، وذكرَ حكمته التي خُلِقَ لها ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ﴾ تعالى لهم موبِّخاً ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما غابَ فيهما ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ ما تُظهرون من قولكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ إلخ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تُسِرُّون من قولكم: «لن يخلق ربنا أكرمَ عليه منّا ولا أعلم»؟

وقول المؤلف: (أي: أسماء المُسَمَّيات): أي الألفاظ الدالّة على معانيها، وهي: أجناس الأشياء، والاسم هو: اللفظ الدالُّ، والمسمّى هو: المعنى المدلول عليه باللفظ.

وقوله: (بأن ألقى في قلبه علمها): هذا بيانٌ لكيفية تعليم الله آدم الأسماء، والقرآن دلّ على التعليم، ولم يدلّ على الكيفية فالواجبُ الوقوف عند ما ورد به النص، والله أعلم.

وقوله: (أي: المُسَمَّيات) يريد؛ أن الضمير في قوله: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ يعود إلى المُسَمَّيات المفهومة من ذكر الأسماء.

وقوله: (وفيه تغليبُ العقلاء): وجهُ ذلك: أن المُسَمَّيات عامةٌ للعقلاء وغيرهم، وضمير الجمع الذي بالهاء والميم مختصٌّ بالعقلاء لذلك كان في عوده إلى المُسَمَّيات تغليبٌ للعقلاء.

وقوله: (تبكيًّا): أي قال لهم ﴿أَنْبِئُونِي﴾ على وجه التبكيث^(١) لهم على تفضّلهم على آدم، وأنهم أولى بالاستخلاف منه، فامتحنهم الله بعرض المسمّيات عليهم واستخبرهم عن أسمائها؛ ليظهر عجزهم وفضل آدم عليهم. وقوله: (المُسمّيات): يريد أن هؤلاء اسم إشارة إلى المسمّيات المعروضة على الملائكة. وقوله: (في أني لا أخلق أعلم منكم أو أنكم أحق بالخلافة): يبيّن المؤلّف بما ذكر دعوى الملائكة التي طُلب بالبرهان على صدقهم فيها، وهو علمُ الأسماء، ودعواهم تلك يدلُّ عليها قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. وقوله: (وجوابُ الشرط دلّ عليه ما قبله): الشرطُ قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾، وجوابه محذوف دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾.

وقوله: (تنزيهاً لك): هذا تفسير لقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ إذ معنى التسييح: التنزيه، و«سبحان» مصدرٌ بمعنى التنزيه لا يتصرف؛ لأنه ملازمٌ للنصب. وقوله: (عن الاعتراض عليك): تنبيهٌ إلى أن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ لم يكن على وجه الاعتراض، بل هو السؤال عن الحكمة. وقوله: (تأكيدٌ للكاف): يريد بذلك الضمير المنفصل ﴿أَنْتَ﴾، ذكراً تأكيداً للضمير المتصل الواقع اسم إنَّ وهو: الكاف ﴿إِنَّكَ﴾، فكلُّ من الضمير المتصل والمنفصل في محلِّ نصبٍ بـ«إنَّ». وقوله: (الذي لا يخرجُ شيء عن علمه وحكمته): يريد أن علمه محيطٌ بكل شيء، وأنَّ له حكمةً في كلِّ شيء. وقوله: (أي: الملائكة): يريد أن الضمير بالهاء والميم في قوله: ﴿أَنْبِئُهُمْ﴾ يعود على الملائكة. وقوله: (المسمّيات): يريد أن الضمير في قوله: ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ راجعٌ إلى المسمّيات، فيكون التقدير: أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَاءِ الْمَسْمِيَّاتِ.

(١) التبكيث: هو التقرّيع والتوبيخ. ينظر: «لسان العرب» (١١/٢).

وقوله: (فَسَمَّى كُلَّ شَيْءٍ بِاسْمِهِ): هذا هو الإنباء بأسماء المسميات؛
 المعنى: أن آدم امثل أمرَ ربِّه فسَمَّى كُلَّ شَيْءٍ بِاسْمِهِ الذي يُعرف به.
 وقوله: (وَذَكَرَ حِكْمَتَهُ الَّتِي خُلِقَ لَهَا): ليس في الآية ما يدل على هذا
 المعنى الذي ذكره المؤلف.

وقوله: (مُوبِّخًا): يريد أن الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ الآية
 للتوبيخ، وهو العتبُ واللومُ.
 وقوله: (مَا غَابَ فِيهِمَا): هذا تفسيرٌ لغيب السموات والأرض، والظاهر
 -والله أعلم- أن قوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ إشارةٌ إلى قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا
 تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: (مَا تُظْهِرُونَ مِنْ قَوْلِكُمْ): ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ إلخ: هذا بيانٌ للقول
 الذي أظهره.

وقوله: (تُسِرُّونَ): هذا تفسيرٌ لقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.
 وقوله: (لَنْ يَخْلُقَ رَبُّنَا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَّا وَلَا أَعْلَمَ): تقدّم أن إضافةً هذا القول
 إلى الملائكة لا يجوز الجزمُ به إلا بحجّةٍ من كتابٍ أو سنةٍ.



وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]:

يذكرُ -تعالى- بقوله للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، والقول المشار إليه في الآية هو قوله تعالى للملائكة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ كما في سورة الحجر وص [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢]، فالمعنى في الآية: اذكر حين قلنا للملائكة: ﴿اسْجُدُوا﴾، و«إذ» ظرفٌ في موضع المفعول به لـ«اذكر» المقدر. وقوله: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾: أي سجد الملائكة كلُّهم أجمعون كما في سورة الحجر وص. وقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾: أي إن إبليس لم يسجد لآدم، منعه من السجود الاستكبار، فصار بذلك من الكافرين كما هو في علم الله، والصواب: أن إبليس لم يكن من الملائكة بل من الجن^(١)؛ لقوله -تعالى- في الكهف: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سَجُودَ تَحِيَّةٍ بِالْإِنْحِنَاءِ
﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ هُوَ أَبُو الْجِنِّ، كَانَ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿أَبَى﴾ امْتَنَعَ مِنَ
السَّجُودِ ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ تَكَبَّرَ عَنْهُ وَقَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾
فِي عِلْمِ اللَّهِ.

(١) وهذا قول الحسن والزهري وقتادة وابن زيد وجماعة، والذي حققه ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٤/٣٤٦): «أن الشيطان كان من الملائكة باعتبار صورته، وليس منهم باعتبار أصله، ولا باعتبار مثاله». ينظر: «تفسير الطبري» (١/٥٣٥-٥٤٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/٢٣٦٦)، و«آكام المرجان في أحكام الجنان» للشبلي (ص ٢٠٩-٢١٢).

وقول المؤلف: (اذكُرْ): تقديرٌ للعامل في الظرف «إذ»، وعلى هذا ف«إذ» مبنيٌّ على السكون في محلِّ نصبٍ مفعولٍ به لـ«اذكر».

وقوله: (سجودَ تحيةٍ بالانحناء): أمّا قوله: (سجودَ تحية): طاعةٌ لله لا سجودَ عبادة^(١)، فحقٌّ، وأمّا قوله: (بالانحناء): فمعناه أنَّ سجودَ الملائكة ليس على جباههم بل هو ركوعٌ، وهذا محتملٌ، فقد يُطلقُ السجودُ على الركوع؛ كما قال -تعالى- لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: ١٥٤]، ولكن لا نجزم بأنَّ سجودَ الملائكة لآدم كان ركوعًا، فالله أعلم^(٢).

وقوله: (هو أبو الجنِّ): هذا صحيح^(٣)، يدلُّ له قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ الآية [الكهف: ٥٠].

وقوله: (كان بين الملائكة): يريد أنَّ إبليس كان مع الملائكة حين أمروا بالسجود لآدم فدخل في الأمر تبعًا.

وقوله: (امتنع من السجود): هذا تفسير لقوله تعالى: ﴿أَبَى﴾.

وقوله: (تكبر عنه): يريد أنَّ الحامل له على تركِ السجود الاستكبار.

وقوله: (وقال: أنا خيرٌ منه): لم يُذكر معنى هذا القول في هذه السورة، ولكنه ذكِرَ في الأعراف والحجر والإسراء وص.

وقوله: (في علم الله): يريد أنَّ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بمعنى: أنَّ الله عَلِمَ بعلمه القديم أنَّ إبليس سيكفر، وليس معنى: ﴿وَكَانَ مِنَ﴾

(١) وهو قول علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وقتادة. ينظر: «تفسير الطبري» (٥٤٦/١)، و«تفسير ابن كثير» (٢٣٢/١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٧-١٧٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٩٣/١)، و«التحجير والتنوير» (٤٢١-٤٢٢).

(٣) روي ذلك عن ابن زيد والزهرري. ينظر: «تفسير الطبري» (٥٤١/١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢٣٦٦/٧)، رقم (١٢٨٤٦).



الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ أَنْ قَدْ كَفَرَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بالسُّجُودِ وَيَعْصِي، بَلْ قَبْلَ أَمْرِهِ بالسُّجُودِ
وَمَعْصِيَتِهِ كَانَ مُؤْمِنًا^(١).



(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٥٤٦)، و«المحرر الوجيز» (١/١٨٠)، و«زاد المسير» (١/٥٤).

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٥-٣٧]:

يخبر - تعالى - في هذه الآية عن إسكانه لآدم وزوجه الجنة والإذن لهما بالأكل من الجنة حيث شاء، ونهيه لهما عن الأكل من شجرة، إمّا شجرة معينة أو جنس شجرة من أشجار الجنة، وأن ذلك كله كان بقولٍ قاله لآدم وزوجه. وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: أي بالأكل منها.

وقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾: أي تصيران بسبب أكلكما من الشجرة من الظالمين، والفاء سببية، ثم أخبر - سبحانه - بأن الشيطان قد أزل آدم وزوجه، أي: أوقعهما في الزلل؛ وهي المعصية، وذلك بالأكل من الشجرة، أزلهما بسبب أن الله أسكنهما الجنة حسداً منه لهما، وهذا معنى ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، وقُرى: ﴿فَازْلَهُمَا﴾^(١) وضعف ابن جرير هذه القراءة^(٢)، وقال: أنها لا تناسب مع قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾؛ لأن معنى: «أزلهما» أخرجهما فيلزم من ذلك التكرار. وقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾: أي أخرج الشيطان آدم وزوجه مما كانا فيه من النعيم في الجنة بسبب ما زينه لهما من المعصية التي نهيا عن قربانها، ثم أخبر - تعالى - أنه قال لآدم وزوجه وإبليس: ﴿اهْبِطُوا...﴾؛ أي: من الجنة، وهي في السماء إلى الأرض، و﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وقيل لهم: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: مكان تستقرون فيه ومتاعٌ تتمتعون به إلى وقت الأجل المقدر، ثم أخبر - تعالى - أن آدم - أي: وزوجه - تلقيا من ربهما كلماتٍ علّمهم الله إياها يُعبران بها عن

(١) قرأ حمزة وحده: ﴿فَازْلَهُمَا﴾ بألف مع التخفيف. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٥٤)، والنشر (٢/ ٢١٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٥٦٠).

توبتهما واعترافهما بذنبيهما، وهذه الكلمات هي المذكورة في سورة الأعراف:
﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:
٢٣]، فتاب الله عليهما وغفر ذنبيهما بأنه - سبحانه - تَوَّابٌ أي: كثيرُ التوبة على
عباده رحيمٌ بهم.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ ﴿١﴾ وَزَوْجُكَ ﴿٢﴾ حَوَاءَ بِالْمَدِّ، وَكَانَ خَلْقُهَا مِنْ ضَلَعِهِ الْأَيْسَرِ ﴿٣﴾ الْجَنَّةَ وَكُلَا ﴿٤﴾ مِنْهَا ﴿٥﴾ أَكْلًا ﴿٦﴾ رَغَدًا ﴿٧﴾ وَاسْعًا لَا حَجْرَ فِيهِ ﴿٨﴾ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ ﴿٩﴾ الشَّجَرَةَ ﴿١٠﴾ بِالْأَكْلِ مِنْهَا، وَهِيَ الْجِنَّةُ أَوْ الْكَرْمُ أَوْ غَيْرُهُمَا ﴿١١﴾ فَتَكُونَا ﴿١٢﴾ فَتَصِيرَا ﴿١٣﴾ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ الْعَاصِينَ ﴿١٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ ﴿١٦﴾ إِبْلِيسُ أَذْهَبَهُمَا،
وفي قراءة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ﴿١٧﴾ نَحَّاهُمَا ﴿١٨﴾ عَنْهَا ﴿١٩﴾ أَي: الجنة بأن قال لهما: هَلْ
أَدْلِكُمَا عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ؟ وَقَاسَمَهُمَا بِاللَّهِ إِنَّهُ لَهُمَا لِمَنْ النَّاصِحِينَ فَأَكَلَا
مِنْهَا ﴿٢٠﴾ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴿٢١﴾ مِنَ النِّعَمِ ﴿٢٢﴾ وَقُلْنَا اهْبِطُوا ﴿٢٣﴾ إِلَى الْأَرْضِ
أَي: أُنْتَمَا بِمَا اشْتَمَلْتُمَا عَلَيْهِ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمَا ﴿٢٤﴾ بَعْضُكُمْ ﴿٢٥﴾ بَعْضُ الذَّرِيَّةِ ﴿٢٦﴾ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ ﴿٢٧﴾ مِنْ ظَلَمٍ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴿٢٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴿٢٩﴾ مَوْضِعٌ قَرَارٌ
﴿٣٠﴾ وَمَتَاعٌ ﴿٣١﴾ مَا تَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنْ نَبَاتِهَا ﴿٣٢﴾ إِلَى حِينٍ ﴿٣٣﴾ وَقَدْ انْقَضَاءُ آجَالِكُمْ
﴿٣٤﴾ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴿٣٥﴾ أَلْهَمَهُ إِيَّاهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِنَصْبِ آدَمَ وَرَفَعَ
كَلِمَاتٍ، أَي: جَاءَهُ؛ وَهِيَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴿٣٦﴾ الْآيَةَ، فَدَعَا بِهَا ﴿٣٧﴾ فَتَابَ
عَلَيْهِ ﴿٣٨﴾ قَبْلَ تَوْبَتِهِ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ ﴿٤٠﴾ عَلَى عِبَادِهِ ﴿٤١﴾ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ بِهِمْ.

وقول المؤلف: (تأكيد للضمير المستتر ليعطف عليه): يريد أن الضمير
المنفصل وهو «أنت» جاء في الجملة تأكيداً للضمير المستتر الواقع فاعلاً لفعل
الأمر «أسكن».

وقوله: (لِيَعْطَفَ عَلَيْهِ): أي ليعطفَ على الضمير المستتر، فإنه ضميرٌ رفع متصل، ولا يجوز العطفُ على ضمير الرفع المتصل إلا أن يفصلَ بينهما بفواصلٍ كضمير الفصل، وهو في هذه الجملة «أنت»، وزوج معطوف على الضمير المستتر.

وقوله: (حواء...) إلى آخره: هذا اسمُ زوجِ آدم، وهو المعروف، وجاء تسميتها في الصحيح: ((لولا حواء لم تخنُ أنثى زوجها))^(١)، وليست الخيانة بفعل الفاحشة^(٢)، ولهذا يقال للنساء: بنات حواء.

وقوله: (وكان خلقها من ضلعِ الأيسر): أي من ضلعِ آدم من جنبه الأيسر، أمّا خلقها من آدم فهو نصُّ القرآن؛ قال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وأمّا خلقها من الضلع فجاء في السنة^(٣).
وقوله: (أكلًا): قدّر المصدر؛ ليبيّن أن ﴿رَغَدًا﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ تقديره: أكلًا رغدًا، والأولى تقديره رزقًا^(٤).

وقوله: (واسعًا لا حجرَ فيه): معناه أن الرزق الذي أُذِنَ لهما بأكله من الجنة واسعٌ لا حجرَ فيه ولا حرجَ، فلهما أن يأكلا من جميع أشجارِ الجنة إلا التي نُهيّا عنها، ولذا قيل في معنى: ﴿رَغَدًا﴾: واسعًا هنيئًا^(٥)، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي: في أيِّ مكانٍ من الجنة.

(١) رواه البخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (١٤٧٠) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (٦/٣٦٨): «وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش، حاشا وكلا، ولكن لَمَّا مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسنت ذلك لآدم؛ عدّ ذلك خيانة له».

(٣) في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهب تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء)). رواه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨) من حديث أبي هريرة، واللفظ للبخاري.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٥٥١).

(٥) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٤٦)، و«المفردات» للراغب (ص ٣٥٣).

وقوله: (بالأكل منها): بيان للمنهي عنها المتعلق بالشجرة يدلُّ لذلك قوله قبل ذلك: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا﴾، فقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: كاستثناء من الإباحة العامة المفهومة من قوله: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

وقوله: (وهي الحنطة أو الكرم أو غيرهما): لم يقل دليلاً على تعيين الشجرة المنهي عنها أو جنسها فلا معنى للخوض في ذلك. وقوله: (فصيراً): لأنَّ من معاني كان: صار، وذلك إذا وقعت بعد فاء السببية كما هنا. وقوله: (العاصين): بيان لنوع الظلم، وأنه من ظلم العبد نفسه بالمعصية لا بالكفر.

وقوله: (إبليسُ أذهبهما): فسَّرَ الشيطانُ بإبليس الذي امتنع من السجود لآدم، وأزَلَّهُمَا أذهبهما، فالمعنى: أذهبهما إبليس عن الجنة فصار لعدوِّهما اسمان: إبليس والشيطان، وإبليس من الإبلّاس، وهو: اليأس من رحمة الله^(١)، والشيطان قيل: من شاط، وقيل: من شَطَنَ^(٢).

وقوله: (وفي قراءة: ﴿فَأَزَّاهُمَا﴾ نَحَاهُمَا): قلتُ: القراءتان متقاربتان لفظاً ومعنى، على ما ذكره المؤلف في معنى «أزَلَّهُمَا» قال: أذهبهما، والصواب أنَّ معنهما مختلف؛ «فَأَزَّاهُمَا» من الزَّل، و«أزاهما» من الإزالة.

وقوله: (أي: الجنة...) إلى آخره: بين مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿عَنْهَا﴾، ثم ذكر المؤلف رَحْمَةً لِّلَّهِ حِيلَةَ الشَّيْطَانِ فِي إِخْرَاجِ آدَمَ وَزَوْجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، وذلك مبين في سورة الأعراف وطه، ففي الأعراف قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمِهِمَا...﴾ [الأعراف: ٢٠] إلى قوله: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وفي سورة طه: قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا...﴾ الآية [طه: ١٢٠، ١٢١].

(١) ينظر: «لسان العرب» (٢٩/٦). (٢) ينظر: «لسان العرب» (١٣/٢٣٨).

وقوله: (من النعيم): بيان لما كان فيه من الحال الحسنة في الجنة، وقد بين - سبحانه - ذلك في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى *﴾ [طه: ١١٨-١١٩]، وقوله: ﴿وَكُلًّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥].

وقوله: (إلى الأرض...) إلى آخره: الهبوط ضد الصعود، وكلاهما يتعدى بـ«إلى»، وكان هبوط آدم وزوجه من الجنة إلى الأرض، وجاء في هذه الآية أمرهما بالهبوط بصيغة الجمع، وتأولَه المؤلف: بأنه خطاب لآدم وزوجه بلفظ الجمع؛ لاشتمالهما على الذرية التي ستكون منهما، وهذا من أحسن التوجيه^(١)، وقد قيل: بأنه خطاب لآدم وزوجه وإبليس، وهذا أجود؛ لقوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وإبليس: عدو لآدم وزوجه وذريتهما، وعليه فلا إشكال في جمع الضمير^(٢).

وقوله: (بعض الذرية): هذا التفسير يتضمّن أنّ العداوة المذكورة هي التي تكون بين بني آدم، وأظهرها وأكثرها العداوة بين المؤمنين والكفار، ومن أسباب العداوة ما سببه الظلم بين الناس. وقوله: (موضع قرار): يريد أنّ ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ اسم مكان من استقرّ، والاستقرار في المكان هو: الثبات فيه^(٣). وقوله: (ما تتمتعون به من نباتها): أصل المتاع اسم مصدر بمعنى التمتع، وهو الانتفاع بالشيء^(٤)، وقد يُعبر به عن المتمتع به، وقد مشى المؤلف على هذا فقال: المتاع: ما يتمتع به من نبات الأرض، والصحيح: أنه عام لكل ما

(١) واختاره الفراء في «معاني القرآن» (١/٣١)، والزمخشري في «الكشاف» (١/٢٥٥).
 (٢) قاله مقاتل، واختاره الأخفش في «معاني القرآن» (١/٨٤)، والطبري في تفسيره (١/٥٧١).
 (٣) ينظر: «المفردات» للراغب (٦٦٢)، و«لسان العرب» (٥/٨٤).
 (٤) ينظر: «لسان العرب» (٨/٣٢٩).

يُنتَفِعُ بِهِ مِمَّا خَلَقَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ فِي الْأَرْضِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] (١).

وقوله: (وَقَدْ انقضاء آجالكم): من المعلوم بالحسّ والشرع أن تمتع الإنسان بما في الأرض من متاع غايته الأجل المقدر لحياته فينتهي المتاع بانتهاء الحياة.

وقوله: (أَلْهَمَهُ إِيَّاهَا...) إلى آخره: هذا تفسير لـ«تلقى»؛ فمعنى ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾: أَلْهَمَهُ اللَّهُ كَلِمَاتٍ، وعلى قراءة رفع ﴿كَلِمَاتٍ﴾ المعنى: فجاه من ربّه كلماتٌ، وهذا الكلمات بينها -تعالى- في سورة الأعراف: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وهذا استغفارٌ متضمّنٌ للتوبة النصوح، فقبل الله توبتهما؛ لأنه -تعالى- هو التوّاب الذي يُوفِّقُ من شاء للتوبة، ويقبل التوبة ممن تاب إليه، وهو الرحيم بعباده، وتوبته على التائبين من رحمته بهم.



(١) واختاره الماوردي في تفسيره (١/١٠٨)، والزمخشري في «الكشاف» (١/٢٥٥)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/١٨٧).

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبُطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩]:

يخبر - تعالى - أنه أمر آدمَ وزوجَه وإبليسَ بالهبوط إلى الأرض كما في الآية السابقة. وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾: تأكيدٌ لمعنى الواو في قوله: ﴿أَهْبُطُوا﴾، وأعاد الأمر بالهبوط - والله أعلم - بذكر ما يترتبُ عليه مما لم يذكر في الأمر الأول، وذلك قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ وهو ما بعثَ به رُسُلُه، ثم ذكر حال الناس مع هذا الهدى وأنهم فريقان: متبعٌ له، ومُعرضٌ عنه، وحُكْمَ كلِّ فريق، وذلك قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾...﴾ الآيتين.

﴿قُلْنَا اهْبُطُوا مِنْهَا﴾ من الجنة ﴿جَمِيعًا﴾ كَرَّرَهُ لِيُعْطِفَ عَلَيْهِ ﴿فَإِمَّا﴾ فيه إدغامٌ نونٍ «إِنْ» الشرطية في «ما» المزيدة ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ كتابٌ ورسولٌ ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ فآمنَ بي وعملَ بطاعتي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة بأن يدخلوا الجنة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كُتِبْنَا ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ما كُتِبُوا أَبَدًا لَا يَفْنَوْنَ وَلَا يَخْرُجُونَ.

وقول المؤلف: (من الجنة): الهبوطُ من الجنة يدلُّ على أنها في العلو. وقوله: (كَرَّرَهُ): أي كَرَّرَ الأمرَ بالهبوط، وقد جاء الأمرُ بالهبوط في هذه الآية، والآية السابقة؛ يقول المؤلف: (كَرَّرَهُ لِيُعْطِفَ عَلَيْهِ) وليس قوله هذا بظاهرٍ؛ فإنه ليس في الآية عطفٌ، ولو قال: كَرَّرَهُ لِيذكر ما سيكونُ بعد الهبوط، وذلك في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى...﴾، إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا﴾ يقول المؤلف: (فيه إدغام نون «إن» الشرطية في «ما» المزيدة): لذلك تُنطَقُ ميمًا مشددة، والفاء للتفريع.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾: فعل الشرط مبنيٌّ على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وهو في محلِّ جزم. وقوله تعالى: ﴿هُدًى﴾ دلالةٌ وإرشادٌ بكتاب مُنَزَّل، ونبيٍّ مُرْسَل، ولذا قال المؤلف: (﴿هُدًى﴾ كتابٌ ورسولٌ).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ﴾: الفاء واقعةٌ في جواب الشرط «إن»، و«مَنْ» اسمٌ شرط. وقوله تعالى: ﴿تَبَعَ هُدَايَ﴾: قال المؤلف: (فأمن بي وعمل بطاعتي)، وهذا تفسيرٌ صحيحٌ، فاتباع الهدى يتحقق بالإيمان بالله والعمل الصالح.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: الفاء واقعةٌ في جواب «مَنْ» الشرطية، ونفيُّ الخوف والحزن عنهم يتضمَّنُ السعادةَ بالأمن والسرور، وذلك في الجنة، ولذلك قال المؤلف: (بأن يدخلوا الجنة).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الموصول مبتدأ، وكفروا؛ أي: كفروا الله؛ أي: جحدوه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: قال المؤلف: (﴿بِآيَاتِنَا﴾: كُتِبْنَا)، وهذا تفسيرٌ للآيات بالآيات الشرعية، ولكنَّ الآيةَ تعمُّ الآيات الشرعية والكونية كالمعجزات، فالكفار كذَّبوا بآيات الله كلها.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾: اسم الإشارة عائدٌ إلى الذين كفروا وكذَّبوا.

وقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾: أي هم أهل النار.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: قال المؤلف: (﴿خَالِدُونَ﴾: مَا كَثُونَ

أَبَدًا لَا يَفْنَوْنَ وَلَا يَحْرُجُونَ). كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا﴾ [فاطر:

٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].



وقوله تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٣﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ۗ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤٤﴾ وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٦﴾ * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٠-٤٦].

هذا خطابٌ من الله خاصٌ ببني إسرائيل بعد الخطاب العام لجميع الناس في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ...﴾ إلى آخر قصة آدم وإبليس. وإسرائيل: هو نبيُّ الله يعقوب بن إسحاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وفي ذكر نسبهم إلى إسرائيل تنويهٌ بفضله وتحريضٌ لبنيه على الاستجابة لدعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما يقال: يا بني العبد الصالح، اقتدوا بأبيكم، واستقيموا^(١).

والمقصودون بهذا الخطاب أهل الكتاب من اليهود والنصارى فإنهم بنو إسرائيل، واليهودُ أخصُّ بذلك؛ لأنهم الموجودون حول المدينة في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمقصود: تذكيرهم بأسلافهم، وما جرى لهم أو عليهم من النعم والابتلاءات، وما جرى منهم من المخالفات في عهد موسى رسول الله إليهم وبعده، وامتنانٌ على المخاطبين، ودعوةٌ لهم إلى شكر الله والإيمان بهذا الرسول، وتحذيرٌ لهم من الإصرار على التكبر والعصيان.

ثم أمر الله بني إسرائيل أن يؤمنوا بما أنزل الله على محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو القرآن، وهو مُصَدِّقٌ لِمَا معهم من التوراة والإنجيل؛ أي: شاهدٌ بصدقهما، وينهاهم تعالى عن المبادرة إلى الكفر به، وذلك قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ﴾.

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٤١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: هذا نهى من الله لأحبار اليهود أن يؤثروا الدنيا على الآخرة، فيستبدلوا آيات الله التي عندهم ثمنًا؛ أي: عرضًا من الدنيا قليلًا يُعْطَوْنَهُ لِيُحَرِّفُوا أو يكتُموا آياتِ الله التي فيها الخبرُ عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِفْتُهُ، ثم أكَّد الأمرَ بالخوف منه فقال: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾: هذه الجملةُ إعرابُها كالتي قبلها ﴿وَإِنِّي فَارْهَبُونِ﴾، وهذا أمرٌ من الله لأحبار اليهود أن يتَّقوه فلا يشتروا آيات الله ثمنًا قليلًا، والتقوى: هي امتثالُ الأوامر والنواهي خوفًا من الله تعالى، ولهذا قال المؤلف: -تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُونِ﴾: - (خَافُونَ فِي ذَلِكَ دُونَ غَيْرِي). وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾: اللبس: خلطُ الشيء بالشيء حتى لا يتميَّز أحدهما من الآخر^(١)، والآية نهى لليهود عن خلط الحق المنزَّل عليهم بالباطل الذي افتروه من تشريعاتٍ وتحريفاتٍ، ولذا قال المؤلف في تفسير كلمات الآية: في معنى ﴿تَلْسُوا﴾: تخلطوا، ﴿الْحَقَّ﴾: الذي أنزلتُ عليكم، ﴿بِالْبَاطِلِ﴾: الذي تفترونه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾: الواو: قيل عاطفة؛ فالتقدير: ولا تكتُموا الحقَّ؛ فتفيد الآية النهيَ عن كلِّ من الأمرين على انفراد: اللبس والكتمان، ﴿وَتَكْتُمُوا﴾ مجزومٌ بلا الناهية، وقيل: الواو واو المعية، والفعلُ منصوبٌ بأن بعدها، فتفيدُ الآية على هذا الإعراب: النهيَ عن الجمع بين الأمرين -اللبس والكتمان-، وهذا اختلافٌ في الإعراب ودلالةِ الكلام^(٢)، وأمَّا الحكمُ فمعلومٌ أنَّ كلاً من اللبس والكتمان حرامٌ مجتمعين أو منفردين،

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٧٧٥)، و«التبيان في تفسير غريب القرآن» لابن الهائم (ص ٧١).

(٢) الوجه الأول هو قول ابن عباس، والوجه الثاني هو قول أبي العالية ومجاهد. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٣)، و«تفسير الطبري» (١/ ٦٠٧-٦٠٩).

والجمعُ بينهما أقبحُ، والحقُّ الذي نُهوا عن كتمانهِ: ما عندهم من الخبر عن بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفته، وما يجب عليهم من الإيمان به واتباعه^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٤٢): هذا أمرٌ من الله لأهل الكتاب بالدخول في الإسلام، وإقامة الصلاة المكتوبة، وإيتاء الزكاة المفروضة في شريعة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والركوع مع الراكعين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وهذا كأمر المشركين بالعبادة والصلاة إيماناً بالله ورسوله، وعملاً بشريعته؛ قال تعالى: ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَعَبُدُوا﴾^(٤٣) [النجم: ٦٢]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾^(٤٤) [المرسلات: ٤٨].

وما أمر به أهل الكتاب في هذه الآية من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة مُتَابِعَةً للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو نظير ما أخذ عليهم من الميثاق أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة المفروضة عليهم في شريعتهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾ إلى قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(٤٥).

ثم وبنح الله بني إسرائيل - وهم: اليهود - على أمرهم الناس بالبر - وهو: العمل الصالح - وترك المعاصي، وتركهم أنفسهم فلا يفعلون ما أمروا به غيرهم، ولا يتركون ما نُهوا عنه، وهذا معنى: ﴿وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، يفعلون ذلك على علم، ولذا قال سبحانه: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة، ومعلوم أن أمر الإنسان غيره بما ينفعه، وتركه نفسه جهلٌ وسفَهٌ، ولذا قال تعالى منكرًا على الذين سلكوا هذا المسلك: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٤٦)، فعلم من هذه الآية أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر رياءً، وهو في نفسه في السرِّ يخالف ما يُظهره مذمومٌ ومُستحقٌّ للوعيد المذكور في حديث أسامة في الصحيحين في شأن الرجل الذي يُلقى في النار فتندلق أفتابه... الحديث^(٢).

(١) وهو قول ابن عباس ومجاهد والسدي وجماعة. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٦٠٩-٦١١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٩٨-٩٩).

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

أَمَّا مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ صَادِقًا وَلَكِنَّهُ مُقَصِّرٌ فِي نَفْسِهِ؛ فَهُوَ مَأْجُورٌ عَلَى قِيَامِهِ بِوَأَجِبِ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى جِهَادِهِ لِنَفْسِهِ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَا حَدِيثِ أُسَامَةَ، وَيَغْلَطُ بَعْضُ النَّاسِ فِي فَهْمِ هَذِهِ الْآيَةِ فَيُظَنُّ أَنَّ مَنْ كَانَ مُقَصِّرًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأْمُرَ غَيْرَهُ وَيَنْهَاهُ، وَهَذَا يُحَقِّقُ لِلشَّيْطَانِ غَرَضًا؛ وَهُوَ تَرَكُ أَكْثَرَ النَّاسِ لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ لِأَنَّ التَّقْصِيرَ فِيمَا يَجِبُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَتَرَكُ مَعْصِيَتِهِ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى النَّاسِ؛ فَالْوَأَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَجَاهِدَ نَفْسَهُ لِيَقُومَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ، وَيَجَاهِدَ غَيْرَهُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، فَكُلٌّ مِنَ الْجِهَادِينَ وَاجِبٌ لَا يُتْرَكُ أَحَدُهُمَا لِلتَّقْصِيرِ فِي الْآخِرِ^(١).

ثم أمر الله بالصبر والصلاة فقال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، والمخاطب بهذا هم بنو إسرائيل على ما اختاره ابن جرير^(٢)، وذهب ابن كثير إلى أنه أمر عام لم يقصد به أهل الكتاب خاصة^(٣)، وكلٌّ من القولين له وجه، فقول ابن جرير هو المناسب لسياق الكلام؛ لأنَّ قوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ معطوف على ما تقدّم من الأوامر والنواهي من قوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾. وما قاله ابن كثير هو: ما يقتضيه المعنى؛ فقوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ عامٌّ من حيث المعنى، خاصٌّ من حيث اللفظ، وهكذا القول في كلِّ الأوامر والنواهي المتقدّمة؛ الأصل أنها خطابٌ لبني إسرائيل، ولكنَّ حكمها ومعناها عامٌّ، فنحن أمّة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُكَلَّفُونَ بِمَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّوَاهِي، فَعَلِينَا امْتِثَالَهَا طَاعَةً لِلَّهِ وَعَمَلًا بِوَصَايَاهُ^(٤).

وقوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾: أمرٌ من الله بالاستعانة على كلِّ الأمور المهمة بالصبر والصلاة، وهي الصلوات الخمس، أو الصلاة مطلقًا فتشمل نوافل

(١) ينظر: «لطائف المعارف» (ص ٥٧-٥٩)، و«غذاء الألباب» (١/ ٢١٥-٢١٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٦٢٣). (٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٥٣).

(٤) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٢٤)، و«التفسير البسيط» كلاهما للواحدى (٢/ ٤٥٧).

الصلاة، ﴿وَأَنهَا﴾ أي: الصلاة، ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: شاقة^(١)، ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ أي: الساكنين الخاضعين لربهم، وللمفسرين من السلف في تفسير الخاشعين عباراتٌ مختلفةٌ في اللفظ مُتَّفَقَةٌ في المعنى؛ كقول بعضهم: «المتواضعين»^(٢)، وقول بعضهم: «الخاضعين»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَطْنُونَ أَنَّهُمْ مُلْأُوا رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: معنى ﴿يَطْنُونَ﴾: يعلمون ويوقنون كما قال المؤلّف، والظنُّ يأتي بمعنى العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة: ٢٠]، ويأتي بمعنى الشك^(٤)، واعتبر ذلك ابنُ جرير من قبيل المشترك اللفظي، فالعربُ تُطْلِقُ الظنَّ على اليقين والشك، كما تُطْلِقُ على الظلمة: سُدْفَةٌ، وعلى الضياء: سُدْفَةٌ^(٥).
وقوله: ﴿أَنَّهُمْ مُلْأُوا رَبَّهُمْ﴾: يعني يوم القيامة إذا بُعِثُوا. وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: ويعلمون أنهم إلى ربهم راجعون، فيُنْبِئُهُم بأعمالهم، ويجزيهم عليها.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أولاد يعقوب ﴿أذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: على آبائكم من الإنجاء من فرعون، وفلق البحر، وتظليل الغمام، وغير ذلك؛ بأن تشكروها بطاعتي ﴿وَأَوْفُوا بَعْهْدِي﴾ الذي عهدته إليكم من الإيمان بمحمّد ﴿أَوْفِ بَعْهْدِكُمْ﴾ الذي عهدته إليكم من الثواب عليه بدخول الجنة ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ خافون في ترك الوفاء به دون غيري

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٦٩٦)، و«نزهة الأعين النواظر» (ص ٥٢٠).

(٢) قاله مقاتل بن حيان كما أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١/١٠٣ رقم ٤٩٢).

(٣) قاله الضحاك. ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/٢٥٣). وقال الطبري (١/٦٢٢-٦٢٣):

«الخاضعين لطاعته، الخائفين سطواته، المصدقين بوعدته ووعدته»، وقال: «وأصل الخشوع: التواضع والتذلل والاستكانة».

(٤) ينظر: «نزهة الأعين النواظر» (ص ٤٢٥).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٦٢٣-٦٢٤).

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ﴾ من القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة بموافقته له في التوحيد والنبوة ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ من أهل الكتاب لأنَّ [مَنْ] ^(١) خَلْفَكُمْ تَبِعَ لَكُمْ فَإِنَّهُمْ عَلَيْكُمْ ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ تستبدلوا ﴿بِآيَاتِي﴾ التي في كتابكم من نعت محمدٍ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عوضًا يسيرًا من الدنيا؛ أي: لا تكتموها خوف فوات ما تأخذونه من سفلتكم ﴿وَأَيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ خافون في ذلك دون غيري. ﴿وَلَا تَلْبَسُوا﴾ تخلطوا ﴿الْحَقَّ﴾ الذي أنزلت عليكم ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الذي تفترونه ^(٢) ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ نعت محمدٍ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه الحق ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرََّاكِعِينَ﴾ صلُّوا مع المصلِّين محمدٍ وأصحابه. ونزل في علمائهم وكانوا يقولون لأقربائهم المسلمين: اثبتوا على دين محمدٍ فإنه حقٌّ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ بالإيمان بمحمدٍ ﴿وَتَنْسُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تتركونها فلا تأمرونها به ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ التوراة، وفيها الوعيدُ على مخالفة القول العمل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سوءَ فعلكم فترجعون؟ فجملته النسيان محلُّ الاستفهام الإنكاري. ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ اطلبوا المعونة على أموركم ﴿بِالصَّبْرِ﴾ الحبس للنفس على ما تكره ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ أفردها بالذكر تعظيمًا لسانها، وفي الحديث: ((كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ بَادَرَ إِلَى الصَّلَاةِ)) ^(٣). وقيل:

(١) زيادة من شيخنا، قال: لا يستقيم المعنى إلا بها، ولم نجد لها في نسخ الجلالين المطبوعة.

(٢) كذا في طبعة دار السلام، وابن كثير وحاشية الصاوي وحاشية الجمل، وهي التي رجحها شيخنا، وفي نسخة قباوة: (تغيرونه).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٢٩٩)، وأبو داود (١٣١٩)، كلاهما من طريق يحيى بن زكريا، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلي، عن عبد العزيز بن أخي حذيفة، عن حذيفة، قال: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى». وهذا إسناد رجاله ثقات غير محمد بن عبد الله الدؤلي وشيخه عبد العزيز بن أخي حذيفة، فهما مجهولان. أما محمد بن عبد الله الدؤلي؛ فقد قال الذهبي في «الميزان» (٧٧٤٧): «ما أعلم روى عنه غير عكرمة بن عمار»، وقال الحافظ في «التقريب» (٦٠٤٢): «مقبول»، أي حيث يتابع وإلا فهو لين؛ بحسب اصطلاحه.

الخطابُ لليهود لَمَّا عاقَهم عن الإيمانِ الشَّرُّ وحبُّ الرياسةِ فأَمروا بالصبرِ وهو الصوم؛ لأنَّهُ يكسرُ الشهوةَ، والصلاة؛ لأنها تُورثُ الخشوعَ وتنفي الكِبْرَ ﴿وإنَّهَا﴾ أي: الصلاةُ ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ ثَقِيلَةٌ ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الساكنين إلى الطاعةِ ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يوقنون ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ بالبعثِ ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ في الآخرة فيجازيهم.

وقول المؤلف: (أولاد يعقوب): في هذا بيان المراد بإسرائيل أنه نبيُّ الله يعقوب، ومعنى إسرائيل: عبد الله^(١)؛ كإسماعيل وجبرائيل.

وقوله: (أي: على آبائكم من الإنجاء من فرعون، وفلق البحر، وتظليل الغمام، وغير ذلك؛ بأن تشكروها بطاعتي): لأنَّ الإنعامَ على الآباءِ إنعامٌ على الذرية؛ كما قال تعالى عن العبد الشاكر^(٢) في دعائه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وأخبر عن نبي الله سليمانَ بمثل ذلك؛ لذلك أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما أنعم الله به على آبائهم ممَّا قصَّه تعالى في هذه الآيات التالية، ومن نعم الله على بني إسرائيل ما ذكَّر به موسى قومه إذ قال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة المائدة: ٢٠].

وأما عبد العزيز بن أخي حذيفة؛ فقد روى عنه حميد بن زياد اليمامي، وذكره ابن حبان والعلجلي في ثقاتهما. ينظر: على التوالي (٤١٦١)، و(١٠١٩).
والحديث حسنه الحافظ في «الفتح» (١٧٢/٣)، والألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١١٩٢).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٩٣/١).

(٢) قيل: هو أبو بكر الصديق، وروي ذلك عن ابن عباس وجماعة، وقيل: نزلت في سعد بن أبي وقاص، وقيل: هي عام في جنس الإنسان. ينظر: «تفسير الطبري» (١٤١/٢١)، و«زاد المسير» (١٠٧/٤).

وقوله: (الذي عهده إليكم من الإيمان بمحمدٍ)، وقوله: (الذي عهده إليكم من الثواب عليه بدخول الجنة): العهد اسم مصدرٍ مُضَافٍ إلى مفعوله في الجملتين؛ فيكون التقدير في الجملة الأولى: أوفوا بعهدي الذي أخذته عليكم؛ فدخل في ذلك كلُّ ما أخذه الله على بني إسرائيل من المواثيق؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾ الآية [البقرة: ٨٣]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ...﴾ الآية [آل عمران: ٨١].

والتقدير في الجملة الثانية: أوفي بعهدكم الذين عهده إليكم؛ فدخل في ذلك كلُّ ما وعد الله به بني إسرائيل من الثواب العاجل والآجل؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ الآية [المائدة: ١٢].

وقوله: (خافون في ترك الوفاء به دون غيري): الرهبة: خوفٌ مع الفرار من المخوف^(١)، لكنَّ اللهَ الفرائضَ منه إليه، والضمير المنصوب «إياي»: مفعولٌ به

(١) ينظر: «المفردات» (ص ٣٦٦)، قال ابن القيم: «الرهبة هي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه، وبين الرهب والهرب تناسب في اللفظ والمعنى، يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عقد تقاليب الكلمة على معنى جامع» «مدارج السالكين» (١٨١/٢).

مقدّم لدلالة على القصر، ولهذا قال المؤلف: (دون غيري)، وقد يكون مفعولٌ به لفعل محذوف يُفسرُه ما بعده، فيكون من باب الاشتغال^(١).

وقوله: (من القرآن): بيان للمراد من المنزّل أنه القرآن المنزّل على محمّد صلى الله عليه وسلم، وهذا الأمر تأكيدٌ لما تضمّنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾؛ لأنّ الإيمان بالرسول والقرآن ممّا أخذ الله به الميثاق على بني إسرائيل.

وقوله: (من التوراة...) إلى آخره: بيان للمراد بما معهم، وأنّ القرآن شاهدٌ للتوراة بأنها منزلة من عند الله، وبموافقتها فيما دلّت عليه من توحيد الله وصدق رسله، وإن كان ناسخٌ لبعض ما فيها من الشرائع.

وقوله: (من أهل الكتاب...) إلى آخره: يريد أن قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: من أهل الكتاب؛ لأنه قد كفر به قبل ذلك المشركون من أهل مكة وغيرهم، فهم أوّل كافرٍ به مطلقاً^(٢).

وقوله: (خوف فوات ما تأخذونه من سفلتكم): السفلة: هم لؤماء الناسِ وغوغاؤهم، وهم الفسقة الخبيثة اللؤماء^(٣).

وقوله: (في ذلك): يريد فيما نُهوا عنه؛ في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾.

وقوله: (دون غيري): ينبّه إلى ما في الآية من القصر؛ لتقديم المفعول:

إياي.

وقوله: (الذي أنزلت عليكم): أسند فعل الإنزال إلى المتكلّم؛ لأنّ الآية خطابٌ من الله لعلماء أهل الكتاب، وفي تفسير «الباطل» قال: الذي تفترونه.

(١) الاشتغال: أن يتقدم اسم ويتأخر عنه فعل قد عمل في ضمير ذلك الاسم أو في سببته، وهو المضاف إلى ضمير الاسم السابق، فمثال المشتغل بالضمير: زيداً ضربته، وزيداً مرتت به. ومثال المشتغل بالسببي: زيداً ضربت غلامه. ينظر: «شرح التسهيل» (١٣٦/٢)، و«شرح ابن عقيل على الألفية» (١٢٩/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩٦/١)، و«تفسير ابن كثير» (٢٤٣/١).

(٣) ينظر: «لسان العرب» (٣٣٧/١١).

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ ما كتبتموه هو الحق، ولذا قال المؤلف في تفسير الحق الذي كتبتموه: هو نعت محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: (أنه الحق)؛ أي: وأنتم تعلمون أَنَّ ما كتبتموه من نعتِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الحق، وجملة: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حال.

وقول المؤلف في تفسير البر أنه الإيمان بِمحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يقتضي أَنَّ من علماء اليهود مَنْ يأمرُ العامَّةَ بالإيمان بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو لم يؤمن به، وهذا لا يُستبعد، ولكنَّ البرَّ في الآية أعمُّ ممَّا ذكره المؤلف^(١). وقوله في الكتاب أنه التوراة: صحيح، ولا يحتمل الكتاب غير التوراة؛ لأنَّ الخطابَ لعلماء بني إسرائيل.

وقوله: (فترجعون): أي عن سوء فعلكم. وقوله: (فجملة النسيان): يريد قوله تعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾. وقوله: (محل الاستفهام الإنكاري): يريد أن الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾. وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يتعلَّق بقوله سبحانه عنهم: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ لا بقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾، فالأمرُ بالبرِّ خيرٌ وفعلٌ لواجبٍ كما تقدَّم بيانه.

وقوله: (اطلبوا المعونة على أموركم): هذا تفسير قوله: ﴿اسْتَعِينُوا﴾؛ لأنَّ السين والتاء تدلان على الطلب؛ مثل: استغفروا؛ أي: اطلبوا المغفرة. وقوله: (الحبس للنفس على ما تكره): تفسيرٌ للصبر، وهو يشمل أنواع الصبر الثلاثة:

(١) وهو قول السدي وقتادة وابن جريج، واختاره: الطبري وابن كثير. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٦١٣-٦١٦)، و«تفسير ابن كثير» (١/٢٤٦).



- الصبرُ على المصائب.
 - والصبرُ عن المعاصي.
 - والصبرُ على طاعة الله.
 - وقد فسَّرَ بعضُ السَّلَفِ الصبرَ في هذه الآية بالصوم^(١).
- وقولُه: (أفردُها بالذكر): أي الصلاة، يريد: خصَّها بالذكر من بين الفرائض والعبادات؛ إظهارًا لفضلها.
- وقولُه: (وفي الحديث...): إلى آخره: رواه أبو داود وأحمد وابن جرير، ومعنى: «حزبه أمر» أي: نزل به أمرٌ مهم^(٢).
- وقولُه: (وقيل: الخطابُ لليهود...): إلى آخره: هذا يوافقُ اختيارَ ابن جرير كما سبق.



(١) روي ذلك عن مجاهد كما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/١٠٢، رقم ٤٨٠).

(٢) ينظر: «النهاية» (١/٣٧٧).

وقوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧]:

هذه الآية نظيرُ الآية المتقدِّمة من حيث المخاطب، والمقصودُ بالخطاب هو التذكيرُ بنعم الله، وتقدّم أن المراد بإسرائيل: نبيُّ الله يعقوب^(١).
 وقوله: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: أي نعمي التي أنعمتُ عليكم وعلى آبائكم، واشكروها بالإيمان بمحمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه.
 وقوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ المعنى: واذكروا أنني فضلتكم على العالمين، وتفضيلهم على العالمين هي إحدى نِعَمِهِ العظيمة عليهم؛ فَعَطْفُ هذه النعمة على ما قبلها من عَطْفِ الخاصِّ على العام^(٢).

وقوله: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾: أي عالم زمانهم فلا يكونون أفضل من أمة محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣)، وأعاد في هذه الآية الخطابَ لبني إسرائيل، والأمر بذكر نعمه تأكيداً، ولأمرهم باتِّقاء اليوم الذي لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، ولتذكيرهم بالنعم التي أنعم اللهُ بها على آبائهم؛ كما في الآيات من قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ



(١) ينظر: (ص ١٠٦).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (١/٣٠٥)، و«تفسير أبي السعود» (١/٩٨).

(٣) وهو قول قتادة وأبي العالية ومجاهد وابن زيد، وذكره ابن قتيبة في «غريب القرآن» (ص ٤٨)، وقال: «وهو من العام الذي أريد به الخاص». ينظر: «تفسير الطبري» (١/٦٢٩-٦٣٠)، و«التفسير البسيط» (٢/٤٦٧).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]:

﴿وَاتَّقُوا﴾: أي اتخذوا وقايةً من الإيمان والعمل الصالح تقيكم شر ذلك اليوم.

﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾: أي لا يُغني أحدٌ عن أحدٍ، ولا تكون نفسٌ فداءً عن نفسٍ، ولو كان أقرب قريب؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾: أي ولو وجدَ شافعٌ لم تُقبل شفاعته، ولكن ليس هناك من يشفع للظالمين؛ أي المشركين؛ كما قال تعالى عن الكفار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: أي فداء؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كَلَّ عَدْلٌ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠] (١).

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: أي ليس لهم من ينصرهم، ويُنجيهم من عذاب الله.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بالشكر عليها بطاعتي ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ أي آباءكم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانهم. ﴿وَاتَّقُوا﴾ خافوا ﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي﴾ فيه ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ هو يوم القيامة ﴿وَلَا تُقْبَلُ﴾ بالتاء والياء ﴿مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي ليس لها شفاععة فتقبل ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾. ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فداء ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يُمنعون من عذاب الله.

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٤٨).

وقول المؤلف: (فيه): الضمير يعود لليوم، ولا بُدَّ من هذا التقدير؛ لأنَّ الجملة صفةٌ ليوم فلا بُدَّ لها من رابط.

وقوله: (بالتاء والياء): يُشير إلى أنَّ فيها قراءتين: ﴿تُقْبَلُ﴾ و﴿يُقْبَلُ﴾^(١).

وقوله: (ليس لها شفاعَةٌ فتُقبلُ): أراد به دفعَ توهم أنَّ للكفار مَنْ يشفعُ لهم، ولكن شفاعتُهم لا تُقبلُ.

وقوله: (فداء): هذا تفسيرُ ﴿عَدْلٌ﴾، والمرادُ به: ما تقدّمه النفسُ لتفتدي من العذاب لو أمكنها ذلك.



(١) قرأ أبو عمرو وابن كثير ويعقوب: ﴿تُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ بالتاء، والباقون بالياء. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٥٥)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/٢١٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٤٩-٥٠]:

هذا شروع في ذكر نعمة على بني إسرائيل التي أمرهم بذكرها، مع التذكير بما جرى منهم من السيئات، وما جرى عليهم من الابتلاءات، وأول هذه النعم نجاتهم من آل فرعون الذين كانوا يُعذِّبونهم، ومن عذابهم ذبح أبنائهم، واستبقاء نساءهم للخدمة، وفيما جرى عليهم من التعذيب، وما جرى لهم من النجاة ابتلاءً عظيمًا، وهذا ما تضمَّنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ الآية، ف «إذ»: ظرفٌ يدلُّ على الزمن الماضي، وهو مُتعلِّقٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديره: اذكروا حين نجيناكم؛ كما قدره المؤلف، و«آل فرعون»: هم فرعون وقومه.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾: يعني يُذيقونكم أشدَّ العذاب؛ كما قال المؤلف، وجملة: يسومونكم: في موضع نصب على الحال من الضمير في نجيناكم؛ على ما ذكر المؤلف، ويُحتمل أن تكون حالاً من آل فرعون^(١). وقوله: ﴿يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾: تفصيلٌ وبيانٌ لنوع العذاب.

وقوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾: اسمُ الإشارة راجعٌ إلى العذاب أو الإنجاء كما ذكر المؤلف، ويُحتمل أن يعودَ إلى مجموع الأمرين^(٢)، فإنَّ كلاً من الأمرين بلاءٌ؛ أي: ابتلاء من الله، والابتلاء يكون بالنعم، ويكون بالمصائب؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ويُطلقُ البلاءُ على ما به الابتلاء

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٣١٢/١)، و«التحرير والتنوير» (٤٩٢/١).

(٢) واختار الوجهين: الواحدي، والراغب الأصبهاني، وابن عطية، والشنقيطي. ينظر: «التفسير البسيط» (٥٠٥-٥٠٧)، و«تفسير الراغب» (١٨٦/١)، و«المحرر الوجيز» (٢٠٧/١)، و«العذب النمير» (٧٤-٧٣/١).

من النِّعَم والمصائب، وذلك من باب التسمية بالمصدر أو اسم المصدر؛ فَإِنَّ البلاءَ اسْمُ مصدرٍ، ومن أعظم النِّعَم عليهم فُلُقُ البَحْرِ لهم، وجعله ييسًا، وطرقًا يسلكونها آمين، ومن نِعِمه إغراقُ عدوِّهم فرعونَ وقومه، وهم ينظرون إليهم؛ كما دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾: الواو عاطفة، وإذ ظرفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿أَذْكُرُوا﴾، و﴿فَرَقْنَا﴾: أي فلقنا البحرَ حتى صار الماءُ فرقين، كل فرقٍ كالطود العظيم، وبينهما طرقٌ ييسٌ لا يخافون دَرَكًا، ولا يخشون غرقًا. وقوله تعالى: ﴿فَرَقْنَا بِكُمْ﴾: الباءُ سببية؛ المعنى: فرقنا البحرَ بسببكم لنجاتكم، ومن تمام نعمته عليكم إغراقُ فرعون وآله، و﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إليهم وهم يغرقون، فجمع الله لهم بين نعمتين: نجاتهم، وهلاك عدوهم وقد غَشِيَهُم من اليمِّ ما غَشِيَهُم.

﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ أي: آباءكم، والخطابُ به وبما بعده للموجودين في زمن نبينا بما أنعم الله على آباءهم تذكيرًا لهم بنعم الله ليؤمنوا ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ يُذيقونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أشدّه، والجملة حال من ضمير نجيناكم ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بيانٌ لما قبله ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ المولودين ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يَسْتَبْقُونَ ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ لقول بعض الكهنة له: إِنَّ مَوْلودًا يُولَدُ في بني إسرائيل يكون سببًا لذهاب ملكك ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ العذابُ أو الإنجاءُ ﴿بَلَاءٌ﴾ ابتلاءٌ أو إنعامٌ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ فَرَقْنَا﴾ فلقنا ﴿بِكُمْ﴾ بسببكم ﴿الْبَحْرَ﴾ حتى دخلتموه هارين من عدوكم ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ قومه معه ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى انطباق البحر عليهم.

وقول المؤلف: (المولودين): يُشير إلى أنهم يذبحونهم صغاراً رُضْعاً، ولهذا كان موسى رضيعاً حين ألقته أمه في التابوت.

وقوله: (لقول بعض الكهنة...) إلى آخره: يُشير إلى سبب ذبح فرعون وقومه أبناء بني إسرائيل^(١)، وهذا خبرٌ إسرائيلي لا يُقطعُ به؛ لأنه يُحتمل أنَّ السبب غير ذلك.

وقوله: (ابتلاءٌ أو إنعامٌ): فيه المقابلةُ بين الابتلاء والإنعام، وهو مبنيٌّ على أن أكثر ما يُطلقُ البلاءُ على المصائب، وإلا فالابتلاءُ يكون بالخير والشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]؛ أي: النعم والمصائب.



(١) تنظر هذه الآثار في: «تفسير الطبري» (١/٦٤٦-٦٤٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/١٠٥-١٠٦ رقم ٥٠٥-٥٠٦).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: ٥١-٥٣]:

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا﴾ الواو عاطفة، و«إِذْ»: ظرفٌ مُتعلِّقٌ بـ«اذكروا»، واعدَ اللهُ موسى أن يأتيه عند جبل سيناء على رأس أربعين ليلة، وقد واعده ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر؛ فتمَّ ميقاتُ ربِّه أربعين، ثم لما ذهب موسى لميقات ربِّه، صنع السامريُّ لبني إسرائيل عِجلاً من الحلي الذي كان معهم، وقال لهم: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨]، فأطاعوه وعكفوا عليه، وأنكر عليهم نبيُّ الله هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ فأبوا أن يتركوا العكوفَ على العجل الذي اتخذوه إلهًا، وقد فصلَ اللهُ قصةَ العجل في سورة الأعراف^(١) وسورة طه^(٢)، وأشار اللهُ إلى ذلك في هذه الآية؛ فقال: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾﴾، وأصلُ الظلم: وضعُ الشيء في غير موضعه^(٣).

وفي هذه الآية تذكيرٌ للموجودين من بني إسرائيل بقبيح ما صنعه أسلافهم؛ تحذيرًا لهم من أن يركبوا طريقهم بعصيان هذا الرسول محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عصى آباؤهم موسى رسولَ الله إليهم، وفي هذا المقام يُذكرهم بنعمتين أنعم اللهُ بهما على من قبلهم:

أولاهما: عفوهُ تعالى عن الذين تابوا من عبادة العجل.

والنعمَةُ الثانية: ما أتى اللهُ موسى من الكتاب، وهو التوراة، وفيها الفرقان، وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾، فدخل مضمون هاتين

(١) آية رقم (١٤٨) فما بعدها.

(٢) آية رقم (٨٥) فما بعدها.

(٣) ينظر: «لسان العرب» (١٢/٣٧٣).

الآيتين في عداد النعم التي أمر الله بني إسرائيل بذكرها وشكرها، وبين تعالى في الآيتين حكمته من العفو، ومن إيتاء الكتاب، وكل هذه الخطابات في الآيات السابقة واللاحقة هي خطابات لليهود الذين كانوا حول المدينة؛ لأنهم من بني إسرائيل.

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا بِالْفِ وَدُونَهَا﴾ ﴿مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ﴿نَعِطِيهِ عِنْدَ انْقِضَائِهَا التَّوْرَةَ لِتَعْمَلُوا بِهَا﴾ ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ ﴿الَّذِي صَاغَهُ لَكُمْ السَّامِرِيُّ إِلِهَا﴾ ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ ﴿أَي بَعْدَ ذَهَابِهِ إِلَى مِيعَادِنَا﴾ ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿بَاتِّخَاذِهِ لَوْضَعِكُمُ الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا﴾ ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ ﴿مَحُونًا ذُنُوبَكُمْ﴾ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ﴿الِاتِّخَاذِ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿نِعْمَتَنَا عَلَيْكُمْ﴾ ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ ﴿التَّوْرَةَ﴾ ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ ﴿عَطْفُ تَفْسِيرٍ﴾ أَي: الْفَارِقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿بِهِ مِنَ الضَّلَالِ﴾.

وقول المؤلف: (بألف ودونها): إشارة إلى أن فيها قراءتين: ﴿وَاعَدْنَا﴾، و﴿وَاعَدْنَا﴾^(١).

وقوله: (نعطيه عند انقضائها التوراة لتعملوا بها): يُبَيِّنُ الْمَوْلَفُ بِهَذَا أَنَّ مَوَاعِدَةَ اللَّهِ لِمُوسَى لِيُعْطِيَهُ التَّوْرَةَ مَكْتُوبَةً فِي الْأَلْوَحِ، يَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ... ﴿الآيات. [الأعراف: ١٤٤].

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر: ﴿وَاعَدْنَا﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون: ﴿وَاعَدْنَا﴾ بإثباتها. ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص ١٢٩)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢١٢).

وقوله: (مَحُونَا ذُنُوبِكُمْ): أي التي أعظمها: اتخذ العجل معبودًا؛ فالله عفا عنهم وغفر لهم لَمَّا تابوا إليه، وجعل ذلك نعمةً يستحقُّ تعالى عليها الشكر، ولذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا﴾: إعرابه كمنظائره؛ أي: واذكروا حين آتينا موسى الكتابَ والفرقانَ. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: أي لتهتدوا بالإيمان بالكتاب؛ وهو التوراة، وتعملوا بما فيها.

وقوله: (عطف تفسير...) إلى آخره: معناه أنَّ الفرقانَ هو التوراة؛ لأنها متضمنة للفرقان بين الحقِّ والباطل والهدى والضلال والحلال والحرام^(١)؛ كما ذكر المؤلف.



(١) وروي عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد، واختاره الطبري. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٦٧٦-٦٧٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يٰ قَوْمِ إِنكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤]:

إن أعظم عصيان بني إسرائيل في عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ اتخاذهم العجل إلهًا من بعد ما ذهب موسى لميعاد ربه، ولذا يذكر الله بني إسرائيل الموجودين حول المدينة في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما صنعه آباؤهم تحذيرًا لهم من أن يسلكوا طريقهم في المعصية، وفي هذه الآية يُذَكِّرُهُمْ بدعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه -الذين اتخذوا العجل- إلى التوبة، مُبَيِّنًا لهم أنهم ظلموا أنفسهم أعظم الظلم؛ وهو الشرك، ومُبَيِّنًا لهم ما شرع لهم طريقًا لصدق التوبة، واعتبار القتل لأنفسهم طريقًا للتوبة هو من الآصار^(١) التي حُمِلَتْ عليهم، وذلك في قول موسى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾. ثم أخبر تعالى بتوبته عليهم مخاطبًا بذلك بني إسرائيل الموجودين حين نزول القرآن؛ فقال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾، فهو على سنن ما تقدّم في الآيات من الخطابات: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾، ﴿وَإِذْ قَرَّبْنَا بَارِئِكُمْ﴾، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ﴾، ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ الذين عبدوا العجل ﴿يٰ قَوْمِ إِنكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلِ﴾ إلهًا ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ خالقكم من عبادته ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: ليقتل البريء منكم المجرم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ القتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ فوفقكم لفعل ذلك وأرسل عليكم سحابة سوداء لئلا

(١) الآصار جمع إصر، وهو العهد الثقيل. ينظر: «لسان العرب» (٢٢/٤).

يَبْصِرَ بَعْضَكُمْ بَعْضًا فَيَرْحَمَهُ حَتَّى قَتَلَ مِنْكُمْ نَحْوَ سَبْعِينَ أَلْفًا ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قَبْلَ تَوْبَتِكُمْ ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وقول المؤلف: (إلها): تقديرٌ للمفعول الثاني للمصدر المضاف إلى فاعله، وهو: «اتخاذكم»، والمفعول الأول: العجل؛ لأنَّ «اتخذ» ينصبُ مفعولين.

وقوله: (وأرسل عليكم سحابةً سوداء...) إلى آخره^(١): هذا من أخبار أهل الكتاب التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، لكن أصل القصة ثابت في القرآن، كما في هذه الآية.

وقوله: (قبل توبتكم): التوبة من الله تأتي لمعنيين^(٢): أحدهما: توفيق العبد للتوبة، وهذه قد تُقيَّد بالمشيئة؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾.

والثاني: قبولها؛ ولهذا قال المؤلف: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قَبْلَ تَوْبَتِكُمْ. وجملة: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: مستأنفة للتعليل، ولا محل لها من الأعراب.



(١) تنظر تلك الروايات في: «تفسير الطبري» (١/٦٧٩-٦٨٥)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١١٠/١).

(٢) ينظر: «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص ٦٢)، و«مدارج السالكين» (١/٤٨١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴿٥٧﴾ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: ٥٥-٥٧].

قول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾: الواو عاطفة، و«إذ» ظرفٌ يدلُّ على الزمن الماضي، والتقدير: اذكروا حين قلتُم، وفي هذا تذكيرٌ لبني إسرائيل بما صدر من آبائهم من القول القبيح: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، فأخذتهم الصَّاعِقَةُ فماتوا، ثم بعثهم الله من بعد موتهم، وفي الآيتين تذكيرٌ لبني إسرائيل الموجودين بسيئةٍ من سيئات أسلافهم، وعقوبة الله لهم، ثم الإنعام عليهم ببعثهم بعد موتهم بالصاعقة، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى...﴾ الآية: هذا امتنانٌ من الله على بني إسرائيل الذرية الموجودين في عهد النبوة بما أنعم به على آبائهم من تظليلهم بالغمام وقايةً لهم من حرِّ الشمس، وإنزالِ المنِّ والسَّلْوَى عليهم، وهما من أطيب الطعام؛ فالمنُّ: نوعٌ من الحلوى^(٢)، والسَّلْوَى: نوعٌ من الطيور الناعمة يقال له: السَّمَانِي^(٣)؛ كما ذكر المؤلف. ثم أخبر تعالى أنه قال لبني إسرائيل الذين أنزل عليهم المنِّ والسَّلْوَى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، والأمرُ أمرٌ إباحةٍ وامتنانٍ^(٤)، ونهاهم عن الطغيان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ [طه: ٨١]، ولكنهم عصوا، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: ما ظلموا الله بمعصيته، ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٦٨٨).

(٢) ينظر الخلاف في: «تفسير الطبري» (١/ ٧٠٠-٧٠٤)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٢٢٠).

(٣) هو قول الضحَّاك والشعبي ورواية عن ابن عباس، وقيل: يشبه السمانى. ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٧٠٤-٧٠٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ١٥٩٢-١٥٩٣).

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٧٣).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ وقد خرجتم مع موسى لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل وسمعتم كلامه ﴿يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً ﴿فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ﴾ الصيحة، فمتم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ما حل بكم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ أحييناكم ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمتنا بذلك. ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ سترناكم بالسحاب الرقيق من حر الشمس في التيه ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ فيه ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ هما الترنجيبين والطيبر السَّمَانَى -بتخفيف الميم والقصر- وقلنا: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ولا تدخروا، فكفروا النعمة وادخروا، فقطع عنهم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بذلك ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأنَّ وباله عليهم.

وقول المؤلف: (وقد خرجتم مع موسى): يُبين بهذا أن الذين قالوا: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ هم الذين حضروا مع موسى لميقات ربه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] (١). وقوله: (لعتذروا إلى الله من عبادة العجل): يقتضي أن موسى جاء لميقات ربه مرتين؛ مرة قبل عبادة قومه للعجل، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]، ومرة بعد اتخاذهم العجل، وهو المذكور في قوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا...﴾ الآيات، ففي المجيء الأول كلمه ربه، وطلب موسى النظر إليه، وتجلّى الله للجبل، وخرّ موسى صعقاً، وأعطاه الله التوراة، وأخبره الله بفتنة بني إسرائيل بالعجل، وإضلال السامري لهم؛ كما في قوله:

(١) قاله ابن مسعود وابن عباس، ولم يحك كثير من المفسرين سواه. ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٦/١)، و«زاد المسير» (٦٧/١)، و«تفسير ابن كثير» (٢٦٥/١).

﴿فَإِنَّا قَدْ فَنَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]. والظاهر أنه لم يكن معه أحدٌ من قومه في هذه المرّة، ولكنّ الله قد واعد بني إسرائيل أن يأتوا مع موسى لجانب الطور؛ كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [طه: ٨٠]، فتقدّمهم موسى عَجَلًا إلى ربّه، وكانوا على أثره؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ * قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٣-٨٤]، ولكنهم تخلّفوا وأخلفوا الموعدَ لما ابتلوا به من اتخاذ العجل إلهاً بإضلال السامريّ لهم، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً، ومع الألوأح فيها التوراة؛ فذكّرهم بمواعدة الله لهم، وأنكر عليهم إخلافهم الموعد، واتخاذهم العجل إلهاً، وعاتب أخاه هارون وأنكر عليه إذ لم يتبعه حين ضلّ قومه كما في سورة طه.

وفي المرّة الثانية كان معه سبعون رجلاً من قومه، وهم الذين اختارهم من قومه لميقات ربّه، وليس في هذه المرّة طلب النظر من موسى، ولا تجلّ، ولكن الذين معه طلبوا أن يُريهم الله جهرةً، وهم الذين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، فأخذتهم الصاعقة فماتوا ثم بعثهم الله، وفصل الله ذلك في هاتين الآيتين. والصاعقة: صيحةٌ عظيمةٌ، وهي الرجفة المذكورة في قوله: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، وسُمّيت الصاعقة رجفةً؛ لأنها تُحدث رجفاناً في الأرض؛ أي: زلزلة^(١)، كما سمّى الله صيحةً ثمودٍ وصيحةً مدين رجفةً في سورة الأعراف والعنكبوت، والله أعلم.

وأما قول المؤلف: (وسمعتهم كلامه): فليس في الآيات تصريحٌ بذلك، ولكنه ورد في الآثار المروية في تفسير الآية^(٢)؛ فظهر ممّا تقدّم أنّ الله كلّم موسى ثلاث مرات:

(١) ينظر: «لسان العرب» (١٠/١٩٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٢٩٣-٢٩٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (رقم ٥٣٦، ٥٣٩).

■ الأولى: عند إرساله كما ذكر ذلك مفصلاً في طه والنمل والقصص، وأشير إليه في سُورِ أُخْرَى.

■ الثانية: تَكْلِيمُهُ فِي مَجِيئِهِ الْأَوَّلِ، وهو المذكور في سورة الأعراف؛ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ...﴾ الآية [الأعراف: ١٤٣-١٤٥]، وهو المشار إليه كذلك في قوله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٣-٨٥].

■ الثالثة: تَكْلِيمُهُ فِي مَجِيئِهِ الثَّانِي، وهو المشار إليه في قوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذتَهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، هذا القول من سيئات بني إسرائيل، وتعنتاتهم، وقد ذمهم الله بذلك وعاقبهم بأخذ الصاعقة لهم حتى ماتوا ثم بعثهم ليشكروه، ويتوب إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فجعل تعالى بعثهم بعد موتهم نعمة يستحق عليها الشكر، فإنهم إذا بعثوا أمكنهم أن يتوبوا، ولهذا قال موسى في دعائه بعدما أخذتهم الرجفة: ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ أي: بُنينا إليك^(١).

وقوله: (ما حل بكم): هذا تقدير المفعول به لتظنون، وهو يدل على أن أخذ الصاعقة لهم في حال يقظتهم، وهو أبلغ في إحداث الرعب والفرع.

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ١٧٣)، و«المفردات» للراغب (ص ٨٤٧).

وقوله: (سترناكم بالسحاب الرقيق من حرّ الشمس): فسّر ﴿ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمْ﴾: بـ«سترناكم»، وهذا بعض معنى الكلمة، وقد عدّي الفعل بـ«على»، فهو مُضَمَّنٌ معنى جعلنا الغمام عليكم؛ أي: من فوقكم يقيكم حرّ الشمس، وفسّر الغمام بالسحاب الرقيق، إذاً هو نوعٌ من السحاب، فالسحاب يكون رقيقاً وجليظاً.

وقوله: (في التيه): يُبَيِّنُ بذلك أن تظليلهم بالغمام وإنزال المنّ والسّلوى عليهم كان في زمن التيه، وهو مدة أربعين سنة كما في آية المائدة، هذا هو المشهور^(١)، ويظهر أنه قد حصل لهم أيضاً قبل التيه بعد أن نجاهم الله من عدوهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى﴾، والظاهر أن هذا خطابٌ لبني إسرائيل الذين كانوا مع موسى بعد نجاتهم، ومجاوزتهم البحر، فتكون نظير قوله تعالى عن موسى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

وعلى هذا فالخطاب في آية «طه» وآية «إبراهيم» لبني إسرائيل الموجودين في عهد موسى، وتُشبههما آية الأعراف: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ الآية، وذلك بخلاف ما في سورة البقرة؛ فإنه خطابٌ لبني إسرائيل الموجودين في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذكيراً لهم بنعم الله على أسلافهم، وتحذيراً لهم ممّا وقع من أسلافهم من أنواع الظلم والعصيان.

(١) قال ابن عباس: «ثم ظلل عليهم في التيه بالغمام»، وروي عن ابن عمر، والربيع بن أنس، وأبي مجلز، والضحاك، والسدي، وقتادة؛ نحو قول ابن عباس. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٦٩٩) (١/٧٠٦-٧١٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/١١٣)، و«التفسير البسيط» (٢/٥٤٦).

فَعَلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الْخَطَابَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ لبني إسرائيل الذرية الموجودين في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم: اليهود، والخطاب في قوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لبني إسرائيل الأسلاف الذين أنزل عليهم المنّ والسّلوى، ويؤيد هذا التفصيل أن سورة البقرة مدنيّة، وكثير من آياتها الخطاب فيها لليهود الذين كانوا حول المدينة، وأمّا سورة «الأعراف»، و«طه»، و«إبراهيم»، فهي سُورٌ مكّيّة، وأكثر ما فيها أخباراً عن بني إسرائيل في عهد موسى.

وقوله: (فيه): أي في التيه.

وقوله: (الترنجبين): نوعٌ من الطلّ حلوّ يجدونه على الشجر^(١).

وقوله: (وقلنا): يفيد أن قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾: مقولٌ قولٍ مُقَدَّرٍ حُذِفَ لدلالة الكلام عليه، والجملة خبرٌ مُسْتَأْنَفٌ معطوفٌ على ما قبله من الأفعال: وطللنا، وأنزلنا.

وقوله: (ولا تدخروا...)، إلى قوله: (فقطع عنهم): هذا من التفسير بالمأثور، وإذا صحّ أنهم قد نهوا عن الادّخار؛ فالادّخارُ يكون من الطغيان الذي نهوا عنه في قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ [طه: ٨١]^(٢).

وقوله: (بذلك): أي بمخالفتهم أمر الله ونهيّه.

وقوله: (لأنّ وباله عليهم): يريد أنّ معصيتهم لله ظلمٌ لأنفسهم؛ لأنّ شرّ المعصية واقعٌ عليهم، ولن يضرّوا الله شيئاً.



(١) الترنجبين: طل يقع من السماء وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب. ينظر: «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» لابن البيطار (١/١٨٧).

(٢) لم نجد خبراً مسنداً، وذكر بعض المفسرين حديث أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نحوه؛ يعني: «(لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها)»، أخرجه البخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (١٤٧٠). ينظر: «التفسير البسيط» (٢/٥٥١)، و«تفسير البغوي» (١/٩٨)، و«المحرر الوجيز» (١/٢٢٠-٢٢١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ
﴿٥٨﴾ [البقرة: ٥٨]:

القول في هذا الظرف «إذ» والجملة المضاف إليها؛ كالقول في نظائره
فيما تقدم من الآيات وفيما يأتي، فالتقدير: اذكروا وقت قلنا لآبائكم: ﴿ادْخُلُوا
هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، وهي بيت المقدس^(١)، وهي الأرض المقدسة المذكورة في
سورة المائدة، وكانت كثيرة الخيرات من أنواع الفواكه والثمار، ولهذا قال:
﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾؛ أي: رزقا واسعا هنيئا^(٢).

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾: أي باب القرية.

﴿سُجَّدًا﴾: أي رُكعًا خضوعًا لله.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: أي مسألتنا حطة؛ المعنى: أن تحطّ عنا خطايانا.

﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾: وعدّ لهم بمغفرة ذنوبهم إذا استغفروا الله،

وسألوه أن يحطّ عنهم الخطايا. ﴿وَسَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾: بفعل الأعمال
الصالحة الخالصة لله الموافقة لشرعه، والمحسنين إلى عباده، وهذا وعدّ
بالزيادة على المغفرة يزيدهم أجرًا عظيمًا.

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ لهم بعد خروجهم من التيه: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾
بيت المقدس أو أريحا ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واسعا لا حجر
فيه ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أي: بابها ﴿سُجَّدًا﴾ مُنحِنِينَ ﴿وَقُولُوا﴾: مسألتنا

(١) وهو قول قتادة والسدي والربيع بن أنس، واختاره الطبري وابن كثير. ينظر: «تفسير الطبري»
(٧١٢-٧١٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١١٦/١)، و«تفسير ابن كثير» (٢٧٣/١).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٤٦)، و«المفردات» للراغب (ص ٣٥٨).

﴿حِطَّةٌ﴾ أي: أن تحطَّ عنَّا خطايانا ﴿نَغْفِرُ﴾ وفي قراءة بالياء وبالطاء مبنيًا للمفعول فيهما ﴿لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالطاعة ثوابًا.

وقول المؤلف: (لهم): المناسب «لكم» بصيغة الخطاب؛ ليتفق مع سياق الآية السابقة وما قبلها.

وقوله: (بعد خروجهم من التيه): أي الذي أصابهم يوم حُرِّمَ عليهم دخول القرية أربعين سنة بعد أن أمروا بدخولها، فعصوا، كما في سورة المائدة، فلمَّا انقضتِ المدة، وخلصوا من التيه، غزا بهم نبيُّهم فقاتل الكفرة الجبارين فأظهره الله عليهم، ثم قيل لبني إسرائيل بعد الفتح: ﴿أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ...﴾ الآية، وأمروا عند دخولها بقولٍ وفعلٍ؛ أن يدخلوا بابَ القرية سجداً، وأن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾.

وقوله: (منحين): يُبيِّنُ أنه ليس المرادُ بالسجود السجودَ على الجبهة على الأرض، بل الركوع؛ لأنه لا يمكن الدخول بهيئة السجود؛ بل بهيئة الركوع^(١). وقوله: (مسألتنا): يُبيِّنُ أَنَّ ﴿حِطَّةٌ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ تقديره: مسألتنا. وقوله: (أن تحطَّ عنَّا خطايانا): تفسيرٌ لقوله: ﴿حِطَّةٌ﴾، وحطَّ الخطايا بالمغفرة.

وقوله: (وفي قراءة...): إلى آخره: أفاد أن في هذه الكلمة ثلاث قراءاتٍ؛ بالنون مبني للمعلوم ﴿نَغْفِرُ﴾، وهي قراءة الجمهور، وبالطاء والياء مبني للمفعول ﴿تُغْفَرُ﴾، و﴿يُغْفَرُ﴾^(٢).

(١) وهو قول ابن عباس واختاره الطبري. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٧١٤).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمة والكسائي: ﴿نَغْفِرُ لَكُمْ﴾ بالنون، وقرأ نافع وأبو جعفر: ﴿يُغْفَرُ لَكُمْ﴾ بالياء مرفوعة على ما لم يسم فاعله، وقرأ ابن عامر: ﴿تُغْفَرُ لَكُمْ﴾ مضمومة التاء. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٥٧)، والنشر (٢/٢١٥).

وقوله: (ثوبًا): هو المفعول الثاني لـ«نزيد»، والمفعول الأول ﴿المُحْسِنِينَ﴾، وقد ذكر المفسرون والمؤرخون أنَّ موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ماتا في التيه، وخلفهما على بني إسرائيل يوشعُ بن نون^(١)؛ وهو الذي فُتحت قرية بيت المقدس على يديه، كما جاء في السنَّة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ يوشعَ بن نون لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى فَتْحِ الْقَرْيَةِ وَقَتَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، وَخَشِيَ أَنْ تَغْرِبَ الشَّمْسُ؛ دَعَا اللَّهَ أَنْ يَحْبِسَهَا عَلَيْهِمْ لِيَتِمَّ الْفَتْحُ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ^(٢)، وعلى هذا فأمر بني إسرائيل بدخول القرية، ودخول الباب سجدًا، وأن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾. كلُّ هذا بعد فتح القرية، والمبلغُ لهم ذلك هو يوشعُ بن نون عَلَيْهِ السَّلَامُ.



(١) ينظر: «تاريخ الطبري» (١/٤٣٢-٤٤٢)، و«الكامل» لابن الأثير (١/١٧٢-١٧٦)، و«البداية والنهاية» (٢/٢٢١-٢٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وورد التصريح باسمه في «المسند» (٨٣١٥)، و«شرح مشكل الآثار» (١٠٧٠)، والحاكم في «المستدرک» (٢٦١٨). ينظر: «الصحيحة» (٢٠٢).

قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]:

يخبر تعالى في هذه الآية عن بني إسرائيل الذين قيل لهم: ﴿أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، وقيل لهم: ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، وقيل لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، وقد ظلموا أنفسهم بمعصية الله؛ بدل هؤلاء الظالمون من بني إسرائيل القول الذي قيل لهم قولا غيره؛ كما جاء في الحديث المتفق عليه قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((قيل لبني إسرائيل: ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم^(١)، وقالوا: حبة في شعرة^(٢)). ثم أخبر تعالى أنه عاقبهم فأنزل عليهم رجزا من السماء؛ أي عذابا، قيل: إنه الطاعون^(٣).

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: أي بسبب فسقهم؛ أي: خروجهم عن طاعة الله بما ارتكبه من التبديل، وفي الآية الأخرى: ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢].

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا: حبة في شعرة، ودخلوا يزحفون على أستاههم ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمرة مبالغة في تقييح شأنهم ﴿رَجْزًا﴾ عذابا

(١) أستاههم: جمع است؛ وهي الدبر. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٢٩)، «لسان العرب» (١٣/ ٤٩٥).
(٢) رواه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) وهو قول ابن زيد وابن جبير، وجاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل كما في «صحيح مسلم» (٢٢١٨). قال الطبري في تفسير الآية: «وجائز أن يكون ذلك طاعونًا، وجائز أن يكون غيره». ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٧٣٠)، و(١/ ٧٣١).

طاعوناً ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم؛ أي: خروجهم عن الطاعة، فهلك منهم في ساعةٍ سبعون ألفاً أو أقل.

وقول المؤلف: (فيه وضع الظاهر موضع المضمرة): يُريد أن ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في قوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ هم الذين تقدّم ذكرهم في قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، فالمناسبُ على هذا أن يقال: فأنزلنا عليهم، فكان ذكرهم بالاسم الموصول دون الضمير هو من قبيل وضع الاسم الظاهر موضع المضمرة، ويشهد لقول المؤلف قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ١٦٢].

وقوله: (فهلك منهم في ساعةٍ سبعون ألفاً أو أقل): هذا ممّا ذكره المفسرون^(١)، وهو من الإسرائيليات؛ فالله أعلم.



(١) ينظر: «تفسير البغوي» (١/٩٩)، و«المحرر الوجيز» (١/٢٢٥)، و«زاد المسير» (١/٧٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۗ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۗ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: ٦٠]:

قوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ﴾: المعنى والتقدير: اذكروا حين استسقى موسى؛ كما في نظائره فيما سبق، و«إذ»: ظرف يدل على الزمن الماضي، و﴿اسْتَسْقَى﴾: أي طلب موسى السُّقيا من الله تعالى، وذلك حين طلب منه بنو إسرائيل السُّقيا لَمَّا عطشوا في التِّيه، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك الحجر، فضربه ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، وجاء في الأعراف: ﴿فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ﴾، والانجاس: أقوى من الانفجار^(١)، وجاءت العيون بعدد أسباط^(٢) بني إسرائيل؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ...﴾ [سورة الأعراف: ١٦٠] الآية.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾: أي كل سبط من بني إسرائيل قد عَلِمَ نصيبه من الماء والمكان الذي يردُّ عليه، ثم قيل لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾، وهذا أمرٌ بإباحةٍ وامتنانٍ. وقوله: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾: أي ولا تُفسدوا في الأرض قاصدين الفساد.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ أي: طلب السُّقيا ﴿لِقَوْمِهِ﴾ وقد عطشوا في التِّيه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ وهو الذي فر بثوبه، خفيفٌ مربعٌ كراس الرجل رُخامٌ أو كَدَانٌ، فضربه ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ انشقت وسالت

(١) وقيل: هو دونه، وقيل: هما بمعنى واحد. ينظر: «المفردات» للراغب (ص ١٠٨)، و«الكشاف» (٢/ ٥٢١)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٢٢٦).

(٢) قال ابن عباس: «الأسباط: بنو يعقوب، كانوا اثني عشر رجلاً، كل واحد منهم ولد سبطاً أمة من الناس»، فالأسباط من بني إسرائيل: كالقبائل من العرب. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٧-٨).

﴿ مِنْهُ اثْنَا عَشَرَ عَيْنًا ﴾ بعدد الأسباط ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ سبب منهم ﴿ مَشْرَبُهُمْ ﴾ موضع شربهم فلا يشركهم فيه غيرهم. وقلنا لهم: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ ﴾ حال مؤكدة لعاملها من «عَثِيَ» بكسر المثلثة: أفسد.

وقول المؤلف: (وهو الذي فرّ بثوبه...) إلى آخره: هذا من الإسرائيليات التي لا يُجزم فيها بإثبات أو نفي^(١).
 وقوله: (وقلنا لهم): يُبين به أنّ قوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾: مقول قولٍ محذوف قدره المؤلف: (وقلنا لهم)، والخطابُ فيه لبني إسرائيل في عهد موسى، والخطابُ في أول الآية الذي قدرناه: واذكروا لبني إسرائيل في عصر النبوة؛ كظائره المتقدمة.



(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٦-٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/١٢١)، و«التفسير البسيط» (٢/٥٦٦-٥٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ۗ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۗ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ ۗ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ ۗ وَبِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٠﴾ [البقرة: ٦٠-٦١]:

المخاطبُ في هذه الآية هم المخاطبون في الآيات السابقة، الموجودون من بني إسرائيل في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخصُّهم بالخطاب في هذه الآيات من قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: هم اليهودُ الذين كانوا حول المدينة؛ تذكيراً لهم بنعم الله على أسلافهم ليشكروها، وتذكيراً لهم بما كان لأبائهم من المخالفات وما نزل بهم من العقوبات ليحذروها، فقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ﴾ تقديره: واذكروا حين قال قومُ موسى لموسى: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، يعنون به المنَّ والسُّلوى، وذلك يوم كانوا في التيه.

وقوله: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا﴾: طلبوا من موسى أن يدعو الله بأن يُخرج لهم هذه البقول والحبوب؛ فهي آثرُ عندهم من المنِّ والسُّلوى، وكلُّ هذه الأسماء معروفةٌ، والفوم: هو الحنطة، وهي نوعٌ من البرِّ.

فردَّ عليهم نبيُّ الله موسى بأن ما طلبوا أدنى من الذي أعطاهم الله؛ فقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾. والاستبدال: كالاشتراء، يتعدَّى بنفسه إلى المأخوذ، وإلى المتروك بالباء؛ فهو في معنى: أتشترون الأدنى بالأعلى والأفضل. والأدنى: هو ما طلبوه من البقول والحبوب، والذي هو خيرٌ: ما أنزل الله عليهم من المنِّ والسُّلوى.

وقولهم لموسى: ﴿لَنْ نَصْدِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ...﴾ إلى آخره: هو مما عُدَّ في مساويهم وكفرهم النعمة.

وقول موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾: توبيخ لهم وإنكار عليهم. وقوله: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾: ظاهره أنه من تمام كلام موسى، وقال: بعض المفسرين أنه مقول قولٍ محذوفٍ، والتقدير: قلنا اهبطوا مصرًا، والأول أظهر^(١).

وقوله: ﴿مِصْرًا﴾: بالتونين قرأ الجمهور؛ أي: مصرًا من الأمصار، وقرئ: ﴿مِصْرًا﴾ بلا تنوين^(٢)، وعليه فالمراد: مصر، البلد المعروفة التي خرج منها بنو إسرائيل، وقال ابن جرير في القراءة الأولى: «لا أستجيز القراءة بغيرها»^(٣).

وقوله: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَأْسَأَةً﴾: أي ما ذكرتم وطلبتم موجودٌ فيه. وقوله: ﴿وَضُرِبَتْ﴾: الواو للاستئناف، ﴿وَضُرِبَتْ﴾: جعلت عليهم الذلة لازمةً.

و﴿الذِّلَّةُ﴾: الهوانُ والجبنُ.

﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾: الفقر، وسمي مسكنةً لأنه يُورثُ السكونَ وقلة الحركة^(٤).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٢١)، و«التفسير البسيط» (٢/٥٨٦)، و«المحرر الوجيز» (١/٢٣٠).

(٢) وهي قراءة الحسن وطلحة والأعمش، وهي كذلك في مصحف عبد الله وأبي بن كعب وبعض مصاحف عثمان. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/٤٢-٤٣)، و«المصاحف» لأبي داود (١/٣٠٣، رقم ١٨٤)، و«مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص ١٤)، و«الكامل في القراءات» (ص ٤٨٦).

(٣) «تفسير الطبري» (٢/٢٥) بنحوه. ونص كلام الطبري: «وهي القراءة التي لا يجوز عندي غيرها؛ لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين، واتفاق قراءة القرأة على ذلك، ولم يقرأ بترك التنوين فيه وإسقاط الألف منه إلا من لا يجوز الاعتراض به على الحجة فيما جاءت به من القراءة مستفيضةً بينهما».

(٤) ينظر: «لسان العرب» (١٣/٢١٧).

﴿وَبَاءُ﴾: أي رجعوا بأعظم الخسران، وهو غضبُ الله عليهم، والجملة معطوفةٌ على جملة ﴿وَضُرِبَتْ﴾، والجملتان لا محلَّ لهما من الإعراب. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾: أي ما ذكر هو بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم النبيين بغير الحقِّ، وممن قتلوه من الأنبياء: أشعيا^(١)، وزكريا، ويحيى، على ما ذكر المفسرون^(٢).

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾: قيل: تأكيدٌ للمعنى السابق، ويحتمل: أن يكون بياناً لسبب السبِّ، وكفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين سبباً لضرب الذلَّة وحلولِ الغضبِ، وعصيانهم وعدوانهم سبباً لخذلانهم الذي أوجب لهم الكفرَ بآيات الله وقتلَ الأنبياء^(٣).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ﴾ أي: نوع منه ﴿وَإِحِدٍ﴾ وهو المنُّ والسَّلوى ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا شَيْئًا مِّمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ﴾ للبيان ﴿بِقَلْهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا﴾ حنطتها ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أخس ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أشرف، أي: أتأخذونه بدله، والهمزةُ للإنكارِ، فأبوا أن يرجعوا فدعا الله؛ فقال تعالى: ﴿اهْبُطُوا﴾ انزلوا ﴿مِصْرًا﴾ من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُمْ﴾ فيه ﴿مَا سَأَلْتُمْ﴾ من

(١) هو أشعيا بن أموص، ومعنى أشعيا بالعبرية (خلاص يهوه) أو خلاص الرب، وتكتب: أشعيا، وأشعياء، وشعيا في بعض المراجع، ومع أن أشعيا من أشهر أنبياء العهد القديم إلا أنه لم يعرف عنه إلا القليل من سيرته، وفي مقدمات أسفار هوشع، وعاموص، وميخا ما يدل على أن هؤلاء كانوا معاصرين لأشعيا. ينظر: «التراث الإسرائيلي في العهد القديم وموقف القرآن منه» لصابر طعيمة (ص ١٧٢).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٢٠٧/١)، و«التفسير الوسيط» (١٤٨/١)، و«الكشاف» (٢٧٦/١).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٢٧٦/١)، و«المحرر الوجيز» (٢٣٣/١)، و«التحرير والتنوير» (٥٣٠/١).

النبات ﴿وَضْرِبَتْ﴾ جعلت ﴿عَلَيْهِمِ الدَّلَّةُ﴾ الذل والهوان ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي: أثر الفقر من السكون والخزي، فهي لازمة لهم وإن كانوا أغنياء لزوم الدرهم المضروب لِسِكَّتِهِ ﴿وَبَاءُوا﴾ رجعوا ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ﴾ أي: الضرب والغضب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ﴾ كزكرياء ويحيى ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: ظلماً ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يتجاوزون الحد في المعاصي. وكرره للتأكيد.

وقول المؤلف: ﴿مِنْ﴾ للبيان: يريد ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾، فإنها بيان لما في قوله: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ﴾، ومن الأولى في قوله: ﴿مِمَّا﴾ ابتدائية. وقوله: (حنطتها): فسّر الفوم بالحنطة، وهو قول الأكثر^(١)، وقيل: الفوم: الثوم^(٢)؛ فالأول يناسبه ذكر العدس، والثاني: يناسبه ذكر البصل، فاللفظ مُحتمل للمعنيين.

وقوله: (فأبوا أن يرجعوا): يريد أنهم أصرُّوا على طلبهم فلم ينفع فيهم قول موسى: ﴿أَتَسْتَبِدُّونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾. وقوله: (فدعا الله): أي دعا موسى ربه. وقوله: (فقال تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾): هذا يقتضي أن قوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ من كلام الله، وهذا خلاف ظاهر القرآن، وليس لما ذكره دليل.

(١) هو قول ابن عباس وقتادة والحسن وأبي مالك الغفاري والسدي، واختاره الطبري وابن عطية، ونسبه ابن عطية لأكثر المفسرين. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ١٥-١٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ١٤٣)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٢٢٨).

(٢) وهو قول مجاهد والربيع والضحاك وسعيد بن جبير ومقاتل والكسائي والنضر بن شميل وابن قتيبة، وروي عن ابن عباس، وقرأ عبد الله بن مسعود: ﴿وثومها﴾ بالثاء، واختاره الفراء. ينظر المصادر السابقة، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٤١)، و«غريب القرآن» (ص ٥١)، و«تفسير الطبري» (٢/ ١٨-١٩).

وقوله: (لازمة لهم... لزوم الدرهم المضروب لِسِكَتِهِ): هذا مأخوذ من قوله: ﴿ضُرِبَتْ﴾.
 وقوله: (رجعوا): تفسيرٌ لـ ﴿بَاءُوا﴾، فهي بمعنى أبوا، مع أنها عكس حروفها في الترتيب^(١).
 وقوله: (أي: الضرب والغضب): بيانٌ للمشار إليه في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ على تأويل المذكور.
 وقوله: (أي: ظلماً): تفسيرٌ لقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، ولا مفهوم لهذا القيد؛ لأنَّ قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق، فذكره إظهاراً لمنشأ القبح تشنيعاً عليهم.
 وقوله: (وكرّره للتأكيد): سبق بيان أنه من باب بيان سبب السبب.



(١) ينظر: «مقاييس اللغة» (١/٣١٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

يُخبرُ تعالى في هذه الآية عن الطوائف الأربع التي تنقسم كل واحدة منها إلى مؤمنين وغير مؤمنين؛ أن مَنْ آمَنَ منهم وعَمِلَ صَالِحًا؛ فله أَجْرُهُ عند الله، فالذين آمنوا هم من أظهر الإيمان بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم الصادق ومنهم المنافق، كما ذكر في أول السورة.

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾: هم اليهود، وهم المنتسبون لشريعة التوراة والإيمان بموسى عَلَيْهِ السَّلَام، ومعنى هادوا: أي صاروا يهودًا، وأصل التسمية من قول موسى عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنَّا هَدُنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: تُبنا إليك.

﴿وَالصَّابِرِينَ﴾: هم المنتسبون لعيسى عَلَيْهِ السَّلَام، ونصارى جمع نصراني، وفي أصل التسمية خلاف كثير، والأقرب أنه من قول الحواريين: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] ^(١).

﴿وَالصَّابِرِينَ﴾: قيل: هم قوم كانوا يعبدون الكواكب، وقيل: يعبدون الملائكة، ومنهم قوم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وهم طوائف، ومنهم الصابئة الحنفاء ^(٢). والصابئون: جمع صابئ بالهمز، أو جمع صابٍ بالياء، وبالهمز قرأ الجمهور، وقرأ نافع بالياء ^(٣). وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾: من: اسم شرط، أو اسم

(١) اختاره الزمخشري، وينظر الخلاف في: «تفسير الطبري» (٢/ ٣٣-٣٤)، و«الكشاف» (١/ ٢٧٧)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٢٣٦)، و«زاد المسير» (١/ ٧٢).

(٢) الصابئ: هو المستحدث سوى دينه دينًا، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه، وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب صابئًا. والصابئة نوعان: صابئة حنفاء موحدون، وصابئة مشركون، وهذا بخلاف المجوس والمشركون فإنه ليس فيهم مؤمن، وقد ذكر في معنى الصابئين سبعة أقوال. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٣٤-٣٧)، و«زاد المسير» (١/ ٧٢-٧٣)، و«الرد على المنطقيين» (ص ٣٣٤).

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٥٨)، و«النشر» (١/ ٣٩٧).

موصولٌ مُضْمَنٌ معنى الشرط، وهو مبتدأ، وجملة ﴿ءَامَنَ﴾: فعلُ الشرطِ أو صلةُ الموصولِ، وفي الكلام ضميرٌ مُقَدَّرٌ مجرورٌ بمن يعود على الطوائف الأربعة تقديره: «مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»^(١). ومعنى: ﴿ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾: صدَّقَ وأيقن بالله وحده ربًّا وإلهًا، وباليوم الآخر؛ وهو يومُ القيامة، يومُ البعث والنشور والجزاء.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: معطوفٌ على ﴿ءَامَنَ﴾، و﴿صَالِحًا﴾: صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ؛ تقديره: عملٌ عملاً صالحاً. وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: جوابُ الشرط، واقرنت جملة الجواب بالفاء لأنها اسمية، و﴿أَجْرُهُمْ﴾: ثوابهم. وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: في موضع نصبٍ على الحال من ﴿أَجْرُهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: من مستقبلٍ. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢): على فائتٍ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالأنبياء من قبل ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اليهود ﴿وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ طائفةٌ من اليهود أو النصارى ﴿مَنْ آمَنَ﴾ منهم ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ في زمن نبيِّنا ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بشريعته ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي: ثواب أعمالهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ روعي في ضمير ﴿آمَنَ﴾ و﴿وَعَمِلَ﴾ لفظُ ﴿مَنْ﴾، وفيما بعده معناها.

وقولُ المؤلف: (بالأنبياء من قبل): في هذا التعميم نظرٌ؛ فإنه يؤول إلى أن المراد بـ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: هم مَنْ آمَنَ من اليهود والنصارى، ويصير تكرارُ مع قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٢).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٨/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٣٨/١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٢/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٣٤/١).

وقوله: (طائفة من اليهود أو النصارى): هذا أحد الأقوال في المراد بالصائبين، وفي المراد بهم خلاف كثير.

وقوله: (منهم): هذا تقدير للضمير الرابط لجملة خبر «إن».

وقوله: (في زمن نبينا): هذا التقييد فيه نظر، والصواب: أن هذا الوعد عام لكل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً في زمن أي نبي من الأنبياء متبعاً له.

وقوله: (بشريعته): يريد الشريعة التي هو مكلف بالعمل بها.

وقوله: (ثواب أعمالهم): فسّر الأجر بالثواب، وتسمية الثواب أجراً كثيراً

في القرآن؛ كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

وقوله: (روعي في ضمير «آمن»...) إلى آخره: المقرر عند النحاة أن

من الشرطية أو الموصولة لفظها مفردٌ مذكّرٌ، ويختلف معناها بحسب سياق

الكلام، ولهذا يقول المؤلف: إنه روعي في الفعلين «آمن» و«وعمل» لفظاً

«من»، وهو الإفراد والتذكير، وفيما بعده معناها، وهو الجمع.



وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]:

الخطابُ في هذه الآية لبني إسرائيل الموجودين زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي نظيرُ الآياتِ السابقة، والمقصود: تذكيرهم بما جرى لأسلافهم، فتقدير الكلام: واذكروا حين أخذنا ميثاقكم؛ أي: العهد من آباءكم، ورفعنا فوقهم الطور، وقلنا لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: اقبلوا ما جاءكم به نبيكم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الكتاب؛ وهو التوراة، وما فيه من الموعظة وتفصيل الأحكام، وخذوه بقوة؛ أي: بجدٍّ وعزم صادق، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ بالعمل به وتبليغه للناس. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: أي لتتقوا بذلك سخط الله وعذابه، فتكونوا من المتقين.

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ عهدكم بالعمل بما في التوراة ﴿وَ﴾ قد ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ الجبل اقتلعناه من أصله عليكم لما أبيتتم قبولها وقلنا ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ بالعمل به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ النار أو المعاصي.

وقول المؤلف: (اذكروا): أي بني إسرائيل، وهم اليهود الذين حول المدينة؛ كما في الآيات السابقة واللاحقة.
وقوله: (قد) في ﴿رَفَعْنَا﴾: يقتضي أنه جعل الواو للحال، ويحتمل أنها عاطفة على ﴿أَخَذْنَا﴾. وقوله: (الجبل...) إلى آخره: يدل لما ذكره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وقوله: (وقلنا): يبين بهذا أن قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ مقول قولٍ محذوف يدلُّ عليه سياق الكلام^(١)، والخطابُ فيه لبني إسرائيل الأولين، والخطابُ في أوَّل الآية لبني إسرائيل الآخرين، فأوَّل الآية إنشاءٌ، وفي ضمنه إخبارٌ عن بعض ما جرى لبني إسرائيل من أخذ الميثاق ورفع الطور، والتكليف بالعمل بالتوراة.



(١) نسب الطبري هذا القول لبعض نحويي أهل البصرة، قال: وقال بعض نحويي أهل الكوفة: أخذ الميثاق قول، فلا حاجة إلى إضمار قول، ورجَّح هذا في «تفسيره»، واختار ابن عطية والزمخشري تقدير لفظ «قلنا». ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٥١)، و«الكشاف» (١/ ٢٧٧)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٢٤٠).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ

مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ [البقرة: ٦٤]:

المخاطبون في هذه الآية هم المخاطبون في الآية التي قبلها، تذكيراً لهم بما كان من أسلافهم من الإعراض بعد أخذ الميثاق عليهم، ومع هذا الإعراض بعد الميثاق يذكر منته عليهم بفضلهم ورحمته بالعتو عنهم والتوبة عليهم وصرف العذاب عنهم، ولولا ذلك لكانوا من الخاسرين، وهم: المستوجبون للعذاب المحرومون من الثواب.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم ﴿مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الميثاق عن الطاعة ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم بالتوبة أو تأخير العذاب ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الهالكين.



وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً

خَسِيعِينَ ﴿٦٥﴾ [البقرة: ٦٥]:

المخاطبون في هذه الآية هم المخاطبون في الآيات السابقة، وتقدم أنهم بنو إسرائيل الموجودون في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النازلون حول المدينة من طوائف اليهود، يُذكرهم الله في هذه الآية ما جرى من أسلافهم من الاحتيال على ما حرم الله من الصيد يوم السبت، وهو المراد بالاعتداء، وما حلَّ بهم من العقوبة بسبب ذلك؛ ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَسِيعِينَ ﴿٦٥﴾﴾، والأمر أمرٌ تكويني لا يتخلفُ مقتضاه، فصاروا قردةً فمُسخت صورهم من صورة الإنسان إلى صورة القرد، والقردة: جمع قرد، وهو حيوانٌ معروفٌ. وقوله: ﴿خَسِيعِينَ﴾: أي ذليلين مُهانين^(١).

﴿وَلَقَدْ﴾ لام قسم ﴿عَلَّمْتُمْ﴾ عرفتم ﴿الَّذِينَ آَعْتَدُوا﴾ تجاوزوا الحدَّ ﴿مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ بصيد السمك وقد نهيناهم عنه وهم أهل أي لة ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَسِيعِينَ﴾ مُبعدين، فكانوها وهلكوا بعد ثلاثة أيام.

وقول المؤلف: (فكانوها): أي صاروا قردةً.

وقوله: (وهلكوا بعد ثلاثة أيام): مثل هذا ممَّا يُتلقى عن بني إسرائيل، ولكنه لا يثبتُ إلاً بدليلٍ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن المشهور عند العلماء أنَّ الممسوخين لا يعيشون ولا يتوالدون^(٢). والقردة: جنسٌ من الحيوان موجودٌ

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٢٨٢).

(٢) لما جاء في صحيح مسلم (٢٦٦٣) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إن الله لم يجعل لمسخ نسلًا ولا عقبًا، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك))، وجاء حديث آخر عند مسلم (٢٩٩٧) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((فقدت أمة من بني إسرائيل، لا يدرى ما فعلت، ولا أراها إلا الفأر، ألا ترونها إذا وضع لها ألبان =

قبل وقوع المسخ في بعض الأمم، وقد زعم بعض ملاحدة اليهود وهو المسمّى: «داروين»، أن أصل الإنسان قردٌ فتطوّر حتى صار إنساناً بصورته المعروفة، وتُعرف بنظرية «داروين»^(١)، وهي مُناقضةٌ لِمَا أخبر الله به في قصّة خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهي نظريةٌ باطلةٌ، ومَن يعتقد صحّتها فهو كافرٌ؛ لأنه مُكذّبٌ لِمَا جاء في القرآن في شأن خلق الإنسان.



= الإبل لم تشربه، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته؟»، ولهذا اختلف العلماء في الممسوخ هل ينسل؟ على قولين، فقال قوم: يجوز أن تكون هذه القردة منهم، واختاره ابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» (ص ٣٧٣)، والقاضي أبو بكر ابن العربي في «أحكام القرآن» (٢/ ٣٣٢). وقال الجمهور بأن الممسوخ لا ينسل وأن القردة والخنازير وغيرها كانت قبل ذلك، وأجابوا عن حديث أبي هريرة بأجوبة تنظر في: «المحرر الوجيز» (١/ ٢٤٣-٢٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٤٤٠-٤٤٣)، و«شرح معاني الآثار» (٨/ ٣٢١-٣٢٧)، و«فتح الباري» (٧/ ١٦٠).

(١) تشارلز روبرت داروين الباحث الإنجليزي، مؤلف كتاب «أصل الأنواع»، وهو مذهب التطور، ويتلخص في أن الكائنات الحية في تطور دائم على أساس من الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح، فتنشأ الأنواع بعضها من بعض، ولاسيما النوع الإنساني الذي انحدر عن أنواع حيوانية، فهو يقرر أن الحياة وجدت على الأرض بالصدفة، في ظروف معينة. وقد نقض مذهبه في التطور علماء الأحياء في عصره وبعده بأدلة علمية، كما في «صندوق داروين الأسود - التحدي البيوكيميائي للتطور» لمايكل بيهي، و«أيقونة التطور: حقيقة أم خرافة؟» لجوناثان ويلز، إصدار مركز براهين. ينظر: «المعجم الفلسفي» (ص ٨٣)، و«كواشف زيوف» لعبد الرحمن حبنكة الميداني (ص ٣١٧-٣١٨).

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ

﴿٦٦﴾ [البقرة: ٦٦]:

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ عِقَابَهُ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَدِينَ بِاسْتِحْلَالِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْتِ بِالْحِيلَةِ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا، وَهِيَ نَصْبُ الشَّبَاكِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَأَخْذُ مَا فِيهَا يَوْمَ الْأَحَدِ، زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا مَا نُهَى عَنْهُ مِنَ الصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْتِ، فَمَسَخَهُمُ اللَّهُ قَرَدَةً، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾: أَي جَعَلْنَا هَذِهِ الْعِقَابَةَ ﴿نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ يَعْنِي: مَا قَبْلَهَا مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَمَا بَعْدَهَا مِمَّا يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ كَفَعْلِهِمْ.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ اخْتِلَافَ الْمَفْسَرِينَ فِي مَرْجِعِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، وَ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، وَرَجَّحَ أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى الْعِقَابَةِ، وَرَوَاهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١)، وَرَجَّحَ ابْنُ كَثِيرٍ أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى الْقَرْيَةِ^(٢)، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، وَعَلَى هَذَا فَمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا: مَا حَوْلَهَا مِنَ الْقَرْيَةِ.

وَالنَّكَالُ: التَّخْوِيفُ وَالْعِقَابَةُ^(٣).

وقوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٦٦﴾: أَي تَذْكَيرًا وَتَحْذِيرًا لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ، وَيَتَّقُونَ سَخَطَهُ بِفِعْلِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ وَتَرَكَ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ.

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أَي تِلْكَ الْعِقَابَةُ ﴿نَكَالًا﴾ عِبْرَةٌ مَانِعَةٌ مِنْ ارْتِكَابِ مِثْلِ مَا عَمَلُوا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أَي: لِلْأَمْرِ الَّتِي فِي زَمَانِهَا أَوْ بَعْدَهَا

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٦٨)، (٢/٧٢-٧٣).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/٢٩١-٢٩٢).

(٣) ينظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص ٤٥٨).

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الله، وُخِصُّوا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ الْمُتَنَفِّعُونَ بِهَا بِخِلَافِ
غَيْرِهِمْ.

وقول المؤلف: (عبرة مانعة من ارتكاب مثل ما عملوا): يريد أن من سمع
بهذه العقوبة يعتبر نفسه بمن حلت به هذه العقوبة بسبب معصيته؛ فيحذر أن
يفعل فعلهم فيصيبه ما أصابهم. وقوله: (أي: للأمم التي في زمانها أو بعدها):
يُبين بهذا المراد: بما بين يديها وما خلفها؛ وهم الناس الذين كانوا موجودين
وقت العقوبة والذين جاؤوا من بعدهم.

وقوله: (وُخِصُّوا بِالذِّكْرِ...) إلى آخره: يريد أن هذه العقوبة موعظة لكل
من سمع بها، ولكن المتفيعين بذلك هم الذين يخافون الله؛ فلذلك خُصُّوا
بالذكر.



وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧]:

لا يزال الكلام مُتصلاً خطاباً لبني إسرائيل الموجودين زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذا نقول في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾: واذكروا حين قال موسى لقومه، وقومُه: هم بنو إسرائيل، وهذا خبرٌ من الله عن موسى أنه قال لقومه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾، وقد بيّن سبحانه في الآيات التالية سبب أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرةً، والحكمة من ذلك، كما في الآيتين (٧٢ و٧٣).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾: إخبارٌ من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه أن الله يأمرهم بذبح بقرة، ولَمَّا لم يعقلوا الحكمة من هذا الأمر ولم يكن عندهم إيمانٌ يوجب التسليم لأمر الله أسأوا الظنَّ بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا﴾، فظنوا أمرهم بذبح بقرة استهزاءً من موسى بهم، ثم صاروا يتعنّتون بالأسئلة عن البقرة، عن سنّها وعن لونها وعن صفتها، وفي كلِّ مرّة يدعو موسى ربه فيجيبهم عمّا سألوا، فكلّموا سألوا شُدّد عليهم، ولو امتثلوا من أول الأمر لأجزأهم أيّ بقرة يذبحونها، ولكنهم لم يذبحوها إلا بعد تمنعٍ وتعنتٍ، وما كادوا يفعلون؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٧١].

وفي قصة البقرة ذكُرٌ بعض مساوئ بني إسرائيل؛ كجرائمهم على أنبيائهم، وعصيانهم لأمر الله، وقسوة قلوبهم.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ وقد قُتِلَ لهم قَتِيلٌ لَا يَدْرِي قَاتَهُ
وسألوه أن يدعو الله أن يُبينه لهم فدعاه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾

قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا ﴿١٥٧﴾ مَهْزُوءًا بِنَا حَيْثُ تُجْبِنُنَا بِمِثْلِ ذَلِكَ ﴿١٥٨﴾ قَالَ أَعُوذُ ﴿١٥٩﴾ أَمْتَنَعُ ﴿١٦٠﴾ بِاللَّهِ ﴿١٦١﴾ مَنْ ﴿١٦٢﴾ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٦٣﴾ الْمُسْتَهْزِئِينَ.

وقول المؤلف: (اذكر): الأظهر تقدير: اذكروا.
 وقوله: (وقد قُتِلَ لَهُمْ قَتِيلٌ...) إلى آخره: يُبَيِّنُ بهذا سبب الأمرِ بذيح بقرة؛ وهو قصة القتيل كما في الآيتين.
 وقوله: (مهزوءاً بنا): يُبَيِّنُ أَنْ هُزُواً مصدرٌ بمعنى اسم المفعول.
 وقوله: (أمتنع): هذا تفسيرٌ لـ ﴿أَعُوذُ﴾؛ فالمعنى: أمتنعُ بالله؛ لأنَّ العائدَ يطلبُ من المستعاذ به أن يعصمه ويمنعه مما يضرُّه.
 وقوله: (المستهزئين): تفسيرٌ لـ ﴿الْجَاهِلِينَ﴾؛ لأنَّ في الاستهزاء بالخبر عن الله أعظمُ الجهل.



وقوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا
فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا
لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْفَنَ جِئْتُ بِالْحَقِّ
فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٦٨-٧١]:

هذا أول أسئلتهم التعنتية، ومضمونه: السؤال عن سن البقرة كما يدل
عليه الجواب؛ قال موسى: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ﴾؛ أي: إن ربي يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا
فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ﴾. ومضمون الجواب أنها ليست مُسِنَّةً ولا صغيرةً، وهو
معنى ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ﴾، بل هي وسط؛ وهو معنى ﴿عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾،
والعوان من البقر: هي التي ولدت بطناً أو بطنين^(١).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا...﴾ الآية: هذا هو السؤال
الثاني عن لونها وقد أجبوا بأنها صفراء صفرة شديدة مع حسنها، وهو: معنى:
﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾^(٢)؛ يعني: تعجب الناظرين إليها.
وقوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾: هذا هو السؤال الثالث،
ومضمونه: السؤال عن صفتها، وقد أجبوا بأنها ليست مُذَلَّلَةٌ بالحرث والسقي،
ولا ذات ألوان، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ
مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾؛ أي: ليست عاملةً، وليس في جلدها لونٌ يُخالف لونها،
وهذا معنى قوله: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾^(٢).

(١) قاله مجاهد والثوري. ينظر: «تفسير الطبري» (١/٨٧-٩١)، و«تفسير ابن أبي حاتم»
(١/١٧٣، رقم ٦٩٥).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٥٤)، و«المفردات» للراغب (ص ٨٧٢).

وقوله: ﴿قَالُوا أَلَنْ جِئْتِ بِالْحَقِّ﴾: إظهار لقبولهم الأمر بذبح البقرة، وقد صدقوا وكذبوا؛ فصدقوا بقبولهم لنبي الله موسى: ﴿جِئْتِ بِالْحَقِّ﴾، وكذبوا في تقييد ذلك؛ بقبولهم: ﴿أَلَنْ﴾؛ يعنون ما أُجيبوا به في سؤالهم الثالث، وقد جاء نبيُّ الله موسى بالحق في كلِّ ما أخبرهم به عن ربه.

وقوله: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾: إخبارٌ من الله بأنهم بعدما أذعنوا بالقول امتثلوا بالفعل بأن ذبحوا البقرة التي انطبقت عليها تلك الصفات المذكورة في الآيات. وقوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾: أي قبل ذبحها لم يمكن منهم قربٌ من فعل ما أمروا به مما يدلُّ على شدة إعراضهم عن الطاعة، ولكنهم لمَّا قامت عليهم الحجَّة أذعنوا، وذلك في قوله: ﴿أَلَنْ جِئْتِ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا﴾.

فلمَّا علموا أنه عزم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما سنُّها؟ ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الله ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾ مُسِنَّةٌ ﴿وَلَا بَكْرٌ﴾ صغيرة ﴿عَوَانٌ﴾ نصفٌ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المذكور من السنين ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ به من ذبحها. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْئَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقْعُ لَوْئَهَا﴾ شديد الصُّفرة ﴿تَسُرُّ النَّاطِرِينَ﴾ إليها بحسنها؛ أي: تُعجبهم. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أسائمة أم عاملة؟ ﴿إِنَّ الْبَقْرَ﴾ أي: جنسه المنعوت بما ذكر ﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لكثرتِه فلم نهتدِ إلى المقصودة ﴿وَأِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها. وفي الحديث: ((لو لم يستثنوا لَمَا يُبَيِّنْ لَهُمْ آخِرَ الْأَبَدِ))^(١). ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذُلُولٌ﴾ غيرٌ مذللةٌ بالعمل ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ تقلبها للزراعة والجملة صفةٌ «ذلول» داخلَةٌ في النفي ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ الأرض المهيأة للزراعة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/٩٩-١٠٠) عن قتادة وابن جريج مرسلًا، وبنحوه في «تفسير ابن أبي حاتم» (١/١٤١، رقم ٧٢٢) عن أبي هريرة، به. وفيه سرور بن المغيرة وعباد بن منصور، وهما ضعيفان كما في «الميزان» (٣٠٨٣)، (٤١٤١).

من العيوب وآثار العمل ﴿لَا شِيَةَ﴾ لون ﴿فِيهَا﴾ غير لونها ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ نطقت بالبيان التام. فطلبوها فوجدوها عند الفتى البارِّ بأمه فاشتروها بملء مسكها ذهباً ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها. وفي الحديث: ((لو ذبحوا أي بقرة كانت لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم)).

وقول المؤلف: (نصف): أي وسط بين الصغيرة والكبيرة. وقوله: (المذكور من السنين): يريد أن اسم الإشارة راجع إلى الفارض وال بكر.

وقوله: (به من ذبحها): الجار والمجرور الأول متعلق بـ ﴿تَوْمَرُونَ﴾، والجار والمجرور الثاني بيان لما الموصولة في قوله: ﴿مَا تَوْمَرُونَ﴾. وقوله: (أسائمة أم عاملة؟): بيان لمضمون سؤالهم الثالث كما يدل عليه الجواب.

وقوله: (لكثرته فلم نهتد إلى المقصودة): يريد أنهم اعتذروا في هذه المرة عن عدم الذبح الذي أمروا به بتشابه البقر لكثرتها، فلم تتميز البقرة المقصودة بما ذكر من سنّها ولونها؛ لذلك لم يهتدوا إليها، لكنهم طمّعوا أن يهتدوا، وردّوا ذلك إلى مشيئة الله فأحسنوا. والحديث الذي أشار إليه المؤلف لم يثبت مرفوعاً، وقال ابن كثير: إنه غريب، وأحسن أحواله أن يكون موقوفاً على أبي هريرة^(١).

وقوله: (مُدلّلة): يريد أن ﴿ذُلُولٌ﴾ فعولٌ بمعنى اسم المفعول.

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/٣٠٠)، ونقل ابن كثير عن الطبري (٢/٩٨) أثر ابن عباس، قال: «لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم». وقال: «إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس. وكذا قال عبدة، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية، وغير واحد».

وقولُه: (والجملةُ صفةٌ «ذلول»...) إلى آخره: يريد أن جملة ﴿تُشِيرُ﴾ صفةٌ ﴿ذَلُولٌ﴾، فهي في موضع رفع.

وقولُه: (داخلةٌ في النفي): يعني أنها لا تعمل في حراثَةِ الأرض، ولا سقي الحرت؛ أي: سانية^(١).

وقولُه: (لون ﴿فِيهَا﴾ غير لونها): يريد أنه ليس فيها لونٌ يُخَالِفُ لونَ جلدها.

وقولُه: (نطقت بالبيان التام...): إلى آخره: تفسيرٌ لقوله: ﴿جِئْتُ بِالْحَقِّ﴾. وقولُه: (فوجودها...): إلى آخره: يشيرُ إلى قصةِ إسرائيليةٍ في شأن البقرة^(٢).

وقولُه: (لغلاء ثمنها): مبنيٌّ على تلك القصة، فالله أعلم. وقولُه: (وفي الحديث...): إلى آخره: هذا طرفٌ من الحديث المتقدّم الذي رجّح ابنُ كثيرٍ وقفه على أبي هريرة.



(١) سانية: هي الناقة التي يُستقى عليها. ينظر: «لسان العرب» (١٤/٤٠٤).

(٢) أي قصة شرائهم البقرة بملءِ مَسْكِيهَا؛ أي: جلدها ذهبًا، ذكرها بعض المفسرين. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/١١٤)، و«تفسير البغوي» (١/١٠٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

﴿البقرة: ٧٢﴾.

المخاطبون في هذه الآية هم المخاطبون في الآيات السابقة، وهم بنو إسرائيل الموجودون وقت نزول القرآن، والتقدير في هذه الآية كالتقدير في نظائرها؛ فالمعنى: واذكروا حين قتلتم، فالذين قتلوا وتدارؤوا وكنتموا هم الأسلاف، وأضيف إلى الخالفين لأنهم أمة واحدة، وقد سبق تقرير هذا المعنى مرّات^(١).

وقوله: ﴿نَفْسًا﴾: أي إنساناً معصوماً.

وقوله: ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾: أي تدافعتم بدعوى كل منكم البراءة من دم القتل، ومنكم من يعلم ذلك ويكتمه^(٢).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: أي مظهر ما تكتُمونه من معرفة القاتل.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ﴾ فيه إدغام التاء في الأصل في الدال؛ أي: تخاصمتم وتدافعتم ﴿فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ مظهر ﴿مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من أمرها، وهذا اعتراض، وهو أول القصة.

وقول المؤلف: (فيه إدغام التاء في الأصل في الدال...) إلى آخره: لأن أصل الفعل تدارأتم، فقلبت التاء دالاً ساكنة وأدغمت في الدال، فوزن ادارأتم: اتفاعلتم^(٣).

(١) تقدم في (ص ١٠٦)، و(ص ١٢٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١٩/٢-١٢٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/١٥٣)، و«الكشاف» (١/٢٨٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١١٧/٢)، و«المحرر الوجيز» (١/٢٥٣-٢٥٤)، و«الدر المصون» (١/٤٣٤).



وقوله: (من أمرها): أي من أمر النَّفْس؛ وهو القتل^(١).
 وقوله: (وهذا اعتراض): يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ﴾.
 وقوله: (وهو أوَّل القِصَّة): يريد أن قتل هذه النفس؛ هو سبب أمرهم بذبح بقرة، وما تبع ذلك من سؤال وجواب.



(١) واختاره: الطبري، والشنقيطي، واستظهره أبو حيان. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/١٢٣ - ١٢٤)، و«البحر المحيط» (١/٤١٩)، و«العذب النمير» (١/١٤٤).

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]:

يخبرُ تعالى أنه أمرهم بعد ذبح البقرة أن يضربوا القتيل ببعض البقرة؛ أي: ببعض منها، ولم يُعيّن هذا البعض، فيجزئهم الضربُ بأيِّ عضوٍ من أعضائها، أو جزءٍ من أجزائها، ولا معنى للاختلاف في تعيين البعض الذي يضربونه به^(١).
وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾: يدلُّ على أنهم لَمَّا ضربوه ببعض البقرة حيًّا، وجاء في الروايات الإسرائيلية أنه تكلم، وسمّى قاتله^(٢)، وظاهر القرآن يشهدُ بصحة ذلك.

وقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: يدلُّ على أن إحياء هذا القتيل آيةٌ بيّنةٌ على قدرة الله على بعث الأموات.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ أي القتيل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ فُضِرْبَ بِلِسَانِهَا أَوْ عَجَبِ ذَنْبِهَا فَحِي، وَقَالَ: قَتَلَنِي فَلَانٌ وَفَلَانٌ، لِابْنِي عَمِهِ، وَمَاتَ، فَحُرِمَا الْمِيرَاثَ وَقُتِلَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ﴾ الْإِحْيَاءُ ﴿يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ دَلَالٌ قُدْرَتِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تَتَدَبَّرُونَ فَتَعْلَمُونَ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى إِحْيَاءِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ نَفُوسٍ كَثِيرَةٍ فَتُؤْمِنُونَ.

(١) قال الطبري: «ولا دلالة في الآية ولا خبر تقوم به حجة على أي أعضائها التي أمر القوم أن يضربوا القتيل به».

وقال ابن كثير: «فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا؛ لبينه الله تعالى لنا، ولكن أبهمه، ولم يجر من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نبهمه كما أبهمه الله». ينظر: «تفسير الطبري» (٢/١٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (١/٣٠٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/١٢٥-١٢٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/١٤٥)، رقم ٧٥٠، (٧٥٢).

وقول المؤلف: (فَضْرِبْ بِلِسَانِهَا...) إلى آخره: هذا بعض ما جاء في الروايات الإسرائيلية، فمنه ما هو حقٌّ؛ وهو ما دلَّ عليه القرآنُ كإحيائه، ومنها ما لا دليلَ عليه؛ كالبعض الذي ذكر أنهم ضربوه به أو أنَّ القاتلَ ابناً عمِّه، ومثل هذا لا يُصدِّق ولا يُكذِّبُ.

وقوله: (الإحياء): يريد أنَّ اسمَ الإشارة في ذلك يرجع إلى إحياء القتيل المفهوم من السياق.

وقوله: (دلائل قدرته): أي التي منها إحياء هذا القتيل.

وقوله: (تتدبرون...) إلى آخره: أي تتدبرون قدرةَ الله على إحياء القتيل؛ فتعلمون قدرته على إحياء الموتى على كثرتهم لقوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨].



وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فِيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤]:

المخاطبون في هذه الآية هم المخاطبون في الآيات السابقة، وهم بنو إسرائيل الحاضرون، والذين قَسَتْ قُلُوبُهُمْ: هم بنو إسرائيل المتقدمون الذين جَرَّتْ على أيديهم قِصَّةُ القَتِيلِ وقِصَّةُ البقرة؛ يخبر تعالى عنهم بأنها قَسَتْ قُلُوبَهُمْ بعدما جرى منهم التدافع في أمر القَتِيلِ والتعنُّت في شأن البقرة وإظهار الله ما كانوا يكتُمون. ومعنى قَسَتْ قُلُوبَهُمْ: اشتدَّتْ ولم تَلِنْ بعدما رأوا من آيات الله، فصارت في قسوتها مثل الحجارة أو أشد، ويدلُّ على أنها أشدُّ: أنَّ من الحجارة ما يتفجَّر منها الأنهار، ومنها ما يتشَقَّقُ منه الماء، ومنها ما يهبِطُ من المكان العالي بسبب خشيته لله.

ثم يقول تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾: وفي هذا تهديدٌ ووعدٌ للذين قَسَتْ قُلُوبَهُمْ فداموا على المعصية حتى قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ﴾ أيها اليهود! صَلَبْتُ عن قبول الحق ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ المذكور من إحياء القَتِيلِ وما قبله من الآيات ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ في القسوة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ﴾ فيه إدغامُ التاء في الأصل في الشين ﴿فِيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ ينزلُ من علو إلى سفلى ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وقلوبكم لا تتأثَّر ولا تَلينُ ولا تخشعُ ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وإنما يؤخِّركم لوقتكم. وفي قراءةٍ بالتحية، وفيه التفاتٌ عن الخطاب.

وقول المؤلف: (صَلَبْتُ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ): تفسيرٌ للقسوة بالصلاية، والأصلُ أَنَّ هَذَا فِي الْحَسِيَّاتِ، وَلَكِنَّهُ اسْتَعْمَلَ فِي الْمَعْنَوِيَّاتِ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ؛ إِذْ شَبَّهَ الْقُلُوبَ بِالْحِجَارَةِ^(١).

وقوله: (فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الشَّيْنِ): يَرِيدُ أَنَّ أَصْلَ ﴿يَشَقُّ﴾ يَتَشَقَّقُ، وَسُكِّنَتِ التَّاءُ ثُمَّ أُدْغِمَتْ فِي الشَّيْنِ، وَعَلَى هَذَا فَأَصْلُ ﴿يَشَقُّ﴾ يَتَشَقَّقُ، فَوَزَنَ الْكَلِمَةَ: يَتَفَعَّلُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي «إِدَارَاتِمُ».

وقوله: (وَقُلُوبِكُمْ لَا تَتَأَثَّرُ وَلَا تَلِينُ وَلَا تَخْشَعُ): بَيَانٌ لِحَالِ قُلُوبِهِمْ، وَأَنَّهَا أَقْسَى مِنَ الْحِجَارَةِ، فَالْحِجَارَةُ تَتَفَجَّرُ وَتَشَقُّقُ وَتَهْبَطُ، وَقُلُوبُ أَوْلِيَاكُمْ لَا تَلِينُ وَلَا تَخْشَعُ.

وقوله: (وَإِنَّمَا يُؤَخِّرُكُمْ لَوْقَتِكُمْ): بَيَانٌ أَنَّ إِمَّهَالَهُمْ لَا لَغْفَلَةَ اللَّهِ عَنْهُمْ؛ بَلْ لِيَبْلُغُوا آجَالَهُمْ. وَقَوْلُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ بِالتَّحْتِيَّةِ...) إِلَى آخِرِهِ: يَرِيدُ أَنَّ لِكَلِمَةِ قِرَاءَتَيْنِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وَ﴿يَعْمَلُونَ﴾^(٢)، وَالتَّحْتِيَّةُ: هِيَ الْبِئَاءُ؛ لِأَنَّهَا مَنْقُوطَةٌ مِنْ تَحْتِ، وَالْقِرَاءَةُ بِالتَّاءِ عَلَى الْخَطَابِ، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِأَوَّلِ الْآيَةِ، وَالْقِرَاءَةُ بِالْبِئَاءِ فِيهِ التَّفَاتُّ عَنِ الْخَطَابِ إِلَى الْغِيْبَةِ كَمَا ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ.



(١) ينظر: تفسير الألويسي (١/ ٢٩٤)، و«إعراب القرآن وبيانه» لدرويش (١/ ١٢٨).
 (٢) قرأ ابن كثير: ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالغيب، وقرأ الباقون: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالخطاب. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٠-١٦٢)، «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢١٧).

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥):

ينهى الله - تعالى - المؤمنين عن إحسان الظن باليهود والطمع في إيمانهم، وهم الذين فريقٌ منهم يسمعون كلامَ الله المنزَّل على موسى، وهو التوراة ثم يحرفونه؛ أي: يُغيِّرون لفظه أو معناه بعد ما فهموا مرادَ الله منه، وهم يعلمون فُبِحَ فعلهم، فمن هذه حاله لا طمعَ في إيمانهم؛ لأنهم ارتكبوا الباطلَ قاصدين وعامدين، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)، وفي هذا تبيُّس للمؤمنين من إيمانهم.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ أي: اليهود ﴿لَكُمْ﴾ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ طائفةٌ ﴿مِنْهُمْ﴾ أحبارهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ في التوراة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ يُغيرونه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ فهموه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مُفترون؟ والهمزة للإنكار؛ أي: لا تطمعوا فلهم سابقةٌ في الكفر.

وقول المؤلف: (أيها المؤمنون): بيان للمخاطبين في الآية.
وقوله: (أي: اليهود): بيان للمراد في الذين لا طمع في إيمانهم، ويدلُّ له أنَّ الحديثَ في الآيات السابقة عنهم.
وقوله: (أحبارهم): بيان للمراد بالفريق الموصوفين بالتحريف، وهم علماء اليهود، وهذا هو الصحيح، والصحيح أيضًا: أنَّ المراد بكلام الله التوراة^(١)، ولهذا قال المؤلف: (في التوراة).

(١) وهو قول مجاهد والسدي. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ١٤٠-١٤١)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٢٥٩)، و«زاد المسير» (١/ ٨٠).

وقوله: (يُغَيِّرُونَهُ): أي يُغَيِّرُونَ معانيه بما يوافق أهواءهم، ومن أجل ذلك يُغَيِّرُونَ حروفه.

وقوله: (والهمزةُ للإنكار): يريد أن همزة الاستفهام في أوّل الآية للإنكار الذي معناه النهي، والأحسنُ في إعراب الفاء التي بعد همزة الاستفهام أنها عاطفةٌ على محذوف؛ فيكون التقدير: أتحسنون الظنَّ في هؤلاء وحالهم ما ذُكِرَ، فتطمعون في إيمانهم^(١)؟



(١) ينظر: «البحر المحيط» (١/٤٣٨)، و«الدر المصون» (١/٤٤٠).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة: ٧٦]:

يُخبر تعالى عن المنافقين من اليهود أنهم إذا لقوا المؤمنين أظهروا لهم الإيمان وقالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾؛ أي: قد آمنّا، وإذا مضوا إلى شياطينهم، وخال بعضهم ببعض فإنهم يحذرونهم أن يُحدّثوا المسلمين بما أعطاهم الله من العلم في التوراة مما يكون حجةً للمسلمين عليهم، وأن ذلك خلافُ العقل؛ لقولهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾، فتبيّن أن قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ آخر ما أخبر الله به من قول الرؤساء المتبوعين لأتباعهم لائمين لهم وموبّخين على تحديتهم المسلمين بما يكون حجةً لهم عليهم^(١).

﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أي: منافقو اليهود ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ بأنّ محمّداً نبيّ وهو المبشّر به في كتابنا ﴿وَإِذَا خَلَا﴾ رجع ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا﴾ أي: رؤساؤهم الذين لم يُنافقوا المَن نافع ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾ أي: المؤمنين ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عرفكم في التوراة من نعت محمّد ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ﴾ ليخاصموكم، واللام للضرورة ﴿بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ في الآخرة، ويُقيموا عليكم الحجة في ترك أتباعه مع علمكم بصدقه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنهم يُحاجونكم إذا حدّثتموهم فنتهوا؟

(١) قيل: هو خطاب من الله تعالى للمؤمنين، وقيل: هو من قول الأخبار للأتباع، واختار هذا القول: الطبري، والظاهر بن عاشور. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ١٥١)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٢٦١)، و«البحر المحيط» (١/ ٤٤٢-٤٤٣)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٥٧٢).

وقول المؤلف: (وهو المبشّر به في كتابنا): يشير إلى معنى: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾. وقوله: (رجع): يُشير إلى أَنَّ ﴿خَلَا﴾ في الآية ضَمَّن معنى: «رجع» بدليل التعدية بـ«إلى»^(١).

وقوله: (أي: رؤسائهم...) إلى آخره: يُشير إلى أَنَّ الواو في ﴿قَالُوا﴾ تعودُ إلى بعض الثانية المخفوضة بـ«إلى»، وهم الرؤساء الذين سُمُوا في الآية السابقة في أولِ السورة بالشياطين.

وقوله: (أي: المؤمنين): بيانٌ لمرجع الضمير المنصوب في قوله: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ﴾.

وقوله: (أي: عرفكم...) إلى آخره: تفسيرٌ للفتح بالمعرفة، ولا ريب أَنَّ العلمَ بالحقِّ فتحٌ يفتحه اللهُ لِمَن يشاء؛ المعنى: أتحدثون المؤمنين بما تعلمون من صفة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيحتجون عليكم بذلك؟

وقوله: (واللام للصيرورة...) إلى آخره: يريد أَنَّ اللام في قوله: ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ﴾ لَامُ العاقبة وليست للتعليل؛ فالمعنى: إذا حدّثتموهم يؤول الأمر بكم وبهم إلى أَنَّ يُخاصموكم عند ربكم بعلمكم بصفة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).



(١) ينظر: «البحر المحيط» (١/٤٤١).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (١/٤٤١-٤٤٢).

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]

[٧٧]:

هذا توبيخ وتهديد من الله للمنافقين ورؤسائهم على ما فعلوا من النفاق وتلقّيهم الوصايا من رؤسائهم، هذا مع علمهم أنّ الله يعلم ما يُسرون وما يعلنون.

قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستفهام للتقرير والواو الداخلة عليها للتعطف ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ما يخفون وما يظهر من ذلك وغيره فيرجعوا عن ذلك.

وقول المؤلف: (الواو الداخلة عليها للتعطف): يريد أنّ الواو التي بعد الهمزة عاطفة للجملة التي بعدها على جملة محذوفة بعد الهمزة؛ فالتقدير: يفعلون ذلك ولا يعلمون أنّ الله يعلم ما يُسرون وما يُعلنون؟ فأفادت الآية علم الله بكلّ ما يُسرون وما يعلنون؛ لأنّ «ما» من صيغ العموم. وقوله: (فيرجعوا عن ذلك): أي يرجعوا عن نفاقهم وإفسادهم خوفاً من الله تعالى الذي يعلم ما يُسرون وما يُعلنون.



وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]:

يخبر تعالى أنّ من اليهود فريقاً آخر هم أُمِّيُونَ لا يفهمون معاني كتابهم التوراة، فلا يعلمون منها إلاّ التلاوة، وهو معنى ﴿أَمَانِيًّ﴾، فهم يعلمون ألفاظها، ولا يعلمون معانيها، إلاّ ظنّ يظنونها، وهؤلاء هم عوامهم، وهذا على أحد القولين في تفسير: ﴿أَمَانِيًّ﴾؛ وهو أنّ ﴿أَمَانِيًّ﴾ جمع أمانية؛ أي: قراءة^(١)، وضعّف ابن جرير هذا القول^(٢) وكذا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي^(٣)، وقالوا: أنّ هذا يناقض قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾، والأُمِّيُّ هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، فكيف مع ذلك يوصفون بالعلم بقراءة الكتاب؟ والاستثناء على هذا القول متصل.

والقول الثاني في الأمانى: أنها الأحاديثُ الباطلةُ والتخرّصات والتشهّيات التي يُؤمنون بها أنفسهم^(٤)، ومن ذلك قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾، قال الله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١].

وقولهم: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تَهْتَدُوا﴾، قال الله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. والاستثناء على

(١) نسب هذا القول للكسائي وأبي عبيدة، واختاره الواحدي والجرجاني والسعدي. ينظر: «التفسير البسيط» (٣/ ٨٥-٨٦)، و«درج الدرر» (١/ ٢١٣)، و«تفسير السعدي» (١/ ٧١)، و«مجموع الفتاوى» (١٤/ ٧١) (١٦/ ١٢) (١٧/ ٤٣٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ١٥٨).

(٣) ينظر: «أضواء البيان» (١/ ٩٤-٩٥)، و«العذب النمير» (١/ ١٦٦-١٦٧).

(٤) وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبي العالية، واختاره الفراء. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٩-٥٠)، و«تفسير الطبري» (٢/ ١٥٦-١٥٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٥٢).

هذا القول منقطع؛ فالمعنى: لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون أمني لا حقيقة لها، ويدعون من علم الكتاب ما ليسوا منه في شيء، ومع ذلك هم شاكون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، والظنُّ في هذا الموضع هو الشكُّ.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي اليهود ﴿أُمِّيُونَ﴾ عوام ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿أَمَانِي﴾ أكاذيب تلقوها من رؤسائهم فاعتمدوها ﴿وَإِنْ﴾ ما ﴿هُمْ﴾ في جحد نبوة النبي وغيره مما يخلقونه ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ظناً، ولا علم لهم.

وقول المؤلف: (أكاذيب...) إلى آخره: هذا مضمون القول الثاني في معنى أمني.

وقوله: (ما): هذا تفسير: لـ «إِنْ» يريد أن يبين أنها نافية.
وقوله: (في جحد...) إلى آخره: يبين أن اليهود لا مُستند لهم في أقوالهم الباطلة إلا الظن، والظنُّ أكذب الحديث.



وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ رُؤْيَا بِهِ ثُمَّ قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

المخبر عنهم في هذه الآية بالكذب على الله فيما يكتبونه ليتوصلوا بذلك إلى عرض من الدنيا من مالٍ أو رئاسةٍ، الظاهر أنهم الفريق الذين وصفوا بأنهم يسمعون كلامَ الله ثم يُحرفونه، أو هم فريقٌ منهم وقد توعدّهم الله في هذه الآية بالويل ثلاث مرات، والويل: هو العذابُ الشديدُ.

﴿فَوَيْلٌ﴾ شدة عذاب ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي مُختلفًا من عندهم ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ رُؤْيَا بِهِ ثُمَّ قَلِيلًا﴾ من الدنيا وهم اليهود، غيروا صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التوراة وآية الرجم وغيرها، وكتبوها على خلاف ما أنزل ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المخلوق ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الرُّشَا.

وقول المؤلف: (شدة عذاب): هذا أحسنُ وأجمعُ ما فسّر به الويل^(١)، وقد ذكر في سياق الدعاء عليهم والوعيد لهم. وقوله: (مُختلفًا من عندهم): يُبيّن أنّ الذي يكتبونه ليس هو التوراة المنزلة؛ بل كذبٌ يفترونه ويزعمون أنه من التوراة. وقوله: (من الدنيا وهم اليهود...) إلى آخره: يُبيّن أنّ المذكورين في الآيات المذمومين هم اليهود، وأنّ غايتهم الحظُّ العاجلُ، وهو متاعُ الدنيا،

(١) روي عن ابن عباس بنحوه، ينظر: «تفسير الطبري» (١٦٢/٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (١٦٠/١).

ومتاع الدنيا قليل ولو كانت كلها؛ كما يُبين المؤلفُ أنَّ ممَّا حرَّفوه أو كتموه
 صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.



وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۗ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ٨٠]:

يذكر تعالى في هذه الآية بعض أقوال اليهود الباطلة؛ التي افتروها على الله، وهو قولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾؛ أي: قليلة، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى في آل عمران: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ۗ وَعَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٤]، وقد أكذبهم الله في الآية التالية بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۗ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾: الاستفهام للإنكار الذي يؤول إلى النفي. و﴿أَمْ﴾ هي: المنقطعة المؤولة بـ«بل» وهمزة الاستفهام، فالمعنى: بل أتقولون على الله ما لا تعلمون؟^(١)، وهذا استفهام توبيخ لهم على افتراءهم الكذب على الله، ومن قال على الله بغير علم فهو مفترٍ كذاب.

﴿وَقَالُوا﴾ لَمَّا وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ النَّارَ ﴿لَنْ تَمَسَّنَا﴾ تُصِينَا ﴿النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ قليلة، أربعين [يوماً]^(٢)، مدة عبادة آبائهم العجل ثم نزول ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ حذف منه همزة الوصل استغناءً بهمزة الاستفهام ﴿عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ ميثاقاً منه بذلك ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ به؟ لا ﴿أَمْ﴾ بل ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(١) ينظر: «الكشاف» (١/٢٨٩)، و«البحر المحيط» (١/٤٤٨-٤٤٩).

(٢) ما بين معكوفتين مثبتة في طبعة دار السلام وابن كثير وحاشية الصاوي، وأثبتها شيخنا وقال: «لا بد منها».

وقول المؤلف: (أربعين يوماً...) إلى آخره: هذا من الإسرائيليات؛ فلا يجزم بأنه مُرادهم بالأيام المعدودة^(١).

وقوله: (حذف منه همزة الوصل...) إلى آخره: يُبين أنّ فعل «اتخذ» كان مبدوءاً بهمزة وصل مكسورة فلما اتصل الفعل بهمزة الاستفهام سقطت همزة الوصل.

وقوله: (ميثاقاً منه بذلك): تفسيرُ العهد من الله بالميثاق فيه نظرٌ، إذ لم يرد أخذ الميثاق من الله، والأولى تفسيرُ العهد من الله بالوعد المؤكّد الذي لا يُخلف^(٢).



(١) وهذا قول قتادة والسدي وعكرمة وأبي العالية، ورواه الضحاك عن ابن عباس، ثم اختلفوا في سبب تقديرهم لها بالأربعين، وقيل في الأيام المعدودة غير ذلك. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ١٧٠-١٧٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٥٥-١٥٦)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٢٦٥-٢٦٦).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣١٣)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٥٨٠).

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨١-٨٢]:

يُبيِّنُ تعالى في هاتين الآيتين أَنَّ مصيرَ الكافرين النار خالدين فيها، ومصيرَ المؤمنين الجنة خالدين فيها.

وقوله: ﴿بَلَىٰ﴾: ردُّ لِمَا تزعمه اليهود من قولهم: ﴿لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾. والسيئة هي الكفر. ومعنى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾: أي غلبت عليه سيئاته فلا يصلُّ إليه خيرٌ من أي جانب، وبهذا استوجبوا دخول النار والخلود فيها، وأمَّا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فمصيرُهم الجنة خالدين فيها. فهذان الفريقان - فريقُ السُّعداء وفريقُ الأشقياء - نقيضان في أحوالهما وأعمالهما ومآلهما.

﴿بَلَىٰ﴾ تمسُّكم وتخلدون فيها ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ شركًا ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ بالإنفراد والجمع أي: استولت عليه وأحذقت به من كلِّ جانبٍ بأن مات مشركًا ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ رُوعي فيه معنى «من». ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقول المؤلف: (تمسُّكم، وتخلدون فيها): يُبيِّنُ بهذا أن ﴿بَلَىٰ﴾ تُفيدُ إبطالَ النفي، وإثباتَ المنفي في قولهم: ﴿لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ﴾. وقوله: (شركًا): تفسيرٌ للسيئة الموجبة للكفر والخلود في النار^(١).

(١) قاله ابن عباس وأبو وائل ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/١٧٨ - ١٨١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/١٥٧).

وقوله: (بالإفراد والجمع): يريد أن خطيئة فيها قراءتان: خطيئة وخطيئات^(١).

وقوله: (استولت عليه): يعني غلبت عليه، فلا يفعل خيراً حتى مات كافراً فاستحقَّ الخلود في النار.

وقوله: (رُوعي فيه معنى «من»): يريد أن خالدون - وهو جمع - روعي فيه معنى: «مَنْ» في قوله: ﴿مَنْ كَسَبَ﴾، فإنَّ لفظها مفردٌ ومعناها الجمع.



(١) قرأ أبو جعفر ونافع: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ﴾ بالألف على الجمع، وقرأ الباقر: ﴿خَطِيئَتُهُ﴾ بغير ألف على واحدة. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٢)، و«النشر» (٢ / ٢١٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣]:

في هذه الآية عودٌ إلى خطاب اليهود؛ لتذكيرهم بنعم الله على آبائهم وما جرى منهم من المخالفات، وما حلَّ بهم من العقوبات، وفي كلِّ ما تقدَّم تُضَافُ هذه الأمور إلى المخاطبين لكن في هذا الموضع أُضيف أخذ الميثاق إلى بني إسرائيل فيشمل الأولين منهم والآخرين. وفي ذكرهم بنسبهم الذي عُرفوا به تجديدٌ لِمَا افتتح به الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَلْبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ولينبني عليه خطابهم في الآيتين التاليتين، وقد دلَّت هذه الآية على ما تضمَّنه الميثاق وهو ثمانية أمور:

- ١ - أنهم لا يعبدون إلا الله.
- ٢ - الإحسان إلى الوالدين.
- ٣ - الإحسان إلى ذوي القربى.
- ٤ - الإحسان إلى اليتامى.
- ٥ - الإحسان إلى المساكين.
- ٦ - أن يقولوا للناس حسناً؛ أي: قولاً حسناً.
- ٧ - إقام الصلاة.
- ٨ - إيتاء الزكاة.

والخطاب في قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾ إلى آخره، لبني إسرائيل

كلهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾: أي أعرضتم عن العمل بالميثاق.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾: يدلُّ على أنهم لم يُعرضوا كلَّهم بل أعرض أكثرهم؛ فمعنى الآية: واذكروا حين أخذنا ميثاق بني إسرائيل ألا يعبدوا إلا الله ويحسنوا بالوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، ويقولوا للناس حسناً ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ولكنه قد تولَّى عن العمل بهذا الميثاق كثيرٌ منهم أو أكثرهم.

والخطابُ في أول الآية وآخرها لأهل الكتاب الموجودين زمن النبوة، خصوصاً اليهود الذين حول المدينة. والخطاب في قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾ إلى آخره: لبني إسرائيل الذين أخذ الله منهم الميثاق.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ في التوراة وقلنا: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ بالتاء والياء ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ خبرٌ بمعنى النهي. وقرئ ﴿لا تعبدوا﴾ ﴿وَ﴾ أحسنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ برأ ﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾ القرابة عطف على الوالدين ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ﴾ قولاً ﴿حَسَنًا﴾ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق في شأن محمد، والرفق بهم، وفي قراءة بضمّ الحاء وسكون السين مصدر وصف به مبالغة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فقبلتم ذلك ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الوفاء به، فيه التفاتٌ عن الغيبة، والمراد: أبائهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عنه كأبائكم.

وقول المؤلف: (اذكر): جعل الخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولعلَّ الذي أوجب له ذلك التصريحُ بذكر بني إسرائيل بالاسم الظاهر، والأظهرُ أنه خطابٌ لبني إسرائيل في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١)، يُذكرهم تعالى الميثاق الذي أخذ

(١) واختاره: الطبري، وابن عطية، وابن كثير، وابن عاشور. ينظر: «تفسير الطبري» (١٨٧/٢)، و«المحرر الوجيز» (٢٦٨/١)، و«تفسير ابن كثير» (٣١٦/١)، و«التحرير والتنوير» (٥٨٢/١).

على آبائهم؛ كقوله تعالى في آيتين من هذه السورة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾. وتقدّم بيان وجه جعل الخطاب لبني إسرائيل الموجودين زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذكيراً لهم بنعم الله على آبائهم ليشكروها^(١). وقوله: (في التوراة...) إلى آخره: يُبيّن بهذا أن الميثاق الذي أخذه الله من بني إسرائيل بما تضمّنه من الشرائع المذكورة في هذه الآية هو مما أنزله الله في التوراة.

وقوله: (بالتاء والياء): يُبيّن أن في قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ قراءتين؛ ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ و﴿لَا يَعْبُدُونَ﴾^(٢)، ومعناها: واحد، وهو طلب بصيغة الخبر. وقوله: (أحسنوا): هذا تقدير الفعل المحذوف المعطوف على النهي؛ المفهوم من قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾: مُتَعَلِّقٌ بـ «وأحسنوا». وقوله: (عطف على الوالدين): فيكون المعنى: وأحسنوا بذوي القربى إحساناً واليتامى والمساكين. وقوله: (قولاً): يُبيّن أن ﴿حَسَنًا﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوف تقديره: قولاً حسناً.

وقوله: (من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...) إلى آخره: بيانٌ للقول الحسن وأنه عامٌ لكل قولٍ سديد يرضاه الله تعالى. وقوله: (وفي قراءة...) إلى آخره: يُبيّن أن في الكلمة قراءتين: ﴿حَسَنًا﴾ بفتح الحاء والسين، وبضمّ الحاء وسكون السين^(٣)، وهو على هذه القراءة

(١) ينظر (ص ١٠٦)، و(ص ١٢٨).

(٢) قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي: ﴿لَا يَعْبُدُونَ﴾ بالياء، وقرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وابن عامر: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ بالتاء. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٢)، و«النشر» (٢/٢١٨).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم وابن عامر: ﴿حَسَنًا﴾ بالضم والتخفيف، وقرأ حزمة والكسائي: ﴿حَسَنًا﴾ بالفتح والتثقيب. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٢)، و«النشر» (٢/٢١٨).

مصدرٌ وصف به مبالغة، فإنَّ الوصفَ بالمصدر يدلُّ على كمال الصفة في الموصوف؛ كقولك: زيدٌ عدلٌ؛ أي: عادلٌ. وهذا قولٌ حسنٌ؛ أي: حسنًا. وقوله: (فقبلتم ذلك): يريد أن كلَّ ما تقدّم من أمرٍ أو نهْيٍ داخلٌ في الميثاق، وأنَّ بني إسرائيل قبلوا ذلك؛ كما يدلُّ له قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾. وقوله: (أعرضتم عن الوفاء به): يُبيِّن أن معنى ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: أعرضتم، فعلم أنهم لم يَفُوا بالميثاق.

وقوله: (فيه التفاتٌ عن الغيبة، والمراد: آبائهم): يريد أن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ التفاتٌ؛ أي: انتقالٌ عن الخبر عن بني إسرائيل بأخذ الميثاق منهم إلى خطاب بني إسرائيل الموجودين في عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم اليهود، والمراد: توبيخ الموجودين، والخبر عن أسلافهم، كما قيل في نظائر ذلك في الآيات السابقة؛ كقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٢]، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]، ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمْ الغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧].

وقوله: (عنه كأبائكم): يريد وأنتم يا معشر يهود، مُعْرِضُونَ عن موجب الميثاق كما أعرض آبائكم من قبل، وعلى هذا فالجملة مُسْتَأْنَفَةٌ، فكأنه قيل: وأنتم مُعْرِضُونَ كما أعرض آبائكم، فتضمّنت الآية الخبرَ عن إعراض الآباء في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾، وعن إعراض الأبناء في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(١).



(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٢٠٠)، و«معاني القرآن» الزجاج (١/١٦٤)، و«التحرير والتنوير» (١/٥٨٤).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۗ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٤-٨٦]:

الخطابُ لبني إسرائيل الموجودين زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم اليهود حول المدينة كما تقدّم في نظائر هذه الآية، والتقدير: واذكروا حين أخذنا ميثاقكم؛ أي: عهدكم المؤكد، وهو العهد الذي أخذ على آبائهم، وموجبه لازم لهم.

وقوله: ﴿لَاسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ﴾: بيان لما تضمّنه الميثاق من التكليف، وهو أمران:

الأول: ألا يسفكوا دماءهم؛ أي: لا يقتل بعضهم بعضاً.

والثاني: ألا يخرجوهم من ديارهم؛ أي: بإجلائهم عنها.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: أي قبلتم ما تضمّنه الميثاق ووافقتم عليه وأنتم تشهدون بذلك على أنفسكم، ثم أنتم يا هؤلاء المخاطبون بهذا القرآن بعد ذلك تنقضون الميثاق؛ فيقتل بعضكم بعضاً ويُخرج بعضكم بعضاً من ديارهم.

وقوله: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾: يعني: تتعاونون على إخراجهم بالإثم والعدوان؛ أي: بغير حق.

وقوله: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْدُوهُمْ﴾: يعني: من وقع في الأسر منهم لدى العدو تُفادوهم؛ أي: تفتكّوهم ببذل فدائهم، وهذا مما يجب عليكم

وهو من الإيمان بالكتاب، وقتالهم هو من الكفر بالكتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾: تأكيد لما تضمنته الميثاق من النهي عن إخراج بعضهم من أهل ملتهم من ديارهم.

وقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾: إنكاراً على اليهود وتوبيخاً لهم على نقضهم الميثاق وتناقضهم في الإيمان بالكتاب، إذ يقتل بعضهم بعضاً، ويخرجونهم من ديارهم، وإذا أسر أحدٌ منهم عند عدوهم فادوهم، فمفاداة أسراهم هو من الواجب عليهم، وهو من إيمانهم بالكتاب، وقتل بعضهم بعضاً هو من كفرهم بالكتاب، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

ويوضح المفسرون مضمون الآيتين بذكر ما تُشير إليه من حال اليهود بعضهم مع بعض قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، فيذكرون أن اليهود الذين كانوا حول المدينة ثلاث قبائل: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، وكان جيرانهم الأوس والخزرج، وهم مشركون عباد أوثان، تكون بينهم حروب في الجاهلية، وكان بين اليهود والأوس والخزرج حلف، فيقاتل اليهود بعضهم بعضاً كل مع حلفائه، فيقتلونهم ويخرجونهم من ديارهم^(١)، وهذا ما نهاهم الله عنه في الميثاق بقوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾، ثم إذا أسر أحدٌ من اليهود عند الأوس أو الخزرج فإن اليهود يفادونهم وهو واجب عليهم في التوراة، وقتل بعضهم بعضاً وإخراجهم من ديارهم حرامٌ عليهم في التوراة، ولهذا قال الله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٢٠٧-٢٠٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/١٦٤، رقم ٨٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (١/٣١٩).

ثم توعد الله اليهودَ على ذلك بالخزي في الدنيا وبأشدَّ العذاب في الآخرة فقال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمٌ أَلْقِيمَةٌ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾، ثم أخبر تعالى أنَّ علمه محيطٌ بأعمالهم فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥)، ثم بين سبحانه أنَّ الذي حملهم على ما فعلوا من الكفر بالكتاب ونقض الميثاق هو إيثارُ الدنيا على الآخرة فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾.

الإشارة إلى الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، يُخبر تعالى عنهم بأنهم آثروا الدنيا على الآخرة فاستبدلوا الدنيا بالآخرة، وجعلوا حظوظ الدنيا عوضاً عن حظِّ الآخرة؛ لذلك يصيرون في الآخرة إلى أشدَّ العذاب ولا يُخففُ عنهم العذاب، ولا هم يُنصرون فينقذون من العذاب.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وقلنا ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ تُريقونها بقتل بعضكم بعضاً ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ لا يُخرج بعضكم بعضاً من داره ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ قبلتم ذلك الميثاق ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على أنفسكم. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ يا ﴿هُؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ﴾ فيه إدغامُ التاء في الأصل في الظاء. وفي قراءةٍ بالتخفيف على حذفها: تتعاونون ﴿عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ﴾ بالمعصية ﴿وَالْعُدْوَانَ﴾ الظلم ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى﴾ وفي قراءةٍ ﴿أَسْرَى تَفْدُوهُمْ﴾ وفي قراءةٍ ﴿تَفَادُوهُمْ﴾ تُنقذوهم من الأسر بالمال أو غيره، وهو مما عهد إليهم ﴿وَهُوَ﴾ أي الشأن ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ متصلٌ بقوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾، والجملةُ بينهما اعتراضٌ؛ أي كما حرم ترك الفداء، وكانت قريظة حالفوا الأوس، والنضير الخزرج، وكان كلُّ فريقٍ يُقاتلُ مع حلفائه ويخرب ديارهم ويخرجهم، فإذا أسروا فدوهم، وكانوا إذا سئلوا لم

تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: أمرنا بالفداء، فيقال فلم تقاتلونهم؟ فيقولون: حياء أن يستدل حلفاؤنا. قال تعالى: ﴿أَفْتَوْمُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ وهو الفداء ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ﴾ وهو ترك القتل والإخراج والمظاهرة ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ هوانٌ وذلٌّ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقد خُزوا بقتل قريظة ونفي النضير إلى الشام وضرب الجزية ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء والتاء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ بأن آثروها عليها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يُمنعون منه.

وقول المؤلف: (فيه إدغامُ التاء...) إلى آخره: يُبين أن قوله: ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ أصلها تتظاهرون، وفيها قراءتان بحذف التاء الثانية وتخفيف الظاء ﴿تَظَاهَرُونَ﴾، والقراءة الأخرى بتسكين التاء الثانية وإدغامها في الظاء مع التشديد ﴿تَظَاهَرُونَ﴾^(١)، وهي القراءة الأولى التي ذكرها المؤلف. والتظاهر: التعاون^(٢)، وفَسَّر المؤلف الإثم بالمعصية والعدوان بالظلم، فعَطَفُ العدوان على الإثم من عطف الخاص على العام.

وقوله: (وفي قراءة أسرى...) إلى آخره: يُشير إلى القراءات في الآية، ففي ﴿أسرى﴾ قراءتان: ﴿أَسْرَى﴾ و﴿أَسَارَى﴾، وفي كلٍّ من القراءتين قِرَاءٌ ﴿تَفَادُوهُمْ﴾ و﴿تَفَدُوهُمْ﴾^(٣).

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ خفيفة الظاء، وقرأ الباقون: ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ مشددة الظاء. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٣)، و«الحجة للقراء السبعة» (٢/ ١٣٠-١٣١).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٥٧)، و«المفردات» للراغب (ص ٥٤٠).

(٣) قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم والكسائي ويعقوب: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أَسَارَىٰ تَفَادُوهُمْ﴾ بالألف جميعاً، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿أَسَارَىٰ﴾ بالألف ﴿تَفَدُوهُمْ﴾ بغير ألف، وقرأ =

وقوله: (وهو مما عهد إليهم): يعني مفاداة الأسرى ممّا فرض عليهم.
 وقوله: (الشأن): يريد أنّ الضمير المنفصل هو ضمير الشأن، وتفسّره
 الجملة بعده.

وقوله: (متصل بقوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾): يريد أنّ قوله: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ
 عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ متعلّق بقوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا﴾، فالمعنى: وتخرجون
 فريقًا منكم من ديارهم، والحال أنّ ذلك الإخراج حرامٌ عليكم.

وقوله: (والجملة بينهما اعتراض...) إلى آخره: الجملة المعترضة هي
 قوله: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَفْدُوهُمْ﴾.

وقوله: (وهو الفداء)، وقوله: (وهو ترك القتل والإخراج والمظاهرة):
 يُبين أنّهم مأمورون في التوراة بذلك كلّه، فامتثلوا في المفاداة، وهذا هو
 إيمانهم ببعض الكتاب، ولم يمتثلوا في ترك القتال والإخراج والمظاهرة؛ بل
 قتلوا وأخرجوا، وهذا هو البعض الذي كفروا به من الكتاب.

وقوله: (وقد خُزوا...) إلى آخره: يريد أنّ الخزي الذي توعدّ به في الدنيا
 قد تحقّق بقتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وضرب الجزية.

وقوله: (بالياء والتاء): يريد أنّ في ﴿يعملون﴾ قراءتين ﴿تَعْمَلُونَ﴾
 و﴿يَعْمَلُونَ﴾^(١).



= حمزة وحده: ﴿أَسْرَى تَفْدُوهُمْ﴾ بغير ألف فيهما. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٤)،
 و«النشر في القراءات العشر» (٢/٢١٨).

(١) قرأ نافع وابن كثير ويعقوب وخلف وأبو بكر ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالغيب، وقرأ الباقون بالخطاب.
 ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٠-١٦١)، و«النشر» (٢/٢١٨).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۗ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧]:

يُخبر تعالى في هذه الآية أنه أتى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الكتاب؛ وهو التوراة، وإن كان قد تقدّم الخبر بذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾، ثم أخبر بذلك في هذه الآية تمهيداً لما سيذكره بعد من إرسال الرُّسل وإيتاء عيسى البيّنات وتأبيده بروح القدس، وإنكاره تعالى على بني إسرائيل استكبارهم عن اتباع الرُّسل الذين أرسلوا إليهم منهم فكذبوهم وقتلوا بعضهم.

وقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾: يعني: وأرسلنا من بعده رسلاً وهم أنبياء بني إسرائيل المتعبدون بشريعة التوراة، وسماهم رسلاً لأنهم مأمورون بالدعوة إلى الله والحكم بين الناس بالتوراة، وخصّ منهم عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، والبيّنات: هي الآيات التي أجراها الله على يده عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ جعله يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله، وروح القدس قيل: جبريل، وقيل: الوحي الذي به حياة القلوب والأرواح^(١)، والقدس: هو الطهر^(٢)، وإضافة الرُّوح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾: الخطاب لليهود الذين كانوا زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاستفهام توبيخ لليهود المخاطبين على استكبار آبائهم على من أرسل إليهم، ففرقاً من الرسل كذبوه وفرقاً قتلوه، وإنما استحق اليهود الذم والتوبيخ لأنهم مشوا على طريق أسلافهم في تكذيب الرسل وعداوتهم.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٢٢١-٢٢٣)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٢٧٨).

(٢) قاله ابن عباس. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٢٢٣).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَفَقِينًا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾
 أي: أتبعناهم رسولاً في أثر رسول ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾
 المعجزات؛ كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قوينا
 ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة؛ أي: الروح المقدسة:
 جبريل، لطهارته يسير معه حيث سار. فلم تستقيموا ﴿أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ
 بِمَا لَا تَهْوَى﴾ تُحِبُّ ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ من الحقِّ ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبرتم عن اتباعه
 جواب «كَلَّمَا» وهو محل الاستفهام، والمراد به التوبيخ ﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم
 ﴿كَذَبْتُمْ﴾ كعيسى ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ المضارع لحكاية الحال الماضية.
 أي: قتلتم؛ كزكريا ويحيى.

وقول المؤلف: (يسير معه حيث سار): بيان لنوع من التأييد وهو أن
 جبريل يسير مع المسيح حيث سار.
 وقوله: (جواب «كَلَّمَا»): يُبَيِّنُ بذلك أن «كَلَّمَا» أداة شرط، ففعل الشرط
 ﴿جَاءَكُمْ﴾، وجواب الشرط ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فكذبتم أو قتلتم.
 وقوله: (وهو محل الاستفهام): يريد أن جواب الشرط هو مُتَعَلِّقٌ
 بالاستفهام.

وقوله: (والمراد به التوبيخ): يعني: المراد بالاستفهام التوبيخ.
 وقوله: (المضارع لحكاية الحال الماضية): يُبَيِّنُ أن المضارع ليس خبراً
 عن حال حاضرة بل خبراً عن حال ماضية؛ لأنَّ القتل كان في الماضي؛ فالمعنى:
 فريقاً كذبتم ولم تقتلوهم، وفريقاً كذبتموهم وقتلتموهم، وفي الآية دلالة على
 أنَّ عِنَادَ بني إسرائيل وتعتتُّهم لم يقتصر على رسولهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بل كانت
 حالهم مع الرسل من بعد موسى كحالهم مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى أن جاء نبينا

محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين، فكان اليهودُ من أشد الناس عداوةً له وتكذيباً وحسداً، وبهذا يتبينُ أنَّ هذه الآية نظير الآيات التي حُوطب بها بنو إسرائيل الموجودون زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي أولها: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.



وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ^{٨٨} بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ^{٨٩} وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ^{٩٠} بِسْمَا آسْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكُفِّرُوا بِمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ^{٩١}﴾ [البقرة: ٨٨-٩٠]:

يُخبر تعالى في هذه الآية عن اليهود الذين كانوا هم المخاطبين في الآيات السابقة، أخبر عنهم بلفظ الغيبة، ففيه التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة أنهم قالوا معتردين عن عدم قبول دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على وجه الاستهزاء أن قلوبهم غُلْفٌ؛ أي: عليها غشاءٌ يمنعها من الفهم، و﴿غُلْفٌ﴾: جمعُ غُلْفٍ، وهو الذي في غلاف^(١)، وهذا نظيرٌ ما أخبر الله به عن المشركين في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥].

ثم أكذبهم الله في زعمهم عدم الفهم لما جاء به الرسول، فبين سبحانه أن عدم إيمانهم بسبب أن لعنهم الله بسبب كُفْرِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وطبع على قلوبهم كما قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ^{٨٨} بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا^{٨٩}﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال هنا: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ^{٨٨}﴾، واللعن من الله: هو الإبعاد من الرحمة.

ثم أخبر تعالى عن حال اليهود مع القرآن فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ﴾: أي القرآن الذي أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن نعتة أنه مصدقٌ لما معهم من كتب الله، وهي التوراة والإنجيل؛ أي: شاهدٌ لها بالصدق؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ^{١٠١} مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣-٤]، ودالٌّ على ما دلّت عليه من أصول الإيمان.

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٥٧)، و«المفردات» للراغب (ص ٦١٢).

وقوله: ﴿لَمَّا مَعَهُمْ﴾: أي التوراة والإنجيل.
 وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: جملة معترضة يُحتمل أن تكون حالاً، ويُحتمل أن تكون مُستأنفة لبيان أنهم على معرفة بالرسول والكتاب^(١).

ومعنى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يستنصرون الله على من يقاتلهم من العرب المشركين ببعث محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا يتوعدون الأوس والخزرج، وكانوا في الجاهلية كفاراً مشركين لا يؤمنون بكتاب ولا رسول، وكان اليهود إذا قاتلوهم يتوعدونهم بأنه يخرج رسولاً في آخر الزمان، فإذا خرج آمنوا به وقاتلوا معه، فينتصرون عليهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾؛ وهو الكتاب أو الرسول، ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ فَلَعَنَ اللَّهُ عَلَى الْكٰفِرِينَ^(٨١)؛ أي: حقت لعنة الله عليهم؛ فوضع الظاهر موضع المضمرة بإثبات وصف الكفر لهم. وجملة ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾: بدل من جملة ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ﴾؛ لترتيب جواب الشرط، فيكون المعنى: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم كفروا به».

وقوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾: تقييح لما اعتاضوا به عن أنفسهم، والاشترء في هذا الموضع: البيع في قول أكثر المفسرين^(٢)، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: باعوا؛ فالشراء في هذه الآية بمعنى البيع بالاتفاق؛ فالمعنى: بئس الشيء باعوا به أنفسهم وأخذوه عوضاً عنها؛ وهو كفرهم بما أنزل الله في التوراة على موسى، وهو: البشارة بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأمر بالإيمان به واتباعه، وكذا كفرهم بما أنزل

(١) ينظر: «الدر المصون» (٥/٥٠٥)، و«التحرير والتنوير» (١/٦٠٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للرفاء (١/٥٦)، و«تفسير الطبري» (٢/٢٤٦-٢٤٨)، و«المحرر الوجيز» (١/٢٨٢).

الله على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكتاب. وفاعل «بئس»: الاسم الموصول في قوله: ﴿بِئْسَمَا﴾، والمخصوص بالذم المصدر المؤول في قوله: ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، وهو في محل رفع. و﴿بَغِيًّا﴾: مفعول لأجله، والبغي: الحسد والظلم والعدوان؛ فالمعنى: كفروا بما أنزل الله حسداً للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُعْثَ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ لَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

﴿وَقَالُوا﴾ للنبي استهزاء: ﴿قُلُوبَنَا غُلْفٌ﴾ جمع «أغلف» أي مُغشاة بأغطية فلا تعي ما تقول. قال تعالى: ﴿بَلْ﴾ للإضراب ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم عن رحمته وخذلهم عن القبول ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ وليس عدم قبولهم لخلل في قلوبهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ «ما» زائدة لتأكيد القلة، أي: إيمانهم قليل جداً ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة وهو القرآن ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قبل مجيئه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقولون: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ من الحق وهو بعثة النبي ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ حسداً وخوفاً على الرياسة. وجواب «لَمَّا» الأولى دَلَّ عليه جوابُ الثانية ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا ﴿بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: حظها من الثواب، و«ما» نكرة بمعنى «شيئاً» تمييزٌ لفاعل «بئس»، والمخصوص بالذم: ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾ أي: كفرهم ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن ﴿بَغِيًّا﴾ مفعول له، لـ ﴿يَكْفُرُوا﴾، أي: حسداً على ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾ بالتخفيف والتشديد ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ الوحي ﴿عَلَى مَنْ يُشَاءُ﴾ للرسالة ﴿مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا﴾ رجعوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ من الله بكفرهم بما أنزل، والتنكيرُ للتعظيم ﴿عَلَى غَضَبٍ﴾ استحقوه من قبل بتضييع التوراة والكفر بعيسى ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ذو إهانة.

وقول المؤلف: (للإضراب): يريد أن «بل» تُفيد الإضراب؛ وهو الانتقال عن إثبات حكمٍ لشيءٍ بإثباته لغيره، فتبين بذلك أن السبب الحقيقي في عدم قبولهم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم هو اللعن من الله والطبع على قلوبهم. وقوله: (وخذلهم عن القبول): أي لم يوفقهم لقبول الحق، فالخذلان عدم التوفيق.

وقوله: (وليس عدم قبولهم لخللٍ في قلوبهم): يريد أن كفرهم أول مرة هو سبب عدم قبولهم، لا لمانع في قلوبهم كما زعموا بقولهم: ﴿قُلُوبَنَا غُلْفٌ﴾. وقوله: (ما زائدة لتأكيد القلة): يريد أن «ما» المتصلة بقليل مؤكدة لما يفيد قليل، ولهذا فسره بقوله: (قليلٌ جدًا). و«قليلاً»: صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ مقدّم؛ عاملة: يؤمنون؛ فالتقدير: فيؤمنون إيماناً قليلاً ما. وقوله: (وهو القرآن): بيان للمراد بالكتاب المصدق الذي جاء من عند الله.

وقوله: (قبل مجيئه): بيان للمُضاف إليه المحذوف في قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل مجيء الكتاب الذي هو القرآن. وقوله: (يستنصرون): هذا معنى ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾؛ لأنَّ الفتح هو النصر، والاستفتاح: طلبُ النصر، وكانوا يدعون الله أن ينصرهم على الكفار^(١). وقوله: (يقولون...) إلى آخره: بيان لما كانوا يدعون به في استفتاحهم، وهو يدلُّ على أنهم على علم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولذا كانوا يترقبون مبعثه. وقوله: (وجواب «لَمَّا» الأولى...) إلى آخره: لَمَّا الأولى في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ﴾، ولَمَّا الثانية في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾، وجوابها قوله: ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾، وجواب «لَمَّا» الأولى محذوفٌ دلَّ عليه جواب «لَمَّا» الثانية؛ فالتقدير: ولَمَّا جاءهم كتاب من عند الله مصدقٌ لَمَّا معهم كفروا به.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٢٣٦) وما بعدها، و«معاني القرآن» للزجاج (١/١٧١).

وقوله: (باعوا): هذا تفسيرٌ ﴿أَشْتَرُوا﴾، وهذا من مواضع مجيء «اشترى» بمعنى باع؛ فيكون ﴿أَشْتَرُوا﴾ في الآية مثل قوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: باعوا به أنفسهم، ولهذا كانت الباءُ داخلَةً على المأخوذ في الآيتين.

وقوله: (حظها من الثواب): تفسيرٌ لقوله: (باعوا أنفسهم)؛ فالمعنى: باعوا حظَّهم من الثواب في الآخرة بأعظم أسباب العذاب وهو الكفر بما أنزل الله.

وقوله: (و«ما» نكرة بمعنى شيئاً...) إلى آخره: هذا أحدُ الأقوال في «ما» التي بعد «بئس»، وقيل: «ما» اسم موصول بمعنى الذي، فتكون في موضع رفعٍ فاعلٍ لـ«بئس»، وهذا أظهر لفهم المعنى^(١).

وقوله: (من القرآن): بيانٌ لِمَا في قوله: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، وقيل: ما أنزل الله في التوراة في شأن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأوَّل هو ما يقتضيه السياق، ولو قيل إنَّ قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ عامٌّ لكان له وجهٌ^(٢).

وقوله: (مفعول له...) إلى آخره: يُبين بذلك إعراب ﴿بَغِيًّا﴾ ومعناها؛ فالمعنى: كفروا بما أنزل الله حسداً على إنزال الله من فضله على من يشاء من عباده، وهو ما أنزله من الكتاب والحكمة على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: (بالتخفيف والتشديد): يُبين أنَّ في قوله: ﴿أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ﴾ قِراءتين؛ بتشديد الزاي وتخفيفها^(٣).

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/٥٦-٥٨)، و«تفسير الطبري» (٢/٢٤٣-٢٤٦)،

و«الكشاف» (١/٢٩٧)، و«التبيان في إعراب القرآن» (١/٩١).

(٢) ومال إليه ابن عطية. ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٢٨٢-٢٨٣).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي، والباقون بفتح النون وتشديد الزاي.

ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٤-١٦٥)، «النشر في القراءات العشر» (٢/٢١٨-

وقوله: (الوحي): تفسيرٌ للفضل المنزَّل وهو الوحيُّ المتضمنٌ للإنباء والإرسال.

وقوله: (للمرسالة): يُبيِّن أنَّ ﴿يَشَاءُ﴾ مضمَّنٌ معنى يختار؛ فالمعنى: على مَنْ يختاره للمرسالة.

وقوله: (رجعوا): فيه أنَّ معنى: «باء» رجع، فهي مثل «آب» في المعنى، مع أنها عكسها في ترتيب الحروف^(١).

وقوله: (من الله بكفرهم...) إلى آخره: يريد أنَّ المعنى: رجعوا بغضبٍ عظيمٍ من الله بسبب كفرهم بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله: (استحقوه...) إلى آخره: يُبيِّن أنَّ معنى ﴿عَلَى غَضَبٍ﴾: أنَّ الله قد غضب عليهم بكفرهم بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم، على غضبٍ استحقَّوه قبل ذلك بسبب تحريف التوراة وكفرهم بعيسى عليه السلام، فكفروا مرَّتين، وغضب الله عليهم مرتين^(٢).

وقوله: (ذو إهانة): معناه أنَّ عذاب الكافرين فيه إهانةٌ وإذلالٌ لهم.



(١) تقدم في (ص ١٤٥).

(٢) قال شيخ الإسلام: «وأخبر أنهم باؤوا بغضب على غضب؛ فإنهم ما زالوا يفعلون ما يغضب الله عليهم، فإذا أن يراد بالثنوية تأكيد غضب الله عليهم، وإما أن يراد به مرتان، والغضب الأول: تكذيبهم المسيح والإنجيل، والغضب الثاني: لمحمد والقرآن». «الجواب الصحيح» (١/٣٩٨). وينظر: «تفسير الطبري» (٢/٢٥٠-٢٥٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/١٧٤)، و«زاد المسير» (١/٨٧-٨٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٩١]:

يُخْبِرُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ قَوْلِ الْيَهُودِ إِذَا دُعُوا إِلَى الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ رَدُّوا بِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ وَلَا يُؤْمِنُونَ بغيره، هَذَا وَالَّذِي دُعُوا إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ هُوَ الْحَقُّ وَهُوَ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ شَاهِدٌ لَهُ، ثُمَّ يُبَيِّنُ سَبْحَانَهُ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِيمَا ادَّعَوْا مِنَ الْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ، بِدَلِيلِ قَتْلِهِمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ وَلِذَا قَالَ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الْقُرْآنَ وَغَيْرِهِ ﴿قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ أَي: التَّورَةَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾ الْوَائِلِينَ لِلْحَالِ ﴿بِمَا وَرَاءَهُ﴾ سِوَاهُ أَوْ بَعْدَهُ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ حَالِ ﴿مُصَدِّقًا﴾ حَالِ ثَابِتَةٍ مُؤَكَّدَةٍ ﴿لِمَا مَعَهُمْ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ أَي: قَتَلْتُمْ ﴿أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بِالتَّورَةِ، وَقَدْ نَهَيْتُمْ فِيهَا عَنْ قَتْلِهِمْ. وَالخَطَابُ لِلْمُجْرِمِينَ فِي زَمَنِ نَبِيِّنَا بِمَا فَعَلَ آبَاؤُهُمْ لِرِضَاهُمْ بِهِ.

وَقَوْلُ الْمُؤَلِّفِ: (الْقُرْآنَ وَغَيْرِهِ): بَيَانٌ لِلْمُرَادِ بِالمُوصُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، وَالمُرَادُ: بِغَيْرِ الْقُرْآنِ: الْحِكْمَةُ؛ وَهِيَ السُّنَّةُ، وَعَلَى هَذَا فَالمُرَادُ ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: مَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ. وَقَوْلُهُ: (أَي: التَّورَةَ): بَيَانٌ لِمَا يَدْعِي الْيَهُودَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَهُوَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَهُوَ التَّورَةُ، وَهِيَ أَعْظَمُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ غَيْرِ الْقُرْآنِ.

وقوله: (الواو للحال): أي: وهم يكفرون بما وراءه، ويحتمل أن الواو للاستئناف، لبيان ما يتضمّنه قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ من نفي الإيمان بما سواه^(١).

وقوله: (سواه أو بعده من القرآن): يريد أن «وراء» بمعنى سوى أو عدى^(٢)؛ فالمعنى: يكفرون بما سوى ما أنزل عليهم. وقوله: (حال): يريد أن جملة ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ حال في موضع نصب، وهي حال من الموصول في قوله: ﴿بِمَا وَرَاءَهُ﴾.

وقوله: (لهم): يريد من وجه الخطاب إليهم، وهم: اليهود. وقوله: (أي قتلتم): يريد أن قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ ليس حكاية حال حاضرة بل حكاية حال ماضية؛ لأنّ القتل لم يكن من المخاطبين بل من أسلافهم^(٣). وقوله: (بالتوراة...): إلى آخره: يريد أن المعنى: إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾؟ وقد كان القتل من أسلافهم والخطاب والعتاب لليهود الموجودين الذين إذا قيل لهم: ﴿آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، واستحقوا اللوم على ما فعله آبائهم لرضاهم به.



(١) ينظر: «الكشاف» (١/٢٩٧)، و«البحر المحيط» (١/٤٩٢)، و«الدر المصون» (١/٥١٣).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/٦٠)، و«تفسير الطبري» (٢/٢٥٥)، و«المحرر الوجيز» (١/٢٨٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٢٥٧-٢٦٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/١٧٥)، و«المحرر الوجيز» (١/٢٨٤-٢٨٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢]:

يُخْبِرُ تَعَالَى خَبْرًا مُّوَكَّدًا بـ«قَدْ» وَالْقِسْمُ بِأَنَّ مُوسَىٰ جَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْبَيِّنَاتِ؛ وَهِيَ الْآيَاتُ الْوَاضِحَاتُ، وَهِيَ التَّسْعُ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَتَوَلَّىٰ بُنَىٰ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٠١]، ثُمَّ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مَجِيءِ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ وَبَعْدَ ذَهَابِهِ لِمِيقَاتِ رَبِّهِ أَضَلُّهُمْ السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارِ، فَقَالُوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]، فَاتَّخَذُوهُ إِلَهًا وَعَكَفُوا عَلَيْهِ وَعَصَوْا نَبِيَّ اللَّهِ هَارُونَ لَمَّا نَهَاهُمْ، وَقَالُوا: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [ط: ٩١]، فَكَانُوا بِذَلِكَ ظَالِمِينَ أَعْظَمَ الظُّلْمِ، وَهُوَ الشَّرْكُ، فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

وَنظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّسَاءِ فِي عَرْضِ قَبَائِحِ الْيَهُودِ: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

وَنظِيرُهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ فِي خُطَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١-٥٢].

ثُمَّ أُعِيدَ الْخَبْرُ عَن هَذَا الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَوْبِيخًا لِلْيَهُودِ الَّذِينَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: ﴿ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾؛ أَي: وَلَا نُؤْمِنُ بِغَيْرِهِ، وَالْخُطَابُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَالتِّي بَعْدَهَا لِلْيَهُودِ الْمَوْجُودِينَ زَمَنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَخَاطِبِينَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَبْنَئِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَوْدٌ عَلَى خُطَابِهِمْ بَعْدَ الْخَبْرِ عَنْهُمْ بِلَفْظِ الْغِيْبَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هُوَ

من مقول القول الذي أمر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقوله لهم في قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١)، وفيه توبيخ وتكذيب لهم في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات؛ كالعصا واليد وفلق البحر ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد ذهابه إلى الميقات ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ باتخاذها.

وقول المؤلف: (بالمعجزات...) إلى آخره: التعبير عن حُجج الرسل بالمعجزات هو من اصطلاح المتكلمين، واسمها في الكتاب والسنة: آيات، وبيئات، وبراهين^(١).
وقوله: (إلهاً): تقديرٌ للمفعول الثاني: ﴿اتَّخَذْتُمْ﴾، فإن «اتخذ» ينصب مفعولين.

وقوله: (أي: بعد ذهابه إلى الميقات): فيه بيان أن اتخاذ بني إسرائيل العجل في مدة ذهاب موسى لميقات ربه، ويشهد لذلك الآيات من سورة «طه»؛ كقوله تعالى لموسى: ﴿قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه: ٨٥-٨٦].

وقوله: (باتخاذها): يُبين أن سبب وصفهم بالظلم باتخاذهم العجل إلهاً، ومعلوم أن اتخاذهم العجل إلهاً هو أظلم الظلم؛ لأن ذلك من الشرك الأكبر.



(١) ينظر: «النبوات» (١/٢١٥-٢١٦)، و(٢/٧٨٢)، (٢/٧٨٥)، و«الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٥/٤١٢-٤١٩).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَايَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٣].

يُذَكِّرُ تعالى في هذه الآية بني إسرائيل الموجودين زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما جرى لإسلافهم من أخذ الميثاق ورفع الطور فوقهم؛ ليوافوا بعهد الله فيعملوا بما جاءهم به موسى بالألواح، ثم إنهم أصروا على العصيان، فلمَّا قيل لهم اسمعوا؛ قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فهذه ثلاثة أمورٍ تُكذِّبُهُمْ وتُبطل زعمهم الإيمان بما أنزل عليهم: فأول الأمور الثلاثة: قتلهم أنبياء الله.

الثاني: اتخاذهم العجل من بعد ما جاءهم موسى بالبينات.
الثالث: قولهم لَمَّا أُمروا بالأخذ بما في التوراة قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾. وهذه الأمور وإن كانت من فعل أسلافهم فاليهود الموجودون ماضون على طريقهم راضون بأفعالهم؛ فلذا توجه الخطابُ لهم بالتكذيب والتويخ.
وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ المعنى: واذكروا حين أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور، وقلنا لكم: ﴿خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا﴾، المعنى: اقبلوا ما جاءكم به موسى من التوراة في الألواح واعملوا به، واسمعوا سماعَ استجابة وطاعة.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، أي: سمعنا بآذاننا.
وقولهم: ﴿وَعَصَيْنَا﴾، قيل: أنهم قالوا ذلك بلسان المقال، وقيل قالوا ذلك: بلسان الحال^(١)، وكلُّ من الأمرين واقعٌ منهم، كما يدل لذلك قوله

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٢٨٥-٢٨٦)، و«البحر المحيط» (١/ ٤٩٤)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٦١٠).

تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَكُونُ مِنَّا لَوْ نَدَخَلُهَا أَبَدًا مَادَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾: أي حُب إليهم العجل الذي اتخذه إلهًا، وتخلل حبه في قلوبهم حتى كأن العجل حل في قلوبهم، وهذا الوصف يختص بالذين أصرُّوا على عبادة العجل ولم يتوبوا، فعوقبوا بأن أشرب حبه في قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِسْمِائِمْ أَمْرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٩٣]: هذا أمر من الله لنبِيِّه أن يقول لليهود الذين قالوا نؤمن بما أنزل علينا، واتبعوا أسلافهم الذين قتلوا أنبياء الله واتخذوا العجل إلهًا من دون الله، أن يقول لهم: ﴿بِسْمِائِمْ أَمْرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ﴾ قتل الأنبياء واتخاذ العجل، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٩٣] كما تزعمون.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ على العمل بما في التوراة ﴿و﴾ قد ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ الجبل حين امتنعتم من قبولها ليسقط عليكم وقلنا: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به سماع قبول ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: خالط حبه قلوبهم كما يُخالط الشراب ﴿بِكُفْرِهِمْ قُلْ﴾ لهم: ﴿بِسْمِائِمْ﴾ شيئًا ﴿يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ﴾ بالتوراة: عبادة العجل ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بها كما زعمتم. المعنى: لستم بمؤمنين لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل، والمراد آباؤهم؛ أي: فكذاكم أنتم لستم بمؤمنين بالتوراة وقد كذبتم محمدًا، والإيمان بها لا يأمر بتكذيبه.

وقول المؤلف: (على العمل بما في التوراة): يدلُّ له ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾.

وقوله: (قد): تقديره: قد بعد الواو، يُبَيِّنُ به أَنَّ الواوَ واوُ الحال.

وقوله: (الجبل...): إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ رَفَعَ الجبل فوقهم تهديدٌ لهم

ليعملوا بما في التوراة.

وقوله: (وقلنا...): إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ مقولٌ

قولٍ محذوفٍ تقديره: وقلنا لكم.

وقوله: (بجدٍّ واجتهادٍ): تفسيرٌ لقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾، المعنى: اعملوا بما في

التوراة بعزمٍ وصدقٍ رغبةٍ لا مع فتورٍ وكسلٍ.

وقوله: (شيئًا): يُبَيِّنُ بذلك أَنَّ «ما» المتصلة بـ«بئس»: نكرةٌ في محلِّ

نصبٍ على التمييز^(١).

وقوله: (عبادة العجل): هذا هو المخصوصُ بالذمِّ بـ«بئس»، والإيمانُ

الذي يأمرُ بذلك ليس بالإيمان الذي يرضاه الله.

وقوله: (بها كما زعمتم...): إلى آخره: يريد أن المعنى: إن كنتم مؤمنين

بالتوراة كما تزعمون بقولكم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾، فبئس ما يأمركم به

إيمانكم من عبادة العجل، ونسبةُ الأمرِ إلى الإيمان تهكُّمٌ بهم، ودلالةٌ على أن

الإيمان الحقُّ لا يأمرُ بعبادة غير الله، فالإيمان الذي زعموا باطلٌ^(٢).

والخطاب من قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ

بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، لليهود الموجودين، تذكيرًا لهم بقبائح أسلافهم،

وتحذيرًا لهم من السير على طريقهم.



(١) تقدم في (ص ١٩٤).

(٢) ينظر: «الكشاف» (١/٢٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣/٦٠٥)، و«البحر المحيط» (١/٤٩٦).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْحَزِرٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦].

يأمر الله نبيه أن يظهر كذب اليهود في زعمهم أن الدار الآخرة - وهي الجنة - لهم دون غيرهم، ويباهلهم بالدعاء بالموت على الكاذب منهم أو من المسلمين، وذلك في قوله: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾. وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الجمعة: ٦].

ثم أخبر تعالى أنهم لن يتمنوا الموت بسبب ما يعلمون من أنفسهم من قبيح ما قدمته أيديهم من الكفر والتكذيب والعصيان مما يستوجبون به عذاب الله؛ فقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾، وقال في الآية الأخرى مثل ذلك.

ودلَّ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أن دعواهم أن الدار الآخرة لهم ظلمٌ منهم.

وتفسير الآية بالمباهلة مروى عن ابن عباس بأسانيد صحيحة، قاله ابن كثير ورجحه^(١)، وضعَّف القول بأن مقصود الآية مُطالبتهم بتمني الموت لأنفسهم إن كانوا صادقين في زعمهم، ولا ريب أن القول الأول أظهر^(٢).

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/٣٣١-٣٣٢).

(٢) واختاره ابن القيم والسعدي. ينظر: «مدارج السالكين» (٢/٦٣٨-٦٣٩)، و«تفسير السعدي» (١/٧٨).

ثم أكد تعالى امتناع تمنّيهم للموت لشدة حرصهم على الحياة؛ فقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ﴾، وهم أحرص على الحياة من المشركين، ومن حرصهم على الحياة: أن أحدهم يودُّ لو يُعَمَّرَ ألفَ سنةٍ، ثم أخبر تعالى أن ذلك لا يُنجيهم من عذاب الله؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْحَزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^(٩٦)، المعنى: أن الله عليمٌ بأعمالهم وسيجزئهم عليها بعدلٍ وحكمةٍ.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي: الجنة ﴿عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ خاصة ﴿مِنَ دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تعلق بتمنيهم الشرطان على أن الأول قيد في الثاني؛ أي: إن صدقتم في زعمكم أنها لكم ومن كانت له يؤثرها والموصل إليها الموت فتمنوه. ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ من كُفِرهم بالنبي المستلزم لكذبهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ الكافرين فيجازيهم. ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ لام قسم ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَأَحْرَصَ﴾ من الذين أشركوا ﴿المنكرين للبعث عليها؛ لِعَلَّمَهُمْ بِأَنْ مَصِيرَهُمُ النَّارُ دُونَ الْمُشْرِكِينَ لِإِنْكَارِهِمْ لَهُ﴾ يودُّ ﴿يَتَمَنَّى﴾ أحدهم لو يُعَمَّرَ ألفَ سنةٍ ﴿لو﴾ مصدرية بمعنى «أن» وهي بصلتها في تأويل مصدر مفعول «يود» ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: أحدهم ﴿بِمُرْحَزِحِهِ﴾ مُبْعَدُهُ ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ النار ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾ فاعل «مزحزحه» أي تعميره ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء والتاء فيجازيهم.

وقول المؤلف: (تعلق بتمنيهم): يريد أن جواب الشرط ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ محذوفٌ دلَّ عليه ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾، وهو جواب الشرط الأول، ووجه ترتيب الجواب على الشرط أن الموت هو الطريقُ لدخول الجنة لمن كان من أهلها،

وَمَنْ قَطَعَ لِنَفْسِهِ بِالْجَنَّةِ حُقَّ لَهُ أَنْ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ، وَلَعَلَّمِ الْيَهُودَ بِكَذِبِهِمْ بِمَا زَعَمُوا لِأَنْفُسِهِمْ لَمْ يَتَمَنُوا الْمَوْتَ مَعَ شِدَّةِ حِرْصِهِمْ عَلَى الْحَيَاةِ.

وقوله: (الشرطان...) إلى آخره: يريد بالشرط الأول قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، ويريد بالشرط الثاني: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقوله: (الكافرين): فسّر الظلم بالكفر الذي هو أظلم الظلم؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقوله: (لام قسم): يريد اللام المتصل بها «تجدن»، والدليل على أنها لام القسم؛ تأكيد الفعل بالنون الثقيلة.

وقوله: (أحرص): يريد أن المعنى: وأحرص من الذين أشركوا، وهذا من عطف الخاص على العام^(١).

وقوله: (المنكرين للبعث...) إلى آخره: تفسير للمشركين عبّاد الأوثان^(٢)؛ لأنهم يُنكرون البعث بخلاف أهل الكتاب.

وقوله: (عليها): أي على حياة؛ فالمعنى: احرص من المشركين على حياة.

وقوله: (لعلمهم...) إلى آخره: تعليل لكون اليهود أحرص من المشركين على الحياة؛ لأنهم يعلمون أن مصيرهم النار، بخلاف المشركين فإنهم لا يؤمنون بالبعث فلا يؤمنون بجنة ولا نار. وقوله: (لو مصدرية...) إلى آخره:

يبيّن أن مفعول «يود» هو المصدر المؤول من «لو» وصلتها^(٣).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٢٧٦)، و«الكشاف» (١/٣٠٠)، و«البحر المحيط» (١/٥٠٢-٥٠٣).

(٢) وفي الذين أشركوا قولان: أحدهما: أنهم: المجوس، قاله ابن عباس وابن قتيبة والزجاج. والثاني: مشركو العرب الذين ينكرون البعث، قاله ابن عباس في رواية ومقاتل. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٢٧٦-٢٧٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/١٧٨)، و«زاد المسير» (١/٨٩).

(٣) ينظر: «الكشاف» (١/٣٠٠)، و«البحر المحيط» (١/٥٠٤)، و«الدر المصون» (٢/١٣-١٤).



وقوله: (أي: أحدهم): تفسيرٌ للضمير المنفصل «وما هو».
 وقوله: (بالياء والتاء): إشارةٌ إلى أنَّ في الآية قراءتين ﴿يعملون﴾ بالياء،
 ﴿وتعملون﴾ بالتاء^(١).



(١) قرأ يعقوب وحده بالتاء مثل قراءة الحسن وقتادة وسلام وغيرهم، وقرأ الباقر بالياء.
 ينظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٢/ ٨٧٧-٨٧٨)، و«النشر في القراءات العشر»
 (٢/ ٢١٩).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]:

أمر الله نبيه في هذه الآية أن يقول ردًّا على اليهود في قولهم: إن جبريل الذي يأتي محمدًا بالوحي هو عدو يهود، وذلك أنهم سألوا الرسول من يأتيه بالوحي؛ فقال: ((جبريل))، فقالوا ما قالوا^(١)، فأخبر تعالى أن جبريل هو الموكل بالوحي فهو المنزل للقرآن على قلب النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإذن الله، فهو المَلَك الذي اصطفاه الله للنزول بالقرآن على قلب خاتم النبيين كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيرٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٩٢] نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَيَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وَمَنْ هَذَا شَأْنُهُ لَا يُعَادِيهِ إِلَّا مُلْحَدٌ كَفُورٌ، وقد وصف الله تعالى هذا القرآن الذي نزل به جبريل بثلاث صفات، وموقعها في الكلام أحوال منصوبة، وذلك في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٩٧]، وما بين يديه: ما قبله من كتب الله كالطوراة والإنجيل، وخصَّ المؤمنين بما في القرآن من الهدى والبشرى؛ لأنهم المنتفعون بما في القرآن من ذلك، وجبريل هو الملك الذي ينزل بالوحي على الأنبياء، وهو الذي نزل بالقرآن على قلب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في هذه الآية وآية الشعراء، وهو الروح الأمين وروح القدس، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ...﴾ [الأنعام: ١٠٢] وهو ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [٥] المذكور في سورة النجم، وهو الرسول الكريم المذكور في سورة التكويد. وجبريل على وزن قطمير، وهي لغة أهل الحجاز

(١) قيل: نزلت في عبد الله بن سوريا، وقيل: في مناظرة عمر مع أحد اليهود، وقيل: في عبد الله بن سلام. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٢٨٣-٢٩٢)، و«أسباب النزول» (ص ٢٩-٣١)، و«العجاب» (١/٢٩٦-٣٠٠).

في هذا الاسم، وبها قرأ الجمهور^(١)، وفيه لغات وقراءات أخرى ذكرها المفسرون^(٢)؛ ومعنى جبريل: عبد الله^(٣).

والخلاصة في تفسير الآية: أنها نزلت للردّ على اليهود في قولهم: إنّ جبريلَ عدوهم، فهم أعداء له، هذا وجبريل ولي الله ومصفاه من الملائكة، وهو الذي نزل القرآن بأمر الله، ومَن يكن عدوًّا له فهو عدوٌّ لله، ومن يكن عدوًّا لله فالله عدوُّه كما في الآية التالية، فقد باء اليهودُ بقولهم في جبريل بعداوة الله، ويشهدُ لمعنى الآية من السنة قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث القدسي؛ قال الله تعالى: ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ))^(٤)، وفي لفظ: ((فقد بارزني بالمحاربة))^(٥). والآية وإن نزلت في اليهود فهي عامّةٌ كما يفيد العموم لفظ «من» الشرطية؛ فحكّمها لا يختصُّ باليهود.

وسأل ابنُ صوريا النبيَّ أو عمرَ عمّن يأتي بالوحي من الملائكة فقال: ((جبريل))، فقال: «هو عدونا يأتي بالعذاب، ولو كان ميكائيل لآمنا لأنه يأتي بالخصب والسلم»، فنزل:

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٦-١٦٧)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/٢١٩).
(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٢٩٤-٢٩٥)، و«المحرر الوجيز» (١/٢٩٢)، و«الدر المصون» (٢/١٨-٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٢٩٦-٢٩٨).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٠٩)، من حديث أنس، به. وتفرد به عمر بن سعيد أبو حفص الدمشقي، وهو متروك. ينظر: «الضعفاء» للعقيلي (رقم ١١٥٧)، و«الكامل في الضعفاء» (رقم ١٢٣١).

وأخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩)، من حديث عمر بن عمر بن الخطاب، وفي إسناده عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف، وعيسى بن عبد الرحمن - وهو ابن فروة الزرقي - متروك الحديث، كما في «الميزان» (رقم ٦٥٨٣).

وله طريق عند أبي نعيم في الحلية (٨/٣١٨) وهو ضعيف. وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٧٧٥)، وينظر طرق حديث الولي وألفاظه في «السلسلة الصحيحة» (١٦٤٠).

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ فليمت غيظًا ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ أي القرآن ﴿عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ﴾ بأمر ﴿اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قبله من الكتب ﴿وَهَدَى﴾ من الضلالة ﴿وَبَشَّرَى﴾ بالجنة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقول المؤلف: (وسأل ابن سوريا النبي... إلى آخره: يُشير بذلك إلى سبب نزول الآية^(١)). وقوله: (فليمت غيظًا): مُستنبط من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وهذا يتضمن أنه أشرف الملائكة، فمن يُعاديه لم يضر إلا نفسه.

وقوله: (أي: القرآن): تفسير للضمير المنصوب بالفعل نزله.
 وقوله: (بأمر): تفسير للإذن في قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وهو يحتمل الإذن الكوني أو الشرعي أو هو شامل لهما.
 وقوله: (بالجنة): لأنها الأجر الكبير الذي يُبشر به القرآن المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].



وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٩٨﴾ [البقرة: ٩٨]:

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَنْ عَادَاهُ أَوْ عَادَى أَوْلِيَاءَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الرُّسُلِ أَوْ جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ؛ فَهُوَ كَافِرٌ، وَاللَّهُ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ. وَمَنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ شَرْطِيَّةٌ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٩٨﴾، وَفَعَلَ الشَّرْطُ: كَانَ وَمَا بَعْدَهَا.

وَالْوَاوُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾ بِمَعْنَى «أَوْ»؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ عَادَى وَاحِدًا مِنَ الْمَذْكُورِينَ فَهُوَ كَافِرٌ، وَاللَّهُ عَدُوٌّ لَهُ (١).

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٩٨﴾: قَالَ الْمَفْسُرُونَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ: وَضَعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الْمَضْمَرِ فِي مَوْضِعَيْنِ:

الأول: قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾: وَضَعَ مَوْضِعَ «فَإِنَّهُ»، وَذَلِكَ لِمَنْعِ اللَّبْسِ عَلَى السَّامِعِ؛ قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٢).

والثاني: قَوْلُهُ: ﴿عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٩٨﴾: مَوْضِعَ «عَدُوٌّ لَهُمْ»، وَذَلِكَ لِإِفَادَةِ عَمُومِ الْحُكْمِ، وَهُوَ عِدَاوَةُ اللَّهِ لِكُلِّ كَافِرٍ، وَإِثْبَاتِ وَصْفِ الْكُفْرِ لِمَنْ يَكُونُ عَدُوًّا لِلَّهِ، أَوْ لِأَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَائِهِ (٣).

وَعَطَفُ جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِ؛ لِأَنَّهُمَا دَاخِلَانِ فِي اسْمِ الْمَلَائِكَةِ (٤). وَفِي مِيكَالَ لُغَاتٌ وَقِرَاءَاتٌ ذَكَرَهَا

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٥١٥/١)، و«الدر المصون» (٢٢/٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٠٣-٣٠٤/٢).

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» (١٧٦/٣)، و«الكشاف» (٣٠٣/١)، و«التحرير والتنوير» (٦٢٤/١).

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (٥١٦/١)، و«الدر المصون» (٢٣/٢)، و«اللباب» (٣١٥/٢)، و«تفسير الفاتحة والبقرة» لابن عثيمين (٣١٥/١).

المفسرون وأهل القراءات، وميكال بلا همز ولا ياء؛ لغة أهل الحجاز، وبها قرأ حفص^(١) عن عاصم^(٢) (٣).

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾ بكسر الجيم وفتحها بلا همز وبه ياء ودونها ﴿وَمِيكَالَ﴾ عطف على الملائكة، مِنْ عَطْفِ الخاصِّ على العام. وفي قراءة: ﴿مِيكَائِيلَ﴾ بهمزة وياء، وفي أخرى بلا ياء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أوقعه موقع «لَهُمْ» بياناً لحالهم.

وقول المؤلف: (بكسر الجيم وفتحها...) إلى آخره: ذكر فيها أربع لغات، وذكر في: (مِيكَال) ثلاث لغات وثلاث قراءات.
وقوله: (أوقعه موقع «لَهُمْ»): يريد وضع الظاهر موضع المضمرة.
وقوله: (بياناً لحالهم): وهي الكفر.



(١) حفص بن سليمان أبو عمر الدوري مولاهم الغاضري الكوفي، المقرئ الإمام، صاحب عاصم وكان ربيه ابن زوجته، كان ثقة ضابطاً في القراءة، وكان الأولون يعدونه في الحفظ فوق أبي بكر بن عياش، ويصفونه بضبط الحروف التي قرأ بها على عاصم، أقرأ الناس دهرًا، وكانت القراءة التي أخذها عن عاصم ترتفع إلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، توفي سنة (١٨٠ هـ). ينظر: «معرفة القراء الكبار» للذهبي (١/ ١٤٠، رقم ٥٢)، و«غاية النهاية» لابن الجزري (١/ ٢٥٤، رقم ١١٥٨).

(٢) عاصم بن أبي النجود الأسدي مولاهم الكوفي القارئ الإمام، أبو بكر، أحد السبعة، واسم أمه بهدلة على الصحيح، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد أبي عبد الرحمن السلمي، جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد، وكان أحسن الناس صوتًا بالقرآن، توفي آخر سنة (١٢٧ هـ)، وقيل غير ذلك. ينظر: «معرفة القراء الكبار» (١/ ٨٨، رقم ٣٥)، و«غاية النهاية» (١/ ٣٤٦، رقم ١٤٩٦).

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٦-١٦٧)، و«تفسير الطبري» (٢/ ٢٩٤-٢٩٥)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٢٩٤-٢٩٥)، و«البحر المحيط» (١/ ٥١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۗ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ٩٩-١٠٣]:

يُخْبِرُ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى نَبِيِّهِ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مِنَ آيَاتِ الْبَيِّنَاتِ؛ وَهِيَ الْقُرْآنُ، وَأَنَّهُ مَعَ ظَهْوَرِ دَلَالَتِهَا وَقُوَّةِ حُجَّتِهَا لَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ الْخَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، وَفِي هَذَا تَعْرِيفٌ بِالْيَهُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْكِتَابِ، فَكَفَرُوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ، وَمِنْ فَسَقَتِهِمْ أَنَّهُمْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ فَلَمْ يُوفُوا بِهِ، هَذَا وَأَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ.

وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأَنْفَالُ: ٥٦]، وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أَي: شَاهِدٌ بِصَدَقِ مَا مَعَهُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، مُقَرَّبٌ بِهِ.

(١) ينظر: «درج الدرر» (٢٤٢/١)، و«البحر المحيط» (٥١٨/١)، و«التحرير والتنوير» (٦٢٥/١).

﴿بَدَفَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: أي طرح فريقٌ من الذين أُوتوا الكتاب - وهم اليهود - كتابَ الله وراء ظهورهم، وهو التوراة الناطقة بالخبر عن بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبصفته فلم يعملوا بما توجهه من الإيمان بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل أعرضوا عنها إعراضاً تاماً؛ كإعراض من يجعل الشيء خلف ظهره لا يبالي به ولا يلتفت إليه، ولم يقف كفرهم وضلالهم عند حدّ الإعراض عن هدى الله الذي بعث به رسوله، بل تعوضوا عن ذلك باتباع ما تتلوا الشياطين من السحر زاعمين أنه الذي قام عليه مُلك سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد كَذَّبوا، فلم يكن نبيُّ الله سليمان ساحراً، ولكن الشياطين هم الذين يُعلِّمون الناس السحر، فعلم بذلك أن اليهود تعوّضوا عن اتباع كتب الله ورسوله باتباع الشياطين وتعلّم السحر منهم، وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۗ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾: الأظهر أن «ما» اسم موصول معطوف على السحر؛ أي: يعلمون السحر ويُعلِّمونهم ما أنزل على الملكين الذين بابل^(١)؛ وهو موضعٌ معروفٌ بالعراق^(٢)، وسموا الملكين هاروت وماروت، والذي أنزل عليهما نوعٌ من السحر، ولذا تتعلّمه الشياطين وتُعلِّمه الناس، وإنزاله على الملكين إنزالٌ كونيٌّ بإلهامٍ أو غيره ليكون فتنةً؛ أي: ابتلاءً للناس.

وأذن الله لهما بتعليمه لمن يطلب ذلك منهم، مع تحذيره وبيان أن تعلّمه كفرٌ وأن الله جعلهما فتنةً فلا يغترّ بتعليمهما من يطلب علم السحر

(١) ينظر: «الكتاب الفريد» (٣٤٦/١)، و«الدر المصون» (٣١/٢)، و«التحرير والتنوير» (٦٣٩/١).

(٢) ينظر: «معجم البلدان» (٣٠٩-٣١١).

منهما، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، و«ما» في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ﴾ نافية.

ثم بين تعالى أن ما يتعلمه الناس من هاروت وماروت يتوصلون به إلى التفريق بين المرء وزوجه، بتبغيض كل منهما إلى الآخر، ثم بين تعالى أن الذين تعلموا علم السحر لن يضرُوا به أحداً إلا بإذن الله؛ الإذن الكوني، وهو مشيئته، فقال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. ثم أخبر أن الذين يتعلمون السحر يتعلمون ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾؛ لأنه يُفضي بهم إلى الكفر بالله والظلم لعباد الله.

ثم أخبر تعالى خبراً مؤكداً بأن الذين يتعلمون السحر ويستبدلونه بالعلم الذي جاءت به الرسل أخبر تعالى أنهم يعلمون أن من فعل ذلك ﴿مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾؛ يعني: من نصيب^(١).

ثم ذمهم سبحانه وتعالى على إثارة ما يضرُّ على ما ينفع؛ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، و﴿شَرُّوا﴾ بمعنى: باعوا؛ فالمعنى: باعوا أنفسهم بما فيه هلاكهم وشقاؤهم، والمعنيون بذلك هم اليهود الذين أخبر الله عنهم في أول الآية بأنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتبعوا ما تتلوا الشياطين من السحر، ثم أخبر تعالى بأنهم لو آمنوا بالله وكتبه ورسوله واتقوا ربهم بفعل الواجبات وترك المحرمات؛ لكان لهم من ثواب الله ما هو خيرٌ لهم مما اختاروه وآثروه وتعلموه؛ فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١٣) المعنى: لو كانوا يعلمون العلم النافع كما آثروا ما يضرُّ على ما ينفع، ولكنهم لا يعلمون.

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٢٩٧).

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات. ردُّ لقول بن صوريا للنبي ما جئتنا بشيء. ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ كفروا بها ﴿أَوْ كُلَّمَا عَاهَدُوا﴾ الله ﴿عَهْدًا﴾ على الإيمان بالنبي إن خرج أو النبي ألا يعاونوا عليه المشركين ﴿نَبَذَهُ﴾ طرحه ﴿فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ بنقضه؟ جواب «كلما» وهو محل الاستفهام الإنكاري ﴿بَلْ﴾ للانتقال ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: التوراة ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: لم يعملوا بما فيها من الإيمان بالرسول وغيره ﴿كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما فيها من أنه نبيُّ حق أو أنها كتاب الله ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ عطف على «نبت» ﴿مَا تَتْلُو﴾ أي: تلت ﴿الشَّيَاطِينُ عَلَى﴾ عهد ﴿مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ من السَّحَرِ، وكانت دفتته تحت كرسيه لما نُزِعَ ملكه، أو كانت تسترقُّ السَّمْعَ وتضمُّ إليه أكاذيب وتُلقِيه إلى الكهنة فيدونونه، وفشا ذلك وشاع أنَّ الجنَّ تعلمُ الغيب، فجمع سليمانُ الكتب ودفنها، فلما مات دلت الشياطينُ عليها الناس فاستخرجوها فوجدوا فيها السحر، فقالوا: إنما ملككم بهذا فتعلموه ورفضوا كتب أنبيائهم. قال تعالى تبرئةً لسليمان ورداً على اليهود في قولهم: انظروا إلى محمد يذكر سليمان في الأنبياء وما كان إلا ساحراً: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي: لم يعمل السَّحَرُ لأنه كُفِّرَ ﴿وَلَكِنَّ﴾ بالتشديد والتخفيف ﴿الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ﴾ الجملة حال من ضمير كفروا ﴿و﴾ يُعْلَمُونَهُمْ ﴿مَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ أي: ألهماه من السحر، وقرئ بكسر اللام الكائنين ﴿بِبَابِلَ﴾ بلدٌ في سواد العراق ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ بدل أو عطف بيانٍ للملكين. قال ابن عباس: هما ساحران كانا يعلمان السحر. وقيل ملكان أنزلا لتعليمه ابتلاءً من الله للناس ﴿وَمَا يُعْلَمَانِ مِنْ﴾

زائدة ﴿أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا﴾ له نصحاء ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ بلية من الله للناس ليمتحنهم بتعليمه، فَمَنْ تَعَلَّمَهُ كَفَرَ وَمَنْ تَرَكَهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ بتعليمه، فَإِن أَبِي إِلَّا التَّعْلِيمَ عِلْمَاهُ ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ بِأَنْ يُبَغِّضَ كُلُّهُ إِلَى الْآخِرِ ﴿وَمَا هُمْ﴾ أَي السَّحْرَةُ ﴿بِضَارِّينَ بِهِ﴾ بِالسَّحْرِ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ وَهُوَ السَّحْرُ ﴿وَلَقَدْ﴾ لَامٌ قَسَمٌ ﴿عَلِمُوا﴾ أَي الْيَهُودُ ﴿لَمَنْ﴾ لَامٌ ابْتِدَاءٌ مَعْلُوقَةٌ لِمَا قَبْلَهَا وَ«مَنْ» مَوْصُولَةٌ ﴿اشْتَرَاهُ﴾ اخْتَارَهُ أَوْ اسْتَبَدَلَهُ بِكِتَابِ اللَّهِ ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ نَصِيبٌ فِي الْجَنَّةِ ﴿وَلَبِئْسَ مَا﴾ شَيْئًا ﴿شَرُّوا﴾ بَاعُوا ﴿بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أَي: الشَّارِينَ؛ أَي: حَظَّهَا مِنْ الْآخِرَةِ أَنْ تَعْلَمُوهُ حَيْثُ أَوْجِبَ لَهُمُ النَّارُ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ حَقِيقَةَ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ مَا تَعْلَمُوهُ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أَي الْيَهُودُ ﴿آمَنُوا﴾ بِالنَّبِيِّ، وَالْقُرْآنِ ﴿وَاتَّقَوْا﴾ عِقَابَ اللَّهِ بِتَرْكِ مَعَاصِيهِ كَالسَّحْرِ، وَجَوَابِ «لَوْ» مَحذُوفٍ؛ أَي: لِأُثْبِتُوا، دَلٌّ عَلَيْهِ: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ ثَوَابٌ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ، وَاللَّامُ فِيهِ لِلْقَسَمِ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ خَبْرُهُ مِمَّا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ خَيْرٌ لِمَا آثَرُوهُ عَلَيْهِ.

وقول المؤلف: (ردُّ لقول ابن صوريا): هذا إشارةٌ إلى سبب نزول الآية^(١). وقوله: (كفروا بها): هذا تقديرٌ لمدخل همزة الاستفهام المعطوف عليه ما بعده بالواو، والتقدير: أكفروا بها وكلِّما عاهدوا الله عهداً نبذوا فريقٌ منهم. وقوله: (على الإيمان بالنبي...) إلى آخره: بيانٌ لمضمون العهد.

(١) تقدم ذكر الخلاف في (ص ٢١٠).

وقوله: (وهو محلُّ الاستفهام الإنكاري): يريد أن مُتعلِّق الاستفهام في قوله: ﴿أَوْ كَلَّمَا﴾ هو قوله: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ﴾، فالمنكر هو نبذهم للعهد بنقضه وترك الوفاء به.

وقوله: (للانتقال): يريد أن «بل» تُفيد الانتقال من وصف فريقٍ منهم بنبذ العهد إلى وصف أكثرهم بعدم الإيمان. وقوله: (ما فيها...) إلى آخره: بيان لمُتعلِّق العلم المنفي عنهم؛ فالتقدير: كأنَّ الذين نبذوا الكتاب وراء ظهورهم - وهو التوراة - لا يعلمون ما فيها من الخبر بنبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو كأنهم لا يعلمون أنَّ التوراة حقٌّ، وهم يعلمون ولكنهم معاندون^(١).

وقوله: (عطف على «نبذ»): يريد أن فعل ﴿اتبعوا﴾ - وهو مُسندٌ إلى واو الجماعة - معطوفٌ على فعل «نبذ» - المسند إلى فريق -، فأفاد العطف بالواو أنهم جمعوا بين نبذ الكتاب واتباع ما تتلوا الشياطين، فتركوا الحقَّ وأخذوا الباطل.

وقوله: (أي: تلت): يُبيِّن بهذا أنَّ الفعل المضارع «تتلوا» حكايةٌ حالٍ ماضية، وهذا محتملٌ، ويُحتملُ أنه خبرٌ عن الحال الحاضرة؛ لأنَّ الشياطين يتلون علمَ السحر في الماضي والحاضر والمستقبل^(٢).

وقوله: (عهد): يُبيِّن بذلك معنى ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ وهو أنَّ المراد: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: في زمن سليمان عَلَيْهِ السَّلَام. وقوله: (من السحر...) إلى آخره: بيانٌ لِمَا تتلوا الشياطين.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣١٢/٢-٣١٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/١٨٢)، و«الكشاف» (١/٣٠٢).

(٢) ينظر: «درج الدرر» (١/٢٥١)، و«المحرر الوجيز» (١/٢٩٨)، و«البحر المحيط» (١/٥٢٢).

وما ذَكَرَهُ من دَفْنِ السَّحَرِ تحت كرسِي سَلِيمَانَ، وما دَوَّنَتَهُ الكَهَنَةُ من الأكاذيب في كُتُب، وأنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أخذ هذه الكُتُب ودَفَنَهَا، إلى آخر ما ذكره: هو من أخبار بني إِسْرَائِيل التي يجب عرضُها على الشرع، فما دَلَّ على صدقه وجب تصديقه، وما دَلَّ على كذبه وجب تكذيبه، وما لا وجب التوقف فيه.

وقوله: (قال تعالى تبرئة لسليمان وردًا على اليهود...) إلى آخره: يُبَيِّنُ بهذا أن في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سَلِيمَانُ﴾ تبرئة لنبِي الله سَلِيمَانَ من الكفر بعلم السحر والعمل به، وفيه تكذيبٌ لليهود فيما زعمته أن سَلِيمَانَ كان ساحرًا ولم يكن نبياً.

وقوله: (الجملة حال...) إلى آخره: يريد: أن جملة ﴿يُعَلِّمُونَ﴾ حال من واو الجماعة^(١) في قوله: ﴿كفروا﴾، فالشياطين كفروا حال تعليمهم السحر للناس.

وقوله: (يعلمونهم): يُبَيِّنُ بهذا أن الاسم الموصول في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ﴾ معطوفٌ على السحر؛ فالمعنى: يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَيُعَلِّمُونَهُمْ ما أنزل على الملكين.

وقوله: (بكسر اللام): تثنية ملكٍ واحد الملوك، وردَّ ابنُ جريرٍ هذه القراءة واعتبرها شاذة^(٢). وقوله: (الكائنين): هذا مُتَعَلِّقُ الجار والمجرور ببابل، فالباء ظرفية بمعنى في.

وقوله: (بلد في سواد العراق): هذا هو المشهورُ عن المفسرين^(٣).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٢٩٩)، و«البحر المحيط» (١/٥٢٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٣٤٩-٣٥٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٣٥٠)، و«المحرر الوجيز» (١/٣٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (١/٣٦٢).

وقوله: (بدل أو عطف بيان للملكين): هذا صحيحٌ فهما في موضع جر بالفتحة لأنهما ممنوعان من الصرف.

وقوله: (قال ابن عباس...) إلى آخره: الصوابُ أنهما ملكان كما هو ظاهر القرآن^(١).

وقوله: (زائدة): أي زائدة لتأكيد العموم.

وقوله: (له نصحاء): يُبينُ أن قول الملكين لمن يريد أن يتعلم منهما السحر هو نصحٌ منهما له ليرك تعلمه، فدل ذلك على أنهما ملكان لا ساحران.

وقوله: (بلية من الله للناس...) إلى آخره: فيه تفسيرُ الفتنة بالبلية^(٢)؛ فمعنى قول الملكين ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾: أي ابتلاءٌ من الله للعباد، ليتبينَ مَنْ يؤثرُ تعلمَ السحر والكفرِ على الإيمان فيكفر بذلك، ومَنْ يؤثرُ الإيمان على السحر فيترك تعلمه فيكون مؤمناً.

وقوله: (فإن أبا إلا التعليم علما): يدلُّ له قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْجِهِ﴾ وقوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾. وقوله: (أي: السحرة): وهم الذين تعلموا السحر من الملكين.

وقوله: (زائدة): أي لتأكيد العموم.

وقوله: (بإرادته): تفسيرٌ للإذن، وهو الإذن الكوني والإرادة الكونية التي بمعنى المشيئة؛ فالمعنى: إلا بمشيئته تعالى.

وقوله: (في الآخرة): لأن الضررَ في الآخرة أعظم من الضرر في الدنيا، والسحرُ ضرراً على صاحبه في الدنيا والآخرة.

(١) أثر ابن عباس لم نجده مسنداً، وذكره بعض المفسرين منسوباً له. ينظر: «تفسير الثعلبي»

(٣/٤٨٠)، و«البحر المحيط» (١/٥٢٧).

(٢) ينظر: «الوجوه والنظائر» لمقاتل (ص ٦٣-٦٤)، و«نزهة الأعين النواظر» لابن الجوزي (ص ٤٧٨-٤٧٩).

وقوله: (لام قسم): يريد اللام التي قبل «قد»، فقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ خبرٌ مؤكَّدٌ بالقسم عن علم اليهود بضررِ السحر.

وقوله: (أي: اليهود): يريد أن الواو في قوله: ﴿عَلِمُوا﴾ تعودُ إلى اليهود لأنهم المذكورون في أول الآية في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾.

وقوله: (لام ابتداء): يريد أن اللام في قوله: ﴿لَمَنْ﴾ لامُ الابتداء.

وقوله: (معلقة لما قبلها): يُبَيِّنُ أَنَّ لامَ الابتداء لما وقعت في صدر الجملة بعد «علموا» صار الفعل معلقاً عن العمل بنصب مفعولين، وهذا هو معنى التعليق، فجملة ﴿لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ في موضع نصب بـ﴿عَلِمُوا﴾، و«من»: اسم موصول مبتدأ، وجملة ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ في موضع رفع خبر.

وقوله: (بكتاب الله): يريد أن اليهود اشتروا السحر فأخذوه وتركوا كتاب الله؛ لأنَّ الباء تدخل على المتروك.

وقوله: (نصيب في الجنة): تفسيرٌ للخلاق، وهو الحظُّ الذي ينال به الفلاح، ولا يكون إلا في الجنة^(١).

وقوله: (شيئاً): يريد أن «ما» المتصلة ببئس في موضع نصب على التمييز.

وقوله: (باعوا): تفسيرٌ لـ﴿شَرَوْا﴾، وهذا هو معنى «شرى» في اللغة وفي

القرآن^(٢).

وقوله: (أن تعلموه): هو المخصوص بالذم؛ فالمعنى: باعوا أنفسهم

بتعلم السحر المفضي بهم إلى الشقاء الدائم.

(١) تقدم في (ص ٢١٧).

(٢) تقدم (ص ١٩٤).

وقوله: (حقيقة ما يصيرون إليه...) إلى آخره: هذا تقديرٌ لمفعول «يعلمون» في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، فيكون المعنى: لو كانوا يعلمون حقيقة ما يصيرون إليه من عذاب الله ما تعلموا السحر.

وقوله: (أي: اليهود): يُفيد أن الآية من تمام الكلام عن اليهود في الآيات السابقة، وفيها ترغيبهم في الإيمان والتقوى بيان عاقبة ذلك، والمثوبة مصدرٌ ميمي بمعنى الثواب، وهو الثوابُ من عند الله، وذلك خيرٌ لهم مما باعوا به أنفسهم، وجواب «لو» الأولى جملة ﴿لَمْثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وجواب «لو» الثانية محذوفٌ تقديره: لو كانوا يعلمون العلم الصحيح لَمَا آثَرُوا الكُفْرَ والسَّحَرَ على الإيمان والتقوى.

وبعد: فقد دلت هذه الآية، وهي الثانية بعد المئة على تحريم السحر، وتحريم تعلُّمه وتعليمه والعمل به، وذلك من وجوه:
الأول: ذم اليهود باتباعهم له.

الثاني: أنه من علم الشياطين؛ تتلوه، وتعلمه.

الثالث: أنه كفرٌ؛ لقوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَكْفُرُ﴾.

الرابع: أنه وسيلةٌ للتفريق بين الزوجين وإفسادٍ ما بينهما من المودة.

الخامس: أنه يضرُّ ولا ينفع.

السادس: أن مَنْ اشترى علمَ السحر ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾.

السابع: قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾^(١).

ومما ينبغي أن يُعلم أن السحر نوعان:

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٢/٦٧٦).

سحرٌ حقيقي، وله آثارٌ حقيقيةٌ على المسحور، وهو المذكور في هذه الآية، ولكن لا يصل به الساحر إلى قلب الأعيان^(١)، ولا ليقول للشيء: كن فيكون؛ فذلك لله وحده.

والثاني: سحرٌ تخيلي، يخيلُ به الساحر على الأبصار، ومنه سحرٌ سحره فرعون؛ كما قال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦]^(٢).



(١) ينظر: «الصفدية» (١/١٣٨)، و«مجموع الفتاوى» (٢٩/٣٦٨-٣٦٩)، و(٢٩/٣٩٠-٣٩١).

(٢) ينظر أنواع السحر وتقسيماته في: «تفسير الرازي» (٣/٦١٩-٦٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (١/٣٦٧-٣٧١)، و«شرح نواقض الإسلام» لشيخنا (ص ٣٣-٣٤).

وقوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنظُرْنَا
وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤]:

ينهى الله المؤمنين في هذه الآية أن يقولوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿رَاعِنَا﴾؛
لأنه لفظٌ يحتملُ حقًا وباطلاً؛ لأنه إمَّا من المراعاة: وهي الرفق والتيسيرُ في
المعاملة، أو الرعونة: وهي الحمقُ والصلفُ في القول^(١)؛ لذلك كان اليهودُ
يُخاطبون بها النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويريدون المعنى القبيح، فنهى الله المؤمنين
عن أن يقولوا ذلك في خطابهم للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حتى لا يتذرَّع اليهودُ بذلك
إلى مقصودهم إذا سمعوا المؤمنين يقولونها، فنهى المؤمنون عن ذلك سدًّا
للذريعة، ولذا عدَّت هذه الآية من أدلة قاعدة سدِّ الذرائع^(٢).

وأمر الله المؤمنين أن يقولوا: ﴿آنظُرْنَا﴾؛ يعني: انظر إلينا، فحذف
حرف الجر، واتصل الضميرُ بالفعل، فهو من الحذف والإيصال. وقوله تعالى:
﴿وَأَسْمَعُوا﴾: أي سماع قبولٍ واستجابةٍ وطاعةٍ لكلِّ ما أمركم الله به ورسوله،
وفي هذا تأكيدٌ لما سبق في الآية من النهي والأمر.
وقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: وعيدٌ لجميع الكافرين،
وهو أخصُّ باليهود، والأليم: المؤلم الموجه.

﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا﴾ للنبي ﴿رَاعِنَا﴾ أمر من «المراعاة»،
وكانوا يقولون له ذلك، وهي بلغة اليهود سبٌّ من «الرعونة»، فسُرُّوا بذلك
وخاطبوا بها النبي، فنهى المؤمنون عنها ﴿وَقُولُوا﴾ بدلها: ﴿آنظُرْنَا﴾ أي:
انظر إلينا ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به سماع قبول ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
مؤلم هو النار.

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٦٠)، و«المفردات» للراغب (ص ٣٧٥-٣٥٨).

(٢) ينظر: «إعلام الموقعين» (٦/٥)، و«الموافقات» للشاطبي (٧٦/٣).



وقول المؤلف: (للنبي): بيانٌ لمتعلق الحكم.
 وقوله: (أمر من المراعاة...) إلى آخره: فيه بيانٌ سبب نزول الآية^(١).
 وقوله: (بدلها): أي قوله «﴿انظُرْنَا﴾ بدل عن قولهم: ﴿رَاعِنَا﴾، فما
 أمروا به بدلوا عمّا نهوا عنه.



(١) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٣٣-٣٤)، و«العجاب» لابن حجر (١/٣٤٣-٣٤٧).

وقوله تعالى: ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِمَّنْ رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥]:

يُخبر تعالى عن كفار أهل الكتاب وعن المشركين أنهم لا يحبون أن يُنزل الله على نبيه والمؤمنين شيئاً من الخير من علم أو نصر أو رزق، بل يُبغضون ذلك ويحسدون المؤمنين على ذلك، يدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [البقرة: ٩٠]، وهم بذلك يُعارضون حكمة الله وتدييره، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من النبوة وغيرها، وهو تعالى ﴿ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [١٠٥]؛ أي: العطاء والإحسان البالغ غاية العظمة كثرةً وكمالاً.

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ﴾ من العرب، عطف على أهل الكتاب، و«من» للبيان ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ خَيْرٍ ﴾ وحي ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ حسداً لكم ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ ﴾ بنبوته ﴿ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

وقول المؤلف: (عطف على أهل الكتاب): يريد أن المشركين معطوف على المجرور بـ «من» ولا الذين كفروا من المشركين، وأهل الكتاب منهم كفار ومنهم مؤمنون وأمّا المشركون فكلُّهم كفار.
وقوله: (من للبيان): يريد «من» في قوله: ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾، فمن: بيان للمراد بالموصول في قوله: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾.



وقوله: (زائدة): يريد من في قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ زائدة؛ لتأكيد العموم^(١).
 وقوله: (وحي): تفسير للخير، والخير في الآية أعم من ذلك.
 وقوله: (حسدًا لكم): بيان للحامل لهم على عدم المودة لنزول الخير.



(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٠٨/١)، و«البحر المحيط» (١/٥٤٥).

وقوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: ١٠٦-١٠٧]:

يُخبر تعالى نبيه والمؤمنين خبراً فيه بشرى لهم، أنه لا ينسخ آية من آيات الكتاب التي أنزلها على نبيه إمّا برفع حكمها أو إنساء لفظها إلا أتى بخير منها؛ أي: بأيسر منها لفظاً أو أخفّ حكماً أو أُنفع لهم، وإن كان حكم الثانية أشقّ، أو يأتي بآية مثلها لا أخفّ ولا أثقل^(١)، ومردّد ذلك إلى حكمته - تعالى - وعلمه وقدرته، وعموم ملكه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وما في هذه الآية من ذكر النسخ وحكمته جاء في سياق الردّ على اليهود؛ لأنهم زعموا أنّ النسخ يمتنع على الله؛ لأنه يتضمّنُ البداء من الله؛ وهو أن يعلم من الأمر ما لم يكن عالمًا به^(٢)، ليتوصلوا بذلك إلى نفي نسخ شريعة التوراة بشريعة القرآن، وإلى الطعن في نبوة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلى الطعن في شريعة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنسخ استقبال بيت المقدس بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة كما سيأتي في الآيات من اثنتين وأربعين إلى خمسين بعد المئة^(٣)، وجاء ذكر النسخ وحكمته في هذه الآية تمهيداً لما سيأتي من أمر تحويل القبلة. ومعنى النسخ في اللغة: الإزالة، تقول: نسخت الشمس الظلّ، ويُطلق على نقل الكتاب، تقول: نسخت الكتاب؛ أي: نقلت المكتوب بكتابة مثله في مكان آخر^(٤).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٣٩٩-٤٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٨).

(٢) ينظر: «التعريفات» للجرجاني (ص ٤٣).

(٣) ينظر: (ص ٣٠١). (٤) ينظر: «لسان العرب» (٣/ ٦١).

وفي اصطلاح أهلِ الأصولِ: رفعُ حُكْمٍ ثبتَ بدليلٍ متقدِّمٍ بدليلٍ مُتأخِّرٍ^(١).
 و﴿مَا﴾: اسمٌ شرطٍ في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به «لِلنَّسْخِ»، وفعلُ الشرطِ
 وجوابُه مجزومان بها، و﴿نُنْسِهَا﴾ معطوفٌ على نسخٍ مجزومٌ بحذفِ الياءِ.
 وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمَ﴾: الاستفهامُ للتقرير، والمعنى: قد علمتَ أنَّ اللهَ على
 كلِّ شيءٍ قديرٌ، فيدخلُ في قدرته شرعُ الأحكامِ ونسخُ ما شاء منها.
 وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي قد علمتَ أنَّ
 اللهَ له مُلكُ السماواتِ والأرضِ، ومما يدخلُ في ملكه التصرفُ بالأحكامِ
 بالإثباتِ والنسخِ.

وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(١٧): تهديدٌ لليهودِ
 الطاعينِ في حكمتِهِ وأحكامِهِ، وفي الكلامِ التفاتٌ من خطابِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 إلى خطابِ جماعةِ المؤمنين؛ لتحذيرِ المؤمنين من الانخداعِ بشبهاتِ الكافرين
 التي يحملون بها المؤمنين على الأسئلة التي لا تليقُ بمقامِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا
 تليقُ بحالِ المؤمنين الموقنين، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ
 كَمَا سَأَلِ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾، فالمعنى: ليس لكم وليٌّ من دونِ الله يتولاكم بما
 ينفعكم، ولا نصيرٌ ينصركم على مَنْ يُريدكم بسوءٍ، أو يُنقذكم من عذابٍ يَحِلُّ
 بكم.

وَلَمَّا طَعَنَ الْكُفَّارُ فِي النَّسْخِ وَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ الْيَوْمَ بِأَمْرٍ
 وَيَنْهَى عَنْهُ غَدًا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿مَا﴾ شرطية ﴿نُنْسَخُ مِنْ آيَةٍ﴾ أي نزلَ حُكْمَهَا
 إِمَّا مَعَ لَفْظِهَا أَوْ لَا. وفي قراءةٍ بضمِّ النونِ، من أنسخ؛ أي: نأمرُك أو جبريلُ

(١) عرف بتعاريف كثيرة، والتعريف الذي ذكره شيخنا قريب من تعريف الغزالي وابن قدامة.
 ينظر: «المستصفى» للغزالي (٢/٣٥-٣٦)، و«روضة الناظر» لابن قدامة (١/٢٨٣-
 ٢٨٤).

بنسخها ﴿أَوْ نَسَّأَهَا﴾ نُؤَخِّرُهَا فَلَا نُزِلُ حِكْمَهَا وَنَرْفَعُ تِلَاوَتَهَا أَوْ نُؤَخِّرُهَا فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ. وَفِي قِرَاءَةِ بِلَا هَمْزٍ مِنَ النِّسْيَانِ؛ أَي: نُنَسِّكُهَا؛ أَي: نَمْحُهَا مِنْ قَلْبِكَ، وَجَوَابِ الشَّرْطِ ﴿نَأَتْ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ أَنْفَعُ لِلْعِبَادِ فِي السَّهُولَةِ أَوْ كَثْرَةِ الْأَجْرِ ﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾ فِي التَّكْلِيفِ وَالثَّوَابِ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَمِنَهُ النَّسْخُ وَالتَّبْدِيلُ، وَالاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَفْعَلُ فِيهِمَا مَا يَشَاءُ ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرِهِ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿وَلِيِّ﴾ يَحْفَظُكُمْ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَمْنَعُ عَذَابَهُ عَنْكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ.

وقول المؤلف: (ولمّا طعن الكفار...) إلى آخره: يُشير بذلك إلى سبب نزول هذه الآية في شأن النسخ^(١).

وقوله: (نزل حكمها...) إلى آخره: تضمن الإشارة إلى أصل معنى النسخ في اللغة، وهو الإزالة، وأن نسخ الآية تارة يكون بحكمها ولفظها، وتارة يكون للحكم مع بقاء اللفظ.

وقوله: (وفي قراءة بضمّ النون...) إلى آخره: يُشير إلى قراءةٍ مرجوحةٍ ردّها ابن جرير، قال إنها خلاف الحجة من القراءة؛ أي: جمهور القراء^(٢).

وقوله: (أو نَسَّأَهَا...) إلى آخره: مشى المؤلف في هذا الحرف على إحدى القراءات، وهي: بفتح النون والهمز^(٣)، من النسأ؛ وهو: التأخير كالبيع نسيئة؛ أي: إلى أجل^(٤)، وفسر المؤلف هذه القراءة بتأخير النزول، فتضمّنت

(١) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٣٤)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/٣٤٧-٣٤٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٣٩٦-٣٩٧).

(٣) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وقرأ الباقر بضمّ النون الأولى وترك الهمز. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٨)، و«النشر» (٢/٢٢٠).

(٤) ينظر: «لسان العرب» (١/١٦٦).

الآية على هذا نوعين من الآيات؛ آية نزلت ثم نسخ حكمها، وآية أخر نزولها، وفي كل من النوعين وعد الله أن يأتي بخير منها أو مثلها.

وقوله: (وفي قراءة بلا همزة من النسيان...) إلى آخره: يذكر القراءة الأخرى، وهي التي بضمّ النون بلا همزٍ، وجزمِ الفعل بحذف حرف العلة، وهي من النسيان الذي هو ذهابُ الشيء من القلب، ولهذا قال المؤلف -مفسراً- هذه القراءة: (أي: نمحها من قلبك)؛ لأنّ الخطاب فيها للنبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بدليل قوله بعدها: **﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾**.

وقوله: (وجواب الشرط): أي: المفهوم من «ما» الشرطية؛ جوابه هو قوله تعالى: **﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ﴾**.

وقوله: (في السهولة أو كثرة الأجر): يُبيّنُ بهذا أنّ الخير الموعود هو ما ينفع العباد في العاجل إذا كان النسخ إلى الأَخْفِ والأَسْهَلِ، أو الآجلِ بكثرة الأجر إذا كان النسخ إلى أثقل من الأول.

وقوله: (في التكليف والثواب): يُبيّنُ أنّ الآية الثانية تكون مثل الأولى في التكليف من حيث السهولة والمشقة، وفي الثواب؛ أي: من حيث مقدار الأجر. وقوله: (يفعل فيهما ما يشاء): يُشير إلى أنّ من مقتضى ملكه التصرف في الأحكام بالنسخ والتبديل والتقديم والتأخير.

وقوله: (أي: غيره): تفسير لقوله: (من دونه).

وقوله: («من» زائدة): يريد: «من» في قوله: **﴿مَنْ وَلِيٌّ﴾**، يقول: زائدة؛ أي: لتأكيد العموم. وقوله: (يحفظكم)، وقوله: (يمنع عذابه): بيان للفرق بين الوليِّ والنصير، فالوليُّ: هو الجالبُ للمنافع، والنصيرُ: هو الدافعُ للمضار، والله تعالى هو الوليُّ والنصيرُ، وما للعباد من دونه وليٌّ ولا نصيرٌ؛ لأنه لا يأتي بالحسنات ولا يدفع السيئات غيره.

فَعَلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أُمُورٌ:

- ١ - سبب نزول الآية؛ وهو إنكار اليهود النسخ وطعنهم على النبي
والمؤمنين بتحويل القبلة.
- ٢ - أن في ﴿نسخ﴾ قراءتين؛ بفتح النون والسين، وهي: أصح القراءتين،
وبضم النون وكسر السين، وهي: التي ردّها ابن جرير.
- ٣ - أن في ﴿ننسها﴾ ثلاث قراءات: بضمّ النون وحذف الياء للجزم،
وبفتح النون والهمزة الساكنة من «النساء» بمعنى: التأخير، وبفتح النون وحذف
الألف من النسيان؛ بمعنى: الترك.
- ٤ - الاستفهام في الآيتين للتقرير، والخطاب في اللفظ للنبي صلى الله عليه وسلم
والمعنى: عام للمؤمنين.
- ٥ - الإشارة إلى الدليل العقلي على جواز النسخ بذكر عموم قدرة الله
وعموم ملكه.



وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۗ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]:

يُنكَرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يَسْأَلُ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ سَوَالٍ تَعْنَتِ وَاعْتَرَضَ عَلَى شَرَعِهِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ وَهُمْ بِخِلَافِ مَا يَظْهِرُونَ، وَقَدْ ذُكِرُوا فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، وَأَنَّهُمْ بِذَلِكَ يُشْبِهُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي تَعْتُّهِمْ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا فِي قِصَّةِ الْبَقْرَةِ، وَذَكَرَ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ يُشْعِرُ بِوَقُوعِهِ؛ وَأَنَّهُ سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ (١).

ثُمَّ يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الْمَسْلَكَ قَدْ يُفْضِي بِصَاحِبِهِ إِلَى الْكُفْرِ أَوْ هُوَ كُفْرٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أَي: مَنْ يَشْتَرِي الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَيَتَعَوَّضُ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْكَفْرِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ؛ أَي: أَخْطَأَ سَبِيلَ اللَّهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ إِلَى سَبِيلِ الْغِيِّ وَالْفُسَادِ، وَ﴿أَمْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾: هِيَ الْمَنْقَطَعَةُ، فَهِيَ بِمَعْنَى بَل (٢)، وَهَمْزَةُ الْاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي. وَالخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَسُولَكُمْ﴾: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالرَّسُولُ يُضَافُ إِلَى مُرْسَلِهِ، وَإِلَى مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ.

وَنَزَلَ لَمَّا سَأَلَهُ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يُوَسِّعَهَا وَيَجْعَلَ الصِّفَا ذَهَبًا: ﴿أَمْ﴾ بَل
﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ أَي: سَأَلَهُ قَوْمَهُ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾
مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَرَأَيْتُمْ لَهِجْرَةَ﴾ وَغَيْرَ ذَلِكَ ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أَي

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٤٠٩-٤١١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٢٠٢-٢٠٣)، و«زاد المسير» (١/٩٩).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/١٩٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/٧٣).

يأخذه بدله بترك النظر في الآيات البينات واقتراح غيرها ﴿فَقَدْ ضَلَّ سِوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أخطأ الطريقَ الحقَّ، والسواءُ في الأصل: الوسطُ^(١).

وقولُ المؤلف: (ونزل...) إلى آخره: يُشيرُ إلى أنَّ سببَ نزولِ هذه الآية هو سؤالُ أهلِ مكة، وفي هذا نظرٌ، فإنَّ سورةَ البقرةَ مدنيَّةٌ، والأظهرُ أنَّ السببَ سؤالُ بعضِ المؤمنين كما تقدَّم.

وقولُه: (من قولهم: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾): هذا بعضُ أسئلةِ بني إسرائيلِ التعنتية وهي كثيرةٌ. وقولُه: (أخطأ الطريقَ الحقَّ): فسَّر الضلالَ بالخطأ؛ لأنَّ ضلَّ في الآية متعدِّ بنفسه، و﴿سواء﴾: مفعولٌ به، ويتعدَّى بـ«عن»؛ فيقال: ضلَّ سواءَ السبيلِ، وضلَّ عن سواءِ السبيلِ.



(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٦١)، و«مقاييس اللغة» (٣/ ١١٢).

وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]:

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ - وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ - بِأَنَّهُمْ يُوَدُّونَ أَنْ يُطِيعَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ فِي التَّحَوُّلِ عَنِ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ، وَالْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْحَسَدُ، وَأَخْصُ الطَّائِفَتَيْنِ بِذَلِكَ الْيَهُودُ كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ؛ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُمْ لَجَهْلٍ أَوْ شَبَهَةٍ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾. ثُمَّ أَمَرَ سُبْحَانَهُ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنْهُمْ، وَذَلِكَ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ أَذَاهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ؛ وَهُوَ النَّصْرُ عَلَيْهِمْ بِإِجْلَائِهِمْ أَوْ قَتْلِهِمْ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي طَوَائِفِ الْيَهُودِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ كَمَا فِي سُورَةِ الْحَشْرِ وَالْأَحْزَابِ، وَفِي هَذَا بَشَارَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَوَعِيدٌ لِلْكَافِرِينَ، وَتَأْكِيدٌ لِهَذَا الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٩].

والعفو: هو تركُ المؤاخِذةِ على الذنبِ بتركِ العقوبة. والصفح: هو الإعراضُ وتركُ التَّشْرِيبِ وَالْعِتَابِ، فَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْعَفْوِ^(١).

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ﴾ مصدرية ﴿يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾ كُفَّارًا حَسَدًا ﴿مَفْعُولٌ لَهُ، كَائِنًا﴾ مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ ﴿أَي: حَمَلْتَهُمْ عَلَيْهِ أَنفُسُهُمُ الْخَبِيثَةَ﴾ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ ﴿فِي التَّوْرَةِ﴾ الْحَقُّ ﴿فِي شَأْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ فَاعْفُوا ﴿عَنْهُمْ؛ أَي: اتْرَكُوهُمْ﴾ وَاصْفَحُوا ﴿أَعْرَضُوا فَلَا﴾

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٤٨٦)، و«التحريير والتنوير» (١/ ٦٧١).

تجاوزهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ﴾ فيهم من القتال ﴿نَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقول المؤلف: (مصدرية): يريد أنها من الحروف التي تُؤوَل مع الفعل بعدها بمصدر، وتقدير ذلك هنا: ودَّ كثيرون من أهل الكتاب ردَّكم. وقوله: (مفعول له): يُبَيِّنُ إعراب ﴿حَسَدًا﴾ بأنه مفعولٌ لأجله، فنصبه على المفعولية، فعلم بذلك أنَّ الحسدَ هو الحاملُ لهم على هذه المودَّة، وهذا الحسدُ متمكِّنٌ في نفوسهم وقلوبهم، وهذا هو معنى ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾. وقوله: (كائنًا): صفةٌ لحسد، والجار والمجرور ﴿مِنْ عِنْدِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ«كائنًا».

وقوله: (في شأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): يعني تبَيَّنَ لهم الاعتقادُ الحقُّ في شأن النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَبَيَّنَ لهم ذلك بدلائل كثيرة.



وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠]:

يأمر الله - تعالى - عباده المؤمنين بإقام الصلاة؛ وهي الصلوات الخمس التي كتبها الله على عباده في كل يوم وليلة، وإيتاء الزكاة؛ وهي الحق الذي فرضه الله على الأغنياء في أموالهم، ويُبشِّرهم تعالى أن ما قدّموه لأنفسهم من خير - أي: عمل صالح - فإنهم يجدون ثوابه موفورًا مُضاعفًا عند ربهم، ثم أخبر سبحانه أنه بصيرٌ بأعمال عباده حسناتهم وسيئاتهم، وهو بصيرٌ بأحوالهم ونيّاتهم فيها، فيجزئهم بالحسنات بحسب تفاضلهم فيها، ويضاعف لهم الثواب، الحسنهُ بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعفٍ إلى ما شاء الله، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

والبصيرُ: من البصر بالشيء، وهو كمالُ العلم به، فهي من معنى: أحاط بكل شيء علمًا، وليست من البصر بمعنى الإبصار الذي هو بمعنى الرؤية؛ فالبصيرُ من المعنى الأول يأتي مقرونًا بالخبر، ومن المعنى الثاني يأتي مقرونًا بالسميع^(١)، وقد عُلِمَ مما تقدّم أن الخطاب في هذه الآيات للمؤمنين من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]، إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ طَاعَةٌ؛ كَصَلَةٍ وَصَدَقَةٍ تَجِدُوهُ﴾ أي: ثوابه ﴿عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم به.



(١) ينظر: «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ٦٥-٧١)، و«شأن الدعاء» للخطابي (ص ٦١)، و«التهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى» لمحمد الحمود النجدي (١/ ٢٣٥).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١٣) ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١٢) [البقرة: ١١١-١١٢]:

يُخبر تعالى عن اليهود والنصارى أنهم قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾، ومعنى ذلك أن الجنة مختصة بهم، وخالصة لهم من دون الناس، وهذا ما سبق الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٩٤] (١)، و﴿أَوْ﴾ للتقسيم والتنويع بعد الإجمال؛ فالمعنى: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كانوا نصارى (٢).

ثم بين تعالى أنه لا حقيقة لقولهم، بل هو محض أمانى، وأنهم لا برهان لهم على ما قالوا؛ فقال تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١٣)، وهذا أمر تعجيزي، ثم بين سبحانه وتعالى أن المستحق لدخول الجنة وله الأجر عند الله هو من أسلم وجهه لله بعبادته وحده لا شريك له، وهو محسنٌ باتباع الرسول، فذلك الذي له الأجر عند الله ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١٢). وفي هذه الآية عودٌ إلى الإخبار عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وذكر أقوالهم الباطلة بعد ما مر في الآيات السابقة من خطاب للمؤمنين أمرًا ونهيًا وتحذيرًا وإرشادًا، لكن المعنى في الآيات التي قبل ذلك من «٤٠» إلى «١٠٣» هم اليهود، والمعنى: في هذه الآية «١١١» وما بعدها الطوائف الثلاث؛ اليهود والنصارى والمشركون.

(١) ينظر: (ص ٢٠٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٤٢٨)، و«المحرر الوجيز» (١/٣٢٢-٣٢٣)، و«التحرير والتنوير» (١/٦٧٢-٦٧٣).

وفي قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ﴾ ردُّ لِنفي في قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾، فالمعنى: بل يدخلها ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، و﴿مَنْ﴾ شرطية، وجوابُ الشرط قوله: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ جمع هائدٍ ﴿أَوْ نَصْرَى﴾ قال ذلك يهودُ المدينة ونصارى نجران لَمَّا تناظروا بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أي قال اليهود: لن يدخلها إلا اليهود. وقال النصارى: لن يدخلها إلا النصارى ﴿تِلْكَ﴾ القولة ﴿أَمَانِيَهُمْ﴾ شهواتهم الباطلة ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حَجَّتكم على ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه. ﴿بَلَى﴾ يدخل الجنة غيرهم ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي انقاد لأمره، وخصَّ الوجهُ لأنه أشرفُ الأعضاء فغيره أولى ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ موحدٌ ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: ثواب عمله الجنة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة.

وقول المؤلف: (جمع هائدٍ): يُبيِّنُ بهذا أنَّ هودًا جمعُ هائدٍ لا مفرد، ونظيره: عوذ جمع عائذ^(١). وقوله: (قال ذلك يهودُ المدينة...) إلى آخره: يُبيِّنُ أنَّ الآية نزلت على سبب، وهو ما ذكره من القصة^(٢).

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٧٣/١)، و«تفسير الطبري» (٤٢٨/٢).

(٢) أخرج القصة الطبري (٤٣٤-٤٣٥) لكن في سبب نزول آية: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وأوردها في سبب نزول هذه الآية: السمعاني في تفسيره (١٢٧/١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (١٠٢/١)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (٥٦١/١).

وقوله: (القول): يريد أن اسم الإشارة في قوله: ﴿تلك﴾ راجع إلى الفعلة من القول.

وقوله: (شهواتهم الباطلة): أي التي يتمنونها ويطمعون في حصولها، ومنها: دخولهم الجنة دون غيرهم.

وقوله: (حجّتكم على ذلك): فسّر البرهان بالحجة، وهو الحجة القاطعة المفيدة لمدلولها؛ فالبرهان أخص من الحجة.

وقوله: (فيه): أي فيما تدعونه من اختصاصكم بدخول الجنة.

وقوله: (يدخل الجنة غيرهم): يُبين أن ﴿بلى﴾ إبطالٌ للنفي في قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾، فكلُّ ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فإنه يدخل الجنة.

وقوله: (انقاد لأمره): فسّر الإسلام بالانقياد؛ لأنّ الإسلام استسلامٌ وتسليمٌ.

وقوله: (خص الوجه...): إلى آخره: فالمعنى: مَنْ أسلم وجهه فقد أسلم بكلّيته لربه وخضع له^(١)، وهذا يتضمّن إخلاص الدين لله وعبادته وحده لا شريك له.

وقوله: (موحدٌ): فسّر الإحسان بالتوحيد، وفي هذا التفسير نظر؛ فإنّ التوحيد هو معنى إسلام الوجه لله، فلا بدّ أن يكون الإحسان معنى آخر، وهو اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٤٣٢-٤٣٣)، و«المحرر الوجيز» (١/٣٢٣-٣٢٤).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/٣٨٥).

وقرر هذا المعنى شيخ الإسلام في غير موضع من كتبه. ينظر: «منهاج السنة» (٥/٢٥٢-٢٥٣)، و«جامع المسائل» (٦/٢٦)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/٢٣٤) - وهي من رسالة العبودية (ص ١٤٨-)، و(٢٨/١٧٥).

وقوله: (أي ثواب عمله الجنة): تفسيرٌ للأجر عند الله، وبذلك يظهر الردُّ على اليهود والنصارى في نفي دخول غيرهم الجنة.

وقوله: (في الآخرة): يُبَيِّنُ أَنَّ الوعدَ بعدم الخوف والحزن يكون في الآخرة، وهذا هو الأهمُّ؛ لأنَّ الخوفَ والحزنَ في الدنيا مآلهما إلى الزوال، وقد جاء التصريحُ بالوعد بالأمن وذهاب الحزن؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، وقوله عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].



وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۗ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة: ١١٣]:

يُخبر تعالى عن اختلاف اليهود والنصارى، وأن كلا من الطائفتين تدم الأخرى وأنها ليست على شيء من الحق، مع أنهم يقرؤون كتب الله - التوراة والإنجيل -.

كذلك يُخبر تعالى عن الذين لا يعلمون - وهم المشركون الذين لا علم عندهم لأنهم لا كتاب لهم - أنهم قالوا في كل من خالفهم من اليهود والنصارى وغيرهم: ليسوا على شيء، مثل قول اليهود والنصارى بعضهم لبعض. ثم أخبر تعالى أنه يحكم بين جميع المختلفين يوم القيامة فيبين المحق منهم من المَبطل؛ كما قال تعالى في حكمة البعث: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل: ٣٩].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ مُعْتَدِّ بِهِ وَكَفَرَتْ بَعِيسَى ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ مُعْتَدِّ بِهِ وَكَفَرَتْ بَمُوسَى ﴿وَهُمْ﴾ أَي: الْفَرِيقَانِ ﴿يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ الْمَنْزَلَ عَلَيْهِمْ، وَفِي كِتَابِ الْيَهُودِ تَصَدِيقُ عِيسَى، وَفِي كِتَابِ النَّصَارَىٰ تَصَدِيقُ مُوسَى، وَالْجَمَلَةُ حَالٌ ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا قَالَ هُوَ لَاءٍ ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَي الْمَشْرُكُونَ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ بَيَانٌ لِمَعْنَى ذَلِكَ. أَي: قَالُوا لِكُلِّ ذِي دِينٍ: لَيْسُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، فَيَدْخُلُ الْمَحْقُ الْجَنَّةَ، وَالْمَبْطَلُ النَّارَ.

وقول المؤلف: (مُعْتَدٌ بِهِ...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ مراد اليهود بهذا القول نفي أن يكون مع النصارى شيء من الحقِّ يُعْتَدُّ بِهِ لهم، ولا إيمان من آمن منهم بعيسى، فتضمَّن قول اليهود كفرهم بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله: (معتد به...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ قول النصارى في اليهود من جنس قول اليهود في النصارى، كلُّ منهما يتضمَّنُ جحد ما عند الطائفة الأخرى من الحقِّ والكفر بنبيِّها.

وقوله: (المنزل عليهم): معناه أَنَّ المراد بالكتاب التوراة والإنجيل، وفي كلِّ كتابٍ دلالةٌ على الحقِّ الذي عند الطائفة الأخرى، فكانوا بهذا التَّجَاوُذِ كافرين بالكتاب الذي نزل عليهم؛ لأنَّ كتابهم يُكذِّبهم فيما قالوه في الطائفة الأخرى.

وقوله: (وفي كتاب اليهود...) إلى آخره: هو معنى ما تقدَّم أَنَّ كلاً من الكتابين يدلُّ على الحقِّ الذي مع الطائفة الأخرى.

وقوله: (والجملة حال): يعني قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، فالمعنى: قالوا ما قالوا وهم يتلون الكتاب الذي يُكذِّبهم؛ لأنه يدلُّ على نقيض قولهم، وبعد: فقول اليهود في النصارى هو لازمٌ لقولهم: «لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً»، ومضمون قول النصارى في اليهود هو لازمٌ قول النصارى: «لن يدخل الجنة إلا من كانوا نصارى»، فمضمون كلِّ من الآيتين رقم: «١١١» و«١١٣» لازمٌ لمضمون الآية الأخرى.

وقوله: (كما قال هؤلاء): أي مثل قول اليهود في النصارى وقول النصارى في اليهود قال الذين لا يعلمون؛ فالمعنى: قال الذين لا يعلمون وهم المشركون في اليهود والنصارى ليسوا على شيء.

وقوله: (أي المشركون من العرب وغيرهم): هذا أصح ما قيل في بيان المراد بالذين لا يعلمون^(١)، وأخطأ خطأً بيناً من قال: المراد بهم اليهود أو النصراني، ويؤيد أن المراد بهم المشركون قوله تعالى فيما سيأتي: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، والراجع في هذه الآية أن المراد بالذين لا يعلمون كفار العرب، كما ذكره ابن كثير ورجحه^(٢)، وهو قول الجمهور؛ قاله ابن عطية^(٣) والقرطبي^(٤).

وقوله: (بيان لمعنى ذلك...) إلى آخره: يريد أن قوله تعالى: ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾: بيان لمعنى اسم الإشارة في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾، فالمعنى أن الذين لا يعلمون قالوا لكل من خالفهم في الدين: ليسوا على شيء؛ كقول اليهود للنصارى، وقول النصارى لليهود.

وقوله: (يدخل المحق الجنة والمبطل النار): هذا تفسير للحكم في الآية بالحكم الجزائي الفعلي، والآية تشمل هذا، وتشمل الحكم البياني القولي المذكور في قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [النحل: ٣٩]، فإنه تعالى يبين لهم المحق من المبطل، ثم يدخل المحق الجنة والمبطل النار كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِتِدُ يَتَفَرَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤-١٦].



(١) وهو قول السدي ومقاتل، واختاره الجمهور. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٤٣٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٢٠٩، رقم ١١٠٧)، و«زاد المسير» (١/١٠٢).
 (٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/٣٩٩).
 (٣) «المحرر الوجيز» (١/٣٢٥).
 (٤) «تفسير القرطبي» (٢/٧٦).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]:

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ حَالِ مَنْ يَمْنَعُ مَسَاجِدَ اللَّهِ الَّتِي أَفْضَلُهَا الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، يَمْنَعُهَا مَنْ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ، وَيَصُدُّ مَنْ يَقْصِدُهَا بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ فِيهَا، وَفَعَلَ مَا شَرَعَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَهَذَا الصَّدُّ أَعْظَمُ سَعَىٰ فِي خَرَابِهَا، فَإِنَّ عِمَارَتَهَا بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ فِيهَا وَإِقَامِ الصَّلَاةِ فِيهَا؛ وَأَعْظَمُ الصَّدُّ عَنْ ذَلِكَ الصَّدُّ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنْ مَنْ هَذِهِ حَالُهُ فَلَا أَحَدٌ أَظْلَمَ مِنْهُ.

﴿وَمَنْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: اسْمٌ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِي، وَهُوَ بِمَعْنَى النَّفْيِ، فَالْتَقْدِيرُ: لَا أَحَدٌ أَظْلَمَ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّ أَوْلَٰئِكَ الظَّالِمِينَ لَا يَحِقُّ لَهُمْ دُخُولُ مَسَاجِدِ اللَّهِ، وَلَا يَلِيقُ بِهِمْ إِلَّا أَنْ يَدْخُلُوهَا خَائِفِينَ ذُلِيلِينَ مَقْهُورِينَ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنِ سُوءِ عَاقِبَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَقَالَ: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؛ وَهُوَ الْفُضِيحَةُ وَالْعَارُ، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أَي: لَا أَحَدٌ أَظْلَمَ ﴿مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ بِالْهَدْمِ أَوْ التَّعْطِيلِ، نَزَلَتْ إِخْبَارًا عَنِ الرُّومِ الَّذِينَ خَرَّبُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ، أَوْ فِي الْمَشْرِكِينَ لَمَّا صَدُّوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْحَدِيثِيَّةِ عَنِ الْبَيْتِ ﴿أَوْلَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ خَبِرَ بِمَعْنَى الْأَمْرِ؛ أَي: أَخِيفُوهُمْ بِالْجِهَادِ فَلَا يَدْخُلُوهَا أَحَدٌ آمِنًا. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ هَوَانٌ، بِالْقَتْلِ وَالسَّبِيِّ وَالْحِزْيَةِ ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هُوَ النَّارُ.

وقول المؤلف: (نزلت إخبارًا عن الروم... إلى آخره: يُبين بذلك أنّ المعنيّ بالذمّ والوعيد المذكور في الآية هم النصارى الذي خربوا بيت المقدس، أو المراد: المشركون الذين صدّوا النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه عن المسجد الحرام، وما ذكره حقٌّ ولكنّ الآية عامّةٌ في جميع المساجد^(١)، ويدخل فيها المسجد الحرام والمسجد الأقصى دخولًا أوليًا، وكذا ما في الآية من ذمّ ووعيدٍ عامٍّ لجميع المانعين مساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمه، وجميع الساعين في خرابها، ويدخل النصارى والمشركون في الذمّ والوعيدِ دخولًا أوليًا، وسياق الآيات السابقة واللاحقة يشهد للقولين، ففيها ذكرُ المشركين والنصارى، ومن ذلك آياتٌ تحوّل القبلة الآتية.

وقوله: (خبر بمعنى الأمر... إلى آخره: يعني قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، ويُبين أنّ هذا الخبر مُتضمّنٌ أمر المؤمنين بإخافة الكفار، فلا يدخلوا المساجد إلا خائفين من سلطان المسلمين. ولا يردُّ على هذا دخولُ نصارى نجران مسجده^(٢)؛ فإنهم غير مُطمئنين ولا يقدرّون على أن يفعلوا فيه ما شاؤوا؛ لأنّ الولاية فيه والحكم للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٤٤٢-٤٤٤)، و«المحرر الوجيز» (١/٣٢٥-٣٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (١/٣٨٧-٣٨٨).

(٢) دخول وفد نجران لمسجد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء في حديث رواه ابن إسحاق، قال حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: قدموا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، يعني: وفد نجران، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، الحديث. وإسناده منقطع. ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/٥٧٤)، و«فتح الباري» لابن رجب (٣/٢٤٤)، و«التعليق على فقه السيرة» للألباني (ص ٤٢٤). وجاء دخول وفد ثقيف للمسجد كما عند أبي داود (٣٠٢٦) من طريق الحسن، عن عثمان بن أبي العاص. وأصح ما جاء في هذا الباب: هو ربط ثمامة بن أثال في المسجد لما أتى به إليه أسيراً، كما في البخاري (٤٦٩)، ومسلم (١٧٦٤).



وقوله: (هوان...) إلى آخره: الهوانُ: الذلَّةُ والصَّغارُ^(١)، فقد أخزاهم الله بما ألزمهم من الذلَّةِ والصَّغارِ؛ بالقتلِ والأسْرِ والسَّبيِ وأخذِ الجزيةِ.



(١) ينظر: «لسان العرب» (١٣/٤٣٨).

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿البقرة: ١١٥﴾

بعدما ذكر الله ما يدلُّ على فضل المساجد فقد أضافها إلى نفسه تعالى وذمَّ وتوعَّد المانعين لها أن يُذكر فيها اسمه، والمساجد مواضع الصلاة، أخبر تعالى في هذه الآية بسعة ملكه، فله المشرق والمغرب، فإلى أيِّ جهةٍ وجَّه المصلي فهناك جهةُ القبلة إذا كان قد أمر الله بها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾؛ أي: قبلة الله، وعلى هذا فليست الآية من آيات الصفات؛ لأنَّ المراد بالوجه: «الجهة»^(١).

وقيل: المراد بالوجه: ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ الذي هو صفته الموصوف بالجلال والإكرام، ويدل لهذا المعنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يَصْلِي، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَبْلَ وَجْهِهِ، فَلَا يَبْصُقَنَّ قَبْلَ وَجْهِهِ))^(٢)، وعلى هذا فالآية من آيات الصفات؛ لأنها دالَّةٌ على إثبات الوجه لله تعالى^(٣)، والآية تحتل القولين، والقول الأوَّل هو قولُ جمهور المفسرين^(٤)، وهو الذي يدلُّ عليه

(١) وإلى هذا القول ذهب شيخ الإسلام. ينظر: «بيان تلبس الجهمية» (٧١/٦) وما بعدها، و«جامع المسائل» (١٩٣-١٩٤/٨)، و«مجموع الفتاوى» (٤٢٨-٤٢٩/٢)، (١٩٣/٣)، (١٧-١٥/٦).

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٠٨) عن جابر بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٤٠٦)، (٧٥٣) ومسلم (٥٤٧) عن ابن عمر بنحوه.

(٣) عامة أهل الإثبات جعلوا هذه الآية من آيات الصفات وذكروها مع نصوص الوجه، وحكاها الطبري عن بعض أهل التفسير. ينظر: «تفسير الطبري» (٣٥٩/٢)، و«النفص على المريسي» (٢١٦-٢١٧/١)، (٧٠٤/٢) (٧٠٥/٢)، (٧٥١/٢)، و«التوحيد» لابن خزيمة (٢٥/١)، و«الإبانة» لابن بطة (٣١٩/٧)، و«الحجة في بيان المحجة» (١١٣/١)، و«مختصر الصواعق» (١٠١٠-١٠٢٤/٣)، و«تفسير السعدي» (٨٧/١)، و«تفسير الفاتحة والبقرة» للعثيمين (١٣/٢-١٤).

(٤) قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وعكرمة والشافعي. ينظر: «تفسير الطبري» (٤٥٩/٢)، و«تفسير ابن كثير» (٣٩١/١) و«الأسماء والصفات» للبيهقي (١٠٦/٢-١٠٧).

السياق، ويشهد لهذا قوله تعالى في شأن تحويل القبلة: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتَهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]. وينبغي أن يعلم أن اختلاف المفسرين من أهل السنة في تفسير الوجه في الآية لا يستلزم اختلافهم في إثبات الوجه صفة لله تعالى؛ فإن أهل السنة مجمعون على إثبات وجه الله تعالى؛ للأدلة على إثباته من الكتاب والسنة، وإن اختلفوا في عد هذه الآية من جملة تلك الأدلة.

ونزل لَمَّا طعن اليهودُ في نسخ القبلة أو في صلاة النافلة على الراحلة في السفر حيثما توجَّهت: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: الأرض كلها؛ لأنهما ناحيتاها ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ وجوهكم في الصلاة بأمره ﴿فَتَمَّ﴾ هناك ﴿وَجَهَ اللَّهُ﴾ قبلته التي رضيها ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ يسع فضله كل شيء ﴿عَلِيمٌ﴾ بتدبير خلقه.

وقول المؤلف: (ونزل لَمَّا طعن اليهود... إلى آخره: يُشير بذلك إلى سبب نزول الآية^(١)). وقوله: (وجوهكم في الصلاة بأمره): فيه بيان مفعول ﴿تُوَلُّوا﴾، والحال التي يتعلَّق بها هذا الأمر، وهي: الصلاة، وأنَّ تعيين القبلة بأمر الله.

وقوله: (هناك): بيان لمعنى «تَمَّ»، وأنه اسم إشارة للبعيد؛ فـ «تَمَّ» و«هناك» معناهما واحدٌ، والمشار إليه هو الناحية من المشرق أو المغرب أو غيرهما التي وجه المصلي إليها وجهه.

(١) جاء هذا عن ابن عباس في رواية علي بن طلحة عنه. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٤٥٠)، و«أسباب النزول» (ص ٣٩)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/٣٦٥).

وقوله: (قبلته التي رضيها): هذا قول جمهور السلف، ويفرّح به أهل التأويل من نفاة الصفات؛ لاعتقادهم أنّ الوجه في الآية كالوجه في قوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]. وهم لا يثبتون الوجهَ لله تعالى، فظنوا أنّ تفسير الوجه في الآية بالقبلة من التأويل، وليس الأمر كما يظنون، فالوجه في الآية عند مَنْ فسّره بالقبلة بمعنى الجهة؛ وهذا صحيح في اللغة، وعلى هذا فلا تكون الآية من آيات الصفات، وقال بعض المفسرين: هي من آيات الصفات، فتكون كقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾، والراجع: القول الأول.

وقوله: (يسع فضله كلّ شيء): فسّر الواسع من أسماء الله بسعة الفضل؛ وهو الجود والعطاء، واسم الله «الواسع»: معناه أوسع من ذلك، فيدخل فيه سعة الفضل والرحمة والعلم والقدرة والملئ^(١).

وقوله: (بتدبير خلقه): هذا حق؛ لكن لو قال: بكلّ شيء كان أولى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].



(١) ينظر: «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ٧٢)، و«شأن الدعاء» للخطابي (ص ٧٢)، و«المقصد الأسنى» للغزالي (ص ١١٩).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ۗ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ ۖ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧]:

يُخْبِرُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ عَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَشْرِكِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، فَالْيَهُودُ قَالُوا: عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ، وَالنَّصَارَى قَالُوا: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَالْمَشْرِكُونَ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ؛ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنْهُمْ، ثُمَّ سَبَّحَ نَفْسَهُ عَنْ قَوْلِ الْمَفْتَرِينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَشْرِكِينَ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْبِرْهَانَ الْعَقْلِيَّ عَلَى امْتِنَاعِ أَنْ يَكُونَ لَهُ سُبْحَانَهُ وَلَدٌ؛ فَأَخْبَرَ عَنِ مُلْكِهِ لِلْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَقَنُوتِ الْعَوَالِمِ لَهُ، وَأَنَّهُ الْمَبْدَعُ لِلْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ يَعْنِي الْمُبْتَدِئُ لِخَلْقِهِمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ أَمْرًا فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ كَمَا أَرَادَ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ الْأَرْبَعَةُ تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ غِنَاهُ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ وَمُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، فَعَلِمَ أَنْ لَوْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ لَكَانَ مَخْلُوقًا، وَلَمْ يَكُنْ وَلَدًا إِلَّا بِالْإِصْطِفَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤]، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ۗ هُوَ الْغَنِيُّ ۗ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

﴿وَقَالُوا﴾ بَوَاوُ وَدُونَهَا أَي: الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ عَنْهُ ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مَلَكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا، وَالْمَلَائِكَةُ تَنَافَى الْوِلَادَةِ. وَعَبَّرَ بِ «مَا» تَغْلِييًا لِمَا لَا يَعْقِلُ ﴿كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ مُطِيعُونَ، كُلُّ بِمَا يُرَادُ مِنْهُ، وَفِيهِ تَغْلِيِبُ الْعَاقِلِ. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُوجِدُهُمَا لَا عَلَى مِثَالٍ

سَبَقَ ﴿وَإِذَا قَضَىٰ﴾ أراد ﴿أَمْرًا﴾ أي: إيجاده ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾
أي: فهو يكون، وفي قراءة بالنصب جوابًا للأمر.

وقول المؤلف: (بواو ودونها): يُشير إلى قراءتين بإثبات واو العطف وحذفها^(١).

وقوله: (أي: اليهود...) إلى آخره: يريد أن واو الجمع في ﴿قَالُوا﴾ راجعة إلى الطوائف الثلاث.

وقوله: (تنزيها...) إلى آخره: يريد أن معنى ﴿سُبْحَانَهُ﴾: تنزيه لله عن الولد.

وقوله: (والملكية تنافي الولادة): يُبين وجه أن ملكه تعالى للسموات والأرض دليل على امتناع أن يكون لله ولد.

وقوله: (وعبر بـ (ما)...) إلى آخره: يريد أن الله أخبر عن أهل السموات والأرض بما التي هي في اللغة لغير العاقل على وجه التغليب^(٢).

وقوله: (مطيعون): تفسير لقوله: ﴿قَاتِنُونَ﴾، معناه: جميع أهل السموات والأرض مطيعون لله؛ أي: مُنقادون لحكم الله ومُقرّون بالعبودية له طوعاً أو

كرهاً كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، وهذا دليل على امتناع أن يكون لله ولد؛ إذ من الممتنع أن يكون العبدُ ولداً لسيده، ولذا فإنَّ كلَّ مَنْ قيل أنه ولدُ الله فهو عبدٌ لله، وشواهد هذا في القرآن كثيرة؛ كما في سورة النساء ومريم والأنبياء.

(١) قرأ ابن عامر وحده: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ بغير واو، وقرأ الباقر بالواو. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٨)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٢٠).

(٢) ينظر: «الدر المصون» (٢/ ٨٣)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٦٨٥).

وقوله: (كُلُّ بِمَا يُرَادُ مِنْهُ): يريد أن كلَّ أحدٍ من أهل السماوات والأرض قانتٌ؛ أي: مطيعٌ بما يُراد منه.

وقوله: (وفيه تغليبُ العاقل): يريد أن جمعَ المذكر السالم في قوله: ﴿قَانِتُونَ﴾ والأصل أنه يختصُّ بالعاقل، وقد وصف به أهل السماء والأرض؛ لذلك قال المؤلِّف: (وفيه تغليبُ العاقل). وقوله: (إيجاده): يُشير إلى أن قوله: ﴿أَمْرًا﴾ على تقدير حذف مُضاف؛ المعنى: إذا أراد إيجادَ أمرٍ؛ أي: شيءٍ.

وقوله: (فهو يكون...): إلى آخره: يُبين أن في ﴿يَكُونُ﴾ قراءتين: الرفعُ والنصبُ^(١)، فعلى قراءة الرفعِ الفعل خبرٌ مبتدأً محذوف؛ قدره المؤلِّف: (فهو يكون)، وعلى قراءة النصبِ فالفعلُ جوابُ الأمرِ في قوله: كن، والفعلُ منصوبٌ بـ«أن» بعد الفاء.



(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٨)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٢٠).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ [البقرة: ١١٨]:

يُخبر تعالى عن الذين لا يعلمون؛ وهم المشركون الذين لا كتاب لهم ككفار قريش؛ أنهم قالوا على وجه التعنت والعناد للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ فنسمع كلامه ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ خارقة تدل على أنك رسول كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، قال الله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، وكذلك قول بني إسرائيل لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، قال الله تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: في عدم الإيمان والانقياد، فتشابهت أقوالهم، ثم قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾: أي أوضحنا وفصلنا الآيات المبينة للحق بينها ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وهم الذين يستمعون لها ويتدبرونها فيؤمنون ويوقنون بما دلت عليه، وهؤلاء هم المنتفعون بآيات الله ولذا خصوا بالذكر.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: كفار مكة للنبي ﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أنك رسوله ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ مما اقترحناه على صدقك ﴿كَذَلِكَ﴾ كما قال هؤلاء ﴿قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم الماضية لأنبيائهم ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ من التعنت وطلب الآيات ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الكفر والعناد، فيه تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعلمون أنها آيات فيؤمنون، فاقترح آية معها تعنت.



وقول المؤلف: (هَلَّا): تفسيرٌ لقولهم: ﴿لَوْلَا﴾؛ فـ«لولا» و«هلا» معناهما التحضيضُ على حصول المطلوب^(١).



(١) ينظر: «حروف المعاني» للزجاجي (ص ٣-٥)، و«الجنى الداني» (ص ٦٠٥) (ص ٦١٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ

﴿البقرة: ١١٩﴾

يُخبر تعالى نبيه مُسلياً له بأنه مُرسلٌ بالحق؛ أي: بالصدق والعدل، بالهدى ودين الحق؛ أي: العلم النافع والعمل الصالح، وأن الله أرسله بشيراً لمن آمن به بثواب الله ونذيراً لمن كفر به من عذاب الله، ويُخبر الله نبيه أنه غيرُ مسؤول عن الكافرين أصحاب الجحيم بعد تبليغهم رسالات الله، فما على الرسول إلا البلاغ المبين.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ بِالْحَقِّ﴾ بالهدى ﴿بَشِيرًا﴾ من أجاب إليه بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ من لم يُجِبْ إليه بالنار ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ النار؛ أي: الكفار ما لهم لم يؤمنوا إنما عليك البلاغ، وفي قراءة بجزم ﴿تَسْأَلُ﴾ نهياً.

وقول المؤلف: (وفي قراءة... إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ قراءتين؛ إحداهما: بضم التاء بالبناء للمفعول ولا نافية، والفعل المضارع مرفوعٌ، والمعنى: لا يسألك الله عن إيمان من كفر بك فليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، وهذه قراءة الجمهور، والجملة على هذه القراءة خبرية، والقراءة الثانية بفتح التاء، وجزم الفعل المضارع، ولا ناهية فتكون؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: ٣٧]، والجملة على هذه القراءة طلبية^(١)، وضَعَفَ ابنُ جرير هذه القراءة لفظاً ومعنى^(٢).



- (١) قرأ نافع ويعقوب ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ [١١٩] بالجزم على النهي. وقرأ الباقون ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ بضم التاء ورفع اللام على الخبر. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٦٩)، و«المبسوط» (ص ١٣٥)، و«النشر» (٢/ ٢٢١).
- (٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٤٨١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنْ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠]:

هذا خبرٌ من الله لنبيه على إصرار اليهود والنصارى على تكذيبهم بنبوته، وحرصهم على إضلاله وأنه لا يُرضيه منهم إلا أن يتبعهم على مِلَّتِهِمْ بناءً على زعمهم أنهم هم الذين على الهدى كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، وسيأتي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥].

ثم أمر الله نبيه أن يقول: ﴿إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ الذي أنزله في كتبه وأرسل به رُسُلَهُ ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾؛ أي: الدين الحق، لا ما خالفه من الأديان الباطلة والشرائع المُحدثة، ثم حذّر الله نبيه من اتباع أهوائهم بطاعتهم فيما يدعون إليه، وأخبر تعالى خبراً مؤكداً أنه إن فعل ذلك بعد الذي جاءه من العلم، ومنه العلم بكفرهم وضلالهم وبطلان الدين الذي هم عليه كما تقدّم في الآيات السابقة إن فعل ذلك؛ فما له من الله من وليٍّ ولا نصيرٍ يمنعه من الله إن أراد أن يُحلَّ به عقابه على اتباع أهواء اليهود والنصارى.

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ دينهم
﴿قُلْ إِنْ هُدَىٰ اللَّهُ﴾ الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ وما عداه ضلالٌ ﴿وَلَئِنْ﴾ لام
قسم ﴿اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي يدعونك إليها فرضاً ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ
الْعِلْمِ﴾ الوحي من الله ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يحفظك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾
يمنعك منه.

وقول المؤلف: (وما عداه ضلالٌ): أي ما عدا الإسلام من الأديان ضلالٌ، وهذا المعنى مُستفادٌ من الحصر كما يدلُّ عليه تعريفُ الطرفين في قوله: ﴿هُوَ الْهُدَى﴾^(١).

وقوله: (فرضاً): يُريد أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ذكر على سبيل الفرض والتقدير؛ لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصومٌ، فاتباعه لِمَلَّتْهُمْ مَمْتَعٌ لعصمته.

وقوله: (الوحي من الله): يُريد عِلْمَ النبوةِ الشامل لمعرفة الحق من الباطل من العلوم والأعمال. وقوله: (يحفظك...) إلى آخره: يُبينُ بهذا الفرق بين الولي والنصير، فالوليُّ هو الذي يقوم بمصالح مَنْ وِليهِ، والنصيرُ هو الذي يدفع عنه المضار، ويمنعه ممَّن يريد به بسوء، فبين الوليِّ والنصيرِ عمومٌ وخصوصٌ من وجه، لكنَّ الوليَّ أخصُّ بجلب المنافع وحفظ المصالح، والنصيرَ أخصُّ بدفع المضار^(٢)؛ فالمعنى: فمتى فعلت ما نُهيَّتَ عنه حقَّ عليك عقابُ الله، وما لك من الله من وليٍّ يحفظك ولا نصير ينصرك ويمنعك من عذاب الله، وهذه الآيةُ نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا لَأَذْقَنَّكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].



- (١) ينظر: «البحر المحيط» (١/٥٩٠)، و«التحرير والتنوير» (١/٦٩٤).
- (٢) ذكر هذا الفرق: السعدي، والعثيمين. ينظر: «تفسير السعدي» - سورة الأحزاب - (١٤٠٢/٥)، و«تفسير سورة الفاتحة والبقرة» لابن عثيمين (٢/٣١). وقال ابن فورك في تفسيره (١/٣٨٥): «الولي الذي يدفع المكروه عن الإنسان، والنصير الذي يأمر بدفعه عنه»، وقال البيضاوي (١/١٠٠): «والفرق بين الولي والنصير: أن الولي قد يضعف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبيًّا عن المنصور؛ فيكون بينهما عموم من وجه».

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]:

هذا خبرٌ من الله -تعالى- عن طائفةٍ من أهل الكتاب -وهو التوراة- بأنهم يقرؤونه ويتبعونه بالعمل بما فيه من الأحكام، وهؤلاء هم المؤمنون به حقاً، وهذا من العام الذي أريد به الخصوص؛ لأنَّ الذين هذه صفتهم بعضُ أهل الكتاب، ثم أخبر تعالى عن الذين يكفرون بالكتاب لأنهم الخاسرون، فعلم بذلك أنَّ الذين يتلونه حقَّ تلاوته هم الرَّابحون.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ مبتدأ ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ يقرؤونه كما أنزل - والجملة حال و«حق» نصبٌ على المصدر - والخبر: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ نزلت في جماعةٍ قدموا من الحبشة وأسلموا ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: بالكتاب المؤتى بأن يُحرِّفه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم.

وقول المؤلف: (يقرؤونه كما أنزل): هذا أحدُ التفسيرين للتلاوة في هذه الآية^(١)، والثاني: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: يتبعونه حقَّ اتباعه^(٢).

(١) نقله الطبري عن بعض أهل التفسير، وروي بنحوه عن عمر بن الخطاب وزيد بن أسلم. ينظر: «تفسير الطبري» (٤٩٢/٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢١٨/١)، (٢١٩/١).
 (٢) وهو قول ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد، وجمهور المفسرين. ينظر: «تفسير الطبري» (٤٨٧/٢-٤٩٣)، و«تفسير الماوردي» (١٨٢/١)، و«تفسير ابن كثير» (٤٠٣/١).

وقوله: (والجملة حال): هذا أحد الوجهين في إعرابها، وعليه فجملة: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾؛ خبر المبتدأ كما ذكره المؤلف، والثاني: أن جملة: ﴿يَتْلُونَهُ﴾ خبر المبتدأ، وعليه فجملة: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾؛ مستأنفة^(١).

وقوله: (نصب على المصدر): لأنه مضاف إلى مصدر؛ وهو التلاوة حق تلاوته، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ لأن المعنى: يتلونه تلاوة حقًا.

وقوله: (أي: بالكتاب المؤتى بأن يحرفه): تفسير للضمير المجرور في قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾؛ وهو التوراة على ما اختاره ابن جرير^(٢).

وقوله: (لمصيرهم...) إلى آخره: لا ريب أن المصير إلى النار أعظم خزي وأعظم خسار.



(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/٢٠٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/٧٦)، و«البحر المحيط» (١/٥٩١-٥٩٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٤٨٦)، وهو قول عبد الرحمن بن زيد.

وقوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة: ١٢٢-١٢٣]:

تقدّم نظير هاتين الآيتين «٤٧» و«٤٨»؛ أمّا الآية الأولى فتقدّم مثلها بلفظها ومعناها، وأمّا الآية الثانية فتقدّمت بقريب من لفظها ومعناها، ومن الفرق بينهما أنّ النفس المنفّية عنها قبول الشفاعة وأخذ العدل في الآية الأولى هي النفس الجازية، والنفس المنفّية عنها قبول العدل ونفي نفع الشفاعة في الآية الأخيرة هي النفس المجزي عنها، ويظهر ذلك بعود الضمائر، وما سوى ذلك قد تقدّم عند ذكر الآيتين «٤٧» و«٤٨»، ويلاحظ أنّ هاتين الآيتين «١٢٢»، «١٢٣» ختم بهما خطابُ بني إسرائيل والخبرُ عنهم، فُخِمت الآياتُ في ذلك بمثل ما بدئت به من قوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ تقدّم مثله ﴿واتقوا﴾ خافوا ﴿يومًا لا تجزي﴾ تغني ﴿نفسٌ عن نفسٍ﴾ فيه ﴿شيئًا ولا يقبل منها عدلٌ﴾ فداء ﴿ولا تنفعها شفاعةٌ ولا هُم يُنصرون﴾ يمنعون من عذاب الله.



وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۗ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۗ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۗ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَنَخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٤-١٢٥].

يُذَكِّرُ اللَّهُ نَبِيَّهَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ ابْتَلَىٰ خَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ بِكَلِمَاتٍ تَتَضَمَّنُ أَوْامِرًا وَنَوَاهِي، فَأَتَمَّهُنَّ إِبْرَاهِيمُ بِالْعَمَلِ بِهَا، فَجَزَاهُ اللَّهُ بِأَنْ جَعَلَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا يُتَّبَعُ وَيُقْتَدَىٰ بِهِ فِي طَاعَتِهِ لِلَّهِ وَشُكْرِهِ لِنِعْمِهِ.

وقد اختلف المفسرون في تعيين المراد بالكلمات التي ابتلي بها إبراهيم اختلافًا كثيرًا حكاه ابن جرير، ومما قيل في ذلك: أنها المناسك، أو أنها خصال الفطرة، واختار ابن جرير أنه لا يجوز الجزم بأن المراد جميع ما ذكر من الأقوال، ولا الجزم بتعيين بعضها، فكل ذلك مُحْتَمَلٌ، والله أعلم بما أراد^(١).

فسأل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أُمَّةً فَوَعَدَهُ اللَّهُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ هَذَا الْوَعْدُ الَّذِي سَمَّاهُ اللَّهُ عَهْدًا لَا يَنَالُ الظَّالِمِينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، فَلَا يَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِمَامًا إِلَّا مِنَ الصَّالِحِينَ الْمُحْسِنِينَ، وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ صَدَقَ وَعْدَهُ لَخَلِيلِهِ فَجَعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أُمَّةً؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايِلَتِنَا لُوقُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

ثُمَّ يُذَكِّرُ تَعَالَىٰ بِنِعْمَةٍ أُخْرَىٰ عَلَىٰ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَلَىٰ أَتْبَاعِهِ، وَهُوَ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مَثَابَةً لِلنَّاسِ يَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ حُجَّاجًا وَعُمَرَاءَ، وَجَعَلَهُ سَبِيًّا لِأَمْنِ كُلِّ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْحَرَمِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ دَعَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٤٩٨-٥٠٧).

ثم أمر سبحانه المرتادين لهذا البيت أن يتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلَّى؛ أي: يُصَلُّوا عنده، وهو الْحَجْرُ الَّذِي كَانَ يَقُومُ عَلَيْهِ عِنْدَ بِنَائِهِ لِلْبَيْتِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وَلَمَّا فَرَّغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَوَافِ الْقُدُومِ فِي حُجَّتِهِ أَتَى الْمَقَامَ فَصَلَّى عِنْدَهُ وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (١).

ثم أخبر سبحانه أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من الأقدار والأنجاس الحسّية والمعنوية ليكون مهيباً للطائفين به والعاكفين والمصلّين عنده؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾، وَمَعْنَى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾: أَمَرْنَاهُمَا، وَعَدِي الْفِعْلُ بِـ «إِلَى»؛ لِأَنَّهُ مُضْمَنٌ مَعْنَى: أَوْحَيْنَا؛ فَالْمَعْنَى: أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمَا الْأَمْرَ بِتَطْهِيرِ الْبَيْتِ، وَ«أَنَّ» فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ طَهِّرَا﴾: تَفْسِيرِيَّةٌ، وَهِيَ الَّتِي تَأْتِي بَعْدَ الْقَوْلِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ.

﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ ابْتَلَىٰ﴾ اخْتَبَرَ ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ إِبْرَاهِيمَ ﴿رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ بِأَوْامِرٍ وَنَوَاهٍ كَلَّفَهُ بِهَا؛ قِيلَ: هِيَ مَنَاسِكُ الْحَجِّ، وَقِيلَ: الْمَضْمُضَةُ وَالِاسْتِنشَاقُ وَالسَّوَاكُ وَقَصُّ الشَّارِبِ وَفَرْقُ الرَّأْسِ وَقَلْمُ الْأَظْفَارِ وَنَتْفُ الْإِبْطِ وَحَلْقُ الْعَانَةِ وَالخِتَانُ وَالِاسْتِنجَاءُ ﴿فَاتَّمَّهُنَّ﴾ أَدَاهُنَّ تَامَّاتٌ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قُدُوةً فِي الدِّينِ ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أَوْلَادِي اجْعَلْ أُمَّةً ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي﴾ بِالْإِمَامَةِ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَنَالُ غَيْرَ الظَّالِمِ. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ الْكَعْبَةَ ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مَرْجَعًا يَثُوبُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿وَأَمَّنَّا﴾ مَأْمَنَّا لَهُمْ مِنَ الظُّلْمِ وَالْإِغَارَاتِ الْوَاقِعَةِ فِي غَيْرِهِ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ فِيهِ فَلَا يُهَيِّجُهُ ﴿وَاتَّخِذُوا﴾

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أيها الناس ﴿مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ هو الْحَجَرُ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ عِنْدَ بِنَاءِ الْبَيْتِ ﴿مُصَلِّي﴾ مَكَانَ صَلَاةٍ بِأَنْ تَصَلُّوا خَلْفَهُ رَكْعَتِي الطَّوَافِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الْخَاءِ خَبِرَ ﴿وَعَهْدَنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أَمْرُهُمَا ﴿أَنْ﴾ أَي: بِأَنْ ﴿طَهَّرَا بَيْتِي﴾ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ الْمَقِيمِينَ فِيهِ ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ جَمْعُ رَاكِعٍ وَسَاجِدٍ: الْمَصَلِّينَ.

وقول المؤلف: (اذكر): هذا تقديرٌ لمتعلق الظرف، وقد تقدّمت الآياتُ نظيرَ هذا كثيراً، وأول ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]. وقوله: (اختبر): تفسيرٌ للابتلاء بالاختبار، وهو كثيرٌ في القرآن، وأكثر ما يردُّ من تصاريف الفعل الثلاثي: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، ﴿وَنَبَلُّوكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿لَهُوَ الْبَلَاءُ﴾ [الصفات: ١٠٦].

وقوله: (قدوة في الدين): المعنى يقتدي به من بعده من النبيين والصالحين في التوحيد وطاعة الله والبراءة من المشركين حتى أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقد أخبر تعالى بتحقيق هذه الإمامة في إبراهيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]، فمعنى ﴿أُمَّةً﴾: أَي إِمَامًا وَقِدْوَةً^(١).

وقوله: (أولادي...) إلى آخره: معناه أَنَّ إِبْرَاهِيمَ دَعَا رَبَّهُ كَمَا جَعَلَهُ إِمَامًا أَنْ يَجْعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أُمَّةً فَيَدُومَ الْخَيْرُ وَيَعْمُ. وقوله: (بالإمامة) معناه: أَنَّ عَهْدَ اللَّهِ بِالْإِمَامَةِ - وَهُوَ جَعَلَهُ مَنْ يَشَاءُ إِمَامًا - لَا يَصِلُ لِظَالِمٍ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّمَا يَجْعَلُ الْإِمَامَةَ فِي الصَّالِحِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

(١) ينظر: «الوجوه والنظائر» لمقاتل بن سليمان (ص ٤٨)، و«نزهة الأعين النواظر» (ص ١٤٤).

وقوله: (الكافرين منهم): تفسيرٌ للظلم بالكفر، وهذا هو الأكثرُ في القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ -أي: دعوت غير الله- ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

وقوله: (دلَّ على أنه ينال غير الظالم): هذا من الاستدلال بمفهوم الصفة^(١)، وهو الصحيحُ. وقوله: (الكعبة): فسَّرَ البيتَ بالكعبة، والبيتُ والكعبةُ والمسجدُ الحرامُ يختلفُ معناها في المواضع التي وردت في القرآن؛ فتارةً يُراد بالبيت الكعبة نفسها؛ كقوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وتارةً يُرادُ به الكعبة وما حولها من المسجد؛ كقوله تعالى: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وتارةً يُرادُ بالكعبة جميع الحرم؛ كقوله تعالى: ﴿هَدْيًا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وتارةً يُرادُ بالبيت الكعبة وما حولها من المسجد وجميع الحرم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]، وتارةً يُرادُ بالمسجد: المصلَّى حول الكعبة؛ كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لا تُشَدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد؛ المسجد الحرام...)) الحديث^(٢)، وقيل: جميع الحرم، والأولُ أظهر^(٣)، وقد يُرادُ بالمسجد الحرام جميع الحرم؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وقد يُرادُ المصلَّى حول الكعبة وجميع الحرم؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١].

(١) وهو دلالة النص الذي قيد فيه الحكم بصفةٍ على انتفاء الحكم عما انتفت عنه هذه الصفة، وأثبتته الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وجماعة من الفقهاء والمتكلمين وأهل العربية، ونفاه أبو حنيفة وأصحابه وابن سريج والقفال والشاشي. ينظر: «الإحكام» للآمدني (٣/ ٧٢)، و«روضة الناظر» (٢/ ٧٩٣-٧٩٥)، و«البحر المحيط في أصول الفقه» (٥/ ١٥٥)، و«إرشاد الفحول» (٢/ ٧٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «فتح الباري» (٣/ ٦٤).

وقوله: (مرجعاً يثوبون إليه من كلِّ جانب): مثابٌ ومثابةٌ: مصدرٌ ميميٌّ من ثاب؛ بمعنى: رجع، وسُمِّيَ البيتُ مثابةً؛ لأنَّ النَّاسَ كلَّما سافروا عنه رجعوا إليه حاجين أو معتمرين^(١)؛ فالمعنى: واذكروا حين جعلنا البيتَ مثابةً للناس. وقوله: (مأمناً): أي مكاناً آمناً، وهو من التسمية بالمصدر.

وقوله: (أيها الناس): يُبَيِّنُ أَنَّ الْخِطَابَ عَامٌّ لِلنَّاسِ، ويدلُّ له قوله تعالى قبل ذلك: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: المؤمنين.

وقوله: (بفتح الخاء خبر...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ فِي: ﴿اتَّخِذُوا﴾ قراءتين بفتح الخاء، وكسر الخاء^(٢)، وبفتحها يكون الفعل ماضياً، والجملة خبرية، وبكسر الخاء يكون أمراً والجملة طلبية؛ لأنَّ الفعل يكون ماضياً، وبكسر الخاء يكون أمراً.

وقوله: (أي: بأن): هذا يقتضي أن تكون ﴿أَنَّ﴾ مصدرية، والأظهر أنها تفسيرية فلا يحتاج إلى تقدير حرف.



(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٦٣)، و«المفردات» للراغب (ص ١٨٠).

(٢) قرأ نافع وابن عامر: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بفتح الخاء، وقرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ بكسر الخاء على الأمر. ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ١٧٠)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/٢٢٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦]:

يُذَكِّرُ تعالى نبيه والمؤمنين مخبرًا لهم بدعاء خليله إبراهيم للبلد الحرام بأن يجعله آمنًا ويرزق أهله المؤمنين بالله واليوم الآخر من كل الثمرات، فأجاب الله دعاءه، وأخبر تعالى أن رزقه لا يختص بمن آمن بالله واليوم الآخر من أهل الحرم؛ بل يرزق من كفر منهم متاعًا قليلًا ثم يصير بكفره إلى النار وبئس المصير؛ فمعنى الآية: واذكروا حين قال إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ أي: هذا البلد كما في سورة إبراهيم «٣٥»، فاسم الإشارة هو المفعول الأول لـ ﴿اجْعَلْ﴾، و﴿بَلَدًا﴾ هو المفعول الثاني، و﴿آمِنًا﴾ صفة؛ أي: يأمن من يحل فيه مما يحصل لمن حوله من نهبٍ وقتلٍ؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقوله: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: أي التي تجلب إليهم من البلدان ذات العيون والبساتين؛ لأن مكة ليست ذات زرع وأشجار وثمار، وخصَّ عليه السلام بهذا الدعاء من آمن بالله واليوم الآخر؛ لأنهم الذين يستعينون بِنِعْمِهِ ورزقه على طاعته، ولكنه تعالى أخبر أنه يمتع برزقه من كفر متاعًا قليلًا ثم يجزيه على كفره بعذاب النار، فبين سبحانه أن رزقه في الدنيا يشمل البرَّ والفاجر والمؤمن والكافر.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ المكان ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ ذا أمن، وقد أجاب الله دعاءه فجعله حرماً لا يُسْفَكُ فيه دُمُ إنسان، ولا يُظْلَمُ فيه أحدٌ، ولا يُصَادُ صيده، ولا يُختلى خلاه ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وقد فعل، بنقل الطائف من الشام إليه، وكان أقفر لا زرع به ولا ماء ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ﴾

وَالْيَوْمَ الْآخِرُ ﴿ بدل من «أهله» وخصَّهم بالدعاء لهم موافقة لقوله: «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» ﴿ قَالَ ﴾ تعالى: ﴿ وَ ﴾ أرزُق ﴿ مَنْ كَفَرَ فَأَمَّتَّعَهُ ﴾ بالتشديد والتخفيف، في الدنيا بالرزق ﴿ قَلِيلًا ﴾ مدَّة حياته ﴿ ثُمَّ أَضْطَرَّهُ ﴾ ألجئه في الآخرة ﴿ إِلَى عَذَابِ النَّارِ ﴾ فلا يجد عنها محيصًا ﴿ وَبَشِّرَ الْمَصِيرِ ﴾ المرجع هي.

وقول المؤلف: (المكان): يُبَيِّنُ أَنَّ الْمَشَارَإِلِيهِ الْمَكَانَ، وَلَوْ قَالَ: الْبِلَادُ؛ لَكَانَ أَوْلَى؛ لِأَنَّهُ الْمَذْكُورُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ. وقوله: (ذا أمن...) إلى آخره: معناه: فِيهِ أَمْنٌ بِسَبَبِ حُرْمَتِهِ؛ فَلَا يُسْفَكَ فِيهِ دَمٌ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدٌ، وَلَا يُعْضَدُ شَجْرُهُ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي شَرِيحٍ^(١). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

وقوله: (وقد فعل...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ أَجَابَ دَعَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: (بِنَقْلِ الطَّائِفِ مِنَ الشَّامِ إِلَيْهِ): يَبْدُو أَنَّ هَذِهِ خِرَافَةٌ^(٢)، وَالصَّوَابُ: أَنَّ اللَّهَ أَجَابَ دَعَاءَهُ بِأَنْ جَعَلَ الثَّمَارَ تُجَبَّى إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٥٧].

وقوله: (بدل من أهله): أَي بَدَلُ بَعْضٍ مِنْ كُلِّ، وَهُوَ اسْمٌ مُّوَصُولٌ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ.

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٧)، (١٨٣٢) ومسلم (١٣٥٣)، (١٣٥٤).

(٢) ذكر عن هشام بن عبيد الله، عن محمد بن مسلم الطائفي قال: بلغني أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما دعا للحرم: ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ نقل الله الطائفة من فلسطين. ينظر: «تفسير الطبري» (٥٤٤/٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٢٣٠)، رقم (١٢٢٢).

وقوله: (وخصَّهم بالدعاء لهم...) إلى آخره: يعني أنَّ إبراهيمَ خصَّ من آمن بالله واليوم الآخر بالدعاء لهم بالرزق من الثمرات.

وقوله: (تعالى...) إلى آخره: يُبيِّن أنَّ معنى الجملة: قال الله تعالى: وَأَرْزُقْ مَنْ كَفَرَ كَمَا أَرْزُقْ مَنْ آمَنَ، لكنَّ مَنْ كَفَرَ أُمَّتُّهُ قَلِيلًا فِي الدُّنْيَا ثُمَّ أَضْطَرَّهُ إِلَى النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وقوله: (بالتشديد والتخفيف): يُشير إلى أنَّ في التاء من ﴿أُمَّتُّهُ﴾ قراءتين؛ بالتشديد: ﴿أُمَّتُّهُ﴾، والتخفيف: ﴿أُمَّتُّهُ﴾^(١).

وقوله: (مدَّة حياته): تفسيرٌ للقليل، ومتاعُ الدنيا قليلٌ مهما طالَّت مدَّتُه؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقوله: (أُلْحِثُّهُ فِي الْآخِرَةِ): معناه: أَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الْكَافِرَ النَّارَ بِدَفْعِ بَقْوَةٍ؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣].

وقوله: (المرجع هي): بيانٌ لمعنى المصير، وبيانٌ للمخصوص؛ فالمصير فاعل «بئس»، والمخصوص بالذم قوله: (هي).



(١) قرأ ابن عامر وحده ﴿فَأُمَّتُّهُ﴾ خفيفة من أُمَّتُّتْ، وقرأ الباقون ﴿فَأُمَّتُّهُ﴾ مشددة التاء من مَتَّعْتُ. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٧٠)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٢٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

[البقرة: ١٢٧-١٢٩]:

يُذَكِّرُ اللَّهُ -تعالى- نبيه والمؤمنين مخبراً لهم ببناء إبراهيم وإسماعيل البيت داعيين ربهما؛ أن يتقبل منهما، وأن يجعلهما مسلمين له، ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة له، وأن يريهما مناسكهما التي يتعبدان لله بها؛ وهي: مناسك الحج، وأن يتوب عليهما، ويبعث في ذريتهما رسولا منهم يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وقد أجاب الله دعاهما لأنفسهما وذريتهما، وأعظم ذلك بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصفة التي دعا بها إبراهيم وإسماعيل، وامتنَّ الله بذلك على المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فهدى الله به إلى الإسلام كثيراً من ذرية إسماعيل، فكان ذلك من إجابة الله لذلك الدعاء.

﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ﴾ الأُسُسَ أَوْ الجَدَرَ ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ بينه - مُتَعَلِّقٌ بـ «يرفع» - ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ عطف على إبراهيم يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ بناءنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ للقول ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالفعل. ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ﴾ مُنْقَادِينَ ﴿لَكَ وَ﴾ اجعل ﴿مِنَ ذُرِّيَّتِنَا﴾ أولادنا ﴿أُمَّةً﴾ جماعةً ﴿مُسْلِمَةً لَكَ﴾ ومن للتبعيض وأتى به لتقدم قوله له: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، ﴿وَأَرِنَا﴾ عَلَّمْنَا ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ شرائع

عبادتنا أو حجنا ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ سألاه التوبة مع عصمتها تواضعاً وتعليماً لذريتهما. ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي: أهل البيت ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ من أنفسهم، وقد أجاب الله دعاءه بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ القرآن ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ما فيه من الأحكام ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يُطَهِّرُهُمْ من الشُّرك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه.

وقول المؤلف: (اذكر): تقديرٌ لمتعلقِ الظرف؛ أي: «اذكر» أو «اذكروا» حين رفع إبراهيمُ وابنه إسماعيلَ قواعدَ البيت الذي هو الكعبة، وعبرَ بالمضارع عن الماضي خلافَ ما مرَّ في الآيات؛ لاستحضارِ الحالِ الماضية^(١)، ويُعبرُ عن ذلك النُّحاة بحكايةِ حالٍ ماضية.

وقوله: (الأسس أو الجُدُر): يُشيرُ بذلك إلى اختلافِ المفسرين في المراد بالقواعد؛ فقال بعضهم: المراد الأسس؛ وهي ما يلي الأرض مما يعتمدُ عليه البناء^(٢)، وقيل: الجُدُرُ جمعُ جِدَارٍ^(٣)، ورفع الأسس بإبرازها ورفع الجُدُر بتطويلها، وقد ذكر كثيرٌ من المفسرين عند هذه الآية في شأنِ بناءِ البيت رواياتٍ كثيرةً جُلُّها من الإسرائيليات إلا ما رواه البخاريُّ عن ابن عباس^(٤).

(١) ينظر: «الكشاف» (١/٣٣١)، و«تفسير الرازي» (٤/٥٠)، و«تفسير البيضاوي» (١/١٠٥).

(٢) قاله ابن عباس، واختاره: الفراء، وأبو عبيدة بن المثنى، والطبري، والزجاج، وغيرهم.

ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/٧٨)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/٥٤)، و«تفسير الطبري» (٢/٥٤٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٢٠٨).

(٣) قاله الكسائي. ينظر: «معاني القرآن» للكسائي (ص ٧٨)، و«تفسير البغوي» (١/١٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٢/١٢٠).

(٤) حديث رقم (٣٣٦٤)، وفيه: أن إبراهيم قال لإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا. وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مَرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا رْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الْحِجْر =

وقوله: (بينه): الجملةُ حاليةٌ؛ فالتقدير: يرفعُ القواعدَ حالَ بناءه للبيت.
 وقوله: (متعلق بـ «يرفع»): يريد أن الجار والمجرور من البيت مُتعلِّقٌ
 بفعل ﴿يَرْفَعُ﴾.

وقوله: (عطف على إبراهيم): يُبَيِّنُ أَنَّ ﴿إِسْمَاعِيلُ﴾ مرفوعٌ بالعطف على
 ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، وأنه فاعلٌ، فهو يرفعُ القواعدَ مع أبيه.
 وقوله: (يقولان): يُبَيِّنُ أَنَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا...﴾
 إلى آخره: مقولٌ قولٍ محذوفٍ في موضع نصبٍ على الحال من إبراهيم
 وإسماعيل.

وقوله: (بناءنا): تقديرٌ لمفعول ﴿تَقَبَّلْ﴾؛ المعنى: تقبَّلَ عملنا في بناء
 البيت.

وقوله: (للقول)، وقوله: (بالفعل): يريد أن يُفَرِّقَ بذلك بين مُتعلِّقِ السمعِ
 ومُتعلِّقِ العلمِ، فيناسب ما تقدَّم ذكره عن إبراهيم وإسماعيل من قولٍ وفعلٍ،
 ولو قال: السميع الدعاء، العليم بما في الأنفس؛ لكان أولى^(١).

وقوله: (مُنقادين): تفسيرٌ للإسلام بالمعنى اللغوي وهو الاستسلام
 والانقياد، وأمَّا معناه في الشرع: فهو الاستسلامُ لله وحده بعبادته وحده لا
 شريك له وبطاعته في أمره ونهيه.

وقوله: (اجعل): تقديرٌ للفعل المحذوف المعطوف على ﴿اجعلنا﴾
 مسلمين لك.

وقوله: (أولادنا): تفسيرٌ للذرية بالأولاد ليشمل البنين والبنات.

= فوضعه له فقام عليه، وهو بيني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿ربنا تقبل منا
 إنك أنت السميع العليم﴾ [البقرة: ١٢٧]، قال: فجعلنا بيننا حتى يدورا حول البيت وهما
 يقولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ [البقرة: ١٢٧].

(١) وهو كذلك عند الطبري والبغوي وابن عطية. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٥٦٤-٥٦٥)،
 و«تفسير البغوي» (١/ ١٥٠)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٣٥٠).

وقوله: (جماعة): هذا أحد معاني الأمة^(١)، وهو المناسب هنا.
 وقوله: (ومن للتبعيض): يُريد «من» التي في ﴿مَنْ ذُرِّيَّتَنَا﴾.
 وقوله: (وأتى به...) إلى آخره: أي أتى بـ «من» التي للتبعيض؛ يقول: أتى بالتبعيض موافقة لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].
 وقوله: (عَلَّمْنَا): تفسيرٌ للرؤية بالعلم؛ فجَعَلَ ﴿أَرَانَا﴾ من الرؤية العلمية لا البصرية، وهذا هو المناسب إذا أُريد بالمناسك الأعمال.
 وقوله: (شرائع عبادتنا أو حجنا): يُشير إلى أن المناسك قد يُراد بها جميع العبادات أو أعمال الحج خاصّة، وهذا الثاني أظهر^(٢).
 وقوله: (سألاه التوبة...) إلى آخره: يُبيِّن أن سؤال إبراهيم وإسماعيل التوبة ليس لذنوب وقعت منهما؛ لأنهما معصومان من الذنوب، فسؤالهما التوبة تواضعٌ منهما لله، واعترافٌ منهما بالتقصير في حقه تعالى، وليُقتدى بهما في ذلك^(٣).
 وقوله: (أي: أهل البيت): هذا تفسيرٌ للضمير المجرور في قوله: ﴿فِيهِمْ﴾ ولو قال: (أي: في ذريتنا)؛ لأنهم المذكورون في قوله: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ﴾، وهم: أهل البيت؛ لكان أولى؛ لأنّ تغيير العبارة يُؤهم أنهم شيء آخر.

وقوله: (من أنفسهم...) إلى آخره: أي من جنسهم ومن نسبهم وبلغتهم، وقد أجاب الله دعاء خليله إبراهيم فبعث الله محمداً خاتم النبيين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بعثه الله من بني هاشم من قريش من كنانة من بني إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛

(١) ينظر: «الوجوه والنظائر» للدماغاني (ص ١٠٠)، «نزهة الأعين النواظر» (ص ١٤٣).
 (٢) ومال إليه الطبري. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٥٧٠)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٣٥١).
 (٣) تنظر أوجه أخرى في: «تفسير الطبري» (٢/ ٥٧٢)، و«تفسير الرازي» (٤/ ٥٦)، و«تفسير الخازن» (١/ ٨١-٨٢).

كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قَرِيشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قَرِيشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ))^(١).

وقوله: (القرآن): بيان للمراد بالآيات؛ فالمعنى: يقرأ عليهم القرآن ويُعلمهم إياه ويبيِّن لهم ما فيه من الأحكام بقوله، وهذا البيان هو السنَّة، وهي الحكمة، فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ أي: القرآن والحديث^(٢).

وقوله: (يُطَهِّرُهُمُ مِنَ الشَّرْكِ): هذا أحدُ معاني يزكيهم، والثاني: يُرَبِّبُهُمْ بأحسن الأخلاق^(٣) التي أفضلها: إخلاصُ الدين لله، كما يُطَهِّرُهُمْ مِنْ رذَائِلِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي أَقْبَحَهَا الشَّرْكَ بِاللَّهِ.

وقوله: (الغالب): هذا أحدُ معاني العزيز، فيكون بمعنى القاهر، ومن معاني العزيز: القويُّ الذي لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ^(٤).

وقوله: (في صنعه) معناه: ذو حكمةٍ في خلقه للمخلوقات، وهو ذو حكمةٍ في أمره، فهو حكيمٌ في شرعه وقدره.



-
- (١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦) من حديث وائلة بن الأسقع.
- (٢) وهو قول قتادة والحسن وغيرهما. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٥٧٥-٥٧٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٢٣٧، رقم ١٢٦٢).
- (٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٥٧٧)، و«تفسير الماوردي» (١/١٩٢)، و«زاد المسير» (١١٣/١).
- (٤) ينظر: «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص ٢٣٧)، و«شأن الدعاء» (ص ٤٧)، و«نونية ابن القيم» (٤/٧١١، رقم الآيات ٣٢٦٢-٣٢٦٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ [البقرة: ١٣٠]:

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا أَحَدَ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ؛ أَي: يُعْرَضُ عَنْهَا زَاهِدًا فِيهَا فَيَتْرَكُهَا مُؤَثِّرًا لغيرها عليها، لَا أَحَدَ يَفْعَلُ ذَلِكَ ﴿مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾؛ أَي: سَفِهَتْ نَفْسَهُ فَآثَرَتْ الْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى، وَالشَّرَّ عَلَى الْخَيْرِ، وَالضَّارَّ عَلَى النَّافِعِ. ﴿وَمَنْ﴾: اسْمٌ اسْتِفْهَامٌ؛ مَعْنَاهُ: النَّفْيُ.

و﴿مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾: هِيَ إِخْلَاصُ الدِّينِ لِلَّهِ بِعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ خَيْرُ الْأَدْيَانِ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاهُ. و﴿نَفْسَهُ﴾: مَنْصُوبٌ عَلَى التَّمْيِيزِ، وَهُوَ مَحْوَلٌ عَنْ فَاعِلٍ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ اصْطَفَى إِبْرَاهِيمَ فِي الدُّنْيَا بِأَن جَعَلَهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا وَاتَّخَذَهُ خَلِيلًا، وَجَعَلَهُ إِمَامًا لِلنَّاسِ، وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ.

﴿وَمَنْ﴾ أَي: لَا ﴿يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فَيَتْرَكُهَا ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ جَهْلٌ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ يَجِبُ عَلَيْهَا عِبَادَتُهُ أَوْ اسْتِخْفَ بِهَا وَامْتَهَنَهَا ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ اخْتَرْنَاهُ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بِالرِّسَالَةِ وَالْخُلَّةِ ﴿وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الَّذِينَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى.

وقول المؤلف: (أي: لا): يُبَيِّنُ أَنَّ الاسْتِفْهَامَ إِنكَارِيًّا مَعْنَاهُ النَّفْيُ؛ فَالتَّقْدِيرُ: لَا يَرْغَبُ أَوْ لَا أَحَدٌ يَرْغَبُ.

وقوله: (فتركها): لِأَنَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ شَيْءٍ تَرَكَهُ. وقوله: (جهل أنها مخلوقة لله...) إِلَى آخِرِهِ: يُبَيِّنُ أَنَّ ﴿سَفِهَهُ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَدِّيًا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَازِمًا، وَتَقَدَّمَ أَنَّ الْأَصْلَ: سَفِهَتْ نَفْسَهُ، فَ﴿نَفْسَهُ﴾ فِي الْآيَةِ مَنْصُوبٌ عَلَى التَّمْيِيزِ مَحْوَلٌ عَنْ فَاعِلٍ.

وقوله: (اخترناه): لأنَّ معنى الاصطفاء الاختيار، وهو افتعالٌ من الصفو،

قُلبت فيه التاء طاءً لتقارب مخرجيهما.

وقوله: (بالرسالة والخلة): وأيضا الإمامة.



وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسَلِمْتُ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ [البقرة: ١٣١-١٣٣]:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَن وَقْتِ اصْطِفَائِهِ لِإِبْرَاهِيمَ، وَهُوَ حِينَ ﴿قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ﴾؛ أَي: اسْتَسْلِمَ بِكَمَالِ الطَّاعَةِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ، فَأَجَابَ إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ لِمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ وَأَمْرَهُ بِهِ؛ ﴿قَالَ أَسَلِمْتُ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وَهَذِهِ هِيَ الرِّبُوبِيَّةُ الْعَامَّةُ؛ وَهِيَ تَقْتَضِي الْاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَبِسَبَبِ هَذَا الْاسْتِسْلَامِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اصْطَفَاهُ رَبُّهُ وَابْتَلَاهُ لِيَرَفِّقَهُ فِي دَرَجِ الْكَمَالِ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَّى بِكَلِمَةِ الْإِسْلَامِ؛ وَهِيَ: ﴿أَسَلِمْتُ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣١﴾؛ وَهِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَوَصَّى بِهَا يَعْقُوبَ بَنِيهِ قَائِلِينَ: ﴿يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ﴾؛ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾؛ أَي: اثْبَتُوا عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ...﴾ الآية: خِطَابٌ مِنَ اللَّهِ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِصِيغَةِ الْاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ الَّذِي مَعْنَاهُ النَّفْيُ؛ فَإِنَّ ﴿أَمْ﴾ هِيَ: الْمَنْقُطَةُ الَّتِي تُفَسَّرُ بِ«بَل» وَالْاسْتِفْهَامُ؛ أَي: لَمْ تَكُونُوا شُهَدَاءَ؛ أَي: حَاضِرِينَ عِنْدَ يَعْقُوبَ حِينَ حَضَرَ الْمَوْتَ، وَحِينَ أَكَّدَ وَصِيَّتَهُ لِبَنِيهِ بِلُزُومِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لَهُمْ؛ أَكَّدَ ذَلِكَ بِسُؤَالِ بَنِيهِ عَمَّا يَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِهِ؛ لِيَعْلَمَ لُزُومَهُمْ لَوْصِيَّتِهِ وَيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ عَلَى ثَبَاتِهِمْ وَاسْتِقَامَتِهِمْ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَأَجَابُوهُ بِمَا يُثْلِجُ

صدره ويُقَرُّ عَيْنَهُ؛ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهِهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١٢٢)، وبهذا المشهد الذي كان فيه يعقوب وبنوه وما قال لهم وما قالوه له أبلغ ردّ على ما يزعمه اليهود والنصارى من أنّ يعقوب بل وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق على اليهودية أو النصرانية، كما يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يهودًا أَوْ نصرى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، فأكذبهم الله بما تضمّنته هذه الآيات من قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ وَمُسْلِمُونَ﴾^(١٢٢)، وبقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نصرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٦٧) [آل عمران: ٦٧].

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ وَمُسْلِمُونَ﴾^(١٢٢): قيل: الجملة معطوفة على جملة ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ﴾، وقيل: إنها حالٌ من فاعل ﴿نَعْبُدُ﴾^(١).

اذكر ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ انقذ لله وأخلص له دينك ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿وَوَصَّى﴾ وفي قراءة أوصى ﴿بِهَا﴾ بالملة ﴿إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾ بنيه قال: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ دين الإسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ نهى عن ترك الإسلام وأمر بالثبات عليه إلى مصادفة الموت. ولَمَّا قال اليهود للنبي: ألسنت تعلم أنّ يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية؟ نزل: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ حضوراً ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ﴾ إذ بدل من «إذ» قبله ﴿قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ بعد موتي ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ عدُّ إسماعيل من الآباء تغليباً، ولأنّ العمّ بمنزلة الأب ﴿إِلَهِهَا وَاحِدًا﴾ بدل من «إلهك»

(١) واستحسن الطبري أنه حال، وقيل غير ذلك. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٥٨٧)، و«الكشاف» (١/٣٣٣)، و«البحر المحيط» (١/٦٤٢-٦٤٣).

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ و«أم» بمعنى همزة الإنكار، أي: لم تحضروه وقت موته، فكيف تنسبون إليه ما لا يليق به!

وقول المؤلف: (اذكر): تقديرٌ لمتعلق الظرف ﴿إِذْ قَالَ﴾؛ فالمعنى: اذكر حين قال له ربُّه أسلم، وقيل: إنَّ الظرفَ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿أَضْطَفَى﴾ كما تقدّم، وهو أظهر.

وقوله: (انقد لله...) إلى آخره: بيانٌ لمعنى ﴿أَسْلِمَ﴾ و﴿أَسْلَمْتُ﴾، والإسلامُ لله هو الانقيادُ بكمال الطاعة وإخلاص العبادة.

وقوله: (وفي قراءة أوصى): معنى القراءتين واحد، ومعناها: العهدُ بالشيءِ والأمرُ به، إلّا أنَّ قراءة التشديد تدلُّ على التكرير؛ وهي الأكثرُ في القرآن وبها قرأ أكثرُ القراءة^(١).

وقوله: (بالملة): هذا بيانٌ لمرجع الضمير في قوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا﴾، وقد تقدّم ذكرها في قوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢)، وقيل: الضميرُ يعود على الكلمة^(٣)، وهي قول إبراهيم: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والمعنى واحد^(٤).

وقوله: (بنيه): يريد أنَّ المعنى: ووصى يعقوبُ بنيه.

(١) قرأ نافع وابن عامر: ﴿وَأَوْصَى﴾ على أفعل، وقرأ الباقر: ﴿وَوَصَّى﴾ بغير ألف على فَعَّل. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٧١)، و«النشر» (٢/ ٢٢٢).

(٢) قاله عكرمة، واختاره الزجاج. ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢١١)، و«زاد المسير» (١/ ١١٥).

(٣) وهو قول الكلبي ومقاتل، واختاره الطبري والزمخشري وابن عطية والقرطبي. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٥٨٢)، و«الكشاف» (١/ ٣٢٩)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٣٥٥)، و«تفسير القرطبي» (٢/ ١٣٥).

(٤) ينظر: «تفسير الراغب» (١/ ٣١٩).

وقوله: (قال): يُبَيِّنُ أَنَّ جَمَلَةَ ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ مقول قولٍ محذوف، وهو بيان لنص الوصية.

وقوله: (دين الإسلام): بيان للدين المصطفى كما يدلُّ له قوله: ﴿إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، ودين الإسلام هو دينُ الله الذي بعث به رُسُلُه وأنزل به كتبه. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقوله: (نهى عن ترك الإسلام...) إلى آخره: هذا تفسيرٌ لقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ المعنى: اثبتوا على الإسلام مدى الحياة، فيأتيكم الموتُ وأنتم عليه، وتُشبهه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وقوله: (ولما قال اليهود للنبي ألسنت تعلم أن يعقوب...) إلى آخره: تضمَّنَ ذكر سبب نزول هذه الآية، وهذا مشهورٌ في سبب نزول هذه الآية^(١)، وَيُصَدِّقُ معناه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١٤٠]، وقد أكذبهم الله بما ذكر من وصية إبراهيم ويعقوب.

وقوله: (حضوراً): أي لم تكونوا حضوراً عند موت يعقوب فتسمعوا وصيته لليهودية أو النصرانية كما تزعمون، وهو لم يوص إلا بالإسلام. وقوله: (بدل من إذ قبله): يريد أن ﴿إِذ﴾ في قوله: ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلٌ من ﴿إِذ﴾ في قوله: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾، وعلى هذا فوقت قول يعقوب لبنيه هو وقتُ حضور الموت.

وقوله: (عد إسماعيل من الآباء...) إلى آخره: الذي عدَّ إسماعيل من الآباء هم أبناء يعقوب؛ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾، ثم ذكروا إبراهيم

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحي (ص ٤١)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/٣٩٧).

وإسماعيل وإسحاق، وهذا جارٍ على لغة العرب، يجعلون العمّ بمنزلة الأب فيعدونه من جملة الآباء^(١)، ومن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُو^(٢) أَبِيهِ؟»^(٣).

وقوله: (بدل من إلهك): فيؤول المعنى: نعبدُ إلهًا واحدًا وهو إلهك وإله آبائك، وقيل: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ منصوبٌ على الحال من ﴿إِلَهَكَ﴾؛ وهي: حالٌ لازمة؛ بمعنى: أنه تعالى لم يزل ولا يزال إلهًا واحد^(٤).
وقوله: (وأمّ بمعنى همزة الإنكار...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ ﴿أُمَّ﴾ المنقطعة المتضمنة للاستفهام، وهو الاستفهام الإنكاري الذي يدلُّ على النفي، ولهذا قال المؤلف: ﴿أُمَّ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾؛ أي لم تحضروه.



- (١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٨٧/٢).
(٢) الصنو: المثل، وأصله أن تطلع نخلتان من عرق واحد؛ يريد أن أصل العباس وأصل أبي واحد، وهو مثل أبي أو مثلي. «النهاية» (٥٧/٣).
(٣) أخرجه مسلم (٩٨٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢١٢/١)، و«مشكل إعراب القرآن» لمكي (١١٢/١)، و«الدر المصون» (١٣١-١٣٢).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]:

الإشارة إلى أمة إبراهيم وبنيه ويعقوب وبنيه، يُخبر تعالى عنهم بأنهم أمة قد خَلَتْ؛ أي: مَضَتْ، فَقدِمُوا على ما قَدَّمُوا من أعمالهم الصالحة، فلهم ما كسبوا من ثواب أعمالهم الصالحة مختص بهم لا يعدوهم إلى غيرهم، فيبطل الاتكال في النجاة على أعمالهم بسبب الانتساب إليهم، ولكم أيها اليهود والنصارى ما كسبتم من جزاء أعمالكم مختص بكم، وكل مسؤول عن عمله، لا أنتم مسؤولون عنهم ولا هم مسؤولون عنكم، كما قال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُوا وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، والإشارة إلى إبراهيم ويعقوب وبنيهما، وأنث لتأنيث خبره ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ سَلَفَتْ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من العمل؛ أي: جزاؤه، استئناف ﴿وَلَكُمْ﴾ الخطاب لليهود ﴿مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما لا يسألون عن عملكم، والجملة تأكيد لما قبلها.

وقول المؤلف: (مبتدأ): يُبَيِّنُ أَنَّ اسْمَ الإِشَارَةِ مُبْتَدَأٌ، وَخَبْرُهُ ﴿أُمَّةٌ﴾، قَالَ: وَأَنْتَ لِتَأْنِيثِ الْخَبْرِ. قَالَ: وَالْمَشَارُ إِلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ وَبَنُوهُمَا. وَقَوْلُهُ: (سَلَفَتْ): هَذَا تَفْسِيرٌ لـ ﴿خَلَتْ﴾، وَفِي مَعْنَاهُ: مَضَتْ. وَقَوْلُهُ: (اسْتَنْتَاف): يُرِيدُ أَنَّ جُمْلَةَ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ مُسْتَنْفَةٌ.

وقوله: (الخطاب لليهود): لو قال: والنصارى؛ كان أولى، كيف وقد قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾.



وقوله: (كما لا يسألون عن عملكم): معناه أَنَّ الحِكمَ واحدٌ، فكما أَنَّ
 لِكُلِّ عملِهِ، فكلُّ لا يُسألُ عن عمل غيره.
 وقوله: (والجملة تأكيد لما قبلها): يريد قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ فإنها تأكيد لقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾.



وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]:

يُخْبِرُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ قَوْلٍ بَاطِلٍ مِنْ أَقْوَالِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَمُضْمُونِهِ الدَّعْوَةُ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ أَوْ النَّصْرَانِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا الْهَدَى بَزْعَمِهِمْ، فَمَنْ تَهَوَّدَ أَوْ تَنَصَّرَ اهْتَدَى بَزْعَمِهِمْ، وَمَفْهُومُهُ: أَنَّ مَا لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَلَيْسَ عَلَى هَدَى، فَتَفَوُّوا بِذَلِكَ الْهَدَى عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، فَلِذَلِكَ دَعَا إِلَى الدَّخُولِ فِي الْيَهُودِيَّةِ أَوْ النَّصْرَانِيَّةِ. ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ نَبِيَّهُ بِإِكْذَابِهِمْ وَبَيَانِ أَنَّ الْهَدَى فِي مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ النَّبِيِّ الْحَنِيفِ الْمَائِلِ عَنِ الشَّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ، الْبَرِيِّ مِنَ الشَّرْكِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَهَذَا الْقَوْلُ الْبَاطِلُ هُوَ لِأَزْمِ قَوْلِهِمْ فِي مَا سَبَقَ ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١].

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ «أَوْ»: لِلتَّفْصِيلِ، وَقَائِلُ الْأَوَّلِ يَهُودُ الْمَدِينَةِ، وَالثَّانِي نَصَارَى نَجْرَانَ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿بَلْ﴾ نَتَّبِعُ ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ حَالٌ مِنْ «إِبْرَاهِيمَ»، مَائِلًا عَنِ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا إِلَى الدِّينِ الْقَيِّمِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقول المؤلف: (أو للتفصيل): يعني بعد الإجمال في قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهود والنصارى؛ فيكون المعنى: وقالت اليهود: كونوا يهودًا تهتدوا، وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا^(١). وقوله: (وقائل الأول...) إلى آخره: إشارة إلى سبب النزول. وقوله: (لهم): أي قل يا محمد لليهود والنصارى.

وقوله: (تبع): أي قل يا محمد: لا أتبع اليهودية ولا النصرانية؛ بل أتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله: (مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم): تفسير لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾، وفيه بيان أن الدين الحق ملّة إبراهيم؛ وهي دين الإسلام، وكلّ دينٍ سواه باطلٌ.



وقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]:

يأمر الله المؤمنين بمحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقولوا: آمنا بالله وبكل ما أنزل الله من كتابٍ وبكل نبيٍّ أرسله الله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾؛ أي: ربًّا وإلهًا، ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾؛ وهو القرآن، ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ من الوحي بالشرائع، والأسباط هم: أولاد يعقوب.

وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعني: من التوراة والإنجيل.
 وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: من الكتب والشرائع؛ المعنى: وقولوا: آمنا بما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم.
 وقوله: ﴿لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: نؤمن بهم جميعًا ولا نفرق بينهم في الإيمان.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [١٣٦]: أي مستسلمون مُنقادون لأمر ربنا، والجملة مُستأنفة أو حال، وقد تضمّنت هذه الآية ثلاثة من أصول الإيمان: الإيمان بالله، وكتبه، ورسله.

وهذا يستلزم ملة إبراهيم التي أمر الله نبيه باتباعها في قوله: ﴿بَلِّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

وفي الآيتين إبطالٌ لدعوة اليهود والنصارى إلى ملّتهم.

﴿قُولُوا﴾ خطابٌ للمؤمنين: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن
 ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ من الصُّحف العشر ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أولاده ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ من التوراة ﴿وَعِيسَىٰ﴾

من الإنجيل ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من الكتب والآيات ﴿لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ فنؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ كاليهود والنصارى ﴿ونحن
له مسلمون﴾.

وقول المؤلف: (من الصحف العشر): يُبَيِّنُ أَنَّ المرادَ بما أنزل على
إبراهيم هي صُحُفُ إبراهيم، وقد ذُكِرَتْ في سورة النجم والأعلى: ﴿إِنَّ هَذَا
لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٨-١٩]، ولكن لم
يذكر في الآيتين عددها، والله أعلم.
وقوله: (أولاده): أي أولاد إبراهيم.
وقوله: (فنؤمن ببعض...): إلى آخره: بيانٌ لمعنى التفريق بين الأنبياء.



وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]:

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا يَحْصُلُ بِهِ الْإِيمَانُ الْحَقُّ وَيَحْصُلُ بِهِ الْإِهْتِدَاءُ؛ أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ آمَنَ مِثْلَ إِيْمَانِهِمْ مِنْ أَيِّ أُمَّةٍ فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ هَذَا الْإِيمَانِ فَقَدْ شَقَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، وَسَيَكْفِي اللَّهُ نَبِيَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ شَرَّهُمْ. وَالْمَقْصُودُونَ: بِهَذَا الْخَبَرِ أَوْلًا: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الْآيَاتِ فِيهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: أَي السَّمِيعُ لِأَقْوَالِكُمْ، يَسْمَعُ مَا تَقُولُونَ، وَمَا يُقَالُ لَكُمْ، وَالْعَلِيمُ بِمَا فِي صُدُورِكُمْ، وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، وَهَذَا مِنْ كِفَايَتِهِ لِنَبِيِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَهِيَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ أَي: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿بِمِثْلِ﴾ مِثْلُ زَائِدٍ ﴿مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ خِلَافَ مَعَكُمْ ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ يَا مُحَمَّدُ شِقَاقَهُمْ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِهِمْ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِأَحْوَالِهِمْ، وَقَدْ كَفَاهُ إِيَّاهُمْ بِقَتْلِ قُرَيْظَةَ، وَنَفِي النَّضِيرِ، وَضَرْبِ الْجِزْيَةِ عَلَيْهِمْ.

وقول المؤلف: (أَي: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى): لَفْظُ الْآيَةِ عَامٌّ لَكِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَحْصُ بِهَذَا الْحَكْمِ؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الْآيَاتِ فِيهِمْ وَالْكَلَامُ مَعَهُمْ. وَقَوْلُهُ: (مِثْلُ زَائِدٍ): فَيَكُونُ الْمَعْنَى: فَإِنْ آمَنُوا بِمَا آمَنْتُمْ بِهِ، وَزِيَادَةُ «مِثْلُ» لِلتَّكْثِيرِ. وَقِيلَ: «مِثْلُ» لَيْسَتْ زَائِدَةً، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ﴾؛

أي: لو كان له مثل فأمنوا به. وقيل: الباء زائدة للتأكيد^(١)، والمعنى المراد لا يختلفُ على كلِّ تقديرٍ وهو: فإن آمنوا بما آمنتم به أو آمنوا إيماناً مثل إيمانكم. وقوله: (عن الإيمان به): أي عن الإيمان بما آمنتم به كما ذكر في الآية السابقة.

وقوله: (خلاف معكم): فسّر الشقاق بالخلاف، وليس الشقاق مجردَ الخلاف؛ بل خلافٌ مع عداوةٍ وكيدٍ وحربٍ، والأظهرُ أنَّ الشقاقَ من المشقَّة^(٢). وقوله: (يا محمد...) إلى آخره: بيانٌ للمخاطب الذي تدلُّ عليه «الكاف» في «يكفيك»، وهو المفعول الأول، وأنَّ المفعولَ الثاني وهو ضميرُ الجمع على تقديرٍ مُضافٍ قدَّره المؤلف بقوله: (شقاقهم). وقوله: (وقد كفاه إياهم...) إلى آخره: بيانٌ أنَّ وعدَ الله لنبيه أنَّ يكفيه إياهم قد تحقَّق.



(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/٣٦١)، و«البحر المحيط» (١/٦٥٢-٦٥٣)، و«الدر المصون» (٢/١٤٠-١٤١).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٦٤)، و«تفسير الطبري» (٢/٦٠٢).

وقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]:

هذه الآية متصلة - لفظها ومعناها - بقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ...﴾ الآية، فهي داخلة في مقول القول.

وقوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ...﴾ الآية: معترض. والصَّبْغَةُ: اسمُ هيئةٍ من الصَّبْغِ بالفتح، وهو تلوين الشيء ببعض الألوان، والصَّبْغُ بالكسر: ما يصبغ به^(١)، وصِبْغَةُ الله: دينُ الله، وقيل: فطرةُ الله^(٢)، وأصلها التوحيد، وتدخل فيها خصالُ الفطرة، والقولان معناهما واحد؛ فصِبْغَةُ الله: دينُ الإسلام، ودينُ الله هو دينُ الإسلام بما فيه من الاعتقادات والأخلاق والعبادات، وسُمِّي الدينُ صِبْغَةً؛ لأنَّ المسلم بتخلُّقه بأخلاقه وعمله بشرائعه وآدابه يكون الدينُ له هيئةً ظاهرةً كالشيء المصبوغ^(٣)، وأضيفت الصَّبْغَةُ إلى الله تزييناً كما أُضيفَ الدينُ إلى الله؛ كما في قوله: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢]، وقوله: ﴿أَفْغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾: إقرارٌ من المؤمنين بأنه لا أحدَ أحسن من الله ديناً؛ أي: دينه الذي شرعه لعباده أحسنُ دينٍ، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾: كقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: عابدون له وحده لا نشرك به شيئاً، كما يفيدُه القصرُ المفهوم من تقديم الجار

(١) ينظر: «لسان العرب» (٤٣٧/٨).

(٢) قال ابن عباس وقتادة والحسن وجماعة: دين الله، وقال مجاهد ومقاتل: الفطرة. ينظر: «تفسير الطبري» (٦٠٤-٦٠٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢٤٥/١)، رقم (١٣١٣)، و«التفسير البسيط» (٣٦٢-٣٥٩/٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩٢/١)، و«تفسير البيضاوي» (١٠٩/١)، و«البحر المحيط» (٥٦٦/١)، و«تفسير الألوسي» (٣٩٥/١).

والمجرور في قوله: ﴿لَهُر﴾، وقد قيل سُمِّي الدِّينُ صبغةً في هذا الموضع في مقابل الصبغة عند النصارى الذي يُسمونه التعميد، وهو غمسُ الطفل في الماء المقدَّس عندهم، - وهو: المعمودية- حتى يكون نصرانياً، وهكذا من يدخل في النصرانية يُعمِّدونه؛ أي: يأمرونه بالاعتسال من ذلك الماء لتصحَّ نصرانيته^(١)، وذكروا عن اليهود ما يشبه هذا وهو أنَّ مَنْ يتوبُ منهم يجب عليه الغُسل لتصحَّ توبته^(٢)، وهذا له وجهٌ؛ لأنَّ سياق الآيات مع اليهود والنصارى، وعلى هذا فتسمية دين الإسلام ﴿صِبْغَةً﴾ هو من باب المشاكلة^(٣).

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكَّد لـ «آمنا»، ونصبه بفعلٍ مُقدَّر، أي: صبغنا الله، والمراد بها دينه الذي فطرَ الناسَ عليه، لظهور أثره على صاحبه كالصبغ في الثوب ﴿وَمَنْ﴾ أي: لا أحد ﴿أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ تمييزٌ ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

وقولُ المؤلِّف: (مصدرٌ مؤكَّد لآمنا): معناه: أنَّ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ مفعولٌ مُطلَقٌ مؤكَّدٌ لمعنى جملة ﴿آمنا بالله﴾ إلى آخره؛ فإنَّ مضمون الجملة الإيمانُ والإسلام، وهذا جماعُ الدين، وصبغةُ الله: دينُ الله، فظهر بذلك أنَّ صبغةُ الله مصدرٌ مؤكَّدٌ لمعنى الجملة.

(١) قال ابن عباس: إن النصارى كانوا إذا ولد لأحدهم ولد، فأتى على سبعة أيام غمسوه في ماء لهم، يقال له: المعمودي، وصبغوه به؛ ليظهوره بذلك مكان الختان. ينظر: «تفسير الطبري» (٦٠٣/٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢١٥/١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٦٠٣/٢).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٣٣٥/١)، و«البحر المحيط» (٦٥٦/١)، و«التحرير والتنوير» (٧٤٢/١).

وقوله: (ونصبه بفعل مقدر... إلى آخره: هذا يقتضي أن ﴿صبغة﴾ مصدرٌ مؤكَّدٌ لذلك الفعل المقدر، والأظهر: القول الأول؛ أنه مفعولٌ مُطلقٌ مؤكَّدٌ بمعنى الجملة^(١).

وقوله: (والمراد بها): أي المراد بالصبغة.

وقوله: (دينه الذي فطر الناس عليه): هذا قولٌ جمهور المفسرين.

وقوله: (لظهور أثره على صاحبه كالصبغ في الثوب): يُبيِّنُ بهذا سببَ تسمية الدين صبغة؛ يقول: سُمِّيَ الدينُ صبغةً؛ لظهور أثره على المسلم كما تقدم.

وقوله: (أي: لا أحد): لأنَّ الاستفهامَ إنكاريٌّ، فهو بمعنى النفي.

وقوله: (تمييز): يريد أن صبغةً منصوبٌ على التمييز بـ«أفعل» التفضيل.



(١) قيل: هو بدل، وقيل: منصوب على الإغراء، وقيل: هو مصدر، وهذا الأخير حكاه الزمخشري عن سيبويه، ورجحه الزمخشري وابن حيان، وضعفا القولين الأولين. ينظر «الكشاف» (١/٣٣٥-٣٣٦)، و«البحر المحيط» (١/٦٥٦)، و«التحرير والتنوير» (١/٧٤٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩]:

يأمر الله نبيه بالإنكار على أهل الكتاب اليهود والنصارى جدالهم في الله؛ أي: في توحيده وإخلاص العبادة له، والحال أنه سبحانه ﴿رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾؛ لأنه خالقنا ومالكنا ومُدبِّرُ أمرنا، فليس أحدٌ منا أولى به من الآخر إلا بحسب كمال الإيمان وكمال الإخلاص وتحقيق التوحيد، وكلُّ منا له عمله لا يُسأل عنه غيره، فكلُّ بريءٍ من عمل غيره كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقد روي في سبب نزول هذه الآية أن أهل الكتاب قالوا للمسلمين: نحن أولى بالله منكم وديننا خير من دينكم؛ لأنَّ نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم^(١)، فأمر الله نبيه والمؤمنين أن يُنكروا عليهم ذلك الجدال وهذه الدعوة، فليس الفضلُ بتقدُّم الزمان، ويدلُّ على أن هذا الإرشاد من الله للنبي والمؤمنين أنه أفرد ضمير الخطاب ثم جمعه؛ فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا﴾، فكان المعنى: قل يا محمد ويا أيها المؤمنون لليهود والنصارى الذين زعموا أنهم أولى بالله منكم ودينهم خيرٌ من دينكم، ولذا قالوا: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥]، قولوا لهم: ﴿أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾؛ أي: تخاصموننا وهو ربنا جميعًا، وكلُّ عمله، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩] العبادة، لا نشركُ به شيئًا، وأنتم به مشركون بعبادتكم العجل واتخاذ المسيح وأمّه إلهين من دون الله، واتخاذ الأحيار والرهبان أربابًا من دون الله، ﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٦٠٧)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/٣٨٤-٣٨٥).

قال اليهود للمسلمين: نحن أهل الكتاب الأول، وقبلتُنا أقدم، ولم تكن الأنبياء من العرب، ولو كان محمد نبيًا لكان منا، فنزل: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ **﴿أَتَحَاجُّونَنَا﴾** تخاصموننا **﴿فِي اللَّهِ﴾** أن اصطفى نبيًا من العرب **﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾** فله أن يصطفى من يشاء **﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا﴾** نجازى بها **﴿وَلَكُمْ أَعْمَالِكُمْ﴾** تجازون بها، فلا يبعد أن يكون في أعمالنا ما نستحق الإكرام به **﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾** الدين والعمل دونكم، فنحن أولى بالاصطفاء، والهمزة للإنكار، والجمل الثلاث أحوال.

وقول المؤلف: (قال اليهود للمسلمين...) إلى آخره: يُشير بذلك إلى سبب النزول كما تقدّم.

وقوله (لهم): يُبيّن أن المعنى: قل لهم - أي: لليهود والنصارى - **﴿أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ...﴾** الآية. وقوله: (فله أن يصطفى من يشاء): أي إن هذا مُقتضى ربوبيته - تعالى -، فلا حَجَرَ عليه من أحدٍ في تدبيره.

وقوله: (والهمزة للإنكار...) إلى آخره: يريد همزة الاستفهام في قوله: **﴿أَتَحَاجُّونَنَا﴾**، والجمل الثلاث: **﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾**، **﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا﴾**، **﴿وَلَكُمْ أَعْمَالِكُمْ﴾**.



وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠]:

مضمون هذه الآية هو من جملة ما أمر الله به نبيه والمؤمنين بإنكاره على اليهود والنصارى، و﴿أَمْ﴾ هي: المنقطعة التي بمعنى بل وهمزة الاستفهام فأفادت الانتقال من إنكار إلى إنكار، وهي عاطفة لـ «تقولون» على «تحتاجون»، والاستفهام في الجملتين للإنكار والتوبيخ، فهي والمعطوف بها داخلان في مقول ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا﴾.

وقول اليهود والنصارى: ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾؛ محض افتراء سببه كتمان الشهادة التي تلقوها عن الله، وأن هؤلاء الأنبياء مسلمون لا يهود ولا نصارى، ثم أمر الله نبيه أن يوبخهم وينكر عليهم جهلهم وتناولهم ولا علم عندهم فقال: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ﴾، وأنهم بهذا الافتراء والكتمان ظالمون، فلا أحد أظلم منهم بكتمانهم الشهادة التي عندهم من الله، وأن الله ليس بغافل عما يفعلون، ويحتمل أن قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ إلى آخر الآية؛ كلامٌ مُستأنفٌ من كلام الله -تعالى- ليس داخلًا فيما أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقوله، ثم أمر الله نبيه أن ينكر عليهم دعواهم، وأنه لا علم عندهم بما قالوا، وإنما العلم عند الله، وقد أخبرنا أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا مسلمين كما تقدم في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١-١٣٣].

﴿أَمْ﴾ بل أ﴿يَقُولُونَ﴾ بالياء والتاء ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ﴾ لهم: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ أي: الله أعلم. وقد برأ منهما إبراهيم بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا

نَصْرَانِيًّا ﴿١﴾ والمذكورون معه تَبِعَ له ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ﴾ أخفى عن الناس ﴿شَهَادَةَ عِنْدَهُ﴾ كائنة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أظلم منه، وهم اليهود كتموا شهادة الله في التوراة لإبراهيم بالحنيفية ﴿وَمَا لِلَّهِ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد لهم.

وقول المؤلف: (بل): يُبَيِّنُ بذلك أَنَّ ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي تُفسر بـ«بل»، وهمزة الاستفهام فتفيد الانتقال والتوبيخ. وقوله: (بالياء والتاء): يُبَيِّنُ أَنَّ في الآية قراءتين، ﴿تَقُولُونَ﴾، و﴿يَقُولُونَ﴾^(١)، وضَعَفَ ابنُ جريرِ القراءةَ بالياء، وصَوَّبَ القراءةَ بالتاء^(٢)؛ لأنَّ الجملة معطوفة على ﴿تُحَاجُّونَنَا﴾، والجملتان خطابٌ لأهل الكتاب، والقراءةُ بالياء تُؤدِّي إلى أن يكون في الكلام التفتُّ من الخطاب إلى الغيبة. وقوله: (لهم): أي مخاطبًا اليهود والنصارى.

وقوله: (أي: الله أعلم): يشيرُ بذلك إلى أن الجوابَ بدهيٌّ. وقوله: (وقد برأ منهما إبراهيم...): إلى آخره: يُشيرُ إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾.

وقوله: (والمذكورون معه تبع له): المذكورون معه: أبناؤه. وقوله: (تبع له): يعني: في البراءة من اليهودية والنصرانية. وقوله: (كائنة): بيانٌ لِمُتعلقِ الظرف، وهو: عنده؛ أي: شهادة كائنة عنده.

(١) قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو، وعاصم برواية أبي بكر، ويعقوب: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بالياء. وقرأ ابن عامر، وعاصم برواية حفص، وحمزة والكسائي وخلف: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بالتاء. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٧١)، و«النشر» (٢/ ٢٢٣).
(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٦٠٩).



وقوله: (وهم اليهود...) إلى آخره: الظاهرُ أَنَّ الآيةَ تعمُّ اليهودَ
والنصارى^(١).

وقوله: (تهديدٌ لهم): يريد قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي:
الذين افتروا على إبراهيمَ وبنيه وكتموا الشهادة التي عندهم من الله.



(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٦١٠-٦١٣).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١]:

تقدّم مثل هذه الآية لفظاً ومعنى: [١٣٤]، وتقدّم الكلام عليها^(١)، وهذه الآية تأكيد لمضمون الآية السابقة، وجاءت هذه الآية بمناسبة ذكر إبراهيم وبنيه، واسم الإشارة في هذه الآية راجع إليهم، كما قيل مثل ذلك في الآية السابقة، وهذه الآية خاتمة للحديث عن إبراهيم وبنيه والرد على اليهود والنصارى فيما قالته فيهم.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تقدّم مثله.



(١) ينظر: (ص ٢٨٤).

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢]:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ السُّفَهَاءِ - وَهُمْ الْيَهُودُ وَالْمَنَافِقُونَ - أَنَّهُمْ سَيَقُولُونَ طَاعِنِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدَسِ إِلَى الْكَعْبَةِ الْآتِي ذِكْرُهُ فِي الْآيَاتِ؛ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ: ﴿مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾؛ أَي: جَمِيعَ الْجِهَاتِ مَلَكُهُ، يُوَجِّهُ عِبَادَهُ إِلَى اسْتِقْبَالِ مَا شَاءَ مِنْهَا، وَمَا أَمَرَهُمْ تَعَالَى بِاسْتِقْبَالِهِ هُوَ الْهَدْيُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿السُّفَهَاءُ﴾ يعني: المنافقين؛ مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ فِيْمَا تَقَدَّمَ أَوَّلُ السُّورَةِ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾، وَحَقِيقَةُ السَّفَه: الْجَهْلُ وَالْغِبَاءُ وَضَعْفُ الْعَقْلِ^(١)، وَكُلُّ مَنْ طَعَنَ فِي شَرَعِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ فَهُوَ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ الْجُهَّالُ ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ الْيَهُودُ وَالْمَشْرِكِينَ: ﴿مَا وَلَاَهُمْ﴾ أَيُّ شَيْءٍ صَرَفَ النَّبِيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿عَن قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ عَلَى اسْتِقْبَالِهَا فِي الصَّلَاةِ، وَهِيَ: بَيْتُ الْمَقْدَسِ، وَالْإِتْيَانُ بِالسِّينِ الدَّلَالَةُ عَلَى الْاسْتِقْبَالِ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أَي: الْجِهَاتِ كُلِّهَا، فَيَأْمُرُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى أَيِّ جِهَةٍ شَاءَ، لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هَدَايَتَهُ ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ دِينَ الْإِسْلَامِ، أَي: وَمِنْهُمْ أَنْتُمْ.

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٤١٤).

وقول المؤلف: (الجهال): بيان لأصل معنى السفهاء، والمرادُ بهم في الآية: اليهودُ والمشركون^(١)، وذكرهم بوصف السّفه ذمّ لهم وتحقيرٌ وهو وصفٌ لجميعهم، و﴿من﴾ للتبويض، والسفهاءُ بعضُ الناس.

وقوله: (أي شيء...) إلى آخره: يُبين أنّ «ما» للاستفهام التعجبي، و﴿وَلَا هُمْ﴾؛ أي: صرفهم. وقوله: (على استقبالها): أي مُقيمين على استقبالها. وقوله: (الإتيان بالسين...) إلى آخره: يريد: السين التي في ﴿سيقول﴾؛ وهي تدلُّ على أنّ هذا القول من السفهاء يكون في المستقبل، فالإخبارُ به إخبارٌ عن المستقبل، والمستقبل من الغيب، ولهذا قال المؤلف: إنّ هذا من الإخبار بالغيب.

وقوله: (أي: الجهات كلها): يُبين أنّ ذكر المشرق والمغرب ليس لتقييد؛ بل عبّرَ بالمشرق والمغرب عن جميع الجهات.

وقوله: (هدايته): هذا تقديرٌ لمفعول ﴿يشاء﴾.

وقوله: (دين الإسلام): تفسيرٌ للصراف بالإسلام، ومنه استقبالُ بيت المقدس قبل النسخ، ومنه استقبالُ المسجد الحرام بعد نسخ القبلة الأولى، وكلُّ مَنْ أطاع الله فهو على صراطٍ مستقيم، وقد هدى الله نبيّه والمؤمنين بتحويل القبلة ﴿إلى صراطٍ مستقيم﴾.



(١) قيل: هم اليهود، وهو قول ابن عباس ومجاهد والبراء بن عازب والحسن. وقيل: المنافقون وهو قول السدي. وقيل: هم كفار قريش كما في رواية عن ابن عباس وحكاه الزجاج عن غيره، واختار الطبري أنهم اليهود وأهل النفاق، وقال البغوي: «نزلت في اليهود ومشركي مكة». ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٦١٥-٦١٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٢١٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٢٤٧)، و«تفسير البغوي» (١/١٥٨)، و«زاد المسير» (١/١١٨).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ۗ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]:

يتمنُّ اللهُ -تعالى- على أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن جعلهم أُمَّةً وَسَطًا؛ يعني: خيارًا عدولًا، والحكمة من ذلك أن يكونوا شهداء على الناس؛ لأنَّ رسُلهم قد بلغوهم، ويكون الرسول محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهيدًا على أُمَّته؛ كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

ثم يبيِّنُ تعالى حكمته من تحويل القبلة، وهي: الابتلاء، فيظهر ويتميز مَنْ يتبع الرسول فيستقبل القبلة الثانية كما استقبل القبلة الأولى طاعةً لله ورسوله، ومَنْ يُنكر تحويل القبلة ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾، ويعلمُ اللهُ الفريقين وجودين متميزين، فهذا مؤمنٌ متَّبِعٌ للرسول، وهذا مكذِّبٌ معارِضٌ لما جاء به الرسول. ثم أخبر تعالى عن قضية تحويل القبلة بأنها عزيمةٌ شاقَّةٌ إلا على مَنْ هداه الله لمعرفة الحقِّ واتباعه؛ لأنهم يؤمنون بأنَّ ذلك حكم من عند الله وله فيه حكمةٌ بالغةٌ، وأنَّ استقبالَ المسجد الحرام أحبُّ إلى الله وأفضلٌ من بيت المقدس.

ثم ردَّ تعالى على مَنْ سأل عن صلواتٍ من مات وهو يستقبل بيت المقدس؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلواتكم إلى بيت المقدس^(١)؛ لأنهم محسنون، والله لا يضيعُ عملَ المحسنين، وكلُّ ما بينه

(١) أخرجه البخاري (٤٠) عن البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ونقل القرطبي (١٥٧/٢) اتفاق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس. ينظر أيضًا: «أسباب النزول» (ص ٤٢-٤٣)، و«العجاب» (١/٣٩٢-٣٩٥).

الله في هذه الآية؛ هو من رأفته ورحمته تعالى بعباده، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

دل على هذا: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما هديناكم إليه ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ يا أمة محمد! ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ خياراً عدولاً ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يوم القيامة: أن رسلم بلغتهم ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولَ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أنه بلغكم ﴿وَمَا جَعَلْنَا صِيرِنَا﴾ القِبْلَةَ ﴿لِكَ الْآنَ، الْجِهَةَ﴾ التي كُنْتُ عَلَيْهَا أولاً، وهي الكعبة وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي إليها، فلما هاجر أمرَ باستقبال بيت المقدس تألفاً لليهود، فصلَّى إليه ستة أو سبعة عشر شهراً، ثم حوّل ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ علم ظهور ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ فيصدقُه ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أي: يرجع إلى الكفر، شكاً في الدين وظناً أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حيرة من أمره، وقد ارتدّ لذلك جماعة ﴿وَإِنْ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف؛ أي: وإنها ﴿كَانَتْ﴾ أي: التولية إليها ﴿لِكَبِيرَةٍ﴾ شاقّة على الناس ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ منهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يثبكم عليه؛ لأنّ سبب نزولها: السؤال عمّن مات قبل التحويل ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ﴾ المؤمنين ﴿لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ في عدم إضاعة أعمالهم، والرأفة: شدّة الرحمة، وقدّم الأبلغ للفاصلة.

وقول المؤلف: (دل على هذا) اسم الإشارة راجع إلى قوله: (ومنهم أنتم) أي: ممن هداه الله إلى صراط مستقيم؛ يريد: أنه دل على هدايتهم إلى صراط مستقيم قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... الآية﴾.

وقوله: (كما هديناكم إليه): يُبَيِّنُ أَنَّ اسم الإشارة في قوله: ﴿وكذلك﴾ راجعٌ إلى هداية المؤمنين إلى الصراط المستقيم؛ فالمعنى: كما هديناكم إلى الصراط جعلناكم أمةً وسطاً.

وقوله: (صَيَّرْنَا): فَسَّرَ الْجَعْلَ فِي الْآيَةِ بِالتَّصْيِيرِ؛ فَهَذَا قَالَ: ﴿جَعَلْنَا﴾ صَيَّرْنَا، وَصَيَّرَ يَقْتَضِي مَفْعُولِينَ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ لَفْظٌ يَصْلِحُ مَفْعُولًا ثَانِيًا، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْمَعْنَى: وَمَا شَرَعْنَا^(١) اسْتِقْبَالَ الْقِبْلَةِ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا، - وَهِيَ: بَيْتُ الْمَقْدِسِ - ثُمَّ صَرَفْنَاكَ عَنْهَا إِلَى الْكَعْبَةِ إِلَّا لِتَبَيَّنَ مَنْ يَتَّبِعُكَ مِمَّنْ لَا يَتَّبِعُكَ.

وقوله: (وهي الكعبة): بَيَانٌ لِلْمُرَادِ بِالْقِبْلَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ كَانَ بِمَكَّةَ، وَهَذَا أَحَدُ الْقَوْلِينَ^(٢)، وَالْقَوْلُ الْمَشْهُورُ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ، أَنَّ الْمُرَادَ بِالْقِبْلَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ^(٣)؛ إِذْ كَانَ يَسْتَقْبِلُهَا بَعْدَ الْهَجْرَةِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا^(٤)، فَكَانَ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُدَّةَ ثُمَّ صُرِفَ عَنْهَا إِلَى اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَهَذَا التَّحْوِيلُ هُوَ الَّذِي صَارَ فَتْنَةً، فَبَيَّنَ بِهِ ﴿مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾.

(١) وهو قول الرازي وابن عاشور. ينظر: «تفسير الرازي» (٤/٨٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٢/٢).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (١/١٦١)، و«الكشاف» (١/٣٣٩-٣٤٠)، و«تفسير القرطبي» (٢/١٥٦)، و«البحر المحيط» (٢/١٥).

(٣) وهو قول قتادة وعطاء والسدي وعطية، واختاره الطبري وجمهور المفسرين. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٦٣٨-٦٣٩)، و«المحرر الوجيز» (١/٣٦٩)، و«زاد المسير» (١/١٢٠).

(٤) قيل: ستة عشر شهراً، وقيل: سبعة عشر شهراً، وقيل غير ذلك، ورواية البخاري (٤٠/٤٤٨٦)، ومسلم (٥٢٥) عن البراء بن عازب: «وأنه صلى الله عليه وسلم قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً»، على الشك، وجزم مسلم في رواية أنها ستة عشر شهراً، وقال في الفتح (١/٩٦): «والجمع بين الروایتين سهل، بأن يكون من جزم بستة عشر لفق من شهر القدوم وشهر التحويل شهراً وألغى الزائد، ومن جزم بسبعة عشر عدلها معاً، ومن شك تردد في ذلك». تنظر الروايات في: «تفسير الطبري» (٢/٦١٨-٦٢٢).

وقوله: (علم ظهور): المراد: علم الأشياء ظاهرةً موجودةً، وهو تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه موجودةً أو معدومةً.

وقوله: (وقد ارتد لذلك جماعة): يريد أن تحويل القبلة صار سبباً لردة جماعة من المنتسبين إلى الإسلام، فالغالب أنهم ممن لم يدخل الإيمان إلى قلوبهم^(١).

وقوله: (واسمها محذوف...) إلى آخره: قلت: وخبرها جملة ﴿كانت﴾.

وقوله: (التولية إليها): هذا تقدير اسم كان، وخبرها «كبيرة».

وقوله: (منهم): أي: من الناس.

وقوله: (في عدم إضاعة أعمالهم): يريد أن من رأفته ورحمته عدم إضاعة أعمال الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؛ بل يُثيبيهم على صلواتهم؛ لأنهم مطيعون لله.

وقوله: (والرأفة: شدة الرحمة): بيان للفرق بين الرأفة والرحمة، وهو أن

الرأفة كمال الرحمة^(٢). وقوله: (وقدم الأبلغ للفاصلة): يريد: لتناسب رؤوس الآي ولو مع آية واحدة فحُتمت هذه الآية باسمه تعالى الرحيم، كما حُتمت الآية قبلها بالصرط المستقيم.



(١) قاله ابن زيد ومقاتل، وقال ابن جريج: «بلغني أن ناساً ممن أسلم رجعوا فقالوا: مرة هاهنا، ومرة هاهنا». ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٦٤١) (٢/٦٤٦)، و«المحرر الوجيز» (١/٣٧١)، و«زاد المسير» (١/١٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (١/٤٥٧).

(٢) ينظر: «الفروق اللغوية» (١/١٩٦)، و«الكليات» (ص ٤٧١).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

يُخْبِرُ اللَّهُ - تَعَالَى - نَبِيَّهٖ بِأَنَّهُ يَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِهِ فِي السَّمَاءِ نَازِرًا وَمُنْتَظِرًا أَنْ يَأْتِيَهُ الْوَحْيُ بِتَوْجِيهِهِ إِلَى الْكَعْبَةِ بِدَلًّا عَنِ اسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ يَعِدُ اللَّهُ نَبِيَّهٖ أَنْ سَيُؤْتِيهِ قِبْلَةً يَرْضَاهَا، فَوَفَّى اللَّهُ بوعده فأمر نبيَّه والمؤمنين أن يولُّوا وُجُوهَهُمْ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ فقال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، ثم أخبر تعالى أن الذين أُوتوا الكتاب يعلمون أن تحويل القبلة هو الحق من ربهم، ثم أخبر تعالى أنه ليس غافلًا عما يعمل العباد من المؤمنين وأهل الكتاب وغيرهم، فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿قَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿نَرَى تَقَلُّبَ﴾ تَصْرَفَ ﴿وَجْهَكَ فِي﴾ جِهَةِ ﴿السَّمَاءِ﴾ مُتَطَلِّعًا إِلَى الْوَحْيِ وَمُتَشَوِّفًا لِلأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ يُودُّ ذَلِكَ لِأَنَّهَا قِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ، وَلِأَنَّهُ أَدْعَى إِلَى إِسْلَامِ الْعَرَبِ ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ نَحْوَلَنَّكَ ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ تُحِبُّهَا ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ اسْتَقْبَلْ فِي الصَّلَاةِ ﴿شَطْرَهُ﴾ نَحْوِ ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَي: الْكَعْبَةِ ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ خَطَابٌ لِأُمَّةٍ ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ فِي الصَّلَاةِ ﴿شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أَي: التَّوَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ ﴿الْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لِمَا فِي كِتَابِهِمْ فِي نَعْتِ النَّبِيِّ مِنْ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ إِلَيْهَا ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بِالنَّهْيِ، أَي: الْمُؤْمِنُونَ مِنْ امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَبِالْيَأْسِ؛ أَي: الْيَهُودُ مِنْ إنْكَارِ أَمْرِ الْقِبْلَةِ.

وقول المؤلف: (تصرف): تفسير لتقلب الوجه، ولو قال تكريرُ نظرك للسماء مرةً بعد مرة لكان أظهر لفهم المعنى.

وقوله: (جهة): يُبينُ أنَّ ﴿في السماء﴾ على تقدير مضاف؛ المعنى: في جهة السماء.

وقوله: (متطلعاً إلى الوحي...) إلى آخره: بيان لمقصود الرسول في نظره إلى السماء، وتقلب وجهه.

وقوله: (نحوك): هذا من التفسير باللازم؛ فإنه يلزم من توليته جهة الكعبة تحويل القبلة. وقوله: (نحو): أي جهة.

وقوله: (الكعبة): فسّر ﴿المسجد﴾ بالكعبة، والمراد: وما حولها من البناء المعد للصلاة والطواف فيه.

وقوله: (في الصلاة): يُبينُ أنَّ استقبال القبلة إنما يجب في الصلاة لا في كلِّ حال.

وقوله: (التولي إلى الكعبة): تفسير للضمير في قوله: ﴿أَنَّ الْحَقُّ﴾، المعنى: أن أهل الكتاب يعلمون أن تحويل القبلة إلى الكعبة هو الحق، ولعل ذلك لأنه مذكور في كتبهم كما ذكر المؤلف.

وقوله: (بالتاء...) إلى آخره: يُبينُ أنَّ في الآية قراءتين بالتاء على الخطاب للمؤمنين، وبالياء خبراً عن أهل الكتاب، والله - تعالى - ليس بغافلٍ عما يعمل العباد مؤمنين أو كافرين.



وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥]:

يُخْبِر - تعالى - نبيّه في هذه الآية خبراً مؤكداً بأنه لو جاءهم بكل آية ما تبعوا قبلته؛ أي: ما استقبلوا قبلته، وأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لن يتبع قبلتهم، وأنه لن يتبع اليهود قِبْلَةَ النَّصَارَى ولا النصرارى قِبْلَةَ الْيَهُودِ، ثم يحذّر الله نبيّه عن اتباع أهواء الكفار من اليهود والنصارى، وذلك في قوله: ﴿وَلَيْنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾؛ أي: الكافرين.

﴿وَلَيْنَ﴾ ﴿لَامٌ قَسَمٌ﴾ ﴿أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ ﴿عَلَى صِدْقِكَ فِي أَمْرِ الْقِبْلَةِ﴾ ﴿مَا تَبِعُوا﴾ ﴿أَي: لَا يَتَّبِعُونَ﴾^(١) ﴿قِبْلَتِكَ﴾ ﴿عناداً﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ ﴿قَطْعُ طَمَعِهِ فِي إِسْلَامِهِمْ وَطَمَعِهِمْ فِي عَوْدِهِ إِلَيْهَا﴾ ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ ﴿أَي: الْيَهُودُ قِبْلَةَ النَّصَارَى وَبِالعَكْسِ﴾ ﴿وَلَيْنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿الَّتِي يَدْعُونَكَ إِلَيْهَا﴾ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ﴿الْوَحْيِ﴾ ﴿إِنَّكَ إِذَا﴾ ﴿إِنْ اتَّبَعْتَهُمْ فَرَضًا﴾ ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقول المؤلف: (لَامٌ قَسَمٌ): يُرِيدُ اللَّامُ الَّتِي قَبْلَ «إِنْ»، فَتَفِيدُ تَأْكِيدَ الْخَبَرِ بِالْقَسَمِ.

وقوله: (على صدقك...) إلى آخره: بيانٌ لمتعلق الآيات؛ فالمعنى: لو أتيت الذين أُوتوا الكتاب - اليهود - بكل آية تدلُّ على صدقك في تحويل القبله ما صدّقوك ولا اتبعوا قبلتك.

(١) رجح شيخنا أن الصواب: (لا يتبعون)، خلافاً لما في نسخة قباوة (يتبعون)، ووافق ترجيح شيخنا النسخ الأخرى كما في طبعة ابن كثير وغيرها.

وقوله: (عنادًا): يُبين أن عدم اتباعهم لقبلة النبي ﷺ كان عنادًا لا جهلاً؛ لأنهم يعلمون أنه الحق.

وقوله: (قطع لطمعه في إسلامهم...) إلى آخره: يُبين أن الآية تدلُّ على أن الطاعين في تحويل القبلة من أهل الكتاب لن يُسلموا فيستقبلوا قبلة النبي ﷺ، وتدُلُّ على أن النبي ﷺ لم يرجع إلى استقبال بيت المقدس، فلا طمع في إسلامهم ولا طمع لهم في عودة النبي ﷺ إلى قبلتهم.

وقوله: (فرضًا): يُريد أن قوله تعالى: ﴿وَلَنْ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾: على سبيل الفرض والتقدير، لا أن ذلك مُتَوَقَّعٌ أو ممكن بل ممتنع؛ لأنه ﷺ معصومٌ من اتباع أهواء الكافرين.



وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ [البقرة: ١٤٦-١٤٧]:

يُخْبِرُ - تعالى - عن أهل الكتاب أنهم يعرفون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصدقته فيما جاء به من القرآن وتحويل القبلة معرفةً تامَّةً كما يعرفون آبائهم، ولكنَّ فريقًا منهم يكتُمون الحقَّ الذي يعلمونه. والضميرُ المنصوب في قوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ قيل: يعودُ إلى الرسول، وقيل: إلى تحويل القبلة إلى الكعبة^(١)، والقولُ الأول يتضمَّنُ الثاني، وهذه المعرفةُ مما يجدونه في كتبهم من ذِكْرِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفاته وما يجيءُ به من الشرع، ومنه تحويلُ القبلة إلى المسجد الحرام. ثم يؤكِّدُ سبحانه وتعالى أنَّ ما أمرَ به من استقبال المسجد الحرام هو الحقُّ الذي لا يجوز أن يكون فيه شكٌّ، فلهذا نهى اللهُ نبيه أن يكون من المُمْتَرِينَ فيه في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٤٧) أي: الشاكين^(٢)، وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصومٌ من ذلك.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: محمدًا ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ بِنِعْتِهِ فِي كِتَابِهِمْ. قال ابنُ سلام: لقد عرفته حين رأيتُه كما أعرفُ ابني، ومعرفتي لمحمدٍ أشدُّ^(٣) ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ نعتُهُ

(١) القول الأول قال به مجاهد وخصيف بن عبد الرحمن، ورواية عن قتادة، وظاهر قول الزجاج، واختاره البغوي، ورجحه الرازي من وجوه. والقول الثاني قاله ابن عباس وفتادة والربيع والسدي وابن زيد وابن جريج، ولم يذكر الطبري غيره في تفسيره. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٦٦٩-٦٧١)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٢٢٥)، و«تفسير البغوي» (١/١٦٤)، و«المحرر الوجيز» (١/٣٧٨)، و«تفسير الرازي» (١/١١٠-١١٢).

(٢) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٤٦٦).

(٣) أخرجه الثعلبي (٤/١٩٢-١٩٣)، من طريق صالح بن محمد، عن محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، قال عمر =

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذا الذي أنت عليه ﴿الْحَقُّ﴾ كائنًا ﴿مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكِّين فيه؛ أي: من هذا النوع، فهو أبلغ من: (لَا تَمْتَرِ).



= بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعبد الله بن سلام: قد أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ على نبيه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ﴾ فكيف يا عبد الله هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: وذكره بنحوه. وهذا إسناد وإهٍ مظلم؛ فصالح بن محمد وهو الترمذي متهم ساقط، وقال ابن حبان: «لا يحل كتب حديثه». ينظر: المجروحين (٩/٤٧٠، رقم ٤٨٧)، و«الميزان» (٢/٣٠٠، رقم ٣٨٢٥). ومحمد بن مروان السدي الكوفي، وهو السدي الصغير، تركوه واتهمه بعضهم بالكذب. ينظر: «الكامل» لابن عدي (٧/٥١٢، رقم ١٧٤٢)، و«الميزان» (٤/٣٢، رقم ٨١٥٤). والكلبي هو محمد بن السائب، متروك الحديث. ينظر: «الكامل» (٧/٢٧٤، رقم ١٦٢٦)، و«الميزان» (٣/٥٥٦، رقم ١٦٢٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]:

يخبر - تعالى - أن لكل أمة جهة؛ أي: قبله يتوجه إليها ويستقبلها؛ فالمعنى: لكل قبله^(١)، فتشبهه هذه الآية قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]^(٢).

ثم يأمر - تعالى - بالتسابق إلى الخيرات وهي الأعمال الصالحة المُفضية إلى الجنات، ثم يخبر - تعالى - عن كمال قدرته وأنه سيجمعُ العبادَ ليوم المعاد فيأتي بهم من أي مكان كانوا فيه؛ فقال تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَلِكُلِّ﴾ من الأمم ﴿وِجْهَةً﴾ قبله ﴿هُوَ مَوْلِيهَا﴾ وجهه في صلاته. وفي قراءة: ﴿مَوْلَاهَا﴾^(٣). ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ بادروا إلى الطاعات وقبولها ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يجمعكم يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.



(١) وهو قول ابن عباس، ومجاهد في أحد قوليه، وأبي العالية وجماعة، واختاره الطبري والبغوي والقرطبي في آخرين. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٦٧٤-٦٧٧)، و«تفسير البغوي» (١/ ١٦٤)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٣٧٩-٣٨٠)، و«تفسير القرطبي» (٢/ ١٦٤)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٤٦٢).

(٢) قاله الواحدي في «التفسير البسيط» (٣/ ٤٠٥)، والجرجاني في «درج الدرر» (١/ ٣١٨)، وابن كثير في تفسيره (١/ ٤٦٣).

(٣) قرأ ابن عامر وحده: ﴿هُوَ مَوْلَاهَا﴾ بفتح اللام. وقرأ الباقون ﴿هُوَ مَوْلِيهَا﴾ بكسر اللام. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٧٨)، و«النشر» (٢/ ٢٢٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۗ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۗ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ۗ وَلِأْتِمَّ بِنِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ [البقرة: ١٤٩-١٥٠]:

يؤكد -تعالى- في هاتين الآيتين أمره نبيه والمؤمنين باستقبال المسجد الحرام حيث كانوا من الأرض، ومن أي مكانٍ خرجوا، ويؤكد -سبحانه- الخبر بأن استقبال المسجد الحرام هو الحق، فقد أمر بذلك في الآيات السابقة، وأخبر بأنه الحق؛ أي: حكم شرعه الله وفرضه؛ ثم أخبر عن حكمته فيما شرع من استقبال البيت الحرام، وذلك قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، ومعنى ذلك: أنهم لو لم يستقبلوا المسجد الحرام لاحتج عليهم أهل الكتاب بما هو موجودٌ في كتبهم من أنه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يستقبل قبله إبراهيم، واحتج عليهم المشركون كذلك، وقالوا: إنه ترك قبله إبراهيم الذي يزعم أنه مأمورٌ باتباع ملته. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وهم اليهود والمنافقون الذين طعنوا في تحويل القبلة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

ثم أمر الله المؤمنين بخشيته ونهاهم عن خشية الظالمين من الكفار والمنافقين، وبين -تعالى- أن من حكمته في تحويل القبلة: إتمام النعمة على المؤمنين وليكونوا مهتدين، فإنَّ التوجه في الصلاة جهة المسجد الحرام من الهدى الذي شرعه الله لنبيه محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ولأتمته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٢).

وما ذكرته هو معنى ما ذكره الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ^(١) وهو من أحسن ما قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْتَ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ...﴾ الآية، وللطاهر ابن عاشور كلامٌ حسنٌ في الربط بين الآيات المتعلقة بتحويل القبلة من أربعة وأربعين إلى خمسين بعد المائة^(٢).

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ لسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا لِلَّهِ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء والياء تقدّم مثله، وكرّره؛ لبيان تساوي حكم السفر وغيره. ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ كرّره للتأكيد ﴿لَيْتَ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ﴾ اليهود أو المشركين ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: مجادلة في التولي إلى غيره لتنتفي مجادلتهم لكم، من قول اليهود: يجحدُ ديننا ويتبعُ قبلتنا، وقول المشركين: يدّعي ملّة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالعناد فإنهم يقولون: ما تحوّل إليها إلا ميلاً إلى دين آبائه، والاستثناء متصل، والمعنى: لا يكون لأحدٍ عليكم كلامٌ إلا كلام هؤلاء ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ تخافوا جدالهم في التولي إليها ﴿وَإِخْشَوْنِي﴾ بامثال أمري ﴿وَلَا تُتَمِّمُوا﴾ عطفٌ على «لَيْتَ لَا يَكُونُ» ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بالهداية إلى معالم دينكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق.

وقول المؤلف: (بالتاء والياء): إشارة إلى القراءتين في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلَّهِ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقراءة الجمهور بالتاء على الخطاب للمؤمنين، وبالياء على الإخبار عن أهل الكتاب.

(١) ينظر: «تفسير السعدي» (١/١٠٨).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢/٥).

وقوله: (وكررّه...) إلى آخره: أي: كرّر الأمر لاستقبال البيت، وما ذكره المؤلف من حكمة التكرار توجيهٌ حسنٌ^(١).

وقوله: (اليهود أو المشركين): الظاهر هو العموم؛ فالمراد: بالناس اليهود والمشركون.

وقوله: (مجادلة في التولي...) إلى آخره: أي: مخاصمةٌ، وهذا معنى ما ذكره ابن جرير^(٢).



(١) ينظر: «تفسير الراغب» (٣٤١/١)، و«تفسير القرطبي» (١٦٨/٢)، و«ملاك التأويل» لابن الزبير الغرناطي (٥٤/١)، و«البحر المحيط» (٣٨-٣٩/٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٦٩٠/٢).

وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢]:

هذه الآية متصلة في المعنى بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْتَغُوا عَنِّي عِلْمًا﴾، ومن تمامها تحويلُ القبلة إلى البيت الحرام، والكاف للتشبيه، فالمعنى: كما أنعمنا عليكم بإرسال رسولٍ منكم ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا...﴾ الآية، والخطاب للمؤمنين؛ فتضمنت الآية الأولى الامتنان من الله للمؤمنين بإرسال خاتم النبيين، وبما جاء به من الكتاب والحكمة، وأخبر -تعالى- أنه يتلو على المؤمنين الآيات ويُعَلِّمهم الكتاب والحكمة مما كانوا لا يعلمون، فهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ...﴾ الآية من سورة آل عمران [١٦٤].

ثم أمر في الآية الثانية بذكره وشكره، ونهى عن الكفر به، وذكره من شكره، فعطفُ الشكرِ على الذِّكرِ من عطفِ العامِ على الخاصِّ، وأخبر -تعالى- أن من جزاءِ الذاكرين والشاكرين أن يذكرهم ويشكرهم، وفي هذا أبلغُ ترغيبٍ في ذكره -تعالى- وشكره.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ متعلق بـ «أتم»، أي: إتمامًا كما تمامها بإرسالنا ﴿فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ القرآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يُطَهِّرُكُمْ من الشرك ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ما فيه من الأحكام ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ فاذْكُرُونِي ﴿بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ وَنَحْوِهِ﴾ أَذْكُرْكُمْ ﴿قِيلَ: معناه أَجَارِكُمْ، وفي الحديث عن الله: ((من ذكرني

في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه»^(١)
﴿واشكروا لي﴾ نعمتي بالطاعة ﴿ولا تكفروا﴾ بالمعصية.

وقول المؤلف: (متعلق بـ: «أتم»...) إلى آخره: يُوضَّح بهذا المشبه والمشبه به؛ فالمشبه: إتمام النعمة بتحويل القبلة، والمشبه به: إتمام النعمة بإرسال رسول بهذه الصفة يتلو ويُرَكِّي ويعلم. وقوله: (يُظهِرُكُمْ مِنَ الشَّرْكِ): تفسيرٌ للزكاة بالطهارة من الشرك، ولا ريب أن هذا أعظم تطهير، ولكن زكاة النفس أعمُّ من ذلك^(٢)، والمُرَكِّي حقيقةً هو الله، وإضافة الزكاة إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إضافة الشيء إلى سببه.

وقوله: (ما فيه من الأحكام): هذا أحد معاني الحكمة، وقيل: الحكمة هي السنة، وهذا أظهر وأشهر^(٣).

وقوله: (بالصلاة والتسبيح ونحوه): بيان أن ذكرنا لله يعمُّ أنواع العبادات القولية والعملية. وقوله: (قيل: معناه أجازكم...) إلى آخره: تفسيرٌ ذكر الله للمؤمنين بالمجازاة؛ أي: بالثواب تأويل^(٤)، والصواب: تفسيرٌ الآية بالحديث

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) واختاره الطبري وابن عطية وابن كثير والسعدي. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٦٩٤)، و«المحرر الوجيز» (١/٣٨٣) و«تفسير ابن كثير» (١/٤٦٤)، و«تفسير السعدي» (١/١١١).

(٣) تقدم في (ص ٢٧٦) وأن تفسير الحكمة بالسنة هو قول قتادة والحسن وغيرهما.

(٤) قال شيخنا: «تأويل ذكر الله لعبده بالرحمة والثواب، أو الإنعام صرف للكلام عن ظاهره بلا حجة، وكأن الذي قال ذلك يذهب إلى أن الله تعالى لا يتكلم بكلام حقيقي يُسمعه إذا شاء لمن شاء من عباده، وهذا موجب مذهب الأشاعرة في كلام الله سبحانه، وهو أن معنى كلام الله: معنى نفسي، ليس بحرف ولا صوت فلا يتصور سماعه منه، وهو ظاهر الفساد». التعليقات على المخالفات العقديّة في «فتح الباري» (ص ١٥٩، رقم ١١٣).



القدسيّ الذي ذكره المؤلف، وقد دلّت الآية والحديثُ على أنّ هذا الذّكر من الله لعبده جزاءً على ذكْرِ العبدِ لرَبِّه، فهو من قبيل: «الجزاء من جنس العمل»^(١). وقوله: (نعمتي بالطاعة...) إلى آخره: يُبيّن أنّ شُكْرَ الله على نعمه يكون بطاعته، وكُفْرَ نعمه يكون بمعصيته.



(١) ينظر: «مدارج السالكين» (٣/٢٢٣).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]:

هذا أمرٌ من الله لعباده المؤمنين بأن يستعينوا بالصبر وبالصلاة على جميع ما أهمَّهُم من أمر دينهم ودنياهم، والصبرُ يشمل أنواع الصبر الثلاثة: صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصية الله، وصبرٌ على أقدار الله^(١).

والصلاة تشمل الصلوات المفروضة وصلاة التطوع؛ أي: الفرائض والنوافل، ثم يُرْعَبُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهَا أمرٌ به من الصبر بمعنيته للصابرين؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وما أمر الله به المؤمنين في هذه الآية قد أمر به بني إسرائيل في أول السورة في قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، والخطابُ في الآيات المتقدمة للمؤمنين من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد صرَّح بوصف الإيمان في هذه الآية، ومناسبة هذه الآية لما قبلها من وجهين:

أولاً: من جهة أن الأمر باستقبال المسجد الحرام مطلوبٌ في الصلاة، بل شرطٌ لصحتها.

وثانياً: من جهة ما تقدّم من أذى اليهود والمنافقين بالاحتجاج على المؤمنين، والاحتجاج عليهم في تحويل القبلة، ولذا نهى الله عن خشيتهم وأمر بالصبر على أذاهم، وأمّا مناسبة الآية لما بعدها من الآيات فظاهرة، والآية كالمقدمة للآيات بعدها إلى قوله: ﴿الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٥٧٤-٥٧٧)، و«عدة الصابرين» (ص ٤٨) وما بعدها، و«مدارج السالكين» (٢/٤٥١) وما بعدها.



﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا﴾ عَلَى الْآخِرَةِ ﴿بِالصَّبْرِ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ
وَالْبَلَاءِ ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ خَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِتَكَرُّرِهَا وَعِظْمِهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الصَّابِرِينَ﴾ بِالْعَوْنِ.



وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا

تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ [البقرة: ١٥٤]:

هذا نهى من الله لعباده المؤمنين؛ أن يقولوا لمن يقتل في سبيل الله أنهم أموات كسائر الأموات، فإنهم وإن فارقوا الحياة الدنيا بالقتل فإنهم أحياء عند الله حياةً برزخيةً ليست كحياتهم في الدنيا، ولكن المؤمنين لا يشعرون بهذه الحياة؛ لأنها من أحوال الغيب. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾: معطوفٌ على قوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾. و﴿أَمُوتٌ﴾: خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ؛ أي: هم أموات.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: هم ﴿أَمُوتٌ بَلْ﴾ هم ﴿أحيَاءٌ﴾ أرواحهم في حواصل طيور خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت لحديث بذلك، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ تعلمون ما هم فيه.

وقول المؤلف: (أرواحهم...) إلى آخره: الحديث الذي أشار إليه هو في «مسلم» مطوّلاً في باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة^(١).



(١) رواه مسلم (١٨٨٧) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]:

يُخْبِر -تعالى- في هذه الآيات خبرًا مؤكدًا بأنه -تعالى- سيبتلي عباده المؤمنين بأنواع من البلاء في الأموال والأنفس، بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات؛ ليظهر صبرهم، ولذا أمر الله نبيه أن يُبَشِّرَ الصابرين لما لهم عند الله، ووصفهم بأنهم الذين إذا أصابتهم مصيبة؛ قالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾؛ أي: نحن ملكه وعبده وصائرون إليه، ثم أخبر بجزائهم وأثنى عليهم؛ فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾: والصلاة من الله على عباده الصابرين: ذكره لهم وثناؤه عليهم، والرحمة معنى يقوم بالربِّ، وهو ضدُّ الغضب والعذاب، فيقتضي الرضا عن المرحوم وصرف العذاب، يدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبَكُمُ﴾ [الإسراء: ٥٤]، وقوله -تعالى- في الكتاب الذي عنده فوق العرش: ((إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي))^(١)، والمهتدون العالمون بالحقِّ العاملون به، ومن هُداهم: الصبرُ لله والتسليمُ لحكمه والرضا بقضائه.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ للعدو ﴿وَالْجُوعِ﴾ القحط
﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ بالهلاك ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ بالقتل والموت والأمراض
﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ بالجوائح؛ أي: لِنُخْتَبِرَنَّكُمْ فننظرُ أتصبرون أم لا؟ ﴿وَبَشِّرِ
الصَّابِرِينَ﴾ على البلاء بالجنة. هم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ﴾ بلاءٌ
﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ ملكًا وعبيدًا يفعل بنا ما يشاء ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ في

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآخرة فيجازينا، في الحديث: ((من استرجع عند المصيبة آجره الله فيها وأخلف عليه خيراً))^(١). وفيه: أَنَّ مصباح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِيَ، فاسترجع، فقالت عائشة: إِنَّمَا هَذَا مِصْبَاحٌ، فقال: ((كُلُّ مَا سَاءَ الْمُؤْمِنُ فَهُوَ مُصِيبَةٌ)) رواه أبو داود في مراسيله^(٢). ﴿أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ ﴿مَغْفِرَةٌ ﴿مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴿نِعْمَةٌ ﴿وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ ﴿إِلَى الصَّوَابِ.

وقول المؤلف: (للعدو، القحط، بالقتل، بالجوائح): نَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى أَهَمِّ أسباب الخوف والجوع والنقص. وقوله: (بالجنة): لأنها من أعظم ما يُبَشِّرُ به المؤمن، ويدخل في البشارة: الصلواتُ والرحمةُ من الله كما في الآية.

(١) أخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (٧٠٧/٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٤٢١)، والطبراني في «الكبير» (١٣٠٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٢٤٠)، من طريق عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ ﴿الآية، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وذكره بنحوه. وهذا إسناد ضعيف؛ وله علتان، الأولى: الانقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس؛ فإنه لم يسمع منه، وروى عنه مراسلاً.

والأخرى: الضعف في ابن أبي طلحة نفسه؛ فقد تكلم فيه بعض الأئمة، قال أحمد بن حنبل: له أشياء منكرات. ينظر: «الميزان» (٥٨٧٠)، والتهذيب (٣٣٩/٧، رقم ٥٦٧)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٥٠٠١).

وجاء معنى الحديث في صحيح مسلم (٩١٨) عن أم سلمة مرفوعاً: ((ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿[البقرة: ١٥٦]، اللهم أجرني في مصيبي، وأخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها)).

(٢) «مراسيل أبي داود» (٤١٢) عن عمران القصير.

وقوله: (هم): يريد أن الاسم الموصول خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ؛ تقديره: هم، والجملة مُستأنفة، والأظهر أن الاسم الموصول صفةٌ للصابرين^(١).
 وقوله: (مغفرةً) (نعمةً): تفسيرٌ قاصرٌ.
 وقوله: (إلى الصواب): يُريدُ في الأقوال والأعمال.



(١) قال أبو حيان: «هو ظاهر الإعراب»، وقال السمين الحلبي: «هو الأصح». ينظر: «البحر المحيط» (٥٦/٢)، و«الدر المصون» (١٨٦/٢)، و«التبيان في إعراب القرآن» (١٢٩/١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]:

الصفا والمروة جبلان صغيران أحدهما في الجنوب الشرقي من البيت عند جبل أبي قبيس^(١)، والمروة في الشمال الشرقي عند جبل قُعيقَعان^(٢)، وقد أخبر - سبحانه - في هذه الآية أنهما من شعائر الله؛ أي: من معالم دينه، فلذا شرع الطواف بهما بالتردد بينهما بدءاً بالصفا وذهاباً إلى المروة سبع مرات، ذهابه مرة ورجوعه مرة، فينتهي بالمروة، ويسعى في بطن الوادي وهو ما بين العلمين.

وقد شرع الله الطواف بهما في كل حجٍّ وعمرة، لقوله: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطوف بهما في كل حجٍّ وعمرة، وقال: ((خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ))^(٣)؛ فعلم أنه لا يشرع الطواف بينهما إلا للحجِّ والمعتمر.

وقد اختلف العلماء في حكم الطواف بينهما؛ فقليل: سُنَّة، وقيل: واجب، وقيل: ركن، والأقرب أنه واجب^(٤).

(١) أبو قُبَيْسٍ: بلفظ التصغير، كأنه تصغير قيس النار: وهو اسم الجبل المشرف على مكة، وجهه إلى قعيقَعان ومكة بينهما، أبو قبيس من شريقيها، وقعيقَعان من غربيها، قيل سمي باسم رجل من مذحج كان يكنى أبا قبيس، لأنه أول من بنى فيه قبة. ينظر: «معجم البلدان» (٨٠/١).

(٢) قُعيقَعان: بالضم ثم الفتح، بلفظ تصغير: وهو اسم جبل بمكة، قيل: إنما سمي بذلك لأن قطوراء وجرهم لما تحاربوا قعقت الأسلحة فيه. ينظر: «معجم البلدان» (٣٧٩/٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٢٩٧) من حديث جابر، وهو بهذا اللفظ عند البيهقي في «السنن الكبرى» (٩٦٠٠).

(٤) وهو مذهب الحسن البصري، وأبي حنيفة، والثوري، ورواية عن الإمام أحمد، اختارها من أصحابه القاضي، ورجحها ابن قدامة في «المغني»، ونسب ابن تيمية هذا القول إلى جمهور الأصحاب، والمذهب عند المتأخرين أنه ركن كما في «شرح المنتهى» (١٧٤/٢)، =

وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: فلا حرج ولا إثم على مَنْ طاف بهما؛ أي: سعى بينهما.

وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾: هو حجة مَنْ قال أَنَّ الطَّوْفَ فِي الصِّفَا وَالْمَرُوءِ سُنَّةٌ.

وقوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرَ آيَاتِ اللَّهِ شَاكِرٌ عَلَيْهِ﴾: ترغيبٌ فِي كُلِّ مَا هُوَ طَاعَةٌ، وَكُلُّ طَاعَةٍ لِلَّهِ خَيْرٌ، وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ؛ لِأَنَّهُ شَاكِرٌ عَلَيْهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُرْتَبِطَةٌ بِآيَاتِ الْقِبْلَةِ؛ لِمَا بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرُوءِ وَالْبَيْتِ الَّذِي هُوَ الْقِبْلَةُ مِنَ الْارْتِبَاطِ الْمَكَانِيِّ وَالْحُكْمِيِّ.

﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرُوءَ﴾ جَبَلَانِ بِمَكَّةَ ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أَعْلَامِ دِينِهِ، جَمْعُ شَعِيرَةٍ ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ أَي: تَلَبَّسَ بِالْحَجِّ أَوْ الْعَمْرَةِ، وَأَصْلُهُمَا الْقَصْدُ وَالزِّيَارَةُ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ إِثْمٌ ﴿عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الطَّاءِ ﴿بِهِمَا﴾ بِأَنْ يَسْعَى بَيْنَهُمَا سَبْعًا. نَزَلَتْ لَمَّا كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَطُوفُونَ بِهِمَا وَعَلَيْهِمَا صَنْمَانٍ يَمَسُحُونَهُمَا^(١). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ السَّعْيَ غَيْرُ فَرِيضَةٍ؛ لِمَا أَفَادَهُ رَفْعُ الْإِثْمِ مِنَ التَّخْيِيرِ^(٢)؛ وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ: رُكْنٌ^(٣). وَبَيَّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرِيضَتَهُ بِقَوْلِهِ:

= و«كشاف القناع» (٣٥٨/٦). ينظر: «المغني» (٥/٢٣٨-٢٣٩)، و«شرح العمدة» لابن تيمية (٥/٣٥٨) وما بعدها.

(١) أخرجه البخاري (١٦٤٨)، ومسلم (١٢٧٨) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ينظر أيضًا: «أسباب النزول» (ص ٤٤-٤٧)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/٤٠٦-٤١١).

(٢) روي عن أنس وابن الزبير وعطاء وابن سيرين ومجاهد، وإليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٧٢٢-٧٢٤)، و«تفسير القرطبي» (٢/١٨٢)، و«المغني» (٥/٢٣٨) وما بعدها.

(٣) ينظر: «الأم» (٣/٥٤٤)، و«المجموع شرح المذهب» (٨/١٠٣).

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ)) رواه البيهقي وغيره^(١). وقال: ((أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ)) يعني: الصفا، رواه مسلم^(٢)، ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ وفي قراءةٍ بالتحية وتشديد الطاء مجزوماً، وفيه إدغامُ التاء فيها، ﴿خَيْرًا﴾ أي: بخير، أي: فعملٌ ما لم يجب عليه من طوافٍ وغيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ لعملِهِ بالإثابة عليه ﴿عَلِيمٌ﴾ به.



وقولُ المؤلف: (جبلان بمكة): أي: جبلان معروفان بمكة. وقوله: (أعلام دينه): أي: من أعلام الدين الظاهرة التي يحبُّ الله تعظيمها، وتعظيمُ الصفا والمروة بالطواف بهما وهو السعيُّ بينهما كما بينه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: (أي: تلبَّس بالحجِّ أو العمرة): أي: من دخل في أحدهما بأنَّ أحرَمَ بحجٍّ أو عمرة. وقوله: (وأصلهما القصد والزيارة): يريد أصل معنى الحج والعمرة في اللغة؛ فبيِّن أنَّ معنى الحج في اللغة: القصد^(٣)، ومعنى العمرة: الزيارة^(٤)، وخص بعض المحققين الحج بالقصد إلى معظم^(٥).

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٤٥٤)، والطبراني في «الكبير» (٥٢٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩٤٤١) من طريق مهران بن أبي عمر، عن الثوري، عن المشنى بن الصباح، عن المغيرة بن حكيم، عن صفية بنت شيبة، عن تملك قالت: «نظرت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا في غرفة لي بين الصفا والمروة وهو يقول:» وذكرته. والحديث تفرد به مهران بن أبي عمر، وفي حديثه اضطراب كما قال البخاري. «الكامل» لابن عدي (١٩٤٢)، و«الميزان» (٨٨٢٨). وأيضاً: المشنى بن الصباح ضعيف. «الكامل» (١٩٠٢)، «الميزان» (٧٠٦١).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «لسان العرب» (٢/٢٢٦). (٤) ينظر: «لسان العرب» (٤/٦٠٤).

(٥) وهو قول الخليل والمناوي. ينظر: «العين» (٩/٣)، و«التوقيف على مهمات التعاريف» (ص ١٣٦)، و«العدة في فوائد العمدة» لشيخنا (ص ٣٣٢).

وقوله: (فيه إدغامُ التاء في الأصل في الطاء): يُبَيِّنُ أَنْ أَصْلَ ﴿يَطَّوَّفَ﴾ «يَتَطَوَّفُ» فَسُكِّنَتِ التَّاءُ وَقُلِبَتْ طَاءً وَأُدْغِمَتْ فِي الطَّاءِ.

وقوله: (بأنَّ يسعى بينهما): بيانٌ لمعنى الطواف بالصفة والمروءة أنه السعي بينهما سبغاً، يبدأ بالصفة وينتهي بالمروءة.

وقوله: (نزلت...) إلى آخره: تَضَمَّنَ الإِشَارَةَ إِلَى سَبَبِ النُّزُولِ، وَبَيَانَ حَكْمِ السَّعْيِ، وَمَا يَبْدَأُ بِهِ وَهُوَ الصِّفَاءُ، لِلْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَهُ، وَاللَّهُ - تَعَالَى - قَدْ بَدَأَ بِالذِّكْرِ بِالصِّفَاءِ؛ لَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ».

وقوله: (وفي قراءة...) إلى آخره: يُرِيدُ أَنْ «تَتَطَوَّعَ» فِي الْآيَةِ قُرْئِ ﴿يَطَّوَّعَ﴾ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ^(١)، وَأَصْلُهُ: «يَتَطَوَّعُ» فَسُكِّنَتِ التَّاءُ وَقُلِبَتْ طَاءً، وَأُدْغِمَتْ فِي الطَّاءِ.



(١) قرأ حمزة والكسائي في الموضوعين بالياء وتشديد الطاء وجزم العين، والباقون بالتاء وفتح العين. ينظر: «السبعة» (ص ١٧٢)، و«النشر» (٢/ ٢٢٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠]:

يذمّ - تعالى - في هذه الآية ويتوعّد الذين يكتُمون ما أنزل الله من الآيات البيّنات وما فيها من الهدى فأخبر أنه - تعالى - يلعنهم، ويلعنهم اللاعنون، واللّعن هو: الإبعاد عن رحمة الله^(١)، واللّعن من الله يكون قولاً وفعلاً، ومن العباد دعاءً.

وقوله: ﴿اللّعنُونَ﴾: يشمل: الملائكة والناس، وفي ذلك تعريض باليهود في كتمانهم لصفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو هم المَعْنِيُونَ بالآية، وعلى ذلك ففيها عودٌ إلى ذكر مذام اليهود ومساويهم، وقد استثنى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هذا الوعيد الذين تابوا من كتمان آيات الله وأصلحوا أعمالهم وبيّنوا ما قد كتموا، فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا﴾، ثم أكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا الاستثناء بالوعد المؤكّد لأنه يتوب عليهم، فقال: ﴿فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: يقبل توبتهم، وأكد هذا الوعد بأنه - تعالى - ﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١٦٠)، فتوبته على التائبين هو من مقتضى هذين الاسمين: التواب الرحيم.

ونزل في اليهود ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ الناس ﴿مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ كآية الرجم ونعت محمد ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ التوراة ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ يبعدهم من رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ الملائكة والمؤمنون، أو كل شيء: بالدعاء عليهم باللعنة. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٢٦).

رَجِعُوا عَنْ ذَلِكَ ﴿وَأَصْلِحُوا﴾ عملهم ﴿وَبَيَّنُوا﴾ ما كتموا ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ﴾
 عَلَيْهِمْ ﴿أَقْبَل تَوْبَتَهُمْ﴾ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقول المؤلف: (ونزل في اليهود): إشارة إلى أن هذه الآية نزلت في اليهود.
 وقوله: (الناس): يريد أن الاسم الموصول صفة لموصوف محذوف،
 والتقدير: إن الناس الذين يكتُمون.
 وقوله: (كآية الرجم...) إلى آخره: بيان لبعض ما كتمه اليهود من آيات التوراة.



وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢]:

هذا وعيدٌ شديدٌ من الله تعالى للذين كفروا بالله ورسوله وكتابه من أهل الكتاب والمشركين وماتوا على ذلك، توعددهم الله بأن حقت ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾، فباؤوا بسخطِ الله وعذابه خالدين في لعنة الله مُبْعَدِينَ عن رحمته، وعذابهم شديدٌ دائمٌ فلا يُخَفَّفُ عنهم، ولا ينظرون؛ أي: لا يُمهلون إذا وردوا النار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ حال ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: هم مُسْتَحَقُّونَ ذلك في الدنيا والآخرة. والناسُ قيل: عامٌّ، وقيل: المؤمنون. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: اللعنة، أو النار المدلولُ بها عليها ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ طرفه عين ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يُمهلون لتوبةٍ أو معذرة.

وقول المؤلف: (حال): يريد جملة ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾؛ فالمعنى: ماتوا في حالِ كفرهم.

وقوله: (أي: هم مستحقون ذلك...) إلى آخره: يُبين أن اللعنة حلت عليهم بسبب كفرهم فاستحقوا اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين. وقوله: (والناسُ قيل: عامٌّ، وقيل: المؤمنون): أقول: الأول هو الصواب؛ لاقتران كلمة «الناس» بـ «أل» التي للاستغراق، ولتأكيدهِ بأجمعين^(١).

(١) وهو قول أبي العالية واختاره الطبري. ينظر: «تفسير الطبري» (٢/٧٤٢-٧٤٣)، و«المحرر الوجيز» (١/٣٩٦).



وقوله: (اللعنة أو النار): يُبَيِّنُ مَرَجَعَ الضمير المجرور في قوله: ﴿فِيهَا﴾،
والخلودُ في اللعنة يستلزم الخلودَ في النار^(١).



(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٧٤٤/٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤٤٠/١)، و«المحرر الوجيز» (٣٩٦/١).

وقوله تعالى: ﴿وَالْهَكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٣٣﴾

[البقرة: ١٦٣]:

يُخْبِرُ - تعالى - أن المعبودَ الحقَّ معبودٌ واحدٌ ولا معبودَ بحقٍّ سواه، وهو الله تعالى، وهذا خبرٌ متضمَّنٌ للأمر بمقتضاه، وهو الإيمانُ بمضمون هذا الخبر، وذلك باعتقادِ أَنَّ الإلهَ الحقَّ واحدٌ وهو اللهُ الرحمنُ الرحيمُ، مع اعتقادِ أَنَّ كُلَّ معبودٍ سواه باطلٌ، فتضمَّن هذا الخبرُ: الأمرَ بالإيمانِ بالله، وإفراذه بالعبادة وتركَ عبادة ما سواه، والبراءةَ منه، وذلك هو الكفرُ بالطاغوت، فدلت الآيةُ على معنى: لا إلهَ إلا الله، وهي: العروة الوثقى التي لا تنفصمُ، فمن استمسكَ بها نجا؛ فأشبهت هذه الآيةُ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وأشبهتِ البسمةُ من حيث اشتمالها على الأسماء الثلاثة: الله، الرحمن، الرحيم، وتقدَّم الكلامُ في هذه الأسماء في الكلام على الآيتين الأولى والثانية من سورة الفاتحة^(١).

ونزل لَمَّا قالوا: صِفْ لَنَا رَبَّكَ: ﴿وَالْهَكْمُ﴾ المستحقُّ للعبادة منكم ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا نظيرَ له في ذاته ولا في صفاته ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

وقول المؤلف: (لا نظيرَ له): تفسيرٌ لمعنى الواحد، وهذا أحدُ معاني الواحد، وقد ذكره ابنُ جرير، وقدمه وهو معنى صحيح^(٢)، وأظهرُ منه أن معنى ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: أي: لا اثنان؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].

(١) ينظر: (ص ١٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٧٤٥).



وقوله: (هو): يُبَيِّنُ أَنَّ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ تقديره هو، وجملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: تأكيدٌ لمعنى ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.



وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤]:

يُنَبِّهُ -تعالى- في هذه الآية عباده على أدلة إلهيته وربوبيته، وهي: آياته الكونية، وهذه الآيات قد اشتمل عليها ما ذكره الله من المخلوقات؛ خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر، وما أنزل الله من السماء من ماء، وما بث في الأرض من الدواب، والرياح التي يُصِرُّهَا اللهُ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، في كل ذلك آيات دالة على وجود الله وربوبيته وإلهيته وكمال قدرته وحكمته ورحمته.

وإنما ينتفع بهذه الآيات من يتفكر في هذه المخلوقات، ويهتدي بها إلى ما يجب عليه من الإيمان به -تعالى- وتوحيده وأتباع رسله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، وأولوا الأبواب: هم أهل العقول النيرة الزكية، ولذا قال في سورة البقرة: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾، فمن لم يتفكر في هذه المخلوقات ويسبح بحمد خالقها ولم يتدبر الآيات فهو من الغافلين.

وطلبوا آية على ذلك، فنزل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْعَجَائِبِ ﴿٢﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿٣﴾ بِالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ ﴿٤﴾ وَالْفُلْكِ ﴿٥﴾ السَّفِينِ ﴿٦﴾ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ ﴿٧﴾ وَلَا تَرْسِبُ، موقرة ﴿٨﴾ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴿٩﴾ مِنَ التِّجَارَاتِ وَالْحَمْلِ ﴿١٠﴾ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ

﴿مَاءٍ﴾ ﴿مَطَرٍ﴾ ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ ﴿بِالنَّبَاتِ﴾ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ﴿يَسْهَى﴾ ﴿وَبَثَّ﴾ ﴿فَرَقَ وَنَشَرَ﴾ ﴿بِهِ﴾ ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ ﴿لَأَنَّهُمْ يَنْمُونُ بِالْخُصْبِ الْكَائِنِ عَنْهُ﴾ ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾ ﴿تَقْلِبُهَا جَنُوبًا وَشَمَالًا﴾ ﴿حَارَةً وَبَارِدَةً﴾ ﴿وَالسَّحَابِ﴾ ﴿الْغَيْمِ﴾ ﴿الْمُسَخَّرِ﴾ ﴿الْمَذَلَّلِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَسِيرُ إِلَىٰ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ﴾ ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿بِلا عِلَاقَةَ﴾ ﴿لآيَاتٍ﴾ ﴿دَلَالَاتٍ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَىٰ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾.

وقول المؤلف: (وطلبوا...) إلى آخره: يُبَيِّنُ بِذَلِكَ سَبَبَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ وَهُوَ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ طَلَبُوا دَلِيلًا عَلَىٰ أَنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ فَتَزَلَّتْ^(١).

وقوله: (وما فيهما من العجائب): يريد ما في السماء والأرض من الآيات العجيبة كالشمس والقمر والنجوم في السماء، والجبال والأنهار والبحار في الأرض.

وقوله: (بالذهابِ والمجيء...) إلى آخره: فُسِّرَ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِتَعَاقُبِهِمَا وَالزِّيَادَةَ وَالنَّقْصَ فِيهِمَا.

وقوله: (ولا ترسب): يُبَيِّنُ أَنَّ السَّفْنَ تَجْرِي عَلَىٰ ظَهْرِ الْبَحْرِ، وَهِيَ مَوْقَرَةٌ؛ أَي: مُحَمَّلَةٌ^(٢)، وَلَا تَرَسِبُ؛ أَي: لَا تَغْوِصُ فِي الْمَاءِ فَتَغْرُقُ بِمَنْ فِيهَا.

وقوله: (من التجارات والحمل): مِنْ مَنَافِعِ السَّفَنِ: حَمْلُ الْأَثْقَالِ، وَنَقْلُ الْأَمْوَالِ، وَالانْتِقَالَ بَيْنَ الْبُلْدَانِ.

وقوله: (ونشر به...) إلى آخره: أَي: نَشَرَ بِالْمَاءِ النَّازِلِ، فَإِذَا نَزَلَ الْغَيْثُ كَثُرَتْ الدَّوَابُّ وَانْتَشَرَتْ.

(١) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٤٧-٤٨)، و«العجائب في بيان الأسباب» (١/٤١٤).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٥/٢٨٩).

وقوله: (تقليبها...) إلى آخره: يُبين أنّ معنى تصريف الرياح: تغيير جهاتها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وبين ذلك، وتغيير أحوالها بالحرّ والبرد وبالشدّة واللين.

وقوله: (بلا علاقة): يريد أنّ السحابَ بين السماء والأرض ليس مُعلّقاً في شيءٍ.



وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرَأُ فَنَبْرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧]:

يُخْبِر - تعالى - في هذه الآيات عن صنفٍ من الناس ذامًّا لهم ومتوعِّدًا، وهم: المشركون الذين اتخذوا من دون الله آلهةً جعلوهم أندادًا لله؛ أي: نظراءً وأشباهاً فهم يعبدونهم ويحبُّونهم كحبِّهم لله؛ فسوَّوهم بالله في العبادة والمحبة، ولكن المؤمنين الموحدين على الضدِّ من ذلك، فإنهم يحبُّون الله أشدَّ من حبِّ المشركين له ولم يجعلوا لله ندًّا في المحبة؛ لذلك لا يعبدون إلا الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

ثم أخبر - تعالى - عن حال الظالمين أنفسهم بالشرك بالله حين يرون العذاب يوم القيامة، فإنهم في ذلك اليوم يعلمون أنَّ القوة كلُّها لله؛ فلا يطمعون في نصيرٍ يُقذِّهم من عذاب الله، ويعلمون أنَّ عذاب الله شديدٌ، وفي ذلك اليوم يتبرَّأ المتبوعون من الذين اتَّبَعُوهم في الكفر والشرك، ثم يرى الجميع النار فيتمنَّى الأتباع لو رُدُّوا إلى الدنيا ليتبرَّؤوا من أئمَّتهم في الكفر والضلال؛ مجازاةً لهم على تبرُّئهم منهم.

وقوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾ في موضع مفعولي «يرى» في قوله: ﴿وَلَوْ يَرَى﴾، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾: معطوفٌ على جملة: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾.

وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ وهم الرؤساء والكبراء؛ تبرَّؤوا من الذين اتَّبَعُوهم؛ أي: جحدوا عبادتهم لهم وجحدوا أنهم أضلُّوهم، ورأى الجميع عذاب الله فتقطَّعت المُوادَّة التي كانت بينهم، ثم قال الأتباع: ﴿لَوْ أَنَّا لَنَا

كِرَّةٌ ﴿١﴾؛ أي: عودةً إلى الدنيا ﴿فَتَبَرَّأْنَهُمْ﴾؛ أي: من الرؤساء المستكبرين ﴿كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾، فالأتباع يتمنون الردَّ إلى الدنيا ليتبرَّؤوا من الذين تبرَّؤوا منهم، وهذا معنى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كِرَّةً فَنَتَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾، وفي ذلك اليوم يريهم الله أعمالهم القبيحة التي يتحسَّرون منها ندمًا على تفريطهم كما قال تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ كَمَا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤]، ولكن لا ينفع الندم لذلك اليوم ولا يخلصهم من عذاب الله، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ المعنى: أن الله يُري التابعين والمتبوعين أعمالهم فتكون حسراتٍ عليهم فيدخلهم بها النار دخولًا لا خروج بعده، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ﴿١٧﴾، والظرف في قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأْنَا﴾ بدلٌ من الظرف في قوله: ﴿إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي غيره ﴿أَنْدَادًا﴾ أصنامًا ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ بالتعظيم والخضوع ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي كحُبِّهم له ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من حُبِّهم للأنداد؛ لأنهم لا يعدلون عنه بحالٍ ما، والكفار يعدلون في الشدة إلى الله ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ تُبْصِرُ يا محمد ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ باتخاذ الأنداد ﴿إِذْ يَرُونَ﴾ بالبناء للفاعل والمفعول يُبْصِرُونَ ﴿الْعَذَابَ﴾ لرأيت أمرًا عظيمًا، وإذ بمعنى إذا ﴿أَنَّ﴾ أي: لأنَّ ﴿الْقُوَّةَ﴾ القدرة والغلبة ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ وفي قراءة: ﴿يَرَى﴾ بالتحية. والفاعل؛ قيل: ضمير السامع، وقيل ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فهي بمعنى: يعلم، و«أَنَّ» وما بعدها سدت مسدَّ المفعولين، وجواب لو محذوف. والمعنى: لو علموا في الدنيا شدة عذاب الله وأنَّ القدرة لله وحده وقت معابنتهم له وهو يوم القيامة؛ لَمَا اتخذوا من دونه أندادًا. ﴿إِذْ﴾ بدل من إذ قبله ﴿تَبَرَّأْنَا الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أي: الرؤساء ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾

أي: أنكروا إضلالهم ﴿و﴾ قد ﴿رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ﴾ عطفٌ على تَبَرَّأَ ﴿بِهِمْ﴾ عنهم ﴿الْأَسْبَابُ﴾ الوصل التي كانت بينهم في الدنيا من الأرحام والمودة. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعةً إلى الدنيا ﴿فَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أي: المتبوعين ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ اليوم، ولو: للتمني، وتبرأ جوابه ﴿كَذَلِكَ﴾ كما أراهم شدة عذابه وتبرأ بعضهم من بعض ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ السيئة ﴿حَسْرَاتٍ﴾ حال، نداماتٍ ﴿عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ بعد دخولها.

وقول المؤلف: (أصنامًا): فسّر الأنداد بالأصنام، والأصنام من الأنداد، والأنداد؛ هم: النظراء والأشباه فيعمُّ كل ما اتخذه المشركون إلهاً مع الله صنماً أو غيره^(١).

وقوله: (بالتعظيم والخضوع): هذا من تفسير الشيء بأثره فإن التعظيم والخضوع أثر المحبة. وقوله: (كحبهم له): يبيّن أن المشركين يُحبّون أندادهم كحبهم لله فلزم من ذلك التسوية بين الله والأنداد في المحبة.

وقوله: (من حبهم للأنداد...) إلى آخره: يبيّن بذلك أن حبّ المؤمنين لله أشدّ من حبّ المشركين لأندادهم، ثم يوضح هذا التفاوت في شدة المحبة بين حبّ المؤمنين لله وحبّ المشركين لأندادهم بأن المؤمنين يدعون ربهم في الشدة والرخاء، ولا يعدلون عنه لغيره، وأما المشركون فينسبون أندادهم في الشدة، ويخلصون الدعاء لله.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى...﴾ (...إلى آخره: مشى على قراءة نافع وابن عامر «بالتاء» المنقوطة من فوق على الخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو كل من يصلح

(١) تقدم في (ص ٦٥).

له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾؛ أي: تُبْصِرُ، وقرأ الجمهورُ بالياء المثناة التحتية^(١) على الخبرِ عن الظالمين، وجوابُ «لو» محذوفٌ كما هو الغالب؛ فالمعنى على قراءة الجمهور: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: يعلموا حين يرون العذاب أن جميع القوة لله فليس لغيره قوةٌ يدفع بها عن نفسه أو غيره، ويعلموا أن الله شديد العقاب، لرأوا أمراً عظيماً هائلاً وعلموا ضعفهم وعجزهم وعجز آلهتهم؛ فالرؤية في الفعل الأول؛ بمعنى: العلم، وفي الفعل الثاني؛ بمعنى: الإبصار؛ فالأولى: علمية، والثانية: بصرية، وعلى قراءة نافع وابن عامر: الرؤية بصرية في الموضوعين، كما فسرها المؤلف^(٢).

وقوله: (بِتَّخَاذِ الْأَنْدَادِ): تفسيرٌ للظلم بالشرك، وهو تفسيرٌ صحيحٌ يدلُّ له أول الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾.

وقوله: (بالبناء للفاعل والمفعول): يُشيرُ إلى أَنَّ ﴿يَرُونَ الْعَذَابَ﴾ قُرِيءَ بفتح ياء المضارع على البناء للفاعل، وبضمها على البناء للمفعول؛ ﴿يَرُونَ﴾ و﴿يَرُونَ﴾^(٣).

وقوله: (لرأيت أمراً عظيماً): هذا تقديرٌ لجواب «لو» على قراءة ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ بالتاء على الخطاب.

وقوله: (وإذ بمعنى: إذا): يُبيِّنُ بذلك أَنَّ «إِذَا» التي هي ظرفٌ للزمن الماضي؛ بمعنى: إذا لما تعلقت بأمرٍ مستقبلٍ صارت بمعنى: «إِذَا» التي

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ بالياء، وقرأ نافع وابن عامر: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ بالتاء.

ينظر: السبعة (ص ١٧٣-١٧٤)، و«النشر» (٢/ ٢٢٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ١٩-٢٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢٣٨)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤٠٢-٤٠٣)، و«البحر المحيط» (٢/ ٨٨-٨٩).

(٣) قرأ ابن عامر وحده: ﴿إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾ بضم الياء، وقرأ الباقون ﴿يَرُونَ﴾ بفتح الياء. ينظر: «السبعة» (ص ١٧٤)، و«النشر» (٢/ ٢٢٤).

للمستقبل، وصار وضعُ «إذ» مكانَ «إذا» من نوع الخبرِ بالماضي عن المستقبل كقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١] ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩].

وقوله: (أي: لأن): يريد أن جملة ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾ تعليلٌ لجواب «لو» فالمعنى: لرأيت أمراً عظيماً لأنَّ القوةَ لله جميعاً، وذلك على قراءة: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهي التي مشى عليها المؤلفُ كما تقدّم.

وقوله: (القدرة والغلبة): هذا تفسيرُ القوة في قوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾ وهو تفسيرٌ صحيحٌ. وقوله: (حال): يريد أن ﴿جَمِيعًا﴾ في الآية حالٌ من الضمير المستتر في الجار والمجرور ﴿لِلَّهِ﴾ العائد على قوة.

وقوله: (وفي قراءة...): إلى آخره: رجع كلامه إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

وقوله: (بالتَّحْتِيَّةِ): يعني المنقوطة من تحت، فيكون الكلامُ خبراً عن الذين ظلموا.

وقوله: (والفاعل...): إلى آخره: يريد: فاعل ﴿يَرَى﴾ وذكر فيه قولين؛ قيل: ضميرُ السَّامِع فتكون الرؤية بصريةً، وقيل: الفاعلُ الاسمُ الموصول ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهو الصواب، وعلى هذا فالرؤية علمية^(١).

وجملة ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾ سدّت مسدّاً مفعولياً ﴿يَرَى﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ كما ذكر المؤلف. وقوله: (والمعنى....): إلى آخره: تعبيرٌ صحيحٌ مناسبٌ لما تقدّم من كلام المؤلف.

وقوله: (أنكروا إضلالهم): هذا تفسيرٌ لتبرّي الرؤساء المتبوعين من التابعين المستضعفين؛ أي قالوا: لم نُضِلَّهُم بل هم الذين ضلُّوا.

(١) ينظر: «التبيان في إعراب القرآن» (١/ ١٣٥)، و«الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد» (١/ ٤٢٥-٤٢٦)، و«إعراب القرآن وبيانه» (١/ ١٣٠).

وقوله: (قد): يُبين أن جملة ﴿وَرَأُوا الْعَذَابَ﴾ حال، وأن التقدير؛ وقد رأوا.

وقوله: (عنهم): يشير إلى أن الباء بمعنى: «عن»؛ في قوله: ﴿بِهِمْ﴾، وهذا يقتضي أن ﴿تَقَطَّعَتْ﴾ ضُمن معنى ذهبَتْ أو زالت، وقيل: الباء للملابسة، وهذا يقتضي تشبيه الأتباع والمتبوعين بقوم متمسكين بحبال لينجوا فانقطعت بهم فهلكوا، ذكره ابن عاشور ورجَّحه^(١).

وقوله: (الواصل...): إلى آخره: يُبين أن الأسباب التي تقطعت بهم في ذلك اليوم هي الأسباب التي كان يتواصلون بها في الدنيا من المؤادَّة والقربة وغيرها من الصلوات التي تكون بين الناس.

وقوله: (ولو للتمني): يعني أنها ليست شرطية فلا تحتاج إلى جواب.
وقوله: (وتبرأ جوابه): في هذا نظر؛ فقوله: (فتبرأ) من جملة المُتمني لا جواب لـ«لو».

وقوله: (كما أراهم...): إلى آخره: يُبين بما ذكر معنى: كذلك، وهو أن الكاف للتشبيه، وأن اسم الإشارة يعودُ إلى أن الله أراهم النار؛ فالمعنى: كما أراهم الله النار يُريهم أعمالهم، وتكون عليهم حسرات، والحسرة: شدة الندم والحزن، وأشدُّ ما تكون حسرتهم إذا ذُبِح الموت، وقيل لهم: ((يا أهل النار خلودٌ ولا موت))^(٢)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.



(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٩٨/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩]:

هذا خطابٌ من الله لجميع الناس مُمتنًا عليهم بما خلق لهم في الأرض من أنواع المأكَل الطيبة من الحبوب والثمار والحيوان، وأمرهم بالأكل مما خلقه لهم وأباحه لهم ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي: كلُّ ما يأمر به، وذلك إمَّا بمجاوزة الحلال إلى الحرام، وإمَّا بتحريم الحلال كما فعل المشركون؛ وبهذا تظهر مناسبة هذه الآية لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقد أخبر -تعالى- عن المشركين أنهم جمعوا إلى الشرك تحريم ما لم يُحرّمه الله، وفصل ذلك في آيات من سورة الأنعام ثم قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] إلى قوله: ﴿قُلْ هَلْ هُمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

ثم حذّر من اتباع خطوات الشيطان بيان أنه عدوٌّ بينُ العداوة للناس، وأنه لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء والقول على الله بغير علم، والسوء: كلُّ معصية، والفاحشة: كلُّ ما اشتدَّ قُبْحُه^(١)، والقول على الله بغير علم هو من افتراء الكذب على الله، وهذا شاملٌ لكلِّ ما لا طريق إلى معرفته إلا الوحي من أسماء الله وصفاته وشرائع دينه.

ونزل فيمن حرّم السوائب ونحوها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا﴾ ﴿طَيِّبًا﴾ صفة مؤكدة أو مُستلذًا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ طُرُقِ﴾

(١) ينظر: «المفردات» (ص ٦٢٦).

﴿الشَّيْطَانِ﴾ أي: تزيينه ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بين العداوة ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ﴾ الإثم ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ القبيح شرعاً ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من تحريم ما لم يحرم، وغيره.

وقول المؤلف: (ونزل...) إلى آخره: إشارة إلى سبب نزول هذه الآيات^(١).

وقوله: (صفة مؤكدة أو مُستلذًا): فسّر الطيّب بالحلال أو المُستلذ، والراجح هو الثاني^(٢)؛ لأنه يتضمّن زيادة معنى.

وقوله: (أي: تزيينه): هذا تفسير لخطوات الشيطان؛ فخطوات الشيطان: كل ما يزيئنه للإنسان من أنواع المعاصي.

وقوله: (بين العداوة): فسّر المبين بالبين فهو من «أبان»؛ بمعنى: «بان»؛ لا من «أبان الشيء»؛ أي: «بينه»، وهذا التفسير هو المناسب للسياق.

وقوله: (الإثم): فسّر السوء بالإثم، وهذا يعمّ الذنوب كلّها.

وقوله: (القبيح شرعاً): هذا تفسير للفحشاء ولا يتضح به الفرق بين السوء والفحشاء، فإنّ كلّ إثم قبيح شرعاً.

وقوله: (من تحريم ما لم يحرم): يبيّن أنّ تحريم ما لم يحرمه الله كفعل المشركين هو من القول على الله بغير علم.



(١) قال الكلبي عن أبي صالح: نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام، وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. ينظر: «أسباب النزول» (ص ٤٨)، و«العجاب» (٤١٦/١).

(٢) وهو قول الشافعي. ينظر: «تفسير الطبري» (٣٧/٣)، و«المحرر الوجيز» (٤٠٦/١)، و«تفسير الرازي» (١٨٥/٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠٧/٢)، و«البحر المحيط» (١٠٠/٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءِآبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْرٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠-١٧١]:

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْمَشْرِكِينَ أَنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَىٰ اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ؛ قَالُوا: لَا نَتَّبِعُهُ، بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا؛ أَي: مَا وَجَدْنَا، وَهَذَا دَأْبُ الْمَشْرِكِينَ مِنَ الْأُمَمِ، يَرُدُّونَ عَلَى الرَّسْلِ وَيَحْتَجُّونَ بِاقتِدَائِهِمْ بِآبَائِهِمْ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءِآبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءِآثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

قال الله تعالى رادًا عليهم: ﴿أَوْ لَوْ كَانَ ءِآبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾، المعنى: أَيْتَّبِعُونَ ءِآبَاءَهُمْ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَلَا يَهْتَدُونَ؛ فَالاستفهام لِلإنكَارِ وَالتوبيخِ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ التَّفَاتُ مِنَ الْخَطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ. ثُمَّ ضَرَبَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَهُؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ فِي جَهْلِهِمْ وَعَدَمِ عَقْلِهِمْ مَثَلًا بِالْمَاشِيَةِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ مِمَّا تَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً الرَّاعِي، ثُمَّ وَصَفَهُمْ تَعَالَىٰ بِأَنَّهُمْ ﴿صُمُّ بُكْرٌ عُمَىٰ﴾؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَذِهِ الْحَوَاسِ، فَهَمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا خَيْرًا، وَأَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا الْآيَاتِ، وَالسُّنُّ لَا يَتَكَلَّمُونَ بِهَا فِي حَقٍّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾، فَلَا يَتَفَكَّرُونَ وَلَا يَتَذَكَّرُونَ؛ لِأَنَّهُمْ بِاعْرَاضِهِمْ سَدُّوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَبْوَابَ الْهَدَايَةِ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أَي: الْكُفَّارُ ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مِنَ التَّوْحِيدِ وَتَحْلِيلِ الطِّيَابِ ﴿قَالُوا﴾ لَا ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ وَجَدْنَا ﴿عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا﴾ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَحْرِيمِ السَّوَابِ وَالبَحَائِرِ^(١)؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿﴾ يَتَّبِعُونَهُمْ

(١) السَّوَابِ جَمْعُ السَّائِبَةِ: وَهِيَ الْبَعِيرُ يُسَيَّبُ بِنَدْرِ يَكُونُ عَلَى الرَّجُلِ إِنْ سَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ بَلَغَ مِنْزَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ. وَالبَحَائِرُ جَمْعُ الْبَحِيرَةِ؛ وَهِيَ النَّاقَةُ إِذَا تَنَجَّتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ =

﴿ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً﴾ من أمر الدين ﴿ولا يهتدون﴾ إلى الحق، والهمزة للإنكار. ﴿ومثل﴾ صفة ﴿الذين كفروا﴾ ومن يدعوهم إلى الهدى ﴿كمثل الذي ينعق﴾ يَصَوْتُ ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ أي: صوتاً ولا يفهم معناه؛ أي: هم في سماع الموعظة وعدم تدبرها كالبهائم تسمع صوت راعيها ولا تفهمه، هم ﴿صمُّ بكم عمي﴾ فهم لا يعقلون ﴿الموعظة﴾.

وقول المؤلف: (من أمر الدين): يُبَيِّنُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً﴾ ليس عامّاً لأمر الدنيا والدين؛ لأنَّ لَهُمْ عَقُولاً يَعْقِلُونَ بِهَا أُمُورَ دُنْيَاهُمْ، لَكِنْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الدِّينِ؛ لِأَنَّهُمْ مُعْرَضُونَ مُسْتَكْبِرُونَ.



= والخامس ذكر؛ نَحَرُوهُ فَأَكَلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَإِنْ كَانَ الْخَامِسُ أَنْثَى بَحَرُوا أذْنَهَا؛ أَي: شَقُّوْهَا، وَكَانَتْ حَرَامًا عَلَى النِّسَاءِ لِحَمِّهَا وَلِبْنِهَا، فَإِذَا مَاتَتْ حَلَّتْ لِلنِّسَاءِ. يَنْظُرُ: «غَرِيبُ الْقُرْآنِ» لابن قتيبة (ص ١٤٧)، و«غَرِيبُ الْقُرْآنِ» للسجستاني (ص ١١٩-١٢٠).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنَ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنِ اتَّابَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

[البقرة: ١٧٢-١٧٣]:

هذا خطابٌ من الله للمؤمنين يأمرهم فيه ممتناً عليهم ومبيحاً لهم الأكل من طيبات ما رزقهم، ويأمرهم بشكره تعالى على ما أولاهم من الرزق، ويبيِّن تعالى أن طاعته وشكره هو مقتضى عبادتهم له وحده لا شريك له، والشكر هو الطاعة والتعظيم والثناء في مقابل النعمة^(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾.

ثم أخبر تعالى عباده بما حرَّمه من المطاعم الخبيثة، وهي: الميِّتة والدَّم والخنزير وما ذُبِحَ لغير الله، وقد ذكر الله تحريم هذه الأربعة في سورة المائدة والأنعام والنحل، وهذه أخبث المطاعم التي كان أهل الجاهلية يأكلونها من العرب وغيرهم.

و﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر؛ فالمعنى: ما حرَّم الله إلا الميِّتة والدَّم إلى آخر الآية، وذلك قبل تحريم الخمر وكلِّ ذي نابٍ من السباع وكلِّ ذي مخلبٍ من الطير وتحريم الحُمُر الأهلية، ولهذا لم يرد الحصر في سورة المائدة. والميِّتة: كلُّ ما مات حتفَ أنفه مما لا يحلُّ إلا بالذكاة، والمراد بالدم: الدم المسفوح كما في سورة الأنعام، وهو الذي يسيل بخلاف الدم الذي خلقه الله جامداً كالكدب والطحال، والخنزير: هو الحيوان الخبيث المعروف الذي هو من أشهى أطعمة النصارى.

(١) ينظر مباحث نافعة عن تعريف الشكر، وأركانه، والفرق بينه وبين الحمد في: «مدارج السالكين» (٢/٥٨٦-٦١٠).

﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾: هو ما ذُبِحَ للتقرب به لغير الله؛ من صنمٍ أو قبرٍ أو ملكٍ أو جنِّيٍّ، والإهلالُ: رفعُ الصوتِ باسمِ مَنْ قصدَ التقربَ له^(١).

ولمَّا بيَّنَ تعالى هذه المحرمات رخصَ للمضطر بالأكل منها؛ فقال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٧٢)، وحدُّ الضرورة أن يخافَ على نفسه الموتَ إن لم يأكل.

وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾: حالٌ مؤكدةٌ، والباغي: هو الطالبُ لما حرمَ اللهُ عليه، المائلُ إليه بشهوته، والعادي: هو المتعدي المتجاوزُ في أكله، فلا يأكلُ إلا ما يدفعُ الضرورةَ فلا يشبع، لكن يتزوَّد احتياطاً خشيةً أن يضطر ولا يجدَ شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: جوابُ الشرط في قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾، وهو نصُّ الدليل على الرخصة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٧٢): تعليلٌ للرخصة في الأكل من هذه المحرمات عند الاضطرار؛ فالمعنى: غفر للمضطر ورحمه بإباحة الأكل؛ لأنه تعالى غفورٌ رحيمٌ.

﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ حَلَالَاتٍ ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على ما أحلَّ لكم ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أي: أكلها، إذ الكلامُ فيه وكذا ما بعدها، وهي ما لم يُذَكَّ شرعاً، وألحق بها بالسنة ما أبين من حي وخص منها السمك والجراد ﴿وَالدَّمَ﴾ أي: المسفوح كما في الأنعام ﴿وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾ حُصَّ اللحم؛ لأنه مُعْظَمُ المقصود، وغيره تبعٌ له ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾ أي: ذُبِحَ على اسم غيره، والإهلالُ: رفعُ الصوت، وكانوا يرفعونه عند الذبح لآلهتهم ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٨٤٣).

أي: ألبأته الضرورة إلى أكل شيءٍ مما ذكر فأكله ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ خارج على المسلمين ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مُتَعَدِّ عليهم بقطع الطريق ﴿فَلَا إثمَ عَلَيْهِ﴾ في أكله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لأوليائه ﴿رَحِيمٌ﴾ بأهل طاعته، حيثُ وسَّع لهم في ذلك، وخرج الباغي والعادي، ويُلحَقُ بهما كلُّ عاصٍ بسفره؛ كالأبقِ والمكَّاسِ، فلا يحلُّ لهم أكلُ شيءٍ من ذلك ما لم يتوبوا، وعليه الشافعي.

وقولُ المؤلِّف: (حلالات): تفسيرٌ للطيبِ بالحلال، والصوابُ: أنَّ الطيبَ هو المستطابُ المستلذذ^(١)، فليس كلُّ حلالٍ طيبٍ؛ المعنى: كلوا من طيبات ما أحللنا لكم، كما يدلُّ عليه الامتنانُ في قوله: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. وقوله: (ما أبين من حي): يُشيرُ إلى حديث: ((ما قُطِعَ من البهيمة وهي حيةٌ؛ فهو ميتٌ))^(٢).

(١) تقدم في (ص ٣٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٩٠٣)، وأبو داود (٢٨٥٨)، والترمذي (١٤٨٠) وغيرهم، من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي واقد الليثي قال: «قدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، وهم يجوبون أسنمة الإبل، ويقطعون أليات الغنم، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فذكره».

قال الترمذي: «حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث زيد بن أسلم، والعمل على هذا عند أهل العلم».

قال ابن القطان الفاسي: «وإنما لم يصححه الترمذي؛ لأنه من رواية عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، وهو يُضَعَّفُ، وإن كان البخاري قد أخرج له». «بيان الوهم والإيهام» (٣/٥٨٣). قلنا: وعبد الرحمن بن عبد الله بن دينار أخرج له البخاري في المتابعات، وقد ضعفه غير واحد من قبل حفظه؛ قال السلمي عن الدارقطني: «خالف فيه البخاري الناس وليس بمتروك»، وضعفه أبو حاتم وابن معين وابن عدي وغيرهم، ولخص حاله الحافظ في «التقريب» (٣٩١٣) بقوله: «صدوق يخطئ». ينظر: «ميزان الاعتدال» (٢/٥٧٢)، و«تهذيب التهذيب» (٦/٢٠٦).

وقوله: (وخص منها...) إلى آخره: يُبين أنه يُستثنى من عموم الميتة ميتة الجراد وميتة الحوت؛ لحديث: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَانِ»^(١).

وقوله: (خص اللحم...) إلى آخره: يُبين أن الخنزير محرّم كَلِّه لحمه وشحمه وغيرهما، وإنما نصّ على اللحم؛ لأنّه أهمُّ المقصود منه^(٢).

وقوله: (أي: ذُبِحَ على اسم غيره): يُبين أن المراد بـ ﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾: ما ذُكِرَ عليه اسم غير الله عند الذبح، أو قصد به التقرب لغير الله.

وقوله: (ألجأته الضرورة...) إلى آخره: كشدّة الجوع - وهو المخصصة كما في سورة المائدة - أو التهديد بالقتل من ظالم إن لم يأكل.

- = وقد تابعه: عبد الله بن جعفر، والد علي بن المديني: عند الحاكم (٧١٥٠)، وعبد الله بن جعفر ضعيف!
- وقد اختلف فيه على زيد بن أسلم اختلافاً كثيراً، وروي عنه موصولاً ومرسلاً. ينظر: «علل ابن أبي حاتم» (٤/٣٥٣-٣٥٤)، و«علل الدارقطني» (٦/٢٩٧)، و«نصب الراية» (٤/٣١٧)، و«التلخيص الحبير» (١/٥٧ رقم ١٨)، و«البدور المنير» (١/٤٦٠).
- (١) أخرجه أحمد (٥٧٢٣) وابن ماجه (٣٢١٨)، والدارقطني (٤٧٣٢)، والبيهقي (١٩٠٢٨)، (١٩٧٢٩)، من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه عن ابن عمر مرفوعاً. وأخرجه البيهقي (١١٩٦) من طريق سليمان بن بلال، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر موقوفاً.
- قال الدارقطني: «والموقوف عن ابن عمر أصح»، وكذا صحح الموقوف: أبو زرعة، وأبو حاتم.
- قال ابن حجر: «الرواية الموقوفة التي صححها أبو حاتم وغيره، هي في حكم المرفوع؛ لأن قول الصحابي: أحل لنا، وحرّم علينا كذا، مثل قوله: أمرنا بكذا، ونهينا عن كذا، فيحصل الاستدلال بهذه الرواية؛ لأنها في معنى المرفوع، والله أعلم».
- ينظر: «علل الدارقطني» (٣٠٣٨)، و«التلخيص الحبير» (١/٥١ رقم ١٥)، و«الصحيح» (١١١٨).
- (٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٥/١٩٢)، و«تفسير البضاوي» (١/١١٩)، و«البحر المحيط» (٢/١١٣).

وقوله: (خارج على المسلمين...) إلى آخره: هذا التفسير مشهورٌ عن مجاهد^(١)، وليس بظاهر، فإنَّ الباغي والعادي ذُكِرَ في سورتين من السور المكية قبل البقرة والمائدة، ولم يكن هناك باغٍ ولا عادٍ من المسلمين، ولا إمام يُخرج عليه.

وقوله: (وخرج الباغي والعادي...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ لا يشملُ الباغي والعادي، ولا ما قيس عليهما من أصحاب الذنوب؛ كالآبق: وهو المملوكُ الهاربُ من سيِّده، والمكَّاس: هو الذي يظلمُ الناسَ في أموالهم بفرض ضرائبٍ تُؤخَذُ من أصحاب الأموال. وقولُ المؤلِّف: (وعليه الشافعي): يُبَيِّنُ أَنَّ الشافعيَّ لا يرى للمضطر العاصي في سفره الرخصةَ في الأكل، ولو أدَّى ذلك إلى موته^(٢).



(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٥٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٢٨٣، رقم ١٥٢٢، ١٠٢٣).

(٢) ينظر: «الأم» (٢/٢٧٧)، و«المجموع» (٤/٣٤٥)، و(٥٠/٩).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٤-١٧٦]:

هذا وعيدٌ من الله للذي يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب، ويستبدلون بالكتاب ثمنًا قليلًا؛ أي: يأخذون عوضًا عن بيان الكتاب الذي أنزله الله والعمل به من مالٍ أو رئاسةٍ أو جاهٍ، وكلُّ ذلك من متاع الدنيا، وهو قليلٌ؛ لأنه زائلٌ ولو كان كثيرًا.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾: هذه الجملة وما عطف عليها خبرٌ ﴿إِنَّ﴾؛ فتضمَّن هذا الوعيدُ أربعة أمور: الأول: أن ما يأكلونه بسبب المال والرئاسة والجاه هو نارٌ في بطونهم؛ لأنه سيكون نارًا يصلونها يوم القيامة.

الثاني: أن الله لا يكلمهم يوم القيامة كلامًا يسرهم، لكنه يكلمهم كلامًا توبيخ، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤]، وقوله لأهل النار: ﴿قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٧٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨] (١).

الثالث: أنه تعالى لا يزكِّيهم؛ أي: لا يثني عليهم، بل يذمهم ويخزيهم.
الرابع: أن لهم عذابًا أليمًا، وهو عذابُ النار - نعوذ بالله منها -.

(١) واختاره الطبري وغيره، وعزاه الثعلبي لأهل التفسير دون أهل المعاني، وقال شيخنا في «التعليقات على المسائل العقديّة في كتاب التسهيل» (ص ٣٩): «فسر نفي الكلام بأحد وجهين:

- بالغضبِ اللازمِ من تركِ الكلام؛ وهو من التفسيرِ باللازم.

- أو بتركِ كلامٍ مخصوصٍ، وهو ما يُجِبُّوهُ وَيَسْرُّهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾: أي: استبدلوا الضلالة، وهو كتمان العلم وإيثار الدنيا على الآخرة؛ استبدلوا هذا بالهدى؛ وهو: بيان الكتاب، وتبليغُه للناس، وإيثارُ ما عند الله من الثواب للمؤمنين والعاملين بالكتاب، والآية نزلت في أهل الكتاب، والمراد بهم: اليهود^(١)، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا...﴾ الآية [البقرة: ١٥٩-١٦٠]^(٢).

وقوله: ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾: يعني: اشتروا العذاب بالمغفرة؛ لأنهم اشتروا الضلالة - وهي سبب العذاب - بالهدى، وهو: سبب المغفرة.
وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿٧٥﴾﴾: تعجبٌ من صبرهم على عذاب الله، وهو الذي لا يُعذَّب مثل عذابه أحدٌ، ولا يدل هذا على أنهم يصبرون، لكن إيثارهم العذاب يُشعر بأن لهم صبرًا عليه مع أنهم صبروا أو لم يصبروا سواء عليهم^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾: اسمُ الإشارة راجعٌ لِمَا تقدَّم من الذم والوعيد للكاتبين ما أنزل الله المحرِّفين لكلام الله، يقول تعالى: ذلك بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق؛ فكتموه وحرَّفوه ولم يتَّبِعوه، والكتاب هو: القرآن أو التوراة أو كل كتاب أنزله الله، والحق الذي في الكتاب: ما فيه من

= والثاني هو المناسب؛ لظاهر اللفظ، والله أعلم. ينظر: «تفسير الطبري» (٦٧/٣)، و«تفسير الثعلبي» (٣١٩/٤)، و«التفسير الوسيط» للواحدى (٢٦٠/١)، و«البحر المحيط» (١٢٢/٢).

(١) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٤٨-٤٩)، و«العجاب» (٤١٩/١).

(٢) ينظر: (ص ٣٣٠).

(٣) والقول بأن (ما) للتعجب هو قول مجاهد والحسن وقتادة، وهو اختيار الطبري وجمهور المفسرين. ينظر: «تفسير الطبري» (٧٠/٣)، و«الكشاف» (٣٦٨/١)، و«المحرر الوجيز» (٤١٧/١)، و«البحر المحيط» (١٢٤/٢).

الأخبار والشرائع، ومنها الخبرُ بصفة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأمر بالإيمان به واتباعه، فكتّمه هؤلاء وآمنوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ مع أنه كله حق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١٧٦)؛ أي: مشاقة لله ورسوله، وهي العداوة والمحاربة، وفي هذه الآيات عودٌ إلى ذكر مساوئ أهل الكتاب الذين لا يُحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ومن ذلك الخنزير، وبهذا تظهر مناسبة هذه الآيات للآيتين قبلها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ المشتمل على نعتٍ محمّديّ، وهم اليهود ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الدنيا يأخذونه بدله من سفلتهم فلا يُظهرونه خوف فوته عليهم ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ لأنها ماله ﴿وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ غضبًا عليهم ﴿وَلَا يُرَكِّبُهُمْ﴾ يُطهرهم من دنس الذنوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلمٌ، هو النار. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾ أخذوها بدله في الدنيا ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ المُعدّة لهم في الآخرة لو لم يكتموا ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي: ما أشدّ صبرهم، وهو تعجيبٌ للمؤمنين من ارتكابهم موجباتها من غير مبالاة، وإلاّ فأَيُّ صبر لهم؟ ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذُكر من أكلهم النار وما بعده ﴿بِأَنَّ﴾ بسبب أنّ ﴿اللَّهُ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ مُتعلق بـ «نزل» فاختلّفوا فيه حيث آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه بكتّمه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ بذلك، وهم اليهود، وقيل: المشركون، في القرآن حيث قال بعضهم: شعُرٌ، وبعضهم: سِحْرٌ، وبعضهم: كهانةٌ ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلافٍ ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحقّ.

وقول المؤلف: (وهم اليهود): يُشيرُ إلى أنَّ الآيةَ نزلت في اليهود، ولكنَّ العبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فما في الآية من ذمٍّ ووعيدٍ يَعْمُ كُلُّ مَنْ كَتَمَ شَيْئاً مما أنزله الله من أهل الكتاب أو من هذه الأمة.

وقوله: (وهم اليهود...) إلى آخره: الصوابُ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ في اليهود والنصارى والمشرَكين، يشهدُ لذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ...﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ١١٣]، وكلُّ هؤلاء المختلفين مُبطلون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

وقوله: (خلافٍ): فسَّرَ الشُّقَاقَ بالخلاف، وهذا ضعيفٌ، فليس كُلُّ خِلَافٍ شِقَاقٍ؛ فَإِنَّ الشُّقَاقَ: خِلَافٌ مُتَضَمِّنٌ لِلْعَدَاوَةِ وَالْمُنَابَذَةِ وَالتَّبَاعِدِ بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ^(١).



(١) ينظر: «الوجوه والنظائر» للعسكري (ص ٢٦٧).

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بَعَثَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]:

هذه الآية متصلة في المعنى بالآيات المتقدمة في شأن القبلة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَهَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقوله ردًّا على الطاعنين في تحويل القبلة من اليهود وغيرهم: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢]، وبهذا تظهَرُ مناسبة هذه الآية للآيات التي قبلها من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وقد سبق أنها نزلت في اليهود وأشباهم، وقد رجَّح ابن جرير ما رواه عن قتادة؛ أن هذه الآية نزلت في اليهود والنصارى؛ لأن النصارى يستقبلون المشرق، واليهود يستقبلون المغرب^(١)، وكلُّ يرى أن البرَّ في قبلته، فأكذبهم الله بقوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، وقد أيدَ ابن جرير اختياره ذلك بأن سياق هذه الآية متصل بالآيات قبلها النازلة في أهل الكتاب.

وقد بينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هذه الآية حقيقة البر، وهو كلُّ ما يُحِبُّهُ اللهُ مِنَ الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة، ونفى سبحانه أن يكون من البرِّ مجرد تولية الوجه جهة المشرق أو المغرب، وإنما يكون ذلك من البرِّ إذا أمر الله به؛ فقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، والبر: خبر «ليس» مقدم منصوب، واسمها: المصدر المؤول من أن، والفعل ﴿أَنْ تُولُوا﴾، التقدير: ليس البر توليتكم وجوهكم، وليان حقيقة البر قال سبحانه:

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٧٥-٧٦)، وأثر قتادة أخرجه أيضًا عبد الرزاق في تفسيره (رقم

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ إلى آخر الآية، فتضمنت الآية أن من البر الإيمان بالأصول الخمسة؛ وهي: الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب - أي: الكتب - والنبيين، وهذه أصول الاعتقاد.

ثم ذكر ما يدخل في البر من العبادات المالية والبدنية من فرضٍ وتطوع؛ فقال تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾، ومن البر الوفاء بالعهود والصبر على المصائب وفي الجهاد، وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤَفَّقُونَ بِمَا هَدَيْتَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾، ثم ختمت الآية بنعت من تقدم ذكرهم في الصدق والتقوى؛ فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾: على حذف مضافٍ تقديره: ولكن البر إيمانٌ وعملٌ من آمن بالله... إلى آخره^(١)، ومع ما تقدم فقد تضمنت الآية بيان مواضع الإنفاق المستحب في قوله تعالى: ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾، مع النص على أوجب الواجبات العملية؛ وهي: الصلاة، والمالية؛ وهي: الزكاة، وذو القربى: هم القرابة من جهة الأبوين، فيدخل فيهم الأخوة والأخوات وأولادهم، والأعمام والعمات وأولادهم، والأخوال والخالات وأولادهم، والأجداد والجدات، ويدخل في ذوي القربى الذرية من بنين وبنات. وأمّا اليتامى: فواحدٌ منهم يتيم؛ وهو من مات أبوه قبل أن يبلغ، والغالب أن يكون فقيراً. والمساكين: جمع مسكين، وهو من لا يملك كفايته من مطعمٍ ومشربٍ وملبسٍ ومسكنٍ. وابن السبيل: هو المنقطع به في سفره.

(١) وهو اختيار الفراء والزجاج وقطرب، وتخريج سيبويه واختياره. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/٦٢)، (١/١٠٤)، و«تفسير الطبري» (٣/٧٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٢٤٦-٢٤٧)، و«الكشاف» (١/٣٦٢)، و«المحرر الوجيز» (١/٤٢٠)، و«الدر المصون» (٢/٢٤٥).

وقوله: ﴿وَالسَّالِينَ﴾: جمع سائل؛ وهو الذي يسأل الناس لأنه لا يجد كفايته. ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: أي: الإنفاق في الرقاب بالعتق وفك الأسير المسلم. وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾: عطفًا على ﴿وَأَتَى الْمَالَ﴾، وكأنهما شرط في قبول إيتاء المال على حبه، والصلاة هي: الصلوات الخمس المكتوبة على العباد في كل يوم وليلة، وإقامتها: أداؤها بشروطها وواجباتها وأركانها وأوقاتها. والزكاة هي: زكاة المال المفروضة التي هي قرينة الصلاة في الكتاب والسنة.

وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعَثْنَا مِنْهُنَّ إِذَا عَاهَدُوا﴾: عطف على محل ﴿مَنْ﴾ وهو الرفع الواقعة خبر «لكن»، وهو ثناء من الله على من آمن بالله واليوم الآخر بأنهم يوفون بالعهد التي بينهم وبين الله؛ كالنذر، أو بينهم وبين العباد؛ ومنها عقود المعاملات. وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾: نُصِبَ على الاختصاص. ﴿فِي الْبِئْسَاءِ﴾: يعني الفقر. ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: المرض. والبأس: القتال^(١).

ثم أثنى عليهم بكمال الصدق والتقوى؛ فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾، وعلم من ذلك أن جميع خصال البرّ داخلة في اسم التقوى، وهي عنوان الصدق في الإيمان؛ فعلم مما تقدّم أن اسم البر شامل لجميع مسائل الدين الاعتقادية والعملية المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده^(٢)، وعلم أيضًا أن هذه الآية أجمع آية لأصول الدين وفروعه إجمالاً في المنهيات وتفصيلاً في المأمورات.

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٧٠).

(٢) ينظر: «الإيمان الكبير» لشيخ الإسلام (ص ١٣٣-١٤٣)، و«الجواب الصحيح» (٣/ ١١٧ -

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ﴾ في الصلاة ﴿قَبْلَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ﴾ نزل رداً على اليهود والنصارى حيث زعموا ذلك ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾
أي: ذا البر، وقرئ البار ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾
أي الكتب ﴿وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ مَعْرُوفٍ﴾ له ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾
القرابة ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسافر ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾
الطالبين ﴿وَفِي﴾ فك ﴿الرَّقَابِ﴾ المكاتبين والأسرى ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
الزَّكَاةَ﴾ المفروضة وما قبله في التطوع ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾
الله أو الناس ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ نصب على المدح ﴿فِي الْبُؤْسَاءِ﴾ شدة الفقر
﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المرض ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وقت شدة القتال في سبيل الله
﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إيمانهم أو ادعاء البر
﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الله.

وقول المؤلف: (وقرئ البار): هذه قراءة غير معروفة^(١).
وقوله: (أي: الكتب): يبين أن الكتاب اسم جنس، فيشمل كل كتب الله.
وقوله: (مع حبه): أي: يُنفقون المال، وهم: يحبونه، وبهذا ينال البر؛ كما
قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

(١) لم نجد هذه القراءة لا في المتواتر ولا في الشواذ، وأول من ذكرها - فيما نحسب -
الزمخشري؛ فقال: «وقرئ: ولكن البار»، «الكشاف» (١/٣٦٣)، ثم تتابع المفسرون؛
فأوردها البيضاوي (١/١٢١)، والنسفي (١/١٥٣)، والسمين الحلبي في «الدر المصون»
(٢/٢٤٧). ومما يؤكد أن هذه القراءة غير موجودة ما قاله المبرد: «لو كنت ممن أقرأ القرآن
لقرأت: ولكن البر من آمن بالله، بفتح الباء»، نقله عنه الثعلبي في تفسيره (٤/٣٣٠)،
والزمخشري (١/٣٦٣)، والرازي (٥/٢١٤)، فلو كانت تلك القراءة موجودة لما قال
المبرد هذا الكلام، والله أعلم.

وقوله: (له): الضميرُ يعودُ إلى المال لأنه المحبوب، والضمير في قوله: ﴿حُبَّهُ﴾ يعود إلى المؤتي للمال؛ أي: المنفق، وعليه فالمصدرُ مضافٌ إلى فاعله، وهو المحب.

وقوله: (الطالبين): أي: الطالبين للعتاء.

وقوله: (فك): أي: يُنفقون المال في فك الرقاب؛ أي: العتق.

وقوله: (المكاتبين والأسرى): يُبين أنه يدخل في فك الرقاب مكاتبَةُ المملوك وتخليصُ الأسير المسلم عند الكفار.

وقوله: (الله أو الناس): يُبين أنَّ العهد الذي يوفي به المؤمنون بالله واليوم

الآخر شاملٌ للعهد الذي بينهم وبين الله، أو بينهم وبين الناس.

وقوله: (نُصب على المدح): إذا قُطِع الوصفُ عمَّا قبله فإنه يُنصب؛

فيقال: منصوبٌ على المدح، أو منصوبٌ على الاختصاص؛ أي: إنه منصوبٌ بفعل محذوف: أمدح، أو أخص.

وقوله: (في إيمانهم...): إلى آخره: الصوابُ: أنهم صدقوا في إيمانهم

وفي أعمالهم، وهذا يتضمَّنُ كمالَ إخلاصهم واجتهادهم.



وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ [البقرة: ١٧٨-١٧٩]:

هذا خطابٌ من الله لعباده المؤمنين؛ لإعلامهم بحكم كتبه الله عليهم وهو القصاص في القتل، ومعنى الآية عند جمهور العلماء من المفسرين وغيرهم: هو وجوبُ القصاص على القاتل عمداً عدواناً^(١)، وأنَّ ذلك حقٌّ لأولياء المقتول، فمن شاء أخذ به ومن شاء عفا عن القصاص إلى الدية أو مجاناً؛ فقولهُ تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: خطابٌ لكلِّ من وجبَ عليه القصاصُ، ولولاة الأمر في تنفيذه.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾: أي كتبتُ الله عليكم؛ أي: أوجب، و﴿الْقِصَاصُ﴾ في اللغة: مأخوذٌ من قَصَّ الأثر، وهو تتبُّعه^(٢)، وفي الشرع: قتلُ القاتل، وأن يُفعل به نظير ما فعله بالمقتول.

وقوله: ﴿فِي الْقَتْلِ﴾: جمعٌ قتيل، والمعنى: في شأن القتل، وهذا الحكم مجملٌ فصله بقوله: ﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾، ومعنى الآية: أنَّ الحرَّ القاتل يُقتل بالحر، ومفهومه: أنه لا يُقتل بالعبد، وأنَّ العبدَ القاتل يُقتل بالعبد، ومن باب أولى أن يُقتل بالحرِّ، وأنَّ المرأةَ القاتلة تُقتل بالمرأة، ومن

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٩٤) (٣/ ٩٥)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٩٣)، و«أسباب النزول» (ص ٤٩)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٤٢٣).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٧/ ٧٦).

باب أولى أن تُقتل بالرجل، وقد دلت السنة على أن الرجل يُقتل بالمرأة^(١)، كما دلت السنة على أن المسلم لا يُقتل بالكافر^(٢).

ثم بين سبحانه حكم ما إذا عُفي للقاتل شيء من دم أخيه المقتول، بأن عفا أولياء الدم أو بعضهم عن القصاص إلى الدية، ووجبت الدية في مال القاتل؛ فعلى العافي اتباع القاتل في طلب الدية بالمعروف؛ أي: بلا تعنت ولا إشفاق، وعلى القاتل أداء الدية إلى العافي بإحسان؛ بلا مَطْلٍ ولا بخسٍ من الواجب عليه.

و«من» في قوله: ﴿فَمَنْ عَفِيَ﴾: اسم شرط أو اسم موصول مُضَمَّنٌ معنى الشرط، وهو عبارة عن القاتل.

وقوله: ﴿فَاتَّبَعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾: جواب الشرط، وهو مبتدأ، وخبره محذوف تقديره: (فعلية)؛ أي: العافي وهو ولي الدم.

و﴿عَفِيَ﴾: فعل مَبْنِيٌّ للمفعول، ونائب الفاعل ﴿شَيْءٌ﴾، والضمير في قوله: ﴿لَهُ﴾، وفي قوله: ﴿أَخِيهِ﴾ يعود إلى «من»، وهو القاتل، والجار والمجرور في قوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: صفة لاتِّباع. وجملة: ﴿وَأَدَّاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾: معطوفة على: ﴿فَاتَّبَعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

﴿وَأَدَّاءٌ﴾: مبتدأ، وخبره محذوف تقديره: وعلى القاتل أداء ما وجب عليه بإحسان. والضمير في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾: عائذ إلى ولي الدم؛ وبعد: فتقدير الكلام في معنى الجملة: القاتل الذي عفا له وليُّ الدم شيئاً من دم أخيه المقتول،

(١) لما أخرجه البخاري (٦٨٨٥)، ومسلم (١٦٧٢) عن أنس بن مالك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «قتل يهودياً بجارية قتلها على أوصاح لها»، ولما رواه النسائي (٤٨٥٣) والبيهقي (١٦/١٧٤)، رقم (١٦٠٠٤) وغيرهما: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب في كتاب عمرو بن حزم: «أن الرجل يقتل بالمرأة».

(٢) لما أخرجه البخاري (٦٩١٥) من حديث علي: «وأن لا يقتل مسلم بكافر».

ووجبت عليه الدية؛ فعلى العافي إذن طلبُ الدية بالمعروف، وعلى القاتل أداؤها إلى الولي بإحسان.

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾: اسمُ الإشارة راجعٌ إلى حكم التخيير بين القصاص والعفو إلى الدية، فإنه تخفيفٌ من الله في هذه الشريعة بعد أن كان القصاص حتمًا في شريعة التوراة^(١)، وهذا من رحمة الله التي قامت عليها رسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وفي ذكر هذا التخفيف والرحمة امتنانٌ من الله على هذه الأمة بهذه النعمة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فْلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ لمن اعتدى بعد العفو وأخذ الدية، و«من»: اسمٌ شرطٌ أو اسمٌ موصولٌ مُتضمِّنٌ لمعنى الشرط.

وقوله: ﴿فَلَهُ﴾: جوابُ الشرط، وهو وعيدٌ شديدٌ للمعتدي بعد العفو وأخذ الدية، والمراد بالعذاب؛ قيل: تحتمُ القتل على المعتدي، وقيل: المرادُ به عذابُ الآخرة، وهو أظهر^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: خبرٌ من الله عن حكمة فرضِ القصاص، وهو أن للناس في القصاص حياة بسبب سلامتهم من فُشوِّ القتل فيهم؛ لأنَّ في القصاص رادعًا يمنع من الإقدام

(١) أخرج البخاري (٤٤٩٨) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: «كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية». فقال الله تعالى لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ، فَمَن عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾.

(٢) القول الأول الذي ذكره شيخنا روي عن قتادة، والقول الثاني هو المشهور، وهو قول مالك ونسبه ابن عاشور لجمهور المفسرين، واختاره الزمخشري والرازي، واستظهره أبو حيان. ينظر: «الكشاف» (١/٣٧٢)، و«المحرر الوجيز» (١/٤٢٧)، و«تفسير الرازي» (٥/٢٢٨)، و«البحر المحيط» (٢/١٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢/١٤٤).

على القتل، وخصَّ الخطاب بأولي الألباب - وهي العقول الزكية-؛ لأنهم يُدركون ما في الشرائع من الحكم التي يعود نفعها إلى الناس.
وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩): أي: لتتقوا الله بفعل ما فرض عليكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ المماثلة
﴿فِي الْقَتْلِ﴾ وصفًا وفعلاً ﴿الْحُرِّ﴾ يُقْتَلُ ﴿بِالْحُرِّ﴾ ولا يُقْتَلُ بالعبد
﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ وبيَّنت السنة أن الذَّكَرَ يُقْتَلُ بها، وأنه
تُعتبر المماثلة في الدين؛ فلا يُقْتَلُ مسلمٌ ولو عبدًا بكافر ولو حرًّا ﴿فَمَنْ
عُنِيَ لَهُ﴾ من القتالين ﴿مِنْ﴾ دم ﴿أَخِيهِ﴾ المقتول ﴿شَيْءٍ﴾ بأن ترك
القصاص منه، وتنكير «شيء» يُفيد سقوط القصاص بالعمو عن بعضه ومن
بعض الورثة، وفي ذكر «أخيه» تعطفُ داعٍ إلى العفو وإيدانٌ بأنَّ القتل لا
يقطع أُخُوَّةَ الإيمان. ومن: مبتدأ، شرطية أو موصولة، والخبر: ﴿فَاتَّبَاعٌ﴾
أي: فعلى العافي اتباع للقاتل ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بأنَّ يُطالبه بالدية بلا عُنْفٍ.
وترتيب «الاتباع» على «العفو» يُفيدُ أنَّ الواجبَ أحدهما، وهو أحدُ قولي
الشافعي، والثاني: الواجبُ القصاص والدية بدلًا عنه، فلو عفا ولم يُسمِّها
فلا شيء، ورُجِحَ ﴿وَ﴾ على القاتل ﴿أَدَاءً﴾ للدية ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: العافي؛
وهو الوارث ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ بلا مظل ولا بخس ﴿ذَلِكَ﴾ الحكمُ المذكورُ من
جواز القصاص والعفو عنه على الدية ﴿تَخْفِيفٌ﴾ تسهيلٌ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾
عليكم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بكم، حيث وسَّعَ في ذلك ولم يُحتمِّ واحدًا منهما كما
حتمَّ على اليهود القصاص وعلى النصارى الدية ﴿فَمَنْ اعْتَدَى﴾ ظلمَ القاتل
بأنَّ قتله ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: العفو ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلِّمٌ في الآخرة بالنار،
أو في الدنيا بالقتل ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ أي بقاءً عظيمٌ ﴿يَا أُولِي

الألْبَابِ ﴿ذَوِي الْعُقُولِ؛ لِأَنَّ الْقَاتِلَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ يُقْتَلُ ارْتَدَعَ؛ فَأَحْيَا نَفْسَهُ وَمَنْ أَرَادَ قَتْلَهُ، فَشَرَعَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الْقَتْلَ مَخَافَةَ الْقَوْدِ.

وقولُ المؤلِّفِ: (المماثلة): يُريد المماثلةَ في صفة قتلِ القاتلِ؛ بأن تكون مثل ما فعله القاتلُ بالمقتول.

وقولُه: (وصفًا وفعلاً): يريد أنَّ القصاصَ - وهو المماثلة - يُراعَى في الوصف؛ كالحرية والعبودية والذكورية والأنوثة، وفي الفعل؛ وهي صفة القتل، ونوع الآلة.

وقولُه: (يُقْتَلُ): تقديرٌ لمتعلقٍ بالحرِّ، ومثله العبدُ بالعبد والأُنثى بالأُنثى.

وقولُه: (ولا يُقْتَلُ بالعبد): يُشير إلى مفهوم القيد بقوله: ﴿بِالْحَرِّ﴾.

وقولُه: (من القاتلين): بيانٌ للمراد بـ ﴿مَنْ﴾.

وقولُه: (دم): يُبيِّنُ أَنَّ ﴿مَنْ أَخِيهِ﴾ على تقدير مضاف؛ أي: شيءٌ من دم

أخيه.

وقولُه: (المقتول): يُبيِّنُ أَنَّ المراد بالأخ المضافِ إلى الضمير هو المقتولُ،

والضميرُ يعود للقاتلِ، فأثبت أُخُوَّةَ الدِّينِ بين القاتلِ والمقتولِ.

وقولُه: (بأن ترك القصاص منه): أي بالعفو.

وقولُه: (يفيد...): إلى آخره: يُبيِّنُ أَنَّ القصاصَ يسقطُ ولو بالعفو عن شيءٍ

من دم المقتولِ؛ كعفو بعضِ الورثة.

وقولُه: (وفي ذكر أخيه...): إلى آخره: يُشير إلى أَنَّ إثباتَ الأخوة بين

القاتلِ والمقتولِ باعثٌ للأولياءِ إلى العفو ودالٌّ على بقاء أُخُوَّةِ الإيمانِ.

وقولُه: (فعلى العافي...): إلى آخره: يُبيِّنُ أَنَّ ﴿اتَّبَاعٌ﴾ مبتدأ، وخبرُه

محذوفٌ؛ فالمعنى: الواجبُ على العافي أن يُطالبَ القاتلَ بالدِّيةِ برفقٍ وتسامحٍ.

وقولُه: (وترتيب الاتباع على العفو...): إلى آخره: تضمَّنَ كلامُه أمورًا:

أحدها: أن ترتيب الاتباع - وهو مُطالبه القاتل بالدية على العفو - يُفِيدُ أَنَّ الواجبَ القصاص أو الدية، وأنَّ وليَّ الدمِ مُخَيَّرٌ بين القصاص أو العفو إلى الدية.

الثاني: أن للإمام الشافعي في هذا المقام قولين، هذا أحدهما، والقول الثاني: أن الواجب هو القصاص، والدية بدلٌ عنه، وهو الراجح في مذهب الشافعي^(١).

الأمر الثالث: بين المؤلف ما يترتبُ على القول الثاني؛ وهو أن الوليَّ إذا عفا ولم يذكر الدية سقطَ القصاص، ولم تجب له الدية، والراجح في الدليل هو القول الأول؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرِينَ: إِمَّا أَنْ يَفْدَى، وَإِمَّا أَنْ يَقْتُلَ))^(٢).

وقوله: (على القاتل): يُبَيِّنُ أَنَّ أداءَ مبتدأ وخبره محذوف؛ أي: وعلى القاتل أداءُ الدية بإحسانٍ، والضميرُ في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود إلى الولي الذي عفا. وقوله: (للدية): يُبَيِّنُ أَنَّ المرادَ بالأداء أداءَ القاتل للدية لولي الدم العافي. وقوله: (بلا مطلٍ ولا بخسٍ): يُبَيِّنُ بذلك المرادَ بالإحسان في أداء الدية. وقوله: (الحكم المذكور...) إلى آخره: هو الحكم المذكور في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ...﴾، إلى قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، فأفادت الآية التخييرَ بين القصاص والعفو إلى الدية.

وقوله: (حيث وسَّع في ذلك...) إلى آخره: يبيِّنُ بذلك وجهَ التخفيف في هذه الشريعة.

وقوله: (ظلم القاتل بأن قتله): يبيِّنُ أَنَّ المرادَ بالاعتداء في الآية؛ هو أن يقتل وليُّ الدمِ القاتلَ بعد عفوه عنه، فإنه بعد العفو صار معصوماً.

(١) ينظر: «نهاية المطلب» (١٦/١٣٧)، و«تكملة المطيعي على المجموع» (١٨/٤٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٨٠)، ومسلم (١٣٥٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله: (مؤلِّمٌ في الآخرة بالنار أو في الدنيا بالقتل): جعل المراد بالعذاب شاملاً لعذاب الآخرة وللعذاب في الدنيا بالقتل، والأظهر أنَّ المراد به عذاب الآخرة.

وقوله: (بقاءً عظيمٌ): البقاء بسبب الانكفاف عن العدوان بقتل النفوس بسبب القصاص. وقال المؤلف: (عظيم)؛ لتنكير حياة، ومن دلالات التنكير التعظيم.

وقوله: (لأنَّ القتالَ...) إلى آخره: يُبيِّن أنَّ في شريعة القصاص حياة لمن يُريدُ القتلَ ومن يُرادَ قتلُه.

وقوله: (القتل): هذا تقديرٌ لمفعول ﴿تَتَّقُونَ﴾، ومعناه: الكف عن القتل مخافةً القتل، والأولى أنَّ معنى ﴿تَتَّقُونَ﴾: أي تتقون الله^(١)، ومن اتقى الله كفَّ عن حُرْماته.



(١) واختاره: الزمخشري والرازي وابن كثير وابن عاشور. ينظر: «الكشاف» (٣٧٦/١)، و«تفسير الرازي» (٥/٢٣٠)، و«تفسير ابن كثير» (١/٤٩٢)، و«التحريم والتنوير» (٢/١٤٥).

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠) ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ وَعَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨١) ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨٢) [البقرة: ١٨٠-١٨٢].

هذا خبرٌ من الله بأنه كتب؛ أي: فرض على من حضره الموت؛ كالذي وجبَ عليه القصاص، وبهذا تظهرُ مناسبة الآية لما قبلها.

وقوله: ﴿كُتِبَ﴾: على تقدير واو العطف؛ أي: وكتب.

﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾: أي: مالا، أن يوصي لوالديه وأقربائه بالمعروف؛ أي: بالقدر المعروف الذي لا إفراط فيه ولا تفریط.

﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠): أي: واجبا على المتقين الذين يرجون لقاء الله ويخافونه، فحقا: مصدرٌ مؤكَّد لمضمون الجملة السابقة؛ فالمعنى: أحقَّ الله ذلك الحكم حقا.

وقد دلَّت الآية على وجوب الوصية للوالدين والأقربين، وذهب جمهور العلماء إلى أنها منسوخة بآية الموارث مع قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ))^(١)، وذهب جماعةٌ من أهل العلم إلى أن الآية محكمة؛ أي: ليست منسوخة، قالوا: إن آيات الموارث والحديث مخصَّصة لهذه الآية؛ فتجب الوصية للوالدين والأقربين غير الوارثين، ومن

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذي (٢١٢٠)، وابن ماجه (٢٧١٣) من طريق إسماعيل بن عياش، عن شرحبيل بن مسلم، قال: سمعت أبا أمامة: فذكره. قال الترمذي: «هذا حديث حسن». ورجاله ثقات؛ على لين في شرحبيل - وهو الخولاني الشامي -، فهو صدوق فيه لين كما في «التقريب» (٢٧٧١)، وله شواهد تربو على العشرة. ينظر: «التلخيص الحبير» (٤/٢٠٦٥ رقم ١٧٧٠)، و«الإرواء» (رقم ١٦٥٥).

وقوله: ((لا وصية لوارث))، متواتر كما جنح إليه الشافعي وغيره. ينظر: «الأم» للشافعي (٤/١١٤)، والرسالة (ص ١٣٩)، ونظم المتنائر (١٨٩).

المقرر في الأصول: أنه إذا أمكن الجمعُ فلا يُصار إلى النسخ، وهذا أقرب، والله أعلم^(١).

وقوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾: أي: بدَّلَ كلامَ الموصي بالزيادة أو النقص أو التحريف، ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ من الموصي؛ فإثم ذلك التبديل على المُبدِّل. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: إخبارٌ من الله بإحاطة سمعه بأقوال العباد، وإحاطة علمه بأحوالهم ونياتهم، وفي ذلك تهديدٌ لمن يُبدِّلُ كلامَ الموصي، ومن يُضارُّ في وصيته ويتعدَّى؛ بإعلامه أنَّ الله سامعٌ لأقواله وعالمٌ بحاله فيجبُ الحذرُ من نعمته.

وقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا...﴾ الآية: هذا خبرٌ من الله بأنَّ من حضر عند الموصي، وخاف أن يميلَ في وصيته عن الحق؛ كأن يوصي لوارثٍ، أو يوصي بأكثر من الثلث، أو خاف أن يرتكب الموصي إثماً؛ أي: معصية؛ كأن يوصي لمن يستعين بالوصية على معصية، فمن علم من الموصي شيئاً من ذلك فصرفه عنه وأصلح بينه وبين ورثته؛ فلا إثم عليه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: وعدٌ من الله بالمغفرة لمن تاب أو كانت معصيته خطأً، كما يدلُّ اسمه الرَّحِيم على أنَّ هذه الأحكام من آثار رحمته بعباده.

﴿كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: أسبابه ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ مالا ﴿الْوَصِيَّةُ﴾ مرفوعٌ بكتب، ومُتعلقٌ «إِذَا» إن كانت ظرفية، ودالٌّ على جوابها إن كانت شرطية، وجواب «إِنْ» محذوفٌ؛ أي: فليوصِ

(١) قال الضحاك وطاوس والحسن: هي محكمة غير منسوخة، واختار هذا القول الطبري، ينظر ذكر الخلاف في: «نواسخ القرآن» لابن الجوزي (ص ٥١-٥٧)، و«تفسير الطبري» (٣/١٢٤) وما بعدها، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٢٩٩-٣٠٠)، و«المحرر الوجيز» (١/٤٣١-٤٣٢)، و«تفسير القرطبي» (٢/٢٦٢-٢٦٣).

﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل؛ بالأ يزيد على الثلث، ولا يُفْضَلُ الغنيَّ ﴿حَقًّا﴾ مصدرٌ مؤكَّدٌ لمضمون الجملة قبله ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ الله، وهذا منسوخٌ بآية الميراث وبحديث: ((لا وصية لوارث)) رواه الترمذي ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ أي: الإيصاء، من شاهدٍ ووصيٍّ ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ عِلْمَهُ ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ أي: الإيصاء المبدلُ ﴿عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ﴾ فيه إقامة الظاهر مقام المضمَر ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقول الموصي ﴿عَلِيمٌ﴾ بفعل الوصي، فمُجَازٍ عليه ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ﴾ مخففاً ومثقلًا ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً عن الحقِّ خطأً ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ بأنَّ تعمَّدَ ذلك بالزيادة على الثلث أو تخصيص غني مثلاً ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصي والموصى له بالأمر بالعدل ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقول المؤلف: (أي: أسبابه): يُبَيِّنُ أَنَّ المراد بحضور الموت: حضور أسبابه؛ لأنه لا يُعْرَفُ إلا بوجود أسبابه وأماراته.
وقوله: (مألاً): فَسَّرَ الخَيْرَ بالمال؛ لأنَّ الخَيْرَ من أسماء المال^(١)، وقيل المراد به هنا: المال الكثير^(٢).
وقوله: (مرفوعٌ بكتب...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ الوصية نائبُ فاعلٍ «كُتِبَ»؛ لأنَّ الفعلَ مبنيٌّ للمفعول.

(١) ينظر: «نزهة الأعين النواظر» (ص ٢٨٦).

(٢) روي ذلك عن علي وعائشة وابن عباس وغيرهم مع اختلاف في حد الكثير. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ١٣٤-١٣٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٩٩)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤٣٠).

وقوله: (بالعدل): هذا تفسيرُ المعروف، ثم بيّن أنّ العدلَ ما وافق الشرعَ، وضدّه ما خالفه. وقوله: (وهذا منسوخٌ...) إلى آخره: تقدّم في التفسير ذكرُ الخلاف في نسخ الآية.

وقوله: (عِلْمَهُ): يُبيّن أنّ المرادَ بالسماع: العلمُ؛ سواء حصلَ بالسماع أو بطريقٍ أخرى.

وقوله: (الإيصاءُ المبدلُ): هذا يقتضي أنّ الضمائرَ الثلاثةَ كلها تعودُ إلى الإيصاء، والأظهرُ أنّ الضميرَ الثالثَ في قوله: ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ يعود على التبديل المفهوم من قوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾^(١).

وقوله: (فيه إقامة الظاهر مقام المضمرة): يُريد بالظاهر: الاسمَ الموصولَ ﴿الذين﴾، فإنَّ التركيبَ يقتضي: فإنما إثمهم عليهم.

وقوله: (لقول الموصي، وبفعل الوصي): الصواب: عدمُ التقييد، فالفه سميحٌ لقول الموصي والوصي والمبدل وغيرهم، عليهمُ بأحوالهم وأفعالهم. وقوله: (مخففاً ومثقلاً): يريد: الصاد من «موصي»؛ لأنَّ فيها قراءتين؛ التخفيفُ من أوصى، والتشديدُ من وصّى^(٢).

وقوله: (مياً عن الحق خطأً): إمّا بالزيادة على الثلث، أو بالوصية لوارث، بدليل مقابله بالإثم.

(١) واختاره الطبري وابن عطية والقرطبي والرازي. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/١٣٩)، و«المحرر الوجيز» (١/٤٣٢-٤٣٣)، و«تفسير الرازي» (٥/٢٣٥-٢٣٦)، و«تفسير القرطبي» (٢/٢٦٨)، و«البحر المحيط» (٢/١٦٦).

(٢) قرأ يعقوب وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر بفتح الواو وتشديد الصاد: ﴿مَوْصٍ﴾، وقرأ الباقر بالتخفيف مع إسكان الواو: ﴿مُوصِي﴾. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص١٧٦)، و«النشر» (٢/٢٢٦).

وقوله: (بأن تعمد...) إلى آخره: هذا يؤكدُ أنَّ الجنفَ: هو المخالفةُ لحكمِ الشرعِ خطأً، والإثمُ: هو المخالفةُ عمداً^(١).

وقوله: (بين الموصي والموصى له...) إلى آخره: وكذا بين الموصي وورثته، وذلك بصرف الموصي عما يُخالفُ أحكامَ الوصية في الشريعة، وإقناع الورثة والموصى له بقبول الوصية الجارية على وفق الشريعة، أو ترغيبهم في إجازة ما توقَّفُ صحَّته على إجازتهم.

وقوله: (في ذلك): أي: الإصلاح؛ لأنَّ المصلحَ بينهم محسنٌ وما على المحسنين من سبيلٍ.



(١) وهو قول ابن عباس وأبي العالية ومجاهد وجماعة. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/١٤٩ - ١٥٢)، و«الكشاف» (١/٣٧٨)، و«المحرر الوجيز» (١/٤٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (١/٤٩٥).

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة:

١٨٣-١٨٤]:

يُخْبِرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الصِّيَامَ كَمَا كَتَبَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ؛ كَمُوسَى وَعِيسَى. وَالصِّيَامُ فِي اللُّغَةِ: الْإِمْسَاكُ^(١)، وَفِي الشَّرْعِ: إِمْسَاكٌ عَنْ أَشْيَاءٍ مَخْصُوصَةٍ مَبْنِيَّةٍ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ^(٢).

و﴿كُتِبَ﴾ مَعْنَاهُ: فُرِضَ كَمَا تَقَدَّمَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٨٣﴾: بَيَانٌ لِلْحِكْمَةِ مِنْ فَرْضِ الصِّيَامِ؛ أَي: لِتَتَّقُوا اللَّهَ بِفِعْلٍ مَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنَ الصِّيَامِ وَغَيْرِهِ، وَلِأَنَّ الصَّوْمَ مِمَّا يُعِينُ عَلَى التَّقْوَى. وَقَوْلُهُ: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾: زَرْفٌ، فَالْمَعْنَى: كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ، وَوُصِفَ الْأَيَّامُ بِمَعْدُودَاتٍ يَدُلُّ عَلَى الْقِلَّةِ، وَهُوَ مِنْ وَجْهِ التَّيْسِيرِ فِي هَذِهِ الْفَرِيضَةِ، وَسَيَأْتِي تَعْيِينُ هَذِهِ الْأَيَّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ﴾: مَعْنَاهُ: مَنْ كَانَ مَرِيضًا وَقَتَّ الصِّيَامِ، أَوْ كَانَ مُسَافِرًا فَأَفْطَرَ لِأَنَّهُ يُبَاحُ لَهُمَا ذَلِكَ؛ فَعَلَى مَنْ أَفْطَرَ عِدَّةٌ ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ أَي: فَعَلِيهِ عِدَّةُ الْأَيَّامِ الَّتِي أَفْطَرَ فِيهَا مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، وَمَعْنَاهُ: وَجُوبُ قِضَاءِ الْأَيَّامِ الَّتِي أَفْطَرَ فِيهَا الْمَرِيضُ أَوْ الْمَسَافِرُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾: أَي: وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ الصِّيَامَ فِدْيَةٌ؛ أَي: بَدَلٌ عَنِ الصِّيَامِ طَعَامُ مَسْكِينٍ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ.

(١) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٢/١٨٢).

(٢) ينظر: «تحرير التنبيه» للنووي (ص ١٢٣)، و«المطلع على ألفاظ المقنع» للبعلي (ص ١٨٢).

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: بإطعام أكثر من مسكين فهو خير له.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أي: من الفدية، ومعنى هذا: أن الذي يطيق الصيام يُخَيَّرُ بين الصيام والفدية، والصوم خير له، وهذا حكم منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، فصار الصوم حتمًا، ونسخ التخيير، ولكن بقي حكم الفدية للشيخ والشيخة يشق عليهما الصيام؛ فيباح لهما الفطر، ويُطعمان عن كل يوم مسكينًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعاصي، فإنه يكسر الشهوة التي هي مبدؤها ﴿أَيَّامًا﴾ نُصِبَ بالصيام، أو بصوموا مقدرًا ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾ أي: قلائل، أو مؤقتات بعدد معلوم وهي رمضان كما سيأتي، وقلله تسهيلًا على المكلفين ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ حين شهوده ﴿مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي مسافرًا سفر القصر وأجهد الصوم في الحالين فأفطر ﴿فَعِدَّةً﴾ فعليه عدد ما أفطر ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يصومها بدله ﴿وَعَلَى الَّذِينَ﴾ لا ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ لكبر أو مرض لا يرجى برؤه ﴿فِدْيَةٌ﴾ هي ﴿طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ أي: قدر ما يأكله في يومه، وهو مُدٌّ من غالب قوت البلد، لكل يوم، وفي قراءة بإضافة «فدية»؛ وهي للبيان، وقيل: «لا» غير مُقدَّرة، وكانوا مُخَيَّرِينَ في صدر الإسلام بين الصوم والفدية ثم نسخ بتعيين الصوم بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، قال ابن عباس: إلا الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفًا على الولد؛ فإنها باقية بلا نسخ في حقهما^(١) ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ بالزيادة

(١) أخرجه أبو داود (٢٣١٧)، وأبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (رقم ١١٠)، والطبري في التفسير (١٧٠/٣)، وابن أبي حاتم في التفسير (٣٠٧/١)، والدارقطني في السنن (٢٣٨٥)، وابن الجارود في «المنتقى» (٣٨١)، وصححه: الدارقطني، وابن الجارود، والألباني. ينظر: «الإرواء» (١٩/٤)، رقم ٩١٢.

على القدر المذكور في الفدية ﴿فَهُوَ﴾ أي: التطوع ﴿خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا﴾ مبتدأ، خبره ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الإفطار والفدية ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم، فافعلوه.

وقول المؤلف: (نصب بالصيام...) إلى آخره: يُفيد أنّ أياماً: ظرف منصوب، والعامل فيه إمّا الصيام في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾؛ فالتقدير: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ في أيام معدوداتٍ، أو العامل فيه الأمر المفهوم من ﴿كُتِبَ﴾، وتقديره: صوموا في أيام معدوداتٍ.

وقوله: (قلائل...) إلى آخره: هذا التفسير مأخوذ من لفظ ﴿معدودات﴾، فإنه يُشعر بقلّة الأيام التي فرض فيها الصيام، وفيه إشارة إلى التيسير في هذه الفريضة.

وقوله: (حين شهوده): أي: وقت وجوبه.

وقوله: (أي: مسافراً سفر القصر): احتراز من السفر الذي لا يُباح فيه القصر؛ كسفر المعصية عند الجمهور^(١).

وقوله: (وأجهد الصوم...) إلى آخره: هذا تقييدٌ يخالف ظاهر القرآن؛ وهو إباحة الفطر للمريض والمسافر مُطلقاً.

وقوله: (فعلية عدد ما أفطر): يُبيّن أنّ «عدة» مبتدأ، وخبره محذوف؛ قدره بقوله: (فعلية).

وقوله: (يصومها بدله): المعنى: فعلية صيام عدّة الأيام التي أفطرها من أيام أخر قضاءً عن تلك الأيام.

(١) ينظر: «المجموع شرح المذهب» (٢٢٣/٤) (٢٦٤/٦)، و«المغني» (١١٥/٣)، (٣٤٥/٤).

وقوله: (لا): هذا أحد الأقوال في الآية، وأنَّ قوله تعالى: ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ على تقدير: لا يُطِيقونه، وهذا القول ضعيف^(١)؛ لأنه صرفٌ للآية عن ظاهرها؛ فظاهرها تخييرُ الذين يُطِيقون الصيام بين الفدية والصيام؛ لقوله: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وكان هذا في أول الأمر ثم نسخ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، فتعيَّن الصيام ونسخَ التخيير^(٢).

وقوله: (لكبر...): إلى آخره: هذا مبنيٌّ على أنَّ الآية في حكم ما لا يُطِيقُ الصيام كما تقدَّم. وقوله: (هي): يريد أنَّ الطعامَ خبرٌ مبتدأٌ محذوفٌ تقديره «هي»؛ أي: الفدية طعامٌ مسكينٍ عن كلِّ يومٍ، والأظهرُ أنَّ ﴿طَعَامٌ﴾ عطفٌ بيانٍ لـ «فدية»^(٣).

وقوله: (أي: قدر ما يأكله في يومه...): إلى آخره: يُبيِّنُ أنَّ القدرَ الواجبَ من الإطعام كفايةً المسكين يومه من غالب قوت البلد. وقوله: (وفي قراءة...): إلى آخره: يُبيِّنُ أَنَّهُ قُرِئَ بِإِضَافَةِ ﴿فِدْيَةٌ﴾ إِلَى طَعَامٍ^(٤)، والإضافةُ بيانيةٌ، فهي على تقدير «من»؛ فالمعنى: فديةٌ من طعام.

(١) قال الماوردي في تفسيره (٢٣٨/١): «وهي قراءة شاذة رويت عن ابن عباس ومجاهد». وضعَّف غير واحد من أهل العلم أن «لا» محذوفة قبل ﴿يُطِيقُونَهُ﴾، وأنَّ التقدير: «لا يُطِيقونه». ينظر: «البحر المحيط» (١٨٩/٢)، و«الدر المصون» (٢٧٣-٢٧٤)، و«التنبيه على مشكلات الهداية» لابن أبي العز الحنفي (٩٣٤/٢).

(٢) وهذا قول معاذ وابن عمر وسلمة بن الأكوع وعكرمة والشعبي والزهري وعلقمة والضحاك، واختاره الطبري والزجاج، وهو قول أكثر المفسرين. ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد (٤٢-٤٥)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (ص ٦١-٦٥). وقارن مع: «تفسير الطبري» (١٦١-١٦٦)، (١٧٨/٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢٥٣/١)، و«المحرر الوجيز» (٤٣٩-٤٤٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٨٧-٢٨٨).

(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٩٥/١)، و«الكتاب الفريد» (٤٥١/١).

(٤) وهي قراءة أبي جعفر ونافع وابن عامر. ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ١٧٦)، و«النشر» (٢٢٦/٢).

وقوله: (وقيل: «لا» غير مقدره): يُشيرُ إلى القول الصحيح في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾، وهو أَنَّ الآيةَ على ظاهرها، وهو بيانُ حكم الذين يُطيقون الصيام؛ أي: يستطيعونه، وحُكمهم: التخييرُ بين الفطر مع الفدية، وبين الصيام، وهو حكمٌ منسوخٌ كما ذكر المؤلف في آخر كلامه، والأثر الذي ذكره عن ابن عباس يدلُّ على نسخ التخيير إلا في حقِّ الحاملِ والمرضع. وقوله: (بالزيادة...) إلى آخره: يُبينُ أَنَّ التطوعَ المذكورَ في الآية يكون بالزيادة على طعام مسكين.

وقوله: (أي: التطوع): يُبينُ مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾؛ فالمعنى: فالتطوعُ بالزيادة على إطعام مسكينٍ واحدٍ خيرٌ؛ أي: أكثرُ أجرًا. وقوله: (مبتدأ): يُبينُ أَنَّ المصدرَ المؤوَّلَ من «أن والفعل» مبتدأ، وخيرٌ خبره، والتقدير: وصومُكم خيرٌ لكم. وهذا ترغيبٌ في الصيام، وترجيحٌ له على الإفطار مع الفدية.

وقوله: (أنه خيرٌ لكم فافعلوه): يُبينُ بهذا مفعول ﴿تَعَلَّمُونَ﴾، وجوابُ الشرط ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾، وَأَنَّ جوابَ الشرط محذوفٌ، وتقديره: فافعلوا.



وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]:

يُبيِّنُ تعالى في هذه الآية وقتَ الصيام الذي فرضه على عباده، وهو شهرُ رمضان، و﴿شَهْرٌ﴾ فُرِيَ بالرفع والنصب^(١):

فعلى الرفع: يحتمل أنه خبرٌ مبتدأ محذوف تقديره: هن؛ أي: الأيام المعدودات شهرُ رمضان، أو بدل من الصيام في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، على حذف مضافٍ أُقيِمَ المضافُ إليه مقامه؛ أي: كُتِبَ عليكم صيام شهر رمضان.

وعلى النصب: مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ؛ أي: صوموا شهرَ رمضان، وإضافةُ شهرٍ إلى رمضان من إضافة الشيء إلى اسمه؛ كيوم الخميس. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾: صفةٌ لشهر، ومعنى: إنزال القرآن فيه: ابتداء نزوله في ليلة القدر، وهي: ليلة من ليالي رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ﴾ [الدخان: ٣].

وقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: أي: هادياً للناس، فهو مصدرٌ بمعنى اسم الفاعل نصب على الحال، أو مفعول لأجله؛ بمعنى: لهداية الناس.

(١) عزيت للحسن، ومجاهد، وشهر بن حوشب، وهارون الأعمور عن أبي عمرو، وأبي عمارة عن حفص عن عاصم. ينظر: «مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص ١٩)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ١١٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٩٥)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤٤٢)، و«البحر المحيط» (٢/ ١٩٣)، وهذه القراءة دون نسبة لأحد في كثير من المصادر.

وقوله: ﴿وَيَبَّتْ﴾: معطوف على هدى؛ منصوب على الحال، وهو صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ؛ أي: وآياتٍ بيناتٍ؛ أي: واضحاتٍ، ومُبيِّناتٍ للحقِّ والباطل وسبيل الرشد وسبيل الغي، وفي ذلك الهدى العاصم من الضلال، والفرقان العاصم من اللبس والالتباس.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: هذا أمرٌ من الله لمن كان عند دخول الشهر صحيحًا مقيمًا أن يصومَ الشهر، وقد ذهب جمعٌ من السلف من الصحابة وغيرهم إلى أنه يجب على من هذه حاله أن يصومَ الشهرَ كلَّهُ، ولو سافر فلا يُباح الفطرُ في السفر إلا لمن دخل عليه الشهرُ وهو مسافرٌ^(١)، وذهب جمهورُ العلماء أنه يُباح الفطرُ للمسافر ولو قد صام أوَّل الشهرِ في الحضر^(٢)؛ لِمَا ثبت في السنَّةِ الصحيحة من أنه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** سافر هو وأصحابه عامَ الفتح في رمضان، وكانوا صيامًا حتى بلغوا الكديد^(٣) فأفطر **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وأمر الناس بالفطر^(٤)، وعلى هذا فقوله: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: فليصم ما كان حاضرًا فيه من الشهر من أوَّلِهِ أو آخِرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: معناه: أن مَنْ كان مريضًا أو مسافرًا فأفطر؛ فعليه صيامُ عِدَّةِ الأيام التي أفطرها من أيامِ أُخَرَ قضاءً، وجاء ذكر هذه الرخصة للمريض والمسافر بعد الأمر بصيام الشهر مَنْ كان حاضرًا صحيحًا مقيمًا، كما ذُكِرَت الرخصةُ بالفطر للمريض والمسافر

(١) روي عن عائشة، وابن عمر، وابن عباس، وسويد بن غفلة، وسعيد بن جبير، في آخرين من السلف. ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٤/٢٦٩، رقم ٧٧٥٩، ٧٧٦١)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (رقم ٩٢٤٦-٩٢٤٩)، و«تفسير الطبري» (٣/١٩٢-١٩٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٣١١-٣١٢، رقم ١٦٥٦).

(٢) ينظر: «المجموع شرح المذهب» (٦/٢٦٨)، و«المغني» (٤/٣٤٥-٣٤٦).

(٣) الكديد: مكان ما بين عسفان وقديد على اثنين وأربعين ميلًا من مكة. ينظر: «معجم البلدان» (٤/٤٤٢)، و«مراصد الاطلاع» للقطيعي (٣/١١٥٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٥٣)، ومسلم (١١١٣) عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**.

بعد الإخبار بفرض الصوم في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...﴾، إلى قوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، ولعلَّ ذَكَرَ الرُّخْصَةَ مَرَّةً ثَانِيَةً حَتَّى لَا يُظْنَ نَسْخَهَا بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾: خبرٌ من الله - تعالى - عن حكمته في شرعه، ورحمته بعباده، فمبنى شريعته على اليسر، وهو السهل المستطاع الذي لا مشقَّةَ فيه، ومن ذلك ما شرعه في أمر الصيام، ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾: وهو ضدُّ اليسر، ونصَّ على نفيه توكيداً، وهذه الإرادةُ هي الإرادةُ الشرعيةُ المتضمنةُ للمحبة؛ فالمعنى: يُحِبُّ اللهُ لَكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُحِبُّ لَكُمْ الْعُسْرَ، فالجملتان تعليلٌ لِمَا سَبَقَ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُشْتَمَلَةِ عَلَى التَّيْسِيرِ.

وقوله: ﴿وَلِتُكْمَلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١٨٥): الواو عاطفةٌ على مُقَدَّرٍ يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾؛ فالمعنى: يَسِّرَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِتَصُومُوا مَا كَتَبَ عَلَيْكُمْ مِنْ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ.

﴿وَلِتُكْمَلُوا الْعِدَّةَ﴾: إن كان فطر لعذر، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي: ولتعظَّموا الله بالتكبير ﴿عَلَى مَا هَدَيْكُمُ﴾؛ أي: لهديته إياكم بما شرع لكم من صيام شهر رمضان وتوفيقكم لصيامه، واللام في الجملتين للتعليل، وقال بعضهم: إنها اللام المشبهة للام التعليل التي تتعلق بالفعلين «أراد، وأمر»، وَيُنْصَبُ الْفِعْلُ بَعْدَهَا بِأَنْ مضمرة أو ظاهرة، وعلى هذا فالعطفُ على جملة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾؛ فيكون المعنى: وَيُرِيدُ لِتُكْمَلُوا الْعِدَّةَ^(٢).

(١) ينظر: «تفسير البيضاوي» (١/١٢٥)، و«تفسير أبي السعود» (١/٢٠٠)، و«روح المعاني» للألوسي (١/٤٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٢٢٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٢٥٤)، و«التبيان في إعراب القرآن» (١/١٥٣)، و«الكتاب الفريد» (١/٤٥٦-٤٥٧).

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٧٥): لعل: للتعليل؛ أي: تشكروا الله على ما أنعم به من النعم العظيمة والشرائع القويمية، والشكر يكون بالقلب اعترافاً وتعظيماً وحباً وانقياداً، وباللسان إقراراً وثناءً، وبالجوارح فعلاً للمأمورات وتركاً للمنهيئات ومسارعة في الخيرات.

وقد تضمنت هذه الجملة ثلاث حِكَمٍ فيما كتبه الله على عباده من صيام شهر رمضان مع التيسير والتخفيف، والحِكَمُ هي: إكمالُ عِدَّةٍ ما فرض الله من الصيام، وتكبيره تعالى عند التمام بالقلب واللسان على هدايته وتوفيقه، والثالثة من الحكم: شكر المؤمنين لربهم على ما شرعَ ويَسَّرَ من الأحكام، وكلُّ هذه الحِكَمِ مُرادَةٌ لله وواجبةٌ على العباد، ومن هذه الآية أخذ العلماء مشروعية التكبير ليلة عيد الفطر وصبغِه (١).

تلك الأيام ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر منه ﴿هُدًى﴾ حال هادياً من الضلالة ﴿لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ﴾ آياتٍ واضحاتٍ ﴿مِنَ الْهُدَى﴾ مما يهدي إلى الحق من الأحكام ﴿وَ﴾ من ﴿الْفُرْقَانِ﴾ مما يفرق بين الحق والباطل ﴿فَمَنْ شَهِدَ﴾ حَضَرَ ﴿مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تقدّم مثله، وكرّر لئلا يتوهّم نسخه بتعميم من شهد.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ولذا أباح لكم الفطر في المرض والسفر، ولكون ذلك في معنى العلة أيضاً للأمر بالصوم عطف عليه ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ بالتخفيف والتشديد ﴿الْعِدَّةَ﴾ أي: عدة صوم رمضان

(١) جاء عن ابن عباس وزيد بن أسلم وسفيان، وهو قول جمهور المفسرين. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٢٢١-٢٢٢)، و«تفسير القرطبي» (٢/ ٣٠٦)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٠٥).

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ عند إكمالها ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أرشدكم لمعالم دينه
﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ذلك.

وقول المؤلف: (تلك الأيام): يُبيِّن بهذا أنَّ ﴿شَهْرٌ﴾ خبرٌ لمبتدأ تقديره:
تلك الأيام المعدودات هي شهر رمضان.
وقوله: (من اللوح المحفوظ...) إلى آخره: يُشيرُ بهذا إلى ما جاء عن
ابن عباس أنَّ القرآنَ أنزلَ جملةً من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء
الدنيا؛ رواه ابن جرير وغيره^(١).

وقوله: (منه): أي: من شهر رمضان؛ لأنَّ ليلةَ القدر من رمضان.
وقوله: (حال...) إلى آخره: يُبيِّن أنَّ ﴿هُدَى﴾ في قوله: ﴿هُدَى لِلنَّاسِ﴾
مصدر بمعنى: اسم الفاعل، وهو منصوبٌ على الحال من القرآن.
وقوله: (آياتٍ واضحاتٍ): يريد أنَّ ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ
تقديره: آياتٍ بيناتٍ؛ أي: واضحاتٍ.
وقوله: (مما يهدي...) إلى آخره: يريد أنَّ الآياتِ البينات من الهدى؛ أي:
الهادي، فالآياتُ البيناتُ مما يهدي إلى الحق.

وقوله: (من): يريد أنَّ البينات من الهدى ومن الفرقان.
وقوله: (مما يفرق بين الحق والباطل): معناه: أنَّ الآياتِ البينات يكون
بها الهدى إلى الحق، ويكون بها الفرقانُ بين الحق والباطل.
وقوله: (حضر): تفسيرٌ لشهد الشهر؛ والمعنى: حضرَ أيامَ الشهر، وهو:
مقيمٌ.

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٣/١٨٨-١٨٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/٣١٠)، رقم
١٦٥٠، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٦/٤٦٩ رقم ٣٢١٩٢)، والنسائي في «الكبرى»
(٧٩٣٧)، والطبراني في «الكبير» (١٢٣٨١)، والحاكم في «المستدرک» (٢٨٨١).

وقوله: (تقدّم مثله): يريد أنّ الرخصة في الفطر للمريض والمسافر قد تقدّم ذكرها.

وقوله: (وكرر...) إلى آخره: يُبَيِّنُ السَّبَبَ فِي إِعَادَةِ ذِكْرِ الرِّخْصَةِ فِي الْفِطْرِ لِلْمَرِيضِ وَالْمَسَافِرِ، وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ عَامٌّ يَشْمَلُ الْمَرِيضَ وَالْمَسَافِرَ، فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ نَسْخَ الرِّخْصَةِ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا.

وقوله: (ولذا أباح لكم الفطر...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ إِرَادَتَهُ تَعَالَى بِعِبَادِهِ الْيَسَرَ دُونَ الْعُسْرِ هُوَ عِلَّةُ الرِّخْصَةِ لِلْمَرِيضِ وَالْمَسَافِرِ فِي الْفِطْرِ.

وقوله: (ولكون ذلك...) إلى آخره: يريد قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، هُوَ فِي مَعْنَى الْعِلَّةِ لِلْأَمْرِ بِالصُّومِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، فَتَضَمَّنَ كَلَامُ الْمُؤَلِّفِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ هُوَ عِلَّةُ إِبَاحَةِ الْفِطْرِ فِي الْمَرَضِ وَالسَّفَرِ، وَهُوَ أَيْضًا فِي مَعْنَى الْعِلَّةِ لِلْأَمْرِ بِالصُّومِ فِي عِدَّةِ أَيَّامٍ أُخَرَ.

وقوله: (عطف عليه): يريد أنّه لما كان قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ فِي مَعْنَى الْعِلَّةِ لِلْأَمْرِ بِصَوْمِ الْقَضَاءِ؛ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ وَمَا بَعْدَهُ.

وقوله: (بالتخفيف والتشديد): يُشِيرُ إِلَى أَنَّ فِيهَا قَرَاءَتَيْنِ: تَخْفِيفُ الْمِيمِ وَتَشْدِيدُهَا، مِنْ «أَكْمَل، وَكَمَّل»^(١).



(١) قرأ يعقوب وعاصم في رواية أبي بكر بتشديد الميم: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾، وقرأ الباقون بالتخفيف. ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ١٧٦-١٧٧)، و«النشر» (٢/٢٢٦).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]:
 يأمر الله نبيه إذا سأله أحد من العباد عن ربه، بعيد هو أو قريب ممن دعاه؛ أن يخبره بأنه قريب، وأنه يجيب دعاه ويعطيه سؤله، ثم أمر العباد أن يستجيبوا له سبحانه فيما دعاهم إليه من أنواع العبادات؛ من الصلاة والصيام والجهاد والصدقات، وأن يؤمنوا به رباً وإلهاً وموصوفاً بكل كمال؛ ليرشدوا في أمرهم كله.

وسأل جماعة النبي «أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟» فنزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ منهم بعلمي، فأخبرهم بذلك ﴿أجيب دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ بإنالته ما سأل ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ دعائي بالطاعة ﴿وَلْيُؤْمِنُوا﴾ يُدِيمُوا على الإيمان ﴿بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ يهتدون.

وقول المؤلف: (وسأل جماعة النبي...) إلى آخره: يُشير بذلك إلى سبب نزول الآية^(١).

وقوله: (منهم بعلمي): يُريد أن معنى قربه - تعالى - من العباد: قربه بعلمه، وهذا يقتضي أن القرب في الآية قرب عام من جميع العباد؛ لأن علمه - تعالى - لا يختص بالداعين والعابدين، والأشاعرة ونحوهم لا يثبتون إلا القرب العام، فعندهم أنه - تعالى - لا يقرب من شيء، ولا يقرب منه شيء، بناءً على أنه - تعالى - في كل مكان، وأمّا أهل السنة فلهم في القرب قولان:

(١) ينظر: «العجاب في بيان الأسباب» (١/٤٣٣-٤٣٤)، و«تفسير الطبري» (٣/٢٢٢-٢٢٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٣١٤، رقم ١٦٦٧)، والحديث رواه الصلب بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: «جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» فذكره. وزاد الدارقطني بين الصلب وأبيه رجل من الأنصار. وإسناده ضعيف، الصلب أو الصلت بن حكيم مجهول، وقد اختلف في إسناده. ينظر: «لسان الميزان» (٨٧١)، و«المؤتلف والمختلف» للدارقطني (٣/١٤٣٥).

منهم مَنْ يقول: القرب نوعان: عامٌّ وخاصٌّ، كالمعية^(١).
ومنهم مَنْ يقول: لم يَرِدْ إِلَّا خَاصًّا، وهو قَرُبُهُ من الداعين والعابدین، وهو
المذكور في هذه الآية، وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، وهذا
القول أظهر^(٢)، وأما قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥]، وقوله:
﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، فالمراد: قَرُبُهُ تعالى بملائكته
كما جاء عن السلف في تفسير الآيتين^(٣).

وقوله: (فأخبرهم بذلك): هذا تقديرٌ لجواب الشرط في قوله: ﴿وَإِذَا
سَأَلْتَهُ﴾.

وقوله: (بالطاعة): يُبَيِّنُ أَنَّ الاستجابة لله تكون بطاعته في أمره ونهيهِ.
وقوله: (يُؤَيِّمُوا عَلَى الْإِيمَانِ): لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي الْعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيُنَاسِبُ
أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: فَلْيَدْمُوا عَلَى الْإِيمَانِ.
وقوله: (يهتدون): فَسَّرَ الرُّشْدَ بِالْإِهْتِدَاءِ، وَالرُّشْدُ يَجْمَعُ الْعِلْمَ النَّافِعَ
وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَهَذِهِ حَقِيقَةُ الْإِهْتِدَاءِ.



(١) نسبه شيخ الإسلام لطائفة من أهل السنة. ينظر: «شرح حديث النزول» (ص ٣٦٥)، واختاره
الشيخ عبد الرحمن السعدي. ينظر: «الحق الواضح المبين» (ص ٧٠)، و«أصول وكليات
من أصول التفسير» طبع مع التفسير (١/٢٩).

(٢) واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم. ينظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٦/٣٠ -
٣١)، و«شرح حديث النزول» (ص ٣٥٤-٣٥٦)، و«مجموع الفتاوى» (٥/٢٣٦)،
(٥/٢٤٠) (٦/٢٢-٢٣)، و«مختصر الصواعق» (٣/١٢٥١)، و«التعليق على القواعد
المثلى» لشيخنا (ص ١٥٩).

(٣) نسبه ابن الجوزي لابن عباس من رواية أبي صالح، ونسبه شيخ الإسلام إلى جمع من السلف،
ورجحه ابن القيم في بعض كتبه، وأورد هذا القول غير واحد من أهل العلم. ينظر: «تفسير
البيغوي» (٨/٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٨/٢١٣)، و«زاد المسير» (٤/١٥٩) (٤/٢٣٠)،
و«تفسير ابن كثير» (٧/٥٤٨)، (٧/٣٩٨)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٥/٣١٥) (٦/٢٥ -
٤٠)، و«شرح حديث النزول» (ص ٣٥٥)، (ص ٣٦٧)، و«الروح» (ص ١٨٨-١٩٠)،
و«مختصر الصواعق» (٣/١٢٤٩) وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِرُوهِنَّ وَأَبْتغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٧٧﴾ [البقرة: ١٨٧]:

يُخبر تعالى عن حُكْمٍ يتعلَّقُ بصيام رمضان، وهو حِلُّ إتيان النساء في ليالي صيام رمضان، فقوله تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ﴾؛ أي: أحلَّ الله لكم، كما قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾؛ أي: كتبَ الله عليكم الصيام.

و﴿الرَّفَثُ﴾ هو: الجماع^(١)، وضمَّنَ معنى: (الإفشاء) فعدي بـ«إلى»^(٢)، والإفشاء: تلاقي الأبدان دون حائل^(٣)، وذلك يكون من الرجل والمرأة كما قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١]، وقال في هذه الآية: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾، فمع الإفشاء يكون كلٌّ من الرجل والمرأة كاللباس للآخر.

ثم بين سبحانه وتعالى سببَ هذا الإحلال، وهو ما يعلمه الله منهم من خيانة أنفسهم بفعل ما حرَّم الله عليهم من إتيان نسائهم، وكان الحكمُ في أول فرضِ الصيام أنَّ مَنْ نام في الليل وجب عليه الصيام حتى يُفطر من الغد، فوقع من عددٍ من المسلمين مخالفةً، وترتَّبَ على ذلك حرجٌ ومشقةٌ؛ فنسخَ الله ذلك بهذه الآية؛ فأحلَّ الله لعباده ما كان حرامًا، وتاب على مَنْ وقع منه فعلٌ لِمَا يحرِّمُ عليه، فوفَّقه للتوبة وعفا عنه^(٤).

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٣٥٩-٣٦٠).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/١٣٩-١٤٠)، و«الكشاف» (١/٣٨٨)، و«البحر المحيط» (٢/٢١٢).

(٣) ينظر: «لسان العرب» (١٥٧/١٥).

(٤) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٤٩-٥٢)، و«العجاب» (١/٤٣٦-٤٤٧).

ثم أكد **سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى** الإحلال بالإذن الصريح بمباشرة النساء وبالأكل والشرب إلى طلوع الفجر؛ فقال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ بَشِرُوا هُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، قيل: من الولد أو من ليلة القدر، ﴿وَكُلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾؛ أي: يتميز عندكم بياض النهار من سواد الليل؛ فعلم بذلك وجوب الإمساك عند ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلِّ﴾؛ فعلم بذلك وقت الصيام ابتداءً وانتهاءً.

وقوله: ﴿وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾: نهي من الله لمن كان معتكفاً في المسجد أن يباشر امرأته؛ أي: يُجامعها، ولو كان ذلك في البيت، فعلم تحريم ذلك على المعتكف.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: الإشارة إلى ما تقدم ذكره من المنهيات من مفسدات الصوم والاعتكاف، فالحدود في هذه الآية هي المحرمات، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾، وأصل الحد: المنع^(١)، فسُميت المحرمات حدوداً لأنها ممنوعة، وتُطلق الحدود على ما لا يجوز تعديهِ من المباحات والواجبات والمستحبات؛ كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أي: مثل البيان المتقدم يُبين آياته للناس؛ أي: يوضحها ويفصلها. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: أي: ليتقوا الله بترك ما حرّم عليهم، و«لعل»: للتعليل.

﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ بمعنى الإفضاء ﴿إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ بالجماع، نزل نسحاً لما كان في صدر الإسلام من تحريمه وتحريم الأكل والشرب بعد العشاء ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ كناية عن تعاقبهما

(١) ينظر: «لسان العرب» (٣/ ١٤٠).

أو احتياج كل منهما إلى صاحبه ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ﴾ تخونون ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بالجماع ليلة الصيام، وقع ذلك لعمر وغيره، واعتذروا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ﴾ إذ أحل لكم ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ جامعوهنَّ ﴿وَابْتَغُوا﴾ اطلبوا ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: أباحه من الجماع، أو قدره من الولد ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الليل كله ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ يظهر ﴿لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ أي: الصادق، بيان للخيط الأبيض، وبيان الأسود محذوف؛ أي: من الليل شبه ما يبدو من البياض وما يمتد معه من الغبش بخيطين أبيض وأسود في الامتداد ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ﴾ من الفجر ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ أي: إلى دخوله بغروب الشمس ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ﴾ أي: نساءكم ﴿وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ﴾ مُقيمون بنية الاعتكاف ﴿فِي الْمَسَاجِدِ﴾ مُتعلق بـ «عاكفون»، نهى لمن كان يخرج وهو معتكف فيجامع امرأته ويعود ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ حدّها لعباده ليقيموا عندها ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أبلغ من «لا تعتدوها» المعبر به في آية أخرى ﴿كَذَلِكَ﴾ كما بين لكم ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ محارمه.

وقول المؤلف: (بمعنى الإفضاء...) إلى آخره: فسّر الرفث بالإفضاء، والرفث والإفضاء كل منهما كناية عن الجماع، لكن فسّره بالإفضاء لتعديته بـ«إلى»، ثم ذكر حقيقة المراد في آخر الجملة.

وقوله: (نزل نسخًا...) إلى آخره: يُشير بهذا إلى سبب نزول الآية، وفيه نسخ السنة بالقرآن؛ لأنّ الحكم الأول إنما ثبت بالسنة.

وقوله: (كناية...) إلى آخره: يُبَيِّنُ وجهَ إطلاقِ اسمِ اللباسِ على المرأةِ والرجلِ، وذلك من جهتين: من جهة التصاقِهما، ومن جهة حاجةِ كُلِّ منهما للآخر، وكلُّ من المعنيين موجودٌ في اللباسِ.

وقوله: (تخونون): فَسَّرَ ﴿تَخْتَانُونَ﴾ بتخونون، وليس هذا بالتفسير المطابق، ف«تختانون» فيه معنى الخداع والاحتيالِ على فعلٍ ما نُهي عنه^(١).

وقوله: (قَبَل تَوْبَتِكُمْ): التوبةُ من الله: توفيقٌ من الله لعبده للتوبة ثم قبولها منه، والمؤلف فسرها بالقبول؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾.

وقوله: (أي: أباحه...) إلى آخره: ذكر في قوله: ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قولين:

ما أباح الله لكم من الجماع.

والثاني: ما قدره لكم من الولد^(٢).

والقول الأول ضعيف؛ لأنه قد تقدّم الأمرُ به في قوله: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾.

وقوله: (الليل كله): يدلُّ له أَنَّ الله جعل للإذن بالأكل والشرب والجماع

غاية؛ وهي: تبيينُ طلوعِ الفجرِ، وذلك في قوله: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ

مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾. وقوله: (يظهر): يعني: يتميَّز الخيطُ الأبيضُ

من الخيطِ الأسودِ، وقد فسَّرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخيطينِ بأنهما بياضُ النهارِ

وسوادُ الليلِ^(٣)، وإنما يتحقَّقُ ذلك بطلوعِ الفجرِ.

وقوله: (أي: الصادق): يعني: الفجر الثاني؛ وهو الذي يحرمُ فيه الطعامُ،

وتحلُّ فيه صلاةُ الفجرِ كما جاء عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: ((الْفَجْرُ فَجْرَانِ:

(١) ينظر: «تفسير الراغب» (١/٣٩٩).

(٢) وهذا قول جمهور المفسرين. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٢٤٤-٢٤٧)، و«المحرر الوجيز»

(١/٤٥١-٤٥٢)، و«زاد المسير» (١/١٤٨-١٤٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/٥١٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٩١٦)، (١٩١٧)، ومسلم (١٠٩١) من حديث عدي بن حاتم، وسهل

فَجْرٌ يَحِلُّ فِيهِ الطَّعَامُ وَتَحْرُمُ فِيهِ الصَّلَاةُ - وهو الفجر الأول-، وَفَجْرٌ تَحِلُّ فِيهِ الصَّلَاةُ وَيَحْرُمُ فِيهِ الطَّعَامُ»^(١)، وهو الفجر الثاني، وهو: الصادق. وقوله: (أبلغ من «لا تعتدوها»...) إلى آخره: هذا يقتضي عدم التفريق بين الحدود في الآيتين، والصواب: أن الحدود المنهي عن قربانها هي المحرمات، والمنهي عن تعديها هي المأمورات^(٢)؛ فالحلال لا يجوز تعديها، والحرام لا يجوز قربانه. وقوله: (محارمه): أي: محارم الله؛ وهي كل ما حرّم الله؛ وهي المعاصي، وافتاء المعاصي هو اجتنابها.



(١) أخرجه ابن خزيمة (٣٥٦) (١٩٢٧)، وعنه الحاكم (٦٨٧)، والدارقطني (٢١٨٥)، والبيهقي (١٧٨٩)، من طريق أبي أحمد الزبيري، عن سفيان الثوري، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ ذكره بنحوه.

والحديث أعله النقاد بالوقف؛ فلم يرفعه غير الزبيري، وخالفه أصحاب الثوري فرووه موقوفاً، وكذلك وقفه أصحاب ابن جريج. قال ابن خزيمة: «لم يرفعه في الدنيا غير أبي أحمد الزبيري»، وقال الدارقطني: «لم يرفعه غير أبي أحمد الزبيري عن الثوري، ووقفه الفريابي وغيره عن الثوري، ووقفه أصحاب ابن جريج عنه أيضاً»، وقال البيهقي: «الموقوف أصح».

وللمرفوع شواهد يحتمل تقوية الحديث به. ينظر: «البدر المنير» (٣/١٩٥-١٩٩)، و«التلخيص الحبير» (٢/٤٩١، رقم ٢٨٦).

(٢) ينظر: «الكشاف» (١/٣٩١)، و«تفسير الرازي» (٥/٢٧٧)، و«القواعد الحسان» (ص٧٤-٧٥)، و«مجموع الفتاوى» (١٤/١٠٩)، و«مدارج السالكين» (٢/٢٤٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]:

هذا نهى من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وذلك بأخذ مال الغير بغير حق، بل بطريق من الطرق المحرمة؛ من غصب أو سرقة أو غش أو عقد محرّم؛ كعقود الربا والبيوع المحرمة، ومن أقبح ذلك التوصل إلى أكل مال الغير بطريق رشوة الحاكم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون أن ما حكم به ليس مستحقاً لكم، فهو حرامٌ عليكم وإن حكم به الحاكم خطأً أو عمداً؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعةً من النار))^(١).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ أي: [لا]^(٢) يأكل بعضكم مال بعضٍ ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الحرام شرعاً؛ كالسرقة والغصب ﴿و﴾ لا ﴿تُدْلُوا﴾ تلقوا ﴿بِهَا﴾ أي: بحكومتها أو بالأموال رشوة ﴿إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا﴾ بالتحاكم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ ملتبسين ﴿بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون.

وقوله المؤلف: (أي: لا يأكل بعضكم مال بعضٍ): يُبَيِّنُ أَنَّ الْمُرَادَ النَّهْيَ عَنْ أَكْلِ مَالِ الْغَيْرِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿بَيْنَكُمْ﴾، وَإِضَافَةِ الْأَمْوَالِ إِلَى الْمُخَاطَبِينَ لَا

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣) عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) زيادة من طبعة دار السلام، ورجح شيخنا إثباتها، وقال: «هي الصواب».

باعتبار الملك بل باعتبار أنها تتعلق بها مصالح الأمة، فلا يجوز التصرف فيها بما يفسدها.

وقوله: (لا): يُبين أن الواو عاطفة على ﴿لَا تَأْكُلُوا﴾، فيكون المعنى: ولا تدلوا بها، فيصير النهي عن كل واحدٍ منهما، وبدون تقدير: «لا» يصير النهي عن الجمع بينهما؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢].

وقوله: (تلقوا): يُبين أن ﴿تدلوا﴾ مُضمَّنٌ معنى «تلقوا»، بدليل تعدية الفعل بـ «إلى».

وقوله: (بحكومتها): أي: بالمحاكمة فيها لدى الحكام للتسلط عليها بذلك.

وقوله: (أو بالأموال رشوة): وهذا أشهر في تفسير الآية^(١).

وقوله: (بالتحاكم): أي: لتأكلوا مقداراً من مال من تدعون عليه كذباً.

وقوله: (ملتبسين): أي: مخالطين للإثم، فالجار والمجرور حال.

وقوله: (أنكم مبطلون): المعنى: وأنتم تعلمون أن دعواكم باطلة.



(١) ينظر: «الكشاف» (١/٣٩٢-٣٩٣)، و«المحرر الوجيز» (١/٤٥٨)، و«البحر المحيظ» (٢/٢٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢/١٩٠-١٩١).

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ [البقرة: ١٨٩]:

جاء في سبب نزول هذه الآية أن بعض الناس سأل عن حكمة أن الهلال يبدو صغيراً ثم يكبر شيئاً فشيئاً، أو سألوا عن سبب ذلك^(١)، والأول أظهرُ بدليل الجواب^(٢)، فأمر الله نبيه أن يبين لهم المنفعة المترتبة على ذلك، وهي: معرفة المواقيت، وذلك بمعرفة الأشهر التي عدتها اثنا عشر شهراً، وهي: عدة السنة. وقوله: ﴿وَالْحَجِّ﴾: أي: وميقات الحج، فعطفه على المواقيت من عطف الخاص على العام^(٣)، أما قوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾ فهو إبطال لما كان يفعله الأوس والخزرج إذا رجعوا من الحج، لا يدخلون بيوتهم من الأبواب بل من ظهورها، فنهاهم الله عن ذلك، وأمرهم بإتيان البيوت من أبوابها^(٤)، وما كانوا يفعلونه لا معنى له، ولا أصل له في شرع ولا عقل.

ثم أمرهم تعالى بتقواه، وذلك بفعل ما أمرهم به واجتناب ما نهاهم عنه. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي: لتفلقوا، والفلاح هو الفوز والظفر بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وذلك لا يكون إلا بدخول الجنة والنجاة من النار، ﴿فَمَنْ رُحِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

(١) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٥٣-٥٤)، و«العجاب» (١/٤٥٣-٤٥٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٢٨٠-٢٨٣)، و«البحر المحيط» (٢/٢٣٥)، و«التحرير والتنوير» (٢/١٩٤).

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٢/٢٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٢/١٩٦).

(٤) أخرجه البخاري (١٨٠٣)، ومسلم (٣٠٢٦) عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ جمع هلالٍ، لِمَ تبدو دقيقةً ثم تزيد حتى تمتلئ نورًا ثم تعود كما بدت، ولا تكون على حالة واحدة كالشمس ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هِيَ مَوَاقِيتٌ﴾ جمع مِيقَاتٍ ﴿لِلنَّاسِ﴾ يعلمون بها أوقات زرعهم ومتاجرهم، وعَدَدَ نِسَائِهِمْ، وصيامهم وإفطارهم ﴿وَالْحَجَّ﴾ عطفٌ على الناس؛ أي: يعلم بها وقته، فلو استمرت على حالة لم يعرف ذلك ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهِ﴾ في الإحرام، بَأَنْ تنقبوا فيها نقبًا تدخلون منه وتخرجون وتركوا الباب، وكانوا يفعلون ذلك ويزعمونه بَرًّا ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ أي: ذا البر ﴿مَنْ اتَّقَى﴾ الله بترك مخالفته ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ في الإحرام كغيره ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون.

وقول المؤلف: (يا محمد): تفسيرٌ للضمير المنصوب؛ لأنه المخاطبُ بهذا الخبر، ولو قال المؤلف: «أيها النبي»، بدل «يا محمد» كان أولى؛ لأن الله لم يخاطبه باسمه بل بصفة النبوة والرسالة.

وقوله: (جمع هلال...) إلى آخره: كَأَسَنَّةِ جمع سنان، والهِالُ: اسمُ القمر أول الشهر، ويَبِّينُ بقوله: (لِمَ تبدو...) إلى آخره: أي: الأهلة صفة سؤالهم.

وقوله: (لهم): أي: للذين سألوا عن الأهلة.

وقوله: (يعلمون بها...) إلى آخره: يُبَيِّنُ الأمورَ المؤقتة الدينية والدينية التي يحتاج الناس فيها إلى ما يعرفون به مواعيتهم، وقد جعل الله لذلك الأهلة.

وقوله: (عطف على الناس): فيكون في المعنى من عطف الخاص على العام؛ أي: ومواقيت للحج.

وقوله: (فلو استمرت...) إلى آخره: بيان لوجه دلالة الأهله على المواقيت، وهو تغير أحوالها، فلو كانت على حالة واحدة لم يعرف بها الوقت؛ كالشمس لا تعرف بها الشهور.

وقوله: (في الإحرام...) إلى آخره: بيان لصفة إتيانهم البيوت من ظهورها، وذلك إذا كانوا محرمين، ويزعمون أن ذلك من البرِّ فأبطل الله ذلك، ونهاهم. وقوله: (ذا البر): قدر مضافاً ليطابق اسم «لكن» خبرها، والأولى تقدير مضاف قبل «من»، فيكون التقدير: «ولكن البر حقاً تقوى من اتقى»، أو «فعل من اتقى»^(١).

وقوله: (في الإحرام كغيره): يُبين أن الأمر بإتيان البيوت من أبوابها متعلق بالحال التي ابتدؤوا فيها إتيان البيوت من ظهورها، فصار الأمر بإتيان البيوت من أبوابها مؤكداً للنهي عن إتيان البيوت من ظهورها.



(١) تقدم في (ص ٣٥٩) في آية: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِن أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٥]:

يأمر تعالى رسوله والمؤمنين بقتال من يُقاتلهم من الكافرين، واختلف في المراد بالموصول ﴿الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ﴾؛ فقيل: هم المحاربون من الكفار الذين لا عهد لهم، وقيل: هم من كان من أهل القتال، فخرج عنهم النساء والصبيان ومن في حكمهم كالشيخ الفاني^(١).

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: تنبيه على الإخلاص، بأن يكون القصد من القتال إعلاء كلمة الله، وهذا الأمر بالقتال بعد الإذن للمهاجرين بقتال الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم بعد أن كانوا مأمورين بكف أيديهم، فأذن لهم بالقتال، ثم أمروا بقتال من قاتلهم، وهو معنى هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالأمر بقتال المشركين حتى يسلموا وأهل الكتاب حتى يعطوا الجزية؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقال في

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٢٨٩-٢٩٢)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤٦٢-٤٦٣)، و«أضواء البيان» (١/ ١٤٥).

أهل الكتاب: ﴿قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ [التوبة: ٢٩] (١).

وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾: نهى عن الاعتداء بجميع أنواعه، فيشمل قتال المعاهدين، وقتل ما لا يحلُّ قتله كالنساء والصبيان، ومما يُعدُّ اعتداءً: التمثيل بأبدان القتلى من الكفار لنهي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك (٢)، والاعتداء في القرآن يأتي على وجهين:

أحدهما: مجاوزة حدود الله إلى ما حرم، ومنه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٢٢٩﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبَّيْتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ [المائدة: ٨٧].

الثاني: الاعتداء على الناس بظلمهم بقتل أو غصبٍ ونحو ذلك، ومنه قوله تعالى - في آية القصاص -: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٧٨﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ ﴿١٩٤﴾ [البقرة: ١٩٤] (٣)، وسُمِّيَ الجزاء على الاعتداء اعتداءً مشاكلة لفظية (٤)؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. وقوله في هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿١٩٠﴾ تحتل الوجهين.

(١) هذا مبني على ما تقدم من الخلاف في المراد بالموصول ﴿الذين يقاتلونكم﴾، ينظر ما تقدم، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص ١٠٧)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (ص ٦٥)، و«قلائد المرجان» (ص ٦٤).

(٢) أحاديث النهي عن المثلة جاءت عن جمع من الصحابة كعبد الله بن يزيد الأنصاري، وبريدة في البخاري (٢٤٧٤)، ومسلم (١٧٣١)، وورد النهي أيضًا في حديث أنس بن مالك، وعمران بن حصين، وسمرة بن جندب، ويعلى بن مرة. ينظر: «إرواء الغليل» (٢٢٣٠).

(٣) ينظر: «الوجوه والنظائر» لمقاتل (ص ٦٦)، و«التصارييف» ليحيى بن سلام (ص ١٨٧).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢٦٥)، و«الكشاف» (١/ ٣٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢/ ٢٠٩)، و(٢/ ٢١١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: أمر بقتل المشركين المحاربين حيث وجدوا.

وقوله: ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: حيث وجدتموهم^(١).

وقوله: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾: أمر بإخراجهم من الأرض التي أخرجوا المؤمنين منها، وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾: الفتنة في هذه الآية ونحوها: الشرك^(٢)، وما في حكمه من أنواع الكفر، وما ينشأ عن ذلك من الصد عن سبيل الله، فإنه أشد وأعظم عند الله من القتل والقتال في الشهر الحرام أو في البلد الحرام كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ...﴾ الآية [البقرة: ٢١٧].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ﴾: نهى عن قتال المشركين عند المسجد الحرام، وهو الحرم كله، والمسجد الحرام: هو المصلى الذي حول الكعبة، والذي عنده جميع الحرم.

وقوله: ﴿حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ﴾: تقييد للنهي عن قتالهم، فعلم أن النهي عن بدئهم بالقتال، فإن كفوا وجب الكف عنهم، وإن بدؤوا بالقتال جاز قتالهم وقتلهم ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ﴾ - أي: عند المسجد الحرام - ﴿فَأَقْتُلُوهُمْ﴾، وهذه الآية أعني: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ مخصصة لقوله: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، وقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، والصحيح: أن هذه الآية محكمة، فلا يحل في الحرم إلا قتال من قاتل فيه^(٣)، ويؤيد أن الآية محكمة قوله

(١) «المفردات» (ص ١٧٣).

(٢) «نزهة الأعين النواظر» (ص ٤٧٨).

(٣) وهو قول مجاهد، وذهب إليه جمهور المفسرين. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٢٩٦)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ١٥١-١٥٣)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (ص ٦٧)، و«تفسير القرطبي» (٢/ ٣٥١-٣٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٢٥). وفي نسخ هذه الآية خلاف قوي؛ حتى قال عنها النحاس: «من أصعب ما في الناسخ والمنسوخ»، «الناسخ والمنسوخ» (ص ١٠٩).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))^(١). وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا، فَقَوْلُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذَنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذَنَ لِي فِيهَا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حَرَمَتُهَا الْيَوْمَ كَحَرَمَتِهَا بِالْأَمْسِ، وَلِيَبْلُغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ))^(٢)، رواهما البخاري ومسلم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^(١٩١) أي: مثل هذا الجزاء بالقتل والقتال جزاء كل كافر يُقاتل المسلمين. وقوله: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٩٢) أي: فإن انتهوا عن كفرهم بالله وعن قتالكم؛ فإن الله يغفر لهم ما سلف ويرحمهم لأنه غفورٌ رحيمٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: أمرٌ بقتال الكفار مطلقاً. ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: شركٌ أو صدٌّ عن سبيل الله، و﴿حَتَّى﴾: حرف تعليل؛ أي: لئلا تكون فتنة، أو حرف غاية؛ أي: إلى ألا تكون فتنة^(٣)، و﴿تَكُونَ﴾: تامة، ومعناها: توجد، و﴿فِتْنَةٌ﴾: فاعل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾: عن كفرهم وقتالهم، ﴿فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(١٩٣): نفي؛ معناه: النهي؛ أي: فلا تعتدوا أيها المؤمنون إلا على الظالمين بالكفر أو الاعتداء عليكم. وقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾: ذهب جمهورُ المفسرين إلى أنَّ المرادَ بالشهر الحرام: ذو القعدة، فهو أحدُ الأشهر الحرم، وأنَّ المعنى: الشهرُ الحرامُ الذي دخل المسلمون فيه مكة، وأقاموا فيها ثلاثة أيام، وذلك في عمرة القضية في السنة السابعة، هو بدل عن الشهر الحرام

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٣٢)، ومسلم (١٣٥٤) عن أبي شريح العدوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «التبيان في إعراب القرآن» (١/١٥٨)، و«البحر المحيط» (٢/٢٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢/٢٠٧).

الذي صدَّ فيه المشركون النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامَ الحديبية في السنة السادسة، وذلك من نوع القصاص^(١)، ولهذا قال: ﴿وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ﴾، وذلك شاملٌ لجميع الحُرْمَات؛ حرمة الزمانِ والمكانِ والإحرام، وحرمة المؤمن، وحرمة العهد، فمن انتهك حرمةً اقتُصَّ منه على الوجه المأذون فيه شرعاً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: مَنْ اعتدى عليكم بقتالٍ أو قتلٍ أو أيٍّ نوعٍ من أنواع العدوان؛ فاعتدوا عليه قصاصاً وجزاءً بمثلِ اعتدائه عليكم، وسمَّى جزاء الاعتداء اعتداءً مُشاكلةً لفظيةً؛ كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وفي هذا بيانٌ لصفة القصاص في قوله: ﴿وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ﴾.

ثم أمر سبحانه عباده أن يتقوه، وذلك بفعل ما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، فذلك يقيهم عذابَ الله وبأسه، ورغبهم في التقوى فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١٩٤)، وأكد معيته تعالى للمتقين بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾^(١٧٨) [النحل: ١٢٨].
وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: تأكيدٌ لكل ما تقدّم من الأوامر والنواهي.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أمر بإنفاق الأموال في سبيل الله؛ أي: لوجه الله، وفي كلِّ طريقٍ يحبُّ الله الإنفاق فيه، ومن أعظم ذلك الجهادُ في سبيل الله بقتال أعداء الله؛ لتكون كلمة الله هي العليا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: نهى للمؤمنين عن أن يُعرِّضوا أنفسهم للهلكة، وهي: التهلكة، وليس من ذلك الانغماس في العدو، بل من الإلقاء باليد إلى التهلكة: القعود عن الجهاد، وقد كان سببُ نزول هذه الآية أن

(١) وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس ومجاهد والسدي والضحاك وغيرهم، وهو قول جمهور المفسرين. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٣٠٤-٣٠٩)، و«المحرر الوجيز» (١/٤٦٥-٤٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (١/٥٢٧).

الأنصارَ لَمَّا ظَهَرَ الْإِسْلَامُ وَعَزَّ هُمَا أَنْ يَقْعُدُوا عَنِ الْجِهَادِ وَيَقْبَلُوا عَلَى إِصْلَاحِ حُرُوثِهِمْ وَبِسَاتِينِهِمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾: أمرٌ بِإِحْسَانِ الْعَمَلِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْعِبَادِ بِأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٥): ترغيبٌ فِي الْإِحْسَانِ، وَهُوَ تَعَالَى مُحْسِنٌ وَيُحِبُّ الْإِحْسَانَ وَالْمُحْسِنِينَ.

وَلَمَّا صُدَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْبَيْتِ عَامَ الْحَدِيثِيَّةِ، وَصَالِحَ الْكُفَّارِ عَلَى أَنْ يَعُودَ الْعَامَ الْقَابِلَ، وَيُخْلُوا لَهُ مَكَّةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَتَجَهَّزَ لِعِمْرَةِ الْقَضَاءِ، وَخَافُوا أَلَّا تَفِي قَرِيشٌ وَيُقَاتِلُوهُمْ، وَكَرِهَ الْمُسْلِمُونَ قِتَالَهُمْ فِي الْحَرَمِ وَالْإِحْرَامِ وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ؛ نَزَلَ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: لِإِعْلَاءِ دِينِهِ ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ عَلَيْهِمْ؛ بِالْإِبْتِدَاءِ بِالْقِتَالِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الْمُتَجَاوِزِينَ مَا حَدَّ لَهُمْ، وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ بَرَاءَةِ، أَوْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ نَفَقْتُمُوهُمْ﴾ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ﴾ أَي: مِنْ مَكَّةَ، وَقَدْ فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ عَامَ الْفَتْحِ ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الشَّرْكَ مِنْهُمْ ﴿أَشَدُّ﴾ أَعْظَمُ ﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾ لَهُمْ فِي الْحَرَمِ أَوْ الْإِحْرَامِ الَّذِي اسْتَعْظَمْتُمُوهُ ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَي: فِي الْحَرَمِ ﴿حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فِيهِ﴾ فَاقْتُلُوهُمْ فِيهِ. وَفِي قِرَاءَةٍ بِلَا أَلْفٍ فِي الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ (٢) ﴿كَذَلِكَ الْقِتْلُ وَالْإِحْرَامُ﴾ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ انْتَهَوْا

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٢٥١٢)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٩٧٢)، وَالْحَاكِمُ (٢٤٣٤) مِنْ طَرِيقِ حَيَوَةَ بْنِ شَرِيحٍ وَابْنِ لَهِيْعَةَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، فَذَكَرَهُ بِسِيَاقٍ أَطْوَلَ وَفِيهِ قِصَّةٌ.

وَهَذَا إِسْنَادُ رِجَالِهِ رِجَالٌ مُسْلِمٌ؛ غَيْرَ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ يَزِيدَ التُّجَيْبِيِّ، وَهُوَ ثِقَةٌ كَمَا فِي «التَّقْرِيبِ» (٤٠٤)، وَوَهُمُ الْحَاكِمُ، فَصَحَّحَهُ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخِينَ.

(٢) قَرَأَ حَمِزَةً وَالْكَسَائِي: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ﴾، ﴿حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ﴾، ﴿فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ بِغَيْرِ أَلْفٍ مِنَ الْقِتْلِ، وَالْبَاقُونَ بِالْأَلْفِ مِنَ الْقِتَالِ. يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ فِي الْقِرَاءَاتِ» (ص ١٧٩ - ١٨٠)، وَ«النَّشْرُ» (٢/٢٢٦-٢٢٧).

عن الكفر وأسلموا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ﴾ توجد ﴿فِتْنَةٌ﴾ شركٌ ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ العبادة ﴿لِلَّهِ﴾ وحده، ولا يُعبد سواه ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾ عن الشرك، فلا تعتدوا عليهم، دلَّ على هذا ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ اعتداء بقتل أو غيره ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ومن انتهى فليس بظالم؛ فلا عدوان عليه ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ المحرم مقابل ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ فكما قاتلوكم فيه فاقتلوهم في مثله، رد لاستعظام المسلمين ذلك ﴿وَالْحُرْمَاتُ﴾ جمع حُرمة: ما يجب احترامه ﴿قِصَاصٌ﴾ أي: يقتصُّ بمثلها إذا انتهكت ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ بالقتال في الحرم أو الإحرام أو الشهر الحرام ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ سَمَى مقابله اعتداءً لشبهها بالمقابل به في الصورة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الانتصار وترك الاعتداء ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصر ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طاعته، الجهاد وغيره ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ أي: أنفسكم، والباء زائدة ﴿إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ الهلاك، بالإمساك عن النفقة في الجهاد أو تركه؛ لأنه يقوي العدوَّ عليكم ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ بالنفقة وغيرها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يُشبههم.

وقول المؤلف: (لإعلاء دينه): يُبَيِّنُ أَنَّ الجِهَادَ الذي في سبيل الله ما كان لإعلاء دين الله كما يدلُّ له قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العَلِيَا فهو في سبيل الله))، متفق عليه^(١).

وقوله: (بالابتداء بالقتال): يُبَيِّنُ أَنَّ المراد بالاعتداء المنهي عنه هو: ابتداء الكفار بالقتال، وهو مبنيٌّ على أَنَّ المراد بالذين يقاتلونكم؛ هم المحاربون لا الكافرون.

(١) البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: (المتجاوزين...) إلى آخره: هذا أحدُ معنيي الاعتداء، ومنه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقوله: (وهذا منسوخٌ بآية براءة...) إلى آخره: يُريد: أَنَّ النهيَ عن ابتداء الكفار بالقتال منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وهذا هو الصحيح.

وقوله: (وقد فعل بهم ذلك...) إلى آخره: في هذا نظرٌ، فَإِنَّ المعروفَ أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُجَلِّ أحدًا، بل أَمَّنهم وعفى عنهم وخرج من خرج معه إلى حين^(١).

وقوله: (الشرك منهم)، وقوله: ﴿القتل﴾ لهم... إلى آخره: يُبينُ أَنَّ شركَ المشركين في مكة أكبرُ من قتل المسلمين لهم في الحرم، وفي ذلك تسليَةٌ للمسلمين.

وقوله: (أي: في الحرم): يُبينُ بهذا أَنَّ المراد بالذي عند المسجد الحرام: هو جميعُ الحرم؛ لأنَّ المسجدَ الحرام هو المصلى حولَ الكعبة، فالمنهي عنه هو القتالُ أو القتلُ في الحرم، فالقتلُ أو القتالُ في المسجد نفسه أشدُّ تحريمًا. وقوله: (توجد): يُبينُ أَنَّ تكون تامة.

وقوله: (العبادة...) إلى آخره: تفسيرٌ للدين، وإذا كانت العبادة لله وحده لم يوجد الشرك؛ فمضمونُ الجملة الثانية لازمٌ لمضمون الجملة الأولى؛ لأنَّ نفي وجود الشرك يستلزم وجود التوحيد، فعلى هذا تكون الجملة الثانية مؤكدةً للجملة الأولى.

وقوله: (عن الشرك...) إلى آخره: يُبينُ أنهم إذا انتهوا عن الشرك ثبتت لهم حرمةُ الإسلام، فلا يجوز الاعتداء عليهم بقتلٍ ولا قتالٍ أو غيرهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾؛ فإنه نفيٌ بمعنى النهي.

(١) وكانوا يسمون الطلقاء. ينظر: صحيح البخاري (٤٣٣٣)، ومسلم (١٠٥٩)، (١٨٠٩).

وقوله: (المحرم مقابل...) إلى آخره: يُبَيَّنُ أَنَّ معنى حرام: محرم، والشهر الحرام أحد الأشهر الحُرْمِ، والمراد: إمَّا جنسُ الأشهر الحُرْمِ الأربعة، وإمَّا واحدٌ معيَّنٌ منها؛ كذو القعدة الذي جرت فيه مقاصدة المشركين بدخول مكة في السنة السابعة في مقابل صدَّهم المسلمين في السنة السادسة؛ فالمعنى: مَنْ قاتلكم في الشهر الحرام؛ فقاتلوه فيه أو في شهرٍ مثله، وهذا من القصاص في حرمة الزمان؛ كالقصاص في حرمة المكان المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ الآية.

وقوله: (رد لاستعظام المسلمين ذلك): يريد أن إباحة القتال في الشهر الحرام وفي الحرم قصاصًا دفعٌ لتحرج المسلمين من ذلك. وقوله: (سمي مقابله...) إلى آخره: يريد: قوله: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾، وهو في الحقيقة ليس اعتداء؛ بل مجازاةٌ وقصاصًا؛ يقول المؤلف: سماه اعتداء؛ لأنه يُشبهه اعتداء المشركين في الصورة؛ لأنَّ كلاً منهما قتلٌ وقتالٌ، وقال بعضهم: إنه من قبيل المشاكلة اللفظية^(١)، وقال بعضهم: إنه مجازٌ مرسلٌ علاقته السببية؛ لأنه من التعبير بالسبب عن المسبب^(٢).

وقوله: (في الانتصار...) إلى آخره: خصَّ الأمر بالتقوى بما ذكر وإن كان عامًا؛ ليناسب ما قبله.

وقوله: (بالعون والنصر): هذا يُبَيَّنُ أَنَّ المعية هي المعية الخاصة. وقوله: (طاعته...) إلى آخره: هذا بيانٌ للمراد بسبيل الله، وأنَّ كلَّ طاعةٍ هي من سبيل الله، وقد غلبَ عليَّ هذا الوصف - أعني: في سبيل الله - أنَّ المراد به الجهادُ بقتال الكفار، وكلُّ جهادٍ أو نفقةٍ في طاعة الله فهو في سبيل الله.

(١) تقدم (ص ٥٠).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (٧٦)، و«المفردات» (ص ١٧٣).

وقوله: (أنفسكم): بيان لمفعول ﴿تَلْقُوا﴾؛ لأنَّ التهلكة مصدرٌ سماعي بمعنى: الهلاك، والهلاك إنما يتعلّق بالنفس، فصح أنّ المعنى: ولا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة، ومن أحسن ما عبّر به عن قوله: ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾: أي: باختياركم، وعليه فالباء ليست زائدة^(١).

وقوله: (بالإمساك عن النفقة...) إلى آخره: بيان للسبب الذي يكون به الهلاك، وهو المنهيُّ عنه.

وقوله: (بالنفقة وغيرها) تفسير الإحسان بالنفقة هو المناسب لسياق الآية فلما نهى عن الإمساك؛ بقوله: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أمر بالإنفاق بقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ فكان الأمر بالإنفاق تأكيداً للنهي عن الإمساك.

وقوله: (أي: يشيهم) فسر محبة الله بالإثابة، وهذا تأويل وصرّف للكلام عن ظاهره وهذه طريقة من ينفي عن الله حقيقة المحبة، ويفسرها بالثواب أو إرادة الثواب، وهذه طريقة المؤلف - عفا الله عنه - كما سيأتي في نظائر هذه الآية.



(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢/٢١٣-٢١٤). وأوجه أخرى في: «تفسير الطبري» (٣/٣٢٥-٣٢٦)، و«الكشاف» (١/٣٩٧)، و«المحرر الوجيز» (١/٤٦٨)، و«البحر المحيط» (٢/٢٥١-٢٥٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ ۚ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلِّمُوا أَنْ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦٦﴾ [البقرة: ١٩٦]:

يأمر الله نبيه والمؤمنين بإتمام الحج والعمرة له تعالى، وفي المراد بالإتمام وجوه من التفسير: فقليل: المراد: المضي فيهما إلى تمامهما بعدم القطع لهما لأن الأمر بالإتمام إنما يتوجه لمن شرع فيهما، وقيل: إتمامهما: فعل جميع مناسكهما، وقيل: المراد: الإخلاص فيهما لله تعالى، وقيل: إتمامهما: أدائهما؛ ولهذا قيل: إن هذه الآية هي الدليل على وجوب الحج والعمرة، ولهذا قال من قال: إن الحج فرض في السنة السادسة من الهجرة^(١)، وأقرب هذه الوجوه في المراد «بالإتمام»: الأول والثاني^(٢)، والصواب: أن الحج إنما فرض في السنة التاسعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وهذه الآية إنما نزلت في السنة التاسعة^(٣).

والحج في اللغة: القصد إلى معظم، وفي الشرع: القصد إلى البيت الحرام والمشاعر العظام بقصد القرية لله. والعمرة في اللغة: الزيارة، وفي الشرع: زيارة البيت للطواف به والسعي بين الصفا والمروة.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٣٢٧-٣٤٢)، و«المحرر الوجيز» (١/٤٧٠-٤٧١)، و«تفسير القرطبي» (٢/٣٦٥-٣٦٦).

(٢) وتفسير الإتمام بالمضي هو قول ابن عباس في رواية علي ابن أبي طلحة عنه، واختاره الطبري والبغوي، واستظهره ابن كثير، وقال أبو حيان: إن القولين قريبان. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٣٢٨) (٣/٣٣١-٣٣٢)، و«تفسير البغوي» (١/٢١٨) و«البحر المحيط» (٢/٢٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (١/٧٣٥).

(٣) ينظر: «زاد المعاد» (٢/١١٠).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ أي: صُدتُم عن المسجد الحرام (١).
 وقوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: مَنْ أَحْصَرَ فعليه ما استيسر من الهدى،
 وهو: شاةٌ أو سُبُعٌ بدنةٍ أو سُبُعٌ بقرةٍ، يذبحه في المكان الذي أَحْصَرَ فيه ويتحلَّل،
 وهذا يؤيد الوجه الأول في المراد بإتمام الحج والعمرة. وقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا
 رُءُوسَكُمْ﴾: نهى من الله عن حلق المحرِّم رأسه.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾: هذا غايةٌ للنهي عن حلق المحرِّم رأسه،
 ومحلُّ الهدى في العمرة وقت الفراغ منها، ومحله المكاني: الحرم كله،
 والهدْيُ في الحج محله الزماني يوم النحر، ومحله المكاني منى.

وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدِيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾:
 هذه الآية تضمَّنت الرخصة للمحرم بحلق رأسه إذا كان مريضًا أو به أذى من
 رأسه كالقمل، فمَنْ ترخَّص وحلق فعليه فدية، وهي أحدُ ثلاثة أشياء: صيامُ
 ثلاثة أيام، أو إطعامُ ستة مساكين لكل مسكينٍ نصفُ صاع، أو نُسك وهو شاةٌ أو
 سُبُعٌ بقرةٍ أو سُبُعٌ بدنة، وقد أجملت خصال الفطرة الثلاثة في القرآن، وفصلتها
 السنة كما في حديث كعب بن عجرة (٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِنْ تَمَتُّعٍ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
 فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾. قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي: لم
 تخافوا أن يصدِّكم عدو عن البيت، وحيثُذِ فمَنْ تمَّتَّ بالعمرة إلى الحج؛ أي:
 أنشأ عمرةً في أشهر الحج لِيتمتع بها إلى أن يأتي وقت الإحرام بالحج، فمَنْ
 فعل ذلك وحلَّ من العمرة ثم أحرم بالحج من عامه؛ فذلك هو المتمتع، وعليه
 ما استيسر من الهدى؛ وهو شاةٌ أو سُبُعٌ بدنةٍ أو سُبُعٌ بقرةٍ كما تقدَّم، فمَنْ لم

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٢٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٨١٤)، ومسلم (١٢٠١).

يجد فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج، اختلفَ في وقتها، وأظهر الأقوال أنه بعد الإحرام بالعمرة^(١)، وسبعة إذا رجع إلى أهله.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾: تأكيدٌ لوجوب ما ذكر من صيام الثلاثة والسبعة، وأنها لا تجزئ عن الهدى إلا كاملة، فمن ترك منها يوماً لغير عذرٍ كان كمن لم يصم منها شيئاً.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: اسمُ الإشارة قيل: راجعٌ إلى التمتع وما يتعلّق به من الأحكام؛ فالمعنى: أن التمتع مشروعٌ لمن ليس من حاضري المسجد الحرام، وليس مشروعاً لحاضري المسجد الحرام، وقيل: اسمُ الإشارة راجعٌ إلى وجوب الهدى في قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، وعلى هذا فلا يجب الهدى إلا على من تمتع من غير حاضري المسجد الحرام، وعليه فمن تمتع منهم فلا هدي عليه، والصواب الأول، فإن اسم الإشارة ليس كالضمير يعود إلى أقرب مذكور؛ بل يعود إلى كل ما تقدّم في الجملة^(٢).

واختلف في المراد بـ﴿حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: فقال بعضهم: هم أهل الحرم خاصة، وقيل: هم أهل الحرم ومن بينهم وبينه دون مسافة القصر، والصحيح: الأول؛ وهو أنهم سكان الحرم؛ لأنه ظاهر القرآن^(٣).

(١) وهو قول أبي حنيفة واختاره السعدي. ينظر: «تفسير الطبري» (٤٣٠/٣)، (٤٣١/٣)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٣٦٦/١)، و«المحرر الوجيز» (٤٧٨/١)، و«تفسير القرطبي» (٣٩٩/٢)، و«تفسير ابن كثير» (٥٣٨/١)، و«تفسير السعدي» (١٤٦/١).

(٢) وهو قول ابن عباس الربيع والسدي، واختاره الطبري، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه. ينظر: «تفسير الطبري» (٤٣٧/٣)، (٤٣٩/٣)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٣٤٨/١)، و«المحرر الوجيز» (٤٨٠/١)، و«زاد المسير» (١٦٣/١)، و«البحر المحيط» (٢٧٠/٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٢٩-٢٣٠).

(٣) وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم. ينظر: «تفسير الطبري» (٤٣٨-٤٣٩)، و«المحرر الوجيز» (٤٨٠/١)، و«تفسير القرطبي» (٤٠٤/٢)، و«تفسير ابن كثير» (٥٤٠/١).

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: وصية من الله لعباده بالتقوى، وهي: فعلُ المأمورات وتركُ المنهيات، وأولى ما يدخل فيها ما تقدّم من الأوامر والنواهي. وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦٦﴾﴾: أمر بالعلم بأنه تعالى شديد العقاب، وفي ضمنه تعليمٌ للعباد بما يوجب الخوف منه تعالى والمبادرة إلى طاعته بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

﴿وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أَدَّوهُمَا بِحَقْوَقِهِمَا ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾ مُنْعَمٌ عَنِ إِتْمَامِهِمَا بَعْدُ ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ تَيْسَّرَ ﴿مِنَ الْهَدْيِ﴾ عَلَيْكُمْ وَهُوَ شَاةٌ ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ أَي لَا تَحْلَلُوا ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ الْمَذْكُورُ مَحَلَّهُ﴾ حَيْثُ يَحْلُ ذَبْحُهُ، وَهُوَ مَكَانُ الْإِحْصَارِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ، فَيَذْبَحُ فِيهِ بَنِيَّةَ التَّحْلُلِ، وَيُفْرَقُ عَلَى مَسَاكِينِهِ وَيَحْلَقُ، وَبِهِ يَحْصُلُ التَّحْلُلُ ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ كَقَمَلٍ وَصُدَاعٍ، فَحَلَّقَ فِي الْإِحْرَامِ ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ عَلَيْهِ ﴿مِن صِيَامٍ﴾ لِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ بِثَلَاثَةِ أَصْعٍ مِنْ غَالِبِ قَوْتِ الْبَلَدِ عَلَى سِتَّةِ مَسَاكِينٍ ﴿أَوْ نُسْكَ﴾ أَي: ذَبْحِ شَاةٍ، وَ«أَوْ» لِلتَّخْيِيرِ.

وَالْحَقُّ بِهِ مَنْ حَلَّقَ لغير عذر؛ لِأَنَّهُ أَوْلَى بِالْكَفَّارَةِ، وَكَذَا مَنْ اسْتَمْتَعَ بِغَيْرِ الْحَلْقِ؛ كَالطَّيِّبِ وَاللِّبْسِ وَالذَّهْنِ لِعِذْرِ أَوْ غَيْرِهِ ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ الْعَدُوَّ، بِأَنْ ذَهَبَ أَوْ لَمْ يَكُنْ ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ﴾ اسْتَمْتَعَ ﴿بِالْعُمْرَةِ﴾ أَي: بِسَبَبِ فِرَاقِهِ مِنْهَا بِمَحْظُورَاتِ الْإِحْرَامِ ﴿إِلَى الْحَجِّ﴾ أَي: الْإِحْرَامِ بِهِ، بِأَنْ يَكُونَ أَحْرَمَ بِهَا فِي أَشْهُرِهِ ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ تَيْسَّرَ ﴿مِنَ الْهَدْيِ﴾ عَلَيْهِ، وَهُوَ شَاةٌ يَذْبَحُهَا بَعْدَ الْإِحْرَامِ بِهِ، وَالْأَفْضَلُ يَوْمَ النَّحْرِ ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾ الْهَدْيَ لَفَقْدِهِ أَوْ فَقْدِ ثَمَنِهِ ﴿فَصِيَامٌ﴾ أَي: فَعَلِيهِ صِيَامٌ ﴿ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أَي: فِي حَالِ الْإِحْرَامِ بِهِ، فَيَجِبُ حِينَئِذٍ أَنْ يُحْرَمَ قَبْلَ السَّابِعِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَالْأَفْضَلُ قَبْلَ السَّادِسِ؛ لِكِرَاهَةِ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَلَا يَجُوزُ صَوْمُهَا أَيَّامَ التَّشْرِيقِ عَلَى أَصَحِّ قَوْلِي الشَّافِعِيِّ ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إِلَى وَطَنِكُمْ، مَكَّةَ أَوْ غَيْرَهَا، وَقِيلَ: إِذَا

فرغتم من أعمال الحج، وفيه التفاتٌ عن الغيبة ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ جملةً تأكيدٍ لِمَا قَبْلَهَا ﴿ذَلِكَ﴾ الحكمُ المذكورُ من وجوب الهدى أو الصيام على مَنْ تَمَتَّعَ ﴿لَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بأن لم يكونوا على دون مرحلتين من الحرم عند الشافعي، فإن كان فلا دمَ عليه ولا صيامَ وإن تمتع. وفي ذكر الأهل إشعارٌ باشتراط الاستيطان، فلو أقام قبل أشهرِ الحج، ولم يستوطن وتمتع؛ فعليه ذلك، وهو أحدُ وجهين عندنا، والثاني: لا، والأهل كنايةٌ عن النفس، وألحق بالتمتع فيما ذُكِرَ بالسنة القارن؛ وهو مَنْ يُحْرَمُ بِالْعَمْرَةِ وَالْحَجِّ مَعًا، أَوْ يُدْخِلُ الْحَجَّ عَلَيْهَا قَبْلَ الطَّوَافِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالفه.

وقول المؤلف: (أدوهما بحقوقهما): أي: افعلوهما بجميع مناسكهما، وهذا يقتضي أن المؤلف يذهب إلى أن الآية دليلٌ على وجوب الحج والعمرة، وهو يقتضي أن الحج فرض في السنة السادسة، والصواب خلافه. وقوله: (عن إتمامهما...) إلى آخره: فسّر الإحصار بالمنع من إتمامهما، وخصّ الإحصار بحصر العدو، وهذا هو الذي وقع في السنة السادسة حين منع المشركون الرسول وأصحابه من دخول مكة، وسمّاه الله صِدًّا عن المسجد الحرام، واتفق العلماء على أن حصر العدو إحصارٌ يجب به الهدى، ويُباح به التحلل من الإحرام، وذهب كثيرٌ من العلماء إلى أن الإحصار لا يختص بحصر العدو، بل يعمُّ كلَّ مانعٍ من إتمام التُّسُك من مرضٍ وغيره^(١).

(١) وهو قول ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة عنه، وابن مسعود، ومجاهد، والحسن وجماعة، وهو مذهب أبي حنيفة، واختاره الطبري. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٣٤٢-٣٤٥)، (٣/٣٤٧-٣٤٨)، و«المحرر الوجيز» (١/٤٧١-٤٧٣)، و«زاد المسير» (١/١٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/٥٣٣).

وقوله: (عليكم): هذا تقديرٌ لخبر المبتدأ، وهو الموصول في قوله: ﴿مَا اسْتَيْسَرَ﴾، والتقدير: فإنْ أُحصِرْتُمْ فعليكم ما استيسرَ من الهدى؛ أي: تيسر. وقوله: (وهو شاة): مثلاً لِمَا استيسر، وبمنزلة الشاةِ سُبُعُ البدنة أو البقرة^(١).

وقوله: (أي: لا تتحللوا): فَسَّرَ النهيَ عن الحلقِ بالنهي عن التحلل من الإحرام؛ لأنَّ الحلقَ مما يكون به التحلل، كما يدلُّ له قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمعتمر: ((وَلْيُقَصِّرْ وَلْيُتَحَلَّلْ))^(٢)؛ أي: بعد الطواف والسعي، أو أنه لا يُباح إلا بعد التحلل، كما يدلُّ له قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((فَلَا أَحِلُّ حَتَّى أَنْحِرَ))^(٣).

وقوله: (حيث يحل ذبحه...) إلى آخره: فَسَّرَ الهدىَ بهدي الإحصار، والمحل بالمحل المكاني، وعليه فمحلُّ هدي الإحصارِ مكانُ الإحصار كما قال الشافعي^(٤)، فينحرُ المحصرُ هديه ثم يحلقُ رأسه، وبذا يحلُّ من إحرامه، وأمَّا مَنْ أَحْرَمَ وساق الهدى معه، فإن كان معتمراً؛ فإنه ينحرُ هديه بعد فراغه من العمرة ويحلقُ رأسه، وأمَّا إن كان متمتعاً أو قارناً؛ فإنه لا يحلُّ حتى ينحر هديه يومَ النحر بمنى.

وقوله: (كقمل وصداع فحلق في الإحرام): هذا تمثيلٌ للمرض والأذى في الرأس.

وقوله: (عليه): هذا تقديرٌ لخبر المبتدأ؛ وهو «فدية».

(١) لما أخرجه مسلم (١٣١٨) عن جابر بن عبد الله، قال: «نحرننا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة».

(٢) أخرجه البخاري (١٦٩١)، ومسلم (١٢٢٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (١٥٦٦)، ومسلم (١٢٢٩) من حديث حفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٤) ينظر: «الأم» (٣/٣٩٩-٤٠١).

وقوله: (ثلاثة أيام) وقوله: (بثلاثة أصع...) إلى آخره: هذا مضمون ما دلت عليه السنة في قصة كعب بن عجرة، وهو بيان لما أجمل في الآية. وقوله: (و«أو» للتخير): يفيد أن من وجبت عليه الفدية يُجزئه واحد من الثلاثة؛ كخصال كفارة اليمين.

وقوله: (وألحق به...) إلى آخره: يُبين أن من حلق لغير عذرٍ تجب عليه الفدية؛ كمن حلق لعذر.

وقوله: (في حال الإحرام به): يريد: أن صيام الأيام الثلاثة يكون بعد إحرام المتمتع بالحج، فيُحرم بالحج في اليوم السادس أو السابع من ذي الحجة، وقيل: يجوز صيامها بعد الإحرام بالعمرة أو بعد التحلل منها؛ وهذا أصح.

وقوله: (ولا يجوز صومها...) إلى آخره: أي: صوم الأيام الثلاثة، والصحيح أنه يجوز صوم أيام التشريق كما في حديث ابن عمر وعائشة رضي الله عنهن قالوا: «لم يُرخص في أيام التشريق أن يُصمن إلا لمن لم يجد الهدي»^(١). وقوله: (وقيل: إذا فرغتم من أعمال الحج): الصواب: القول الأول، فوقت صيام الأيام السبعة إذا رجع الحاج إلى أهله^(٢).

وقوله: (وفيه التفات عن الغيبة): يريد أن قوله: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب؛ لأن كل ما قبله من قبيل الكلام عن غائب.

وقوله: (جملة تأكيد لما قبلها): لأن عشرة جمع ثلاثة وسبعة، فعلى هذا القول لم تُفد الجملة معنى جديداً؛ لأن ذكرها لمحض التأكيد، ومن أحسن ما قيل في وجه ذكر هذه الجملة: دفع توهم التخير بين الثلاثة والسبعة؛ لأن

(١) أخرجه البخاري (١٩٩٧).

(٢) وهو قول ابن عمر، وروي عن سعيد بن جبير وأبي العالية ومجاهد وعطاء وجماعة. ينظر: «تفسير الطبري» (٤٣٣/٣)، (٤٣٥-٤٣٦)، و«المحرر الوجيز» (١/٤٧٨-٤٧٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/٥٣٩).

الواو قد تكون في بعض المواضع بمعنى «أو»، وقد استظهرت وجهًا لذكر هذه الجملة ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، وهو الدلالة على أنه لا يجزئ صوم بعضها، فلا بد إذا من صيام عشرة أيام كاملة^(١).

وقوله: (الحكمُ المذكور... إلى آخره: جعل اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ راجعًا إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ...﴾ وما بعده، وقيل: اسم الإشارة راجع إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ﴾، وهو أظهر، وعليه: فالمتعة مخصوصة بمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، ولا متعة لمن كان من سكان الحرم، وقد اختلف العلماء في المراد بحاضري المسجد الحرام، وأقربها أنه من كان نازلًا في الحرم.

وقوله: (فإن كان فلا دم عليه ولا صيام، وإن تمتع): هذا مبنيٌّ على ما سبق؛ أن اسم الإشارة راجعٌ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، وعلى ما نقله المؤلف عن الشافعي من أن حاضر المسجد الحرام من كان دون مرحلتين من الحرم^(٢)، فإنه يصحُّ منه التمتع ولا دم ولا صيام عليه، والمرحلة؛ يريد بها الفقهاء المسافة التي تقطع في يوم وليلة ولهذا عبر بعضهم بمن كان دون ليلتين من الحرم.

وقوله: (وفي ذكر «الأهل» إشعار باشتراط الاستيطان...) إلى آخره: هذا استنباطٌ صحيحٌ، ولكن فيما فرَّع عليه نظرٌ.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٣٦/٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢٦٨-٢٦٩)، و«تفسير القرطبي» (٤٠٢-٤٠٣)، و«البحر المحيط» (٢٦٨-٢٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٥٣٩/١).

(٢) ينظر: «مختصر المزني» (١٦١/٨)، و«أحكام القرآن» جمع البيهقي (١١٥/١)، و«تفسير الشافعي» جمع الفران (٣١٤-٣١٥).

وقوله: (والثاني: لا): يريد: الوجه الثاني في مذهب الشافعي؛ من تمتع وهو دون مرحلتين من الحرم فلا دم عليه ولا صيام، وإن أقام بمكة قبل الحج^(١).
 وقوله: (والأهل كناية عن النفس): هذا غريبٌ ولا يظهر له وجه.
 وقوله: (وألحق بالمتمتع...) إلى آخره: معناه أنَّ القارنَ بين الحج والعمرة ملحقٌ بالمتمتع في وجوب ما استيسر من الهدى، ووجوبِ صيامِ ثلاثةِ أيامٍ وسبعةٍ لمن لم يجد.



(١) ينظر الخلاف في شروط إيجاب دم التمتع عند الشافعية في: «المجموع شرح المهذب» (١٧١/٧) وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]:

يُخْبِرُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّ وَقْتَ الْإِحْرَامِ بِالْحَجِّ وَأَعْمَالِ الْحَجِّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ مِنْ أَشْهُرِ السَّنَةِ، وَقَدْ ذَهَبَ جَمَهُورُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ أَشْهُرَ الْحَجِّ: شَوَالٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرِهِ ^(١)، وَهَذَا وَقْتُ الْإِحْرَامِ بِالْحَجِّ، فَلَا يَنْعَقِدُ بَعْدَهُ بِالْإِجْمَاعِ، وَلَا يَصِحُّ الْإِحْرَامُ قَبْلَ أَشْهُرِهِ، وَقِيلَ: أَشْهُرُ الْحَجِّ: شَوَالٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ كُلَّهُ ^(٢)، كَمَا يَدُلُّ لِذَلِكَ لَفْظُ الْجَمْعِ، وَقَدْ بَيَّنَّتِ السَّنَةُ تَفْصِيلَ ذَلِكَ بَيَانِ أَيَّامِ الْمَنَاسِكِ، وَهِيَ سِتَّةُ أَيَّامٍ أَوْلَاهَا يَوْمُ التَّرْوِيَةِ وَهُوَ الثَّامِنُ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَآخِرُهَا آخِرُ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ وَهُوَ الثَّلَاثُ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَمَنْ قَالَ أَشْهُرَ الْحَجِّ: شَوَالٌ وَذُو الْقَعْدَةِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ مَعْلَقًا بِصِيغَةِ الْجَزْمِ (١٤١/٢) بَابِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فِي الْحَجِّ﴾.

وَوَصَلَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤٤٦/٣)، وَالدَّارِقُطْنِيُّ فِي «السَّنَنِ» (٢٤٥٦) عَنْ وَرْقَاءَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو مِثْلَهُ، وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٥٤٢/١). وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٤٤٦/٣)، وَالْحَاكِمُ (٣٠٩٢) وَمِنْ طَرِيقَةِ الْبَيْهَقِيِّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٨٧٨٢)، عَنْ نَمِيرٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو مِثْلَهُ. وَقَالَ الْحَاكِمُ: «إِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا وَلَمْ يَخْرُجَاهُ».

وَقَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٤٢٠/٣): «وَالْإِسْنَادَانِ صَحِيحَانِ».

(٢) الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: جَاءَ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَمْرِو، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ الزُّبَيْرِ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ، وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَالشَّافِعِيُّ، وَمَالِكٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ حَبِيبٍ، وَرَجَّحَهُ الطَّبْرِيُّ وَالزَّجَّاجُ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: مَرُورِيٌّ عَنْ ابْنِ عَمْرِو أَيْضًا، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ، وَمَالِكٌ بْنُ أَنَسٍ فِي رِوَايَةِ ابْنِ الْمُنْذَرِ. يَنْظُرُ: «تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (٤٤٣-٤٥١)، وَ«مَعَانِي الْقُرْآنِ» لِلزَّجَّاجِ (٢٦٩/١)، وَ«زَادَ الْمَسِيرَ» (١٦٣/١)، وَ«تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (٤٠٥/٢)، وَ«تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ» (٥٤٢-٥٤١/١).

وذو الحجة؛ قال: لا يجوز تأخير شيءٍ من أعمال الحج عن شهر ذي الحجة، ومُتعلِّقُ هذا الخلاف طواف الإفاضة^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي: أوجبَ على نفسه الحجَّ بالشروع فيه؛ فإنه يجبُ بمجرد الإحرام به وإن كان تطوعاً، ويجبُ إتمامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، والإحرام به يبدأ وقتَه من أول ليلة من شوال، ولا يصحُّ قبل ذلك على الصحيح، وهو مذهب الشافعي^(٢)، وآخر وقتَه: آخرُ ليلةِ النحر إذا بقي مقدار ما يمكن فيه إدراكُ الوقوف بعرفة قبل طلوعِ الفجر، وهو إجماعٌ كما تقدّم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾: النفي في هذه الجمل بمعنى النهي؛ أي: فلا يرفث ولا يفسق ولا يجادل، والرفثُ: الجماعُ ودواعيه والكلامُ فيه بحضرة النساء، والفسوقُ: جميعُ المعاصي، ومنه محظورات الإحرام، والجدالُ في الحج: هو الجدالُ حالَ الإحرام في أي أمرٍ يختلف فيه، ومنه الجدالُ في أحكام الحج ومناسكه، فُعلم بذلك أن مَنْ برَّ الحج تركُ هذه المنهيات، فالحجُّ المبرورُ: ما جمع بين فعلِ المأمورات وتركِ المنهيات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾: ترغيبٌ في فعل الخير من أنواع الطاعات القولية والعملية البدنية والمالية، وذكر العلم في قوله: ﴿يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ يتضمَّن الوعدَ بالثواب.

وقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾: أمرٌ بأخذ الزاد؛ وهو النفقةُ في سفر الحج، ولَمَّا أمرَ تعالى بأخذ الزاد في سفر الدنيا نبهَ على ما هو أهمُّ منه وأعظم، نبهَ على زاد سفر الآخرة وهو التقوى؛ فقال تعالى: ﴿فَاتَّخِذْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾؛

(١) ينظر: «تفسير ابن جزي» (١/١١٥)، و«تفسير الفاتحة والبقرة» للعثيمين (٢/٤١٦).

(٢) وعزاه الماوردي لعمر، وابن مسعود، وجابر بن عبد الله، وابن عباس، في جماعة من السلف. ينظر: «الأم» (٣/٣٨٧)، و«الحاوي الكبير» (٤/٢٨-٢٩)، و«المجموع شرح المهذب» (٧/١٣١).

وهي: فِعْلُ المأموراتِ وتَرْكُ المنهيات، فذلك هو الذي يقِي العبدَ من سخطِ الله وعذابه، ثم أكد ذلك تعالى بقوله: ﴿وَأَتَّقُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٧)، فأمر بخير زادٍ، وخصَّ بالخطابِ أولي الأبواب؛ وهم أهل العقول النيرة الزكية التي تُميز بين الحقِّ والباطلِ، والنافع والضار، وتؤثِّر الهدى والرُّشدَ على الضلالة والغِي.

﴿الْحَجَّ﴾ وقته ﴿أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ سؤال وذو القعدة وعشرُ ليالٍ من ذي الحجة، وقيل: كلُّه ﴿فَمَنْ فَرَضَ﴾ على نفسه ﴿فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ بالإحرام به ﴿فَلَا رَفَثٌ﴾ جماعٌ فيه ﴿وَلَا فُسُوقٌ﴾ معاصٍ ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ خصامٌ ﴿فِي الْحَجَّ﴾ وفي قراءة: بفتح الأولين^(١)، والمراد في الثلاثة: النهي ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ كصدقةٍ ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ فيجازيكم به، ونزل في أهل اليمن، وكانوا يحجُّون بلا زادٍ، فيكونون كلاً على الناس ﴿وَتَرَوُودُوا﴾ ما يُبلِّغكم لسفركم ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ ما يتقى به سؤال الناس وغيره ﴿وَأَتَّقُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ ذوي العقول.

وقولُ المؤلِّف: (وقته): يريد أنَّ ﴿أَشْهُرٌ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والتقدير: الحجُّ وقته أشهرٌ، وبعضهم يُقدِّر مضافاً محذوفاً هو مبتدأ، وخبره: أشهرٌ، وعلى هذا فالتقدير: وقتُ الحجِّ أشهرٌ^(٢).

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ﴾ بالضم فيهما والتنوين - كما هي في قراءة المؤلف -، وقرأ الباقون: ﴿فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ﴾ بالنصب بغير تنوين، ولم يختلفوا في نصب اللام في جدال من قوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجَّ﴾ في نفس الآية. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٨٠)، و«النشر» (٢/ ٢١٢).

(٢) وذكروا أوجهاً أخرى. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١١٩)، و«التبيان في إعراب القرآن» (١/ ١٦٠-١٦١)، و«الكشاف» (١/ ٤٠٥)، و«البحر المحيط» (٢/ ٢٧٢)، و«الدر المصون» (٢/ ٣٢٢).

وقوله: (سؤال...) إلى آخره: بيان للمراد بالأشهر، وأشار إلى القولين في ذلك كما تقدّم.

وقوله: (على نفسه): يُبَيِّنُ أَنَّ مَعْنَى ﴿فَرَضَ﴾: أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ الْحَجَّ بِالْإِحْرَامِ بِهِ كَمَا ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ بَعْدَ، وَهَكَذَا حُكِمَ الْعِمْرَةَ تَجِبُ بِالشَّرْعِ فِيهَا.

وقوله: (ونزل في أهل اليمن...) إلى آخره: يُشِيرُ إِلَى سَبَبِ نَزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾^(١). وقوله: (ما يُبَلِّغُكُمْ لِسَفَرِكُمْ): أَي: خَذُوا مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِيكُمْ فِي سَفَرِ الْحَجِّ مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ.

وقوله: (ما يُتَّقَى به سؤال الناس...) إلى آخره: جَعَلَ هَذَا تَفْسِيرًا لِلتَّقْوَى، وَفِي هَذَا التَّفْسِيرِ نَظْرٌ، وَالْأَصْلُ أَنَّ التَّقْوَى تَقْوَى اللَّهِ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى عَنْهُ، وَلِهَذَا أَكَّدَ الشَّاءَ عَلَى التَّقْوَى لِلأَمْرِ بِهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُونَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.



(١) أخرجه البخاري (١٥٢٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٨-١٩٩]:

يُبيِّنُ تعالى في هذه الآيات أنه ليس على الحاج جُنَاحٌ -أي: إثم- في طلب فضل الله؛ أي: رِزقه بالتجارة في سفر الحج وفي مكة والمشاعر، وقد نزلت هذه الآية لَمَّا تَحَرَّجَ بعض المسلمين من الاتجار في الحج^(١)، وإذا كان الحجُّ هو المقصودُ الأولُ في السفر لم يقدح الاتجارُ في النية، ولم ينقص به الثواب؛ لأنه -أي: الاتجار- حينئذٍ مقصودٌ بالتَّبع، أمَّا إذا كان المقصودُ في السفر هو التجارة في موسم الحج، والحجُّ تابعٌ؛ فالاتجارُ لا يقدح في صحة الحج، ولكنه لا يبلغ منزلةً من أنشأ السفر للحج، وأخلص النية لذلك^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾: أي: إذا دفعتم مُنصرفين من عرفة إلى مزدلفة بعد غروب الشمس؛ فاذكروا الله عند المشعر الحرام، وهو جبلٌ صغيرٌ معروفٌ بالمزدلفة، وقف عنده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣)، ويُطلقُ هذا الاسمُ على كل مزدلفة، فيقال لها: المشعرُ، وجمَعٌ، ومزدلفة^(٤)، ويقال لتلك الليلة: ليلة عرفة؛ لأنها وقتُ الوقوف بعرفة، وليلة جمَعٍ لنزول الحاج فيها تلك الليلة. والوقوف بعرفة هو ركنُ الحج الأعظم، والوقوف بمزدلفة أحدُ مناسك الحج الواجبة؛ لقوله

(١) أخرجه البخاري (١٧٧٠)، (٤٥١٩) عن ابن عباس، وينظر: «أسباب النزول» (ص ٦٢-٦٣)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/٤٩٩-٥٠٤).

(٢) ينظر: «جامع العلوم والحكم» (١/٨١-٨٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٢١٨) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «معجم البلدان» (٢/١٦٣)، (٥/١٢٠-١٢١)، و(٥/١٣٣-١٣٤).

تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾، ويدخل في الذكر صلاة المغرب والعشاء فيها وصلاة الفجر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتَكُمْ﴾: تأكيد للأمر بالذكر عند المشعر الحرام؛ أي: اذكروا الله شكرًا على نعمته بهدائه إياكم لدين الإسلام وشرائعه، ومناسك الحج التي هي من ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ (١٦٨): أي: وإنكم كنتم قبل هدى الله إياكم من الضالين عن طريق الحق.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾: قيل: المراد «الإفاضة» من عرفة، وهو قول جمهور المفسرين، وحكى ابن جرير الإجماع عليه، وقيل: المراد «الإفاضة من مزدلفة» صبح يوم النحر، وهذا هو ظاهر القرآن لولا أنه خلاف قول الجمهور من المفسرين^(١).

والمراد بالناس: جمهور الناس؛ وهم من عدا قريش، فقد كان جمهورُ الناس يقفون بعرفة، وقريشُ تقف باليوم التاسع بالمزدلفة، ويقولون: نحن أهلُ الحرم لا نخرج منه، وهذا من بدعهم في الحج، فإنهم خالفوا سنة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد كان يقف بعرفة، ولذا قال بعض المفسرين: المراد بالناس إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢)، وعلى هذا يكون من العام الذي أُريد به الخصوص؛ كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧].

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٥٢٥-٥٣٢)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤٨٩-٤٩٠)، و«البحر المحيط» (٢/ ٣٠٠-٣٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٥٥-٥٥٦)، و«أضواء البيان» (١/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) وهو قول الضحاك، ومال إليه ابن جرير الطبري، فبعد أن حكى أقوالاً للسلف أن الناس هم قريش والإفاضة من عرفات؛ قال: «ولولا إجماع من وصفت إجماعه على أن ذلك تأويله لقلت: أولى التأويلين بتأويل الآية ما قاله الضحاك». «تفسير الطبري» (٣/ ٥٣٠-٥٣١)، وهذا مبني على ما سبق. ينظر المصادر السابقة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾: أمرٌ من الله لحجاج بيته بعد الإفاضتين من عرفة ومزدلفة بالاستغفار؛ وهو: طلب المغفرة من الله لذنوبهم، ورغبتهم في ذلك بإخبارهم أنه تعالى غفورٌ؛ أي: كثيرُ المغفرة لذنوب عباده، والندبُ للاستغفار في هذا الموضع من قبيل ختم العمل بالاستغفار؛ كالأستغفار بعد التهجد، وفي أدبار الصلوات المكتوبة. ﴿رَجِيمٌ﴾: أي: ذو رحمةٍ واسعةٍ، فأمر تعالى في هذه الآية بذكره وبالأستغفار، وكثيرًا ما يقرن تعالى بين الأمرين؛ كقوله تعالى: ﴿فَسِيحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣]، وقوله: ﴿وَسِيحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [غافر: ٥٥].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ في ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ تطلبوا ﴿فَضْلًا﴾ رزقًا ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بالتجارة في الحج، نزل ردًّا لكرهتهم ذلك ﴿فَإِذَا أَفْضْتُمْ﴾ دفعتم ﴿مِنْ عَرَافَاتٍ﴾ بعد الوقوف بها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بعد المبيت بمزدلفة بالتلبية والتهليل والدعاء ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ هو جبلٌ في آخر المزدلفة يقال له: قزح، وفي الحديث أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَفَ بِهِ يَذْكُرُ اللَّهَ وَيَدْعُو حَتَّى أَسْفَرَ جَدًّا رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١) ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ لمعالم دينه ومناسك حجّه، والكاف للتعليل ﴿وَإِنْ﴾ مخففةٌ ﴿كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ قبل هداه ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ ثم أفيضوا ﴿يَا قَرِيشُ﴾ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴿أَي: مِنْ عَرَفَةَ؛ بَأَنْ تَقْفُوا بِهَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا يَقْفُونَ بِالْمَزْدَلِفَةِ تَرْفُعًا عَنِ الْوُقُوفِ مَعَهُمْ، وَ«ثُمَّ» لِلتَّرْتِيبِ فِي الذِّكْرِ ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِمْ.

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقول المؤلف: (في): يُبينُ أَنَّ المصدرَ المؤول ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ منصوبٌ بنزع الخافض.

وقوله: (نزل ردًا...) إلى آخره: إشارةٌ إلى سبب النزول.

وقوله: (بعد المبيت بمزدلفة...) إلى آخره: أي: وبعد صلاة الفجر يُسنُّ الدعاءُ والذكرُ عند المشعر، أو أيِّ مكانٍ من المزدلفة؛ لفعله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقوله: ((وجمع كلها موقف))^(١).

وقوله: (وفي الحديث...) إلى آخره: هذا طرفٌ من حديث جابر في صفة حجته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

وقوله: (لمعالم دينه...) إلى آخره: بيانٌ لمتعلِّق الهداية؛ فمعنى ﴿هَذَاكُمْ﴾: «عرَّفكم».

وقوله: (معالم دينه): يعني: شعائر الإسلام، ومناسك الحج: أعمال الحج.

وقوله: (الكاف للتعليل): يعني: أنها بمعنى: اللام؛ فالمعنى: اذكروه من أجل هدايته إياكم، وذكره تعالى من أجل إنعامه هو ذكركم وشكركم؛ لأنَّ الثناء على المنعم هو من الشكر بالقول.

وقوله: (قبل هداه): بيانٌ لمرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَهُ﴾ أي: من قبل هدايته إياكم. وقوله: (يا قريش): تخصيصٌ للخطاب بقريش؛ لأنهم الذين لا يقفون بعرفة كما يقف سائر الناس، والآيةُ عامَّةٌ لقريش وغيرهم، والأمرُ بالإفاضة من عرفة أمرٌ بالوقوف بها.

وقوله: (و«ثم»): يريد ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾.

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

وقوله: (للترتيب في الذكر): أي: لا في الحكم لأنَّ الأمر بالإفاضة من
 عرفة جاء بعد الأمر بالذكر عند المشعر الحرام^(١).
 وقوله: (للمؤمنين): تقييدٌ لا داعي إليه، فاللهُ غفورٌ للمؤمنين وللكافرين
 إذا تابوا إليه.



(١) وهذا هو توجيه الجمهور الذين فسروا قوله: ﴿ثُمَّ أَيْضُوا﴾ بالإفاضة من عرفة؛ وهو أن
 في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: فمن فرض فيهن الحج فلا رفت ولا فسوق ولا جدال
 في الحج، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضتم من عرفات، فاذكروا الله عند
 المشعر الحرام. «تفسير الطبري» (٣/٥٣٠)، و«الهداية» لمكي (١/٦٦٨)، و«تفسير
 البغوي» (١/٢٣٠)، و«الدر المصون» (٢/٣٣٤-٣٣٥).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
 ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ
 فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۗ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
 الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ
 سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٤﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢]:

يأمر الله -تعالى- عباده إذا فرغوا من أداء مناسك حجهم أن يذكره
 بالثناء عليه؛ بذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وذكر نعمه التي لا تحصى،
 ذكراً مثل ذكر آبائهم أو أشد، وكان أهل الجاهلية إذا فرغوا من حجهم أقبلوا
 يتفاخرون بعضهم على بعض ويُعدّدون مفاخر آبائهم.

ثم يذكر سبحانه وتعالى أن الناس صنفان؛ صنف لا يريد إلا حظ الدنيا والثواب
 العاجل، فهو لا يسأل ربه إلا ذلك، وهؤلاء ليس لهم في الآخرة نصيب؛ فقال
 تعالى في هذا الصنف: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ
 فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۗ﴾ أي: نصيب، وأمّا الصنف الآخر: فهم الذين يطلبون
 الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، ويسألون ربهم ذلك، وقد أخبر الله عنهم
 بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً
 وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۗ﴾، فتضمّن هذا الدعاء سؤال الله ثواب الدنيا والآخرة،
 والوقاية من عذاب النار، وحسنه الدنيا: يدخل فيها كل عمل صالح، وكل ما
 يُعين على ذلك من مالٍ وزوجةٍ وولدٍ، وحسنه الآخرة: هي الجنة^(١)، فكان هذا
 الدعاء من الجوامع؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يُكثر من الدعاء به، ﴿رَبَّنَا
 ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ كما ثبت في
 الصحيحين عن أنس رضي الله عنه^(٢).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٥٤٤-٥٤٧)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤٩٢-٤٩٣)، و«تفسير
 ابن كثير» (١/ ٥٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠).

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ اسمُ الإشارة: راجعٌ إلى الصنف الثاني من الناس، وهم السعداءُ الراغبون والطالبون لخير الدنيا والآخرة، وأشير إليهم بإشارة البعيد لعلو منزلتهم وارتفاع قدرهم^(١)، يُخبرُ تعالى أنَّ لهم نصيباً من الثواب في الآخرة بسبب كسبهم؛ أي: عملهم، وهذا مُقابلٌ لقوله في الصنفِ الأوَّلِ الذين لا يريدون إلا الدنيا: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يعني: أَنَّهُ يُحَاسِبُ عِبَادَهُ حِسَابًا سَرِيعًا، وقد أحصى على العباد أعمالهم، فيصير كلُّ فريقٍ من الناس إلى الدار التي هو من أهلها، الجنة أو النار؛ ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ﴾ أَدَيْتُمْ ﴿مَنَاسِكَكُمْ﴾ عِبَادَاتِ حَجِّكُمْ، بَأَن رَمَيْتُمْ جَمْرَةَ الْعَقْبَةِ وَطَفْتُمْ وَاسْتَقَرَّرْتُمْ بِمَنَى ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بِالتَّكْبِيرِ وَالثَّنَاءِ ﴿كَذَكَرْتُمْ﴾ آبَاءَكُمْ ﴿كَمَا كُنْتُمْ تَذَكُرُونَهُمْ﴾ عِنْدَ فِرَاقِ حَجِّكُمْ بِالمَفَاخِرَةِ ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ مِّنْ ذِكْرِكُمْ أَيَّاهُمْ، وَنَصَبَ «أَشَدَّ» عَلَى الْحَالِ مِّنْ «ذِكْرًا» الْمَنْصُوبِ بِ «اذْكُرُوا»، إِذْ لَوْ تَأَخَّرَ عَنْهُ لَكَانَ صِفَةً لَهُ ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا نَصِيبًا فِي الدُّنْيَا﴾ فَيُوتَاهُ فِيهَا ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ نَصِيبٌ ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نِعْمَةً ﴿وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ هِيَ: الْجَنَّةُ ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بِعَدَمِ دُخُولِهَا، وَهَذَا بَيَانٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ وَلِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْقَصْدُ بِهِ: الْحَثُّ عَلَى طَلْبِ خَيْرِي الدَّارَيْنِ كَمَا وَعَدَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ ثَوَابٌ ﴿مَنْ أَجَلَ﴾ مَا كَسَبُوا ﴿عَمَلُوا مِنَ الْحَجِّ وَالدَّعَاءِ﴾ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿يُحَاسِبُ﴾ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ فِي قَدْرِ نَصْفِ نَهَارٍ مِّنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا؛ لِحَدِيثِ بَدَلِكِ.

(١) ينظر: «تفسير القاسمي» (٢/٩٧).

وقول المؤلف: (بأن رميتم جمرة العقبة... إلى آخره: هذا يقتضي أنّ المراد بقضاء المناسك: قضاء معظمها لا كلها، فإنه يبقى بعد رمي جمرة العقبة والطواف رمي الجمار في الأيام الثلاثة والوداع. وقوله: (ونصب «أشد» على الحال): في هذا الإعراب نظر، والصواب: أنّه نائب عن المفعول المطلق^(١).

وقوله: (من أجل): يُفيد أنّ من للتعليل. وقوله: (في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك): يُشير إلى ما رواه الحاكم وصححه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ مَرَجِعَهُمْ لِآلِي الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٦٨]^(٢).



(١) ينظر: «البحر المحيط» (٢/٣٠٧-٣٠٩)، و«الدر المصون» (٢/٣٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢/٢٤٥).

(٢) أخرجه الحاكم (٣٥١٦)، وابن المبارك في «الزهد» (١٣١٣)، وابن أبي حاتم (١٥٠٧٩) من طرق، عن سفيان الثوري، عن ميسرة بن حبيب، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ مَرَجِعَهُمْ لِآلِي الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٦٨].

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وليس كذلك، فالمنهال بن عمرو ليس من رجال مسلم، وميسرة ليس من رجال الشيخين، وإنما خرج له البخاري في «الأدب المفرد»، وهما صدوقان. ينظر: «التهذيب» (١٠/٣١٩، رقم ٥٥٥)، و(١٠/٣٨٦، رقم ٦٩١)، وأبو عبيدة بن عبد الله لم يسمع من أبيه عبد الله بن مسعود، كما قال غير واحد من النقاد، ينظر: «المراسيل» لابن أبي حاتم (رقم ٤٧٦).

وأخرجه الطبري (١٩/٥٥٦) من طريق أسباط، عن السدي، في قوله: ﴿إِنَّ مَرَجِعَهُمْ لِآلِي الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٦٨] قال: في قراءة عبد الله: «ثم إن منقلبهم لآلي الجحيم» وكان عبد الله يقول: «والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقبل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار»، ثم قال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]. والسدي وهو الكبير، وأسباط بن نصر، صدوقان كثيرا الخطأ.

وروي بنحوه عن جماعة من السلف: عن إبراهيم النخعي عند ابن المبارك في «الزهد» (١٣١٤)، والطبري في التفسير (١٧/٤٨٤)، وعن ابن جريج عند الطبري أيضًا، وعن سعيد بن جبيرة عند ابن أبي حاتم (١٥٠٨١).

وقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۖ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۗ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَآتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٢٣﴾ [البقرة: ٢٠٣]:

يأمر الله الحجاج وغيرهم بذكره ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾؛ وهي: أيام منى؛ الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة، ويُقال لها: أيام التشريق، ومن ذكره تعالى التكبير المطلق والمقيد، وعند رمي الجمار، وعند ذبح القرابين من هدي وأضحية.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾: أي: تعجّل بالرجوع إلى أهله في يومين من الأيام الثلاثة، وذلك يكون في اليوم الثاني من أيام منى، وهو الثاني عشر من ذي الحجة، ويُسمى يوم النفر الأول.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: أي: فلا إثم عليه ولا حرج في تعجّله. وقوله: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾: أي: في الرجوع إلى أهله إلى اليوم الثالث من أيام منى، وهو اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، ويقال له: يوم النفر الثاني.

وقوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: أي: لا حرج عليه في تأخّره، وعلى هذا فالحاج مخير في النفر بين التعجل والتأخر، وضعّف ابن جرير هذا القول، واختار أنّ معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الجملتين؛ أي: قد غفر الله له ذنوبه إذا اتقى الله في حجّه فلم يفعل ما نهى عنه من الرفث والفسوق، واستشهد لذلك

بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((من حج هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه))^(١)، وتأول بهذا المعنى الذي اختاره؛ قوله تعالى: ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: هذا الوعد بنفي الإثم عن المتعجل والمتأخر لمن اتقى الله في حجّه، فكلّ حاجّ اتقى الله يغفر الله ذنوبه فيرجع كما ولدته أمه، فعلم بذلك أنه لا فرق

(١) أخرجه البخاري (١٨٢٠)، ومسلم (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واللفظ للبخاري.

بين مَنْ تعَجَّلَ وَمَنْ تَأَخَّرَ من حيث مغفرة الذنوب، وهذا يتضمَّنُ التخييرَ بين التعجُّلِ والتأخُّرِ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: وصيةٌ من الله بالتقوى بعد بيان أنها سبب لمغفرة الذنوب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: أمرٌ بالعلم وإعلام بما تضمَّنه قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾؛ أي: تجمعون يوم القيامة للحساب والجزاء، وذكر الحشر بعد الأمر بالتقوى؛ لأنه من أعظم البواعث عليها استعداداً له.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتكبير عند رمي الجمرات ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ أي: أيام التشريق الثلاثة ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ أي: استعجل بالنفر من منى ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: في ثاني أيام التشريق بعد رمي جماره ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بالتعجيل ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ بها حتى بات ليلة الثالث ورمى جماره ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بذلك؛ أي: هم مُخَيَّرُونَ في ذلك، ونفي الإثم ﴿لِمَنْ اتَّقَى﴾ الله في حَجَّه؛ لأنه الحاجُّ على الحقيقة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ في الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

وقول المؤلف: (بالنفر من منى): هذا باعتبار الغالب، وإلا فقد يكون الحاجُّ قد بات خارج منى فيتعجَّلُ بالخروج من منزله.
وقوله: (أي: في ثاني أيام...) إلى آخره: يُنبه على أَنَّ النفر لا يكون إلا بعد رمي الجمار الثلاث.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٥٦٥-٥٧٠).

وقوله: (بالتعجيل): هذا مبنيٌّ على أَنَّ المراد: التَّخْيِيرُ ونفيُّ الحرج، وقد ضَعَّفَ ابنُ جرير هذا القولَ، وبَيَّنَّ الصَّوَابَ في ذلك، وهو أَنَّ المرادَ الإخْبَارُ بمغفرة الذنوب للحاجِّ تعجَّلَ أو تأخَّرَ إذا اتقى الله.

وقوله: (حتى بات ليلة الثالث...) إلى آخره: هذا بيانٌ لصفة التأخر.

وقوله: (هم مُخَيَّرُونَ): هذا مبنيٌّ على أَنَّ المقصود بنفي الإثم في الجملتين التخيير، وهذا قولٌ مرجوحٌ كما تقدَّم.

وقوله: (ونفي الإثم ﴿لِمَنْ اتَّقَى﴾ الله في حَجَّه...) إلى آخره: فيه التفاتةٌ للقول الآخر الذي رجَّحه ابنُ جرير^(١).



(١) وهو قول عبد الله بن مسعود وابن عمر وجماعة، وروي عن علي بن أبي طالب بإسناد منقطع. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٥٦٠-٥٦٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٣٦١)، رقم (١٨٩٨)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ١٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ
 اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا
 وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ
 بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ لَهُ جَهَنَّمُ ۗ وَلَا يَسَّرُ الْمَهَادُ ﴿٢٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ
 أُبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٧]:

يُخبر تعالى في هذه الآيات عن صنفين من الناس؛ أحدهما: يُخالف ظاهره باطنه، وفعله قوله، فقوله يُعجبُ سامعه لحسن بيانه ولما يظهره من دعوى الإيمان، حتى يُشهد الله على ما في قلبه قائلاً: إِنَّ اللَّهَ شَاهِدٌ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِي مِنَ الْإِيمَانِ، أو: يَعْلَمُ اللَّهُ أَنِّي صَادِقٌ، وهو كاذبٌ في قوله، وهذا عينُ النفاق، وهو ديدنه في حياته، يُعجبُ سامعه كلامه، ولكنه شديد اللدد في المخاصمة، بكثرة الجدال والعناد، وعدم الانقياد مع الكذب والفجور والدعاوى الباطلة، وهو معنى قوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٤﴾﴾، وهذا الصنف هو المنافقُ المذكورُ في أوَّلِ السورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْأَخِيرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ [البقرة: ١٤].

ولما ذكر الله سوءَ أقواله ذكرَ سوءَ أفعاله؛ فقال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾؛ أي: إذا ذهب وغاب عن الناس سعى في الأرض بالفساد؛ أي: بالمعاصي فيتسببُ بذلك في إهلاك الأموال من الحروث والحيوانات، وتقييحاً له ولفعله قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٥﴾﴾، إذا: فلا يحبُّ المفسدين، وما أخبر تعالى أنه لا يحبُّه فهو يُبغضه، ثم أخبر تعالى عن تكبرِ هذا المفسد عن الحق؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ يعني: إذا أمر بطاعة الله وترك المعاصي أنف من ذلك، وحمله كبره وعزته على ارتكاب الإثم معاندةً للحق، وهذا معنى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، ثم توعدَّه الله بجهنم وأنها تكفيه نكالاً، وله منها مهادٌ وبئس المهاد.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾: هذا هو الصنف الثاني من الناس، وهو الذي يشري نفسه؛ أي: يبيعها في سبيل مرضاة الله؛ أي: يجود بنفسه ليرضي الله، فريضا الله هو أعلى مطالبه، ولو أدى ذلك إلى تلف نفسه كما يفعل المجاهد في سبيل الله، وهذا أدل دليل على صدق إيمانه واستقامته في أقواله وأفعاله، وبهذا يظهر التقابل بين هذين الصنفين من الناس، فالأول هو المنافق، والثاني هو المؤمن الصادق.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾: أي: عظيم الرحمة بعبادة المؤمنين، ومن رأفته ألا يكلفهم ما لا يطيقون.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولا يعجبك في الآخرة؛ لمخالفته لاعتقاده ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أنه موافق لقوله ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ شديد الخصومة لك ولأتباعك؛ لعداوته لك، وهو الأخنس بن شريق، كان منافقا حلوا الكلام للنبي، يحلف أنه مؤمن به ومُحِبُّ له، فيدني مجلسه، فأكذبه الله في ذلك، ومرّ بزرع وحُمُر لبعض المسلمين فأحرقه وعقرها ليلاً كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ انصرف عنك ﴿سَعَى﴾ مشى ﴿فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ من جملة الفساد ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أي: لا يرضى به ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ في فعلك ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ﴾ حملته الأنفة والحمية على العمل ﴿بِالْإِثْمِ﴾ الذي أمر باتقائه ﴿فَحَسْبُ﴾ كافيه ﴿جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾ الفرائش هي ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي﴾ يبيع ﴿نَفْسَهُ﴾ أي: يبذلها في طاعة الله ﴿ابْتِغَاءَ﴾ طلب ﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ وهو صهيب، لما آذاه المشركون هاجر إلى المدينة وترك لهم ماله ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ حيث أرشدهم لما فيه رضاه.

وقول المؤلف: (ولا يعجبك في الآخرة...) إلى آخره: هذا يقتضي أنّ الجارَ والمجرور ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بقول، وذلك لحذقه في أمر الدنيا دون الآخرة.

وقوله: (أنه موافق لقوله): يريد: أنّ هذا المنافق الذي ظاهره يُخالفُ باطنه يُبالغ في الكذب، يدّعي أنّ الله يشهد أنّ باطنه موافقٌ لظاهره. وقوله: (شديدُ الخصومةِ لك): هذا تفسيرٌ لقوله: ﴿أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾، وشدةُ الخصومة تكون بالكذب وكثرة الجدل وعدم الانقياد للحجة والمراوغة في الكلام.

وقوله: (وهو الأخص... إلى آخره: فيه إشارةٌ إلى سبب النزول^(١))، وتفسيرٌ لقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا...﴾ الآية. وقوله: (مشى): هذا تفسيرٌ قاصرٌ، والسعيُّ: يُطَلَّقُ على معاني، والمناسبُ هنا: السعيُّ بمعنى: العمل المقصود؛ للتوصل به إلى أمرٍ من الأمور^(٢)، ومقصودُ هذا الساعي هو الإفساد في الأرض.

وقوله: (من جملة الفساد): يُبَيِّنُ أَنَّ عَطْفَ «يهلك» على «يفسد» من عطف الخاص على العام.

وقوله: (أي: لا يرضى به): فسّرَ المحبةَ بالرضا، والمحبةُ والرضا متغايران لكن متلازمان إثباتاً ونفيًا، والأشاعرةُ لا يُثبتون المحبةَ ولا الرضا، ولذا يُفسرونهما بالإرادة^(٣).

(١) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٦٥)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/٥١٩-٥٢٤).

(٢) السعي في كلام العرب: العمل، يقال: فلان يسعى على أهله، يعني به يعمل فيما يعود عليهم نفعه. ينظر: «لسان العرب» (١٤/٣٨٥)، وبنحوه قال مجاهد. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٥٨١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/٣٦٦، رقم ١٩٢٦).

(٣) ينظر: «بيان تلبيس الجهمية» (١/٥٢١)، و«شرح الأصبهانية» (ص ٣٩)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لشيخنا (ص ١٩٨-١٩٩)، (ص ٣٥٣).

وقوله: (حملته...) إلى آخره: هذا معنى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ﴾.
 وقوله: (على العمل): أي: على العمل بالإثم.
 وقوله: (الذي أُمِرَ باتقائه): يريد: أَنْ معنى: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ اتَّقِ معاصِيَ الله
 باجتنابها، والإثم: اسمٌ لكلِّ معصية^(١).
 وقوله: (هي): بيانٌ للمخصوص بالذم؛ فالمعنى: بس المهاد جهنم.
 وقوله: (رضاه): يُفِيدُ أَنَّ مرضاة مصدرٌ ميمي؛ بمعنى: الرضا؛ فالمعنى:
 يطلبُ ببيعته نفسه رضا الله.
 وقوله: (وهو صهيبٌ...) إلى آخره: بيانٌ لسبب نزول الآية، وأنَّ المراد
 بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ صهيب الرومي^(٢).
 وقوله: (حيث أُرشدهم لما فيه رضاه): يريد: أَنَّ ذلك من رأفته بعباده،
 ولذا حُتِمَت الآيةُ بهذا الاسمِ الشريفِ.



(١) ينظر: «لسان العرب» (٥/١٢).

(٢) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٦٥-٦٦)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/٥٢٤-٥٢٧).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٨﴾ فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٣٠﴾ سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَرَاهَاتِيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨-٢١٢]:

في هذه الآيات أمر من الله لعباده المؤمنين أن يدخلوا في السلم كافة؛ أي: في الإسلام، في كل شرائعه، بالإيمان بها والعمل بها، ثم عقبه بالنهي عن اتباع خطوات الشيطان؛ وهي: طرائقه وكل ما يأمر به من الفحشاء والمنكر، وبين لهم سبحانه شدة عداوته للمؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٨﴾﴾، أي: بين العداوة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾: فيه تهديد ووعيد شديد لمن زل عن الصراط باتباع خطوات الشيطان، بعد مجيء الآيات البينات المبيّنة للهدى من الضلال والحق من الباطل، فقامت بذلك الحجّة ووضح السبيل.

وفي قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾: تهديد ووعيد، وهذا التهديد مُستفاد من ذكر اسمه العزيز الحكيم، فإنّ العزيز هو القويّ الغالب، والحكيم هو ذو الحكمة؛ وهي: وضع الأشياء في مواضعها، فبعزته ينتقم ممن عصاه، وبحكمته يضع الثواب والعقاب مواضعه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ...﴾ الآية: انتقال من خطاب المؤمنين إلى تهديد المكذّبين، والاستفهام إنكاريّ معناه: النفي، و﴿يَنْظُرُونَ﴾ بمعنى: ينتظرون، فمعنى الآية: ما ينتظر هؤلاء

المكذَّبون من الكفار والمنافقين إِلَّا أَنْ يَجِيئَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظُلْمٍ مِنَ
الْغَمَامِ؛ أَي: مع ظُلْمٍ، وَالظُّلْمُ: جمعُ ظُلْمَةٍ، وهي: ما يستظلُّ به، ولذا قرئ: ﴿فِي
ظِلَالٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾^(١). وَالْغَمَامُ: هو السَّحَابُ الرقيقُ^(٢)، يَأْتِيهِمُ اللَّهُ لِلْفَصْلِ
وَالْجَزَاءِ، وَتَجِيءُ الْمَلَائِكَةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾^(٣)
[الفجر: ٢٢]، فَهَذَا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَصِيرُ كُلُّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِ إِلَى
الْجَزَاءِ الَّذِي حَكَمَ اللَّهُ بِهِ مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾^(٤)
أَي: فرغ من أمر العباد والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وفي مظالمهم، وصار
كُلُّ فَرِيقٍ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أُعِدَّتْ لَهُ، وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورَ كُلَّهَا، وَهُوَ يَفْعَلُ مَا
يَشَاءُ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَنْتَهِي إِلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾^(٥) [النجم: ٤٢]،
ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ أَنْ يَسْأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ - وَهُمْ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَ الْمَدِينَةِ -
سُؤَالَ تَوْبِيخٍ، كَمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ عَلَىٰ أَيْدِي رَسُولِهِ؟! وَتِلْكَ نِعْمَةٌ
عُظْمَىٰ عَلَيْهِمْ، وَوَجِبَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ بِهَا وَاتِّبَاعُ رُسُلِ اللَّهِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ
نَجَا، وَمَنْ بَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا اسْتَحَقَّ الْعِقَابَ، كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ بِتَكْذِيبِهِمْ مُحَمَّدًا
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع علمهم بصدقه، ولذا قال تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٦).

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِإِعْجَابِ الْكَافِرِ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاعْتِرَاقِهِمْ بِزِينَتِهَا، وَزِينَتِهَا
الشَّيْطَانُ فِي أَعْيُنِهِمْ حَتَّى آثَرُواهَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَمِنْ شِدَّةِ غُرُورِهِمْ وَفَرَطِ جَهْلِهِمْ
يَسْخَرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿رُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ
الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٧)، وَلَمَّا كَانَتْ سُخْرِيَّتُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَدُلُّ عَلَى احْتِقَارِهِمْ بِسَبَبِ
أَنَّهُمْ فَوْقَهُمْ فِي حُظُوظِ الدُّنْيَا؛ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ حَالَهُمْ تَنْعَكَسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ

(١) هذه قراءة قتادة، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع، وأبان بن ثعلب عن عاصم بن مقسم، وهي
قراءة شاذة. ينظر: «المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات» لابن جني (١/١٢٢)،
و«الكامل في القراءات» لأبي القاسم الهذلي (ص ٥٠٢).

(٢) تقدم في (ص ١٣٢).

يصير المؤمنون في عِلِّين والكفارُ أسفلَ سافلين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾: وعدٌ للمؤمنين بالرزق الكثير، وهو الثوابُ العظيمُ والأجرُ الكريمُ.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١١٦): أي: بغير تقدير، فعلم أنه كثيرٌ كثيرٌ.

ونزل في عبد الله بن سلام وأصحابه لما عظّموا السبتَ وكرهوا الإبلَ بعد الإسلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ﴾ بفتح السين وكسرِها: الإسلام ﴿كَافَّةً﴾ حالٌ من السلم؛ أي: في جميع شرائعه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ﴾ طُرُق ﴿الشَّيْطَانِ﴾ أي: تزيينه بالتفريق ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بَيْنُ العداوة ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ ملتمٌ عن الدخول في جميعه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ الحججُ الظاهرةُ على أنه حقٌّ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعجزه شيءٌ عن انتقامه منكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه ﴿هَلْ﴾ ما يَنْظُرُونَ﴾ ينتظر التاركون الدخول فيه ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أمره؛ كقوله: «أو يأتي أمرُ ربك» أي: عذابه ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمعُ ظِلَّةٍ ﴿مِنَ الْغَمَامِ﴾ السَّحَابِ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِي الْأَمْرُ﴾ تمَّ أمرُ هلاكهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ بالبناء للمفعول والفاعل في الآخرة فيجازي ﴿سَلٌ﴾ يا محمد ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تبكيًا ﴿كَمْ آتَيْنَاهُمْ﴾ «كم»: استفهاميةٌ مُعلّقةٌ «سل» عن المفعول الثاني، وهي ثاني مفعولي «آتينا» ومميزها ﴿مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ ظاهرة؛ كقَلْبِ البحرِ وإنزالِ المنِّ والسلوى، فبدّلوها كفرًا ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي: ما أنعم به عليه من الآيات، لأنها سبب الهداية ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ كفرًا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ له ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بالتمويه فأحبوها ﴿وَهُمْ﴾ هم ﴿يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لفقرهم؛ كعمار وبلال وصهيب؛ أي: يستهزئون بهم ويتعالون عليهم بالمال ﴿وَالَّذِينَ

اتَّقُوا ﴿ الشَّرْكَ، وَهُمْ هَؤُلَاءِ ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَي: رِزْقًا وَاسِعًا فِي الْآخِرَةِ أَوْ الدُّنْيَا، بِأَنْ يَمْلِكِ الْمَسْخُورِ مِنْهُمْ أَمْوَالَ السَّاحِرِينَ وَرِقَابَهُمْ.

وقول المؤلف: (ونزل في عبد الله بن سلام... إلى آخره: يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ^(١)). وقوله: (بفتح السَّيْنِ وكسرهما: الإسلام): يُشِيرُ بِهَذَا إِلَى الْقِرَاءَتَيْنِ^(٢)، وتفسيرُ ﴿السَّلْمِ﴾ بِالْإِسْلَامِ هُوَ قَوْلُ جَمْهُورِ الْمَفْسُرِينَ مِنَ السَّلْفِ^(٣).

وقوله: (حال من «السَّلْمِ»...) إلى آخره: بَيَانٌ لِإِعْرَابِ ﴿كَافَّةٍ﴾ وَمَعْنَاهَا؛ أَمَّا الإِعْرَابُ: فَهِيَ حَالٌ مَنْصُوبَةٌ مِنَ السَّلْمِ، وَمَعْنَاهَا: جَمِيعٌ؛ أَي: ادْخُلُوا فِي جَمِيعِ شَرَائِعِهِ إِيمَانًا وَعَمَلًا.

وقوله: (أَي: تزيينه بالتفريق): معناه: أَنَّ طَرَائِقَ الشَّيْطَانِ هِيَ مَا يُزِينُهُ وَيُحْسِنُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْأَحْكَامِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ بَعْضُهَا دُونَ بَعْضٍ، وَمَثَلٌ لِهَذَا بِمَا ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ لِأَنَّهُمْ حَرَّمُوا لَحْمَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا تَمَسُّكًا بِالتَّوْرَةِ، وَكَذَا تَمَسَّكُوا بِتَعْظِيمِ السَّبْتِ، فَأَمَرُوا بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ كُلِّهِ.

وقوله: (لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ...) إلى آخره: بَيَانٌ لِمَا يَتَضَمَّنُهُ اسْمُهُ تَعَالَى الْعَزِيزِ مِنَ الْقُوَّةِ مَعَ مَنَاسِبَةِ ذِكْرِهِ فِي هَذَا السِّيَاقِ.

وقوله: (في صنعه): لَوْ قَالَ: وَفِي شَرْعِهِ؛ لَكَانَ أَوْلَى، فَإِنَّهُ تَعَالَى حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَقَدْرُهُ وَفِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ.

- (١) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٦٧)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/٥٢٩-٥٣٢).
 (٢) قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير والكسائي: ﴿ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ﴾ بفتح السين، وقرأ الباقون بالكسر. ينظر: «السبع في القراءات» (ص ١٨٠)، و«النشر» (٢/٢٢٧).
 (٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٥٩٥-٥٩٦) (٣/٥٩٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٢٧٩)، و«زاد المسير» (١/١٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (١/٥٦٥).

وقوله: (ما): بيان أن الاستفهام معناه: النفي.
 وقوله: (أي: أمره...) إلى آخره: يريد أن الذي يأتي أمر الله؛ وهو عقابه، وهذا تأويلٌ وصرفٌ للكلام عن ظاهره، ومقصوده: أن الله لا يأتي، وهذا راجعٌ إلى أن الله لا تقوم به الأفعال الاختيارية، وهو مذهب الأشاعرة، وهو مذهبٌ باطلٌ؛ لأنه خلافٌ ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أنه تعالى فعَّالٌ لما يريد، ومذهب السلف إثبات الأفعال الاختيارية؛ كالاتواء والنزول والمجيء^(١)، فالصواب: إجراء الآية على ظاهرها؛ وهو أن الله نفسه يأتي^(٢)، ونظير هذه الآية؛ قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال فيها المؤلف^(٣) نظير قوله في هذه الآية^(٤).

وقوله: (تم أمر هلاكهم؟): لو قال: تم أمر إدخالهم النار لكان أولى؛ لأن سياق الآيات في يوم القيامة.

وقوله: (بالبناء للمفعول والفاعل...) إلى آخره: يشير إلى القراءتين في: ﴿تُرْجَعُ﴾ الأولى بضم التاء وفتح الجيم، والثانية بفتح التاء وكسر الجيم^(٥)، و﴿الأمور﴾ على القراءة الأولى: نائب فاعل، وعلى الثانية: هي الفاعل.

(١) ينظر تأصيل مسألة الأفعال الاختيارية في: «جامع الرسائل والمسائل» (٢/٣-٧٠)، و«مجموع الفتاوى» (٦/٦٨) وما بعدها، (٦/١٤٤) وما بعدها، و(١٢/٣٦٧) وما بعدها، و«درء التعارض» (٢/١٨-٢٠)، (٩/٢٦٨)، و«شرح الطحاوية» لشيخنا (ص ٥٦-٥٧)، و«موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٣/١١٩٩).

(٢) وقد أبتل ابن القيم من حرف صفة المجيء وفسرها بمجيء أمره؛ من عشرة أوجه. ينظر: «مختصر الصواعق المرسله» (٣/٨٥٦-٨٦٠).

(٣) والمراد به المؤلف الآخر جلال الدين المحلي.

(٤) ينظر: «تفسير الجلالين» (ص ٥٩٣ / قباوة).

(٥) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم: ﴿وَأِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ بضم التاء، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ بفتح التاء. ينظر: «السبع في القراءات» (ص ١٨١)، و«النشر» (٢/٢٠٨-٢٠٩).

وقوله: (تَبَكُّيًّا): بيانٌ لمقصود الأمر بسؤال بني إسرائيل، وهو التوبيخُ والتفريعُ، وهو معنى قول المؤلف: (تَبَكُّيًّا)^(١).

وقوله: («كَمْ» استفهامية): يريد: أنها ليست خبرية الدالة على الكثرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ [الأعراف: ٤]، فالمعنى: سل بني إسرائيل قائلاً لهم: كم آتيناهم من آية.

وقوله: (مَعْلَقَةٌ «سَلْ»): يوضح مقصوده أَنَّ ﴿سَلْ﴾ أمرٌ مِنْ سَأَلَ، وسَأَلَ ينصبُ مفعولين، فإذا جاء بعد المفعول الأول جملةٌ استفهاميةٌ صار الفعلُ مُعْلَقًا عن المفعول الثاني. ثم يقول المؤلف: وهي المفعولُ الثاني لـ«آتيناهم»؛ لأنَّ «آتى» ينصب مفعولين، والمفعولُ الأول: الضميرُ المنصوبُ ﴿آتينَاهُمْ﴾، والمفعولُ الثاني: «كَمْ»، وتميزها قوله: ﴿مِنْ آيَةٍ﴾.

وقوله: (كُفْرًا): هذا تقديرُ المفعول الثاني لـ﴿يُبَدِّلُ﴾، ويشهد لهذا التقدير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقوله: (له): الضميرُ يعود إلى ﴿مَنْ﴾، وهو المُبَدِّلُ نعمة الله.

وقوله: (من أهل مكة): لا وجهَ لتخصيصِ الحكمِ بأهل مكة، كيف والسورةُ مدنية! بل الآيةُ عامَّةٌ في الكفار.



(١) ينظر: «لسان العرب» (١١/٢).

وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٣﴾ [البقرة: ٢١٣].

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ فَرِيقِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ - وَهُمَا مِنَ النَّاسِ -؛ أَخْبَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا، كَانُوا عَلَى التَّوْحِيدِ عَشْرَةَ قُرُونٍ مِنْ آدَمَ إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَمَا جَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(١)، فَلَمَّا حَدَثَ الشَّرْكُ فِي قَوْمِ نُوحٍ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نُوحًا، فَصَارُوا فَرِيقَيْنِ مُؤْمِنِينَ وَكَافِرًا، فَاهْلَكَ الْكَافِرَ بِالْغَرَقِ، وَقَدْ قُرِيَ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ﴾^(٢).

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ النَّبِيِّنَ ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾؛ يُبَشِّرُونَ مَنْ آمَنَ بِهِمْ وَاتَّبَعَهُمْ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ، وَمُنذِرِينَ مَنْ كَفَرَ بِهِمْ وَعَصَاهُمْ عِقَابَةَ اللَّهِ وَأَخَذَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَى الرُّسُلِ كِتَابًا مُشْتَمَلَةً عَلَى الْحَقِّ فِي الْأَخْبَارِ وَالْأَحْكَامِ، أَرْسَلَ سُبْحَانَهُ تَعَالَى الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَيَتَبَيَّنُ الْمَحْقُوقُ مِنَ الْمَبْطُلِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمُخْتَلِفِينَ لَمْ يَخْتَلَفُوا إِلَّا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ وَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَكَانَ اخْتِلَافُهُمْ مِنْ بَغْيٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ حَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِرِسَالَتِهِ هَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْحَقِّ.

(١) أخرجه الطبري (٣/٦٢١)، والحاكم (٤٠٠٩) من طريق محمد بن بشار، قال: «ثنا أبو داود، قال: ثنا همام، عن قتادة عن، عكرمة، عن ابن عباس»، به. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه»، وأبو داود هو الطيالسي، وهمام هو همام بن يحيى البصري.

(٢) وهي قراءة عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب. ينظر: «شواذ القراءات» للكرمانى (ص ٨٩)، و«تفسير الطبري» (٣/٢٢١)، و(٣/٦٢٤)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/٣٧٦)، رقم (١٩٨٤)، و«المحرر الوجيز» (١/٥١٣).

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢١٣﴾: وهو دين الإسلام الذي هو الدين عند الله، ولا يُقبل من أحدٍ دينٍ سِواه، وهذا الدينُ هو الذي أرسل الله به رُسُلَه من أولهم إلى آخرهم، فدين الرسل كلهم هو الإسلام، وأعظمُ كتابٍ وأعظمُ شريعةٍ: ما أنزله الله على خاتم النبيين محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعد بعثته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انحصر الحقُّ فيما جاء به، فليس على الإسلام بعد بعثته ولا على الصراط المستقيم حتى تقوم الساعة إلا مَنْ آمن به وأتبعه، فهم المعنيون بقوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢١٣﴾.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على الإيمان، فاختلَفوا بأن آمنَ بعضٌ وكفرَ بعضٌ ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ إليهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ مَنْ آمنَ بالجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ مَنْ كفرَ بالنار ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ بمعنى الكتب ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ «أنزل» ﴿لِيَحْكُمَ﴾ به ﴿بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من الدين ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: الدين ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: الكتاب، فأمنَ بعضٌ وكفرَ بعضٌ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ الحججُ الظاهرةُ على التوحيد، و«من» متعلقة بـ «اختلف»، وهي وما بعدها مُقَدَّمٌ على الاستثناء في المعنى ﴿بَغْيًا﴾ من الكافرين ﴿بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ﴾ للبيان ﴿الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ بإرادته ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ طريقِ الحق.

وقول المؤلف: (متعلق بـ «أنزل»): يُبَيِّنُ أَنَّ الْجَارَ وَالْمَجْرورَ في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بفعل أنزل الكتاب، والباءُ للملابسة، والجارُ والمَجْرورُ في موضع نصبٍ على الحال؛ فالمعنى: أنزل الكتاب مشتملاً على الحق.

وقوله: (به): الضمير راجع إلى الكتاب؛ فالمعنى: ليحكم الله بالكتاب بين الناس.

وقوله: (و «من» متعلقة بـ «اختلف»...) إلى آخره: يُريد قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ﴾، ويرى المؤلف أن جملة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ من جهة المعنى مؤخرَةٌ من تقديم، فمحلُّها قبل الاستثناء، وعليه؛ فالتقدير: وما اختلف فيه من بعد ما جاءتهم البينات إلا الذين أوتوه؛ أي: الكتاب.

وقوله: (للبيان): يريد أن ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ الْحَقِّ﴾ بيانية.

وقوله: (هدايته): مفعول ﴿يَشَاءُ﴾، وفاعل ﴿يَشَاءُ﴾ ضميرٌ يعود إلى الله؛ فالتقدير: مَنْ يشاء الله هدايته.



وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]:

في هذه الآية انتقالٌ من الكلام في الاختلاف الذي بين الناس والحكم الشرعي بينهم إلى الحكم الجزائي في الآخرة، والحكم الكوني في الدنيا، ولهذا افتتحت بـ«أم» المؤولة بـ«بل» وهمزة الاستفهام، فتضمنت إضراباً انتقالياً واستفهاماً إنكارياً؛ فالمعنى: أحسبتم أن تدخلوا الجنة؟ وهذا الاستفهام معناه: النهي عن هذا الحساب؛ أي: لا تحسبوا أنكم تدخلون الجنة، وأنتم إلى الآن لم تبتلوا كما ابتلي من قبلكم بالبأساء وهي الفقر، والضراء وهي المرض، والزلزلة في القلوب حتى يبلغ بهم الأمر إلى استبطاء النصر، ﴿يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ﴾، ويجيء الرد ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

والمراد بالجنة: الدرجات العلى في الجنة، وهي جنات عدن المعدة لأولياء الله المتقين، فهذه الجنة لا يدخلها إلا من ابتلي فاتقى الله وصبر، وإنما خصصنا هذه الجنة بأولئك؛ لأن كثيراً من عوام المؤمنين يدخلون الجنة ولم يتلوا، بل لبعضهم ذنوبٌ مُحْصَوَا منها، والخطاب في الآية لأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد ذكر أنها نزلت في وقعة الأحزاب، ويشهد له قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١].

ونزل في جهدٍ أصاب المسلمين ﴿أَمْ﴾ بل ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا﴾ لم ﴿يَأْتِكُمْ مَثَلٌ﴾ شبه ما أتى ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من المؤمنين من المحن فتصبروا كما صبروا؟ ﴿مَسَّتْهُمُ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ مُبَيَّنَةٌ ما قبلها ﴿الْبَأْسَاءُ﴾ شدة الفقر ﴿وَالضَّرَاءُ﴾ المرض ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أزعجوا بأنواع البلاء ﴿حَتَّى يَقُولَ﴾ بالنصب والرفع، أي: قال ﴿الرَّسُولُ وَالَّذِينَ

﴿أَمَنُوا مَعَهُ﴾ استبطاءً للنصر لتناهي الشدة عليهم ﴿مَتَى﴾ يأتي ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ الذي وعدناه؟ فأجيبوا من قِبَلِ الله: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ إتيانه.

وقول المؤلف: (ونزل في جهدٍ... إلى آخره: يُشير إلى سبب النزول، وذلك يوم الأحزاب^(١))، والجهدُ -بالفتح-: المشقةُ. وقوله: (بل أ): يُبينُ أَنَّ «أم» هي المنقطعةُ التي تُفسر بيل وهمزة الاستفهام. وقوله: (لم): تفسيرُ «للما»، وهذا على قول مَنْ يجعل «ما» زائدة. وقوله: (شبه ما أتى): فسّر المثل بشبه؛ فالمعنى: ولم يأتكم شبه ما أتى من قبلكم، وبعضهم يُفسّر المثل بالصفة^(٢).

وقوله: (من المؤمنين...) إلى آخره: بيانٌ للمراد من الموصول في قوله:

﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾.

وقوله: (مُبيّنةٌ ما قبلها): يريد قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾. وقوله: (أي: قال): فسّر المضارع بفعل ماضي، وهو معنى قولهم: حكايةُ حالٍ ماضيةٍ.

وقوله: (يأتي): بيان أن الاستفهام عن زمن مجيء النصر.

وقوله: (فأجيبوا من قِبَلِ الله): يُبينُ أَنَّ قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ

قَرِيبٌ﴾ جوابٌ من الله لقول الرسول والمؤمنين: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾.



(١) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٦٧)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/٥٣٢-٥٣٣).

(٢) فسر المثل بالشبه: الطبري والبغوي وابن عطية وأبو حيان، وفسره بالصفة: النصر بن شميل والزجاج والسمعاني. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٦٣٧-٦٣٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٢٨٥)، و«تفسير السمعاني» (١/٢١٥)، و«تفسير البغوي» (١/٢٤٥)، و«المحرر الوجيز» (١/٥١٦)، و«البحر المحيط» (٢/٣٧٣).

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ^{٢١٥} قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ^{٢١٥} وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ^{٢١٥}﴾
[البقرة: ٢١٥]:

واضح من لفظ الآية وفاتحتها أنها نزلت جواباً لسؤالٍ سألَهُ بعضُ
المسلمين النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونصُّ سؤالهم؛ ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾؟ وهو مجملٌ
يحتمل أنهم سألوا عن نوع ما يُنْفِقُونَ، أو قدر ما يُنْفِقُونَ، أو على مَنْ يُنْفِقُونَ،
فجاء الجواب متضمناً بيان أصناف مَنْ هو الأولى بالإنفاق عليه، وهم خمسة،
وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾،
وجمهورُ المفسرين على أن المراد بالنفقة في هذه الآية نفقةُ التطوع^(١)، فهي
صدقةٌ وصلَةٌ في الأول والثاني - الوالدين والأقربين -، وصدقةٌ في الثلاثة الباقية
- اليتامى والمسكين وابن السبيل -، ثم رَغِبَ تعالى في فعل الخير من أي نوع
كان من أنواع الطاعات المالية والبدنية، فقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ
اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ^{٢١٥}﴾، وذكر العلم يتضمَّن الوعدَ بالثواب العاجل والآجل؛ كقوله
تعالى: ﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ^{٢١٥}﴾ [آل عمران: ٩].

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿مَاذَا﴾ أي الذي ﴿يُنْفِقُونَ﴾؟ والسائل
عمرو بن الجموح، وكان شيخاً ذا مالٍ، فسأل النبيَّ عَمَّا يُنْفِقُ وعلى مَنْ
يُنْفِقُ ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ بيان لـ«ما» شامل للقليل والكثير
وفيه بيان المنفق الذي هو أحد شقي السؤال وأجاب عن المصرف الذي
هو الشق الآخر بقوله: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٦٤١-٦٤٢)، و«تفسير الماوردي» (١/٢٧٢)، و«تفسير
البعي» (١/٢٤٥).

السَّبِيلِ ﴿ أَي: هم أولى به ﴾ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ ﴿ إنفاق وغيره ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿ فمجازٍ عليه.

وقول المؤلف: (السائل عمرو بن الجموح...) إلى آخره: بيان لسبب نزول الآية^(١).

وقوله: (لهم): أي: للسائلين.

وقوله: (شامل للقليل والكثير): بيان لعموم قوله تعالى: ﴿ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ

خَيْرٍ ﴾.

وقوله: (وفيه بيان المنفق...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ الآيةَ تَضَمَّنَتْ الجوابَ

عن سؤال عمرو بن الجموح بشقيه؛ ماذا يُنْفِقُ؟ وعلى مَنْ يُنْفِقُ؟

وقوله: (أي: هم أولى به): يُبَيِّنُ أَنَّ المصارفَ المذكورةَ هم أولى بالإنفاق

من غيرهم، وليس مقصوراً عليهم.

وقوله: (فمجازٍ عليه): يُبَيِّنُ أَنَّ في ذكر العلم تنبيهاً على الجزاء.



(١) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٦٧-٦٨)، و«العجاب» (١/٥٣٣-٥٣٥).

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦]:

يُخْبِرُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ؛ أَي: فَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ الْكُفْرَ، وَهَذَا هُوَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَتَبَ الْقِتَالَ مَعَ أَنَّهُ مَكْرُوهٌ لَهُمْ بِمَقْتَضَى الطَّبَعِ؛ لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى الْمَوْتِ، وَالْحَيَاةُ مَحْبُوبَةٌ بِالطَّبَعِ، ثُمَّ سَلَّاهُمْ تَعَالَى بِأَنَّ مَا يَكْرَهُونَهُ مِمَّا شَرَعَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرٌ لَهُمْ، وَمَا يُحِبُّونَهُ مِنْ تَرْكِ الْجِهَادِ حَرَصًا عَلَى الْحَيَاةِ فِيهِ شَرٌّ لَهُمْ، ثُمَّ رَدَّ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى كَمَالِ عِلْمِهِ وَقُصُورِ عِلْمِ الْعِبَادَةِ؛ فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَالْآيَاتَانِ بَعْدَهَا فِيهَا رَجُوعٌ إِلَى أَمْرِ الْقِتَالِ.

﴿كُتِبَ﴾ فَرَضَ ﴿عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ﴾ لِلْكَفَارِ ﴿وَهُوَ كُرْهُ﴾ مَكْرُوهٌ ﴿لَكُمْ﴾ طَبَعًا لِمَشَقَّتِهِ ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ لِمِيلِ النَّفْسِ إِلَى الشَّهَوَاتِ الْمَوْجِبَةِ لِهَلَاكِهَا وَنَفُورِهَا عَنِ التَّكْلِيفَاتِ الْمَوْجِبَةِ لِسَعَادَتِهَا. فَلَعَلَّ لَكُمْ فِي الْقِتَالِ وَإِنْ كَرِهْتُمُوهُ خَيْرًا؛ لِأَنَّ فِيهِ إِمَّا الظَّفَرَ وَالْغَنِيمَةَ، أَوْ الشَّهَادَةَ وَالْأَجْرَ، وَفِي تَرْكِهِ وَإِنْ أَحْبَبْتُمُوهُ شَرًّا؛ لِأَنَّ فِيهِ الذَّلَّ وَالْفَقْرَ وَحَرَمَانَ الْأَجْرِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ فَبَادِرُوا إِلَى مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ.

وقول المؤلف: (طبعًا لمشاقته): يبين أن هذه الكراهة في قوله: ﴿وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ راجعة إلى أمر طبيعي، وهو كراهة القتل وغيره مما يحصل في الجهاد بل الجهاد والشهادة في سبيل الله من أحب ما يتمناه المسلم.

وقوله: (لميل النفس إلى الشهوات...) إلى آخر الكلام: بيان لما في حب الشهوات من الشرِّ العاجل والآجل، وما في المكروهات المأمور بها من الخير العاجل والآجل، وهو كلامٌ حسنٌ موضَّحٌ لجملتي: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا﴾

﴿وَعَسَى أَنْ تَجِبُوا﴾.

وقوله: (ما هو خيرٌ لكم): يُبيِّنُ بذلك وجهَ ختم الآية؛ بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ فإذا كان المعنى: «والله يعلم ما هو خير لكم»؛ فما أمركم به من قتال الكفار هو الخير لكم.



وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ^١ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ^٢ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ [البقرة: ٢١٧]:

يذكر تعالى أن المسلمين سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن القتال في الشهر الحرام، وذلك بسبب ما جرى من القتال والقتل في شهر رجب من سرية عبد الله بن جحش الذين بعثهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عينا على المشركين من أهل مكة، ولم يأمرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتال، فصادفوا قافلة بتجارة لقريش فقتلوا أحدهم، وهو: عمرو بن الحضرمي، وأسروا اثنين منهم، وغنموا ما معهم، فرجعوا بما معهم إلى المدينة، ففادى المشركون الأسيرين، ثم إن المشركين عيروا المسلمين بالقتال في رجب، وهو من الأشهر الحرم، فشق ذلك على أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقصة السرية مبسوطه في السيرة^(١)، وذكرها ابن جرير في تفسيره^(٢)، فأنزل الله هذه الآية رداً على المشركين وتسلياً لنبية والمؤمنين، فأكد الله تعالى تحريم القتال في الشهر الحرام؛ فقال لنبية: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، ولكن عند المستنكرين للقتال الذي حصل، الذي اتخذوا منه مطعناً على المسلمين من قبائح الأقوال والأفعال ما كل واحد منها أكبر من القتل والقتال، وهي خمسة أمور: صد عن سبيل الله، وهو: دينه، وكفر به، وصد عن المسجد الحرام، وإخراج أهله منه، وكل هذه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام. والفتنة - وهي الشرك أو فتنة المؤمنين عن دينهم - أكبر من

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/٦٠١-٦٠٤)، و«السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» لمهدي رزق الله (ص ٣٣٣-٣٣٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٦٥٠).

القتل، فينطبق على هؤلاء الطاعين قول القائل: (يرى القذاة في عين صاحبه، ولا يرى الجذع في عينه)^(١).

ثم أخبر تعالى أن الكفار لا يزالون يُقاتلون المسلمين ليرجعوا عن دينهم، وأنهم لا يتركون القتال حتى يترك المسلمون دينهم، فذلك الذي يُرضيهم كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾: يدل على أنهم لا يدخرون شيئاً من قدرتهم في سبيل غايتهم، وأنهم لن يبلغوا كل ما يردونه في المسلمين من صددهم عن دينهم، ثم أخبر تعالى بحكم من ارتد عن دينه؛ فقال تعالى: ﴿وَمَنْ

(١) هذا مثل من أمثال العرب السائرة المتداولة، وروي عنهم بألفاظ مختلفة. ينظر: «مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ١٥٥، رقم ٣٠٩٥)، و«المستقصى من أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ٢٣٦). وروي مرفوعاً وموقوفاً:

أخرجه مرفوعاً: ابن المبارك في «الزهد» - زوائده - (٢١٢)، وابن حبان في صحيحه (٥٧٦١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٦١٠) من طرق، عن محمد بن حمير قال: «حدثنا جعفر بن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:» وذكر نحوه.

قال أبو نعيم: «غريب من حديث يزيد، تفرد به محمد بن حمير، عن جعفر». وخالف محمد بن حمير: مسكين بن بكير، فرواه عن جعفر، به موقوفاً: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٢) عن محمد بن عبيد بن ميمون قال: «حدثنا مسكين بن بكير الحذاء الحراني»، وذكره.

وكلاهما - محمد بن حمير، ومسكين بن بكير - ليسا من الحُفَظ المتقين، وهما صدوقان لا بأس بهما فيما لم يخالفا أو ينفردا، ومسكين أحسن حالاً من ابن حمير، وكلاهما انتقى لهما البخاري في صحيحه. ينظر: «التقريب» (٥٨٣٧)، (٦٦١٥). وصحح الألباني الرويتين - المرفوعة والموقوفة - في «الصحيحة» (٣٣).

وقد روي من كلام الحسن: أخرجه الحسين المروزي في زوائده على «الزهد» لابن المبارك (٢١١) وأحمد في «الزهد» (١٦٤٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/ ٥٥٨ رقم ٣٨٠٢٥)، بإسناد صحيح.

يَرْتَدُّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٠﴾، وقيد حبوط أعمالهم والخلود في النار بالموت على الكفر، فعلم من ذلك أن من تاب من رذته قبل الموت سلّم له ما عمّله قبل الردّة، وكان من الناجين من الخلود في النار.

وأرسل النبي ﷺ أول سراياه وعليها عبد الله بن جحش، فقاتلوا المشركين وقتلوا ابن الحضرمي آخر يوم من جمادى الآخرة، والتبس عليهم برجب، فعيرهم الكفار باستحلاله فنزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْمَحْرَمِ﴾ قتال فيه ﴿بدل اشتمال﴾ قل ﴿لهم﴾ قتال فيه كبير ﴿عظيم وزرا، مبتدأ وخبر﴾ وصد ﴿مبتدأ: منع للناس﴾ عن سبيل الله ﴿دينه﴾ وكفر به ﴿بالله﴾ وصد عن المسجد الحرام ﴿أي: مكة﴾ وإخراج أهله منه ﴿وهم النبي والمؤمنون، وخبر المبتدأ﴾ أكبر ﴿أعظم وزرا﴾ عند الله ﴿من القتال فيه﴾ والفتنة ﴿الشرك منكم﴾ أكبر من القتل ﴿لكم فيه﴾ ولا يزالون ﴿أي: الكفار﴾ يقاتلونكم ﴿أيها المؤمنون﴾ حتى ﴿كي﴾ يردوكم عن دينكم ﴿إلى الكفر﴾ إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم ﴿الصالحه﴾ في الدنيا والآخرة ﴿فلا اعتداد بها ولا ثواب عليها، والتقييد بالموت عليه يفيد أنه لو رجع إلى الإسلام لم يبطل عمله، فيثاب عليه ولا يعيده؛ كالحج مثلا، وعليه الشافعي﴾^(١) ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

وقول المؤلف: (وأرسل النبي ﷺ أول سراياه...) إلى آخره: يُبين بذلك سبب نزول هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾.

(١) ينظر: «نهاية المطلب» (٤/١٤٣)، و«المجموع شرح المذهب» (٣/٦-٧)، و(٧/١٤).

وقوله: (بدل اشتمال): يريد: أَنْ قَتَالَ بَدْلَ مَنْ الشَّهْر؛ فالتقدير: يسألونك عن الشهر الحرام عن قتال فيه.

وقوله: (منع للناس): يُبَيِّنُ أَنَّ الصَّدَّ مِنَ الْفِعْلِ الْمُتَعَدِّي «صَدَهُ، يَصَدُهُ»؛ فالمعنى: أَيَّ وَصَدَهُمُ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ؛ أَي: عَنْ دِينِهِ. وقوله: ﴿وَوَصَّدُ عَنْ﴾: يُبَيِّنُ أَنَّ الْمَسْجِدَ مَعْطُوفٌ عَلَى سَبِيلٍ؛ فَالْمَعْنَى: وَصَّدُ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. وقوله: (وخبر المبتدأ): يريد بالمبتدأ: ﴿وَوَصَّدُ﴾ وما عطف عليه، فخبر ذلك المبتدأ قوله: ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

وقوله: (أعظم وزراً): أَي: أَعْظَمُ إِثْمًا. وقوله: (من القتال فيه): يعني: هذه المذكورات - الصد وما بعده - أَعْظَمُ إِثْمًا مِنَ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ.

وقوله: (فلا اعتداد بها...) إلى آخره: يريد: أَنَّ أَعْمَالَ الْمُرْتَدِ الصَّالِحَةِ بَاطِلَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَا تَصَحُّ، وَلَا يَقْبَلُهَا اللَّهُ مِنْهُ، وَلَا يُثَابُّ عَلَيْهَا إِلَّا أَنْ يَتُوبَ مِنْ رِدَّتِهِ تَوْبَةً نَصُوحًا قَبْلَ الْمَوْتِ.

وأهم ما دلَّت عليه الآيتان من الأحكام مسألتان: الأولى: حَكْمُ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ الْأُولَى عَلَى فَرْضِهِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾، وَقِتَالُ الْكُفَّارِ يَكُونُ عَلَى وَجْهِينَ^(١):

أحدهما: ما يكون ابتداءً من المسلمين، وهو ما يسميه بعضهم بجهاد الطلب، وقد دلت على ذلك آيات من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ

(١) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٤/١٢٢-١٢٣)، و«الشرح الصغير بحاشية الصاوي» (١/٢٦٧-٢٧٤)، و«المغني» (١٣/٦-٨)، و«الإنجاد في أبواب الجهاد» لابن المناصف القرطبي (ص ٧-٥٠)، و«الأخبار العلمية من الاختيارات الفقهية لابن تيمية» (ص ٤٤٦-٤٤٧)، و«الفروسية» (١/١٢٣-١٢٤).

حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴿٤٥﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، وَيُخْرَجُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّ مَنْ لَهُ عَهْدٌ أَمَانٍ أَوْ صُلْحٌ أَوْ ذِمَّةٌ، وَالغَايَةُ مِنْ هَذَا الْقِتَالِ هِيَ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا، وَذَلِكَ إِمَّا بِالْدُخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، أَوْ الْخُضُوعِ لِسُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ بِأَدَاءِ الْجِزْيَةِ.

الوجه الثاني: من قاتل الكفار ما يكون دفعاً لعدوانهم، فإذا غزا العدو بلاداً من بلدان المسلمين صار القتال فرض عينٍ على أهل تلك البلد، ثم من يليهم؛ الأدنى فالأدنى.

وأما جهادُ الابتداء؛ فإنه فرض كفاية، فيجب على الإمام أن يُرتب جيوشاً ويزوِّدهم بأنواع القوة؛ إرهاباً للكافرين وحمايةً لبلاد المسلمين من عدوانهم، وعلى الإمام أن يُرتب حملات الجهاد في سبيل الله لغزو الكفار الحربيين، وبهذا يُعزُّ الإسلام والمسلمون، وبتعطيله والتهاون فيه يجترئ الكفار على المسلمين، ويصير المسلمون ذليلين، ولا حول ولا قوة إلا بالله، واللهم أعز الإسلام والمسلمين وأذل أعداء الدين من الكفار والمنافقين.

المسألة الثانية: حكم القتال في الشهر الحرام، وقد دلَّ قوله تعالى: ﴿قُلْ قَاتِلْ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أَي: إِثْمٌ عَظِيمٌ، وَذَنْبٌ كَبِيرٌ، إِذْن: فَالْقِتَالُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ حَرَامٌ، وَإِنْ كَانَ قِتَالًا لِلْكَفَّارِ، وَقَدْ ذَهَبَ جَمَهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ تَحْرِيمَ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ مَنْسُوخٌ بِعَمُومِ آدِلَةِ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ، كَمَا فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، وَهِيَ مُطْلَقَةٌ فِي الزَّمَانِ، فَتَشْمَلُ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ، وَيَأْتِدُوا ذَلِكَ بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزَا أَهْلَ الطَّائِفِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَاتِهِمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَوَقَّفُونَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ شَهْرٌ حَرَامٌ، وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى

أَنَّ القتالَ في الأشهرِ الحرمِ غيرُ منسوخٍ^(١)؛ لأنَّه لا دليلَ على النسخِ، وأدلةُ الأمرِ بالقتالِ عامَّةٌ مخصوصةٌ بأدلةِ تحريمِ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ، وأجابوا عن قتالِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهلِ الطائفِ؛ بأنَّه لم يبدأ قتالهم في ذي القعدة بل في شوال^(٢)، واستدام حصارهم في شهرِ ذي القعدة حتى رأى المصلحةَ في الرجوعِ عنهم، وكذلك غزواتُ الصحابةِ؛ لا يُعلمُ أنهم ابتدؤوا القتالَ في الشهرِ الحرامِ، فالواقعُ منهم هو استدامةُ القتالِ لا ابتدأوه.



(١) وإلى النسخ ذهب: ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وقتادة، والزهري، وجماعة من السلف، وهو قول جمهور المفسرين، وذهب عطاء ابن أبي رباح إلى أن الآية محكمة فلا يحل القتال لأحد في الأشهر الحرم. ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للقسام بن سلام (ص ٢٠٥-٢٠٧)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (١/٧٣-٧٦)، و«تفسير الطبري» (٣/٦٦٢-٦٦٥)، و«التفسير البسيط» (٤/١٤٢-١٤٣)، و«المحرر الوجيز» (١/٥٢٢).

(٢) ينظر: «جوامع السيرة» لابن حزم (ص ٢٤٢)، و«السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» (ص ٥٩٣) وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]:

يُخْبِرُ تَعَالَى بِأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَهَذَا يَصْدُقُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، ثُمَّ خَصَّ الْمُهَاجِرِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بِقِتَالِ الْكَافِرِينَ أَعْدَاءِ اللَّهِ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ عَطْفُ الْمَوْصُولِ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، وَبِهَذَا تَظْهَرُ مَنَاسِبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِلآيَةِ قَبْلَهَا النَّازِلَةِ فِي شَأْنِ سَرِيَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ، وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَلِذَلِكَ خُصُّوا بِوَصْفِ الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ، وَعَلَى هَذَا فَسَبُّ نَزُولِ الْآيَتَيْنِ وَاحِدًا^(١)، وَقِيلَ: إِنَّ عَطْفَ الْمَوْصُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ مِنْ عَطْفِ الصِّفَاتِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١-٣]^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾: اسْمُ الْإِشَارَةِ رَاجِعٌ إِلَى مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، وَهُمْ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّهُمْ الَّذِينَ قَامُوا بِأَسْبَابِهَا؛ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ وَعْدَ أَوْلَئِكَ الرَّاجِينَ لِرَحْمَةِ اللَّهِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وَالْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَازِلَةً عَلَى سَبَبٍ؛ فَمَعْنَاهَا وَحُكْمُهَا عَامٌّ؛ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بَعْمَوْمِ الْفَلْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ.

وَلَمَّا ظَنَّ السَّرِيَّةَ أَنَّهُمْ إِنْ سَلِمُوا مِنَ الْإِثْمِ فَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ أَجْرٌ نَزَلَ:
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ فَارْقُوا أَوْطَانَهُمْ ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

(١) تقدم في (ص ٤٥١).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٢/٣٩٥)، و«تفسير الفاتحة والبقرة» للعثيمين (٣/٦٢).

اللَّهُ ﴿ لِإِعْلَاءِ دِينِهِ ﴾ ﴿ أَوْلَيْكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾ ﴿ ثَوَابَهُ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ ﴿
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ بِهِمْ .

وقول المؤلف: (ولمّا ظنّ السرية...) إلى آخره: يُبينُ بذلك سببَ نزول الآية.

وقوله: (فارقوا أوطانهم): بيان لمعنى: ﴿ هَاجِرُوا ﴾، وأصل الهجر: الترك، والمراد: تركوا أوطانهم فراراً بدينهم وبراءةً من المشركين وتركاً لمساكتهم، وهذه الهجرة فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ يُقيمُ بين أظهرِ المشركين، وهو لا يستطيع إظهارَ دينه.

وقوله: (لإِعْلَاءِ دِينِهِ): هذا مأخوذٌ من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))^(١).

وقوله: (ثوابه): فسّر رحمةَ اللهِ بالثواب، وهو رحمةٌ مخلوقةٌ، ويحتمل أنّ رحمةَ اللهِ هي الصفةُ؛ فيكون المعنى: يرجون أن يرحمهم الله، والأمران متلازمان، فمن أثابه الله فقد رحمه، ومن رحمه أثابه.

وقوله: (للمؤمنين): هذا القيدُ صحيحٌ، ومفهومُه أنه ليس غفوراً للكافرين، وهذا في حقِّ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ، أمّا مَنْ تاب فاللهُ يغفر له وإن كان كافراً؛ كقوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ... ﴾ الآية [طه: ٨٢]، أمّا مَنْ مات على الكفر فاللهُ لا يغفر له؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [محمد: ٣٤].



(١) أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ۚ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۖ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمْلِكُ قُلُوبَ إِصْلَاحِ لَهُمْ خَيْرٌ ۗ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَتْكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠]:

يذكر تعالى في هاتين الآيتين أَنَّ المسلمين سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث مسائل: الأولى: سألوا عن الخمر والميسر؛ عن حكمهما؟ فأمر الله نبيه أَنْ يُجيبهم: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾، وليس في هذا الجواب تصريحٌ بالتحريم، بل فيه التنفيرُ عنهما لرجحان مفسدتهما، ففيهما إثمٌ كبيرٌ من العداوة والبغضاء، وذهابِ العقل، والصدِّ عن ذكر الله وعن الصلاة، ومع ذلك فهما منافعٌ للناس من اكتساب الأموال والنشوة والسرور، وعلى هذا: فتحريمُ الخمرِ والميسرِ مُستفادٌ من آية المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ ﴿٩١﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]، وهذا هو المشهور وقول الجمهور، وادَّعى بعضهم أَنَّ التحريمَ مُستفادٌ من آية البقرة؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾^(١).

والمرادُ بالخمر: كلُّ مُسكرٍ يُغْطِي العقلَ من مأكولٍ أو مشروبٍ، من أيِّ شيءٍ كان، من عصيرِ العنب أو غيره. والميسر: مَفْعَلٌ من اليُسْرِ، والمرادُ به: القمارُ، والقمارُ: كلُّ مُغالبةٍ على عِوضٍ، بأيِّ طريقةٍ كان، ومنها النردُّ والشطرنجُ. والقمارُ مصدرٌ؛ يقال: قامره يُقامره قِمَارًا، ويقال: قامره فقمره؛ أي: غلبه في

(١) والأول هو قول جمهور المفسرين، والثاني نُسب للحسن وعطاء وإلى قوم من أهل النظر: ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للقاسم بن سلام (ص ٢٤٨-٢٥١)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (ص ٧٦)، و«تفسير الطبري» (٣/٦٧٩-٦٨٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢٩٢/١)، و«التفسير البسيط» (٤/١٥٢)، و«المحرر الوجيز» (١/٥٣٤).

اللعبة، ويدخل في حكم القمار كل ما فيه مخاطرة من البيوع؛ كبيع المجهول والمعجوز عن تسليمه، ومن ذلك جميع بيوع الغرر؛ كبيع الحصاة والملامسة والمنابذة وحبل الحبلية.

الثانية: سألوها: ﴿مَاذَا يُفْقُونَ﴾؟ فأجيبوا ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾؛ أي: أنفقوا العفو، وهو ما فضل عن الحاجة عند جمهور المفسرين من السلف^(١)، وإن اختلفت عباراتهم، وقال بعضهم: المراد بالآية الزكاة، وقال بعضهم: إنها منسوخة بفرض الزكاة، والقولان ضعيفان، والصواب: أن الآية في صدقة التطوع وأنها محكمة^(٢)، وقُرئ ﴿الْعَفْوَ﴾ بالرفع، وبالنصب وهي قراءة أكثر القراء^(٣).
وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾: أي: مثل هذا البيان يُبين لكم الآيات.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: أي: لتتفكروا وتنظروا في حال الدنيا والآخرة، فالدنيا فانية وطيباتها مُنْعَصَةٌ، وهي دار ابتلاء وعمل، والآخرة باقية، وهي دار الجزاء، والجنة فيها للمتقين هم فيها خالدون ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ﴿الرعد: ٣٥﴾، وقد أوضح الله لنا حقيقة الدارين، ودعانا إلى التفكر فيهما، وحذرنا من إثارة الدنيا على الآخرة.

(١) جاء ذلك عن ابن عباس في رواية مقسم، وقتادة وعطاء والسدي وابن زيد والحسن، واختاره الطبري. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/٦٨٦-٦٨٧)، و(٣/٦٩٠-٦٩٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/٣٩٣)، و«المحرر الوجيز» (١/٥٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (١/٥٧٩-٥٨٠).

(٢) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص١٨٨-١٩٣)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (ص٧٦-٧٧).

(٣) قرأ أبو عمرو وحده: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ بالرفع. وقرأ الباقر: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ بالنصب. ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص١٧٢)، و«النشر» (٢/٢٢٧).

المسألة الثالثة: سألوا عن اليتامى، عن حُكْم مخالطتهم في الطعام والشراب، أو خلط أموالهم بأموالهم في النفقة أو التجارة، خشية أن يؤدي ذلك إلى أكل شيء من أموالهم؟ فأجيبوا بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾، فتضمنَ الجوابُ أنَّ إِصْلَاحَ أموالهم بأنواع الإِصْلَاحِ خَيْرٌ لَهُمْ ولأولياءهم، وأنَّ مُخَالَطَتَهُمْ في الطعام والشراب أو غير ذلك لا حرج على الأولياء فيها، فهم إخوانهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾؛ أي: يعلمُ المفسد؛ وهو الذي يريدُ بالمخالطة الاحتيالَ على أكل مالِ اليتيم، ويعلمُ المصلح؛ الذي لا يريدُ بمخالطة اليتيم إلا مصلحته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَكُفُوكُمْ﴾؛ أي: لَشَقَّ عليكم بتحريم مخالطتهم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: أي: ذو عِزَّةٍ وحِكمةٍ، فيحكمُ ولا رادَّ له ولا مُعَقَّب، وكلُّ ما يحكمُ به جارٍ على وفقِ الحكمةِ.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ الْقِمَارِ، مَا حُكْمُهُمَا؟﴾ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ فِيهِمَا ﴿أَيُّ: فِي تَعَاظِيهِمَا﴾ ﴿إِنَّهُمَا كَبِيرٌ عَظِيمٌ﴾، وفي قِراءَةِ بِالمثلثة؛ لِمَا يَحْصُلُ بِسَبَبِهِمَا مِنَ المَخَاصِمِ وَالمَشَاتِمِ وَقَوْلِ الفُحْشِ ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ بِاللذَّةِ وَالفِرْحِ فِي الخمرِ، وَإِصَابَةِ المَالِ بِلا كَدٍّ فِي الميسرِ ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ ﴿أَيُّ: مَا يَنْشَأُ عَنْهُمَا مِنَ المَفَاسِدِ﴾ ﴿أَكْبَرُ﴾ عَظُمُ ﴿مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ وَلَمَّا نَزَلَتْ شَرِبَهَا قَوْمٌ وَامْتَنَعَ آخَرُونَ، إِلَى أَنَّ حَرَّمَتِهَا آيَةُ «المائدة».

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ أَيُّ: مَا قَدْرُهُ؟ ﴿قُلْ﴾ أَنْفَقُوا ﴿العنقوة﴾ أَيُّ: الفاضل عن الحاجة، ولا تُنْفِقُوا ما تُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَتُضِيعُوا أَنْفُسَكُمْ،

وقراءة الرفع بتقدير: هو ﴿كَذَلِكَ﴾ كما بينَ لكم ما ذكر ﴿بَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ.

﴿فِي﴾ أمر ﴿الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فتأخذون بالأصلح لكم فيهما ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ وما يلقونه من الحرج في شأنهم، فإن واكلوهم يأثموا، وإن عزلوا ما لهم من أموالهم وصنعوا لهم طعامًا وهدم فحرج ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ﴾ في أموالهم بتنميتها ومدخلتكم ﴿خَيْرٌ﴾ من ترك ذلك ﴿وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ﴾ أي: تخلطوا بنفقتهم بنفقتكم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين، ومن شأن الأخ أن يُخالط أخاه؛ أي: فلکم ذلك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُنْفِئِدَ﴾ لأموالهم بمخالطته ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ بها، فيُجازي كلاً منهما ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ﴾ لضيقِ عليكم بتحريم المخالطة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه.

وقول المؤلف: (ما حكمهما؟): بيان لمتعلق السؤال ومقصوده؛ أي: أهما حلال أم حرام؟ فأجيبوا بما ينفر عنهما، ولا يوجب القطع بتحريمهما، وقد بين حكمهما بيانا شافياً في سورة المائدة، وقد دل على تحريمهما الكتاب والسنة والإجماع.

وقوله: (لهم): أي: للسائلين مخبراً بأن فيهما إثماً كبيراً ومنافع للناس. وقوله: (أي: في تعاطيهما): بيان لموضع الإثم أو متعلق الإثم، وهو شرب الخمر وعمل الميسر.

وقوله: (وفي قراءة بالمثلثة): المراد بالمثلثة الثاء؛ يريد: أنه قرئ في الآية ﴿كَثِيرٌ﴾ بدل ﴿كَبِيرٌ﴾^(١).

(١) قرأ حمزة والكسائي: ﴿إِثْمٌ كَثِيرٌ﴾ بالثاء. وقرأ الباقون: ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بالباء. ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ١٧٢)، و«النشر» (٢/ ٢٢٧).

وقوله: (لَمَا يَحْصِلُ ...) إلى آخره: بيان لنوع الإثم الذي يحصل بسبب الخمر والميسر.

وقوله: (باللذة ...) إلى آخره: بيان لأنواع المنافع التي تحصل لأصحاب الخمر والميسر.

وقوله: (أَيُّ مَا يَنْشَأُ ...) إلى آخره: معناه: أن أضرارهما أكثر من منافعهما. وقوله: (ما قدره؟): بيان للمسؤول عنه، وهو مقدار ما يُستحبُّ التصدق به.

وقوله: (أَنْفَقُوا): تقدير للفعل الناصب لـ ﴿الْعَفْوُ﴾.

وقوله: (أَيُّ الْفَاضِلِ ...) إلى آخره: تفسير للعفو المأمور بإنفاقه، وهو: ما زاد على نفقة الإنسان على نفسه وأهله^(١)، ومفهومه: ترك إنفاق ما يحتاجه الإنسان للنفقة على نفسه وأهله؛ لأن ذلك تضييع للنفس والأهل، وفي الحديث: ((كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت))^(٢).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٦٨٦-٦٨٧/٣)، (٦٩٠/٣)، و«المحرر الوجيز» (١/٥٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (١/٥٧٩-٥٨٠).

(٢) أخرجه أحمد (٦٤٩٥) وأبو داود (١٦٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٣٢)، والحاكم (١٥١٥) «عن سفيان الثوري، حدثنا أبو إسحاق، عن وهب بن جابر الخيواني، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين؛ غير وهب بن جابر الخيواني، قال ابن المديني: «مجهول». وقال الذهبي: «لا يكاد يُعرف، تفرد عنه أبو إسحاق». «الميزان» (٩٤٢٣). وله شاهد عند الطبراني في «الكبير» (١٣٤١٤) من طريق إسماعيل بن عياش، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً به. ورجاله ثقات كلهم، وابن عياش الحمصي صدوق في روايته عن أهل بلده مخلط في غيرهم، كما في «التقريب» (٤٧٣)، فكان يخشى من سوء حفظه كروايته هنا عن المدينيين؛ لكنه صالح للاستشهاد به، وحسنه بشاهده الألباني في «الإرواء» (٨٩٤).

وأخرجه بنحوه مسلم (٩٩٦) من عبد الله بن عمرو مرفوعاً ولفظه: ((كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته)).

وقوله: (وقراءة الرفع بتقدير: هو): يبين أن ﴿العَفْوُ﴾ على قراءة الرفع^(١) خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو العفو؛ المعنى: المأمور بإنفاقه هو العفو. وقوله: (كما بينَ لكم ما ذكر): يبين مرجع اسم الإشارة؛ وهو ما سبق من البيان في الآيات قبل هذه الآية.

وقوله: (أمر) أي: في شأن الدنيا والآخرة. وقوله: (فتأخذون...) إلى آخره: بيان للمقصود من التفكير في الدنيا والآخرة.

وقوله: (وما يلقونه من الحرج... إلى آخره): بيان لسبب السؤال، وسبب نزول الآية^(٢).

وقوله: (في أموالهم...) إلى آخره: بيان لما يكون به الإصلاح، فالإصلاح في أموالهم بتنميتها، والإصلاح في معاشرتهم؛ بمخالطتهم وترك اعتزالهم ومجانبتهم، وهذا معنى قول المؤلف: (ومداخلتكم) أي: مخالطتكم لهم. وقوله: (من ترك ذلك): المعنى: الإصلاح في أموالهم ومعاشرتهم خير لكم ولهم من ترك ذلك؛ أي: ترك الإصلاح.

وقوله: (أي: تخلطوا نفقتهم بنفقتكم): بيان لبعض معنى مخالطتهم، وهو مخالطتهم في أموالهم، ومنه خلط نفقتهم بنفقتكم.

وقوله: (أي: فهم إخوانكم...) إلى آخره: بيان لإعراب الجملة ومقصودها، ف«إخوان» خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فهم إخوانكم، والجملة جواب الشرط، ومقصودها الإذن بالمخالطة؛ لأنها مقتضى الأخوة.

(١) قرأ أبو عمرو وحده: ﴿قُلِ الْعَفْوُ﴾ رفعاً وقرأ الباقون: ﴿قُلِ الْعَفْوُ﴾ نصبا. ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ١٨٢)، و«النشر» (٢/٢٢٧).

(٢) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٧١-٧٢)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/٥٤٧-٥٥٠).

وقوله: (لأموالهم...) إلى آخره: بيانٌ لمتعلق الإفساد والإصلاح، وهو أموال اليتامى، وذكُر العلم بالمفسد والمصلح تنبيهٌ على الجزاء؛ فهو وعد ووعد.

وقوله: (الضيقَ عليكم...) إلى آخره: تضمن معنى العنت، وهو المشقة والضيق^(١)، وأن الله لو شاء لأعتتهم؛ أي: شق عليهم بتحريم المخالطة. وقوله: (غالبٌ على أمره...) إلى آخره: بيانٌ لمعنى الاسمين الشريفين، فمن معنى العزيز: الغالب، ومن معنى الحكيم: حكمة الله في صنعه، ولو قال في شرعه كان أولى؛ لأن الآية في سياق الأحكام الشرعية.



(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٨٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا أُعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا أُعْجَبَتْكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۗ وَبَيِّنُ آيَاتِهِ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١]:

النكاح في اللغة هو: الضمُّ والجمع^(١)، ويُطلق على العقدِ والوطء؛ فقيل: إنه حقيقةٌ فيهما، فهو من المشترك اللفظي، وقيل: حقيقةٌ في الوطاء مجازٌ في العقد، وقيل: بالعكس، وهو قول الأكثر، والأولى أن يقال: إنه حقيقة فيهما، ولكن استعماله في العقد أكثر^(٢).

وفي هذه الآية ينهى الله عباده المؤمنين عن نكاح المشركات اللاتي يعبدن مع الله غيره من الأصنام والأوثان، ينهى عن نكاحهنَّ إلى أن يؤمنَّ بالله ورسوله، ويُخلصنَّ العبادة لله، وينهى عن إنكاح المشركين عبَادِ الأوثان، وهو تزويجهم المؤمنات، وبيِّنُ تعالى أنَّ الأُمَّةَ المؤمنةَ خيرٌ من الحرَّةِ المشركة ولو كانت ذات حَسَبٍ ونَسَبٍ وجمال، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا أُعْجَبَتْكُمْ﴾، والأُمَّةُ يُرادُ بها: المملوكة، وغلط مَنْ قال: المرادُ بها المرأة مُطلقاً حرَّةً كانت أو مملوكةً، وهذا لا يُعرف في اللغة العربية إلا إذا أُضيفت الأُمَّةُ إلى الله؛ فيقال: «يا أمة الله» لأَيِّ امرأة^(٣)، وكذا «العبد» المرادُ به هنا: المملوك، والعبدُ المؤمنُ خيرٌ من الحرِّ المُشرك، ولو كان ذا مالٍ وجاهٍ وحَسَبٍ ونَسَبٍ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا أُعْجَبَتْكُمْ﴾.

(١) ينظر: «المصباح المنير» (٢/ ٦٢٤).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٢/ ٦٦٢)، و«تحرير ألفاظ التنبيه» (ص ٢٥٠)، و«المطلع على ألفاظ المقنع» (ص ٣٨٦).

(٣) ينظر: «لسان العرب» (١٤/ ٤٤).

ثم يُبَيِّنُ تعالى حكمة النهي عن نكاح المشركات وإنكاح المشركين، وذلك أَنَّ المشركين والمشركات يدعون إلى النار؛ أي: إلى سبب دخول النار، وهو الشرك بالله، والله تعالى يدعو إلى سبب دخول الجنة، وحصول المغفرة، وهو عبادته تعالى وحده لا شريك له، وطاعته وطاعة رُسله، والمؤمنون والمؤمنات يدعون إلى ما يدعو الله إليه، وإذا كان المراد بالمشركين في الآية عبَاد الأوثان؛ فالآية على عمومها في المشركين والمشركات ولا تخصيص فيها، وإذا كان المراد بالمشركين كلَّ مَنْ عبدَ مع الله غيره من أهل الكتاب وغيرهم، فهي مخصوصة بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَّلَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]؛ أي: حلَّ لكم^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَبَيِّنْ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٣٣]: أي: يوضح آياته المتلوَّة؛ وهي آيات القرآن، ويبيِّن آياته الكونية المشهودة؛ أي: يظهر دلالاتها ليتذكَّر الناس ربوبيته تعالى وإلهيته، فيعرفوه ويعبدوه، ويتذكروا ما هم قادمون عليه من موقف القيامة، وما هم صائرون إليه من الجنة أو النار فيعدُّوا لذلك اليوم عدته.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ تزوجوا أيها المسلمون ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ أي: الكافرات ﴿حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ﴾ حرَّة؛ لأنَّ سبب نزولها العيب على مَنْ تزوج أمةً وترغيبه في نكاح حرَّة مشرِكَةٍ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ لجمالها ومالها، وهذا مخصوص بغير الكتابيات بآية ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]، ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ تزوجوا ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: الكفار،

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٧١١-٧١٦)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٥٣٨-٥٤٠)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٨٢-٥٨٤).

المؤمنات ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ لِمالِه
وجمالِه ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: أهل الشرك ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ بدعائهم إلى
العمل الموجب لها، فلا تليق مناكحتهم ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو﴾ على لسان رُسُلِه
﴿إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: العمل الموجب لهما ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بإرادته، فتجب
إجابته بتزويج أوليائه ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

وقول المؤلف: (أي: الكافرات): يقتضي أن الآية عامّة في الكفار من
أهل الكتاب وغيرهم. وقوله: (حُرّة): بدليل مقابلتها بالأمة.
وقوله: (لأنّ سبب نزولها...) إلى آخره: يُشير إلى قصة حصلت لعبد
الله بن رواحة، كانت له أمة فأعتقها فتزوجها، فعاب عليه بعض الناس ورغبه
في الزواج من حُرّة ولو مشرّكة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ
مُشْرِكَةٍ﴾، كذا قيل، والله أعلم^(١).

وقوله: (وهذا مخصوصٌ بغير الكتابيات...) إلى آخره: هذا يقتضي
أنّ المؤلف يرى أنّ الآية عامّة في المشركين من أهل الأوثان وأهل الكتاب،
ويخصّ من عمومها المحصنات من أهل الكتاب كما في سورة المائدة.
وقوله: (بإرادته): أي: الإرادة الشرعية.



(١) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٧٣)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٥٥١).

وقوله تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۗ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ ۚ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]:

يذكرُ تعالى في هذه الآية أن بعض المسلمين سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حكم إتيان النساء في حال الحيض، منهم أبو الدحداح وأسيد بن الحضير وعبدُ بن بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١)، فأجيبوا بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذَىٰ﴾؛ أي: دُمُ الحيضِ أذى؛ لأنه نجسٌ قذرٌ، ثم رتَّبَ تعالى على ذلك الأمر باعتزال النساء بتركِ وطئهنَّ في المحيض وهو زمنُ الحيضِ، وقيل: مكانُ الحيضِ، وهو الفرجُ، فعلمَ بذلك تحريمُ وطئِ الحائضِ في الفرجِ، وهذا مُجمَعٌ عليه^(٢)، ثم اختلف فيما يحلُّ الاستمتاعُ به من سائرِ بدنِها؛ فقيل: لا يحرمُ منها إلا الوطءُ في الفرجِ خلا الدُّبرِ، فإنه لا يحلُّ بحالٍ من الأحوالِ، وقيل: لا يحلُّ إلا ما فوق السرةِ ودون الركبة^(٣)، والصوابُ الذي دلَّت عليه السنَّةُ: أنه لا يحرمُ إلا الوطءُ في الفرجِ؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((اصنعوا كلَّ شيءٍ إلا النكاح))، لما قيل له: إن اليهودَ إذا حاضت المرأةُ فيهم لم يؤاكلوها ولم يُساكنوها في البيوت. رواه مسلم^(٤)، ولكن ينبغي اجتناب ما بين السرةِ والركبةِ، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمر المرأةَ من نسائه فتتزرُّ فيباشرها، وهي: حائضٌ كما ثبت في الصحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: «كان رسول الله يأمرني فأتزر فيباشرني وأنا حائضٌ»^(٥)، فعلم

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٩٢-٢٩٣)، وينظر أيضًا: «أسباب النزول» (ص ٧٤)، و«العجاب» (١/٥٥٣).

(٢) ينظر: «مراتب الإجماع» (ص ٤٥-٤٦)، و«الإقناع في مسائل الإجماع» لابن القطان الفاسي (١/١٠٣).

(٣) ينظر الخلاف في: «حاشية ابن عابدين» (١/٢٩٢-٢٩٣)، و«مواهب الجليل» (١/٥٧٠)، و«المجموع شرح المهذب» (٢/٣٩٢-٣٩٤)، و«المغني» (١/٤١٤-٤١٦).

(٤) صحيح مسلم (٣٠٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٣٠٠).

مما تقدم أن اعتزال النساء الذي أمر الله به وأكد به بالنهي عن قربانهن حتى يطهرن: هو ترك وطئها في الفرج حتى تطهر بانقطاع الدم ثم تغتسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾، وفي هذا الحرف قراءتان؛ فقرأ بعضهم: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ بصيغة الفعل المضارع من الثلاثي، وهو بسكون الطاء وضم الهاء، وقرأ بعضهم بتشديد الطاء والهاء^(١)، ورجح هذه القراءة ابن جرير^(٢)، ومعناها: «يغتسلن»، ومعلوم أن الاغتسال لا يكون إلا بعد انقطاع الدم، ومما يرجح هذه القراءة - أعني: قراءة التشديد - أنه فرغ عليها الجملة الشرطية، وهي: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، فعلق إباحة إتيانهن على ما إذا تطهرن؛ أي: اغتسلن، والاعتسال: هو التطهر من الحدث الأكبر كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦]، وقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣]. وقوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾: هذا أمر إباحة بعد النهي؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢].

وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ ذكر فيه ابن جرير عدة أقوال، منها: فأتوهن من حيث أمركم الله باعتزالهن فيه، وهو الفرج، ورواه عن جمع من السلف^(٣)، ورجح أن المعنى: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: الطهر؛ فالمعنى: فأتوهن طاهرات لا حيض^(٤).

(١) قرأ عاصم في رواية أبي بكر، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ مشددة الطاء؛ والهاء مفتوحة، وقرأ الباقون ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ خفيفة والهاء مضمومة. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٨٢)، و«النشر» (٢/ ٢٢٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٧٣٢).

(٣) رواه عن ابن عباس في رواية ابن أبي طلحة وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم من السلف. ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٧٣٥-٧٣٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٧٤٠-٧٤٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾: ثناءٌ ووعدهٌ للتائبين إلى الله من الذنوب، والمتطهِّرين المتنزِّهين عن الأقدار والأنجاس.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ أي: الحيض، أو مكانه، ماذا يفعل بالنساء فيه؟ ﴿قُلْ هُوَ أَدَى﴾ قدرٌ أو محله ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ﴾ اتركوا وطأهنَّ ﴿فِي الْمَحِيضِ﴾ أي: وقته، أو مكانه ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ بالجماع ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ بسكون الطاءٍ وتشديدها والهاء، وفيه إدغامُ التاء في الأصل في الطاء؛ أي: يغتسلن بعد انقطاعه ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ للجماع ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ بتجنُّبه في الحيض، وهو القُبْل، ولا تعدوه إلى غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ﴾ يُثِيبُ وَيُكْرِمُ ﴿التَّوَّابِينَ﴾ من الذنوب ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ من الأقدار.

وقول المؤلف: (أي: الحيض...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ الْمَحِيضَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا مِيمِيًّا فَيَكُونُ بِمَعْنَى: الْحَيْضِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اسْمَ مَكَانٍ؛ أَي: مَكَانَ الْحَيْضِ وَهُوَ الْفَرْجُ، وَالْمَقْصُودُ: السُّؤَالُ عَنِ حُكْمِ مَعَامَلَةِ النِّسَاءِ حَالَ الْحَيْضِ؛ مَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ مِنْهُنَّ وَمَا يَحْرَمُ.

وقوله: (قدرٌ أو محله): هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى الْقَوْلَيْنِ فِي الْمُرَادِ بِالْمَحِيضِ. وقوله: (اتركوا وطأهنَّ): فَسَّرَ الْاِعْتِرَالَ بِتَرْكِ جَمَاعِ الْحَائِضِ. وقوله: (وقته أو مكانه): يُبَيِّنُ أَنَّ الْمَحِيضَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ﴾ فِي الْمَحِيضِ يُحْتَمَلُ أَنَّهُ اسْمُ زَمَانٍ؛ وَهُوَ وَقْتُ الْحَيْضِ، أَوْ اسْمُ مَكَانٍ؛ وَهُوَ الْفَرْجُ.

وقوله: (بالجماع): يُبَيِّنُ أَنَّ قَوْلَهُ: (لا تقربوا) مِنَ الْقُرْبَانِ؛ وَهُوَ مُبَاشَرَةٌ الْفِعْلِ، لَا مِنَ الْقَرَبِ بِمَعْنَى: الدنو من الشيء.

وقوله: (بسكون الطاء وتشديدها...) إلى آخره: يُشِيرُ إِلَى الْقِرَاءَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا بِسُكُونِ الطَّاءِ وَضَمِّ الْهَاءِ، مِنْ طَهَّرَ الثَّلَاثِي، وَالْأُخْرَى بِتَشْدِيدِ الطَّاءِ

والهاء، والأصل «يَتَطَهَّرْنَ» فَسُكِّنَتِ التَّاءُ وَقُلِبَتْ طَاءً وَأُدْغِمَتِ الطَّاءُ فِي الطَّاءِ، ومعنى: يطهرن؛ يغتسلن.

وقوله: (للجماع): تفسيرٌ للإتيان في قوله: ﴿فَأَتَوْهُنَّ﴾.

وقوله: (بتجنُّبه في الحيض...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ الأَمْرَ المُشَارَ إِليه فِي قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ هُوَ الأَمْرُ بِاعتزالهنَّ فِي قوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ﴾.

وقوله: (يُثَبِّبُ وَيُكْرِمُ): هَذَا تَأْوِيلٌ بِلِ تحريف؛ لِأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لِلْمَحَبَّةِ بِلازِمِهَا، فَإِنَّ مِنْ لا زِمِ مَحَبَّةِ اللهِ لِلْعَبْدِ الإِثَابَةُ وَالإِكْرَامُ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ حَقِيقَةِ المَحَبَّةِ عَنِ اللهِ؛ فَهُوَ تَأْوِيلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى التَّعْطِيلِ، وَهَذَا سَبِيلُ المَعْتَزِلَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ كالأشاعرة^(١)، وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالجماعةِ يُثَبِّتُونَ لِلَّهِ حَقِيقَةَ المَحَبَّةِ وَيَجْرُونَ النُّصُوصَ عَلَى ظاهِرِهَا مُؤْمِنِينَ بِهَا مُثَبِّتِينَ لِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ مِنْ غَيْرِ تَعْطِيلٍ وَلا تَحْرِيفٍ وَلا تَمَثِيلٍ وَلا تَكْيِيفٍ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَحاديثِهَا: «أَمْرُوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلا كَيْفٍ»^(٢).



(١) ينظر: «شرح الأصبهانية» (ص ٣٩)، و«مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٢٥-٢٢٦) (١٠/ ٦٩٧)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٣٨٣-٣٨٤)، و«بدائع الفوائد» (٣/ ٨٤٦)، و«التعليقات على المخالفات العقديّة في فتح الباري» (ص ١٠٦، رقم ٦٨)، (ص ١١٦، رقم ٧٦)، (ص ١٤٣، رقم ١٠١).

(٢) روي بألفاظ متقاربة عن مكحول والزهري، وحكاه الوليد بن مسلم عن مالك والثوري والليث والأوزاعي. ينظر: «التاريخ الكبير» لابن أبي خيثمة (رقم ٣٢٨٣ و٤٦٨٨)، و«السنة» للخلال (١/ ٢٥٩، رقم ٣١٣)، و«الشرعية» (٣/ ١١٤٦، رقم ٧٢٠)، و«الصفات» للدارقطني (رقم ٦٧)، و«الإبانة» لابن بطة (رقم ١٨٣)، و«أصول أهل السنة» (٣/ ٤٧٨، رقم ٧٣٥)، و«جامع بيان العلم» (٢/ ٩٤٣-٩٤٤، رقم ١٨٠١)، و«التمهيد» (٧/ ١٤٩)، و«ذم التأويل» لابن قدامة (رقم ٢١، ٢٤)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٢/ ٣٧٧، رقم ٩٥٥).

وقوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَيَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]:

يُخْبِرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ نِسَاءَهُمْ - وَهِيَ زَوْجَاتُهُمْ - مَزْدَرَعٌ لَهُمْ وَمَوْضِعُ حَرْثٍ لَهُمْ، بَوْضِعُ النَّطْفِ فِي أَرْحَامِهِنَّ، فَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ الْوَلَدُ؛ كَوْضِعِ الْحَبِّ فِي الْمَزْدَرَعِ مِنَ الْأَرْضِ، وَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ الزَّرْعُ وَالشَّجَرُ وَالْحَبُّ وَالثَّمْرُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ﴾: أَي: جَامِعُوا نِسَاءَكُمْ مِنْ أَيِّ وَجْهِ شِئْتُمْ، مِنْ قُبُلِهَا وَمِنْ دُبُرِهَا فِي مَوْضِعِ الْحَرْثِ وَهُوَ الْقَبْلُ، لَكِنْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى تَحْرِيمِ أَمْرَيْنَ: إِيْتَانِ النِّسَاءِ فِي أَدْبَارِهِنَّ، وَفِي مَكَانِ الْحَيْضِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا فِي الصَّحِيحِينَ: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَقُولُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: إِذَا أَتَى الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنْ دُبُرِهَا فِي قُبُلِهَا كَانَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ رَدًّا عَلَيْهِمْ^(١)، فَعَلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ الْفَرْقُ بَيْنَ إِيْتَانِ الْمَرْأَةِ مِنْ دُبُرِهَا فِي قُبُلِهَا، وَإِيْتَانِهَا فِي دُبُرِهَا، فَالْأَوَّلُ: حَلَالٌ بِالْإِتِّفَاقِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. وَالثَّانِي: حَرَامٌ لِمَا اسْتَفَاضَ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ الدَّالَّةِ عَلَى تَحْرِيمِ ذَلِكَ^(٢)، وَأَمَّا مَا رُوِيَ مِنَ الْآثَارِ الْمَخَالَفَةِ لِذَلِكَ؛ فَهِيَ بَيْنَ أَمْرَيْنَ: إِمَّا أَنَّهُ لَمْ تَصَحَّ، أَوْ تَكُونُ مَحْمُولَةً عَلَى الْمَعْنَى الْمَجْمَعِ عَلَى إِبَاحَتِهِ، وَهُوَ إِيْتَانِ الْمَرْأَةِ مِنْ دُبُرِهَا فِي قُبُلِهَا، كَمَا حَقَّقَ ذَلِكَ الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢٨)، ومسلم (١٣٣٥) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) النهي عن وطء النساء في أدبارهن رواه غير واحد من الصحابة؛ كخزيمة بن ثابت، وأبي هريرة، وابن عباس، وعلي بن طلق، وعبد الله بن عمرو، وأنس، وأبي بن كعب، وابن مسعود، وعقبة بن عامر، وعمر، وجابر بن عبد الله، وغيرهم، وإن كان في بعضها مقال لكن مجموعها يعطي قوة للخبر؛ خاصة مع ثبوت ما ورد عن الصحابة في تحريم هذا الفعل. ينظر: «شرح معاني الآثار» للطحاوي (٤٣/٣-٤٦)، و«نظم المتناثر» (ص ١٤٩)، رقم (١٥٩).

(٣) «أضواء البيان» (١/١٦٩-١٧٣)، و«العذب النمير» (٣/٥٥٥-٥٥٧). وانظر: «زاد المعاد» (٤/٢٥٧-٢٦٤).

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ^١ وَاتَّقُوا اللَّهَ^٢﴾: أي: قدّموا لأنفسكم من الأعمال الصالحة ما تجدونه عند الله موفور الأجر مشكوراً، ولا يشغلنكم عن ذلك التمتع بلدّات الدنيا، وبذا تظهر مناسبة قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ^١﴾ لِمَا قَبْلَهُ.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ^٢﴾: أي: اتقوا سخطه وعذابه باجتناّب محارمه.
 وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ^٣﴾: أي: يوم القيامة، فمجازيكم بأعمالكم حسنها وسيئها، وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ^١ وَاتَّقُوا اللَّهَ^٢﴾.
 وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ^٤﴾: أمر من الله لنبهه أن يُبشّر المؤمنين لِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ الْكَبِيرِ وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ^٥﴾ أي: محلّ زرعكم الولد ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ^٦﴾ أي: محلّه؛ وهو القبل ﴿أَنَّى^٧﴾ كيف ﴿سِتِّمْتُمْ^٨﴾ من قيام وقعود واضطجاع وإقبال وإدبار؟ نزل ردّاً لقول اليهود: مَنْ أَتَى امْرَأَتَهُ فِي قَبْلِهَا مِنْ جِهَةِ دُبْرِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ^٩﴾ العمل الصالح؛ كالتسمية عند الجماع ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ^{١٠}﴾ في أمره ونهيه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقَوُهُ^{١١}﴾ بالبعث، فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ^{١٢}﴾ الذين اتقوه بالجنة.

وقول المؤلف: (أي: محلّ زرعكم الولد): في هذا تشبيه المرأة أو رحم المرأة بالأرض التي يوضع فيها البذر، وتشبيه النطفة بالبذر والولد بالزرع كما جاء في الحديث: ((لا يحلّ لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره))^(١)، المعنى: لا يحلّ للمؤمن أن يطاء الحامل من غيره.

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٩٧) وأبو داود (٢١٥٨)، والطبراني في «الكبير» (٤٤٨٢) من طرق، عن محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن أبي مرزوق التجيبي، عن حنش الصنعاني، عن رويغ بن ثابت الأنصاري، به.

وقوله: (أي: محله...) إلى آخره: يقتضي أنّ إطلاق الحرث على المرأة مجازٌ مرسلٌ علاقته الحالية، ومحلُّ الحرث من المرأة هو القُبْلُ.
 وقوله: (كيف): تفسيرٌ لقوله: ﴿أَنْتِ سِتْنَمٌ﴾، وهذا إذن بآتيان المرأة في أيِّ حالٍ تكون عليها المرأة، وفي أيِّ مكانٍ، وفي أيِّ زمانٍ يشاؤه الرجل، إلا ما خصّه الدليل؛ كآتيانها في الحيض أو في الدبر، فهذان حرامٌ كما تقدّم.
 وقوله: (من قيامٍ وعودٍ...) إلى آخره: تفصيلٌ لأحوال المرأة المأذون بآتيانها فيها.

وقوله: (نزل ردًّا...) إلى آخره: إشارةٌ إلى سبب النزول.
 وقوله: (العمل الصالح...) إلى آخره: يُبين أنّ الآية شاملةٌ للقولين في المأمور بتقديمه؛ الأول: قدّموا الخير وهو العمل الصالح، والثاني: ذكر الله قبل الجماع بالتسمية والدعاء، كما جاء في الحديث قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: ((لو

= وهذا إسناد لا بأس به، رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبي مرزوق مولى تجيب - وهو ربيعة بن سليم أو ابن أبي سليم - فهو مجهول، وقال عنه الحافظ في «التقريب» (١٩٠٥) «مقبول»، وقال في موضع آخر: «ثقة»، وسماه حبيب بن شديد. «التقريب» (٨٣٥٢).
 وأخرجه الترمذي (١١٣١) من طريق يحيى بن أيوب، عن أبي مرزوق التجيبي، به. وقال الترمذي «هذا حديث حسن، وقد روي من غير وجه عن رويغ بن ثابت».
 وقد توبع أبو مرزوق؛ تابعه الحارث بن يزيد: أخرجه أحمد (١٦٩٩٢) من طريق يحيى بن إسحاق، عن ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن حنش الصنعاني، به.
 والحارث بن يزيد - وهو الحضرمي المصري - ثقة، «التقريب» (١٠٥٧)، لكن ابن لهيعة ضعيف وخلط بعد احتراق كتبه، «التقريب» (٣٥٦٣)، ويحيى بن إسحاق - وهو السليحيني - من قدماء أصحابه كما ذكر الحافظ في «التهذيب» في ترجمة حفص بن هاشم بن عتبة (٢/ ٤٢٠، رقم ٧٢٩).

فالحديث نرجو أنه حسن بطريقه، وقد صححه ابن حبان (٤٨٥٠)، وحسنه الترمذي (١١٣١)، والبزار (٢٣١٤)، والألباني في «الإرواء» (٢١٣٧)، و«صحيح أبي داود» (١٨٧٤).

أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا...)) الْحَدِيثُ (١).



(١) أخرجه البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٥) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٢٤) [البقرة: ٢٢٤-٢٢٥]:

ينهى الله -تعالى- عباده المؤمنين عن الحلف به سبحانه على ترك البر أو التقوى، أو ترك الإصلاح بين الناس، فقوله: ﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾؛ أي: ألا تَبَرُّوا ولا تَتَّقُوا ولا تُصْلِحُوا.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾؛ أي: لا تجعلوا الله مُعَرَّضًا للحلف به على ألا تَبَرُّوا ولا تَتَّقُوا ولا تُصْلِحُوا، وقيل: لا تجعلوا أيمانكم بالله عُرْضَةً؛ أي: مانعًا لكم عن البر والتقوى والإصلاح^(١)، ونظير هذه الآية في النهي عن الحلف على ترك البر والصلة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، نزلت في أبي بكر لما حلف ألا ينفق على مسطح؛ لخوضه في شأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(٢)، وبناءً على ما سبق من حلف ألا يفعل براً أو معروفاً، فالمشروع في حقه أن يفعل ما حلف على تركه ويكفر عن يمينه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((والله لا أحلفُ على يمينٍ فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيتُ الذي هو خيرٌ، وكفرتُ عن يميني))^(٣).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤): أي: سميعٌ لأقوالكم عليمٌ بما في قلوبكم، وسيجزئكم على أقوالكم وأعمالكم.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٥-١٢)، و«الكشاف» (١/٤٣٦-٤٣٧)، و«زاد المسير»

(١٩٤/١)، و«البحر المحيط» (٢/٤٣٩).

(٢) كما في حادثة الإفك التي أخرجها البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٦٦٢٣)، ومسلم (١٦٤٩)، من حديث أبي موسى الأشعري

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾: أي: لا يؤثِّمكم ولا يعاقبكم، فلا تجبُ عليكم الكفارةُ بالحنث فيه. وقوله: ﴿بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾: المراد باللغو: ما لا يترتبُ عليه شيءٌ من الأحكام، ولغو اليمين؛ قيل: المرادُ به ما يجري على اللسان من غير عقد القلب؛ كقول الرجل: «لا والله، وبلى والله»، وقيل لغو اليمين: هو حلفُ الإنسان على ما يظنُّ صدقَه فيه^(١).

وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: أي: ولكنَّ الإثمَ وجوبُ الكفارة بالحنث في الأيمان التي انعقد عليها القلبُ، فصارت من عمل القلب وكسبه قصدًا ونيةً وعزمًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٢): أي: كثيرُ المغفرةِ لذنوب عباده، حلِيمٌ لا يُعاجلُ بالعقوبة.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ﴾ أي: الحلف به ﴿عُرْضَةً﴾ علةً مانعةً ﴿لِأَيْمَانِكُمْ﴾ أي: لما حلفتُم عليه - سُمِّيَ باليمين لملابسته له - أن تفعلوه لـ ﴿أَنْ﴾ لا ﴿تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُضِلُّوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ فتكره اليمينُ على ذلك، ويُسنُّ فيه الحنثُ ويُكفِّرُ بخلافها على فعل البرِّ ونحوه فهي طاعة. المعنى: لا تمتنعوا من فعل ما ذكر من البرِّ ونحوه إذا حلفتُم عليه؛ بل اتتوه وكفروا؛ لأنَّ سببَ نزولها الامتناعُ من ذلك ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم. ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ﴾ الكائنِ ﴿فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وهو ما يسبقُ إليه اللسانُ من غير قصدِ الحلفِ؛ نحو: لا والله وبلى والله؛ فلا إثم فيه ولا كفارةٌ ﴿وَلَكِنْ﴾

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/ ١٤-٢٦)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٥٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٩٩-١٠٠).

يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴿١٠﴾ أَي: قَصَدْتُهُ مِنَ الْإِيمَانِ إِذَا حَثَمْتُ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِمَا كَانَ مِنَ اللَّغْوِ ﴿حَلِيمٌ﴾ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ عَنْ مُسْتَحَقِّهَا.

وقول المؤلف: (أي: الحلف به): تأول الكلام على حذف مُضَافٍ؛ فمعنى: لا تجعلوا الله: لا تجعلوا الحلفَ بالله.

وقوله: (علّة مانعة): تفسير للعرضة؛ أي: لا تجعلوا القَسَمَ بالله على ترك البرِّ والتقوى والإصلاح سبباً مانعاً من فعل البرِّ والتقوى والإصلاح.

وقوله: (لِمَا حَلَفْتُمْ عَلَيْهِ...) إلى آخره: هذا تفسير لقوله تعالى: ﴿لَا إِيمَانَكُمْ﴾، فاليمينُ تُطْلَقُ على لفظ القَسَمِ؛ كقولك: «والله»، وتُطْلَقُ على المقسَمِ عليه؛ كقولك: «لا أحج»، ففي الآية النهي عن أن يكون القَسَمُ: «والله» مانعاً من فعل الحجِّ المُقَسَمِ على تركه، وهذا على تفسير العُرْضَةِ بِالْعَلَّةِ الْمَانِعَةِ، وهذا ما مشى عليه المؤلف، ولهذا قال في تفسير: ﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾: «أَنْ لَا تَبَرُّوا».

وقوله: («أَنْ» لا): هذا تفسيرٌ لليمين التي نهى عن جعلها مانعاً من فعل البرِّ والتقوى والإصلاح. وقوله: (فَتُكْرَهُ الْيَمِينُ عَلَى ذَلِكَ): يريد: أَنَّ الْحَلْفَ عَلَى تَرْكِ الْعَمَلِ الْمَشْرُوعِ مَكْرُوهٌ، هَذَا إِذَا كَانَ مُسْتَحَبًّا، وَلِهَذَا قَالَ: (وَيُسَنُّ فِيهِ الْحَنْثُ)، أَمَّا إِذَا كَانَ وَاجِبًا؛ فَالْحَلْفُ عَلَى تَرْكِ حَرَامٍ؛ كَمَنْ حَلَفَ عَلَى تَرْكِ فَرِيضَةٍ مِنَ الْفَرَائِضِ، فَيَجِبُ الْحَنْثُ وَتَجِبُ الْكُفَّارَةُ.

وقوله: (بِخِلَافِهَا عَلَى فِعْلِ الْبَرِّ): يريد: أَنَّ الْحَلْفَ عَلَى فِعْلِ الْبَرِّ؛ كَقَوْلِهِ: وَاللَّهُ لِأَحْجَنْ، لَا عَلَى وَجْهِ النَّذْرِ؛ لَا يَكْرَهُ.

وقوله: (المعنى: لا تمتنعوا...) إلى آخره: يُبَيِّنُ بِذَلِكَ الْمَعْنَى الْمَقْصُودَ مِنَ النَّهْيِ فِي الْآيَةِ، وَيَشِيرُ إِلَى سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ، وَهُوَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَمْتَنَعُ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَةِ؛ لِأَنَّهُ حَلَفَ عَلَى تَرْكِهَا، فَنُهِيَ عَنِ الْاِمْتِنَاعِ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ مِنْ أَجْلِ الْيَمِينِ، وَأَمَرُوا بِالْحَنْثِ وَالْكَفَّارَةِ.

وقوله: (الكائن): هذا تقديرٌ مُتعلق الجار والمجرور في أيمانكم،
فالمعنى: اللغو الواقع في أيمانكم. وقوله: (وهو ما يسبق...) إلى آخره: هذا
تفسير اللغو في الأيمان.

وقوله: (أي: قصده...) إلى آخره: هذا تفسيرٌ لكسب القلوب، فقصدُ
القلب للقول والفعل هو كسبه وعمله، وهو معنى قوله تعالى في الآية الأخرى:
﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩].



وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِن عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧]:

هذا بيانٌ من الله لحكم من «ألى» من امرأته؛ أي: حلف على ألا يطأها أكثر من أربعة أشهر؛ كسنة، و«ألى»، و«اتلى»: حلف، فيؤلون: أي: يحلفون، ويقال: لمن وقع منه ذلك مؤل، وليمينه: الإيلاء. ومعنى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾: يُباح لهم الانتظارُ مُمتنعين عن وطء نساءهم مدة أربعة أشهر، فالتربُّصُ بمعنى: الانتظار، ومفهومُ التقييد بأربعة أشهر أنه ليس لهم الامتناع من الوطء فوق الأشهر الأربعة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن فَاءَ﴾: أي: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه؛ فكان منهم الوطء عند تمام المدة أو قبلها، وجوابُ الشرط: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾: أي: غفورٌ للمؤولين خطأهم رحيمٌ بهم بما شرع لهم من التربُّص وكفارة اليمين.

وقوله: ﴿وَإِن عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾: أي: فإن لم يفيئوا فقد وجب عليهم الطلاق، فإن طلقوا وإلا أجبرهم الحاكم على الطلاق، فإن فعلوا وإلا طلق عليهم، وجوابُ الشرط قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾: أي: سميعٌ لأقوال المؤلين، عليمٌ بنياتهم.

فعلم مما تقدّم أنّ المؤلي الذي يؤمر بالفيئة ويُجبر على الطلاق إذا امتنع هو الذي ألى أكثر من أربعة أشهر على وجه المضارّة للمرأة، أمّا إذا كان برضا المرأة رعايةً لأبيّ مصلحة؛ فليس له حكمُ المؤلي؛ لأنّ الحقّ لها، أمّا من ألى أربعة أشهر فأقل؛ فلا يدخل في حكم الآية، لكن يحرم قصد الإضرار بكلّ حال، فإن أتمّ المدة التي عينها فلا شيء عليه، وإن فاء في المدة فعليه كفارة اليمين، وكذا إذا فاء في مدة التربُّص أو بعدها، فإنّ عليه الكفارة، وإن طلق فلا كفارة عليه.

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي: يحلفون ألا يجامعوهنَّ ﴿تَرْبُصُ﴾ انتظارٌ ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا﴾ رجعوا فيها أو بعدها عن اليمين إلى الوطءِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم ما أتوه من ضرر المرأة بالحلف ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم. ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ أي: عليه، بأن لم يفيئوا؛ فليؤقعوه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقلوبهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بعزمهم، المعنى: ليس لهم بعد تَرْبُصٍ ما ذُكِرَ إِلَّا الفَيْئَةُ أَوْ الطَّلَاقُ.

وقول المؤلف: (ما أتوه من ضرر المرأة بالحلف): معناه: أن الله يغفر للمؤلي إذا فاء ما ترتب على الإيلاء من ضرر المرأة، وهذا مشروطٌ بالتوبة واستحلال المرأة، وأما ما ترتب على الفَيْئَةِ من الحنث في اليمين فإنه يُغفر بالكفارة.

وقوله: (عليه): يُبَيِّنُ: أَنَّ عَزَمَ يتعدى بـ«على»، ف﴿عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾؛ بمعنى: عزموا على الطلاق، فحُذِفَ حرفُ الجرِّ واتَّصَلَ الفعلُ بالمجرور فنُصِبَ به، وهذا ما يعرف بالحذف والإيصال، فجعل العزم على الطلاق مُقَابِلًا للفِيءِ، فدَلَّ ذلك على وجوبه، فَإِنْ طَلَّقَ وَإِلَّا طَلَّقَ عليه الحاكمُ، فالمعنى: إن لم يفِء عند تمام المدة فقد عزم على الطلاق، ولهذا قال بعض أهل العلم: «إذا تَمَّتْ المَدَّةُ ولم يفِء بانتهائه ولو لم يُطَلَّقْ»^(١)، والصواب: أنه إذا تمت المدة فإنه يُوقَفُ فيؤمَّرُ بالفَيْئَةِ أَوْ الطَّلَاقِ، فَإِنْ أَبَى الأمرين طَلَّقَ الحاكمُ^(٢)، وفي حكم هذه الآية اختلافاتٌ وتفريعاتٌ كثيرةٌ.

(١) وهو قول الحنفية. ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٣/٤٢٤).

(٢) وهو قول الجمهور مع اختلاف في إلزام الحاكم الطلاق إن أبى المؤلي. ينظر: «مواهب الجليل» (٤/٤٩٦-٤٩٧)، وتكملة «المجموع شرح المهذب» (١٩/٤٤) وما بعدها، و«المغني» (١١/٤٦)، و«المحلى» (٩/١٨٤-١٨٥).



وقوله: (المعنى: ليس لهم...) إلى آخره: يريد: أَنَّ معنى الآيتين: أَنَّ
المؤلفي بعد تربُّصِ أربعة أشهر لا بدَّ له من أحد الأمرين؛ إمَّا أَنْ يَفِئَ أو يُطَلَّقَ.



وقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

يُبيِّنُ تعالى حكم المطلقات طليقة أو طليقتين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فحكم هؤلاء المطلقات التربُّصُ مدَّةَ ثلاثة قروء؛ أي: الانتظار والامتناع عن النكاح في هذه المدَّة، والقروء: جمع قرء بالفتح، قيل: وبالضم، والمراد: بالقروء؛ قيل: الأطهار، وقيل: الحيض^(١)، كما يُبيِّنُ تعالى أنه لا يحلُّ لهنَّ في هذه المدَّة كتمان ما خلق الله في أرحامهنَّ من حمل أو حيض وأنَّ ذلك الكتمان لا يكون ممن تؤمن بالله واليوم الآخر؛ لما يترتب على كتمان الحيض أو الحمل من المفاسد المتعلقة بحقِّ الأزواج؛ كتطويل العدة أو تقصيرها وغير ذلك مما بيَّنه العلماء، ثم بيَّنَ تعالى أنَّ أزواجهنَّ ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ في مدَّة التربُّصِ إلى ما كُنَّ عليه قبل الطلاق، وهذا ما يُسمَّى بالرجعة، وشرط ذلك أن يريدوا بهذا الردِّ الإصلاح لا الإضرار، وهذا معنى قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾.

ثم بيَّنَ تعالى أنَّ للنساء على أزواجهنَّ مثل الذي لهنَّ عليهنَّ من أداء كلِّ منهنَّ ما عليه من الحقوق الواجبة شرعاً والجارية عرفاً، وقد فضَّلَ اللهُ الرجالَ على النساءِ درجةً فقال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وهي ما بينه تعالى بقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ۚ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، فدخل في ذلك كلُّ ما فضَّلَ به الرجالُ وحُصِّوا به من

(١) ينظر: «لسان العرب» (١/١٣٠)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٨٦-٨٧).

الأحكام مما ذكره المفسرون في تفسير الدرجة، ومن ذلك: قوامية الرجال على نسائهم وإمرتهم عليهنَّ ووجوب طاعتهنَّ لهم بالمعروف.
 وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢١٨): أي: قويٌّ غالبٌ، وفي ذلك تهديدٌ لمن يُخالف أمر الله أو يرتكب ما نهى عنه من الرجال والنساء، وهو تعالى حكيمٌ؛ أي: ذو حكمةٍ، ومن ذلك: حكمته فيما شرع لعباده من أحكام المطلقات وغير ذلك.

وبعد: فأهمُّ مسألةٍ تتعلق بهذه الآية: مسألة المراد بالقراء، فقد اختلف في ذلك العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين، فذهب كثيرون إلى أنَّ القروءَ الأطهارُ، وذهب آخرون كثيرون إلى أنَّ القروءَ الحيضُ، فعلى القولِ الأوَّل تنقضي عدَّة المطلقه الرجعية بشروعها في الحيضة الثالثة بعد الطلاق، وعلى القول الآخر - وهو أنَّ الأقرءَ الحيضُ - تنتهي عدَّتُها بطُهرها من الحيضة الثالثة، ولكلٍّ من الفريقين وجوهٌ من الاستدلال من الكتاب والسنة، وقد استوفى ذكرها الإمام ابن القيم في زاد المعاد، وذكر أنَّ من القائلين إنَّ الأقرءَ الحيضُ: الخلفاء الأربعة الراشدين؛ أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليًّا، واختار رَحِمَهُ اللهُ هذا القولَ ورَجَّحه، والله أعلم^(١).

وقد دلَّت الآية على أنَّ كلَّ مُطلقَةٍ عدَّتُها ثلاثة قروءٍ، وقد خرج من هذا العموم عددٌ من المطلقات:

الأولى: غير المدخول بها، فإنه لا عدَّة عليها؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

الثانية: المطلقة الحامل؛ فإنَّ عدَّتُها تنقضي بوضع الحمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

(١) ينظر: «زاد المعاد» (٥/٦٠٠) وما بعدها.

الثالثة والرابعة: الآيسة من المحيض والتي لم تحض؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ﴾، إلى قوله: ﴿فَعَدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤].

الخامسة: المطلقة البائن بينونة كبرى؛ وهي التي طلقها زوجها آخر ثلاث تطليقات، وقد ذهب جمهور العلماء إلى دخولها في الآية، وقالوا: إنها تتربص ثلاثة قروء لعموم الآية، وذهب بعض العلماء إلى أنها غير داخلية في المطلقات اللاتي يتربصن ثلاثة قروء؛ لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَعُوْلَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، والمطلقة ثلاثاً ليس بعلاها أحق بردها؛ لأنها لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، وعليه فيختص قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ بالرجعيات^(١).

﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ أي: ينتظرن ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ عن النكاح ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ تمضي من حين الطلاق، جمع قرء بفتح القاف؛ وهو الطهر أو الحيض، قولان. وهذا في المدخول بهن، أما غيرهن فلا عدة عليهن، بقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ وفي غير الآيسة والصغيرة فعدتهن ثلاثة أشهر، والحوامل فعدتهن أن يضعن حملهن كما في سورة الطلاق، والإماء فعدتهن قرآن بالسنة.

(١) والقول الأول هو قول الجمهور، بل قال ابن القيم: «بل الذي لا يعرف الناس سواه»، والقول الثاني - أي: أن عدتها حيضة واحدة - هو اختيار أبي الحسين بن اللبان، وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم في مواضع من كتبهما، وفي مواضع علّقوا القول به على ألا يكون الإجماع على خلافه. ينظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢ / ٣٤٢)، و«الأخبار العلمية من الاختيارات الفقهية» (ص ٤٢٣)، و«اختيارات شيخ الإسلام» للبرهان ابن القيم (ص ١٢٤)، و«زاد المعاد» (٥ / ٦٧٣-٦٧٤)، و«إعلام الموقعين» (٣ / ٣٠٠-٣٠١)، و«أحكام أهل الذمة» (٢ / ٧٤٧).

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد أو الحيض ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتْهُنَّ﴾ أزواجهن ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أي: بمراجعةهن ولو أبين ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أي: زمن التربُّص ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ بينهما، لا إضرار المرأة، وهو تحريض على قصده لا شرطٌ لجواز الرجعة، وهذا في الطلاق الرجعي، وأحق لا تفضيل فيه، إذ لا حقٌ لغيرهم في نكاحهن في العدة ﴿وَلَهُنَّ﴾ على الأزواج ﴿مِثْلَ الَّذِي﴾ لهم ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ من الحقوق ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعاً، من حُسن العشرة وتركِ الضَّرار ونحو ذلك ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فضيلةٌ في الحقِّ من وجوب طاعتهنَّ لهم؛ لِمَا ساقوه من المهر والإنفاق. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دَبَّرَهُ لَخَلْقِهِ.

وقول المؤلف: (ينتظرن): يريد: أن ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ لفظه خبرٌ، ومعناه: أمرٌ؛ فمعنى ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: لِيَتَرَبَّصْنَ. وقوله: (عن النكاح): يُبَيِّنُ أَنَّ المقصودَ من التربُّص منع أنفسهنَّ عن النكاح.

وقوله: (تمضي من حين الطلاق): يُبَيِّنُ أَنَّ مدَّةَ التربُّص من حين الطلاق إلى أن تمضي ثلاثة قُرُوء.

وقوله: (وهو الطُّهُرُ أو الحيض...) إلى آخره: تضمَّن كلامه ذكرَ الاختلاف في المراد بالقرء، وأنَّ حُكْمَ هذه الآية مختصٌّ بذوات الأقراء، وأنه خرج من عمومها الآيسة من المحيض، والتي لم تحض، والحامل؛ فقد بينَ حُكْمَهُنَّ في سورة الطلاق. كما خرج من عموم الآية غير المدخول بها؛ فإنه لا عدَّة عليها كما في آية الأحزاب ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾.

وقوله: (من الولد أو الحيض): تفسيرٌ لـ ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ وحرَّم عليهنَّ كتمانهُ.

وقوله: (بمراجعتهم...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ الرِّجْعَةَ حَقٌّ لِلزَّوْجِ، وَأَنَّهُ لَا يُعْتَبَرُ فِيهَا رِضَا الْمَطْلُوقَةِ. وقوله: (زمن التبرص): بيان لمرجع اسم الإشارة.

وقوله: (بينهما...) إلى آخره: تَضَمَّنَ كَلَامُهُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ ترغيب في حُسن القصد في الرجعة، وذلك بقصد الإصلاَح لا الإضرار بالمرأة، وَيُبَيِّنُ الْمُؤَلَّفُ أَنَّ قَصْدَ الإِصْلَاحِ لَيْسَ شَرْطًا فِي صِحَّةِ الرِّجْعَةِ، فَتَصَحُّ الرِّجْعَةُ وَلَوْ لَمْ يَرِدِ الإِصْلَاحُ، هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ؛ لِأَنَّ حُسْنَ النِّيَّةِ أَمْرٌ بَاطِنٌ لَا يُطَلَعُ عَلَيْهِ فِي الْغَالِبِ، فَيَشُقُّ اعْتِبَارُهُ فِي الرِّجْعَةِ^(١)، وَلَكِنْ يَجِبُ التَّذْكِيرُ بِهِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ خِلَافِهِ، كَمَا بَيَّنَّ الْمُؤَلَّفُ أَنَّ «أَحَقَّ» أَفْعَلٌ تَفْضِيلٌ عَلَى غَيْرِ بَابِهِ؛ فَالْمَعْنَى: بُعُولَتَهُنَّ مُسْتَحَقُّونَ لِرُدِّهِنَّ فِي زَمَنِ التَّبْرِصِ.

وقوله: (على الأزواج...) إلى آخره: فِيهِ بَيَانُ الْمَحْذُوفِ مِنَ الشَّرْطِ الْأَوَّلِ مِنَ الْجُمْلَةِ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ: (عَلَى الْأَزْوَاجِ)، وَبَيَانُ الْمَحْذُوفِ مِنَ الشَّرْطِ الثَّانِي مِنَ الْجُمْلَةِ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ: (وَلَهُمْ)، وَيُسَمَّى هَذَا احْتِبَاكًا^(٢) مَعَ بَيَانِ مُتَعَلِّقِ هَذَا الْوَجُوبِ وَالِاسْتِحْقَاقِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: (مِنَ الْحَقُوقِ مِنْ حَسَنِ الْعِشْرَةِ وَتَرْكِ الضَّرَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ)، وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ شَرْعًا وَعُرْفًا.

وقوله: (فضيلة...) إلى آخره: تَفْسِيرٌ لِلدَّرَجَةِ الَّتِي فَضِّلَ بِهَا الرِّجَالُ، وَهِيَ: وَجُوبُ طَاعَتِهِمْ عَلَيْهِنَّ بِسَبَبِ مَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ مِنَ الصَّدَاقِ وَغَيْرِهِ.

(١) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٦٧/٢)، و«المحرر الوجيز» (١/٥٥٩)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (١/٢٥٦)، و«فتح القدير» (١/٢٧١-٢٧٢)، و«أضواء البيان» (١/١٨٥).

(٢) الاحتباك: هو أن يحذف من الأول دلالة الثاني عليه، ومن الثاني ما ثبت نظيره في الأول، ومبنى هذه التسمية من الحبك وهو الشد والإحكام، وسماه الزركشي «الحذف التقابلي»، ومن أمثله: قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، والتقدير: «تدخل غير بيضاء وأخرجها تخرج بيضاء»، فحذف من الأول: تدخل غير بيضاء، ومن الثاني: وأخرجها. ينظر: «البرهان» للزركشي (٣/١٢٩)، و«الإتقان» للسيوطي (٥/١٦٢٢-١٦٢٤).

وقوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣٠﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: ٢٢٩-٢٣٠]:

يُبيِّنُ تعالى في هاتين الآيتين ما يملكه الرجل من الطلاق، وهو ثلاثٌ تطليقاتٍ تبينُ المرأةَ بعدها، وفي ذلك إبطالٌ لما كان عليه أهلُ الجاهلية من طلاق المرأة ومراجعتها بلا حدٍّ ينتهي إليه، وكلما طَلَّقَهَا وَأَوْشَكَتُ أَنْ تَنْقُضِي عَدَّتْهَا رَاجِعَهَا ثُمَّ طَلَّقَهَا ثُمَّ تَرَكَهَا، وَيَفْعَلُ ذَلِكَ إِضْرَارًا بِهَا، فَقَصَرَهُمْ تَعَالَى عَلَى ثَلَاثٍ، فَلَا تَحِلُّ بَعْدَ الثَّلَاثَةِ لِمُطَلِّقِهَا حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، وَيَطُؤَهَا ثُمَّ يُطَلِّقُهَا وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَوَانِعِ الْإِقْدَامِ عَلَى الطَّلَاقِ، وَفِي هَذَا الْبَيَانِ مِنَ اللَّهِ أَنَّهُ يُخَيِّرُ بَعْدَ الطَّلَاقِ الْأُولَى وَبَعْدَ الثَّانِيَةِ بَيْنَ إِمْسَاكِهَا - وَهُوَ: رُدُّهَا؛ أَيْ: الْمَرَاجَعَةَ، مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ بِنِيَّةِ الْإِصْلَاحِ - أَوْ تَسْرِيحِهَا مَعَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهَا بِتَرْكِهَا حَتَّى تَنْقُضِي عَدَّتْهَا، فَتَبِينُ مِنْهُ بَيْنُونَةً صَغْرَى، فَتَكُونُ أَمْلِكُ لِنَفْسِهَا، فَلَا يَمْلِكُ مُطَلِّقُهَا رَجْعَتَهَا إِلَّا بِرِضَاهَا وَبِعَقْدٍ جَدِيدٍ، فَإِنْ طَلَّقَهَا الثَّلَاثَةَ بَانَ مِنْهُ بَيْنُونَةً كَبْرَى؛ فَلَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ زَوْجًا حَقِيقِيًّا لَا بِنِيَّةِ التَّحْلِيلِ، وَيَطُؤَهَا كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ فِي قِصَّةِ امْرَأَةِ رِفَاعَةَ^(١)، فَإِنْ نَكَحَتْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ثُمَّ طَلَّقَهَا الزَّوْجَ الثَّانِي؛ حَلَّتْ لَزَوْجِهَا الْأَوَّلِ بِشَرَطِ أَنْ تَظَنَّ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا الْأَوَّلَ أَنَّهُمَا سَيُقِيمَانِ أَحْكَامَ اللَّهِ فِيمَا بَيْنَهُمَا، وَهِيَ: حُدُودُ اللَّهِ الَّتِي حَدَّهَا لِكُلِّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ

(١) سيأتي تخريجه في موضعه (ص ٤٩٣).

مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ، ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [٣٠].

وبمناسبة ذكر الطلاق وأن الرجل قد يعضل المرأة التي يريد طلاقها؛ بين سبحانه أنه لا يحلُّ للزوج أن يفعل ذلك ليأخذ شيئاً مما آتاهما كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩]، ثم استثنى سبحانه من ذلك ما إذا خاف الزوجان أو أهلها أو ولاة الأمر ألا تستقيم حياتهما الزوجية بأن لا يُقيما حدودَ الله فيما بينهما، فلا جناح عليهما حينئذٍ فيما افتدت به المرأة من مالها من مهرٍ وغيره لیسرحها الزوج.

﴿الطَّلَاقُ﴾ أي: التطليق الذي يُراجع بعده ﴿مَرَّتَانٍ﴾ أي: اثنتان ﴿فَإِمْسَاكُ﴾ أي: فعليكم إمساكهنَّ بعده بأن تُراجعوهنَّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ من غير ضرارٍ ﴿أَوْ تَسْرِيحٍ﴾ أي: إرسالهنَّ ﴿بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهور ﴿شَيْئاً﴾ إذا طلقتموهنَّ ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي: الزوجان ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: لا يأتيا بما حدّه لهما من الحقوق، وفي قراءة «يُخَافَا» بالبناء للمفعول. ف«أَلَّا يُقِيمَا»: بدلُ اشتمال من الضمير فيه، وقرئ بالفوقية في الفعلين ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ نفسها من المال ليطلقها، أي: لا حرج على الزوج في أخذه ولا الزوجة في بذله. ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الزوج بعد الشنتين ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ﴾ أي: بعد الطلقة الثالثة ﴿حَتَّى تَنْكِحَ﴾ تتزوج ﴿زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ ويطأها كما في الحديث رواه الشيخان ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: الزوجة

وَالزَّوْجِ الْأَوَّلِ ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ إِلَى النِّكَاحِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ﴾ الْمَذْكُورَاتِ ﴿حُدُودُ اللَّهِ يَبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
يَتَدَبَّرُونَ.

وقول المؤلف: (التطليق الذي يُراجع بعده): عبّر عن الطلاق بالتطليق؛ لبيان أنّ الطلاق اسمٌ مصدر بمعنى التطليق، ثم يُبين أنّ المراد بالطلاق هو الطلقة الأولى والطلقة الثانية؛ لأنّه الطلاق الذي تجوز بعده الرجعة ما دامت المطلقة في العدة.

وقوله: (اثنتان): أي: طلقتان، وعبّر عن الطلقة بالمرّة؛ للدلالة على استقلال كلّ منهما، لئلا تكون بلفظٍ واحد فتكون الطلقة الثانية بعد الأولى لفظاً وزمناً.

وقوله: (فعليكم إمساكهنّ...) إلى آخره: يُبين أنّ «إمساك» مبتدأٌ وخبره محذوفٌ تقديره: فعليكم إمساكهنّ، وذلك لمراجعتهنّ.

وقوله: (أي: إرسالهنّ): يريد: أنّ المراد بالتسريح تركهنّ حتى تنقضَي عدتهنّ فيبينّ منهم، وعبّر عن ذلك بالإرسال، وهذا هو الصواب في المراد بالتسريح في هذا الموضع، خلافاً لمن قال أنّ المراد بالتسريح أن يُطلقها طلقةً
ثالثةً^(١).

(١) وهو قول السدي والضحاك، واختاره الجصاص والواحدي وألّكيا الهراسي والقاضي أبو يعلى والرازي وابن كثير، وردوا القول الأول من أوجه أوصلها الرازي لأربعة، وضعفوا الحديث الوارد في تفسير الآية؛ لإرساله. ينظر: «تفسير الطبري» (٤/١٣١-١٣٤)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٢/٨٧-٨٨)، و«التفسير البسيط» (٤/٢٢٣)، و«أحكام القرآن» لألّكيا الهراسي (١/١٧٣)، و«تفسير الرازي» (٦/٤٤٣-٤٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (١/٦١١).

وقوله: (أيها الأزواج): يُبينُ أَنَّ الخطابَ في قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾

للأزواج.

وقوله: (من المهور): بيانٌ للمراد بالموصول في قوله: ﴿مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾. وقوله: (إذا طلقتموهن): يُبينُ أَنَّ تحريمَ الأخذ من مهور النساء في هذه الآية في حال تطليقهن؛ لأنَّه مظنةٌ للأخذ. وقوله: (أي: لا يأتيها بما حدَّه لهما من الحقوق): تفسيرٌ لقوله: ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾، وقد تضمَّن كلامه بيانَ المراد بحدود الله؛ بأنها الحقوقُ التي فرضها الله وحدَّها على كلِّ من الزوجين للآخر، وأنَّ إقامتها إيتاؤها وأداؤها.

وقوله: (وفي قراءة...): إلى آخره: يُبينُ أَنَّ فعل «يخاف» قرئَ بضمِّ الياء^(١)، فالفعلُ مبنيٌّ للمفعول، ونائبُ الفاعل هو الألف؛ لأنَّه ضميرُ الاثنين، وعلى قراءة الجمهور: الألفُ فاعلٌ؛ لأنَّ الفعلُ مبنيٌّ للمعلوم. وقوله: (وُقرئَ بالفوقية في الفعلين): يريد: أَنَّ فعلي: «يخافا، ويقيما» قرئتا بالفوقية، وهي: التاء، فتكون القراءة ﴿إِلَّا أَنْ تَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا﴾، وهي مفتوحةٌ في الأول ومضمومةٌ في الثاني^(٢).

وقوله: (نفسها): تقدير لمفعول ﴿افْتَدَتْ﴾، فالمعنى: لا جناح على الزوج فيما أخذ ولا على المرأة فيما أعطت؛ كما قاله المؤلِّفُ في العبارة التالية. وقوله: (بعد الثنتين): أي: طلقها طلقاً ثالثة.

وقوله: (تزوج): تفسيرٌ لـ ﴿تَنْكِحَ﴾، وهو تفسيرٌ للنكاح بالعقد، وهو تفسيرٌ صحيحٌ، وأمَّا اشتراطُ الوطءِ فلا تدلُّ عليه الآية، لكن علمُ بالسنة كما ذكره المؤلِّفُ في قوله: (ويطأها...) إلى آخره.

(١) قرأ أبو جعفر وحمزة ويعقوب: ﴿يَخَافَا﴾ بضم الياء، وقرأ الباقون ﴿يَخَافَا﴾ بفتح الياء. ينظر: «السبعة» (ص ١٨٢)، و«النشر» (٢/٢٢٧).

(٢) لم نجد لها في كتب القراءات المتواترة ولا الشاذة؛ وهي قراءة شاذة ذكرها البيضاوي (١/١٤٢)، وأبو السعود (١/٢٢٦)، والألوسي (١/٥٤٣).

وقوله: (كما في الحديث): يُشير إلى قصة امرأة رفاعة التي طَلَّقَهَا ثلاثاً، فنكحت بعده ابنَ الزَّبير، فأرادتْ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى رِفاعَةَ، فقال لها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتِكَ))^(١).

وقوله: (إلى النكاح بعد انقضاء العِدَّةِ): أي: يتراجعا إلى النكاح بعقدٍ جديدٍ بعد انقضاء العِدَّةِ من الزوج الثاني.

وقوله: (المذكورات): يعني: الأحكام المتقدِّمة.

وقوله: (يتدبَّرون): فَسَّرَ العِلْمَ بالتدبُّر؛ لِأَنَّ التَّدبُّرَ طَرِيقُ العِلْمِ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآيَاتُ مِنَ الحِكْمِ والأَحْكامِ.

وبعد: فقد اشتملت الآيتان على ضمائر جمع المخاطبين، والمراد بهم: الأزواج؛ إِلاَّ قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا﴾ فالخطابُ للحكَّام، وهو نوعُ التفات، وكلُّ ما في الآيتين من ضمير التثنية فالمرادُ به الزوجان، وكلُّ ما اتصل منها في فعلٍ فهو في موضعِ رفعِ فاعلٍ؛ إِلاَّ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ بضمِّ الياء على البناء للمفعول، فألِفُ الاثنتين في موضعِ رفعِ نائبِ فاعلٍ، والمصدرُ المؤولُ ﴿أَلَّا يُقِيمَا﴾ على هذه القراءة بدلُ اشتمالٍ من نائبِ الفاعل، وقد ذكره المؤلِّفُ، وعلى القراءة المشهورة المصدرُ المؤولُ في موضعِ نصبِ مفعول به.



(١) أخرجه البخاري (٢٦٣٩)، ومسلم (١٤٣٣)، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَذَكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٢٣١]:

يأمر الله في هذه الآية الأزواج إذا طلقوا زوجاتهم طلاقاً رجعيّاً - وهو: الطلقة الأولى والثانية، المذكور في قوله تعالى: ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ - يأمرهم تعالى إذا طلقوا نساءهم ﴿فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: قاربن نهاية العدة؛ أن يمسكوهن بمراجعتهن إن شاؤوا، أو يسرحوهن بتركهن حتى تنقضي عدتهن، ولا بدّ أن يكون الإمساك أو التسريح بالمعروف؛ أي: على الوجه الذي لا ضرر فيه ولا مخالفة شرعية.

ثم نهى تعالى عن إمساكهن لأجل المضارة لهنّ، فإن ذلك اعتداء لحدود الله، وبينّ تعالى أنّ من فعل ذلك فقد ظلم نفسه بمعصية الله. ثم نهى تعالى عن اتخاذ آيات الله هزواً، وهي: أحكامه التي بينها؛ باتخاذها وسيلة إلى ما حرم. ثم أمر بذكر نعمة التي أنعم بها على عباده، وأعظم ذلك ما أنزله ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾: القرآن، ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾: السنّة، ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾: أي: يعظكم بما أنزل من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد ترغيّاً وترهيّاً. ثم أمر بتقوى الله، وتلك هي الوصية الشاملة لكلّ ما تقدّم.

ثم أخبر تعالى أنّه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ ترغيّاً لمن امتثل أوامر الله، وترهيّاً لمن خالف ذلك، فالمعنى: إنّ الله بكلّ شيءٍ عليمٌ، وسيجزيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ قاربن انقضاء عدتهنّ
﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بأن تراجعوهنّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ من غير ضرارٍ ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾
﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ اتركوهنّ حتى تنقضي عدتهنّ ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ﴾ بالرجعة

﴿ضِرَارًا﴾ مفعولٌ لأجله ﴿لِتَعْتَدُوا﴾ عليهنَّ بالإلجاءِ إلى الافتداءِ أو التطلقِ وتطويلِ الحبسِ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضها إلى عذابِ الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ مهزوءًا بها بمخالفتها ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلامِ ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ الْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ﴾ ما فيه من الأحكامِ ﴿يَعْظُمُ بِهِ﴾ بأن تشكروها بالعمل به ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ.

وقولُ المؤلِّفِ: (قارِبِنَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهِنَّ): فسَّرَ بلوغَ الأجلِ بالمقاربة، وهو قولُ الجمهور^(١)؛ لأنه بعد انقضاء العِدَّةِ لا تخيير؛ لأنَّ التخييرَ بين الإمساكِ والتسريحِ، في وقت تَرْبُصِ المطلقاتِ، وهي: العِدَّةُ.

وقولُه: (بأنَّ تُراجِعوهنَّ) إلى قولِه: (اتركوهنَّ حتى تنقضي عِدَّتِهِنَّ): فيه تفسيرُ الإمساكِ بالمراجعةِ في العِدَّةِ، والتسريحِ بتركِ المراجعةِ حتى تنقضي العِدَّةُ، والمعروفُ يتضمَّنُ تركَ الضَّرارِ وفعلَ الإحسانِ، وهو مطلوبٌ في حالِ الإمساكِ والتسريحِ.

وقولُه: (مفعولٌ لأجله): فالمعنى: لا تُراجِعوهنَّ لأجلِ مُضارتهنَّ، بل لقصدِ الإصلاحِ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].
وقولُه: (عليهنَّ بالإلجاءِ...) إلى آخره: فيه بيانٌ أنَّ قصدَ الإضرارِ في الإمساكِ اعتداءٌ على المطلقاتِ وظلمٌ لهنَّ.

وقولُه: (بتعريضها إلى عذابِ الله): بيانٌ لوجهِ أنَّ ظلمَ الإنسانِ لغيره فيه ظلمٌ لنفسه بتعريضها لعذابِ الله.

وقولُه: (مهزوءًا بها): بيانٌ أنَّ هُزُوًا مصدرٌ؛ بمعنى: اسمِ المفعولِ.



(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/١٧٨-١٨٣)، و«التفسير البسيط» (٤/٢٣٥)، و«المحرر الوجيز» (١/٥٦٨)، و«تفسير ابن كثير» (١/٦٢٩).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمُ آزَكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢٣٢]:

ينهى الله أولياء النساء إذا طلقهن أزواجهن طلاقاً رجعيّاً فانقضت العدة فرغب أزواجهن في نكاحهن نكاحاً جديداً ورضيت المرأة بنكاح زوجها؛ ينهى تعالى الأولياء عن عضلهم؛ أي: منعهم من نكاح أزواجهن بعد الطلاق، والبينونة إذا تراضى الأزواج والزوجات على النكاح على الوجه المشروع، فالخطاب في أول الآية للأزواج، وفي قوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ للأولياء، وفي قوله: ﴿ذَلِكَمُ آزَكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ للجميع، وقيل: الخطاب من أول الآية لجميع المؤمنين، وتختص كل طائفة منهم من هذا الخطاب بما يناسبهم، فالطلاق من الأزواج؛ فهم المخاطبون في قوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، والعضل يكون من أولياء النساء؛ فهم المخاطبون بقوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾^(١).

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار وأخته، حين منعها من مراجعة زوجها الذي طلقها فبانت منه، ثم رغب في نكاحها ورغبت أخت معقل بنكاح زوجها، فلما نزلت الآية ترك معقل أخته؛ فنكحت زوجها نكاحاً جديداً^(٢).

(١) ينظر: «الكشاف» (٤٥٤/١)، و«المحرر الوجيز» (٥٦٩/١)، و«البحر المحيط» (٤٩٢-٤٩٣)، وهناك قول ثالث: وهو أن الخطاب كله للأزواج حتى العضل، ذكره البغوي (٢٧٦/١)، والرازي (٤٥٤/٦).

(٢) أصل الحديث أخرجه البخاري (٤٥٢٩) (٥١٣٠) (٥١٣١)، وله روايات تنظر: في «أسباب النزول» (ص ٨٠-٨٢)، و«العجاب» (١/٥٩٠-٥٩٣). وغالب المفسرين ذكروا هذا القول دون غيره، وصححه ابن كثير، وقد صرح بأن سبب النزول كان في معقل بن يسار: الحسن البصري، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم. ينظر: «تفسير الطبري» (٤/١٨٧-١٩١)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٣١٠-٣١١)، و«تفسير ابن كثير» (١/٦٣١-٦٣٢).

وقوله: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ﴾: الإشارة إلى ما تقدّم بيانه من الأحكام موعظة من الله لأهل القلوب الحيّة.

وقوله: ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: يدلُّ على أَنَّ المؤمنين بالله واليوم الآخر هم المنتفعون بالموعظة.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾: أي: العمل بهذه الأحكام أركى لنفوسكم وأصلح لأعمالكم وأطهر لكم مما يدنّس نفوسكم ويُفسد أعمالكم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١): أي: يعلم ما فيه الخير لكم فيهديكم إليه، وما فيه شرٌّ عليكم فينهاكم عنه، وأنتم لا تعلمون شيئاً من ذلك، إلا ما علّمكم ربكم، فافعلوا ما أمركم به، واجتنبوا ما نهاكم عنه.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انقضت عِدَّتُهُنَّ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ خطابٌ للأولياء؛ أي: تمنعهنَّ من ﴿أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ المطلّقين لهنَّ؛ لأنَّ سببَ نزولها أَنَّ أُخْتَ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ طَلَّقَهَا زَوْجَهَا، فَأَرَادَ أَنْ يُرَاجِعَهَا فَمَنَعَهَا مَعْقِلٌ، كما رواه الحاكم^(١) ﴿إِذَا تَرَاضَوْا﴾ أي: الأزواج والنساء ﴿بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعاً ﴿ذَلِكَ﴾ النهي عن العضل ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لأنَّه المنتفعُ به ﴿ذَلِكَ﴾ أي: تركُ العضلِ ﴿أَرْكَى﴾ خَيْرٌ ﴿لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ لكم ولهنَّ؛ لِمَا يُخْشَى عَلَى الزَّوْجَيْنِ مِنَ الرَّيْبَةِ بسببِ العِلاقَةِ بينهما ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه المصلحةُ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك؛ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ.

(١) «المستدرک» (٢٧١٩)، (٣١٠٧)، وأصل الحديث في البخاري (٤٥٢٩)، (٥١٣٠)، (٥١٣١)، كما تقدم.

وقول المؤلف: (انقضت عدتهن): تفسير بلوغ المطلقات أجلهن،
 ففرق بين بلوغ الأجل في هذه الآية وفي الآية التي قبلها، فبلوغ الأجل في
 الآية الأولى مقارنةً انقضاء العدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
 سَرَحوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣١]، والمراد بالإمسك: الرجعة، وهذا لا يكون إلا قبل
 انقضاء العدة. وبلوغ الأجل في الآية الثانية؛ المراد به: انقضاء العدة؛ لقوله
 تعالى: ﴿فَلَا تَعْضَلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ﴾، وعضل النساء أن ينكحن أزواجهن لا
 يكون إلا بعد انقضاء العدة^(١).

وقوله: (شرعاً): أي: التراضي على وجه مآذون فيه شرعاً.

وقوله: (النهي عن العضل): خص اسم الإشارة بالنهي عن العضل؛ لأنه
 أقرب الأحكام المذكورة، والظاهر أن اسم الإشارة راجع لكل ما تقدم من
 الأحكام.

وقوله: (لأنه المنتفع به): بيان لعلّة تخصيص الوعد بمن ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

وقوله: (ترك العضل): خص اسم الإشارة بترك العضل، والظاهر أنه
 راجع إلى العمل بكل ما تقدم من الأوامر والنواهي.

وقوله: (لما يخشى على الزوجين...): إلى آخره: بيان لسبب الترغيب في
 العمل بالأحكام، وهو قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

وقوله: (فاتبعوا أمره): أي: إذا كان الله ﴿يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛
 فالواجب اتباع ما يأمر الله به، وترك اتباع الهوى.



(١) ينظر: «تفسير الشافعي» جمع أحمد الفران (١/٣٧٨)، و«التفسير البسيط» (٤/٢٣٨)،
 و«المحرر الوجيز» (١/٥٧٠)، و«تفسير القرطبي» (٣/١٥٩).

وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَالِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدَيْهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣٣]:

يأمر تعالى الوالدات المطلقات بإرضاع أولادهن حولين كاملين، فإن قوله: ﴿يُرْضَعْنَ﴾ خبر بمعنى الأمر؛ كقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَضَّعْنَ﴾، وليس المراد وجوب الإرضاع على الأم؛ بل المراد بيان مدة الإرضاع، وأنها عامان^(١)، والعام يُقال له حولٌ.

وقوله: ﴿كَامِلَيْنِ﴾: يدلُّ على اعتبار إتمام الحولين، وجاء هذا الوصف لأنَّ العرب قد تُعبرُ بالحولين عن حولٍ وبعض الآخر، وباليومين عن يومٍ وبعض الآخر؛ كقوله: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(٢).

وقوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾: أي: هذا الحكم - وهو: الإرضاعُ إلى تمام الحولين - راجعٌ إلى إرادة الأبوين ذلك إذا اتفق الوالدان على إتمام الرضاعة، فإنَّ المدةَ المعتبرة لرضاع الطفل حولان، ولذا دلَّت السنَّةُ على أنَّ الرضاعَ المحرَّم ما كان في الحولين، دون الرضاع بعدهما^(٣)، فعلم أنَّه لا يجوز

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/١٩٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٣١١-٣١٢)، و«المحرر الوجيز» (١/٥٧١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٢٠٠-٢٠١)، و«الكشاف» (١/٤٥٥)، و«البحر المحيط» (٢/٤٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢/٤٣١).

(٣) لما أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٨/٣٩٩)، والدارقطني (٤٣٦٤)، والبيهقي (١٥٧٦٥) من طريق الهيثم بن جميل، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لا رضاع إلا ما كان في الحولين)).

قال ابن عدي: «وهذا يعرف بالهيثم بن جميل، عن ابن عيينة مسندًا، وغير الهيثم يوقفه على ابن عباس»، وبنحوه قال الدارقطني. والهيثم هذا قال عنه ابن عدي: «ليس بالحافظ ويغلط =

الفظام قبل تمام الحولين إلا باتفاق الأبوين عن تراضٍ وتشاورٍ؛ لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ أي: فطامًا، ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

ثم بين تعالى ما يجب للوالدات المرضعات على الآباء من النفقة؛ وهي: الرزق والكسوة، وذلك قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: على المولود له - وهو الأب - ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾؛ أي: رزق الأمهات المرضعات، وهذه النفقة أجرة إرضاعهن، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بِئِنَّكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦]؛ أي: المعروف شرعاً وعرفاً، وهذا مما يدل على أن المراد بالوالدات في الآية: المطلقات^(١)، فإن التي في عصمة الزوج تجب نفقتها وإن لم يكن لها طفل تُرضعه، وبين سبحانه أن ما يجب على الأب من النفقة للأم أجرة هو بحسب الوسع؛ فقال

= الكثير على الثقات»، وقد خولف؛ فرواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٣٩٠٣)، وسعيد بن منصور في «السنن» (٩٨٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٧٩٣٠) من طريق سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس موقوفاً، والموقوف أصح. وله طرق أخرى موقوفة؛ فقد أخرجه بنحوه مالك في «الموطأ» (٢٢٣٦) عن ثور بن زيد، عن ابن عباس موقوفاً. وأخرجه ابن أبي شيبة (١٧٩٢٧-١٧٩٢٨)، (١٧٩٢٩) موقوفاً على ابن مسعود، وعلي بن أبي طالب. وأخرجه الدارقطني (٤٣٦٥) موقوفاً على عمر.

وصحح وقفه: البيهقي (١٥٧٦٤)، وابن عبد الهادي في «التنقيح» (٤٥٣/٤-٤٥٤). قال الترمذي (١١٥٢): «والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم: أن الرضاة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئاً».

(١) قاله مجاهد والزهري في جماعة آخرين من السلف، وهو ما جزم به الطبري في فاتحة كلامه على هذه الآية، واختاره: البغوي، وابن عطية، والطاهر بن عاشور. ينظر: «تفسير الطبري» (١٩٩/٤)، (٢٠٦/٤)، و«تفسير البغوي» (٢٧٧/١)، و«المحرر الوجيز» (٥٧١/١)، و«التحرير والتنوير» (٤٢٩/٢).

تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: طاقتها، وهو ما يدخل تحت القدرة وتَسَعُّ له؛ كما قال في سورة الطلاق: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

ثم نهى تعالى أَنْ تُضَارَّ والدَةُ بولدها؛ كامتناعها عن إرضاعه أو حضانتها مُضَارَّةً لوالده، أو يُضَارَّ المولود له - وهو الأب - بولده؛ كمنع والدته من إرضاعه مُضَارَّةً لها، أو انتزاعه منها.

و﴿تُضَارَّ﴾: فعلٌ مُضَعَّفٌ، يحتمل أن يكون مسنداً للفاعل أو نائب فاعل، وعند فك الإدغام؛ إذا كُسرت العينُ فالفعلُ مُسند للفاعل؛ فالتقدير: لا تضارِرِ والدَةُ بولدها، وإن فُتحت العينُ كان مُسنداً لنائب الفاعل، والتقدير: لا تضارِرِ.

وقوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُ﴾: أي: ولا يُضَارَّ مولودُ له بولده، ونهْيُ الوالدةِ والمولود له عن المضارَّة يدلُّ أيضاً على أَنَّ المراد بالوالدات: المطلقات؛ لأنَّ المضارَّة أكثرُ ما تنشأ مع الفرقة، فلذا جاء النصُّ بالنهي عنها، وثمَّ دليلٌ ثالثٌ؛

وهو أَنَّ هذه الآية جاءت في سياق أحكام المطلقات، كما جاء قوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَإِن كُنْ أُولَاتٍ حَمَلٌ﴾ أي: المطلقات، ﴿فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِن أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ...﴾ الآية [الطلاق: ٦]، ذكر هذه الوجوه الطاهرُ ابنُ

عاشور^(١)، وهو ما جزم به الإمامُ ابنُ جرير في فاتحة كلامه على هذه الآية؛ إذ قال: «يعني تعالى ذكره بذلك: والنساء اللواتي بنَّ من أزواجهنَّ ولهنَّ أولادٌ قد ولدنهم من أزواجهنَّ قبل بينوتهنَّ منهم بطلاق، أو ولدنهم منهم بعد فراقهم إياهنَّ...» إلى آخره، كما اختار رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ قوله تعالى: ﴿يَرْضَعْنَ﴾ ليس أمراً يدلُّ على وجوب إرضاعهم؛ بل لبيان أَنَّ الوالداتِ أحقُّ بإرضاع الأولاد من غيرهنَّ،

(١) ينظر: «التحريير والتنوير» (٢/٤٢٩-٤٣٠).

قال **رَحْمَةُ اللَّهِ** في الآية: «يعني بذلك: أنهم أحقُّ برضاعهم من غيرهنَّ، وليس ذلك بإيجابٍ من الله تعالى ذكره عليهنَّ رضاعهم...» إلى آخر كلامه^(١).

وقوله تعالى: **﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾**: عطفٌ على قوله: **﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾**، وجملة **﴿لَا تَكْلَفُ﴾** و **﴿لَا تَضَارُّ﴾** معترضان، وقد كثرت أقوال المفسرين في المراد بـ **﴿الْوَارِثِ﴾** في هذه الآية، وقد استوفاهما ابنُ جريرٍ ورواهما بأسانيد^(٢)، ولخصها ابنُ الجوزي فقال: «قوله تعالى: **﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾** فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه وارثُ المولود»، وذكر مَنْ قال به، ثم قال: «واختلف أربابُ هذا القول، فقال بعضهم: هو وارثُ المولود من عصبته، كائناً مَنْ كان»، وذكر مَنْ قال به من السلف، ثم قال: «وقال بعضهم: هو وارثُ المولود على الإطلاق من الرجال والنساء»، قال: «وقال آخرون: هو مَنْ كان ذا رحمٍ محرمٍ من ورثة المولود». ثم ذكر القول الثاني، وهو أن المراد بالوارث هاهنا: وارثُ الوالد، قال: والثالث: أن المراد بالوارث: الباقي من والدي الولد بعد وفاة الآخر، قال: «والرابع: أنه أريد بالوارث: الصبيُّ نفسه، فالنفقةُ عليه، فإن لم يملك شيئاً، فعلى عصبته»^(٣).

قلت: والراجحُ من هذه الأقوالِ القولانِ الأوَّلانِ؛ أحدهما: العصبَةُ من ورثة المولود، والثاني: أن المراد: ورثة المولود مُطلقاً من الرجال والنساء؛ لعموم الوارث في الآية، وأمَّا تخصيصُ العصبَةِ فلأنَّهم هم الذين يعقلون عنه^(٤)، وهذه الآية أصلٌ في وجوب نفقة القريب على قريبه^(٥).

(١) ينظر: «جامع البيان» للطبري (١٩٩/٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٢٢١-٢٢٧). (٣) «زاد المسير» (١/٢٠٧-٢٠٨).

(٤) يعقلون: من العقل وهي الدية، وعقل عنه: أدى جنايته، وذلك إذا لزمته دية فأعطاهما عنه. ينظر: «لسان العرب» (١١/٤٦٠).

(٥) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/٦٣٥)، و«تفسير السعدي» (١/١٧٥)، وهو قولٌ للأحناف والحنابلة. للاستزادة ينظر: «البحر الرائق» لابن نجيم (٤/٢٢٨)، و«كشاف القناع» (١٣/١٥٣) وما بعدها، و«المغني» (١١/٣٧٤) وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿مِثْلَ ذَلِكَ﴾: فيه ثلاثة أقوال:
 أحدها: أَنَّ عَلَى الْوَارِثِ مِثْلَ مَا عَلَى الْآبِ مِنْ أُجْرَةِ الْإِرْضَاعِ.
 الثاني: أَنَّ عَلَى الْوَارِثِ مِثْلَ مَا عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ مِنْ تَحْرِيمِ الضَّرَارِ.
 الثالث: أَنَّهُ شَامِلٌ لِلْأَمْرَيْنِ.
 والذي يدلُّ عليه سياق الآية: القولُ الأوَّلُ^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾:
 المعنى: إن أراد -أي: الأب والأم- فِصَالَ الْوَالِدِ -أي: فِطَامَهُ- عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فِيمَا فِيهِ مَصْلَحَةُ الْوَالِدِ؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا حَرَجَ وَلَا إِثْمَ عَلَيْهِمَا فِي فِطَامِ الْوَالِدِ قَبْلَ تَمَامِ الْحَوْلَيْنِ، فَدَلَّ أَوَّلُ الْآيَةِ وَآخِرُهَا أَنَّ مَرَدَّ إِتِمَامِ الرِّضَاعَةِ بِإِرْضَاعِ الْوَالِدِ مَدَّةَ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ، أَوْ فِطَامَهُ قَبْلَ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى تَرَاضِي الْآبَوَيْنِ وَاتِّفَاقِهِمَا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا بِالْوَالِدِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾: الْخَطَابُ لِلآبَاءِ؛ أَي: وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَطْلُبُوا مَرَضِعَ لَأَوْلَادِكُمْ إِنْ تَعَدَّرَ أَنْ تُرْضِعَهُ الْآمُّ لِمَرْضِيٍّ أَوْ امْتِنَاعٍ مِنَ الْإِرْضَاعِ أَوْ طَلِبِهَا أَكْثَرَ مِنْ أُجْرَةِ الْمِثْلِ؛ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ إِذَا سَلَّمْتُمْ لِلْمَرَضِعِ أَجْرَهَا الَّذِي آتَيْتُمْ عِنْدَ عَقْدِ الْإِجَارَةِ، وَمَعْنَى ﴿آتَيْتُمْ﴾: أَعْطَيْتُمْ وَالتَّزَمْتُمْ بِهِ عِنْدَ عَقْدِ الْإِجَارَةِ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أَي: الْأُمَّهَاتُ الْمَطْلُوقَاتُ ﴿فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمَّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أَي: دُونَ مَطْلٍ وَلَا نَقْصٍ، ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمُوهَا فَسَرِّضُوهَا لَهَا وَآخَرَىٰ﴾ [الطَّلَاق: ٦]؛ أَي: مُرْضِعٌ غَيْرُ أُمِّ الْوَالِدِ.

(١) وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وجماعة، واختاره ابن قتيبة، ونسبه ابن كثير للجمهور. ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٨٩)، و«تفسير الطبري» (٤/ ٢٢٧-٢٣٥)، و«زاد المسير» (١/ ٢٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٦٣٥).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي: خافوا الله وراقبوه في رعاية هذه الأحكام وأداء حقوق الله وحقوق العباد.

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾: تأكيدٌ للأمر بالتقوى، فإنَّ علمَ العبادِ بعلمِ الله بأعمالهم: من أعظم البواعث على تقوى الله. وقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾: أي: عليهم.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾ أي: ليُرضعن ﴿أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَّ﴾ عامين ﴿كَامِلَيْنَّ﴾ صفةٌ مؤكدة، ذلك ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ ولا زيادةً عليه ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أي: الأب ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ إطعامُ الوالدات ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ على الإرضاع إذا كُنَّ مُطْلَقَاتٍ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر طاقته ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طاقتها ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ بسببه؛ بأن تُكره على إرضاعه إذا امتنعت ﴿وَلَا﴾ يُضَارُّ ﴿مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ أي: بسببه؛ بأن يُكَلِّفَ فوق طاقتيه. وإضافةُ الولدِ إلى كلِّ منهما في الموضعين للاستعفاف ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ أي: وارث الأب؛ وهو الصبيُّ، أي: على وليِّه في ماله ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ الذي على الأب للوالدة من الرزق والكسوة. ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أي: الوالدان ﴿فِصَالًا﴾ فطامًا له قبل الحولين، صادرًا ﴿عَنْ تَرَاضٍ﴾ اتفاقٍ ﴿مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ بينهما؛ لتظهر مصلحة الصبيِّ فيه ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ﴾ خطابٌ للأبَاءِ ﴿أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ مرضع غير الوالدات ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ إليهنَّ ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾ أي: أردتم إيتاءه لهنَّ من الأجرة ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالجميل، كطيب النفس ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ منه.

وقول المؤلف: (أي: ليُرَضَعَنَّ): يُريد: أَنَّ جملة ﴿يُرَضَعَنَّ﴾ خبرٌ بمعنى الأمر.

وقوله: (ولا زيادةً عليه): يُبينُ أَنَّ الحولين هي غاية مُدَّة الإرضاع، ولا يُزادُ عليها إلا لضرورة الطفل.

وقوله: (على الإرضاع): يُبينُ أَنَّ ما ذكر من الرزق والكسوة أُجرةٌ على الإرضاع، وهذا إنما يُناسبُ في المطلقات.

وقوله: (بقدر طاقته): لقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

وقوله: (بأن تُكره على إرضاعه إذا امتنعت): يقتضي أَنَّ الوالدة هي المضاررة - بفتح الراء الأولى - فهي في الجملة نائبُ فاعلٍ.

وقوله: (للاستعفاف): أي: لاستجلاب عطفِ الوالدين على الولد.

وقوله: (أي: وارث الأب؛ وهو الصبي): هذا أحدُ الأقوال في المراد بالوارث، وقول الجمهور: أَنَّ المراد به: وارث الصبي من قراباته.

وقوله: (أي: على وليه في ماله): يعني: ولي الصبي في ماله؛ أي: مال الصبي إذا كان له مأل. وقوله: (الذي على الأب للوالدة من الرزق والكسوة): أي: على الوارث مثل ما على الأب من الرزق والكسوة.

وقوله: (صادراً): تقدير مُتعلِّق الجار والمجرور ﴿عن تراضي﴾.

وقوله: (اتفاق): يعني: عن اتفاقٍ على فِطامِ الطفل بعد التَّشاور.

وقوله: (لتظهر مصلحة الصبي فيه): بيانٌ لمقصود التشاور، وهو مصلحةُ

الصبي.

وقوله: (في ذلك): أي: في الفصال.

وقوله: (إليه): أي: إلى المراضع المستأجرات؛ يعني: أدَّيتم إليهِنَّ

الأجرة.

وقوله: (أي: أردتم إيتاءه لهنَّ من الأجرة): فسَّر ﴿آتَيْتُمْ﴾ بـ «أردتم»، وأمَّا الإيتاء بالفعل؛ فهو ما دلَّ عليه قوله: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾.
 وقوله: (كطيب النَّفس): يُريد: أنَّ تسليمَ الحقِّ بطيبِ نفسٍ من المعروف الذي أمر الله به. وقوله: (شيءٌ منه): أي: من عملكم.



وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣٤]:

يأمر تعالى أزواج الذين يتوفون بالتربُّص - أي: الانتظار - بترك النكاح أربعة أشهرٍ وعشراً من وفاة الزوج، وهذا حكمٌ عامٌ في المتوفى عنهن، سواء كانت مدخولاً بها أو غير مدخولٍ بها، أو ذات أقرانٍ أو صغيرة أو آيسة، فهذه عدَّة كلِّ متوفى عنها، إلا الحامل: فعدَّتْها بوضع الحمل على الصحيح؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، فهذه الآية من سورة الطلاقٍ مخصَّصةٌ لآية البقرة، وذهب جمعٌ من العلماء من الصحابة ومن بعدهم أن الحامل المتوفى عنها تعتدُّ بأبعد الأجلين^(١)، وعلى هذا القول فإن وضعت قبل تمام أربعة أشهرٍ وعشرٍ؛ لم تنقض عدَّتْها، ووجب عليها التربُّص حتى تتمَّ أربعة أشهرٍ وعشرٍ من وفاة زوجها، وإن تمَّ لها أربعة أشهرٍ وعشرٍ قبل أن تضع؛ لم تنقض عدَّتْها حتى تضع حملها، وهذا بإجماع الأمة^(٢).

ويبين سبحانه أن المتوفى عنهن إذا بلغن أجلهن بمضي أربعة أشهرٍ وعشرٍ؛ أنه لا جناح على أولياء المتوفى عنها فيما تفعله بنفسها من فعل وتركٍ مما تجب عليها مراعاته في مدة العدَّة من الأحكام، وشرط ذلك أن يكون بالمعروف؛ وهو الموافق للشرع والعادة المرضية، وقد دلَّ الكتاب والسنة على أنه يحرم على المعتدة من وفاة زوجها النكاح، ودلَّت السنة الصحيحة على

(١) القول الأول هو قول الجمهور من السلف والخلف وحكي فيه الإجماع، أما القول الثاني فحكي عن علي - من وجه منقطع - وابن عباس وروى عنه أنه رجع عن ذلك، وقال به من العلماء سحنون من المالكية. ينظر: «التمهيد» (٣٣-٣٤/٢٠)، و«إكمال المعلم» (٦٤/٥)، و«مواهب الجليل» (٥٤٣/٤)، وتكملة المطيعي للمجموع (٣٩٧/١٩)، (١٩/٤٣٢-٤٣١)، و«المغني» (٢٢٧/١١) وما بعدها.

(٢) ينظر: «الإجماع» لابن المنذر (ص ٤٤٢)، و«مراتب الإجماع» (ص ١٣٤).

وجوب الإحدادِ عليها مدَّة العدة، وهو اجتنابُ الزينةِ بأنواعها والطيب، وذلك قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لا يحلُّ لامرأةٍ تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحدَّ على ميتٍ فوق ثلاثِ ليالٍ، إلَّا على زوجٍ أربعةَ أشهرٍ وعشراً))^(١).

ومن أحكامِ عدَّة الوفاة: أن تبقى المعتدَّة في المسكن الذي أتاها خبرُ وفاة زوجها، وهي تسكنُ فيه حتى تنقضيَ عدَّتُها^(٢)، وقد أبطل اللهُ ورسولُه بهذه الأحكامِ عادةَ أهل الجاهلية في شأن المتوفى عنها، وهي: الإحدادُ مدَّة سنةٍ والإقامة في حفش؛ وهو مكانٌ ضيقٌ^(٣)، مع تركِ التنظفِ من الأوساخ والأفذار، حتى تمضي عليها سنةٌ، كما جاء في الصحيحين عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٤).

ثم أخبر تعالى في ختام هذه الآية أنه خيرٌ بأعمال العباد، فعليهم أن يتقوه ويُطيعوه، فإنه مُجازيهم على أعمالهم.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ يموتون ﴿مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ أي: ليربصن ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ بعدهم عن النكاح ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ من الليالي، وهذا في غير الحوامل، وأمَّا الحواملُ فعِدتهنَّ أن يضعنَّ حملهنَّ بآية «الطلاق»، والأُمَّة على النصف من ذلك بالسنةِ ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انقضت مدَّةُ ترَبُّصهنَّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياءُ

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٠)، (١٢٨٢)، ومسلم (١٤٨٦)، (١٤٩١) عن أم حبيبة وزينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: «المغني» (١١/٢٩٠).

(٣) الحفش: البيت الصغير الذليل القريب السُّمك، سمي به لضيقه. «النهاية» (١/٤٠٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٣٦-٥٣٣٧)، ومسلم (١٤٨٨-١٤٨٩)، وفيه: ((إنما هي أربعة أشهرٍ وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول)). ينظر بعض فوائده -مع حديثين آخرين في الباب-: في «العدة في فوائده أحاديث العمدة» لشيخنا (ص ٤٩٢-٤٩٥).

﴿فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من التزيين والتعرض للخطاب ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾
 شرعاً ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالمٌ بباطنه كظاهره.

وقول المؤلف: (أي: ليربصن): يريد أن لفظ الجملة لفظ الخبر ومعناها الأمر.

وقوله: (بعدهم): تقديرٌ لرباط جملة خبر المبتدأ؛ فالمبتدأ هو الموصول أول الجملة، والخبر: جملة ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾.

وقوله: (عن النكاح): تقديرٌ لمعمول ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾؛ المعنى: يتربصن عن النكاح؛ أي: ينتظرن حتى تنقضي عدتهن.

وقوله: (من الليالي): يُبَيِّنُ أَنَّ المَعْدُودَ بـ«عشر» مؤنث، وهي الليالي؛ لأنَّ العِدَّةَ مُذَكَّرٌ، والعربُ تُعَبِّرُ بالليالي عن الأيام، وبالأيام عن الليالي، والأوَّلُ أكثر^(١).

وقوله: (وهذا في غير الحوامل): يُرِيدُ أَنَّ المَدَّةَ المَذْكُورَةَ هِيَ عِدَّةُ المَتَوَفَّى عَنْهِنَّ غير الحوامل. وقوله: (وأما الحوامل...) إلى آخره: بيانٌ لِمَا تنقضي به عِدَّةُ الحوامل، وهو وَضْعُ الحَمَلِ، والدليلُ عليه قوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، فهي مخصصةٌ لآية البقرة.

وقوله: (والأمة...) إلى آخره: بيانٌ لِعِدَّةِ الزوجة التي هي أُمَّةُ المَتَوَفَّى عَنْهَا، وأنها مخصصةٌ من عموم الآية، فإنَّ عِدَّتَهَا شهران وخمسةُ أَيَّامٍ، فهي على النصف من عِدَّةِ الحرائر^(٢)، والأصلُ في ذلك ما جاء من الآثار، من أن

(١) ينظر: «شرح الكتاب» (٤/٢٩٩)، و«شرح التسهيل» (٢/٤١٠).

(٢) ينظر: «المغني» (١١/٢٢٤).

الرفيق في أحكام النكاح والحدود على النصف من الأحرار، وفي تفاصيل ذلك اختلافات.

وقوله: (انقضت مدة تربصهن): تفسير لقوله: ﴿بَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، وأنه على ظاهره، وهو بلوغ نهاية أربعة أشهر وعشرًا، فهو بلوغ لأجل العدة حقيقة. وقوله: (أيها الأولياء): بيان للمخاطب بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾. وقوله: (من التزئين...) إلى آخره: يُبين أن المراد فيما فعلن بعد انقضاء العدة في أنفسهن مما كان محرماً عليهن وقت العدة من التزئين وغيره. وقوله: (شرعًا): يُبين أن المراد بما يفعلهن في أنفسهن هو المأذون فيه شرعًا.

وقوله: (عالمٌ بباطنه كظاهره): بيان لمعنى الخبير، وهو العالمٌ بظواهر الأمور وبواطنها.



وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ [البقرة: ٢٣٥]:

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ الْأَزْوَاجَ الْمَتَوَفَّىٰ عَنْهُنَّ بِالتَّرْبُصِ عَنِ النِّكَاحِ وَدَوَاعِيهِ مَدَّةَ الْعِدَّةِ، وَأَبَاحَ لَهُنَّ إِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ مَا شِئْنَ مِنْ ذَلِكَ؛ بَيَّنَّ تَعَالَىٰ حُكْمَ خِطْبَتِهِنَّ فِي الْعِدَّةِ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾، وَالتَّعْرِيفُ ضِدُّ التَّصْرِيحِ، فَالتَّعْرِيفُ هُوَ الْكَلَامُ مَعَ الْمَعْتَدَّةِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الرَّغْبَةِ فِي النِّكَاحِ؛ مِثْلُ: أَنِّي أَرُغِبُ فِي نِكَاحِ زَوْجَةٍ ثَانِيَةٍ، أَوْ: لَيْتَ لِي زَوْجَةٌ مِثْلُكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾: أَي: أَضْمَرْتُمْ خِطْبَتِهِنَّ بَعْدَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهِنَّ، فَنفَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْجُنَاحَ - وَهُوَ الْإِثْمُ - عَنِ التَّعْرِيفِ بِالْخِطْبَةِ، أَوْ: نِيَّةِ الْخِطْبَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي الْقَلْبِ، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى سَبَبَ هَذِهِ الرَّخْصَةِ، وَهُوَ عِلْمُهُ تَعَالَى بِرَغْبَةِ الرِّجَالِ فِي نِكَاحِ الْمَتَوَفَّىٰ عَنْهُنَّ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾.

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى مَا لَا يَحِلُّ؛ وَهُوَ التَّصْرِيحُ فِي الْخِطْبَةِ بِمَوَاعِدَتِهِنَّ النِّكَاحَ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾؛ أَي: لَا تُسِرُّوْنَ إِلَيْهِنَّ بِخِطْبَتِهِنَّ وَعَزْمِكُمْ عَلَى نِكَاحِهِنَّ بَعْدَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهِنَّ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مَنْقُوعٌ، وَالْقَوْلُ الْمَعْرُوفُ: مَا أَبَاحَهُ اللَّهُ مِنَ التَّعْرِيفِ بِخِطْبَتِهِنَّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾: نَهَى مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - عَنِ عَقْدِ النِّكَاحِ عَلَى الْمَعْتَدَّةِ مِنَ الْوَفَاةِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ؛ وَهُوَ حُكْمُ اللَّهِ الْمَبِينِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَذَلِكَ بِأَنْ تَمْضِيَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعِشْرًا.

ثم أخبر تعالى أنه عالم بما في نفوس العباد؛ أي: مُطَّلَعٌ على ما يُسرُّونه مما يُخالف أمره، فعليهم أن يحذروا عقابه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَحْذَرُوهُ﴾. ثم أعلمهم أنه ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجلهم بعقوبته، فجمعت الآية بين الأمر والنهي والوعد والوعيد.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ لَوْحْتُمْ ﴿بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ المتوفى عنهن أزواجهنَّ في العدة؛ كقول الإنسان مثلاً: إنك لجميلةٌ، ومن يجدُ مثلك؟ وربَّ راغب فيك ﴿أَوْ أَكُنْتُمْ﴾ أضمرتم ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من قصد نكاحهنَّ ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ بالخطبة، ولا تصبرون عنهنَّ، فأباح لكم التعريض ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: نكاحاً ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: ما عُرف شرعاً من التعريض؛ فلكم ذلك ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أي: على عقده ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ﴾ أي: المكتوب من العدة ﴿أَجَلَهُ﴾ بأن ينتهي ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من العزم وغيره ﴿فَأَحْذَرُوهُ﴾ أن يعاقبكم إذا عزمتم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن يحذره ﴿حَلِيمٌ﴾ بتأخير العقوبة عن مُستحقِّها.

وقول المؤلف: (لَوْحْتُمْ): فسَّرَ التعريض بالتلويح، ومعناها مُتقارِبٌ، وكلاهما ضدُّ التصريح، فالتصريح نصٌّ في مُراد المتكلِّم به، والتعريض يُشعرُ بمراد المتكلِّم به^(١).

وقوله: (المتوفى عنهنَّ...) إلى آخره: بيان للمراد بالنساء في قوله: ﴿مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾.

وقوله: (في العدة): مُتعلِّقٌ بقوله: ﴿خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾.

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٨٩).

وقوله: (أَضْمَرْتُمْ): تفسيرُ لقوله: ﴿أَكُنْتُمْ﴾، ومعناه: أخفيتم، وما أضمره الإنسان: ما أخفاه في ضميره ولم يتكلم به^(١).
 وقوله: (من قصد نكاحهن): أي: ما أضمرتم من نية نكاحهن.
 وقوله: (بالخطبة...) إلى آخره: تفسيرُ لقوله: ﴿سَتَذَكُرُونَهُنَّ﴾؛ أي: ستخطبونهن ولا تصبرون عن ذلك؛ لذلك أباح لكم التعريض في خطبتهن.
 وقوله: (أي: نكاحًا): هذا هو التصريح في الخطبة، المعنى: لا تُسْرُوا إليهنَّ التصريح في خطبتهنَّ بمواعدتهنَّ النكاح عند انقضاء عدتهنَّ.
 وقوله: (لكن): يُبينُ بذلك أنَّ الاستثناء مُنْقَطِعٌ.
 وقوله: (ما عُرف شرعًا): يعني: ما أُذنَ فيه، ونفي الإثم عن فاعله، وهو: التعريض.

وقوله: (على عقده): عقد النكاح، هو دليل العزم على عقدة النكاح، فلا يجوزُ إلا بعد انقضاء العدة.
 وقوله: (بأن ينتهي): معناه: أنَّ أجلَّ العدة انقضاؤها.
 وقوله: (من العزم وغيره): يُبينُ أنَّ الاسمَ الموصولَ عامٌّ لكلِّ ما يكون في النفس.

وقوله: (أن يُعاقبكم إذا عزمتم): يريد أن المعنى: احذروا عقابَ الله إذا خالفتم أمره أو نهيه. وقوله: (لمن يحذره).
 وقوله: (بتأخير العقوبة عن مُستحقِّها): بيانٌ لمعنى الغفورِ والحليمِ، فهو تعالى غفورٌ: كثيرُ المغفرة لمن خافه، وحليمٌ: لا يُعاجلُ العاصي بالعقوبة.



(١) ينظر: «المفردات» (ص ٧٢٧).

وقوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقَرَّبُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢٣٦-٢٣٧]:

في هاتين الآيتين رجوعٌ إلى أحكام المطلقات، فبين تعالى في الآية الأولى أنه لا جناح - أي: لا إثم - على من طلق قبل المسيس، بل وقبل فرضِ صداق، ثم أمر تعالى من طلق في هذه الحال بتمتع المطلقة بإعطائها ما تنتفع به من مالٍ جبراً لكسرها بالطلاق، وأن ذلك حقٌ على ذوي الإحسان، وأن قدر هذا المتاع بحسب حال المطلقة يساراً وإعساراً، ولذا قال تعالى: ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: المعروفِ شرعاً وعرفاً. وقوله: ﴿حَقًّا﴾: صفةٌ لمتاع؛ أي: متاع حقاً، وقيل: مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة؛ أي: أحقُّ الله ذلك حقاً^(١).

ثم ذكر تعالى في الآية الثانية حكمَ المطلقة قبل المسيس، وقد فرض لها صداق، وأنَّ للمطلقة نصفَ ما فرض لها، والنصف الآخر للزوج. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾: الضمير يعود إلى النساء المطلقات، فإن عفونا رددنا على الأزواج كلَّ الصداق، وقال تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾: قيل: المراد بالذي بيده عقدة النكاح: الزوج، فإن عفا ترك لزوجته المطلقة كلَّ الصداق، وقيل: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ هو: الولي الذي يتولَّى عقد نكاح موليته، فإن عفا عن نصف الصداق رُدَّ إلى الزوج، والصواب:

(١) ينظر: «الكتاب الفريد» (١/٥٣٧)، و«تفسير الطبري» (٤/٣٠٨)، و«الكشاف» (١/٤٦٣)، و«البحر المحيط» (٢/٥٣٤).

القولُ الأوَّلُ^(١)، وقد حكى ابنُ جريرِ القولين، ورَجَّحَ هذا القول؛ أي: أنَّ المراد بـ **﴿الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾** الزوجُ، وضَعَفَ قولَ مَنْ يقول: إنَّه الولي من وجوه، وذكر أنَّ معنى **﴿الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾**؛ أي: نكاح نفسه، وهذا هو الزوجُ قبل الطلاق وبعده^(٢).

ثم رَغِبَ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْعَفْوِ** عن الحقوق التي بين الأزواج والمطلقات قبل المسيس، وهو المذكور في قوله تعالى: **﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾**، والخطابُ للأزواج والمطلقات. وقوله: **﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾**؛ أي: لا تغفلوا فتركوا الإحسانَ والمسامحةَ فيما بينكم، وهذا تأكيد لقوله: **﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾**.

وقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**^(٣)؛ أي: علمٌ بأعمالكم كلِّها فمجازيكم عليها، وفي هذا وعدٌ للمحسنين ووعيدٌ للمسيئين.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وفي قراءةٍ (تَمَّاسُوهُنَّ)^(٣)؛ أي: تُجامعوهنَّ **﴿أَوْ﴾** لم **﴿تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾** مهراً، و«ما»: مصدريةٌ ظرفيةٌ؛ أي: لا تَبَعَةٌ عليكم في الطلاق زمنَ عدم المسيس

(١) ومن الذين اختاروا أنَّ المراد به هو الزوج: علي، وابن عباس - في رواية مجاهد وعمار ابن أبي عمار - وجبير بن مطعم، في آخرين من السلف، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، والشافعي في الجديد، وهو ظاهر مذهب أحمد، واختاره: الفراء، والطبري، والواحدي ونسبه لعامة الفقهاء. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/١٥٥)، و«تفسير الطبري» (٤/٣٢٤-٣٣٣)، و«التفسير البسيط» (٤/٢٨٧-٢٨٨)، و«زاد المسير» (١/٢١٣)، و«تفسير ابن كثير» (١/٦٤٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٣١٧-٣٣٣).

(٣) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: **﴿تَمَّسُوهُنَّ﴾** بغير ألف وفتح التاء. وقرأ حمزة والكسائي: **﴿تَمَّاسُوهُنَّ﴾** بألف وضم التاء. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٨٣-١٨٤)، و«النشر» (٢/٢٢٨).

والفرض بإثم ولا مهر؛ فطلقوهن ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أعطوهن ما يتمتن به ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ﴾ الغني منكم ﴿قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ﴾ الضيق الرزق ﴿قَدْرَهُ﴾ يُفِيدُ أَنَّهُ لَا نَظَرَ إِلَى قَدْرِ الزَّوْجَةِ ﴿مَتَاعًا﴾ تمتيعًا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعًا، صفة «متاعًا» ﴿حَقًّا﴾ صفة ثانية، أو مصدرٌ مؤكَّدٌ ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ المطيعين ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ يجب لهنَّ، ويرجع لكم النصف ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿أَنْ يَعْفُونَ﴾ أي: الزوجات فيتركه ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ وهو الزوج، فيترك لها الكلَّ، وعن ابن عباس: الوليُّ إذا كانت محجورةً فلا حرج في ذلك ﴿وَأَنْ تَعْفُوا﴾ مبتدأ، خبره ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: أَنْ يَنْفَضَلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجَازِيكُمْ بِهِ.

وقول المؤلف: (أي: تُجامعوهنَّ): تفسير المسيس بالجماع، وهذا من باب الكناية عمَّا لا يحسنُ التصريحُ به، وهو كثيرٌ في كلام الله، فكنتي عن الجماع بالمسيس واللمس والمباشرة والدخول. وقوله: (لم): أي: لم تفرضوا؛ لأنَّه معطوفٌ على ﴿لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾؛ فالمعنى: لم تمسوهنَّ ولم تفرضوا لهنَّ. وقوله: (مهراً): بيانٌ لمعنى الفريضة؛ أي: لم تُسْمُوا لهنَّ صداقًا. وقوله: («وما»: مصدرية ظرفية): يريد ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾، فيكون التقدير: لا جناح عليكم إن طلقتموهنَّ في مدَّةِ عدم المسيس، وعبر المؤلف عن معنى الآية بقوله: (أي: لا تبعه عليكم في الطلاق زمن عدم المسيس).

وقوله: (بإثم ولا مهر): يريد: أَنْ فرض الصِّدَاقِ يكون بتسميته أو بذل عينه. وقوله: (فطلقوهنَّ): أي: إن شئتم، فالأمر للإباحة.

وقوله: (يُفِيدُ أَنَّهُ لَا نَظَرَ إِلَى قَدْرِ الزَّوْجَةِ): يريد: أَنَّ الْمُعْتَبَرَ فِي قَدْرِ
الْمَتَاعِ هُوَ حَالُ الزَّوْجِ يَسَارًا وَإِعْسَارًا، لَا حَالُ الزَّوْجَةِ، فَلَوْ كَانَتْ الْمَطْلُوقَةُ
مُوسِرَةً وَالْمَطْلُوقُ غَيْرَ مُوسِرٍ؛ فَإِنَّهُ يُمْتَعُهَا مَتَاعَ الْمُعْسَرِ. وقوله: (تَمْتِيعًا): يُبَيِّنُ
أَنَّ ﴿مَتَاعًا﴾ اسْمُ مُصَدَّرٍ، لَا الشَّيْءَ الْمَمْتَعُ بِهِ.

وقوله: (شَرَعًا، صِفَةٌ «مَتَاعًا»): يُبَيِّنُ أَنَّهُ يُعْتَبَرُ فِي مَتَاعِ الْمَطْلُوقَةِ الشَّرْعُ
وَالْعَرَفُ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وقوله: (صِفَةٌ ثَانِيَةٌ، أَوْ مُصَدَّرٌ مُؤَكَّدٌ): يُبَيِّنُ أَنَّ فِي إِعْرَابِ حَقًّا وَجْهَيْنِ:
صِفَةٌ لِمَتَاعٍ؛ أَيْ: مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا.

أَوْ: مُصَدَّرٌ مُؤَكَّدٌ لِفِعْلِ مَحذُوفٍ مَفْهُومٍ مِنْ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ؛ أَيْ: أَحَقَّ
اللَّهُ ذَلِكَ حَقًّا.

وقوله: (الْمُطِيعِينَ): تَفْسِيرٌ لـ ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾، وَهَذَا يَشْمَلُ إِحْسَانَ الْعَمَلِ
بِالإِخْلَاصِ وَالِاتِّبَاعِ، وَالِإِحْسَانَ إِلَى النَّاسِ.

وقوله: (يَجِبُ لَهُنَّ...) إِلَى آخِرِهِ: يُقَدَّرُ إِعْرَابُ ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾،
فَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ فَاعِلًا لِفِعْلِ مَحذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: يَجِبُ النِّصْفُ لَهُنَّ، أَوْ: مُبْتَدَأُ خَبْرِهِ
مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: فَلَهُنَّ^(١).

وقوله: (لَكِنْ): يُبَيِّنُ أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعٌ.
وقوله: (أَيُّ: الزَّوْجَاتِ): يُبَيِّنُ أَنَّ الْمُرَادَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَعْفُونَ﴾: الزَّوْجَاتُ
الْمَطْلُوقَاتُ، وَذَلِكَ أَنْ يُسْقِطَنَّ مَا وَجِبَ لَهُنَّ، وَهُوَ: نِصْفُ الصَّدَاقِ، فَيَتْرُكَنَّهُ
لِلْأَزْوَاجِ.

وقوله: (وَهُوَ الزَّوْجُ...) إِلَى آخِرِهِ: تَضَمَّنَ كَلَامُهُ ذِكْرَ الْقَوْلَيْنِ فِي الْمُرَادِ
بِـ ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾؛ فَقِيلَ: الزَّوْجُ، وَقِيلَ: الْوَلِيُّ، وَالصَّوَابُ: أَنَّهُ
الزَّوْجُ، وَعَفْوُهُ أَنْ يَتْرُكَ لِلْمَطْلُوقَةِ الصَّدَاقَ كُلَّهُ، وَأَمَّا الْوَلِيُّ فَلَا يَمْلِكُ الْعَفْوَ عَنِ

(١) ينظر: «التبيان للعكبري» (١/١٨٩-١٩٠)، و«الكتاب الفريد» (١/٥٣٨).

شيء من حقوق موليته، وإن كانت محجورًا عليها؛ بل عليه أن يستوفي ما لها من حق على زوج أو غيره، فكيف إذا لم تكن محجورًا عليها. وقوله: (أَنْ يَتَفَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ): تفسير للفضل الذي ندب الله إلى رعايته ونهى عن نسيانه؛ أي: تركه.

وقوله: (فِيُجَازِيكُمْ بِهِ): يُبَيِّنُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مُتَضَمِّنٌ لِلْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فِيهِ التَّرغِيبُ فِي الطَّاعَةِ وَالتَّحذِيرُ مِنَ المَعْصِيَةِ.



وقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨-٢٣٩]:

يأمر الله -تعالى- المؤمنين بالمحافظة على الصلوات الخمس والصلوة الوسطى؛ وهي: صلاة العصر على الصحيح من أقوال المفسرين^(١)؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المشركين: ((شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً))^(٢). وعطفها على الصلوات من عطف الخاص على العام، وهذا يقتضي الأمر بالمحافظة عليها مرتين، وسُميت وسطى؛ قيل: من الوسط؛ بمعنى: الخيار، فيكون معنى الوسطى: الفضلى، وقيل: لتوسطها بين صلاة النهار وصلاة الليل^(٣).

والمحافظة على الصلوات هي المداومة عليها في أوقاتها وبشروطها كما صلاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾: أي: أدوا الصلاة قياماً طاعةً لله قانتين؛ أي: خاضعين خاشعين ساكتين لا تتكلمون بشيء من كلام الناس، ومن القنوت في الصلاة: ترك الكلام، وفي الصحيح عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا نَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ، يُكَلِّمُ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ وَهُوَ إِلَى جَنْبِهِ فِي الصَّلَاةِ، حَتَّى نَزَلَتْ ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾، فَأَمَرْنَا بِالسُّكُوتِ وَنُهَيْنَا عَنِ الْكَلَامِ»^(٤).

- (١) وهو قول الجمهور. ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٣٤٢-٣٥٩)، (٤/٣٧٢-٣٧٥)، و«تفسير البغوي» (١/٢٨٨)، و«المحرر الوجيز» (١/٥٩٩-٦٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (١/٦٤٥).
- (٢) أخرجه البخاري (٢٩٣١) (٤٥٣٣)، ومسلم (٦٢٧) عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم (٦٢٨) عن عبد الله بن مسعود، واللفظ له.
- (٣) وهذا مبني على الخلاف السابق في تعيينها. ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٣٧٥)، و«الكشاف» (١/٤٦٥)، و«المحرر الوجيز» (١/٥٩٨-٦٠٠)، و«زاد المسير» (١/٢١٥-٢١٦)، و«التحرير والتنوير» (٢/٤٦٧).
- (٤) أخرجه البخاري (١٢٠٠)، و(٤٥٣٤)، ومسلم (٥٣٩) واللفظ له.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾؛ أي: كنتم في حال خوفٍ من عدوٍ أو غيره؛ ﴿فَرَجَالًا﴾؛ أي: فصلُّوا رجالًا، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾؛ أي: مشاةً أو راكبين.
 وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾: أي: كنتم في حال أمنٍ ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(١)؛ أي: صلُّوا صلاةً الأمان كما أمركم الله، وكما علَّمكم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك أن تُصلُّوا قيامًا مع القدرة لا ماشين ولا راكبين.

والكاف في قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ﴾: للتشبيه أو التعليم؛ فالمعنى: مثل ما علَّمكم، أو لأجل أن علَّمكم الله ما لم تكونوا تعلمون قبل ذلك، فذكره تعالى كما أمر شكرًا على ما أنعم به من العلم.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ الخمس، بأدائها في أوقاتها ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ هي: العصرُ أو الصبحُ، أو الظهرُ، أو غيرها، أقوال. وأفردَهَا بالذِّكر لفضلِهَا ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ﴾ في الصَّلَاةِ ﴿قَانِتِينَ﴾ قيل: مُطِيعِينَ؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((كُلُّ قَنُوتٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ طَاعَةٌ)) رواه أحمدٌ وغيره^(١)، وقيل: ساكتين؛ لحديث زيد بن أرقم: «كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت فأمرنا

(١) أخرجه أحمد (١١٧١١)، والطبري في التفسير (٤٠٠/٣٥) من طريق ابن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت؛ فهو طاعة)).

وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١١٢٨)، وابن حبان في صحيحه (٣٠٩)، والطبراني في «الأوسط» (٥١٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٢٥/٨) من طريق عمرو بن الحارث، عن دراج، به.

قال الطبراني: «لا يروى هذا الحديث عن أبي سعيد إلا بهذا الإسناد». وقال ابن كثير في تفسيره (٣٩٧-٣٩٨): «هذا الإسناد ضعيف لا يعتمد عليه، ورفع هذا الحديث منكر، وقد يكون من كلام الصحابي أو من دونه، والله أعلم»، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤١٠٥).

بالسكوت ونهينا عن الكلام» رواه الشيخان ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدوٍّ أو سيلٍ أو سبعٍ ﴿فَرَجَالًا﴾ جمعُ راجلٍ؛ أي: مُشاةً صَلُّوا ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ جمعُ ركبٍ؛ أي: كَيْفَ أَمَكْنَ مُسْتَقْبَلِي الْقِبْلَةِ أَوْ غَيْرِهَا، وَيَوْمًا بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ﴿فَإِذَا أَمِتُّمْ﴾ من الخوفِ ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: صَلُّوا ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ قبل تعليمه من فرائضها وحقوقها. والكاف: بمعنى مثل. و«ما»: موصولةٌ أو مصدريةٌ.

وقولُ المؤلِّف: (هي العصر...) إلى آخره: ذكرُ ثلاثةِ أقوالٍ في المراد بالصَّلَاةِ الوسطى^(١)، والصوابُ: أنها العصر، كما صحَّ بذلك الحديث. وقولُه: (وأفردَها بالذكرَ لفضلِها): معناه: خصَّها بالأمر بالمحافظة عليها من أجل فضلها على غيرها من الصلوات، ولهذا وصفَها بالوسطى؛ أي: الفضلى، وجاء في السنَّةِ الوعيدُ الشديدُ على تركها، وهو قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ حَبِطَ عَمَلُهُ))^(٢).

وقولُه: (في الصَّلَاةِ): بيانٌ لمحلِّ القيامِ المأمورِ به. وقولُه: (قيل: مُطيعين...) إلى آخره: تضمَّنَ تفسيرَ القنوتِ بالطاعةِ وبالسكوت، وكلُّ من المعنيين صحيحٌ، ويدلُّ لهما ما ذكَّرَ من الحديثين. وقولُه: (من عدوٍّ...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ سَبَبَ الْخَوْفِ عَامٌّ لِكُلِّ مَخَوْفٍ.

= قلنا: ابن لهيعة ضعيف لسوء حفظه واحتراق كتبه. ينظر: «المجروحين» لابن حبان (١٠/٥٠٤، رقم ٥٣٢)، وراية درّاج أبي السمع عن أبي الهيثم فيها ضعف. «التقريب» (١٨٢٤).

(١) جمع الدمياطي في ذلك جزءاً عن الصلاة الوسطى؛ فبلغ تسعة عشر قولاً، نقلها الحافظ في «الفتح» (٨/١٩٦-١٩٨)، وقال الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» (٢/٤٦٧): «أنهت الأقوال فيه - أي الخلاف - إلى نيف وعشرين».

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٣) و(٥٩٤)، من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: (جمع راجل... إلى آخره، وقوله: (جمع ركب... إلى آخره:
 بيان للرخصة للخائف أن يُصلي ماشياً وراكباً كما يتيسر له.
 وقوله: (أي: صلوا): فسّر الذكر بالصلاة لئُناسبَ المقام.
 وقوله: (قبل تعليمه): بيان أن المسلمين قبل تعليم الله لهم صفة الصلاة
 لم يكونوا عالمين بها.



وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠]:

ذكر كثيرٌ من المفسرين أنَّ هذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، بل حكى كثيرٌ إجماع العلماء على ذلك^(١)، وذهب بعضُ العلماء إلى أنها ليست منسوخةً، وفي ذلك عن مجاهد^(٢) روايتان؛ رواهما عنه ابنُ جرير^(٣)؛ فالذين قالوا بعدم النسخ؛ قالوا: الآيةُ الأولى في وجوب التربُّصِ عليهنَّ أربعةَ أشهرٍ وعشراً؛ وهي: عدَّةُ الوفاة، فلا يحلُّ لهنَّ أن يتزوجنَ في هذه المدَّة، وفي الآية الثانية وصيةٌ من الله لأزواج المتوفى عنهنَّ بأن يمتنعنَّ سنةً، وذلك بالسُّكنى في بيت المتوفى، فإن شاءت أقامت إلى تمام الحول، وإن شاءت خرجت، والمخاطبُ بهذه الوصية ورثة الميت، فعليهم متاعها بالسُّكنى؛ لقوله: ﴿مَّتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، فليس لهم إخراجها إذا اختارت البقاء، وإن اختارت الخروجَ فلا جناحَ عليهم، وليس في الآية تعرُّضٌ للنفقة عليها مدة الحول، ولا لحكم نكاحهنَّ، كما أنه

(١) حكى الإجماع غير واحد من أهل العلم؛ منهم: الشافعي، والنجصاص، والماوردي، وابن عبد البر، وابن رشد، وابن عطية، وابن حجر، وغيرهم. ينظر: «الأم» (٥٦٦/٦)، و«أحكام القرآن» للنجصاص (١١٩/٢)، و«الحاوي» (٢٣٢/١١)، و«التمهيد» (٢٧٧/٤)، و«المقدمات» (٥١٣-٥١٤)، و«المحرر الوجيز» (٦٠٧/١)، و«فتح الباري» (٤٩٣/٩).

(٢) مجاهد بن جبر المكي، أبو الحجاج، تابعي جليل، مقرئ مفسر، حافظ ثقة، ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر بن الخطاب فسمع من عدد من الصحابة، ولازم ابن عباس وقرأ عليه القرآن، وتلقى عنه التفسير، قال قتادة: «أعلم من بقي بالتفسير مجاهد»، توفي ساجداً سنة (١٠٣هـ)، وقيل غير ذلك. ينظر: «السير» (٤٤٩/٤)، و«طبقات المفسرين» للدواودي (٣٠٥/٢).

(٣) «تفسير الطبري» (٤٠٢/٤، ٤٠٥).

ليس في الآية الأخرى تعرض لسكنى ولا نفقة، إنما هو التبرُّص بترك النكاح، فالآيتان في حكمين مختلفين، فلا تعارض بينهما.

وإذن: فلا ناسخ ولا منسوخ، وأمّا الذين قالوا: إنّ الآية منسوخة بالآية الأخرى، فعندهم معناها: أمر الله الذين يتوفون ولهم أزواج إذا حضرهم الموت أن يوصوا لأزواجهم بالمتاع سنة، فُتسكن المتوفى عنها في بيت زوجها، ويُنفق عليها من ماله، وعلى هذا فتعتد المتوفى عنها سنة، ولها السكنى والنفقة، ثم نُسخ اعتداؤها سنة بآية ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، ونُسخت السكنى والنفقة بآية الميراث، وعلى هذا القول؛ فالوصية من الأزواج الذين يتوفون لأزواجهم أمرهم الله إذا حضرهم الموت أن يوصوا لأزواجهم بالمتاع سنة؛ فالموصي هم: الأزواج المتوفين، والموصى إليهم هم: ورثة الميت، والموصى له هن: الزوجات، ويُشكل على هذا أنّ المذكورين في الآية هم الذين ماتوا وتركوا أزواجهم، فكيف يأمر من مات بأن يوصي؟! ولهذا احتاج أهل هذا القول أن يتأولوا ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ﴾ بمن حضرهم الموت، ومن الفرق بين الآيتين: أنّ المخاطب في الآية الأولى الزوجات، أمرن بالتبرُّص بترك النكاح، والمخاطب في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لأوليائهنّ، والمخاطب في الآية الثانية في قوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ ورثة الميت، فنُسخت آية الاعتداد سنة بالاعتداد أربعة أشهرٍ وعشراً، وقد أشكل ترتيب الآيتين؛ فالآية الناسخة ترتيبها في المصحف قبل الآية المنسوخة، وقد استشكل ذلك عبد الله بن الزبير رضي الله عنه فسأل عثمان رضي الله عنه عن ذلك؟ فقال: «يا ابن أخي، لا أُغَيِّرُ شيئاً منه من مكانه»^(١).

وقد رأيت أن ألخص ما ذكره ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية لأهميته وعظم فائدته مع بعض التصرف؛ قال رحمه الله بعد ذكر الآية: «يعني تعالى ذكره بذلك: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ أيها الرجال ﴿وَيَذُرُونَ﴾

(١) أخرجه البخاري (٤٥٣٠).

أَزْوَاجًا؛ يعني: زوجات كنَّ له نساءً في حياته، بنكاح لا ملك يمين، قال: «ثم صرف الخبر عن ذكر مَنْ ابتداءً الخبرُ بذكره إلى الخبرِ بذكر أزواجهم»، قال: «ثم قال تعالى ذكره: **﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ﴾**، فاختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأ بعضهم: **﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ﴾** بنصب الوصية؛ بمعنى: فليُوصوا وصيةً لأزواجهم، أو عليهم أن يوصوا وصيةً لأزواجهم، وقرأ آخرون: **﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ﴾** برفع الوصية»^(١)، قال: «ثم اختلف النحويون في وجه الرفع فقال بعضهم: رفعت بمعنى: كتبت عليهم الوصية، واستدلَّ لذلك بأنها كذلك في قراءة عبد الله بن مسعود»^(٢)، قال: «فتأويل الكلام على ما قاله هذا القائل: والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجًا كتبت عليهم وصيةً لأزواجهم، ثم ترك ذكر «كتبت» ورفعت الوصية بذلك المعنى وإن كان متروكًا ذكره». قلت: فمعنى هذا الكلام أنَّ وصيةً مرفوعةً بفعلٍ محذوفٍ؛ تقديره: كتبت عليهم وصية.

قال: «وقال آخرون منهم: بل الوصية مرفوعةٌ بقوله: **﴿لِّأَزْوَاجِهِمْ﴾**، فتأول: لأزواجهم وصية». قلت: وحاصل الوجهين في رفع وصية أنها نائبُ فاعل للفعل المحذوف «كتبت»، أو أنها مبتدأٌ وخبره **﴿لِّأَزْوَاجِهِمْ﴾** على التقديم والتأخير، وهو معنى قوله: «فتأول: لأزواجهم وصية»؛ لأنَّ النكرة لا يُبتدأُ بها.

قال: «والقولُ الأوَّلُ أولى بالصواب في ذلك، وهو أن تكون الوصية إذا رُفعت مرفوعة بمعنى: كتبت عليهم وصيةً لأزواجهم»، قال: «وأولى القراءتين

(١) قرأ أبو عمرو وحزمة وابن عامر وحفص عن عاصم: **﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ﴾** نصبًا، وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر والكسائي: **﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ﴾** بالرفع. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٧٤)، و«النشر» (٢/٢٢٨).

(٢) عزاها لابن مسعود غير واحد بألفاظ مختلفة، وهي قراءة شاذة. ينظر: «مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص ٢٢)، و«معاني القرآن» للفراء (١/١٥٦)، و«الكشاف» (١/٤٦٩)، و«البحر المحيط» (٢/٥٥٣).

بالصواب في ذلك عندنا قراءة من قرأ: ﴿وَصِيَّةٌ﴾ بالرفع، بدليل أن مقام المتوفى عنها زوجها في بيت زوجها المتوفى حولاً كاملاً، كان حقاً لها قبل نزول آية يترصدن أربعة أشهر وعشراً، وقبل نزول آية الميراث، أوصى لهن أزواجهن بذلك قبل وفاتهم أو لم يوصوا لهن به».

ثم قدر **رَحْمَةُ اللَّهِ** سائلاً، قال: ما الدليل على أن قعود المتوفى عنها في بيت زوجها كان حقاً لها قبل آية العدة وآية الميراث؟ فأجاب **رَحْمَةُ اللَّهِ** بما حاصله: أن الله أخبر عن الرجال المتوفين ولهم أزواج، والمتوفى لا يؤمر بالوصية وإنما يؤمر بالوصية من حضره الموت كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، علم أن الله جعل لامرأة المتوفى أن تقعد في بيته حولاً بعد وفاته؛ قال: «ولو كان المعنى: فليوصوا وصية؛ لوجب أن يكون لفظ الآية: (والذين يحضرهم الموت)»، وأيضاً فلو كان قعود المتوفى عنها في بيت زوجها حولاً واجباً بوصية من زوجها قبل وفاته لَمَا كان ذلك حقاً لها إذا لم يوص ولا جاز لورثته إخراجها، وقد قال تعالى: ﴿غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾.

إذن: فليس معنى الآية أمر الأزواج بالوصية لزوجاتهم قبل وفاتهم كما تقتضيه قراءة من قرأ ﴿وَصِيَّةً﴾ بالنصب على معنى: فليوصوا وصية، أو عليهم أن يوصوا وصية، ولَمَّا نفى **رَحْمَةُ اللَّهِ** أن يكون معنى الآية أمر الأزواج بالوصية لزوجاتهم؛ قال: «وإنما معنى الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ كتب الله لأزواجهم عليكم وصية منه لهن أيها المؤمنون، أن لا تُخرجوهن من منازل أزواجهن حولاً، كما قال تعالى ذكره في سورة النساء: ﴿غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٢]».

قلت: فعلم مما تقدّم من كلام ابن جرير أن في المراد بالوصية في الآية قولان:

الأول: أن المراد الوصية من الأزواج المتوفين لزوجاتهم أمرهم الله بها.

والثاني: أنها وصيةٌ من الله لورثة الميت.

فعلى القول الأول: المخاطبُ بالوصية هم الأزواجُ المتوفين، ولهذا جاء في تقدير الكلام؛ فليوصوا وصيةً، أو عليهم أن يوصوا وصيةً، كلُّ هذا على قراءة نصبِ وصية.

وعلى القول الثاني: الخطابُ لورثة الميت كما يُفیده التقدير في عبارة ابن جرير إذ قال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا﴾ كتب الله لأزواجهم عليكم وصية منه لهنَّ أيها المؤمنون؛ أن لا تُخرجوهنَّ من منازل أزواجهنَّ حولاً، كما قال تعالى ذكره في سورة النساء: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾.

ثم ذكر من قال من السلف: إنَّ حُكْمَ هذه الآية وصيةٌ من الله لزوجات المتوفين بالسكنى والنفقة حولاً، وأنَّ ذلك نُسِخَ بآية الميراث وآية العدة ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، وهو القول الذي رجَّحه ابنُ جرير كما تقدَّم، فروى ذلك بإسناده عن قتادة^(١) والربيع^(٢) وابن عباس والضحاك^(٣) وعطاء^(٤)

(١) قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز السدوسي، أبو الخطاب البصري، الضرب الأكمه المفسر، قال معمر: سمعت قتادة يقول: «ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً». قال الإمام أحمد بن حنبل: قتادة عالم بالتفسير وباختلاف العلماء، ووصفه بالفقه والحفظ، وأطب في ذكره. مات بواسط في الطاعون سنة (١١٧هـ)، وقيل بعدها. ينظر: «السير» (٥/٢٦٩)، و«طبقات المفسرين» للداودي (٤٧/٢-٤٨).

(٢) الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني، لقي ابن عمر وأنس بن مالك وجابر، وهرب إلى مرو في زمن الحجاج فكان عالم مرو في زمانه، وكانت وفاته سنة (١٣٦هـ)، وقيل (١٣٩هـ). ينظر: «السير» (٦/١٦٩)، و«طبقات المفسرين» للداودي (ص ١٦).

(٣) الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو محمد، وقيل: أبو القاسم، كان من أوعية العلم، وله باع في التفسير وبه اشتهر، توفي سنة (١٠٢هـ)، وقيل غير ذلك. ينظر: «السير» (٤/٥٩٨)، و«طبقات المفسرين» للداودي (١/٢٢٢).

(٤) عطاء بن أبي مسلم، أبو عثمان الخراساني، واسم أبيه ميسرة، وقيل: عبد الله، له كتاب «تنزيل القرآن»، و«تفسيره»، عرف بالعبادة والفتوى والتفسير، وكان صاحب رحلة. توفي سنة (١٣٥هـ). ينظر: «السير» (٦/١٤٠)، و«طبقات المفسرين» للداودي (١/٣٨٥).

ومجاهد وابن زيد^(١)، ثم ذكر من قال من المفسرين بأن معنى هذه الآية أمر الله الأزواج إذا حضرهم الموت بأن يوصوا لزوجاتهم بالسكنى والنفقة حولاً، وقد سبق تضعيف ابن جرير لهذا القول، ثم رواه بإسناده عن قتادة وعن السدي^(٢)، ثم ذكر عن إبراهيم النخعي^(٣) أن أمر الأزواج بالوصية لهنّ نسخ بما كان لهنّ من المتاع؛ قال ابن جرير: «من غير تبيينه^(٤) على أيّ وجه كان ذلك لهنّ»، ثم ذكر عن الحسن^(٥) وعكرمة^(٦) وابن عباس أن هذه الآية منسوخة، ولمّا ذكر القائلين بأن الآية منسوخة على اختلافهم في تأويل الآية، وهل الوصية في الآية من الله لأزواج المتوفين كتبها على ورثة الميت، أو من المتوفين أمرهم الله بأن يوصوا كما تقدّم لمّا ذكر ابن جرير ذلك كلّهُ؛ قال: «وقال آخرون:

(١) ابن زيد: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كان صاحب قرآن وتفسير، جمع تفسيراً في مجلد، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ، توفي سنة (١٨٢هـ) ينظر: «السير» (٣٤٩/٨)، و«طبقات المفسرين» للداودي (١/٢٧١).

(٢) السدي: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة أبو محمد الحجازي، ثم الكوفي، الأعور، وهو السدي الكبير، قال إسماعيل بن أبي خالد: «كان السدي أعلم بالقرآن من الشعبي رَجَمَهُ اللَّهُ»، وقال الخليلي: «إن أمثل التفاسير تفسير السدي»، توفي سنة (١٢٧هـ). ينظر: «السير» (٥/٢٦٤)، و«طبقات المفسرين» للداودي (١/١١١).

(٣) إبراهيم النخعي: إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود، كان إماماً حافظاً، فقيهاً من أكابر التابعين، توفي سنة (٩٦هـ). ينظر: «الطبقات» لابن سعد (٦/٢٧٠)، و«السير» (٤/٥٢٠) (٤) في أصل طبعة هجر: (تنبيه)، وأشاروا إلى خمس نسخ كتبت (بينه)، والسادسة غير منقوطة، والمثبت (تبيينه) من طبعة شاكر، وقال: «في المطبوعة: (من غير بينة)، والصواب ما في المخطوطة»، وهو الذي رجحه شيخنا.

(٥) الحسن بن أبي الحسن، واسم أبيه يسار، أبو سعيد البصريّ، كان من سادات التابعين وأفتى في زمن الصحابة، بالغ الفصاحة وبلغ المواعظ، كثير العلم بالقرآن ومعانيه، وله تفسير رواه عنه جماعة، توفي سنة (١١٠هـ). ينظر: «السير» (٤/٣٦٥)، و«طبقات المفسرين» للداودي (١/١٥٠).

(٦) عكرمة مولى ابن عباس، العلامة الحافظ المفسر، أبو عبد الله القرشي مولاهم، المدني، البربري الأصل، قال قتادة وسلام بن مسكين بأنه أعلم الناس بالتفسير، توفي سنة (١٠٤هـ)، وقيل: بعد ذلك. ينظر: «السير» (٥/١٢)، و«طبقات المفسرين» للداودي (١/٣٨٦).

هذه الآية ثابتة الحكم، لم يُنسخ منها شيء، وروى ذلك بإسناده عن مجاهد أنه قال في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ...﴾ الآية: كانت هذه للمعتدة تعتدُّ عند أهل زوجها واجبًا ذلك عليها، فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ...﴾ الآية، قال: جعل الله لهنَّ تمام السنة سبعة أشهرٍ وعشرين ليلةً وصيَّةً، إن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، فتضمَّن قولُ مجاهد أنَّ حكمَ الآية الأولى واجبٌ على المرأة؛ وهو الاعتدادُ بأربعة أشهرٍ وعشرٍ، وأمَّا حكمُ الآية الثانية وهو الاعتدادُ تمامَ الحولِ فالمرأة فيه مخيرةٌ؛ لقوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، فجعل مجاهدُ الآية الثانية هي الأخيرة نزولاً، وحكمها باقٍ لم يُنسخ، وهذا خلافُ قولِ الجمهور؛ وهو أنَّ الآية الأولى هي الناسخةُ لحكم الآية الثانية، كما تقدَّم حكايةُ ابن جريرٍ لأقوالهم، ثم روى بإسناده إلى عطاء^(١) عن ابن عباس؛ قال: «نَسَخْتُ هذه الآية - قلت: يريد الآية الثانية - عِدَّتَهَا عِنْدَ أَهْلِهَا - يريد: حُكْمَ الآية الأولى - تعتدُّ حيث شاءت - يريد: حكمَ الآية الثانية وهو قولُ اللَّهِ: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾»، ثم روى عن عطاء قريباً من معنى قول ابن عباس ثم رجَّح قول الجمهور؛ وهو أنَّ الآية الثانية منسوخةٌ بالآية الأولى وبآية الميراث؛ قال **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «وأولى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب أن يُقال: إِنَّ اللَّهَ - تعالى ذكره - كان جعل لأزواج مَنْ مات من الرجال بعدَ مَوْتِهِمْ سُكْنَى حَوْلٍ فِي مَنْزِلِهِ، وَنَفَقَتَهَا فِي مَالِ زَوْجِهَا الْمَيِّتِ إِلَى انْقِضَاءِ السَّنَةِ، وَوَجَبَ عَلَى وَرَثَةِ الْمَيِّتِ أَنْ لَا يُخْرِجُوهُنَّ قَبْلَ تَمَامِ الْحَوْلِ مِنَ الْمَسْكَنِ الَّذِي يَسْكُنُهُ، وَإِنْ هُنَّ تَرَكْنَ حَقَّهُنَّ مِنْ ذَلِكَ وَخَرَجْنَ؛ لَمْ تَكُنْ وَرَثَةُ الْمَيِّتِ مِنْ خُرُوجِهِنَّ فِي حَرْجٍ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ - تعالى ذكره - نَسَخَ النِّفْقَةَ

(١) عطاء بن أبي رباح أسلم المكي، أبو محمد، كان ثقة فقيهاً عالمًا بالقرآن ومعانيه، توفي سنة (١١٤هـ)، وقيل: بعد ذلك. «السير» (٧٨/٥)، و«طبقات المفسرين» للأذنه وي (ص ١٤).

بآية الميراث، وأبطل مما كان جعل لهنّ من سُكنى حولِ سبعة أشهرٍ وعشرين ليلة، وردهنّ إلى أربعة أشهرٍ وعشرٍ على لسان رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قلت: يُشير إلى حديثٍ فُرِيعَةٍ^(١) الذي سيذكره، ثم ذكر بإسناده حديثَ فُرِيعَةَ التي قُتِلَ زوجها فاستفتت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تنتقل من بيت زوجها، فأمرها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تمكث حتى يبلغ الكتابُ أجله؛ وهو تمامُ أربعة أشهرٍ وعشرٍ^(٢)، وحاصلُ كلامه رَحِمَهُ اللهُ أن ما كان حقاً للمتوفى عنها من السُّكنى والنَّفقة حولاً نسخ النفقة الميراث ربع أو ثمن ونسخ تمام الحول؛ وهو سبعة أشهرٍ وعشرون يوماً بآية التربُّص - أربعة أشهرٍ وعشرًا - وبحديث فُرِيعَةَ.

(١) فُرِيعَةَ: بضم الفاء بالتصغير في أكثر الروايات وفي طبعة شاكر، ووقع اسمها في طبعة هجر: «الفرعة»، وكذا في رواية النسائي (٣٥٢٨)، و«شرح مشكل الآثار» (٣٦٥٠) ووقع اسمها «الفرعة» في «شرح مشكل الآثار» (٣٦٤٩).

وهي الفريعة بنت مالك، ويقال لها أيضاً: الفارعة والفرعة، أنصارية خُدرية، وهي أخت أبي سعيد الخدري. ينظر: «الإصابة» (١١٧٢٠)، (١١٧٥٤)، (١١٧٦٤).

(٢) أخرجه مالك (٢١٩٣ / ٥٢٦)، وأحمد (٢٧٠٨٧)، وأبو داود (٢٣٠٠)، والترمذي (١٢٠٤)، والنسائي (٣٥٢٨)، وابن ماجه (٢٠٣١)، والحاكم (٢٨٣٣) بعضهم مطوَّلاً، وبعضهم مختصراً، كلهم من طريق سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن عمته زينب بنت كعب بن عجرة، أن الفريعة بنت مالك بن سنان أخبرتها، أنها جاءت إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكرتَه.

ورجاله ثقات غير زينب بنت كعب، ذكرها ابن حبان في «الثقات» (٢٧١ / ٤)، رقم (٢٨٧٣)، وقال: «لها صحبة»، وكذا قال الذهبي في «التجريد» (٢٧٤ / ٢)، رقم (٣٢٨٩)، أما في «الميزان» (٦٠٧ / ٤) فقد ذكرها ضمن النساء المجهولات، ونقل عن ابن حزم بأنها مجهولة، ما روى عنها غير سعيد. وينظر: تعقيب الحافظ عليه في «الإصابة» (١١٣٨٣)، وقال الحافظ في «التقريب» (رقم ٨٥٩٦): «مقبولة من الثانية، ويقال لها صحبة».

وقال ابن القيم: «فهذه امرأة تابعة كانت تحت صحابي، وروى عنها الثقات ولم يطعن فيها بحرف، واحتج الأئمة بحديثها وصححوه». «زاد المعاد» (٦٨١ / ٦).

وصحَّحه جمع من الحفاظ؛ مثل محمد بن يحيى الذهلي كما في «المستدرک» (٢٨٣٣)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٣١ / ٢١)، والترمذي (١٢٠٤)، وابن الجارود (٧٥٩)، وابن حبان (٤٢٩٢)، والحاكم (٢٨٣٣)، والذهبي، وابن القطان في «بيان الوهم» (٣٩٣ / ٥) - (٥٩٥)، وابن القيم في «إعلام الموقعين» (٤٧٣ / ٦)، و«زاد المعاد» (٦٧٩ - ٦٨١)، والألباني في «صحيح سنن أبي داود»، وابن ماجه، وغيرها.

وبعد القول في معنى الآية وحكمها؛ ذكر وجه النَّصْب في قوله: ﴿مَتَاعًا﴾، وقوله: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، بأنَّ ﴿مَتَاعًا﴾ نُصِبَ بمضمون الجملة قبله، فهو مصدرٌ مؤكدٌ، و﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ نُصِبَ على أنه صفة لـ «متاع»؛ قال رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مَتَاعًا﴾ فَإِنَّ مَعْنَاهُ: جَعَلَ ذَلِكَ لَهُنَّ مَتَاعًا؛ أَي: الوصية التي كتبها الله لهنَّ. وإنما نصب «المتاع»؛ لِأَنَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ معنى متعهنَّ الله، فقيل: ﴿مَتَاعًا﴾ مصدرٌ من معناه، لا من لفظه.

وقوله: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾: فَإِنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ -تعالى ذكره- جعل ما جعل لهنَّ من الوصية متاعاً منه لهنَّ إلى الحول، لا إخراجاً من مسكن زوجها؛ يعني: لا إخراج فيه منه حتى ينقضي الحول، فنصب ﴿غَيْرَ﴾ على النعت للمتاع»، ثم ذكر معنى آخر الآية من قوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾، فذكر ما يدلُّ عليه قوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، وهو أَنَّ اعتدادهنَّ في بيوت أزواجهنَّ وإحداهنَّ حولاً ليس فرضاً عليهنَّ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ، ولا على ورثة الميت، ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ من النكاح وترك الإحداد، وذكر ما يدلُّ عليه قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وهو تهديدٌ مَنْ خالف من الرجال والنساء أحكام الله المتقدمة في الآيات بترك ما فرض الله من الأحكام، وأداء الحقوق وترك المحافظة على الصلوات، وَأَنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ فِي جَمِيعِ أَحْكَامِهِ وَأَقْضِيَّتِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وكلامه رَحِمَهُ اللهُ في مدلول هذين الاسمين «العزیز، الحكيم» كلامٌ نفيسٌ جديرٌ بتدبره وفهم معناه^(١).

﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ فليُوصُوا ﴿وَصِيَّةً﴾ وفي قراءة بالرفع؛ أي: عليهم ﴿لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ ويُعطوهُنَّ ﴿مَتَاعًا﴾ ما يتمتعنَّ به من النفقة والكسوة ﴿إِلَى﴾ تمام ﴿الْحَوْلِ﴾ من موتهم الواجب عليهنَّ

(١) ينظر النقل كاملاً في: «تفسير الطبري» (٤/٣٩٦-٤٠٩).

تربُّصه، ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ حال؛ أي: غير مُخرجات من مسكنهنَّ ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بأنفسهنَّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يا أولياء الميت ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ شرعاً؛ كالتزوين وترك الإحداد وقطع النفقة عنها ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه. والوصية المذكورة منسوخة بآية الميراث، وتربُّص الحولِ بآية (أربعة أشهرٍ وعشرًا) السابقة المتأخرة في النزول، والسُّكنى ثابتة لها عند الشافعي^(١).

وقول المؤلف: (فليوصوا): يقتضي أن معنى الآية عنده: أمر المتوفين بالوصية لأزواجهم.

وقوله: (وفي قراءة بالرفع؛ أي: عليهم): يُبين أن كلمة ﴿وَصِيَّةٌ﴾ في الآية فيها قراءتان؛ بالنصب وبالرفع، وعلى قراءة الرفع فـ ﴿وَصِيَّةٌ﴾: مبتدأ وخبره محذوف، وتقديره: عليهم.

وقوله: (ويعطوهن): يريد أن ﴿مَتَاعًا﴾ منصوبٌ بفعل محذوف؛ تقديره: ويُعطوهنَّ متاعاً.

وقوله: (ما يتمتعنَّ به...): إلى آخره: تفسيرٌ للمتاع بالنفقة والكسوة. وقوله: (تمام): يُبين أن المتاع يدوم حقاً للمرأة إلى نهاية الحول. وقوله: (من موتهم...): إلى آخره: بيانٌ لبداية الحول، وأن الواجب عليها التربُّص هذه المدّة. وقوله: (حال): يريد أن ﴿غَيْرَ﴾ منصوبٌ على الحال من الأزواج، ولذا قدره: غير مخرجات، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿غَيْرَ﴾

(١) في سكنى المعتدة عن وفاة قولان للشافعية، أحدهما: أنها لا تستحقها؛ وهذا ما اختاره المزني، وصححه منصور التميمي والغزالي، والثاني: أنها تستحقها، وهو الأصح عند العراقيين، وتابعهم الروياني وغيره. ينظر: «الشرح الكبير» للرافعي (٩/٤٩٧-٤٩٨)، و«تكملة المجموع» (٢٠/١٤-١٦)، و«كفاية النبيه» لابن رفة (١٥/٢١٨).

إِخْرَاجٍ ﴿حَالًا مَّوَكَّدَةً لِقَوْلِهِ: ﴿مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾، واختار ابن جرير أن ﴿غَيْرِ﴾ منصوبٌ على النعت لمتاع.

وقوله: (بأنفسهنَّ): يريد: باختيارهنَّ لا بإخراج من ورثة الميت.
 وقوله: (يا أولياء الميت): بيانٌ للمخاطبين بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.
 وقوله: (شرعًا...) إلى آخره: فسَّرَ المعروفَ بما يُباحُ للمرأة شرعًا من الزينة بأنواعها.

وقوله: (وقطع النفقة عنها): يريد أنه داخلٌ في نفي الجناح عن ورثة الميت، فلا جناح على أولياء الميت في قطع النفقة عنها إذا خرجت.
 وقوله: (في ملكه)، وقوله: (في صنعه): يريد أنه تعالى ذو عزّة وحكمة، يدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله: (والوصية المذكورة...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ الوصيةَ بالنفقة والسُّكْنَى حَوْلًا المذكورة في الآية منسوخةٌ بآية الميراث، وبآية التَّبْصُرِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، فعنده أن آية الوصية منسوخةٌ بآية: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، وإن كانت متقدِّمةً عليها في ترتيب الآيات في المصحف، لكنها متأخِّرةٌ عنها في النزول، وهذا قول الجمهور، وقال جماعة: لا نسخ، والآياتُ على ترتيبها.



وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا طَلَّقَتِ مَتَعَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٤١﴾ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤١-٢٤٢]:

هاتان الآيتان آخر الآيات المتعلقة بأحكام الطلاق والعِدَّة، وقد تضمنت الآية الأولى الحكم بالمتاع لكل مطلقَةٍ على أزواجهنَّ، وأنَّه حقُّ أحقَّه الله على المتقين، وظاهرُ الآية وجوبُ المتاع لكلِّ مُطلقَةٍ، وذهب الجمهورُ إلى أنَّ المتاعَ الواجبَ للمطلقة قبل الميسيس ولم يفرض لها صداق، وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ، وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وفي الآية الأُمْرُ بالمتاع، وأمَّا المطلقة قبل الميسيس التي فرض لها صداق، فمتاعها النصفُ الذي تستحقُّه مما فرض لها، وأمَّا المطلقة المدخولُ بها فمتاعها مستحبُّ، فقد ذهب بعضُ أهل العلم إلى القول بظاهر الآية؛ وهو وجوبُ المتاع لكلِّ مطلقَةٍ^(١)، ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴿٤١﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤٩]، فأمر بمتاع المطلقة قبل الميسيس فرض لها صداق أو لم يفرض، ويؤيده أيضًا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨]، فأمر الله نبيَّه أن يعدَّ أزواجه بالمتاع إذا اخترن الطلاق، فهذه خمسُ آياتٍ ثلاثٌ منها في البقرة:

الأولى: في المطلقة قبل الميسيس ولم يفرض لها، فوجوبُ المتاع لها ظاهرٌ.

(١) وإلى وجوب المتاع لكلِّ مُطلقَةٍ: ذهب سعيد بن جبير، وأبو العالية، والحسن البصري، ورجحه الطبري، وأختره من الفقهاء: أبو ثور، والشافعي في أحد قوليه. ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٤٠٩-٤١٢)، و«المحرر الوجيز» (١/٦٠٧-٦٠٨)، و«تفسير القرطبي» (٣/٢٢٨-٢٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/٦٤١-٦٤٢)، (١/٦٦٠). وينظر أيضًا: «تكملة المجموع شرح المهذب» (١/٧٠)، و«المغني» (١٠/١٣٧) وما بعدها.

والثانية: في المطلقة قبل الميسس وقد فرض لها؛ فإذا قيل أَنَّ متاعها النصفُ الذي تستحقُّه فهو وجهٌ قوِيٌّ؛ لِأَنَّ مقصودَ المتاع حاصلٌ بما ثبت لها من نصف الصداق، كيف ومن المستحبُّ أن تعفو عنه للزوج؟ وعلى هذا تكون المطلقة قبل الميسس وقد فرض لها مخصوصة من عموم: ﴿وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتَعًا﴾، ومن عموم آية الأحزاب: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [٤٩] الأحزاب: [٤٩].

والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتَعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾.

واثنتان في الأحزاب:

الأولى: في الدخول بها التي سُمِّيَ لها صداق، وهي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًّا لِأَزْوَاجِكَ﴾، وقد ذكر فيها المتاع.

والثانية قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٤٩]،

وهي في المطلقة قبل الميسس، وقد تقدّم ذكرُ حكم متاعها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾: المعنى: مثل ذلك

البيان الذي تقدّم في آيات الأحكام، من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾

[البقرة: ٢٢٠] إلى قوله: ﴿وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتَعًا﴾؛ أي: مثل هذا البيان يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

آياته في أحكام شرعيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [١٤٤]؛ أي: لِأَجْلِ أَنْ تعقلوا عن الله

ما شرع لكم.

﴿وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتَعًا﴾ يُعْطِيهِ^(١) ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِقَدْرِ الإِمْكَانِ ﴿حَقًّا﴾

نُصِبَ بِفَعْلِهِ الْمَقْدَّرُ ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ اللَّهُ. كَرَّرَهُ لِيَعْمَمَ الْمَمْسُوسَةَ أَيْضًا، إِذْ

(١) هذا ما رجحه شيخنا، وأشار قباوة لنسخة كما أثبتناه، وقال: «فيما عدا الأصل و(ع)، (خ) والفتوحات: (يعطونه)، وأثبت (يعطونه)».

الآية السابقة في غيرها ﴿كَذَلِكَ﴾ كما بين لكم ما ذُكِرَ ﴿بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تتدبرون.

وقول المؤلف: (يُعْطِيهِ): أي: يُعْطِي الأزواج المطلَّقين المتاعَ للمطلقات.
 وقوله: (بقدر الإمكان): يعني: بحسب حالِ الزوجِ يُسرًا وإعسارًا.
 وقوله: (بفعله المقدَّر): أي: الفعل الذي هو مضمون ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ﴾، والتقدير: أحقَّ الله المتاعَ حقًا.
 وقوله: (الله): بيانٌ لمن هو أهلُّ أن يُتَّقَى، والمتقون يتقونه سبحانه.
 وقوله: (كرَّره...) إلى آخره: يريد: كرَّر الأمرَ بالمتاع للمطلقة ليعمَّ الممسوسة؛ أي: المدخول بها؛ لأنَّ الذي تقدَّم الأمرُ بمتاع المطلقة قبل المسيس.



وقوله تعالى: ﴿الْمُتَرِّ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]:

هذه الآية والآيات التي تتلوها في هذا الرُّبْعِ عَوْدٌ إِلَى مَوْضِعِ الْقِتَالِ، وَلَمَّا كَانَ الْقِتَالُ مَكْرُوهُمَا بِالطَّبَعِ لِمَا يُفْضِي إِلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ؛ بَدَأَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ بِذِكْرِ قِصَّةِ أَوْلِيَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِرَارًا مِنَ الْمَوْتِ بِسَبَبِ وِبَاءٍ نَزَلَ بِدِيَارِهِمْ، أَوْ بِسَبَبِ خَوْفٍ مِنْ عَدُوٍّ فَخَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ؛ فِرَارًا مِنْهُ وَجُبْنًا عَنْ قِتَالِهِمْ^(١).

وقوله: ﴿الْمُتَرِّ﴾: الْخَطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ لِكُلِّ مَنْ يَصْلُحُ لِلْخَطَابِ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، فَقَوْلُهُ: ﴿الْمُتَرِّ﴾ أَي: أَلَمْ تَعْلَمْ، وَضَمَّنَ الْفِعْلَ مَعْنَى: يَنْتَهِي، وَلِذَا عُدِّي بِ «إِلَى»، وَتَقْدِيرُهُ: أَلَمْ يَتَّهِ عِلْمُكَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ^(٢)، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ كَثِيرٌ يَبْلُغُونَ الْأُلُوفَ، خَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الْمَوْتِ، فَأَمَاتَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿مُوتُوا﴾، وَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ الْفِرَارُ شَيْئًا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾: يَرْجَحُ أَنَّهُمْ قَرَّبُوا خَوْفًا مِنْ عَدُوٍّ، فَكَانَ فِرَارُهُمْ جُبْنًا، فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ ذَلِكَ الْفِرَارُ شَيْئًا، وَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ: ﴿مُوتُوا﴾ فَمَاتُوا، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِيَدُلَّ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى الْبَعْثِ، ثُمَّ نَوَّه تَعَالَى بِفَضْلِهِ الْعَظِيمِ عَلَى النَّاسِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وَالشُّكْرُ: تَعْظِيمُ الْمَنْعَمِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ^(٣).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٤١٤ وما بعدها)، (٤/٤٢٤)، و«المحرر الوجيز» (١/٦٠٩).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١٨/٣٢٢)، و«التبيان في إعراب القرآن» (١/١٩٣)،

و«الدر المصون» (٢/٥٠٥).

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١١/١٣٤)، (١١/١٣٥) ما بعدها، (١٤/٣٠٨)، «مدارج

الساكنين» (٢/٥٩٣-٥٩٤).

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهامٌ تعجيبٌ وتشويقٌ إلى استماع ما بعده؛ أي: ينته علمك ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أربعةٌ أو ثمانيةٌ أو عشرةٌ أو ثلاثون أو أربعون أو سبعون ألفاً ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ مفعولٌ له، وهم قومٌ من بني إسرائيل، وقع الطاعونٌ ببلادهم ففرُّوا ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ بعد ثمانية أيام أو أكثر بدعاء نبيِّهم حزقييل، بكسر المهملة والقاف وسكون الزاي، فعاشوا دهرًا عليهم أثر الموت، لا يلبسون ثوبًا إلا عاد كالكفن، واستمرت في أسباطهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ ومنه إحياء هؤلاء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ هم: الكفار ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ والقصدُ من ذكر خبر هؤلاء تشجيعُ المؤمنين على القتال، ولذا عطف عليه.

وقول المؤلف: (استفهامٌ تعجيبٌ...) إلى آخره: بيانٌ للمقصود من الاستفهام، وهو أن يعجبَ المخاطبُ مما سيذكر له ويشتاق إلى سماعه. وقوله: (ينتَه علمك): يُبيِّنُ أَنَّ فعل تَرَى بمعنى: تعلم مضمَّنٌ معنى: ينتهي؛ أي: يبلغ أو يصل. وقوله: (أربعةٌ أو ثمانيةٌ...) إلى آخره: يشير إلى الأقوال في عدد الأُلوف، والمعنى: قيل وقيل وقيل. وقوله: (وهم قومٌ...) إلى آخره: هذا أحدُ القولين في أولئك القوم، أنهم من بني إسرائيل، وأنهم فرُّوا من الطاعون، وقيل: أنهم قومٌ من غيرهم، وأنهم فرُّوا من عدوِّ غزاهم، والآيةُ مجملَةٌ، والله أعلم.

وقوله: (بعد ثمانية أيام...) إلى آخره: هذا كله من جنس الإسرائيليات التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب^(١).

وقوله: (ومنه إحياء هؤلاء) يعني: من فضل الله على الناس فضله على هؤلاء القوم بإحيائهم ليتوبوا ويعلموا أنه لا يُنجي حذرٌ من قدر.

وقوله: (هم الكفار): لأنَّ الكفارَ هم أكثرُ الناس، وهم لا يشكرون الله، ولا يؤمنون به، ولا يعلمون حقه عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، وقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله: (والقصدُ من ذكر خبر هؤلاء...) إلى آخره: بيانٌ لمناسبة ذكر هذه القصة، وهو تشجيعُ المؤمنين على القتال، وتحذيرُهم من الفرار أنه لا يُنجي من الموت، ولذا اتصلَ بالقصة الأمرُ بالقتال في سبيل الله^(٢).



(١) قال ابن عطية: «وهذا القصص كله لين الأسانيد، وإنما اللازم من الآية أن الله تعالى أخبر نبيه محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخباراً في عبارة التنبية والتوقيف، عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فراراً من الموت، فأماهم الله تعالى ثم أحياهم؛ ليروا هم وكل من خلف بعدهم أن الإماتة إنما هي بيد الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا اغترار مغتر، وجعل الله تعالى هذه الآية مقدمة بين يدي أمره المؤمنين من أمة محمد بالجهاد. هذا قول الطبري، وهو ظاهر رصف الآية، ولموردي القصص في هذه القصة زيادات اختصرتها لضعفها» «المحرر الوجيز» (١/ ٦١٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/ ٤٢٥)، و«الكشاف» (١/ ٤٧٠)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٦١٠)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٦٦١).

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأُضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٤-٢٤٥]:

هذا أمرٌ من الله لعباده المؤمنين بقتال الكفار والمشركين في سبيل الله؛ أي: إعلاءً لكلمة الله، ويُعلمهم تعالى أنه سميعٌ لأقوالهم ودعائهم، عليهم بإسرارهم وإعلانهم، ثم يدعوهم إلى الإنفاق في سبيله بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، والاستفهامٌ للترغيب والتشويق، وسمى الله ما يُنفق في سبيله قرضًا؛ لأنه مردودٌ عليهم أضعافًا مضاعفة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأُضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، ويُفسرُ هذا التضعيفَ وهذه الكثرة قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: أكثر من ذلك ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]، والقرضُ الحسنُ ما كان لله وعن طيبِ نفسٍ.

وفي قوله: ﴿يُضَاعَفُ﴾ قراءات: بالألف بعد الضاد وكسر العين مع فتح فاء الفعل وضمها، وقرأ بتشديد العين مع فتح الفاء وضمها؛ فهذه أربع قراءات^(١)، والفاءُ إمَّا سببيةٌ فيُنصَبُ الفعلُ بعدها، وإمَّا عاطفةٌ فيُرفعُ الفعلُ بعدها.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾: أي: إنَّ اللهَ بحكمته البالغة يقبضُ عمَّن يشاء فيقدر عليه ﴿وَيَبْصُطُ﴾؛ أي: يوسِّعُ على مَنْ يشاء، ثم إليه يرجعُ العبادُ فيجزئهم بما عملوا من القتال والإنفاق في سبيله.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لإعلاء دينه ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾
لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم، فمجازيكم ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾

(١) ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ١٨٤)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٢٨).

بِإِنْفَاقِ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بَأَنْ يُنْفِقَهُ لِلَّهِ عَنْ طَيْبِ قَلْبٍ ﴿فِيضَاعُهُ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ: «فِيضَعُهُ» بِالتَّشْدِيدِ ﴿لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ مِنْ عَشْرِ إِلَى أَكْثَرٍ مِنْ سَبْعِمِائَةٍ كَمَا سَيَأْتِي ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ﴾ يُمَسِّكُ الرِّزْقَ عَمَّنْ يَشَاءُ ابْتِلَاءً ﴿وَيَبْسُطُ﴾ يَوْسِعُهُ لِمَنْ يَشَاءُ امْتِحَانًا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فِي الْآخِرَةِ بِالْبَعثِ فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ.

وقول المؤلف: (لإعلاء دينه): بيان لمعنى: في سبيل الله.
وقوله: (فمجازيكم): بيان للحكمة من ذكر الاسمين «السميع العليم»، وهو التذكير بالجزاء ترغيباً وترهيباً.

وقوله: (لله عن طيب قلب): هذا بيان لمعنى القرض الحسن.
وقوله: (كما سيأتي): يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية [البقرة: ٢٦١].

وقوله: (يُمَسِّكُ الرِّزْقَ...) إِلَى آخِرِهِ: بَيَانٌ لِمَعْنَى الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لِحِكْمَةِ الْإِبْتِلَاءِ، وَالْإِبْتِلَاءُ وَالْإِمْتِحَانُ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَذَكَرَهُمَا لِتَنْوِيعِ اللَّفْظِ.

وقوله: (بالبعث...) إِلَى آخِرِهِ: بَيَانٌ لِمَعْنَى الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا بُعِثُوا لِقَا رَبَّهُمْ فَجَازَاهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ.



وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أبعث لنا ملكا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٦﴾ [البقرة: ٢٤٦]:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: القول في هذه الجملة كالقول في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ [البقرة: ٢٤٣]، فالاستفهام للتقرير، و﴿تَرَ﴾: تعلم، ضَمَّنَ معنى «يتتهي علمك» ولذا عُدِّي بـ«إلى»، و﴿الْمَلَا﴾: الأشراف.

وقوله: ﴿إِذْ قَالُوا﴾: أي: حين قالوا ﴿لِنَبِيِّ لَهُمْ﴾، لم يُسمَّ هذا النبي، إلا أنه من أنبياء بني إسرائيل الذين من بعد موسى، وقد ذكر ابن جرير اختلاف المفسرين في اسمه ونسبه، وأطال في ذلك^(١)، وليس في شيء مما ذكره ما يمكن الجزم به؛ لأن الروايات في ذلك من الإسرائيليات التي لا يعتمد عليها في العلم، ومما ذكروا أن اسمه شمويل أو شمعون، وقيل: إنه يوشع بن نون، وقد ضعَّف ذلك ابن كثير^(٢)؛ فالله أعلم، والله قد أبهم هذا النبي ولم يُسمِّه؛ فلنسكت عما سكت الله عنه، وقول الملائكة لبيهم: ﴿أبعث لنا ملكا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعنون: عين أميرًا وقائدًا نقاتل معه في سبيل الله.

وقوله: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ المعنى: قال لهم نبيهم: هل تتوقعون إن كُتِبَ عليكم القتال أَلَّا تُقاتلوا؟ فالاستفهام على ظاهره، و«عسى» من أفعال الرجاء، ومعناها هنا التوقع؛ فمعنى الكلام: هل تتوقعون من أنفسكم إن كُتِبَ عليكم القتال أَلَّا تُقاتلوا؟ واسم «عسى»:

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٤٣٥-٤٣٧).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/٦٦٤-٦٦٥).

ضميرُ المخاطب، وخبرُها: المصدرُ المؤولُ أَلَّا تَقَاتِلُوا، وجملة: ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾: جملةٌ شرطيةٌ مُعترضةٌ بين اسم عسى وخبرها، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ دلَّ عليه قوله: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾، فالتقديرُ: «إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فَهَلْ عَسَيْتُمْ»؛ أي: فلعلَّكم لا تقاتلون.

وقوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَايَنَا﴾: المعنى: أيُّ مانعٍ يمنعنا من القتال والحالُ أَنَا أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَايَنَا، فهذا الإخراجُ من أعظمِّ الدواعي لقتال العدو، فليس لنا عذرٌ في التأخر عن القتال.

وقوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾: يُخبر تعالى أَنَّ أَوْلَئِكَ الْمَلَأُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا أُمِرُوا بِالْقِتَالِ تَوَلَّوْا أَكْثَرُهُمْ؛ أي: أَعْرَضُوا فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ لَمَّا دَعَاهُمْ لِقِتَالِ عَدُوِّهِمْ، لَكِنْ اسْتَجَابَ قَلِيلٌ مِنْهُمْ. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: يعني: الناكِلين عن القتال، وفي هذا تهديدٌ لهم بعقوبة الله في الدنيا أو في الآخرة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِإِ﴾ الجماعة ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ﴾ موت ﴿مُوسَى﴾ أي: إلى قصتهم وخبرهم ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ﴾ هو: شمويل ﴿أَبْعَثْ﴾ أقم ﴿لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلُ﴾ معه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تنتظمُ به كلمتنا ونرجعُ إليه ﴿قَالَ﴾ النبيُّ لهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ بالفتح والكسر ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ خبرُ عسى، والاستفهامُ لتقرير التوقع بها ﴿قَالُوا﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَايَنَا بسبيهم وقتلهم، وقد فعل بهم ذلك قومٌ جالوت. أي: لا مانع لنا منه مع وجود مقتضيه. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ عنه وجبنوا ﴿إِلَّا

قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴿ وهم الذين عبروا النهر مع طالوت كما سيأتي. ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ فمجازيهم.

وقول المؤلف: (الجماعة): فسّر الملاء بالجماعة، وهذا أحد القولين، وقيل: الملاء: الأشراف والرؤساء، وهذا هو المشهور في معنى الملاء^(١).
وقوله: (موت): يُبَيِّنُ أَنَّ ﴿ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ على حذفٍ مضافٍ تقديره: من بعد موت موسى، فعلم بذلك أَنَّ قصة الملاء لم تكن في حياة موسى بل بعد موته.

وقوله: (أي: إلى قصتهم وخبرهم): يُبَيِّنُ أَنَّ معنى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ ﴾: ألم تر إلى قصة الملاء.

وقوله: (شمويل): هذا أحد الأقوال في اسم هذا النبي، ولم يثبت بخبر عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذن: فلا يُجزم به.

وقوله: (أقم): أي: عين وانصب ملكًا.
وقوله: (معه): بيان لمرادهم في بعث الملك، وكذلك قوله: (تنتظم به كلمتنا ونرجع إليه). وقوله: (بالفتح والكسر): أي: فتح السين وكسرها قراءتان، والفتح قراءة الجمهور^(٢).

(١) اختار القول الأول: الراغب الأصبهاني، وابن عطية، والقرطبي، والبيضاوي، وابن عاشور. والمشهور أن الملاء هم الأشراف، واختاره: ابن قتيبة، والطبري، والزجاج، والبعوي، والرازي، وأبو حيان. ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٩٢)، و«المفردات» للراغب (ص ٧٧٦)، و«تفسير الطبري» (٤/٤٣٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٣٢٥)، و«تفسير البغوي» (١/٢٩٥)، و«المحرر الوجيز» (١/٦١٤)، و«تفسير الرازي» (١/٦٠١)، و«تفسير القرطبي» (٣/٢٤٣)، و«تفسير البيضاوي» (١/١٤٩)، و«البحر المحيط» (٢/٥٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢/٤٨٤).

(٢) قرأ نافع وحده ﴿ عَسَيْتُمْ ﴾ بكسر السين؛ وقرأ الباقون ﴿ عَسَيْتُمْ ﴾ بفتحها. ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ١٨٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/٢٣٠).

وقوله: (خبر عسى): يريد: ألا تقاتلوا.

وقوله: (والاستفهام...) إلى آخره: يريد: الاستفهام بهل في قوله: ﴿هَلْ

عَسَيْتُمْ﴾.

وقوله: (بسيهم وقتلهم): بيان لمعنى إخراجهم من أبنائهم.

وقوله: (وقد فعل بهم...) إلى آخره: بيان للعدو الذي أخرجهم من

ديارهم وأبنائهم، ويدلُّ له قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾.

وقوله: (لا مانع لنا منه): تفسير لقولهم: ﴿وَمَا لَنَا﴾.

وقوله: (مع وجود مقتضيه) وهو الإخراج من الديار والأبناء.

وقوله: (عنه): يعني: تولوا عن القتال؛ أي: أعرضوا وجبنوا.

وقوله: (وهم الذين...) إلى آخره: فسّر القليل في هذه الآية بالقليل في

قوله: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ولهذا قال: (كما سيأتي).

وقوله: (فمجازيهم): بيان للمراد من ذكر العلم، وهو الوعيد بالمجازة

على الظلم.



وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧].

يُخبر تعالى أَنَّ نبيَّ بني إسرائيل الذي طلبوا منه أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ ملكًا يقاتلون معه عدوَّهم الذي أخرجهم من ديارهم وأبنائهم، وهو جالوتُ وُجودُه، أَنَّ نبيَّهم قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾: فيحتمل أَنْ بَعَثَ طالوتَ كان بوحى من الله على النبيِّ، ولعلَّ النبيَّ قد دعا ربَّه أَنْ يبعثَ له ملكًا منهم، فبعثَ اللهُ طالوتَ، ويحتملُ أَنَّ النبيَّ اختارَ طالوتَ لما رأى فيه من الصفات الحسية والمعنوية التي تُأهِّله لقيادة الجيش، ولكن بني إسرائيل كعادتهم لم يستجيبوا لنبيهم في اختيار طالوتَ، ولهذا قالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾؛ يعني: كيف يكون ملكٌ علينا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾، ولعلَّ طالوتَ لم يكن من أشرفهم^(١).

قالوا: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ فيقدِّم علينا بسببه، فردَّ عليهم النبيُّ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني: اختاره وفضَّله ببسطةٍ في العلم: من سعة العلم ووفرة العقل، وببسطةٍ في الجسم: طولاً وقوةً.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٧﴾﴾: يحتملُ أَنْ يكون من تمام كلام النبيِّ، ويحتملُ أَنْ يكون كلاماً مُستأنفاً للدلالة على أَنَّ مردَّ الاصطفاء والتفضيل إلى مشيئة الله، وَأَنَّ الله واسعُ الفضل والعطاء، عليمٌ بمن يستحقُّ ذلك ومن لا يستحقُّ^(٢).

(١) قال المفسرون: إنما أنكروا أَنْ يكون ملكاً عليهم؛ لأنه لم يكن من سبط النبوة، ولا من سبط المملكة، بل كان فقيراً من أحمل سبط في بني إسرائيل. ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٤٨-٤٥٤)، و«المحرر الوجيز» (٢/٥-٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٤٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٢/٧)، و«البحر المحيط» (٢/٥٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢/٤٩٢).

وسأل النبيُّ رَبَّهُ إِرْسَالَ مَلِكٍ، فَأَجَابَهُ إِلَى إِرْسَالِ طَالُوتَ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ كَيْفَ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأنه ليس من سبط المملكة ولا النبوة، وكان دَبَّاعًا أَوْ رَاعِيًا ﴿وَلَمْ يُوْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ يستعينُ بها على إِقَامَةِ الْمُلْكِ ﴿قَالَ﴾ النبيُّ لَهُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ﴾ اختاره للملك ﴿عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ سَعَةً ﴿فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ وكان أَعْلَمَ بني إِسْرَائِيلَ يَوْمَئِذٍ وَأَجْمَلَهُمْ وَأَتَمَّهُمْ خَلْقًا ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ إِيْتَاءَهُ، لا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ فَضْلُهُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَن هُوَ أَهْلٌ لَهُ.

وقول المؤلف: (وسأل النبي...) إلى آخره: ذكر المفسرون أَنَّ هذا النبيَّ لَمَّا طَلَبَ مِنْهُ بنو إِسْرَائِيلَ أَن يَبْعَثَ مَلِكًا دَعَا رَبَّهُ فَبَعَثَ اللَّهُ طَالُوتَ، وَذَكَرَ الْمَفْسُرُونَ أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا، وَلَيْسَ مِنْ بَيْتِ الْمُلْكِ فِيهِمْ، وَلِذَلِكَ قَالُوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا...﴾ إلى آخر كلامهم.

وقوله: (كيف): تفسيرٌ لقوله في الآية: ﴿أَنَّى يَكُونُ﴾، وهو استفهامٌ يُفِيدُ التَعْجَبَ أَوْ الْاِسْتِنْكَارَ.

وقوله: (لأنه ليس من سبط المملكة...) إلى آخره: هذا مأخوذٌ من الروايات الإسرائيلية التي لا يُجْزَمُ بِهَا.

وقوله: (يستعينُ بها على إِقَامَةِ الْمُلْكِ): هذا توجيهٌ لاعتبار سعة المال مسوغٌ لاصطفائه ملكًا. وقوله: (اختاره للملك): تفسيرٌ لقوله: ﴿اصْطَفَاهُ﴾، والاصْطَفَاءُ: افْتِعَالٌ مِنَ الصَّفْوِ، قُلِبَتْ فِيهِ التَّاءُ طَاءً لِاتِّصَالِهَا بِالصَّادِ وَتَقَارِبِ مَخْرَجِيهِمَا، فَأَصْلُ الْكَلِمَةِ «اصْتَفَاهُ»^(١).

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣٢٨/١)، و«تفسير الفاتحة والبقرة» لابن عثيمين (٢١٣/٣).

وقوله: (سعة): تفسير بسطة، والكلمة مأخوذة من البسط؛ وهو التوسعة؛
كما قال تعالى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [الرعد: ٢٦] (١).

وقوله: (وكان أعلم بني إسرائيل...) إلى آخره: بيان لحاله في العلم
والجسم.

وقوله: (إيتاءه): تقدير لمفعول ﴿يَشَاءُ﴾.

وقوله: (لا اعتراض عليه): لأن تديره لحكمة بالغة وبمشيئة نافذة.

وقوله: (فضله)، وقوله: (بمن هو أهل له): هذا بعض ما دل عليه الاسمان
الشريفان من أسماء الله، ومعناها أوسع مما ذكر المؤلف.



(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٩٢)، و«المفردات» للراغب (ص ١٢٣).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

[البقرة: ٢٤٨]:

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ نَبِيِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾؛ أَي: علامة أهلية طالوت للملك، وَأَنَّ اللَّهَ بَعَثَهُ لَكُمْ مَلَكًا؛ إِنَّ آيَةَ ذَلِكَ: ﴿يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾؛ وهو صندوق له شأنٌ عند بني إسرائيل، روى فيه ابنُ جريرٍ عن وهب بن منبه^(١) وغيره روايات إسرائيلية عجيبة لا يتوقف عليها ما أُريد منّا فهمه من القرآن^(٢).

قال النبي: ﴿فِيهِ﴾: أَي: في التابوت ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، واختلف المفسرون في المراد بالسكينة؛ قيل: هي طمأنينة تحصل لهم عند وجود التابوت، فتقوى عزائمهم وشجاعتهم، وعلى هذا فالسكينة أمرٌ معنويٌّ، وقيل: إنها شيءٌ معيّنٌ موضوعٌ في التابوت، واختلفت عبارات أصحاب هذا القول عن المراد بالسكينة، والقول الأوّل أظهر^(٣)، وروى ابنُ جريرٍ أقوالَ المفسرين في السكينة عن جماعةٍ من السلف عن عليٍّ وابنِ عباسٍ ومجاهدٍ والسُّديِّ ووهب بن منبه^(٤)، وكلُّها من نوع الإسرائيليات، ومنها ما هو قريبٌ

(١) وهب بن منبه، أبو عبد الله، اليماني، صاحب الأخبار والقصص، وكانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء، وسير الملوك، ولد في زمن عثمان سنة (٣٤هـ)، ورحل وحج، وثقه أبو زرعة والنسائي وجماعة، وروايته للمسند قليلة، وإنما غزارة علمه في الإسرائيليات، ومن صحائف أهل الكتاب، توفي سنة (١١٠هـ) وقيل: بعد ذلك. ينظر: «الطبقات» لابن سعد (٥/٥٤٣)، و«السير» (٤/٥٤٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٤٥٩-٤٦٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٤٦٧-٤٧١)، و«المحرر الوجيز» (٢/٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/٦٦٦-٦٦٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٤٦٧-٤٧٠).

ومنها ما هو غريب، وروى عن ابن جريج^(١) عن عطاء: أَنَّ السكينة هي الآيات التي تسكنُ إليها النفس^(٢)، واختار ذلك ابنُ جرير، وَأَنَّ ذلك يَعْمُ كلُّ ما قيل في المراد بالسكينة، قال رَحِمَهُ اللهُ: «وأولى هذه الأقوال بالحق في معنى السكينة، ما قاله عطاء بن أبي رباح، من الشيء تسكنُ إليه النفوسُ من الآيات التي تعرفونها»، ثم قال: «وإذا كان معنى السكينة ما وصفت، فجائزٌ أَنْ يكون ذلك على ما قاله عليٌّ ومجاهدٌ ووهبُ بن منبه والسُّديُّ»^(٣).

وقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾: قيل: إنها بعض الألواح التي كتب الله فيها التوراة لموسى، وذكر ابنُ جرير في المراد بالبقية أقوالاً كثيرةً واختارَ أَنَّها كلها جائزة، فلا يُجزمُ بتضعيف شيءٍ وتصويب شيءٍ^(٤)، وكلُّها من نوع الإسرائيليات، وما ذهب إليه ابنُ جرير هو معنى الحديث: ((إذا حدثكم أهل الكتاب؛ فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم))^(٥).

وقوله: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: أي: تأتي به الملائكة تحمله في الهواء؛ أي: وأنتم تشاهدون ذلك، وتعريف التابوت بـ«أل» يدلُّ على أَنَّهُ تابوتٌ معروفٌ لهم؛ قاله ابنُ جريرٍ ورَجَّحه^(٦).

وجملة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ﴾: يُحتملُ أَنْ تكون من تمام كلام نبيِّ بني إسرائيل، ويحتملُ أَنْ تكون مُستأنفةً؛ خطابٌ للمؤمنين أصحابِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعلى الاحتمالِ الأوَّلِ: اسمُ الإشارةِ يرجعُ إلى إتيان التابوت

(١) ابن جريج: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي الأموي، أبو خالد، وقيل: أبو الوليد، كان إمامًا حافظًا فقيهاً، له مصنفات؛ منها «التفسير» وغيره، توفي سنة (١٥٠هـ).

ينظر: «السير» (٦/٣٢٥)، و«طبقات المفسرين» للداودي (١/٣٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٤٧١). (٣) «تفسير الطبري» (٤/٤٧٢).

(٤) «تفسير الطبري» (٤/٤٧٢-٤٧٧).

(٥) أخرجه البخاري (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٤٦٦).

تحمله الملائكة، وعلى الاحتمال الثاني: اسم الإشارة يرجع إلى قصة الملائكة من بني إسرائيل مع نبيهم^(١)، وجواب الشرط ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ محذوفٌ دلٌّ عليه ما قبله.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ لَمَّا طلبوا منه آيةً على مُلكه ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ الصندوق، كان فيه صورُ الأنبياء، أنزله الله على آدم واستمرَّ إليهم فغلبتهم العمالقةُ عليه وأخذوه، وكانوا يستفتحون به على عدوِّهم ويُقدِّمون في القتال ويسكنون إليه كما قال تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ لِّطَمَائِنَةِ قُلُوبِكُمْ﴾ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ أَي: تركاهما - وهو نعلا موسى وعصاه، وعمامة هارون وقفيز من المن الذي كان ينزل عليهم، ورضاض من الألواح - ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ حالٌ من فاعل «يأتيكم». ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم﴾ على مُلكه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فحملته الملائكة بين السماء والأرض، وهم ينظرون إليه، حتى وضعت عند طالوت، فأقروا بمُلكه وتسارعوا إلى الجهاد، فاختر من شُبَّانهم سبعين ألفاً.

وقول المؤلف: (لَمَّا طلبوا): معنى هذا: أن بني إسرائيل لم يُصدقوا نبيهم أن الله بعث طالوت ملكاً عليهم حتى يأتيهم بآية تدلُّ على صدقه، وهذا ما ذكره المفسِّرون، وليس هذا بمستبعدٍ من بني إسرائيل؛ لَمَّا عُرف من تعنتهم على أنبيائهم، ولكن ليس في القرآن تصريحٌ بذلك، وقول نبيهم: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾: يحتمل أن يكون جواباً لطلبهم آية، ويحتمل أن يكون ذلك تأكيداً لخبره؛ لأنَّ الله بعث لهم طالوت ملكاً.

(١) ينظر: «تفسير البيضاوي» (١/١٥١).

وقوله: (الصندوق...) إلى آخره: ما ذكره من شأن التابوت وما فيه هو من الأخبار الإسرائيلية، والذي يجب الإيمان به هو ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ...﴾ إلى قوله: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾، والله أعلم.

وقوله: (طمأنينة لقلوبكم): بيان للمراد بالسكينة، وهو أجود ما قيل في تفسيرها.

وقوله: (تركاههما...) إلى آخره: جمع في هذه العبارة أكثر أقوال المفسرين في المراد بالبقية، وكلها أقوال إسرائيلية لا يمكن الجزم منها بشيء. وقوله: (حال...) إلى آخره: يُبين أن جملة ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ في محل نصب على الحال من ﴿التَّابُوتُ﴾، وهو فاعل «يأتي».

وقوله: (فحملته الملائكة...) إلى آخره: هذا بعض ما جاء في الروايات الإسرائيلية، فالله أعلم.



وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّكَلَّفُوا اللَّهَ كَمًّا مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٤٩﴾

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

﴿٢٥٢﴾ [البقرة: ٢٤٩-٢٥٢]:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ طَالُوتَ أَنَّهُ بَعْدَمَا صَارَ مَلِكًا عَلَى الْجُنُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ رَأَوْا آيَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا نَبِيُّهُمْ آيَةً لِمَلِكِ طَالُوتَ فَصَدَّقُوا نَبِيَّهُمْ وَأَقْرَبُوا بِمُلْكِ طَالُوتَ عَلَيْهِمْ وَاسْتَعَدُّوا لِلْقِتَالِ وَالخُرُوجِ مَعَ طَالُوتَ فَخَرَجَ بِهِمْ، فَلَمَّا فَصَلَ مِنَ الْبَلَدِ؛ أَي: فَارَقَ الْبَلَدَ وَسَارَ بِهِمْ، يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ لَجُنُودِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾: أَي: سَيَبْتَلِيكُمْ؛ أَي: يَخْتَبِرُكُمْ ﴿بِنَهَرٍ﴾ سَنَاتِي عَلَيْهِ فِي طَرِيقِنَا، فَلَا تَشْرَبُوا مِنْهُ، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾: أَي: لَيْسَ مِنْ أَصْحَابِي وَلَا يَتَّبِعُنِي، ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾: أَي: لَمْ يَذُقْهُ ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾: أَي: مِنْ أَصْحَابِي وَجُنْدِي. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾: أَي: فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ وَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنْ صَحْبَتِي، وَالِاسْتِثْنَاءُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾، وَمِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، فَإِنَّ مَنْ اعْتَرَفَ غُرْفَةً فَقَدْ شَرِبَ قَدْرًا مِنَ الْمَاءِ، وَطَعِمَ الْمَاءَ؛ أَي: ذَاقَهُ.

ثم أخبر تعالى أَنَّ أَكْثَرَ الْجُنُودِ شَرَبُوا مِنَ النَّهْرِ، وَقَلِيلٌ مِنْهُمْ لَمْ يَشْرَبْ، وَهَؤُلَاءِ الْقَلِيلُ مِنْهُمْ لَمْ يَطْعَمِ الْمَاءَ، وَمِنْهُمْ مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ، فَصَارَ جُنُودٌ طَالُوتَ ثَلَاثَ طَوَائِفَ:

طائفةً شربوا: قيل معناه: كرعوا^(١) يشربون من النهر بأفواههم، وهؤلاء هم الأكثرون، قيل: كان الجنودُ ثمانين ألفاً، فشرَب منهم ستَّة وسبعون ألفاً^(٢). والطائفةُ الثانيةُ: هم الذين لم يَطعموا ماءَ النهر.

والثالثةُ: هم الذين اغترفوا غُرْفَةً واحدةً، وَقُرِئَ بفتح الغين من ﴿غُرْفَةً﴾، وبضمِّها^(٣)، واختار ابنُ جرير قراءةَ ضم الغين وقال: هي اسمٌ للماء المغترف بالكف، وبالفتح هي: المرَّةُ من الغرف؛ بمعنى: الاغتراف^(٤).

وَأخبر تعالى أَنَّ طَالُوتَ وَمَنْ ثَبَّتَ مَعَهُ - وهم: الطائفةُ الثانيةُ والثالثةُ - لَمَّا جَاوَزُوا النَّهْرَ ضَعُفَ أَكْثَرُهُمْ وَخَافُوا مِنَ الْعَدُوِّ، وَقَالُوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، فثَبَّتَهُمْ إِخْوَانُهُمُ الْمُوقِنُونَ بِوَعْدِ اللَّهِ، الَّذِينَ يَطْنُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ؛ فَقَالُوا لَهُمْ: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٥)، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ﴾؛ أَي: جَاوَزَ طَالُوتُ النَّهْرَ، وَالَّذِينَ مَعَهُ؛ أَي: جَاوَزُوا النَّهْرَ، فَعَلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ شَرَبُوا مِنَ النَّهْرِ رَدَّهُمْ طَالُوتُ وَبَقِيَ مَعَهُ الَّذِينَ لَمْ يَشْرَبُوا، لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ هَابُوا الْقِتَالَ فَنَصَحَهُمْ إِخْوَانُهُمْ فَثَبَّتُوا وَبَرَزُوا لِقِتَالِ جَالُوتَ وَجُنُودِهِ؛ أَي: صَارُوا فِي

(١) الكرع: أن يشرب الرجل بفيه من النهر غير أن يشرب بكفيه أو بإناء. «تهذيب اللغة» (٢٠١/١).

(٢) قاله السدي. ينظر: «تفسير الطبري» (٤٨٧-٤٨٨).

(٣) قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿غُرْفَةً﴾ بفتح الغين. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف: ﴿غُرْفَةً﴾ بضمها. ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ١٨٦-١٨٧)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/٢٣٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٨٦/٤).

البراز، وهو المكان المتسع من الأرض^(١)، فلَمَّا برزوا لقتال العدو دعوا رَبَّهُمْ واستنصروه فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾؛ أي: أنزل علينا، ﴿وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا﴾ فلا نَفِر، ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾؛ وهم: جالوت وجنوده، فصبرهم الله وثبتهم ونصرهم على جالوت وجنوده، ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وكان في جند طالوت نبيُّ الله داود، فقتل داودُ جالوتَ، ولعلَّ ذلك قبل أن يكون نبيًّا.

وقد روى ابن جرير رواياتٍ إسرائيليةٍ في شأن طالوت وجنوده والنهر، وصفة قتل داودَ لجالوت^(٢)، وكلَّها مما لا يُصدَّق ولا يُكذَّبُ، أمَّا ما دلَّ عليه القرآنُ فيجب الإيمانُ به والقطعُ بصحَّته مثل: أَنَّ الملائكةَ من بني إسرائيل سألوا نبيَّهُمْ أَن يبعثَ لهم ملكًا يُقاتلون معه، وَأَنَّ اللهَ بعثَ لهم طالوتَ ملكًا، وجعل له آيةً تدلُّ على أَنَّ اللهَ بعثه ملكًا عليهم، وهي: أَن يأتِيهم التابوتُ تحمله الملائكةُ، وَأَنَّ طالوتَ سارَ بجنوده، وَأَنَّهُم ابتلوا بنهرٍ ونهاهم طالوتُ عن الشرب منه، وَأَنَّهُم صاروا في الشرب من النهر طوائف، وَأَنَّهُم برزوا لقتال جالوت وجنوده، وَأَنَّهُم هزموهم وقتل داودُ جالوتَ، كلُّ هذا يجبُ القطعُ به لدلالة القرآن عليه، وما سوى ذلك مما ذكر في الروايات الإسرائيلية فمشكوكٌ فيه لا يُصدَّق ولا يُكذَّبُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾: أي: أتى الله داودَ الملكَ على بني إسرائيل، والحكمة: وهي النبوة^(٣)، ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾: من العلوم الدينية والسياسية والصناعية. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾: كدفع الكافرين بجهاد المؤمنين؛ ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ بنشر

(١) ينظر: «المفردات» (ص ١١٨). (٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/ ٤٩٨-٥١٣).

(٣) ينظر: «الوجوه والنظائر» لمقاتل (ص ٧٣)، و«نزهاة الأعين النواظر» (ص ٢٦٢).

الكفر والشرك والمعاصي وهدم بيوت العبادة. ﴿وَلَا كُنَّ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾: أي: إحسانٍ ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢٥١)، بإقامة الدين ونصر المؤمنين على الكافرين. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾: الإشارة لما تقدم من الآيات وغيرها من آيات القرآن، يتلوها جبريلُ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحق؛ أي: مشتملةً على الحقِّ صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، ليتلوها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الناس؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢٥٢): خبرٌ من الله وبشارةٌ بأنَّ محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رُسلِ الله الذين اصطفاهم وأرسلهم بالبينات، وأنزل عليهم الكتاب والحكمة، وجعلهم حجَّةً على عباده، وأخرج بهم من شاء من الظلمات إلى النور، وهداهم إلى الصراط المستقيم.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ﴾ خرج ﴿طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ من بيت المقدس، وكان حراً شديداً، وطلبوا منه الماء ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ مُختبركم ﴿بِنَهْرٍ﴾ ليظهر المطيع منكم والعاصي. وهو بين الأردن وفلسطين ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ﴾ أي: من مائه ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: من أتباعي ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ يذقه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً﴾ بالفتح والضمُّ ﴿بِيَدِهِ﴾ فاكتفى بها ولم يزد عليها؛ فإنه مِنِّي. ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ لَمَّا وافوه بكثرةٍ ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ فاقتصروا على الغُرْفَةِ. روي أنها كفتهم لشربهم ودوابهم، وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر^(١).

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥٧) عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: حدثني أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن شهد بدرًا: «أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت، الذين جازوا معه النهر، بضعة عشر وثلاث مائة»، قال البراء: «لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن».

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهم الذين اقتصروا على الغرفة
 ﴿قَالُوا﴾ أي: الذين شربوا ﴿لَا طَاقَةَ﴾ قُوَّةَ ﴿لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾
 أي: بقتالهم. وجبنوا ولم يُجاوزوه. ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يوقنون ﴿أَنَّهُمْ
 مُلَاقُوا اللَّهِ﴾ بالبعث، وهم الذين جاوزوه ﴿كَمْ﴾ خبرية بمعنى: كثير
 ﴿مَنْ فِتَّةٍ﴾ جماعة ﴿فَلَيْلَةٍ غَلَبْتَ فَتَّةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بإرادته ﴿وَاللَّهُ مَعَ
 الصَّابِرِينَ﴾ بالعون والنصر.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي: ظهروا لقتالهم وتصافوا ﴿قَالُوا
 رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ اصْبُبْ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بتقوية قلوبنا على الجهاد
 ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿فَهَزَمُوهُمْ﴾ كسروهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾
 بإرادته ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ﴾ وكان في عسكر طالوت ﴿جَالُوتَ وَآتَاهُ﴾ أي:
 داود ﴿اللَّهُ الْمَلِكُ﴾ في بني إسرائيل ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ النبوة بعد موت شمويل
 وطالوت، ولم يجتمعا لأحدٍ قبله ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ كصناعة الدروع
 وَمَنْطِقِ الطَّيْرِ. ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ﴾ بدل بعض من «الناس»
 ﴿بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ بغلبة المشركين وقتل المسلمين وتخريب
 المساجد ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فدفع بعضهم ببعض.
 ﴿تِلْكَ﴾ هذه الآيات ﴿آيَاتُ اللَّهِ تُتْلُوهَا﴾ نقضها ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمَّد
 ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. التأكيد بـ«إن» وغيرها ردُّ
 لقول الكفار له: «لست مُرسلاً».

وقول المؤلف: (خرج): أي: فارق البلد.

وقوله: (من بيت المقدس... إلى آخره: هذا مما ذكر في المرويات عن

بني إسرائيل.

وقوله: (وهو بين الأردن وفلسطين): هذا يقتضي أنه نهرٌ معيّنٌ، والنهرُ في الآية مُنكّرٌ، والله أعلم.

وقوله: (أي: من مائه): هذا بدهيٌّ لا يحتاج إلى تفسير.

وقوله: (من أتباعي): أي: من جند الذين يُقاتلون معي.

وقوله: (يدقّة): يُقال: طعمَ الماءِ والشرابِ: ذاقه، بوضع شيءٍ منه في

فمه.

وقوله: (بالفتح والضّم): يُشير إلى القراءتين؛ يعني: قُرئَ بفتح الغين

وضمّها.

وقوله: (ولم يزد عليها) يعني: غرفَ بيده غرفةً واحدةً.

وقوله: (لَمَّا وافوه): أي: النهر، وافوه: أي: وصلوا إليه.

وقوله: (فاقتصروا على الغرفة...) إلى آخره: هذا مما ذكر في الروايات

الإسرائيلية.

وقوله: (هم الذين اقتصروا على الغرفة): وأولى منهم من لم يطعم الماء؛

لقول طالوت: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾.

وقوله: (الذين شربوا): هذا غلطٌ من المؤلّف؛ فإن الذين شربوا لم

يجاوزوا النهر؛ لقوله عن طالوت: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾.

وقوله: (وجبنوا ولم يجاوزوه): يريد: الذين شربوا لم يُجاوزوا النهر،

وهم: الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ﴾، كما صرّح به قبل، وظاهرُ

القرآن أنّ الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾؛ هم كثيرٌ ممن

جاوزَ النهر مع طالوت^(١).

(١) وهو قول عن البراء، والحسن، وقتادة، والربيع، وابن زيد: أنه ما تجاوز النهر إلا مؤمن.

ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٤٨٩-٤٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٢/١٤)، و«زاد المسير»

(١/٢٢٦).

وقوله: (يوقنون): فسّر الظنّ باليقين، وهذا أحدُ معاني الظنّ، وهو المناسبُ للسياق في هذه الآية.

وقوله: (وهم الذين جاوزوه): ظاهره أنّ ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ﴾، وقالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾؛ هم كلُّ الذين جاوزوا النهرَ مع طالوت، وظاهرُ القرآن أنّهم طائفةٌ منهم.

وقوله: (ظهِرُوا لِقَاتِهِمْ): تفسيراً لقوله: ﴿بَرَزُوا﴾، والمعنى: ظهروا في براز من الأرض؛ أي: مُتَّسِع.

وقوله: (ولم يجتمعا لأحدٍ قبله): أي: النبوة والملك.



قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَعَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]:

يُخبر تعالى أَنَّ الرسل الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٥٢﴾ قد فَضَّلَ بعضهم على بعضٍ، وخصَّ مَنْ شاء منهم بما شاء من التفضيل؛ فمنهم مَنْ كَلَّمَهُ اللهُ؛ كموسى ومحمد - صلى الله عليهما وسلم - ومنهم مَنْ رَفَعَهُ اللهُ درجاتٍ؛ كإبراهيم ومحمد - عليهما الصلاة والسلام -، وذلك قوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، وقوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، لا يُعارضه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لا تفضلوا بين أنبياء الله))^(١)، وقوله: ((لا تخيروني على موسى))^(٢)، أي: لا تفضلوني، وأحسن ما قيل في الجمع: أَنَّ النهيَ عن التفضيل ما يكون على وجه التعصُّب للمفضَّل، أو على وجه الازدراء للمفضَّل عليه، وذكر في الجمع وجوهٌ أخرى^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَعَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ﴾: أي: الحجج الواضحات، ويدخل فيها إيتاء الإنجيل وما ذكر من خلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص وإخراج الموتى، وكل ذلك بعلم الله.

وقوله: (أَيَّدَهُ): أي: قوّاه، ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: جبريل، وقيل: هو العلم الذي أوحاه الله إلى عيسى؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، والقول الأول أشهر^(٤)، وأخبر أنه أتى عيسى ابن مريم البيئات

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) وهناك أجوبة أخرى بلغت خمسة أوجه. ينظر: «شرح مشكل الآثار» (٥٦-٥٧) وما بعدها، و«كشف المشكل من حديث الصحيحين» لابن الجوزي (٣/١٤٣-١٤٤)، و«شرح مسلم» للنووي (١٥/٣٧-٣٨)، و«فتح الباري» (٦/٤٤٤).

(٤) تقدم في (ص ١٩٠) في الآية ٨٧.

وأَيُّهُ بَرُوحُ الْقُدُسِ؛ وَهُوَ جَبْرِيْلٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، وَفَضَّلَ سَبْحَانَهُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ بِمَا آتَاهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَأَيَّدَهُ بَرُوحُ الْقُدُسِ؛ وَهُوَ جَبْرِيْلٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْأَبْيِّنَاتُ﴾: يَعْنِي تَعَالَى: أَنَّ الَّذِينَ أَقْتَلُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ بِالْبَيِّنَاتِ أَنَّ اقْتِلَالَهُمْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، وَهُوَ مَا بَيْنَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾، ثُمَّ أَكَّدَ تَعَالَى أَنَّ الْاِقْتِتَالَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِ كَانَ بِإِرَادَتِهِ؛ أَي: الْإِرَادَةَ الْكُونِيَّةَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يَقْتُلُوا مَا أَقْتَلُوا، ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، فَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِيمَا يَفْعَلُ وَيُرِيدُ.

﴿تِلْكَ﴾ مَبْتَدَأُ ﴿الرُّسُلُ﴾ صِفَةٌ، وَالْخَبْرُ ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بِتَخْصِيصِهِ بِمَنْقِبَةٍ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ كَمُوسَى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ أَي: مُحَمَّدًا ﴿دَرَجَاتٍ﴾ عَلَى غَيْرِهِ؛ بِعَمُومِ الدَّعْوَةِ، وَخَتَمِ النَّبَوَّةِ بِهِ، وَتَفْضِيلِ أُمَّتِهِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَّمِ، وَالْمَعْجَزَاتِ الْمَتَكَاثِرَةِ، وَالْخِصَائِصِ الْعَدِيدَةِ ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قَوَيْنَاهُ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جَبْرِيْلَ، يَسِيرُ مَعَهُ حَيْثُ سَارَ.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هُدَى النَّاسِ جَمِيعًا ﴿مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ بَعْدَ الرُّسُلِ؛ أَي: أُمَّمِهِمْ ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ لِاخْتِلَافِهِمْ وَتَضَلُّلِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ لِمَشِيئَتِهِ ذَلِكَ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ﴾ ثَبَتَ عَلَى إِيمَانِهِ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ كَالنَّصَارَى بَعْدَ الْمَسِيحِ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾

﴿ مَا اقْتُلُوا ﴾ تأكيد ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ من توفيق مَنْ شاء وخذلان مَنْ شاء.

وقول المؤلف: (بتخصيصه...) إلى آخره: يعني: أن التفضيل لبعضهم يكون بإعطاء فضيلة لم يُعطَ غيره مثلها؛ كتكليم الله لموسى، وخلق آدم بيديه. وقوله: (أي: محمدًا): رفع الدرجات لا يختص بمحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد جاء في القرآن ذكر رفع الدرجات لإبراهيمَ ويوسفَ وإدريسَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لكنَّ محمدًا أرفعهم درجات.

وقوله: (على غيره...) إلى آخره: يريد: أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضِّلَ على غيره من الأنبياء والرسل بفضائل كثيرة، منها ما ذكره المؤلف. وقوله: (يسير معه حيث سار): هذا تفسيرٌ للتأييد، وهذا التفسيرُ يحتاج إلى دليل، فيكفي قوله: (قويناه).

وقوله: (أي: أمهم): تفسيرٌ للاسم الموصول في قوله: ﴿ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾.

وقوله: (لاختلافهم...) إلى آخره: بيانٌ لسبب الاقتتال، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ اختلفوا ﴾.

وقوله: (لمشيئته ذلك): بيانٌ أن سبب الاقتتال - وهو: الاختلاف - واقعٌ بمشيئته تعالى. وقوله: (كالنصارى): تخصيصُ المؤلف النصارى بالذكر بمناسبة ذكر عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ في أول الآية.

وقوله: (من توفيق مَنْ شاء...) إلى آخره: بيانٌ أن التوفيقَ والخذلانَ من أفعاله تعالى، وأن ذلك بإرادته التي بمعنى المشيئة؛ كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج: ١٨].



وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤]:

هذا أمرٌ من الله لعباده المؤمنين بالإنفاق مما رزقهم من المال ما داموا في هذه الحياة التي جعلت ميداناً للتسابق في الخيرات، وأن يُبادروا قبل أن يأتي اليوم الذي لا يخلص من شره بيعٌ؛ وهو ما يكون بالافتداء، ولا فيه خلةٌ يدفع بها الخليل عن خليله، وليس فيه شفاعَةٌ تُقبل من الشافع وتنفع المشفوع له، وهذا الأمر بالإنفاق مُتصلٌ بما تقدّم من الأمر بالقتال في سبيل الله [آية: ٢٤٤]، ومؤكدٌ للترغيب في إقراض الله قرصاً حسناً [آية: ٢٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾: بيانٌ لأخسر الناس في ذلك اليوم، فلا يُنجيهم من عذاب الله فديةٌ ولا شفاعَةٌ ولا مودَّةٌ، كما قال تعالى: ﴿مَالِ الظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ زكاته ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ صدقةٌ تنفع ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ بغير إذنه، وهو يومُ القيامة. وفي قراءة: برفع الثلاثة. ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بالله، أو بما فرض عليهم ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لوضعهم أمر الله في غير محلّه.

وقول المؤلف: (زكاته): هذا يقتضي قصر مقصود الآية على الزكاة، وليس بظاهر؛ فإن الآية عامّة ومُطلقة، فيدخل فيها جميع النفقات الواجبة والمستحبة.

وقوله: (فداء): فسّر البيع المنفي بالفداء؛ لأنّ المتوعّد بالعقاب يريد أن يشتري نفسه بمالٍ يدفعه؛ اسمه: الفداء أو الفدية.

وقوله: (صدقةٌ تنفع): فسّر الخُلة بالصدقة، والصدقة تضمّن المحبة، وإذا كُملت صارت خُلةً، وقيدَها بالتي تنفع؛ لأنّ المقصودَ في ذلك اليوم هو النفع؛ وهو: التخليصُ من العذاب.

وقوله: (بغير إذنه): بيانٌ للشفاعة المنفيّة؛ لأنّ الشفاعة المثبتة هي التي تكون بإذن الله ورضاه. وقوله: (وفي قراءةٍ...) إلى آخره: بيانٌ أنّ في الكلمات الثلاث: ﴿بيع﴾، و﴿خُلة﴾، و﴿شفاعة﴾؛ قراءتين، إحداهما بنصب الثلاث؛ وهي: التي مشى عليها المؤلّف، والثانية: برفع الكلمات الثلاث؛ وهي قراءة الجمهور^(١).

وقوله: (أو بما فرض عليهم): أي: بما فرض عليهم الإيمان به؛ كالإيمان بالملائكة والكتب والرسول.

وقوله: (لوضعهم أمرَ الله...) إلى آخره: هذا راجعٌ إلى أصل معنى الظلم؛ وهو وضعُ الشيء في غير موضعه، فالكفارُ المشركون عبدوا مع الله غيره، فوضعوا العبادة في غير موضعها.



(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ﴾ بالنصب في كل ذلك بلا تنوين، وقرأ الجمهور كل ذلك بالرفع والتنوين. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٨٧)، و«النشر» (٢/ ٢١١).

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]:

هذه الآية أعظم آية في كتاب الله، وتسمى: آية الكرسي؛ لذكر كرسي الرب فيها، وقد افتتحت بكلمة التوحيد: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وبذكر اسمين جامعين من أسماء الله الحسنی؛ وهما: الحي القيوم؛ فاسمه الحي يرجع إليه جميع الصفات الذاتية، واسمه القيوم ترجع إليه جميع الصفات الفعلية^(١).
وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: تنزيه لله عن السنّة والنوم، وفيه تأكيد لكمال حياته وقیومیته، والسنّة: مبدأ النوم^(٢)، والنوم أخو الموت، والله حي لا يموت.

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: اللام: للملك؛ فالمعنى: أنه مالك السماوات والأرض ومدبرهما.

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾: ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام إنكاري، يدل على النفي؛ فالمعنى: لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، وهذا يدل على كمال ملكه، والإذن: كوني شرعي؛ فيكون المعنى: إلا بمشيئته ورضاه.
وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: إخبار لكمال علمه سبحانه، وإحاطته بما تقدّم وما تأخر. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما قبله. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ما بعده.

وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾: إخبار عن قصور علم العباد، وأنهم لا يعلمون إلا ما علمهم.

(١) ينظر: «الصواعق المرسلّة» (٣/ ٩١١-٩١٢)، و«مدارج السالكين» (٤/ ١٧٦)، و«شرح الطحاوية» لشيخنا (ص ٩٠).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٩٣).

وقوله: ﴿بَشَىٰ مَنْ عِلْمُهُ﴾: أي: بشيء مما يعلمه سبحانه، فيكون العلمُ بمعنى: المعلوم، والمصدرُ مُضَافٌ إلى فاعله، وقيل: بشيء من علم ذاته وأسمائه وصفاته^(١)، والضميرُ المجرورُ على التقديرين راجعٌ إلى الله، وهذا النفيُّ يتضمَّنُ إثباتَ كمالِ عظمتِهِ. وقوله: ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾: أي: إلا بالذي شاءه من المعلومات، أو إلا بمشيئته، ف«ما» على الأول موصولةٌ، وعلى الثاني مصدريةٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: معناه: أن كرسیه تعالى أوسعُ من السماوات والأرض، وقد وسعها، وقد جاء في الأثر: ((ما السماواتُ السَّبْعُ في الكرسي إلا كدراهم سبعة أُلقيت في ترس))^(٢). وقد اختلف العلماءُ في المراد بالكرسي؛ فقيل: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: علمه، روي عن ابن عباس^(٣)، وفي ثبوته عنه نظرٌ، ولعله لا يصحُّ، وذلك لأمرين:

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٣٦-٥٣٧/٤)، و«المحرر الوجيز» (٢٦/٢)، و«تفسير ابن كثير» (٦٧٦-٦٧٧/١)، و«التحرير والتنوير» (٢٢/٣).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥٨٧/٢)، من طريق أصبغ بن الفرج، والطبري في التفسير (٥٣٩/٤) من طريق ابن وهب، كلاهما عن عبد الرحمن بن زيد، عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وذكره. وهذا مرسل؛ لأن زيد بن أسلم تابعي، وعبد الرحمن بن زيد ضعيف جداً كما في «الضعفاء الصغير» للبخاري (٢١٤)، و«الميزان» (٤٨٦٨).

(٣) روي عن ابن عباس ولا يصح عنه: أخرجه الطبري (٥٣٧/٤)، وابن أبي حاتم (٤٩٠/٢)، برقم (٢٥٩٩)، واللالكائي في «السنة» (٤٤٩/٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (رقم ٢٣٣) من طريق مطرف، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس ﴿وسع كرسیه السماوات والأرض﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال: «علمه».

وخالف مطرف: سفيان الثوري؛ فرواه في «تفسيره» - كما في «فتح الباري» (١٩٩/٨) - عن جعفر، عن سعيد بن جبیر من قوله، وأخرجه عنه ابن حجر في «تغليق التعليق» (١٨٥/٤)، وعلقه البخاري في «صحيحه» (٣١/٦)، والعهدة في هذا الاختلاف على جعفر بن أبي المغيرة، وخالفه مسلم البطين فرواه عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس كما سبق، وهو المحفوظ.

الأول: أنه لا يُعرف في اللغة إطلاقاً اسم الكرسي على العلم^(١).
الثاني: أنه خلاف ما صحَّ؛ من أنَّ المراد بالكرسي موضع القدمين^(٢)،

= قال ابن منده: «ولم يُتابع عليه جعفر، وليس هو بالقوي في سعيد بن جبير»، وأقره الذهبي في «الميزان» (١٤٨/٢)، ثم قال: «قد روى عمار الدهني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كرسيه موضع قدمه، والعرش لا يقدر قدره». فكأنه يشير إلى أن هذه الرواية هي المحفوظة.

وقال الأزهري في «تهذيب اللغة» (٣٣/١٠): «والصحيح عن ابن عباس في الكرسي ما رواه الثوري وغيره عن عمار الدهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: الكرسي: موضع القدمين، وأما العرش فإنه لا يقدر قدره، وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها، والذي روي عن ابن عباس في الكرسي أنه العلم، فليس مما يشبه أهل المعرفة بالأخبار».

(١) ينظر: «تهذيب اللغة» (٣٣/١٠)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٣٦٣-٣٦٥/٨)، و«فتح الباري» (١٩٩/٨). وما جاء في بعض المراجع أن العلماء يقال لهم كراسي؛ فلجمعهم العلم، فإن مادة (كرس) الكاف والراء والسين أصل صحيح يدل على تلبس شيء فوق شيء وتجمعه. ينظر: «مقاييس اللغة» (١٦٩/٥)، و«لسان العرب» (١٩٤/٣).

(٢) أخرجه محمد بن أبي شيبة في «كتاب العرش» (رقم ٦١)، والدارمي في «الرد على المريسي» (٣٩٩/١)، وعبد الله بن الإمام أحمد في «السنن» (رقم ٥٨٦) و(١٠٢٠)، وعبد الرزاق في تفسيره (رقم ٣٠٣٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ٢٦٠١)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢٤٨/١-٢٤٩)، والطبراني في «الكبير» (٣٩/١٢)، رقم ١٢٤٠٤ - ومن طريقه الضياء في «المختارة» (رقم ٣٣١) و(٣٣٢).، والحاكم في «المستدرک» (٣١١٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (رقم ٧٥٨) من طرق، عن سفيان الثوري، عن عمار الدهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، موقوفاً.
ورواية الطبراني: عن عمار الدهني، عن سعيد بن جبير، بإسقاط مسلم البطين، وهو منقطع؛ لأن عمار الدهني لم يسمع من سعيد بن جبير، كما قال أبو بكر بن عياش. «تهذيب التهذيب» (٢٥٥/٤).

وأخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٥٢/٢) و(٥٨٢/٢) من وجهين آخرين عن عمار الدهني، به.

وهذا الأثر عن ابن عباس: قال عنه الدارمي: «صحيح مشهور»، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وتعقبه الشيخ مقبل الوداعي في نسخته من «المستدرک» (٢/رقم: ٣١٧٥): بأنه على شرط مسلم فقط؛ لأن البخاري لم يخرج لعمار الدهني، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٢٣/٦) وقال: «رجاله رجال الصحيح»، وذكره الذهبي في «العلو» (ص٧٦) =

وهو القول المعتمد عند جمهور أهل السنة^(١).

وقيل: الكرسي: العرش.

وقيل: إنه غيره، وهو موضع قدمي الربّ تعالى، وروي هذا عن ابن عباسٍ أيضاً كما تقدّم، وله شواهد، وهو المشهور عند أهل السنة^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُكَ فِي الْوَدُوعِ حَفْظُهُمَا﴾: الأود: المشقة^(٣)؛ فالمعنى: لا يسئلك عليه حفظهما، ولا يثقله، ونفي الأود عنه يدلُّ على كمال قوته **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(٥٥): ختمت هذه الآية بذكر هذين الاسمين؛ وهما: العليُّ العظيُّم، كما افتتحت بذكر اسمين من أسماء الله الحسنى؛ وهما: الحي القيوم، فتضمّنت الآية أربعة من أسماء الله الحسنى عدا الاسم الجامع الله.

وفيها إثبات كمال ملكه؛ لقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ومن كمال ملكه ألا يشفع أحدٌ إلا بإذنه.

= وقال: «رواته ثقات». وقال الألباني في «مختصر العلو» (ص ١٠٢): «هذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات، وتابعه يوسف بن أبي إسحاق، عن عمار الدهني». وقد روي عن ابن عباس مرفوعاً: رفعه شجاع بن مخلد والضحاك، عن سفيان، عن عمار الدهني، عن مسلم البطين به. أخرجه الدارقطني في «الصفات» (٣٠)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (ص ٢١) وغيرهما، ولا يصح؛ كما قال العقيلي، والبيهقي، وابن كثير، وغيرهم.

وأورده الطبري في تفسيره (٥٣٨/٤) عن أبي موسى، والسدي، والضحاك، ومسلم البطين. (١) قال الذهبي في «العرش» (٣٥٢/١): «وهذا القول في الكرسي نقل عن كثير من الصحابة والتابعين، منهم: ابن مسعود، وأبو موسى الأشعري، ومجاهد، وغيرهم». وينظر: «أصول السنة» لابن أبي زمنين (ص ٥٤)، و«بيان تلبس الجهمية» (٣٦٣-٣٦٥)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٣٦٨-٣٧١).

(٢) تقدم، وينظر أيضاً الخلاف في: «تفسير الطبري» (٥٣٧-٥٤٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٤٩٠-٤٩٢)، و«تفسير البغوي» (٣٢١-٣١٣)، و«المحرر الوجيز» (٢٦-٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٦٨٠-٦٨١).

(٣) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٩٧-٩٨).

وفيها: إثبات إحاطة علمه بكل ما تقدّم وكل ما تأخّر، وأنّ العباد ﴿لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، فلا يعلمون إلا ما علّمه.
 وفيها: إثبات علوه وعظمته وكمال قوته وسعة ملكه.
 ولما اشتملت عليه من أسماء الله الحسنی وصفاته العلی كانت أعظم آية في كتاب الله.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ المبالغ في القيام بتدبير خلقه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ﴾ نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ أي: لا أحد ﴿يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ له فيها ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: الخلق ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: من أمر الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ لا يعلمون شيئاً من معلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أن يعلمهم به منها بإخبار الرُّسُلِ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قيل: أحاط علمه بهما. وقيل: ملكه. وقيل: الكرسيُّ بعينه مُشتملٌ عليهما لعظمته، لحديث ((ما السماواتُ السبعُ في الكرسيِّ إلا كدراهمٍ سبعةٍ أُلقيت في ترس)).
 ﴿وَلَا يَتَّوَدُّهُ﴾ يُثقله ﴿حَفْظُهُمَا﴾ أي: السماوات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ فوق خلقه بالقهر ﴿الْعَظِيمُ﴾ الكبيرُ.

وقول المؤلف: (الدائم البقاء): تفسيرٌ للحياة بلازمها؛ لأنه الحي الذي لا يموت، والحياة من لوازم ذاته أزلاً وأبداً.
 وقوله: (المبالغ...) إلى آخره: لأنّ «قيام» و«قيام» صيغة مبالغة تدلُّ على كمال قيامه بنفسه تعالى، وكمال قيامه على خلقه بالتدبير.

وقوله: (ملكاً...) إلى آخره: يُبينُ أنَّ اللام للملك، فتدلُّ الجملةُ على أنَّ ما في السماوات وما في الأرض من العوالم ملكه وعبيده؛ لأنَّه خالقهم ومدبرهم.

وقوله: (أي: لا أحد): يُبينُ أنَّ الاستفهام للإنكار، وهو يدلُّ على النفي.

وقوله: (له فيها): المعنى: إلا بإذنه للشافع في الشفاعة.

وقوله: (من أمر الدنيا والآخرة): يقتضي أنَّه فسَّر ما بين أيديهم من أمر

الدنيا، وما خلفهم من أمر الآخرة.

وقوله: (لا يعلمون...) إلى آخره: المعنى: لا يعلمون شيئاً مما يعلمه

تعالى في الماضي والحاضر والمستقبل.

وقوله: (أن يعلمهم...) إلى آخره: يقتضي أنَّه جعل «ما» بمعنى الذي.

وقوله: (قيل: أحاط علمه بهما...) إلى آخره: فالمرادُ بالكرسيِّ ثلاثة

أقوالٍ:

قيل: علمه تعالى.

وقيل: هو العرش.

وقيل: أنَّه مخلوقٌ عظيمٌ غيرُ العرشِ وهو موضعُ القدمين، على ما جاء

عن ابن عباس.

وقد أشار المصنِّفُ إلى القولِ الأوَّل والثالث، والراجحُ هو القولُ الثالث.

والله أعلم.

وقوله (بالقهر): هذا التقييدُ لا وجهَ له، بل هو تعالى العليُّ على كلِّ شيءٍ

ذاتاً وقدرًا وقهراً، فله العلوُّ بكلِّ أنواعه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، والذين يُقيِّدونَ علوهُ تعالى

بالقدر أو القهر يفرُّون من إثباتِ علوِّ الذات؛ لأنَّ مذهبهم نفيُّ علوهُ تعالى بذاته

فوق خلقه، وهو مذهبٌ باطلٌ من أقوال المعطَّلة من الجهمية والمعتزلة ومن

تَبَعَهُمْ. ومذهبُ سلفِ الأُمَّةِ وأئمتِّها: أَنَّهُ تعالى بذاتِهِ فوقِ سماواتِهِ على عرشِهِ، كما دَلَّتْ على ذلكِ النصوصُ من الكتابِ والسُّنَّةِ^(١).
 والمؤلَّفُ - عفا اللهُ عنه - مشى على مذهبِ النفاةِ فلا يُغْتَرَّبُ بِهِ، واللهُ أعلمُ.
 وقولُهُ: (الكبيرُ): تفسيرٌ للعظيمِ بالكبيرِ، وهو تفسيرٌ صحيحٌ، ويؤيدهُ أَنَّ اللهَ قرنَ بينَ العليِّ والكبيرِ في آياتٍ، كما قرنَ بينَ العليِّ والعظيمِ.



(١) قال شيخ الإسلام: «وفي القرآن والسنة ما يقارب ألف دليل على ذلك، وفي كلام الأنبياء المتقدمين ما لا يحصى». «الجواب الصحيح» (٣١٨/٤)، و«مجموع الفتاوى» (٢٢٦/٥)، وبنحوه قال ابن القيم في «الصواعق» (٣٦٨/١)، وفي نهاية كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٣٣١/٢). وينظر أنواع أدلة العلو النقلية في: «الصواعق المرسلّة» (٤/١٢٨٠-١٣٤٠)، و«إعلام الموقعين» (٤/٦٧)، و«توضيح مقاصد الواسطية» (ص ١٠٩)، وللإستزادة ينظر: «العلو» للذهبي، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم، و«الكلمات الحسان في بيان علو الرحمن» لعبد الهادي وهبي.

وقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

[البقرة: ٢٥٦]:

هذا نفيٌ معناه: النهي عن الإكراه على الدخول في الإسلام؛ فالمعنى: لا تُكْرَهُوا أحداً من أجل أن يُسَلِّمَ، ويحتمل أن يكون على ظاهره، فالجملة خبريةٌ، وعليه؛ فالمعنى: ليس في الدين إكراهٌ؛ أي: ليس الإكراه على الدخول في الإسلام مشروعاً، وهذا حقٌّ، ولا يُرَدُّ على هذا الأمر بقتال الكفار؛ فإنَّ القتال له أسبابٌ متعددةٌ وغاياتٌ مختلفةٌ؛ فالسببُ الأول هو: الكفرُ، والسببُ الثاني: العدوانُ الواقعُ، أو العدوانُ المتوقعُ، ومن أظهر الإسلامَ وجب الكفُّ عنه، ومن جنح إلى المصالحة وأمنت خيانتُه وجبت إجابته إلا أن يظهر ما يدلُّ على قصد الخديعة والخيانة، وقاتل الكفار ليس فيه حقيقةُ الإكراه، فإنَّ حقيقةَ الإكراه أن يوقف الشخص فيقال له: أسلم وإلا قتلناك، وهذا لم يفعله أحدٌ من المسلمين في شيءٍ من غزواتهم، إلا المرتد؛ فإنه يُجبر على التوبة؛ فيقال له: تُبِّ وإلا قتلناك، فإنَّ عقوبةَ المرتدِّ القتلُ، والمسلمون إذا فتحوا البلادَ صلحاً فإنهم يُقرُّون أهلها فيها ولا يُكْرَهُون أحداً منهم على الإسلام، لكنهم يدعونهم إلى الإسلام، وإذا فتحوا البلادَ عنوةً؛ كانت أرضهم وديارهم غنيمةً للمسلمين، والنساءُ والذريةُ يكونون رقيقاً عند المسلمين، ولا يُكْرَهُ أحدٌ منهم على الإسلام، والرجالُ المقاتلةُ أسرى، يُخَيَّرُ الإمامُ فيهم بين الاسترقاق والقتلِ والمنِّ والمفاداةِ، ومن أسلم منهم وجب إطلاقُه وعصمَ دمه وماله، ويشهد لما دلَّت عليه هذه الآيةُ من نفي الإكراه في الدين والنهي عنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، فعلم من الآيتين أن الإكراه على الدخول في الإسلام ليس مشروعاً لا في أول الإسلام ولا في آخره، إلا من ثبتت رِدَّتُه بأن

كفر بعد الإيمان؛ فإنه يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل؛ لقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: ((مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ))^(١).

فَعُلِمَ مما تقدّم أَنَّ الآيَةَ مُحْكَمَةٌ عَامَّةٌ وَإِنْ نَزَلَتْ عَلَى سَبَبٍ، فَإِنَّ الْعِبْرَةَ بَعْموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأكثر العلماء من المفسرين وغيرهم يرون أَنَّ هذه الآية منسوخة بآية السيف^(٢)؛ وهي آياتُ الأمر بقتال الكفار من أهل الكتاب والمشركين، وهذا يقتضي أنهم يعدّون القتال إكراهاً، وهذا لا يستقيم في قتال أهل الكتاب، وهم يُخيرون بين الإسلام وإعطاء الجزية وهذا بالإجماع^(٣)، وكذا قتال غيرهم؛ لا يُعدّ إكراهاً - على القول بأخذ الجزية من غير أهل الكتاب - فإنه لا يجتمع الإكراه مع التخيير.

وقوله تعالى: **﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾**: أي: قد تميّز سبيل الرُّشد عن سبيل الغيِّ، والرُّشد: هو العلمُ بالحقِّ واتباعه، والغِيُّ ضِدُّهُ؛ وهو: الجهلُ بالحقِّ واتباعُ الباطل، فتميّز الحقُّ من الباطل والهدى من الضلال، وهذا التمييز إنما حصل بتبيين الله وتبيين رسوله بالآيات الكونية والآيات القرآنية وبالأحاديث النبوية، قال تعالى: **﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾** [الأنعام: ١٢٦]، وقال تعالى: **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: **﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾** [آل عمران: ٤].

وقوله تعالى: **﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾**: أي: يجحد عبادة كلِّ ما يُعبَدُ من دون الله، ويؤمنُ بالله ربًّا وإلهًا، وهذا هو معنى: لا إله إلا الله، فما فيها من النفي هو معنى: **﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾**، وما فيها من الإثبات هو معنى: **﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾**؛ ولهذا قال: **﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾**؛ وهي: لا

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٧) و(٦٩٢٢)، من حديث ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**.

(٢) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد (ص ٢٨١-٢٨٢)، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص ٢٥٨-٢٦٠)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (ص ٥٣-٥٥).

(٣) ينظر: «مراتب الإجماع» (ص ١٩٦)، و«الإقناع في مسائل الإجماع» (١/٣٥٢)، و«موسوعة الإجماع» (٦/٢٧٧-٢٨٠).

إله إلا الله، وسَمَّاها عروءة؛ للتنبية على التمسك بها، و﴿اسْتَمْسَكَ﴾ بمعنى: تمسك، والسين والتاء للدلالة على قوة التمسك^(١)، وفي الجملة تشبيه تمثيلي، شبه المقيم على الدين والتوحيد بالتمسك بأقوى حلقة من الحبل. و«وثقى»: صيغته تفضيل مؤنث، أوثق من وثق بالشيء إذا سكن إليه واعتمد عليه.

وقوله: ﴿لَا أَنْفِصَا لَهَا﴾: هذا وعد من الله بأن كلمة التوحيد لا تنقسم؛ أي: لا تنقطع من مكانها، فدل على وجوب التمسك بـ «لا إله إلا الله»، فمن تمسك بها نجا، ومن تركها هوى وهلك، والجملة قيل: حالية، وقيل: مُستأنفة لتأكيد ما دل عليه معنى الوثقى^(٢).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أي: سميع لأقوال العباد، عليم بأحوالهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وفي ذكر هذين الاسمين وعد ووعد؛ وعد لمن كفر بالطاغوت وآمن بالله فكان من أولياء الله، ووعد لمن كفر بالله وعبد الطاغوت.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ على الدخول فيه ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾
 أي: ظهر بالآيات البينات أن الإيمان رُشدٌ والكفر غيٌّ.
 نزلت فيمن كان له من الأنصار أولاد أراد أن يكرههم على الإسلام
 ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ الشيطان أو الأصنام، وهو يُطلق على المفرد
 والجمع ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ﴾ تمسك ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ بالعقد
 المحكم ﴿لَا أَنْفِصَامَ﴾ انقطاع ﴿لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقال ﴿عَلِيمٌ﴾ بما
 يُفعل.

(١) ينظر: «تفسير أبي السعود» (١/٢٥٠)، و«تفسير الألوسي» (٢/١٥).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٢/٦١٨)، و«الدر المصون» (٢/٥٣٩).

وقول المؤلف: (على الدخول فيه): يُفيد أنّ المراد بالآية: أنّ الكافر الأصلي لا يُكره على الدخول في الإسلام.

وقوله: (ظهر بالآيات البيّنات...) إلى آخره: يُفيد أنّ تميز الرُّشد من الغيّ كان بالآيات البيّنات، وأنّ الرُّشد في الإيمان بالله، وأنّ الغيّ ضده.

وقوله: (نزلت...) إلى آخره: إشارة إلى سبب نزول الآية^(١).

وقوله: (الشيطان...) إلى آخره: تفسيرٌ للطاغوت بأمرين: الشيطان والأصنام^(٢)، يشهد للأول قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ [النساء: ٧٦]، ويشهد للثاني قوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: (بالعقد المحكم): يريد بالعقد المحكم: الاعتقاد الحق.



(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص ٨٣-٨٥)، و«العجائب في بيان الأسباب» (١/٦٠٩-٦١٥).

(٢) هذا من التفسير بالمثل، والحد الجامع للطاغوت هو: «كُل ما تجاوز به العبدُ حدّه من معبود أو متبوع أو مطّاع». ينظر: «إعلام الموقعين» (٢/٩٢).

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]:

يُخبر تعالى أنه وليُّ الذين آمنوا بالله ورسله، وعبدوه وحده، وكفروا بالطاغوت، فهو سبحانه يتولاهم بالنصر والتأييد والهداية، ومن ولايته لهم: أنه يُخرجهم من الظلمات؛ ظلمات الجهل والغفلة والكفر والشرك، ويوصلهم إلى نور العلم والإيمان، ويُخبر تعالى أن الذين كفروا بالله ورسله وأولياءهم الطواغيت؛ وهم شياطينُ الإنس والجن، ومن يتولونه يُضلونه ويهدونه إلى عذاب السعير؛ لأنهم يخرجون أولياءهم من نور العلم والإيمان، ويوصلونهم إلى ظلمات الجهل والكفر والغفلة، فصارت عاقبتهم الخلود في النار كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

وعلم من الآية: أن الناس فريقان؛ مؤمنون هم أولياء الله، والله وليهم، لا ولي لهم غيره؛ لأنه إلههم ومعبودهم وحده لا يُشركون به شيئاً، وفريقٌ كفرون؛ وهم أحزاب، كلُّ حزبٍ له وليٌّ يتبعونه، ومعبودٌ يعبدونه من دون الله، قال تعالى: ﴿... وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١-٣٢]، فإن قيل: لم يذكر الله عاقبة الذين آمنوا كما ذكر عاقبة الذين كفروا؟ قيل: عاقبتهم معلومة من ابتداء الكلام، من أول جملة، وهي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ففي هذه الولاية كلُّ خيرٍ وفلاح وسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ﴾ ناصرٌ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الكفرِ ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الإيمانِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ﴾

إِلَى الظُّلْمَاتِ ﴿ ذكر الإخراجِ إمَّا في مقابلةِ قوله: «يخرجهم من الظلمات»،
 أو فيمن آمن بالنبي قبل بعثه من اليهود ثم كفر به ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقول المؤلف: (ناصر): تفسيراً للولي فيه قصور؛ فإنَّ الوليَّ أعمُّ من
 الناصر والنصير؛ فإنَّ الوليَّ يجلبُ لمتولِّيه ما ينفعه، ويدفع عنه ما يضره، وأمَّا
 النصيرُ: فهو أخصُّ بالدفع؛ كالناصر على العدو، فكلُّ ولي نصيرٌ، وليس كلُّ
 نصيرٍ ولياً^(١)، والله وليُّ المؤمنين وناصرهم، نعم المولى ونعم النصير.
 وقوله: (الكفر): تفسيرُ الظلمات بالكفر فيه قصورٌ أيضاً؛ فإنَّ الظلمات
 أنواعٌ؛ أعظمها الكفر، ومنها ظلمة الجهل وظلمة الغفلة وغير ذلك.
 وقوله: (الإيمان): تفسيرُ النور بالإيمان حقٌّ، ولكنَّ النورَ يدخل فيه نورُ
 العلم ونورُ الطاعة، والنورُ واحدٌ، ولهذا أُفردَ وجمعتِ الظلمات^(٢).

وقوله: (ذكر الإخراج...) إلى آخره: يُجيب بذلك عن إشكالٍ؛ وهو: هل
 كان الكفار في نور؟ وقد أجاب المؤلفُ بأنَّ ذكرَ الإخراجِ من الظلمات إلى
 النور جاء في مُقابلِ إخراجِ المؤمنين من الظلمات إلى النور، وعلى هذا فلا
 إخراج أصلاً. أو المراد: مَنْ كان على شريعة موسى وعيسى قبل مبعث النبي
 صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما بُعث كفروا به، فأخرجهم الشيطانُ من نور العلم والإيمانِ
 بأنبيائهم وكتبهم إلى ظلمات الكفر بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهناك وجه ثالث،
 وهو أن المراد إخراجهم من نور الفطرة التي ولدوا عليها إلى ظلمات الكفر

(١) تقدم في (ص ٢٦٠).

(٢) ذكر العلماء هذه الفائدة في غير موضع من آي القرآن. ينظر: «كشف المعاني» لابن جماعة
 (ص ١٥٤)، و«نظم الدرر» للبقاعي (٤/٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (١/٦٨٥)، و«بدائع
 الفوائد» (١/٢٠٨).

التي فيها الأبوان، وهو معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو
يمجسانه))^{(١)(٢)}.



(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واللفظ للبخاري.
(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٥٦٥-٥٦٦)، و«التفسير البسيط» (٤/٣٧٠-٣٧١)، و«المحرر
الوجيز» (٢/٣٣-٣٤)، و«زاد المسير» (١/٢٣٢).

وقوله تعالى: ﴿الْمَرَّةَ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيَاءُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ [البقرة: ٢٥٨]:

قوله: ﴿الْمَرَّةَ﴾: الاستفهام للتقرير والتعجيب؛ المعنى: ألم يتتبع علمك إلى خبر الذي حاجَّ إبراهيم في ربه؛ أي: الكافر الذي كفر برَّبِّ إبراهيم وصار يُجادله فيه بسبب غروره حين آتاه الله الملك، وبلغ من غروره أن ادَّعى الربوبية وصار يجادل نبيَّ الله إبراهيم في ربه، وكأنَّه يقول لإبراهيم: ماذا فعل ربُّك؟ فاحتجَّ إبراهيم على الكافر بأنه الذي يُحيي ويميت، وذكر المفسرون بأنَّ الكافر قال في بيان حُجَّتِهِ: آتي باثنين قد استحقاَّ القتل؛ فأقتل أحدهما وأبقي الآخر^(١)، فانتقل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى حُجَّةٍ لا يستطيع الكافر أن يمؤَّه بدعوى مثلها؛ قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، فُبهِتَ الكافر ولم يجد جوابًا، وانقطعت حُجَّتُهُ، فبذلك حجَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الكافر وغلبه بالحجَّة. وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢): أي: لا يُوفِّق للإيمان القومَ الظالمين؛ عقوبةً على ظلمهم.

﴿الْمَرَّةَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ﴾ جادل ﴿إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ ل ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي: حمله بطرُه بنعمة الله على ذلك وهو نمرود ﴿إِذْ﴾ بدل من «حاج» ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ لَمَّا قَالَ له: «مَنْ رَبُّكَ الذي تدعوننا إليه؟» ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يخلق الحياة والموت في الأجساد. ﴿قَالَ﴾ هو

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٥٧١-٥٧٢، ٥٧٤، ٥٧٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٣٤١)، و«التفسير البسيط» (٤/٣٧٦)، و«تفسير البغوي» (١/٣١٦)، و«البحر المحيط» (٢/٢٢٦).

﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾ بالقتل والعمو عنه. ودعا برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر. فلما رآه غيباً ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ منتقلاً إلى حجة أوضح منها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا﴾ أنت ﴿مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ تحيرٌ ودهشٌ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر إلى محجة الاحتجاج.

وقول المؤلف: ﴿لِأَنَّ...﴾ إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ ﴿إِذْ﴾ للتعليل، ليست ظرفاً؛ فالمعنى: أَنَّ هذا الكافر الذي حاجَّ إبراهيم في ربه حمله على كفره وجِداله إبراهيم في ربه ما آتاه الله من الملك؛ فكفر واستكبر حتى ادَّعى الربوبية، وسمَّاه المؤلف: (النمرود) بالذال، ويروى بالمهملة، ويقال: النمرود، والنمرود^(١).
وقوله: (بدل من حاج): قال بعض شارحين: إنه بدلٌ اشتمال^(٢)، والصواب: أنه لا يظهر وجه البدلية^(٣).

(١) النمرود أو النمرود: هو اسم جنس لكل ملك الكنعانيين، والمراد به هنا هو نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وقيل: إنه نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وهو أول من تجبر وقهر وغصب وسنَّ سنن السوء، وأول من لبس التاج، ووضع أمر النجوم ونظر فيه وعمل به. وأهلكه الله ببعوضة دخلت في خياشيمه، فعذب بها أربعين سنة ثم مات. ينظر: «المعارف» لابن قتيبة (١/٣١)، و«تفسير الطبري» (٤/٥٦٨-٥٧٠).

(٢) ينظر: «حاشية الجمل» (١/٢٢٣)، وأجازه الزمخشري بناء منه على أن ﴿أَنَّ﴾ واقعة موقع الظرف. ينظر: «الكشاف» (١/٤٨٩).

(٣) قال العكبري: «و﴿إِذْ﴾: يجوز أن تكون ظرفاً لحاج، وأن تكون لآتاه. وذكر بعضهم أنه بدل من ﴿أَنَّ آتَاهُ﴾ وليس بشيء؛ لأن الظرف غير المصدر، فلو كان بدلاً لكان غلطاً، إلا أن تجعل ﴿إِذْ﴾ بمعنى أن المصدرية، وقد جاء ذلك». «التبيان» (١/٢٠٦-٢٠٧)، وضعفه أيضاً: أبو حيان، والسمين الحلبي، وغيرهما. ينظر: «البحر المحيط» (٢/٦٢٦)، و«الدر المصون» (٢/٥٥١-٥٥٢)، و«الكتاب الفريد» (١/٥٦٣)، و«إعراب القرآن وبيانه» (١/٣٩٢).

وقوله: (لَمَّا قَالَ لَهُ...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، جاء جواباً لقول الكافر لإبراهيم: (مَنْ رَبُّكَ؟).
 وقوله: (أَيُّ: يَخْلُقُ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ فِي الْأَجْسَادِ): تَفْسِيرٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [الملك: ٢].
 وقوله: (هُوَ): يَرِيدُ: أَنَّ الْقَائِلَ: ﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾ هُوَ الْكَافِرُ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ.

وقوله: (بِالْقَتْلِ وَالْعَفْوِ عَنْهُ...) إلى آخره: هَذَا تَفْسِيرٌ قَوْلِ الْكَافِرِ: ﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾، وَهَذَا مَا ذَكَرَهُ جَمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ، وَهُوَ مِنْ نَوْعِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ.
 وقوله: (فَلَمَّا رَأَاهُ غَيْبًا): يَرِيدُ: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا رَأَى الْمُخَاصِمَ غَيْبًا؛ أَيُّ: جَاهِلًا لَا يَفْقَهُ؛ قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾.

وقوله: (مُنْتَقِلًا إِلَى حِجَّةٍ أَوْضَحَ مِنْهَا): لِأَنَّ الْكَافِرَ قَدْ مَوَّهَ بِحِجَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْأُولَى، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ فِي حِجَّةِ إِبْرَاهِيمَ الثَّانِيَةِ أَنْ يَمُوَّهُ، فَلِهَذَا انْقَطَعَتْ حِجَّتُهُ.

وقوله: (أَنْتِ): الْخِطَابُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ لِلَّذِي حَاجَّهُ، وَالضَّمِيرُ الْمُنْفَصِلُ «أَنْتِ» تَأْكِيدٌ لِلضَّمِيرِ الْمَتَّصِلِ الْمُسْتَرَفِي فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأْتِ بِهَا﴾.
 وقوله: (تَحْيِيرٌ وَدَهْشٌ): تَفْسِيرٌ لـ ﴿بُهْتٌ﴾، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى انْقِطَاعِ حِجَّتِهِ وَعِزِّهِ عَنِ الْجَوَابِ^(١). وقوله: (بِالْكَفْرِ إِلَى مَحَبَّةِ الْاِحْتِجَاجِ): يَتَضَمَّنُ تَفْسِيرَ الظُّلْمِ بِالْكَفْرِ، وَهُوَ صَحِيحٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وَنَفْيُ الْهُدَايَةِ إِلَى الْحِجَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِنَفْيِ الْهُدَايَةِ؛ أَيُّ: إِلَى الْحِجَّةِ الصَّحِيحَةِ فِي مَقَامِ الْاِحْتِجَاجِ.



(١) ينظر: «المفردات» للراغب الأصفهاني (ص ١٤٨).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ [البقرة: ٢٥٩]:

قوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي﴾: ﴿أَوْ﴾: حرف عطف يدل على التنوع؛ المعنى: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم، أو إلى الذي مر على قرية. والكاف: قيل: إنها زائدة للتأكيد، وعلى هذا فالمعطوف هو الموصول، وقيل: إنها بمعنى: مثل، وعلى هذا فهي المعطوف؛ فالتقدير: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم، أو إلى مثل الذي مر على قرية، وهذا أصح؛ لأن الأصل في الكاف أنها بمعنى: مثل، فعلى الأول هي حرف، وعلى الثاني هي اسم^(١). وقوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾: الجملة حال، ومعنى خاوية: خالية من سكانها، وقيل: متهدمة^(٢). و﴿عُرُوشِهَا﴾: سُقْفِهَا^(٣)؛ المعنى: قد سقطت حيطانها على سُقْفِهَا، فقد هلك السكان وخرّب البنيان.

وقوله: ﴿أَنَّى﴾: قي: أنه اسم استفهام بمعنى «كيف» وهو للاستبعاد؛ المعنى: كيف يحيي الله هذه القرية التي هلك أهلها وتهدمت، وهذا من جهله أو غفلته عن قدرة الله.

(١) واختاره الطبري، وأبو حيان، والسمين الحلبي، وغيرهم. ينظر: «تفسير الطبري» (٤/ ٥٧٧-٥٧٨) و«البحر المحيط» (٢/ ٦٣٠-٦٣١)، و«الدر المصون» (٢/ ٥٥٦-٥٥٧)، و«التبيان في إعراب القرآن» (١/ ٢٠٨)، و«إعراب القرآن وبيانه» (١/ ٣٩٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/ ٥٨٤-٥٨٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٤٢)، و«تفسير الماوردي» (١/ ٣٣١).

(٣) ينظر: «المفردات» للراغب الأصفهاني (ص ٥٥٨).

وهذا المأزق قيل: هو عُزَيْرٌ، قاله الجمهور^(١)، وهو الذي قال اليهود: إنه ابنُ الله، وهو من علماء بني إسرائيل وصالحيهـم، وجاء في بعض الروايات الإسرائيلية أنه حفظ التوراة كلها عن ظهر قلب.

وقوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾: أي: صيرَه مِيتًا وأبقاه مِيتًا مئة عامٍ.
﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾؛ أي: أحياه.

وقوله: ﴿فَأَنْظِرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لِمَ يَتَسَنَّه﴾: أي: لم يتغيَّر، وقد مضت عليه مئة عام منذ مات. و﴿يَتَسَنَّه﴾: فعلٌ مضارع من تَسَنَى.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾: القائل هو الله، أو ملك بأمر الله، والأول أظهر^(٢)، ودلَّ السياق على أنه كان على حمارٍ، فأماته الله وأمات الحمارَ حتى عريت عظامه من اللحم وتفرقت، فردَّ الله عظامه وكساها لحمًا، ولهذا قيل له: ﴿وَأَنْظِرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، ودليلاً على قدرته تعالى على إحياء الموتى.

وقوله: ﴿وَأَنْظِرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا﴾: أي: نرفع بعضها فوق بعضٍ، حتى تعود كما كانت، وقُرئ: ﴿كَيْفَ نُنشِرُهَا﴾ بالراء؛ أي: نُحييها^(٣).

وقوله: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا الْحَمَامَ﴾: أي: نُغطِّي العظامَ باللحم لتعود كما كانت، ويعود الحمارُ كما كان صالحًا للركوب والحمل.

فهذه ثلاثُ آياتٍ:

الأولى: إحياء الرجل بعد أن كان مِيتًا مئة سنة.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٥٧٨-٥٧٩)، و«المحرر الوجيز» (٢/٣٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/٦٨٧-٦٨٨).

(٢) وهو قول الطبري والرازي، واستظهره القرطبي وأبو حيان. ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٥٩٦)، و«تفسير الرازي» (٧/٣٠)، و«تفسير القرطبي» (٣/٢٩١)، و«البحر المحيط» (٢/٦٣٣).

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٩٥).

الثانية: بقاء طعامه وشرابه على حالهما هذه المدة الطويلة.
 الثالثة: إحياء الحمار وإعادته إلى ما كان عليه قبل موته.
 وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾: قدرة الله على إحياء الموتى. ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ
 اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١): أي: أقرُّ بكمال قدرة الله، وهذا على قراءة مَنْ
 قرأه فعلاً مضارعاً مبدوءاً بهمزة القطع، وقرئَ بهمزة الوصل على أنه فعل أمر،
 ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١)، فأراه الله في نفسه وفي حماره ما
 دلَّه على قدرته تعالى في كل شيء، وفي ذلك إبطالٌ لاستبعاده إحياء القرية التي
 قال فيها: ﴿أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

﴿أَوْ﴾ رأيت ﴿كَالَّذِي﴾ الكاف زائدة ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ هي بيتُ
 المقدس، ركباً على حمار، ومعه سلَّة تين وقدحٌ عصير، وهو عزيزٌ ﴿وَهِيَ
 خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقوفها لما خرَّ بها بُخْتَنَصْرُ ﴿قَالَ أَنِّي﴾
 كيف ﴿يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ استعظماً لقدرته تعالى ﴿فَأَمَّاتُهُ اللَّهُ﴾
 وألبته ﴿مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أحياه ليُريه كيفية ذلك ﴿قَالَ﴾ تعالى له ﴿كَمْ
 لَبِثْتُ﴾ مكثت هنا؟ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنه نام أوَّلَ النهار،
 فقبض وأحيي عند الغروب، فظنَّ أنه يوم النوم.

﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ التين ﴿وَشَرَابِكَ﴾
 العصير ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير مع طول الزمان، والهاء قيل: أصلٌ من
 «سانهت»، وقيل: للسكت من «سانيت».

وفي قراءةٍ بحذفها ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف هو؟ فرآه ميتاً، وعظامه
 بيضٌ تلوح، فعلنا ذلك لتعلم ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً﴾ على البعث ﴿لِلنَّاسِ وَانظُرْ

(١) قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: ﴿أَعْلَمُ﴾ بقطع الألف وضم الميم،
 وقرأ حمزة والكسائي: ﴿اعْلَمُ﴾ موصولة الألف ساكنة الميم. ينظر: «السبعة في القراءات»
 (ص ١٨٩)، و«النشر» (٢/ ٢٣١-٢٣٢).

إِلَى الْعِظَامِ ﴿١﴾ مِنْ حِمَارِكَ ﴿كَيْفَ نُنَشِّرُهَا﴾ نُحْيِيهَا، بَضَمَّ النُّونَ وَفَتْحَهَا، مِنْ «أَنْشَرُ وَنَشَرٌ» لَغْتَانِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بَضَمَّهَا، وَالزَّايُ: نُحَرِّكُهَا وَنَرْفَعُهَا ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ فَنَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَقَدْ تَرَكَبْتَ وَكُسِيتَ لَحْمًا وَنُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ وَنَهَقَ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ ذَلِكَ بِالمَشَاهِدَةِ ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ عِلْمَ مَشَاهِدَةٍ ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: (اعلم)؛ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ.

وقول المؤلف: (رأيت): المناسبُ في التقدير في مثل هذا السياق أن يُقدَّرَ المعطوفُ مثل المعطوف عليه، وعلى هذا فالتقديرُ المناسبُ: أو ألم ترَ كالذي مرَّ على قرية، وهذا على أنَّ الكافَ بمعنى: مثل، وعلى القول بأنها «زائدة» فالتقديرُ: أو ألم ترَ إلى الذي مرَّ على قرية، فيكون الموصولُ في ﴿الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ معطوفاً على الموصولِ في ﴿الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾، والله أعلم. وقوله: (زائدة): هذا خلافُ الأصلِ في كافِ التشبيه؛ فالأصلُ أنها بمعنى: مثل، وهو القول الآخر.

وقوله: (هي بيت المقدس...) إلى آخره: القريةُ في الآية مُبْهَمَةٌ، وتعيين أنها بيت المقدس قولُ جمهورِ المفسرين^(١)، والمعوَّلُ في هذا على بعض الروايات الإسرائيلية، ومن هذا القبيل تعيينُ جنسِ الطعامِ والشرابِ الذي معه، فالله أعلم. وأمَّا أنه كان راكباً حماراً فهذا ظاهرُ القرآن.

وقوله: (لَمَّا خَرَّبَهَا بُخْتَنْصَرُ): بُخْتَنْصَرُ؛ هو: ملكُ الفُرسِ الذي سُلِّطَ على بني إسرائيل، وقتلَ منهم وسبى وخرَّبَ الديارَ، وقصَّته مشهورةٌ عند المفسرين والمؤرخين^(٢).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٥٨٢-٥٨٣)، و«المحرر الوجيز» (٢/٣٩-٤٠)، و«زاد المسير» (١/٢٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (١/٦٨٨).

(٢) ينظر: «الكامل في التاريخ» (١/٢٢٨)، و«تفسير الطبري» (٤/٥٨٧-٥٩٣)، و«المحرر الوجيز» (٢/٤١-٤٢).

وقوله: (استعظماً لقدرته تعالى): هذا يقتضي أنه جعل الاستفهام للتعجب للاستبعاد، كما قال زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]. وقوله: (والبته): أي: أبقاه ميتاً مئة عام ثم أحياه.

وقوله: (ليريه كيفية ذلك): في هذا التعليل نظراً، والمناسب لسياق الآية: بعثه؛ ليعرفه كمال قدرته.

وقوله: (تعالى له): يقتضي أنه أعاد الضمير في قال إلى الله، وهذا هو الصواب؛ لأنه تعالى هو الذي أماته وبعثه وقال له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾.

وقوله: (هنا): فالمعنى: كم لبثت في هذا المكان الذي أنت فيه.

وقوله: (لأنه نام أول النهار...): إلى آخره: هذا التقدير مبني على ظن أو بعض الروايات الإسرائيلية، والله أعلم بحقيقة الحال.

وقوله: (التين...): إلى آخره: تعيين جنس الطعام والشراب من المرويّات الإسرائيلية التي لا يجزم بما دلّت عليه.

وقوله: (والهاء...): إلى آخره: ذكر فيها قولين: الأول: أنها أصل؛ أي: أنها من حروف الفعل الأصلية، فهي لام الفعل، والسكون علامة الجزم لدخول حرف الجزم على الفعل المضارع. والقول الثاني: أنها هاء السكت؛ فتكون زائدة ليست من حروف الفعل، فعلى القول الأول: «تسنه» من سنه، وعلى الثاني «تسنه»: من سنا، وكلاهما يدل على التغير^(١).

وقوله: (وفي قراءة بحذفها): هذه القراءة جارية على أن الهاء للسكت^(٢).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٥٩٩-٦٠٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/٣٤٣)، و«المحرر الوجيز» (٢/٤٣-٤٥)، و«البحر المحيط» (٢/٦٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣/٣٧).

(٢) قرأ حمزة والكسائي: ﴿لَمْ يَتَسَّنْ﴾ بحذف الهاء في الوصل خاصة، والباقيون بإثباتها في الحالين. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٨٨-١٨٩)، و«النشر» (٢/١٤٢).

وقوله: (كيف هو...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ المعنى: انظر إلى حمارك لتعلم حاله، وأنه قد مات وعَرِيت عظامه عن اللحم.
 وقوله: (على البعث): المعنى: لتكون إذ أحياك الله بعد أن أماتك مئة عام آية؛ أي: دليلاً على قدرته تعالى على بعث الأموات من قبورهم، ولا ريب أن هذا من أعظم الأدلة على إمكان البعث، ولقد تكرر هذا النوع من أدلة البعث في سورة البقرة:

وأول ذلك ما ذكر في قصة القتل الذي ضُرب ببعض البقرة فأحياه الله؛ ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا...﴾ الآية [البقرة: ٧٣].

والثانية: قصة بني إسرائيل الذين ماتوا بالصاعقة لَمَّا قالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، قال الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

والثالثة: قصة الألوفا الذين خرجوا من ديارهم حذرًا من الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم.

والرابعة: قصة الذي مرَّ على قرية. وستأتي قصة الطير التي ذبحها إبراهيمُ بأمر الله ثم أحيها الله، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ...﴾ إلى آخر الآية^(١).

وقوله: (من حمارك): يدلُّ له قوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.
 وقوله: (نُحْيِيهَا...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ معنى: نشر، وأنشر؛ نشر الميت وأنشره أحياه؛ فقوله في الآية: ﴿نُنَشِّرُهَا﴾ بضم النون وفتحها؛ يقول: لغتان، وكأنه يُشيرُ إلى قراءتين في الآية على اللغتين.

(١) ينظر: (ص ٥٨٩).

وقوله: (وفي قراءةٍ بضمّها...) إلى آخره: يُبين أنه قُرئ بضمّ النون، والزاي بدل الراء من أنشز^(١)؛ أي: رفع؛ فالمعنى: ﴿نُنشِرُهَا﴾؛ أي: نرفع بعضها على بعض.

وقوله: (فنظر إليها...) إلى آخره: لعلّ هذا مأخوذٌ من قوله ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾.

وقوله: (علم مشاهدة): يدلُّ لذلك قوله: ﴿وَأَنْظُرُ إِلَى حِمَارِكَ﴾. وقوله: (أمرٌ من الله له): هذا على القراءة بصيغة الأمرِ وهمزة الوصل، وأمّا على القراءة بصيغة المضارع وهمزة القطع؛ فهو إقرارٌ من صاحب الحمارٍ لكمالِ قدرةِ الله.



(١) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿نُنشِرُهَا﴾ بضم النون الأولى وبالراء، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿نُنشِرُهَا﴾ بالزاي، وقد روى أبان عن عاصم ﴿نُنشِرُهَا﴾ بفتح النون الأولى وضم الشين والراء، وروى أيضًا عبد الوهاب عن أبان عن عاصم: ﴿نُنشِرُهَا﴾ بفتح النون وضم الشين مثل قراءة الحسن وأبي حيوة، والزّعفراني، والمفضل. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٨٩)، و«مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص ٢٣)، و«معاني القراءات» للأزهري (١/ ٢٢٢)، و«الكامل في القراءات» للهدلي (ص ٥٠٩).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

[البقرة: ٢٦٠]:

يقول تعالى: واذكر يا محمد حين قال إبراهيم داعيَّاربه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ المعنى: أرني آيةً مُّشاهدةً أعلمُ بها كيف تُحْيِي الْمَوْتَى؛ قال الله لإبراهيم -ردًا على طلبه أن يُريه كيف يُحْيِي الموتى-: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ أو ليس قد آمنت بأنني أحيي الموتى وأنني على إحيائهم قادر؛ قال إبراهيم مجيبًا لربه: بلى قد آمنت، ولكن طلبت ما طلبت؛ لأزداد إيمانًا فيطمئن قلبي، فأجابه الله إلى طلبه؛ فقال له: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾؛ أي: أربعةً من أنواع الطير، أو من بعض أنواع الطير، ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: أملهن إليك وضمهن إليك^(١)، ﴿ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ وهذا يقتضي أنه يذبحهن ويقطعهن ثم يجعل على كل جبل مما حوله من الأجزاء^(٢) جزءًا منهن، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ يعني: ادع الطير الأربعة التي على الجبال بالتصويت لهن بالطريقة المعتادة في دعاء الطير. وقوله: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ المعنى: إذا دعوتهن أتيناك سعيًا؛ أي: مسرعاتٍ طيارًا أو مشيًا على أرجلهن.

وقوله: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: يحتمل أن يكون خطابًا لإبراهيم، أو خطابًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣)، و﴿عَزِيزٌ﴾: أي: قويٌّ غالبٌ لا يُعجزه

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٤٩٨).

(٢) جمع جبل، فهو يجمع على أجبل وجبال وأجبال، وشاهد الأخير قول الشاعر -وهو ابن الأعرابي-:

يَا رَبِّ مَاءٍ لَكَ بِالْأَجْبَالِ أَجْبَالٌ سَلَمَى الشَّمَخِ الطَّوَالِ

ينظر: «لسان العرب» (٩٦/١١)، و«تاج العروس» (١٧٤/٢٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٦٤٩-٦٥٠).

شيء. ﴿حَكِيمٌ﴾: أي: ذو حكمة في تدبيره وتقديره وفي كل أقواله وأفعاله سُبحانه وتعالى، ويجب أن يُعلم أن هذا الطلب من إبراهيم من ربه أن يُريه كيف يُحيي الموتى لا عن شك في قدرته تعالى، ولهذا قال الله له: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُ قَالًا بَلَى﴾، ولكن لفظ السؤال ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾؟ قد يقول مثله من عنده شك، ولكن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بريء من ذلك؛ كيف وهو الذي قال الله فيه: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥]، وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيح: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم))^(١)، فلا يدل على إثبات وقوع الشك من إبراهيم؛ لأنه إذا كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولى بالشك ولم يشك؛ فإبراهيم أولى ألا يشك^(٢)، وقصة الطيور التي أحيها الله لإبراهيم هي القصة الخامسة مما قصه الله في هذه السورة من إحياء الموتى، وكلها حُجج على قدرته -تعالى- على بعث الأموات من القبور؛ ففيها ردُّ على الكافرين بالبعث المستعدين لقدرة الله عليه.

﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ﴾ تعالى له ﴿أَوْلَمْ تُؤْمِنُ﴾ بقدرتي على الإحياء؟ سأله مع علمه بإيمانه بذلك ليُجيبه بما سأل فيعلم السامعون غرضه.

﴿قَالَ بَلَى﴾ آمنت ﴿وَلَكِنْ﴾ سألتك ﴿لِيُظْمِنَنَّ﴾ يسكن ﴿قَلْبِي﴾ بالمعاينة المضمومة إلى الاستدلال.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بكسر الصادِ وضمِّها، أملهنَّ إليك وقطعهنَّ واخْلُطْ لحمهنَّ وريشهنَّ ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ﴾ من جبال أرضك ﴿مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ إليك ﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ سريعاً

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢) و(٤٥٣٧)، ومسلم (١٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «شرح مسلم» للنووي (١٨٣/٢)، و«فتح الباري» (٤١٢/٦-٤١٣).

﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعجزه شيءٌ ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه. فأخذ طاووسًا ونسرًا وغرابًا وديكًا، وفعل بهنَّ ما ذكر، وأمسك رؤوسهنَّ عنده ودعاهنَّ، فتطايرت الأجزاء إلى بعضها حتى تكاملت، ثم أقبلت إلى رؤوسها.

وقول المؤلف: (اذكر): هذا تقديرُ العاملِ في الظرفِ ﴿إِذْ﴾، وعلى هذا فالظرفُ مفعولٌ به. وقوله: (تعالى له): يُبينُ أنَّ القائلَ لإبراهيمَ: ﴿أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ﴾ هو الله تعالى.

وقوله: (بقدرتي على الإحياء ...) إلى آخره: هذا تقديرُ المعمولِ لـ ﴿تُؤْمِنُ﴾.

وقوله: (سأله مع علمه): بيانٌ لحكمةِ سؤالِ الله إبراهيمَ عن إيمانه. وقوله: (فيعلم السامعون غرضه): المراد: فيعلم السامعون دعاءَ إبراهيمَ؛ غرضه من دعائه، وذلك قوله: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. وقوله: (آمنت): جوابٌ لقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ﴾. وقوله: (سألتك): هذا تقديرُ مُتعلِّقِ الجارِ والمجرورِ ﴿لِيَطْمَئِنَّ﴾.

وقوله: (يسكن ...) إلى آخره: سكونُ القلبِ: زيادةُ الإيمانِ، وهو يحصلُ بتضافر الأدلَّةِ، ولهذا طلبَ إبراهيمُ دليلَ المعاينةِ لِيَنْضَمَّ إلى دليلِ النظرِ بالعقل، وهذا معنى قول المؤلف: (بالمعاينة المضمومة إلى الاستدلال)، وبذلك يرتقي من علم اليقين إلى عين اليقين. وقوله: (بكسر الصادِ وضمِّها ...) إلى آخره: يشيرُ إلى القراءتين في قوله: ﴿صُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾، فبضمِّ الصادِ مِنَ «صَارَهُ يَصْرُوهُ»، وبكسرها من: «صَارَهُ يَصِيرُوهُ»^(١)، ومعناهما: «أماله»، ولهذا قال المؤلف: ﴿فَصِرْهُنَّ﴾: أَمَلَهُنَّ إِلَيْكَ.

(١) قرأ أبو جعفر وحمزة وخلف، ويعقوب برواية رويس: ﴿فَصِرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بكسر الصاد. وقرأ الباقون: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ بضم الصاد. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٨٩-١٩٠)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٣٢).

وقوله: (وقطعهن...) إلى آخره: هذا مفهومٌ من السياق من قوله: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾.

وقوله: (من جبال أرضك): لأنَّ من المعلوم أنه ليس المرادُ جميعُ جبالِ الدنيا.

وقوله: (إليك): أي: ليأتينَ إليك.

وقوله: (سريعًا): أي: يأتينَ مُسرعاتٍ.

وقوله: (لا يُعجزه شيءٌ): يُبينُ أن العزَّةَ تتضمَّنُ كمالَ القدرة.

وقوله: (في صنعه): أي: ذو حكمةٍ في خلقه لا يخلقُ شيئًا عبثًا.

وقوله: (فأخذ طاووسًا...) إلى آخره: تعيينُ الطيورِ وكيفيةُ ما فعله

إبراهيمَ - كما ذكر المؤلف - هو من الرواياتِ الإسرائيلية، وتعيينُ أنواعِ الطيورِ لا مصلحةَ فيه؛ فلذلك لم يُعينها اللهُ - تعالى - ولم يُسمِّها اللهُ عزيزَ حكيمٍ.



وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٣]:

هذه الآية وما بعدها إلى الآية «٢٧٤» متصلة بآيات الأمر بالإنفاق والجهاد في سبيل الله، ففي هذه الآيات عَوْدٌ إلى موضوع الجهاد في سبيل الله والإنفاق فيه، وفي هذه الآية ترغيبٌ في الإنفاق في سبيل الله من جهادٍ وغيره بمُضَاعَفَةِ النَفَقَةِ إلى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ، وتشبيه ذلك بالحَبَّةِ مِنَ الزَّرْعِ تُزْرَعُ فِي الْأَرْضِ فَيَنْبُتُ مِنْهَا سَبْعُ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةً، ولا يَتَّهِى التَّضْعِيفُ عِنْدَ هَذَا الْقَدْرِ بَلِ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً بِلَا حُدٍّ وَلَا عَدِّ.

وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ﴾ أي: صفة الذين، والموصول على تقدير مضافٍ محذوف؛ تقديره: مثل نفقة ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ...﴾ الآية، فالمشبه هو: المَالُ الْمُنْفَقُ الْمَضَاعَفُ إلى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ، والمشبه به؛ هي: الحَبَّةُ الَّتِي ﴿أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةً﴾، ومعلوم: أن هذا رِبْحٌ عَظِيمٌ، وهذا التشبيه عند علماء البيان من التشبيه التمثيلي الذي يكون فيه المشبه والمشبه به مجموع هيئة بهيئة، ويمكن اعتباره من تشبيه الأفراد بالأفراد؛ كأن يُقال: المنفق كالزارع، والمال كالحبَّة، والأضعاف المضاعفة كحبات السنابل السبع^(١). وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي: الطريق الذي شرعه، وهذا شاملٌ للإنفاق في كل ما يُحِبُّهُ اللَّهُ مِنَ الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ مِنْ وَجْهِ الْبِرِّ وَأَنْوَاعِ الْقُرْبِ^(٢).

(١) ينظر: «الكشاف» (١/٤٩٤)، و«الدر المصون» (٢/٥٧٨-٥٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٤١/٣).

(٢) وهو قول سعيد بن جبير والشعبي، واختاره ابن عطية وأبو حيان وابن القيم. ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٢/٥١٤، رقم ٢٧٢٣)، و«المحرر الوجيز» (٢/٥٧)، و«زاد المسير» (١/٢٣٨)، و«البحر المحيط» (٣/٦٥٣)، و«إعلام الموقعين» (٢/٣١٥).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: يدلُّ على أنَّ مضاعفة الحسنات يكون بمشيئته - تعالى - تفضلاً منه، ويدلُّ على أنَّ مضاعفة الحسنات لا ينتهي بسبعمئة، بل يضاعفُ الله لِمَنْ يشاء أكثر من ذلك أضعافاً كثيرةً.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: واسعُ العطاءِ والعلمِ والرحمةِ والقدرةِ، عليمٌ بكلِّ شيءٍ ومن ذلك علمُه بأحوالِ العاملين ونيَّاتهم وما يستحقونه من الثواب، وهو حكيمٌ يضعُ الأشياءَ في مواضعها.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾: الاسمُ الموصولُ في موضعٍ جرٍّ بدلٍ من الموصولِ في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ﴾، وعلى هذا تكونُ هذه الجملةُ متصلةً بالتي قبلها في المعنى، ويحتملُ أن تكون مُستأنفةً والموصولُ مبتدأً، وخبرُه: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى﴾: معطوفةٌ على صلة الموصولِ فلا محلَّ لهما من الإعراب؛ المعنى: لا يمتُّون على مَنْ تصدَّقوا أو أنفقوا عليه بدعوى التفضُّلِ عليه، ولا يؤذونه بقولٍ ولا فعلٍ؛ فإنَّ ذلك مما يُبطلُ ثوابَ النفقة؛ لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبَعُهَا أَذَى﴾: يخبرُ - تعالى - أنَّ القولَ السديدَ المعروفَ في الشرع وفي الفطرة السليمة - وهو القولُ الحسنُ الخالي عن الفُحشِ والبذاءِ والعفوَ عن الإساءة - أفضلُ من الصدقة التي يتبعها أذى، مع أنَّ القولَ المعروفَ والعفوَ عن الإساءة ليس فيها بذلٌ مالٍ، وفي هذا ترغيبٌ في القولِ المعروفِ والمغفرةِ للمُسيءِ، وذمٌّ للمنِّ والأذى في الصدقة.

(١) ينظر: «التبيان في إعراب القرآن» (١/ ٢١٣)، و«الدر المصون» (٢/ ٢٨٢-٢٨٣).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾: ثناءً من الله على نفسه بالغنى عن العباد وعن أعمالهم فلا تنفعه طاعتهم ولا تضره معاصيهم، وهو حلِيمٌ - تعالى - لا يُعاجِلُ بالعقوبة مَنْ عصاهُ، وفي ذكر هذا الاسم في هذا المقام تحذيرٌ لِمَنْ يُتَّبَعُ صدقته بِالْمَنْ وَالْأَذَى، فلولا حِلْمُهُ - تعالى - لعاجله بالعقوبة؛ لأنه مُسْتَحِقٌّ لها.

﴿مَثَلٌ﴾ صفة نفقات ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: طاعته ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ فكذلك نفقاتهم تُضَاعَفُ لسبعمائة ضِعْفٍ ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ﴾ أكثر من ذلك ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ فضله ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ المضاعفة. ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا﴾ على المنفق عليه بقولهم مثلاً: «قد أحسنت إليه وجبرتُ حاله» ﴿وَلَا أَدَى﴾ له بذكر ذلك لمن لا يحبُّ وقوفه عليه ونحوه ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثوابٌ إنفاقهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة. ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ كلامٌ حَسَنٌ وردُّ على السائل جميلٌ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ له في إلحاحه ﴿خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى﴾ بالمنِّ وتعيرٍ له بالسؤال ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن صدقة العباد ﴿حَلِيمٌ﴾ بتأخير العقوبة عن المانِّ والمؤذي.

وقول المؤلف: (صفة نفقات): تفسيرٌ للمثل بالصفة، والصفة تكون بطريق من الكلام، والصفة في هذه الآية بطريق التشبيه التمثيلي. وقوله: (نفقات): بيانٌ للمُشَبَّه. وقوله: (أي: طاعته): تفسيرٌ لسبيل الله، وهو تفسيرٌ صحيحٌ؛ فكلُّ طاعةٍ لله هي من سبيل الله تُقَرَّبُ إلى الله.

وقوله: (فكذلك...) إلى آخره: بيان لوجه الشبه، وهو الاتفاق في العدد بين تضعيف النفقة وحبات السنابل.

وقوله: (أكثر من ذلك): لأن هذا هو فائدة الجملة المستأنفة.

وقوله: (فضله): خصّ السعة بالفضل؛ مراعاةً لمقام الإنفاق وتضعيف الأجر، وإلا فالله واسع الفضل والرحمة والعلم كما قال تعالى: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وقوله: (بمن يستحق المضاعفة): هذا التخصيص فيه مراعاة المقام أيضاً، وإلا فالله بكل شيء عليم.

وقوله: (على المنفق عليه...) إلى آخره: بيان لحقيقة المنّ وأنه يكون من المنفق على المنفق عليه، ومن المنّ قول المنفق: «قد أحسنت إلى فلان وأعطيته ونفعتة»؛ على وجه التطاول عليه وأن له فضلاً عليه.

وقوله: (له بذكر ذلك...) إلى آخره: تفسير للإيذاء ببعض أنواعه، وهو ذكر المنفق من أنفق عليه عند من يكره المنفق عليه اطلاعاً عليه، والأذى عام لكل ما يكره المتسلط عليه من قول أو فعل.

وقوله: (كلام حسن...) إلى آخره: فسّر القول المعروف بالكلام الحسن، والحسن ضد القبيح، فالقول المعروف هو المستحب شرعاً المقبول عقلاً وفطرة، ومن القول المعروف ردّ السائل بالكلمة الطيبة كما قال صلى الله عليه وسلم: ((فاتقوا النار ولو بشقّ تمرّة فمن لم يجد فبكلمة طيبة))^(١)؛ كأن يقال للسائل: «أبشّر»، وإذا أُعطي قيل له: «هذا ما تيسّر، وما يأتي أكثر، وسامح عن التقصير» وما أشبه ذلك من القول الحسن المعروف، فكل ذلك ﴿خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى﴾، فمن أشدّ الأذى للمُعطي: المنّ عليه، والصدقة المتبوعة بالمنّ والأذى لا أجر فيها؛ لأنها باطلة.

(١) أخرجه البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

وقوله: (لَهُ فِي إِحَاحِهِ): يريد: أَنَّ الْمَغْفِرَةَ الْمَرْغَبَ فِيهَا فِي الْآيَةِ يَرَادُ بِهَا: الْمَغْفِرَةُ لِلْسَّائِلِ إِذَا أَسَاءَ كَالِحَاحِهِ فِي السُّؤَالِ، وَهُوَ الْإِلْحَافُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] (١).

وقوله: (بِالْمَنْ...) إلى آخره: فَسَّرَ الْأَذَى بِنَوْعَيْنِ وَهُمَا: الْمَنْ، وَالتَّعْيِيرُ لِلْمَسْكِينِ الْمُتَصَدِّقِ عَلَيْهِ سَائِلًا أَوْ غَيْرَ سَائِلٍ، وَالْأَذَى: اسْمٌ عَامٌّ يَعُمُّ كُلَّ مَا يُؤْذِي الْمُتَصَدِّقَ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.

وقوله: (عَنْ صَدَقَةِ الْعِبَادِ): اللَّهُ غَنِيٌّ عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، وَخَصَّ الْمُؤَلَّفُ الصَّدَقَةَ؛ مِرَاعَاةً لِسِيَاقِ الْآيَاتِ.

وقوله: (بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ...) إلى آخره: بَيَانٌ لَوْجِهَ ذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ «الْحَلِيمِ»، وَأَنَّ فِيهِ تَهْدِيدًا وَتَحْذِيرًا لِلْمَانِّ وَالْمُؤْذِي.



وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ [البقرة: ٢٦٤]:

ينهى الله عباده المؤمنين عن التسبب في إبطال صدقاتهم، ومن أعظم أسباب بطلان الصدقة المنُّ والأذى والرياء، وهذا معنى قوله: ﴿بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾؛ أي: بسبب المنِّ بالصدقة على المتصدق عليه أو الأذى له بقول أو فعل، فإنَّ ذلك مُبْطِلٌ لصدقتكم كما يُبْطِلُ الرياء أجرَ ما يُنْفِقُهُ المرابي، والذي ﴿يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ إنما يحمله على ذلك أنه لا يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لذلك لا يتبغي أجراً عند الله ولا يخشى عقابه، ثم يُشَبِّهُ اللهَ عملَ هذا المرابي في ذهاب أجره بالصفوان؛ وهو الحجرُ الأملس^(١) إذا كان ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾؛ أي: مطرٌ قوي^(٢)، فإنه يُزِيلُ ما عليه من التراب فيبقى الصفوان أملس لا شيء عليه من ذلك التراب، وهذا معنى: الصلْد، ولهذا قال: ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾، وهذا تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ شبهَ عملَ المرابي -الذي يقتضي في أصله أجراً ولكن بريائه أذهب أجره- بالصفوان الذي عليه ترابٌ فأزال المطرُ كلَّ ما عليه من ذلك فصارَ صلداً؛ أي: أملس لا شيء عليه من ترابٍ ولا نبات^(٣). وقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لا يقدرُ المراؤون بنفقاتهم على شيءٍ ينفعهم جزاءً على أعمالهم؛ لأنهم أبطلوها بفساد نيَّاتهم فلم يُنْفِقُوا ما أنفقوا ابتغاءً وجهِ الله، بل أنفقوه رياءً للناس؛ أي: ليراهمُ الناسُ فيحمدوهم على

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٤٨٧-٤٨٨).

(٢) «المفردات» للراغب (ص ٨٥٢). (٣) «المفردات» للراغب (ص ٤٩٠).

إنفاقهم في وجوه الخير، وليس لهؤلاء المرأين من أعمالهم إلا ما نَوُوا لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرئ ما نوى...))^(١) الحديث. وقوله تعالى: ﴿كَأَلَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾: تشبيه لمن يتبع صدقته بالَمَنِّ والأذى بالذي يُنفق رِثَاءَ النَّاسِ، ووجه الشبه بينهما: إبطال الصدقة والنفقة، وكذلك يُشبه الذي يتبع صدقته بالَمَنِّ والأذى بَمَن شَبَّه به الذي يُنفق ماله رِثَاءَ النَّاسِ؛ أي: بالصفوان الذي عليه تراب فأصابه وابل فتركه صُلْدًا، فدلّ هذا التمثيل على أنّ هذه المُبطلات للصدقة لا تُبقي للعامل من أجرها شيئًا. وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٦٦): وعيدٌ للكافرين بالله، ومنهم المنافقون الذين يُنفقون أموالهم رِثَاءَ النَّاسِ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾ أي: أجورها ﴿بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ إبطالا ﴿كَالَّذِي﴾ أي: كإبطال نفقة الذي ﴿يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ مرثيا لهم ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهو المنافق ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ حجر أملس ﴿عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ مطرٌ شديد ﴿فَتَرَكَهُ صُلْدًا﴾ صلبًا أملس لا شيء عليه ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ استئناف؛ لبيان مثل المنافق المنفق رياءً. وجمع الضمير باعتبار معنى «الذي» ﴿عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ عملوا، أي: لا يجدون له ثوابًا في الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شيء من التراب الذي كان عليه لإذهاب المطر له ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقول المؤلف: (أي: أجورها): هذا من التفسير باللائم؛ فإنَّ العمل إذا بطل في حكم الشرع لم يترتب عليه أجرٌ.

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واللفظ للبخاري.

وقوله: (إبطالاً): هذا مصدرٌ مُبِينٌ للنوع، قَدَرَهُ المؤلِّفُ ليكون هو المشبَّه، والكافُ صفةٌ له؛ فالمعنى: لَا تُبْطَلُوا صدقاتكم إبطالاً مثل إبطالِ نفقةِ الذي يُنْفِقُ مالهَ رِئاءِ النَّاسِ. وقوله: (مرايئاً لهم): جعلَ المصدرَ في موضعِ الحال، ويَحْتَمَلُ أَنَّهُ مفعولٌ لأجله^(١).

وقوله: (وهو المنافقُ): لأنَّ هذا الوصفَ لا ينطبقُ إلا على المنافقِ دونَ مَنْ يُرائي وهو من المؤمنين.

وقوله: (حجر أملس): هذا بيانٌ لمعنى: الصَّفوان.

وقوله: (مطرٌ شديدٌ): بيانٌ لمعنى الوابلِ، ومعنى شديدٌ؛ أي: شديدُ الوقعِ على الأرضِ وغزيرٌ يجري في الأرضِ الصَّلْبَةِ.

وقوله: (صلباً...) إلى آخره: تفسيرٌ للصِّلدِ بثلاثةِ أمورٍ؛ بالصَّلابةِ، والمُلوسةِ، وخُلوهٍ عمَّا يُغطيهِ من نباتٍ أو ترابٍ^(٢).

وقوله: (استئنفُ): إمَّا أَنَّ الجملةَ مُستأنفةٌ فهو ظاهرٌ، وأمَّا قوله: (ليبان مثل المنافقِ المنفقِ رياءً) فليس بظاهرٍ؛ فإنَّ مثلَ المنافقِ قد تقدَّمَ قبلَ الجملةِ المستأنفةِ، ولو قال: لبيانِ عاقبةِ المنافقِ الذي ينفقُ رياءً لكانَ أسدَّ وأنسبَ.

وقوله: (وجُمعَ الضميرُ...) إلى آخره: يريد: الواو في قوله: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾. وقوله: (باعتبارٍ معنى: «الذي»): يريد: الموصولَ في قوله: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ﴾؛ فإنَّ لفظه مفردٌ ومعناه جمعٌ؛ لأنَّ المرادَ به الجنس، وهذا معنى قوله: (باعتبارٍ معنى: «الذي»).

وقوله: (عملوا...) إلى آخره: بيانٌ لوجهِ الشبهِ بينَ عملِ المُنْفِقِ رياءً والصفوانِ، وكلامُ المؤلِّفِ واضحٌ.



(١) ينظر: «التبيان في إعراب القرآن» (١/٢١٤)، و«البحر المحيط» (٢/٦٦٣).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٣/٢٥٧).

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥]:

هذا مثل آخر ضربهُ اللهُ لِنَفَقَةٍ مَّن يُنْفِقُ فِي سَبِيلِ اللهِ، والمثل الأول في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾، ومعنى المثل هو: الصِّفَةُ؛ المعنى: وصفة نفقة ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ﴾؛ أي: طلباً لرضاهُ وتسليته من أنفسهم؛ أي: تصديقاً ويقيناً، وقيل: تثبتاً، وَضَعَفَ ذلك ابن جريرٍ ورجَّح الأول^(١).

وقوله: ﴿كَمَثَلِ﴾: أي: كصفة ﴿جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾؛ أي: في مُرتَفَعٍ من الأرض^(٢).

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾: أي: نزلَ عليها مطرٌ غزيرٌ سقاها فأرواها. ﴿فَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾: أي: فأثمرت ثمرها ضِعْفَيْنِ؛ أي: مثل ثمرها في العادة مرتين، أو مثل ثمر أمثالها من الجنات مرتين.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ﴾: أي: إن لم يُصبها مطرٌ شديدٌ أصابها طُلٌّ، وهو المطرُ الخفيف^(٣)؛ المعنى: أنها لا تَعْدُمُ ما يَسْقِيها، فإمَّا وابلٌ وإمَّا طُلٌّ، وهذا التفاوت في المشبه به راجعٌ إلى التفاوت في المشبه؛ وهي: نفقةُ المنفقين في سبيلِ اللهِ، فمنهم مَن يكونُ أكملَ إخلاصاً وسخاءً وأكثرَ بذلاً وأعظمَ تصديقاً ويقيناً فتضاعفُ صدقته بحسبِ ذلك، ومنهم مَن يكونُ دون ذلك فيما تقدَّم فينزلُ عن درجته، ولهذا قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّ المنفقينَ على درجتين: سابقين مُقرَّبين، وأبرارُ أصحابِ يمين^(٤)، وبنى على ذلك التفاوت في سقي الجنة التي بربوَّة، وهي: المشبه به، وهذا التشبيه في هذه الآية مثل ما

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٦٧٠-٦٧١).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٩٧). (٣) ينظر: «المفردات» (ص ٥٢٢).

(٤) ينظر: «طريق الهجرتين» (ص ٨٠٤-٨٠٥).

سبقة في المثلين السابقين كلها من قبيل التشبيه التمثيلي الذي يُراعى فيه تشبيه جملة بجملة أو هيئة بهيئة كما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١٦٥): أي: بما تعملون عليمٌ علماً تاماً بجميع أعماله وأسبابها، وغاياتها محمودة أو مذمومة، وآثارها حسنة أو سيئة، نافعة أو ضارة، فعلم الله محيطٌ بذلك كله، ثم يجزي كلاً بعمله إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌ، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾^(١٦٦) [النجم: ٣١]، ففي قوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١٦٥) وعدٌ ووعدٌ، وعدٌ للمنفقين المخلصين الصادقين، ووعدٌ للمرائين والمُتبعين صدقاتهم المن والأذى.

﴿وَمَثَلٌ﴾ نفقات ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءً﴾ طلب ﴿مَرْضَاتٍ﴾
الله وتثبيتاً من أنفسهم ﴿أي: تحقيقاً للثواب عليه، بخلاف المنافقين الذين لا يرجونه لإنكارهم له، و«من»: ابتدائية ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ بستان ﴿بِرُبُوعٍ﴾ بضم
الراء وفتحها: مكان مرتفع مستو ﴿أَصَابَهَا وَاِبْلٌ فَاتَتْ﴾ أعطت ﴿أُكَلِّهَا﴾
بضم الكاف وسكونها: ثمرها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مثلي ما يُثمر غيرها ﴿فَإِنْ لَمْ
يُصِبْهَا وَاِبْلٌ فَظُلٌّ﴾ مطرٌ خفيفٌ يُصيبها ويكفيها لارتفاعها. المعنى: تُثمر
وتزكو كثر المطر أم قل، فكذاك نفقات من ذكر، تزكو عند الله كُثرت أم
قلت ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم به.

وقول المؤلف: (نفقات): بيان للمُشبه على أحد القولين، وقيل: المشبه هو الموصول ﴿الَّذِينَ﴾، ومن يقول ذلك يُقدَّر في المشبه به: «كَمَثَلِ صَاحِبِ جَنَّةٍ»^(١).

وقوله: (طلبَ): يقتضي أَنَّ ﴿ابْتِغَاءً﴾ مفعولٌ لأجله.
 وقوله: (أي: تحقيقًا للشوابِ ...) إلى آخره: يريد: احتسابًا للشوابِ الذي وعدَ اللهُ به المنفقينَ ابتغاءَ مرضاتِ الله.
 وقوله: (و«مِنْ»): ابتدائيةٌ: يُبَيِّنُ أَنَّ تَشْبِيهَهُمْ - وهو تصديقهم ويقينهم عند الإنفاقِ - حاصلٌ بمجاهدةٍ من أنفسهم.
 وقوله: (بستانٍ): بيانٌ لمعنى الجنةِ، ولكن اسم «الجنةِ» يدلُّ على أنها البستانُ كثيرُ الأشجارِ بحيث يسترُ مَنْ فيه، فالجنةُ أخصُّ من البستانِ، فكلُّ جنةٍ بستانٌ وليس كلُّ بستانٍ جنةً. وقوله: (بضمِّ الراءِ وفتحِها): يشيرُ إلى أَنَّ فيها لغتينِ وقراءتينِ^(١).
 وقوله: (مكانٍ مرتفعٍ مستوٍ): تفسيرٌ للرَّبْوَةِ، والجنةُ في الربوةِ أطيَّبُ ما تكونُ ثمرًا وأكثرُهُ؛ لبروزها للشمسِ والرياحِ.
 وقوله: (أعطتْ): هو معنى: «آتتْ»، والإيتاءُ والإعطاءُ يُضافُ إلى الجنةِ وإلى الشجرةِ، فقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥] معناه: تُخْرِجُ ثمرَها، وذلك بإذنِ الله ومشِيئتهِ.
 وقوله: (بضمِّ الكافِ وسكونِها): يشيرُ إلى اللغتينِ في «أكلُ» وقد قرئَ باللغتينِ^(٢).

(١) قرأ عاصم وابن عامر: ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ بفتح الراءِ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ بضم الراءِ، أما لغة فجاجت مثلثة الراءِ مع رِباوَةٍ، وبغير ما تقدم - من الفتح والضم - جاءت روايات شاذة عن: ابن عباس، والأشهب العقيلي، والحسن، والأعمش، وابن أبي إسحاق. ينظر: «النشر» (٢/ ٢٣٢)، و«مختصر شواذ القرآن» (ص ٢٣)، و«الكامل في القراءات» (ص ٥٠٩)، و«الصحاح» للجوهري (٦/ ٢٣٥٠).
 (٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿أُكْلَهَا﴾ بسكون الكافِ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿أُكْلَهَا﴾ بضمها. ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ١٩٠)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص ٢٩٩-٣٠٠).

وقوله: (ثمرها): تفسير ﴿أُكَلِّهَا﴾، وهو كلُّ ثمرٍ مأكولٍ كالتمرِّ والعنب وغيرهما.

وقوله: (مثلي ما يثمر غيرها): ضعف الشيء: مثله، وضعفاه: مثلاه؛ فمعنى: ﴿آتَتْ أُكَلِّهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: أثمرت مثل ثمرٍ غيرها مرتين، وهذا في صفة المشبه به، فيقتضي أنَّ المشبه وهو نفقة المخلص يثاب عليها مثل ما يثاب غيره مرتين، وبذلك يظهر وجه الشبه.

وقوله: (مطرٌ خفيفٌ ...) إلى آخره: تضمن تفسير الطل بأنه المطر الخفيف، وبيان أن هذه الجنة يزكو ثمرها إن أصابها وابلٌ أو طلٌّ. ثم يبين وجه الشبه بين المشبه والمشبه به بقوله: (فكذلك نفقات من ذكر، تزكو عند الله كثر أم قلت).

وقوله: (من ذكر): أي: من ذكر في أول الآية، وهم ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

وقوله: (فيجازيكم به): ينبه على أن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه الإشارة إلى الجزاء وعدًا ووعيدًا.



وقوله تعالى: ﴿أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعْفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٦]:

الخطابُ في هذه الآية للمؤمنين؛ فإن معناها متَّصِلٌ بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾، والاستفهامُ إنكارِيٌّ معناه: النفِي، ومُتضمِّنٌ للتقرير؛ فالمعنى: لا يحبُّ أحدٌ منكم أن تكون له هذه الجنة مع ما ذُكر من مصيرها، وما ذُكر من ضعفِ صاحبها وضعفِ ذريته، وهذه الجنة مثلُ ضربِ الله لِمَن عملَ عملاً صالحاً يستحقُّ عليه الثواب، ثم أبطله بقولٍ أو فعلٍ مما يبطلُ الأعمالَ كالمنِّ والأذى في الصدقة، وبهذا يظهرُ اتصالُ هذه الآية بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ...﴾ الآية.

وأعظمُ ما ينطبقُ عليه هذا المثلُ من أمضى عمره في طاعة الله وعند الموت ارتدَّ عن الإسلام فأبطلَ كلَّ ما مضى منه من أعمالٍ صالحةٍ، وهذا معنى ما جاء عن ابن عباس، وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسير الآية ^(١).

وقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ﴾: أي: من تحت أشجارها. وقوله: ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾: أي: من أنواع الثمار، وهو يدلُّ على أن في هذه الجنة أنواعَ الأشجارِ ذاتِ الثمر، وخصَّ النخلَ والعنبَ بالذكر؛ إما: لكثرتيهما فيها، وإما لفضلهما على سائر الشجرِ لكثرةِ منافعهما ^(٢).

وقوله: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾: الواو واو الحال؛ أي: وقد أصابه الكبرُ فهو عاجزٌ عن الكسب. ﴿وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعْفَاءٌ﴾: هم عاجزون كذلك، و﴿ضَعْفَاءٌ﴾:

(١) ينظر: صحيح البخاري (٤٥٣٨)، و«تفسير الطبري» (٤/٦٨٢-٦٨٤)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/٥٢٢)، و«الدر المثور» (٢/٤٧-٤٩).

(٢) ينظر: «الكشاف» (١/٤٩١)، و«المحرر الوجيز» (٢/٧٠)، و«تفسير القرطبي» (٣/٣١٩).

جمعٌ ضعيفٍ، ويُجمعُ على ضِعَافٍ، والإعصارُ: هي الرِّيحُ الشديدةُ الباردةُ، وقيل: رِيحٌ شديدةٌ فيها سمومٌ^(١)، وهو ما يدلُّ عليه قوله: ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾؛ أي: احترقت أشجارُ الجنةِ وثمارُها فلم يبقَ فيها نفعٌ لصاحبِها مع ما هو عليه من عجزه وعجزِ ذريتهِ فذهبَ عملهُ فيها وما أنفقَه في غرسها وإصلاحها باطلاً وخسرَ خسراناً مُبيناً.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾: أي: مثلُ هذا البيانِ والتفصيلِ للآياتِ السابقةِ يُبيِّنُ سائرَ الآياتِ من كتابه. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾: «لعلَّ»: للتعليل؛ فالمعنى: يبيِّنُ لكم الآياتِ لِتَتَفَكَّرُوا فيها وتندبَرُوا وتفهَمُوا وتهتدُوا بها.

﴿أَيُّودٌ﴾ أي حُبٌّ ﴿أَحَدَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ بستانٌ ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا﴾ ثمرٌ ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ﴾ قد ﴿أَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ فضعفَ من الكبرِ عن الكسبِ ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ أولادٌ صغارٌ لا يقدرُون عليه ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ رِيحٌ شديدةٌ ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ ففقدَها أحوج ما كان إليها، وبقي هو وأولادُه عجزَةً مُتَحَيِّرِينَ لا حيلةَ لهم. وهذا تمثيلٌ لنفقة المرائي والمانِّ في ذهابها وعدمِ نفعها أحوج ما يكون إليها في الآخرة. والاستفهامُ بمعنى النفي. وعن ابن عباس: هو لرجلٍ عملٍ بالطاعات ثم بعثَ له الشيطانُ فعملَ بالمعاصي حتى أحرقَ أعماله ﴿كَذَلِكَ﴾ كما بين ما ذُكِرَ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتعتبرون.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/ ٦٩٠-٦٩٣)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٧٠)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣١٩-٣٢٠).

وقول المؤلف: (أَيْحَبُّ): قيل: المودَّةُ: خالصُ المحبة^(١)، وقيل: الودُّ: محبةُ الشيءِ مع تَمَنِّيهِ^(٢). وقوله: (بستانٌ): أي: بستانٌ كثيرُ الأشجارِ.
 وقوله: (ثمرٌ): هو تقديرٌ للمبتدأ، وخبرُه: الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُ﴾.
 وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾: صفةٌ للمبتدأ المقدرِ.
 وقوله: (قد): يريدُ «وقد أصابه الكِبَرُ»، فالجملةُ حالٌ.
 وقوله: (فضعفَ ...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ الكِبَرَ: حالةٌ ضعفٍ يعجزُ معها الإنسانُ عن الكسبِ الذي يُغنيه عن الحاجةِ إلى الغيرِ.
 وقوله: (أولادٌ صغارٌ ...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ المرادَ بالذريةِ الصَّغارِ لقوله: ﴿ضِعْفَاءُ﴾؛ لأنَّ الصَّغرَ حالةٌ ضعفٍ لا يتهاى معه الكسبُ.
 وقوله: (ريحٌ شديدةٌ): قيل: باردةٌ شديدةُ البردِ، وقيل: سموماً، ويؤيدُ هذا قوله: ﴿فِيهِ نَارٌ﴾. وقوله: (ففقدها ...) إلى آخره: بيانٌ لعِظَمِ المصيبةِ بما أصابَ الجنةَ مع ما عليه صاحبُها من ضعفه وضعفِ ذريته، فلم يبقَ له مع هذه الحالِ نفعٌ من جنَّته، ويُبَيِّنُ المؤلفُ وجهَ الشبهِ بين مَنْ أبطلَ صدقته وعمَلَه الصالحِ فلم يجدْ له ثواباً في الآخرةِ وصاحبَ هذه الجنةِ. وقوله: (والاستفهامُ بمعنى: النَّفي): يريد: الاستفهامُ في أولِ الآيةِ.
 وقوله: (وعن ابنِ عباسٍ ...) إلى آخره: هذا الأثرُ رواه البخاريُّ^(٣)، وهو من أحسنِ ما تُفسَّرُ به هذه الآيةُ، وقد أحسنَ المؤلفُ بنقله.
 وقوله: (ما ذُكِرَ): بيانٌ لمرجعِ الإشارةِ في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾.
 وقوله: (فتعتبرون): بيانٌ للغايةِ من التفكيرِ.



(١) ينظر: «روضة المحبين» (ص ٧٤).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٣/٤٥٣-٤٥٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٥٣٨).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ۗ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ [البقرة: ٢٦٧]:

لَمَّا رَغِبَ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ فِي الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ وَحَدَّرَ مِنْ كُلِّ مَا يُبْطَلُ الصَّدَقَاتِ مِنَ الْمَنِّ وَالْأَذَى وَالرِّيَاءِ وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ لِذَلِكَ؛ أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْإِنْفَاقِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ مِمَّا اكْتَسَبُوهُ بِالتَّجَارَةِ وَغَيْرِهَا، وَمِمَّا أَخْرَجَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ مِنَ الْحُوبِ وَالثَّمَارِ، وَنَهَاهُمْ تَعَالَى عَنْ قَصْدِ الْخَبِيثِ مِنَ الْمَالِ - وَهُوَ: الرَّدِيءُ - عِنْدَ قَصْدِ الْإِنْفَاقِ، فَبَيَّنَ تَعَالَى مَا يَنْبَغِي الْإِنْفَاقَ مِنْهُ وَهُوَ الطَّيِّبُ؛ أَي: الْجَيِّدُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَالِ، وَمَا لَا يَنْبَغِي قَصْدَهُ فِي الْإِنْفَاقِ وَهُوَ الْخَبِيثُ، وَأَكَّدَ تَعَالَى هَذَا النَّهْيَ بِأَنَّ اخْتِيَارَ الرَّدِيءِ فِيمَا تَنْفِقُونَهُ لِلَّهِ لَا يَلِيقُ بِكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَخْتَارُونَهُ لِأَنْفُسِكُمْ؛ بَلْ لَا تَقْبَلُونَهُ لَوْ أُهْدِيَ إِلَيْكُمْ إِلَّا عَلَى إِغْمَاضٍ؛ أَي: إِلَّا عَلَى كِرَاهَةٍ وَحِيَاءٍ مِمَّنْ أَعْطَاكُمْوهُ؛ وَهُوَ مَا يُعْبَرُ عَنْهُ بِالْمَجَامِلَةِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾.

ثُمَّ أَعْلَمَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ نَفَقَاتِهِمْ، فَلَمْ يَأْمُرْ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لِحَاجَتِهِ إِلَى ذَلِكَ؛ بَلْ لِيُظْهَرَ مَا فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ وَالتَّصَدِيقِ بِوَعْدِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وَهُوَ الْحَمِيدُ؛ أَي: الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَتَدْبِيرِهِ فِي شَرْعِهِ وَقَدْرِهِ؛ وَذَلِكَ لِكَمَالِ حِكْمَتِهِ، فَلَهُ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلِهَذَا جَمَعَ تَعَالَى فِي تَعْلِيمِهِ لِعِبَادِهِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَسْمِينَ «الغني الحميد»؛ فَقَالَ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ «حميد» بِمَعْنَى: حَامِدٌ، وَهَذَا مَعْنَى صَحِيحٌ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى يُثْنِي عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَى الْمُنْفِقِينَ وَيُضَاعَفُ لَهُمُ الْأَجُورُ؛ فَيَكُونُ مَعْنَى «حَمِيدٌ»

قريباً من معنى ﴿شُكُورٌ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْتِيَهُمَ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

واختلف المفسرون في الإنفاق المأمور به في الآية؛ فقيل: هو الزكاة، وقيل: صدقة التطوع، وظاهر الآية العموم؛ كقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ٣]، يشمل النفقة الواجبة والمستحبة^(١).

وقد استُدلَّ بالآية على وجوب الزكاة في عروض التجارة؛ لقوله: ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، وعلى وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من قوله: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لِكُم مِّن الْأَرْضِ﴾، فأما عروض التجارة فذهب جمهور العلماء على وجوب الزكاة فيها^(٢)، وهي: كلُّ ما أُعدَّ للبيع وطُلبَ به الربُّح، وذهبت الظاهرية إلى عدم وجوب الزكاة في العروض^(٣).

وأما الخارج من الأرض؛ ففي وجوب الزكاة فيه مذاهب^(٤)؛ فقيل: تجب الزكاة في كلِّ خارج من الأرض؛ من الحبوب والثمار والفواكه والخضروات؛ لعموم الآية.

وقيل: يختصُّ وجوبُ الزكاة بما يُوسَّقُ من الحبوب والثمار؛ كالتمر والعنب والبر والشعير؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((ليس فيما دون خمسة أوسقٍ من حب أو ثمر صدقة))^(٥).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٧٠٩-٧١٠)، و«المحرر الوجيز» (٧١/٢-٧٢).

(٢) ينظر: «المجموع شرح المهذب» (٦/٣-٥)، و«المغني» (٤/٢٤٨-٢٤٩).

(٣) ينظر: «المحلى» (٤/٣٩).

(٤) ينظر: «المجموع شرح المهذب» (٥/٤٣٠ وما بعدها)، (٥/٤٦٨-٤٧١)، و«المغني» (٤/١٥٤ ما بعدها).

(٥) أخرجه البخاري (١٤٥٩)، ومسلم (٩٧٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقيل: لا تجب الزكاة إلا في أربعة التمر والزبيب والبر والشعير؛ لحديث أبي موسى ومعاذ وفيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((لا تأخذوا الصدقة إلا من هذه الأربعة: الشعير، والحنطة، والزبيب، والتمر))^(١)، وأدخل بعض المفسرين في عموم: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ﴾ المعدن والركاز؛ فأوجب فيهما الزكاة من هذه الآية، ويدلُّ لوجوب الزكاة في الركاز قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وفي الركاز الخمس))^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾ أَي: زَكُوا ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ﴾ جِيَادٍ ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ مِنَ الْمَالِ ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ مِنْ

(١) أخرجه الدارقطني (١٩٢١)، والحاكم (١٤٥٩)، والبيهقي (١٤٥٩) من طريق أبي حذيفة موسى بن مسعود النهدي، عن سفيان الثوري، عن طلحة بن يحيى، عن أبي بردة، عن أبي موسى ومعاذ بن جبل حين بعثهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى اليمن يعلمان الناس أمر دينهم: ((لا تأخذوا الصدقة إلا من هذه الأربعة: ...)) وذكره.

وأبو حذيفة فيه ضعف من قبل حفظه، وأخرج له البخاري في المتابعات. «التقريب» (٧٠١٠)، وقال الذهبي في «الميزان» (٨٩٢٣): «صدوق إن شاء الله، يهم، تكلم فيه أحمد، وضعفه الترمذي، وقال ابن خزيمة: لا يحتج به».

وطلحة بن يحيى التيمي مختلف فيه، وثقه يحيى بن معين وغيره، وقال يحيى القطان: «لم يكن بالقوي»، وقال البخاري: «منكر الحديث»، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال: «كان يخطئ». ينظر: «الميزان» (٣٤٣/٢).

وتابع أبا حذيفة في روايته عن سفيان: عبيد الله بن عبيد الرحمن الأشجعي. أخرجه البيهقي (٧٤٥٢) من طريق يحيى بن آدم، ولفظه غير صريح في الرفع.

وأخرجه أحمد (٢١٩٨٩)، والدارقطني (١٩١٤)، والحاكم (١٤٥٧) من طريق موسى بن طلحة قال: عندنا كتاب معاذ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أنه إنما أخذ الصدقة ...)) وذكره. وموسى بن طلحة لم يدرك معاذًا، لكنها وجادة صحيحة.

وللحديث شواهد ومراسيل يشد بعضها بعضًا كما قال البيهقي. ينظر: «نصب الراية» (٣٨٦/٢)، و«البدر المنير» (٥١١/٥)، و«التلخيص الحبير» (٣/١٣٣٥، رقم ١٠٣٩)، و«إرواء الغليل» (٣/٢٧٦، رقم ٨٠١).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٩)، ومسلم (١٧١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحبوب والثمار ﴿وَلَا تَيْمَّمُوا﴾ تقصدوا ﴿الْخَيْثَ﴾ الرديء ﴿مِنْهُ﴾ أي: من المذكور ﴿تُنْفِقُونَ﴾ في الزكاة: حال من ضمير «تيمموا» ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ﴾ أي: الخيث لو أعطيتموه في حقوقكم ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ بالتساهل وغيض البصر. فكيف تؤذون منه حق الله؟ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن نفقاتكم ﴿حَمِيدٌ﴾ محمودٌ على كل حال.

وقول المؤلف: (أي: زكوا): هذا أحد الأقوال في معنى الأمر في هذه الآية؛ وهو أن المراد إخراج الزكاة المفروضة. وقيل: المراد بالأمر صدقة التطوع. وقيل: إن الأمر يعمهما، وهذا أظهر؛ لإطلاق الأمر بالإنفاق؛ قال ابن جرير في تأويل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾: «زكوا وتصدقوا»^(١). وقوله: (جِيَاد): جمع جيد، وذكره بلفظ الجمع مراعاةً للفظ الطيبات، والجيد والطيب: هو المستحسن المرضي، خلاف الرديء. وقوله: (من المال): يُبَيِّنُ أَنَّ الْمَرَادَ الْإِنْفَاقَ مِنَ الطَّيِّبِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَالِ. وقوله: ﴿وَمِنْ طَيِّبَاتٍ﴾: يُبَيِّنُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مَا أَخْرَجْنَا﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ إذن: فهو على تقدير: ومن طيباتٍ ما أخرجنا كما قدره المؤلف.

وقوله: (من الحبوب والثمار): بيانٌ للمراد بالمخرج من الأرض والحبوب والثمار هي أكثر وأشهر ما يمتنُّ الله على عباده بإخراجه كما في سورة الأنعام والنحل وغيرهما، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [ق: ٩-١٠].

(١) «تفسير الطبري» (٤/٦٩٤).

وقوله: (تقصدوا): تفسير لـ ﴿تَيْمَّمُوا﴾، وأصله تيمموا، حُذفت منه إحدى التاءين، ويُقال في الماضي: يَمَّم كذا، وتيمَّم؛ أي: قصدَ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَيْمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣]؛ أي: اقصدوا.

وقوله: (الرديء): تفسير للخبيث، وهذا في مقابل الطيبات، فأمر بالإنفاق من الطيبات ونهى عن قصد الإنفاق من الخبيث.

وذكر بسبب نزول هذه الآية أن بعض الصحابة لما أمر الله بالإنفاق علقوا قنوان في المسجد للفقراء، فعلق بعضهم قنوا حشف^(١) فأنزل الله هذه الآية^(٢)، وقيل: الخبيث هو الحرام^(٣)، والطيب هو الحلال، وهذا معنى صحيح، ولكن تفسير الطيب والخبيث في الآية بذلك لا يناسب السياق^(٤) إذا علم أن الأصل في مال المسلم أنه من الحلال.

وسبب نزول الآية يرجح القول الأول وهو قول الجمهور.

وقوله: (من المذكور): يُبين أن الضمير في ﴿مِنْهُ﴾ يعود على الخبيث المذكور قبل. وقوله: (حال من ضمير «تيمموا»): معناه: أن جملة ﴿تَنْفِقُونَ﴾ في موضع نصب على الحال من الواو في قوله: ﴿وَلَا تَيْمَّمُوا﴾؛ فالتقدير: ولا تيمموا الخبيث منفقين منه؛ أي: قاصدين الإنفاق منه؛ أي: من الخبيث خاصة كما يدلُّ عليه تقديم الجار والمجرور.

(١) القنوا: العذق بما فيه من الرطب، وجمعه: أقناء. والحشف: اليابس الفاسد من التمر، وقيل: الضعيف الذي لا نوى له كالشيص. ينظر: «النهاية» (٤/١١٤)، و(١/٣٩١).

(٢) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٨٨)، و«العجاب في بيان الأسباب» (١/٦٢٣).

(٣) في الآية قولان؛ أحدهما: أنهم كانوا يأتون بالحشف فيدخلونه في تمر الصدقة. وهو قول عليٍّ، والبراء بن عازب، وجمهور المفسرين، ونقل الطبري اتفاق أهل التأويل عليه. والثاني: أن الخبيث هو الحرام، وضعف ابن عطية هذا القول من جهة نسق الآية ومعناه. ينظر: «تفسير الطبري» (٤/٦٩٨-٧٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٢/٧٢)، و«زاد المسير» (١/٢٤١)، و«تفسير ابن كثير» (١/٦٩٧).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/٧٢).

وقوله: (أي: الخبيث ...) إلى آخره: بيانٌ لمرجع الضمير المجرور في قوله: ﴿أَخْذِيهِ﴾؛ المعنى: لا تقبلون الخبيثَ لو أُعْطِيتُمْ حُوقَكُمْ مِنْهُ، أو أُهْدِيَ إِلَيْكُمْ مِنْهُ.

وقوله: (بالتساهل ...) إلى آخره: بيانٌ لمعنى الإغماضِ؛ وهو التساهلُ والمجاملَةُ في أَخْذِ الْحَقِّ مع ما فيه من العيب لهم بأن رَضُوا لِلَّهِ ما لا يَرْضُونَ به لأنفسهم.

وقوله: (عن نفقاتكم): خَصَّ النِّفَقَاتِ بِالذِّكْرِ مراعاةً لسياق الآياتِ، وإلَّا فاللَّهُ غَنِيٌّ عن جميع طاعات العبادِ.

وقوله: (محمودٌ على كلِّ حال): هذا أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ في معنى «الحميد»، وقيل بمعنى: حامد، والأوَّلُ أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ.



وقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]:

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ وَرَغَّبَ فِي ذَلِكَ وَأَمَرَ بِالْإِنْفَاقِ مِنْ طَيِّبِ الْمَالِ؛ حَذَّرَ سَبْحَانَهُ مِنَ الْعَدْوِ الَّذِي يَأْمُرُ بِضِدِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَيَعِدُ بِضِدِّ مَا يَعِدُ اللَّهُ بِهِ؛ وَهُوَ الشَّيْطَانُ إِبْلِيسُ وَذَرِيَّتُهُ وَأَتْبَاعُهُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ﴾ يعني: يُخَوِّفُكُمُ الْفَقْرَ إِذَا أَنْفَقْتُمْ أَمْوَالَكُمْ. ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾؛ قيل: هي البخل، وقيل: المعاصي عامَّة^(١).

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾: مغفرةً لذنوبكم مما يحصل من التفريط بما أوجب عليكم، ويعدكم فضلًا؛ أي: ثوابًا وزيادةً في أموالكم بما يخلفه لكم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وفي هذا تحذيرٌ من طاعة الشيطان فيما يأمر به، وترغيبٌ في الإنفاق مع حُسْنِ الظنِّ بالله وتصديق وعده.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾: لا حدَّ لعطائه، ولا ينفد ما عنده. ﴿عَلِيمٌ﴾: بكلِّ شيءٍ، وبأعمال العباد، وبما في قلوبهم من النيات، وقد ذكر ابن كثيرٍ في تفسيره عند هذه الآية^(٢) حديثًا رُوِيَ عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا وموقوفًا، أخرجه ابن أبي حاتمٍ والترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ حبانٍ؛ قال فيه الترمذي بعد روايته: «حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَهُوَ حَدِيثُ أَبِي الْأَحْوَصِ - يَعْنِي سَلَامَ بْنِ سَلِيمٍ - لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ حَدِيثِهِ»^(٣)، ولفظه عند ابن أبي حاتمٍ كما ذكر ابن كثيرٍ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بَابِنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فإِعَادُ الشَّرِّ وَتَكْذِيبُ الْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ فإِعَادُ

(١) ينظر: «زاد المسير» (١/٢٤٢)، و«تفسير البيضاوي» (١/١٦٠)، و«البحر المحيط» (٢/٦٨١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/٦٩٩-٧٠٠). (٣) ينظر: «جامع الترمذي» (٢٩٨٨).

بالخير وتصديقاً بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان))، ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ الآية (١).

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ يُخَوِّفُكُمْ بِهِ إِنْ تَصَدَّقْتُمْ فَتُمْسِكُوا ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ الْبَخْلِ وَمَنْعِ الزَّكَاةِ ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ﴾ عَلَى الْإِنْفَاقِ ﴿مَغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ لذنوبكم ﴿وَفَضْلًا﴾ رِزْقًا خَلْفًا مِنْهُ. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ فَضْلُهُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِالْمَنْفِقِ.

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٩٨٥)، والطبري (٦/٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢٨١٠)، وابن حبان (٩٩٧)، كلهم من طريق أبي الأحوص، عن عطاء بن السائب، عن مرة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: وذكره.

وعطاء بن السائب مشهور بالاختلاط، وقد اضطرب في هذا الحديث لاختلاطه. ينظر: «التهذيب» (٣٨٦).
وأخرجه موقوفاً:

حسين المروزي في زوائده على «الزهد» لابن المبارك (١٤٣٥)، عن فطر، عن المسيب بن رافع، عن عامر بن عبدة، عن عبد الله بن مسعود، به.
وعبد الرزاق (٣٤٨) عن معمر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن مسعود، به.
وأخرجه الطبري (٦/٥) عن عمرو، عن عطاء بن السائب، عن مرة، عن عبد الله به. وقال عمرو: وسمعنا في هذا الحديث أنه كان يقال: إذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئاً فليحمد الله، وليسأله من فضله، وإذا أحس من لمة الشيطان شيئاً، فليستغفر الله وليتعوذ من الشيطان.

وأخرجه الطبري (٧-٨) عن حماد وعن جرير، كلاهما عن عطاء بن السائب، عن مرة الهمداني أن ابن مسعود، وذكره موقوفاً أيضاً.
والموقوف هو الصحيح، وقد صحح وقفه: أبو زرعة وأبو حاتم. ينظر: «العلل» (٢٢٢٤)، كما صحح وقفه أحمد شاكر في تحقيقه لـ «تفسير الطبري» (٥/٥٧٢)، والألباني في «النصيحة» - في الرد على ابن عبد المنان - (ص ١٠٨).

وقول المؤلف: (يُخوفكم...) إلى آخره: تفسيرٌ لوعد الشيطان المنفقين بتخويفهم الفقر إن هم تصدَّقوا يقول: «يذهب مالكم وتصيرون فقراء بعد أن كنتم أغنياء».

وقوله: (البخل...) إلى آخره: تفسيرُ الفاحشةِ بالبخل هو أحدُ القولين لتفسير الفاحشة في الآية، وقيل: الفاحشةُ: كلُّ ما فحش من المعاصي. ومن الفواحش منعُ الزكاة، وهو أفحشُ البخل.

وقوله: (على الإنفاق): يبيِّن أنَّ المغفرةَ والفضلَ جزاءٌ على الإنفاق. وقوله: (لذنوبكم): يبيِّن أنَّ من وعد الله للمنفقين مغفرةَ ذنوبهم، فيدلُّ على أنَّ الإنفاقَ من أسباب المغفرة، وهذا مضادٌ لما يأمرُ به الشيطان من الفواحش، فالشيطانُ يأمرُ بالذنوب واللهُ يعدُّ بمغفرة الذنوب.

وقوله: (رزقًا خلفًا منه): هذا تفسيرٌ للفضل الموعود به ببعض مدلوله، فإنَّ الفضلَ الذي وعد الله به المنفقين يعمُّ الثوابَ العاجلَ والآجلَ.

وقوله: (فضله): خصَّه بالفضل مراعاةً للمقام وسياق الكلام، وكذا قوله: (بالمنفق)؛ لأنَّه تعالى عليهم بكلِّ شيءٍ، وكذا اسمه تعالى «الواسع» يشمل سعة العلم والرحمة والعطاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمًا﴾

[غافر: ٧].



وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]:

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ فَيُؤْتِيهِ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ أَنْ يُؤْتِيَهُ الْحِكْمَةَ، وَالْحِكْمَةُ: إِصَابَةُ الْحَقِّ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَتَشْمَلُ كُلَّ عِلْمٍ صَحِيحٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ، وَيَجْمَعُ ذَلِكَ الْفَقْهُ فِي الدِّينِ، وَلِهَذَا فَسَّرَتِ الْحِكْمَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْفَقْهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَعْلَى مَرَاتِبِ الْحِكْمَةِ هِيَ النَّبُوَّةُ، وَتُفَسَّرُ بِهَا فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي دَاوُدَ: ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١]^(١).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾: وهذا امتنانٌ من الله على مَنْ آتاهِ الْحِكْمَةَ بِأَنَّهُ قَدْ أُوتِيَ حَظًّا عَظِيمًا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ الصَّحِيحَ النَّافِعَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ فَقَدْ نَالَ أَعْظَمَ سَبَبٍ لِلسَّعَادَةِ وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾: أَي: لَا يَتَذَكَّرُ بِالتَّذْكِيرِ وَلَا يَنْتَفِعُ بِالتَّذْكِيرِ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ؛ أَي: الْعُقُولِ الزَّكِيَّةِ وَالْفِطْرِ السُّوِيَّةِ وَالْقُلُوبِ التَّقِيَّةِ.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ أَي: الْعِلْمَ النَّافِعَ الْمُؤَدِّيَ إِلَى الْعَمَلِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿لِمَصِيرِهِ إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ﴾. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الذَّالِ: يَتَعَطَّى ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَصْحَابُ الْعُقُولِ.

وقول المؤلف: (العلم ...) إلى آخره: فسَّرَ الْحِكْمَةَ بِالْعِلْمِ؛ أَي: الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وَهُوَ يَشْمَلُ الْعِلْمَ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَقِيْدَهُ بِالْعِلْمِ الْمُؤَدِّيِّ إِلَى الْعَمَلِ،

فشملت الحكمة العلم النافع والعمل الصالح، ولا يتحقق ذلك إلا بالفقه في الدين في دلائله ومسائله.

وقوله: (لمصيره...) إلى آخره: لأن العلم النافع والعمل الصالح هما سبب هذا المصير.

وقوله: (فيه إدغام التاء...) إلى آخره: معناه: أن أصل ﴿يَذْكُرُ﴾: يَتَذَكَّرُ، فقلبت التاء ذالاً وأدغمت في الذال، ثم فسّر ﴿يَذْكُرُ﴾ بـ«يتعظ».

وقوله: (أصحاب العقول): معناه: أن أصحاب العقول المتفكرة هم الذين إذا ذكروا تذكروا؛ أي: اتعظوا وانتفعوا.



وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧﴾﴾ إِنَّ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۗ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۗ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٠-٢٧١]:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِلْمِهِ بِمَا يُنْفِقُ الْعِبَادُ مِنْ نَفَقَةٍ صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ، وَمَا يَنْذِرُونَ مِنْ نَذْرٍ قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا، وَيَعْلَمُ تَعَالَى نِيَّاتِهِمْ فِي نَفَقَاتِهِمْ وَنَذُورِهِمْ، وَالنَّذْرُ: هُوَ أَنْ يُوَجِبَ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ مَا لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ فِي أَصْلِ الشَّرْعِ^(١)، وَقَرَنَ اللَّهُ بَيْنَ النَّفَقَةِ وَالنَّذْرِ؛ لِأَنَّ النَّذْرَ كَثِيرًا مَا يَكُونُ فِي الصَّدَقَةِ مِنَ الْمَالِ، فَيَكُونُ عِبَادَةً بِاعْتِبَارِ الْمَالِ، وَأَمَّا عَقْدُ النَّذْرِ فَإِنَّهُ مِنْهُيٌّ عَنْهُ فِي السَّنَةِ الصَّحِيحَةِ؛ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((النَّذْرُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ))^(٢)، لَكِنْ مَنْ نَذَرَ طَاعَةً وَجَبَ عَلَيْهِ الْوَفَاءُ بِنَذْرِهِ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعه))^(٣)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى مُثْنِيًا عَلَى عِبَادِهِ: ﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِرِ﴾ [الإنسان: ٧].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا ۗ﴾: جَوَابُ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ﴾، فَمَعْنَى الْآيَةِ: أَيُّ نَفَقَةٍ أَنْفَقْتُمُوهَا وَأَيُّ نَذْرٍ نَذَرْتُمُوهَا فَاللَّهُ عَالِمٌ بِهِ وَسَيَجْزِيكُمْ بِهِ ثَوَابًا حَسَبَ مَا يَعْلَمُهُ مِنْ نِيَّاتِكُمْ.

وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: تَهْدِيدٌ لِلظَّالِمِينَ؛ كَمَا نَعِيَ الزَّكَاةَ وَمَتَّبَعِي صَدَقَاتِهِمُ الْمَنِّ وَالْأَذَى، وَالْمُنْفِقِينَ رِيَاءً؛ الْمَعْنَى: لَيْسَ لِلظَّالِمِينَ مَنْ يَنْصُرُهُمْ فَيُدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِحُكْمِ إِبْدَاءِ الصَّدَقَاتِ وَإِخْفَائِهَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۗ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وَإِبْدَاءُ الصَّدَقَاتِ: إِظْهَارُهَا وَإِعْلَانُهَا، وَإِخْفَاؤُهَا: الْإِسْرَارُ بِهَا.

(١) ينظر: «التعريفات» (ص ٢٤٠)، و«المطلع على ألفاظ المقنع» (ص ٤٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقوله: ﴿فَنِعْمَ هِيَ﴾: مدح للصدقة الظاهرة؛ لأنها عملٌ صالحٌ، فهي شرفٌ لصاحبها، وإبداؤها؛ كالإنفاق في مشهدٍ من الناس، ولا يضُرُّ ذلك المنفق إذا صحَّت نيَّته وخلصَ قصده؛ كمن يُظهرُ صدقته ليقْتدى به.

وقوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: تفضيلٌ لصدقة السرِّ إذا وُضعت في موضعها. وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾: ترغيبٌ في الصدقات سرِّها وعلنيها؛ لبيان أن الله يُكفِّرُ بها السيئات كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الصدقة تُطْفئُ الخطيئةَ كما يُطْفئُ الماءُ النارَ))^(١)، وفي الحديث الآخر: ((صدقة السرِّ تُطْفئُ غضبَ الربِّ))^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٣٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٠، رقم ٢٠٠) من طريق حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن شهر بن حوشب، عن معاذ، به. وعاصم بن أبي النجود فيه لين، وشهر بن حوشب مختلف في توثيقه وتضعيفه، ولم يدرك معاذًا.

وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٠٣) - ومن طريقه أحمد (٢٢٠١٦) -، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٣٠) من طريق معمر، عن عاصم، عن أبي وائل، عن معاذ، به. وأبو وائل لم يسمع معاذًا؛ كما حققه ابن رجب في «جامع العلوم» (١٣٥/٢). ثم إن الحديث معروف من رواية شهر على اختلاف عليه فيه، وقال الدارقطني: «وهو أشبه بالصواب».

وأخرجه البزار (٢٧) - «كشف الأستار»، وأبو القاسم البغوي في «الجعديات» (٣٥٢٨)، وابن حبان (٢١٤) من طريق علي بن الجعد، عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن معاذ، به. وعبد الرحمن بن ثابت ضعيف، ومكحول لم يسمع من معاذ. وله طرق أخرى عن معاذ، قال ابن رجب: كلها ضعيفة. ينظر: «جامع العلوم والحكم» (١٣٥/٢).

وللحديث شاهد عن جابر، وصحح بعض المتأخرين الحديث بمجموع طرقه. ينظر: «الصحيحة» (٣٢٨٤)، و«إرواء الغليل» (٤١٣).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٤٥٠) من طريق عمرو بن أبي سلمة التنيسي، عن صدقة بن عبد الله، عن الأصعب يعني ابن زيد الوراق، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده - معاوية بن حيدة - به.

قال الطبراني: «لم يرو هذا الحديث عن بهز بن حكيم إلا الأصعب بن زيد الوراق، ولا عن الأصعب إلا صدقة، تفرد به عمرو بن أبي سلمة». وصدقة بن عبد الله وهو أبو معاوية السمين، ضعيف كما في «التقريب» (٢٩١٣)، والأصعب صدوق يغرب وقد وثقه جماعة، =

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢٧١): تأكيدٌ للترغيب في الإنفاق في وجوه البرِّ، ومعناه: أنَّ الله تعالى ذو خبرة؛ أي: علم تامٌّ بما يعمل العبادُ، ومن ذلك نفقاتهم وصدقاتهم، وإخباره تعالى بذلك يقتضي مُجازاتهم عليه بأنواع الثواب في الدنيا والآخرة، والله أعلم.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَدَّيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ أَوْ صَدَقَةٍ﴾ ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ فوفَّيتم به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ فيُجازيكم عليه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ بمنع الزكاة والنذرِ أو بوضع الإنفاق في غير محلِّه من معاصي الله ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ مانعين لهم من عذابه.

﴿إِنْ تَبَدَّوْا﴾ تُظهروا ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ أي: النوافل ﴿فَنِعْمًا هِيَ﴾ أي: نعم شيئاً إبدائها! ﴿وَإِنْ تَخَفَوْهَا﴾ تُسروها ﴿وَتَوَثَّرَهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من إبدائها وإيتائها الأغنياء، أمَّا صدقةُ الفرضِ فالأفضلُ إظهارها؛ ليقتدى به ولئلاَّ يُتهم، وإيتاؤها الفقراء مُتعيِّنٌ ﴿وَيَكْفُرُ﴾ بالياء وبالنون مجزومًا بالعطف على محل «فهو»، ومرفوعًا على الاستئناف ﴿عَنْكُمْ مِنْ﴾ بعض ﴿سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالمٌ بباطنه كظاهره لا يخفى عليه شيءٌ منه.

وقول المؤلف: (من زكاة أو صدقة): يُبيِّنُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي الزَّكَاةِ وَصَدَقَةِ التَّطَوُّعِ، وَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّ ﴿مِنْ﴾ بَيَانِيَةٌ.

= قال الدارقطني: «تكلّموا فيه وهو عندي ثقة». ينظر: «التقريب» (٥٣٥)، و«تهذيب التهذيب» (٦٥٦). وعمرو بن أبي سلمة التنيسي صدوق له أوهام، كما في «التقريب» (٥٠٤٣). وروي من حديث عبد الله بن جعفر، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله بن عباس، وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وأم سلمة، وأبي أمامة، وأنس بن مالك، وقواه الألباني بمجموع طرقه وشواهده. ينظر: «الصحيححة» (١٩٠٨)، و«إرواء الغليل» (٨٨٥).

وقوله: (فوفيتم به): يُبينُ أنَّ الغايةَ المحمودَةَ لنذرِ الطاعةِ هي الوفاءُ به.
وقوله: (فيجازيكم عليه): يُبينُ أنَّ المقصودَ من ذكر العلمِ التنبؤَ على
الجزاء.

وقوله: (بمنع الزكاة والنذر ...) إلى آخره: بيانٌ لأنواع الظلمِ في باب
الإنفاق.

وقوله: (مانعين لهم من عذابه): يُبينُ أنَّ نفعَ الأنصارِ بالدفعِ.
وقوله: (أي: النوافل): يُشيرُ إلى الفرقِ بين الزكاةِ وصدقةِ التطوعِ في
الإبداءِ والإخفاءِ، وأنَّ الأفضلَ في التطوعِ الإخفاءُ وفي الزكاةِ الإظهارُ،
والصوابُ: أنَّ الإخفاءَ في الجميعِ أفضلٌ؛ لعمومِ الآيةِ، إلاَّ أنَّ يخشى التهمةَ
بمنع الزكاةِ^(١).

وقوله: (أي: نعم شيئاً إبدائها): يُبينُ بهذا أنَّ «ما» الثانية نكرةٌ وقعت
تميزاً؛ ولهذا عبّرَ عنها بشيءٍ و قدر المخصوصَ بالمدح بقوله: (إبدائها)،
والأظهرُ أنَّ المخصوصَ بالمدح «هي» كما في لفظ الآية؛ فالتقديرُ المناسبُ:
نعمًا شيئاً هي؛ أي: الصدقات.

وقوله: (تسروها): أي: تُعطوها الفقراءَ سرًّا فيما بينكم وبينه لا بمشهدٍ
من الناس، وهذا مطلوبٌ في الزكاةِ وصدقةِ التطوعِ خلافاً لما ذكرَ المؤلِّفُ كما
تقدّم.

وقوله: (من إبدائها ...) إلى آخره: يُبينُ أنَّ أفعالَ التفضيلِ يتعلَّقُ بالإخفاءِ؛
أي: فإخفاؤها خيرٌ من إبدائها، وإعطائها الفقراءَ خيرٌ من إعطائها الأغنياءَ.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/١٤-١٧)، و«المحرر الوجيز» (٢/٨٠-٨١)، و«زاد المسير»
(١/٢٤٣).

وقوله: (وَإِيتَاؤَهَا الْفُقَرَاءَ مُتَعَيِّنِينَ): أي: واجبٌ وجوباً عينياً، فلا يجوزُ صرفُ الزكاةِ في الأغنياء؛ بل في الفقراء، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((تَوَخَّذْ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ))^(١).

وقوله: (بِالْيَاءِ وَالنُّونِ...) إلى آخره: يُشيرُ إلى القراءتين في ﴿يُكْفَرُ﴾، وهي: بالياء مسنداً إلى الله بضميرِ الإفرادِ، وقرئَ بالنون مسنداً إلى الله بضميرِ الجمعِ.

وقوله: (مَجْزُومًا): يُشيرُ إلى القراءتين في فعل ﴿يُكْفَرُ﴾؛ إحداهما: بجزم الفعلِ، والفعلُ معطوفٌ على محلِّ جوابِ الشرطِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ لأنَّ الجملةَ في محلِّ جزمِ جوابِ الشرطِ. والثانية: برفعِ الفعلِ، وتكونُ جملةً ﴿وَيُكْفَرُ﴾ مستأنفةً^(٢).

وقوله: (بَعْضٌ): يُبينُ أَنَّ ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ تبعيةٌ؛ فالمعنى: وَيُكْفَرُ عَنْكُمْ بَعْضُ سَيِّئَاتِكُمْ.

وقوله: (عَالِمٌ بِيَاظِنِهِ...) إلى آخره: بيانٌ لمعنى ﴿خَيْرٌ﴾، فالخبرةُ علمٌ خاصٌّ، وهو العلمُ بالخفياتِ^(٣).

وقوله: (بِيَاظِنِهِ): أي: بباطنِ عملِكُمْ كما يعلمُ ظاهره، فالسرُّ والإعلانُ عنده سواءٌ سبحانه وتعالى؛ كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠].



- (١) أخرجه البخاري (١٣٩٥) ومسلم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
- (٢) قرأ أبو جعفر ونافع وحمزة والكسائي وخلف: ﴿وَنُكْفَرُ﴾ بالنون والجزم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم برواية أبي بكر ويعقوب: ﴿وَنُكْفَرُ﴾ بالنون والرفع. وقرأ ابن عامر وعاصم برواية حفص ﴿وَيُكْفَرُ﴾ بالياء والرفع. ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ١٩١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/٢٣٦).
- (٣) تقدم في (ص ٦٢١).

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

[البقرة: ٢٧٢-٢٧٤]:

يُخْبِرُ تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْلِيًّا لَهُ بِأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَهْدِيَ النَّاسَ؛ بَلْ أَمْرُ الْهُدَى إِلَى اللَّهِ فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْهُدَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الْهُدَى الْخَاصُّ؛ وَهُوَ التَّوْفِيقُ لِقَبُولِ الْحَقِّ وَشَرْحِ الصِّدْرِ، وَذَلِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ، لَا الرَّسُولُ وَلَا غَيْرُهُ، أَمَّا الْهُدَى الْعَامُّ؛ وَهُوَ الْبَيَانُ وَالْإِرْشَادُ وَالِدَّلَالَةُ عَلَى الْخَيْرِ؛ فَذَلِكَ مَقْدُورٌ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكُلٌّ مَن دَعَا إِلَى اللَّهِ مِنْ أَتْبَاعِهِ كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف: ١٨١]. وَفِي هَذَا الْخَبَرِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَرِيصًا عَلَى هُدَى النَّاسِ كَمَا قَالَ تعالى فِي شَأْنِ الرَّسُولِ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]؛ أَي: حَرِيصٌ عَلَى هِدَايَتِكُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

وَجَاءَ ذِكْرُ الْهُدَايَةِ وَاخْتِصَاصُهَا بِاللَّهِ بَيْنَ آيَاتِ الْإِنْفَاقِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ هِدَايَةَ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لَشَرْحِ صُدُورِهِمْ لِلْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ كَذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، لَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ وَلَا إِلَيْهِ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ سَبَبَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا لَا يَتَصَدَّقُونَ عَلَى أَقَارِبِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَرُوي أَنَّ النَّبِيَّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرًا لَا يُتَصَدَّقُ إِلَّا عَلَى مَنْ كَانَ مُسْلِمًا؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ (١)،
وفيهما الندبُ إلى الإنفاقِ على أهلِ الكتابِ وغيرهم من أهلِ الأديانِ، وبهذا
يظهر وجهُ ورودها بين آياتِ الإنفاقِ.

ثم ذكر تعالى في هذه الآية ثلاثَ جُمَلٍ تَضَمَّنَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مَعْنَى مِنَ
المعاني المتعلِّقة بالإنفاقِ، أفادت الأولى: أَنَّ نَفْعَ الْإِنْفَاقِ وَثَوَابَهُ عَائِدٌ إِلَى
أَنْفُسِ الْمُنْفِقِينَ، على حدِّ قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]،
وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وأفادتِ الجملةُ الثانيةُ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا لَوَجْهِ اللَّهِ، لَا
يريدون ممن أحسنوا إليه جزاءً ولا شكورًا.

وأفادتِ الجملةُ الثالثةُ: أَنَّ مَا يُنْفِقُهُ الْمُنْفِقُونَ ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ يُوفَى إِلَيْهِمْ؛
أي: يُجْزَوْنَ بِهِ فَيُعْطَوْنَ أَجْرَهُ كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ
خَيْرٍ يُؤْتِي الْيَكْرَ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ (٢٧٢).

ثم أخبر تعالى بأهمِّ مصارفِ الصدقاتِ؛ وهم الفقراءُ المتعففون، فلا
يسألون الناسَ، وإن سألوا لم يلحفوا، لكن يعرفهم أهلُ الفراسةِ بسيماهم؛
كرثائه ثيابهم ونحولِ أبدانهم، قيل: هم فقراءُ المهاجرين، ومنهم أهلُ الصُّفَّةِ (٢)،
ومن تعففهم يحسبهم الجاهلُ أغنياءً من التعفُّفِ، وقد أحصرهم الفقرُ والجهادُ
في سبيلِ الله عن التكبُّبِ، فلا يستطيعون ضربًا في الأرضِ ابتغاءَ فضلِ الله.
ثم رَغِبَ فِي الْإِنْفَاقِ فَقَالَ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٢)؛ فإنه
إذا استحضر المؤمنُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُنْفِقُهُ ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ
الحوافزِ له إلى الإنفاقِ؛ ولهذا رَغِبَ تَعَالَى فِي كَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ، فَأَثْنَى عَلَى الْمُنْفِقِينَ

(١) ينظر: «أسباب النزول» (ص ٨٩)، و«العجاب» (١/٦٢٨).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (١/٣٣٧)، و«زاد المسير» (١/٢٤٥)، و«التحرير والتنوير»
(٣/٧٤).

أموالهم بالليل والنهار سرًا وعلانيةً، ورثب لهم على ذلك الأجر، ونفى الخوف والحرز عنهم.

ولمَّا منع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التصدِّق على المشركين لِيُسلموا نزل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أي: الناس إلى الدخول في الإسلام، إنما عليك البلاغُ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته إلى الدخول فيه ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ مالٍ ﴿فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ لأنَّ ثوابه لها ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ أي: ثوابه لا غيره من أعراض الدنيا، خيرٌ بمعنى النهي ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تظَلْمُونَ﴾ تُنقصون منه شيئًا. والجملتان تأكيدٌ للأولى.

﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ خيرٌ مبتدأ محذوف؛ أي: الصدقات لهم ﴿الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: حبسوا أنفسهم على الجهاد، نزلت في أهل الصفة، وهم أربعمائة من المهاجرين أُرصدوا لتعلم القرآن والخروج مع السرايا^(١) ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا﴾ سفرًا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ للتجارة والمعاش؛ لشغلهم عنه بالجهاد ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَعْيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي: لتعففهم عن السؤال وتركه ﴿تَعْرِفُهُمْ﴾ يا مخاطبًا ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ علامتهم من التواضع وأثر الجهد ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ﴾ شيئًا فيلحفون ﴿إِلْحَافًا﴾ أي: لا سؤال لهم أصلًا، فلا يقع منهم إلحاف؛ وهو الإلحاح ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فمُجازٍ عليه.

وقول المؤلف: (ولمَّا منع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...) إلى آخره: يُشير إلى سبب نزول هذه الآية، وهو نهْي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن التصدِّق على غير

(١) ينظر: «العجاب في بيان الأسباب» (١/٦٣٣).

المسلمين من أهل الكتاب والمشركين؛ من أجل أن يحملهم منعمهم من الصدقة على الإسلام، فأخبر الله نبيه أن ليس عليه هدايتهم، فلا ينهى عن التصدق عليهم من أجل ذلك، وأن أمر هدايتهم إلى الله تعالى، فهو الذي يهدي من يشاء.

وقوله: (أي: الناس...) إلى آخره: بيان لمعنى الآية المتعلقة بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وهو أنه ليس عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يهدي الناس فيجعلهم مهتدين، وإنما الواجب عليه البلاغ كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤].

وقوله: (هدايتَه...) إلى آخره: فيه تقدير مفعول ﴿يشاء﴾، والمراد بهذه الهداية هداية التوفيق المستلزمة للدخول في الإسلام، وهي هداية خاصة لا يقدر عليها إلا الله؛ بخلاف هداية البيان؛ فإنها عامة ومقدورة للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكل داع إلى الله.

وقوله: (مالٍ): هذا أحد التفسيرين للخير في الآية، ولفظ الخير في القرآن يُراد به المال كثيراً؛ كقوله تعالى في الإنسان: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، وقوله في هذه السورة: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، ويُراد به العمل الصالح؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: ١٩٧]،^(١) والخير في هذه الآية يحتمل الوجهين، وأكثر المفسرين يُفسرونه بالمال كما فعل المؤلف^(٢).

(١) أوصلها بعض العلماء إلى أكثر من عشرين وجهاً. ينظر: «الوجوه والنظائر» لمقاتل (ص ٥٧-٥٨)، و«التصارييف ليحيى بن سلام» (ص ١٧٤-١٧٥)، و«نزهة الأعين النواظر» لابن الجوزي (ص ٢٨٥-٢٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/٢٢)، و«الكشاف» (١/٥٠٢)، و«المحرر الوجيز» (٢/٨٧)، و«تفسير القرطبي» (٣/٣٣٩).

وقوله: (لأنَّ ثوابه لها): بيان لما يعود إلى نفس المنفق من إنفاقه؛ وهو ثواب ما أنفقه؛ فصار حظُّ المنفق مما أنفقه أعظم من حظِّ المنفق عليه. وقوله: (أي: ثوابه لا غيره من أعراض الدنيا): هذا صريح في تفسير الوجه بالثواب، وهو تأويل بل تحريف؛ لأنَّه صرفٌ للكلام عن ظاهره بغير دليل، وإنما يفعل هذا من لا يثبت حقيقة الوجه لله كما هي طريقة المعطلة من الجهمية ومن تبعهم^(١).

وأهل السنة والجماعة يثبتون الوجه لله ولا يكفون ولا يمثلون ولا يحرفون النصوص عن ظاهرها.

والمؤلف رحمه الله مشى على طريقة المعطلة فلذا أوَّل الآية وصرَّفها عن ظاهرها حيث فسَّر الوجه بالثواب، فتنبَّه أيها القارئ، واسلك طريق أهل السنة. وقوله: (خبرٌ بمعنى النهي): يريد جملة ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾؛ فالجملة خبرية، ومعناها: لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله وهذا على أن الخطاب عامٌّ، وقيل: أن الخطاب خاصٌّ؛ وهم الصحابة، وعليه: فالنفي على باب، ويكون الخبر ثناءً على الصحابة بالإخلاص، وهذا وجه حسن^(٢).

وقوله: (جزاؤه): هذا تقدير مفعول ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾. وقوله: (تُنْقِصُونَ منه شيئاً): فسَّر الظلم بالنقص، وأصل معنى الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، ويأتي بمعنى النقص؛ كما قال تعالى في الجنتين: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]^(٣).

(١) ينظر: «النقص على المريسي» (٧٠٣-٧٢٤)، و«مختصر الصواعق» (٩٩٢/٣) وما بعدها، و«توضيح مقاصد العقيدة الواسطية» لشيخنا (ص ٨١)، (ص ٨٢-٨٣)، و«التعليقات على المخالفات العقدية في الفتح» (ص ٧٨، رقم ٤٩)، (ص ١٦٠، رقم ١١٤)، (ص ١٧٨، رقم ١٢٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/٣٥٥)، و«الكشاف» (١/٥٠٢)، و«المحرر الوجيز» (١/٨٦)، و«البحر المحيط» (٢/٦٩٥).

(٣) ينظر: أوجه أخرى في: «الوجوه والنظائر» لمقاتل (ص ٨١-٨٢)، و«نزهة الأعين النواظر» لابن الجوزي (ص ٤٢٦-٤٢٨).

وقوله: (والجملتان تأكيدٌ للأولى): يريد بالجملتين ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، والجملة الأولى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نُنْفِسْكُمْ﴾.

وقوله: (خبرٌ مبتدأٌ محذوفٌ ...) إلى آخره: يُبينُ مُتعلِّقِ الجارِ والمجرورِ ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ وأنه مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ هو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ قدره المؤلَّف: الصدقاتُ للفقراء؛ أي: حقٌّ للفقراء.

وقوله: (أي: حسبوا أنفسهم ...) إلى آخره: تفسيرٌ لقوله تعالى: ﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وأنَّ معنى ﴿أُحْصِرُوا﴾: حَصَرُوا؛ أي: حسبوا أنفسهم عن الجهادِ فمنعهم ذلك من التَكسُّبِ والضربِ في الأرضِ للتجارة.

وقوله: (سفرًا): فسَّرَ الضربَ في الأرضِ بالسفرِ، وهو صحيحٌ، كما يشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١]. وقوله: (للتجارة ...) إلى آخره: بيانٌ للغرضِ من الضربِ في الأرضِ.

وقوله: (لشغلهم عنه بالجهاد): تعليلٌ لعدم استطاعتهم الضربَ في الأرضِ.

وقوله: (عنه): أي: عن الضربِ في الأرضِ.
وقوله: (بحالهم): حَصَّ الجَهْلَ في الآيةِ بالجهلِ بحالِ أولئك الفقراءِ؛ لدلالةِ السياقِ على ذلك. وقوله: (لتعففهم عن السؤالِ وتركه): تعليلٌ لحسبانِ الجاهلِ أنهم أغنياءُ، وهذا التعليلُ مُستفادٌ من ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنَ التَّعَفُّفِ﴾؛ فإنها للتعليلِ.

وقوله: (يا مخاطبًا): يريدُ أنَّ قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ﴾ خطابٌ عامٌّ لكلِّ من يصلحُ له الخطابُ، النبيُّ أو غيره.

وقوله: (علامتهم): تفسير لـ «سيماهم»؛ لأنَّ السِّيمَا في اللغة: العلامة^(١)، وأوضح المؤلف هذه العلامة بقوله: (من التواضع وأثر الجهد): لأنَّ الفقر يُورثُ ضعفًا وجهدًا.

وقوله: (شيئًا فيلحفون): يريد أن نفي السؤال عنهم ثناءً عليهم بترك السؤال مطلقًا، وأنَّ السؤال يُفضي إلى الإلحاف وهو الإلحاح في المسألة، وليس المراد نفي السؤال بالتحاف؛ فإنَّ ترك السؤال مطلقًا أفضل وأكمل في التعفُّف.

وقوله: (لا سؤال لهم أصلاً...) إلى آخره: يؤكد ما سبق؛ أنَّ المراد نفي السؤال عنهم مطلقًا، وإذا لم يسألوا مطلقًا؛ لم يكن منهم إلحاف؛ لأنَّه إذا انتفى المعنى العام انتفى الخاص فلزم ألا يقع منهم سؤال بالتحاف.

وقوله: (فمجاز عليه): يريد أن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ يتضمَّنُ الإخبار بالجزاء، فإنَّ إخباره تعالى بعلمه بأعمال العباد يتضمَّنُ الوعد أو الوعيد بحسبِ المقام.



(١) ينظر: «لسان العرب» (١٢/٣١٢).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ [البقرة: ٢٧٥-٢٧٦]:

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ بِالْإِنْفَاقِ وَالصَّدَقَاتِ وَأَثْنَى عَلَى الْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ وَوَعَدَهُمُ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ عِنْدَهُ وَنَفَى عَنْهُمْ الْخَوْفَ وَالْحُزْنَ وَذَمَّ الْمُتَّبِعِينَ صَدَقَاتِهِمُ الْمَنِّ وَالْأَذَى وَالْمَرَائِينَ فِيهَا؛ ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ضِدَّ الْمُحْسِنِينَ إِلَى النَّاسِ بِأَنْوَاعِ النِّفَقَاتِ فَرَضِهَا وَنَفَلِهَا، بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، سِرًّا وَعِلَانِيَةً، وَضِدَّ الْمُحْسِنِينَ هُمُ الظَّالِمُونَ لِلنَّاسِ؛ وَهُمْ أَكَلَةُ الرِّبَا أَوْ ضَعْفًا مَضَاعِفَةً، فَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ سُوءِ حَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا قَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَقُومُونَ بِهَيْئَةِ الْمَجَانِينِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾، وَذَلِكَ بِسَبَبِ اسْتِحْلَالِهِمُ الرِّبَا حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، فَردَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ فَقَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾.

ثم أخبر تعالى أَنَّ مَنْ انْتَهَى عَنِ أَكْلِ الرِّبَا بَعْدَ مَا جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ بِالنَّهْيِ عَنِ الرِّبَا؛ فَإِنَّهُ يَحُلُّ لَهُ مَا كَسَبَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ مُعْذَرٌ بِجَهْلِهِ، وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، يَحْكُمُ فِيهِ بِحُكْمِ الْعَدْلِ وَيَعْفُو عَنْهُ، وَأَنَّ مَنْ عَادَ لِأَكْلِ الرِّبَا بَعْدَ إِسْلَامِهِ وَبَعْدَ نَزُولِ الْآيَاتِ فِي تَحْرِيمِ الرِّبَا فَذَلِكَ هُوَ الظَّالِمُ الْمُسْتَوْجِبُ لَوْعِيدِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾. فَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ أَكْلَ الرِّبَا مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، فَمَنْ كَانَ مُسْتَحِلًّا لِأَكْلِ الرِّبَا فَهُوَ كَافِرٌ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ كَسَائِرِ الْكُفْرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَحِلًّا فَالْوَعِيدُ بِالْخُلُودِ مَخْصُوصٌ بِمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ، وَبِمَنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ مَانِعٌ؛ وَهُوَ التَّوْحِيدُ، فَإِنَّهُ لَا يَخْلُدُ فِي

النار أحدٌ من أهل التوحيد كما استفاضت بذلك السنَّة في حديث الشفاعة^(١) وغيره، وأجمع على ذلك أهل السنَّة.

وأصل الربا في اللغة: الزيادة^(٢)، وهو في الشرع نوعان: ربا فِضْلٍ، وربا نسيئة^(٣)، وفي كلٍ منهما معنى: الزيادة؛ فربا الفضل: هو الزيادة في أحد العوضين اللذين هما من جنس واحدٍ من الأجناس الربوية السنَّة المذكورة في حديث عبادة، وهي: الذهب، والفضة، والبر، والشعير، والتمر، والملح^(٤)، وجمهورُ أهل العلم يقيسون عليها ما أشبهها، حسب ما يُعلِّلون به تحريم الربا في هذه الأجناس^(٥).

وربا النسيئة: هي الزيادة في الدين في مُقابل الزيادة في الأجل، ويُقال له: ربا الجاهلية؛ يقول: الدائنُ للمدين إذا حلَّ الدين: إمَّا أن تقضي أو تُربي. ثم توعدَّ تعالى أكلة الربا بمحقِّ ما كسبه من الربا، وذلك بإتلافه أو حرمانهم الانتفاع به، ﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾؛ أي: يُنميها ويكثرها بمضاعفة أجرها كما في الحديث الصحيح: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدَلٍ تَمْرَةً مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرْبِيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرْبِي أَحَدَكُمْ فَلَوْه؛ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(٦).

(١) تواترت الأحاديث بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبى أهل القبلة عن جمع من الصحابة في الصحيحين والسنن والمسانيد مما يصعب عده. ينظر: البخاري (٦٣٠٥-٦٣٠٤) (٧٤٤٠) (٧٤٧٤) (٧٥٠٩-٧٥١٠)، ومسلم (١٨٤) (١٩٣) (١٩٨-٢٠٠)، و«السنَّة» لابن أبي عاصم (٧٩٧-٨٠٣)، و«الشرعية» للأجري (٧٧٨-٧٩٧)، و«السنَّة» للالكائي (١١٦١-١١٨٣)، و«نظم المتناثر» (٣٠٤).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١٤/٣٠٤).

(٣) ينظر: «المغني» (٦/٥٢). (٤) أخرجه مسلم (١٥٨٧).

(٥) ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٥/١٧١)، و«التاج والإكليل في شرح مختصر خليل» (٦/١٩٧)، و«الحاوي الكبير» (١/٨١)، و«المغني» (٦/٥٣).

(٦) أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واللفظ للبخاري.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾: أي: يُبغضه، ومن أبغضه الله فاته كلُّ خيرٍ وباء بالشقوة فكان من الخاسرين، والكفار: المبالغ بالكفر، والأثيم: المقترف للآثام، وهي: المعاصي.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أي: يأخذونه، وهو الزيادة في المعاملة بالنقود والمطعومات في القدر أو الأجل ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم ﴿إِلَّا﴾ قياماً ﴿كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ﴾ يصرعه ﴿الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ الجنون بهم متعلق بـ «يقومون». ﴿ذَلِكَ﴾ الذي نزل بهم ﴿بِأَثَمِهِمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ في الجواز. وهذا من عكس التشبيه مبالغةً. فقال تعالى ردّاً عليهم: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ﴾ بلغه ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ وعظٌّ ﴿مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾ عن أكله ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ قبل النهي؛ أي: لا يستردّ منه ﴿وَأَمْرُهُ﴾ في العفو عنه ﴿إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ﴾ إلى أكله مُشَبَّهًا له بالبيع في الحلّ ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ يُنْقِصُهُ وَيُذْهِبُ بركته ﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ يزيدها وينميها ويُضَاعَفُ ثوابها ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بتحليل الرِّبَا ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجرٍ بأكله؛ أي: يُعاقبه.

وقول المؤلف: (أي: يأخذونه...) إلى آخره: تفسيرٌ للأكل بالأخذ، وهو من التعبير بالشيء عن سببه، وفَسَّرَ الرِّبَا بالزيادة؛ لأنّه من ربا يربو: إذا زاد، وأشار إلى أنّ الرِّبَا في الشرع نوعان: ربا فضل، وربا نَسَأ؛ بقوله: (وهو الزيادة في المعاملة بالنقود والمطعومات في القدر أو الأجل)؛ فقوله: (في القدر): يريد: ربا الفضل، وقوله: (الأجل): يُشير إلى ربا النَسَأ.

وقوله: (من قبورهم): هذا معنى ما جاء عن ابن عباس^(١).

وقوله: (قيامًا): يُبَيِّنُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ؛ فالمعنى: إِلَّا قِيَامًا كَقِيَامِ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ.

وقوله: (يصرعه): هذا تفسِيرٌ ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾.

وقوله: (الجنون بهم): بيانٌ لمعنى من المسّ؛ أي: من الجنون الذي بهم.

وقوله: (متعلّق بـ «يقومون»): الصوابُ: أَنَّ الْجَارَ وَالْمَجْرُورَ ﴿مِنْ الْمَسِّ﴾ متعلّقٌ بـ ﴿يَقُومُ﴾؛ لأنَّ المعنى لا يقوم أكّلةُ الرّبّا من قبورهم إلا مثل ما يقوم المجنون الذي يصرعه الشيطان من المسّ؛ أي: الجنون الذي به^(٢).

وقوله: (الذي نزل بهم): يُبَيِّنُ أَنَّ الْمَشَارَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾: هو ما يحصل لهم عند قيامهم من قبورهم كالمجانين.

وقوله: (بسبب أنهم): يُبَيِّنُ أَنَّ الْبَاءَ بِقَوْلِهِ: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ سببيةٌ.

وقوله: (في الجواز): بيانٌ لوجه الشّبه بين البيع والربا.

وقوله: (وهذا من عكس التشبيه مبالغةً): لأنَّ الأصلَ المناسبَ لهم أن يقولوا: إنما الربا مثل البيع؛ فعكسوا التشبيه مبالغةً في حلّ الربا.

وقوله: (ردًا عليهم): يُبَيِّنُ أَنَّ جُمْلَةَ ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ من كلام الله لا من الكلام المحكي عن آكلي الربا.

وقوله: (بلغه): يُبَيِّنُ أَنَّ مَجِيءَ الْحِجَّةِ هُوَ بَلُوغُهَا لِلْمَكْلَفِ.

وقوله: (وعظ): يُبَيِّنُ أَنَّ ﴿مَوْعِظَةً﴾ مصدرٌ ميميٌّ من وعظ، والمصدر: الوعظُ.

وقوله: (قبل النهي ...): إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ مَا مَضَى مِنَ الْعُقُودِ الرَّبَوِيَّةِ مَا نَتَجَّ عَنْهَا مِنَ الْمَكَاسِبِ هُوَ حَلَالٌ لَهُ لَا يَجِبُ رُدُّهُ.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٩/٥).

(٢) ينظر: «الكتاب الفريد» (١/٥٩٣)، و«الكشاف» (١/٥٠٦)، و«الدر المصون» (٢/٦٣١).

وقوله: (في العفو عنه): يُبَيِّنُ أَنَّ أَمْرَ الْعَفْوِ بَعْدَ التَّوْبَةِ مُفَوَّضٌ إِلَى اللَّهِ؛ إِنْ شَاءَ عَفَا، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَعْفُ.

وقوله: (إِلَى أَكَلِهِ...) إِلَى آخِرِهِ: يَرِيدُ: إِلَى أَكْلِ الرَّبَا مُسْتَحْلًا لَهُ؛ لِأَنَّهُ شَبَّهَ بِالْبَيْعِ، وَهَذَا هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعَوْدِ الَّذِي فِي الْآيَةِ.

وقوله: (يُنْقِصُهُ وَيُذْهِبُ بَرَكَتَهُ): هَذَا بَعْضُ مَعْنَى الْمَحْقِ، وَلَيْسَ فِي الْمَالِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ عَقُودِ الرَّبَا بَرَكَتٌ أَصْلًا.

وقوله: (يزيدها...) إِلَى آخِرِهِ: كُلُّ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ مُتَقَابِرَةٌ الْمَعْنَى، وَيَشْهَدُ لِمَعْنَى الْآيَةِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ...))

الْحَدِيثُ، وَفِيهِ أَنَّ اللَّهَ يُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فُلُوهُ^(١) حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ. وَقَوْلُهُ: (بِتَحْلِيلِ الرَّبَا): يُبَيِّنُ أَنَّ اسْتِحْلَالَ الرَّبَا كُفْرٌ.

وقوله: (فاجر): تَفْسِيرٌ لـ ﴿أَتِيمٌ﴾، وَلَعَلَّهُ أَخَذَهُ مِنْ اقْتِرَانِهِ بِـ ﴿كَفَّارًا﴾ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

وقوله: (أي: يعاقبه): هَذَا تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾، وَهُوَ يَمْتَضِي تَفْسِيرَ نَفْيِ الْمَحَبَّةِ بِالْعُقُوبَةِ، وَهَذَا جَارٍ عَلَى مَذْهَبِ مَنْ لَا يُثْبِتُ لِلَّهِ صِفَةَ مَحَبَّةٍ؛

لِذَلِكَ يُوَوَّلُونَ الْمَحَبَّةَ بِالثَّوَابِ وَعَدَمَ الْمَحَبَّةَ بِالْعِقَابِ، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّوْوِيلِ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ تَحْرِيفٌ^(٢). وَالصَّوَابُ: أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُتَّقِينَ وَلَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ بَلْ يَمَقُّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ الْأَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠].



(١) الفلو: المهر الصغير، وقيل: هو الفطيم من أولاد ذوات الحافر. «النهاية» (٣/ ٤٧٤).

(٢) تقدم (ص ٤٠٧).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]:

هذه الآية اعتراض بين آيات الربا، وفيها عودٌ إلى الثناء على المؤمنين المتصدقين، وفيها مقابلةُ الذمِّ بالمدح، وتعريضٌ^(١)؛ لأنَّ أكلة الربا على ضدِّ هذه الصفات، ومعنى الآية: خبرٌ من الله بعاقبة الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا إيمانهم بعمل الأعمال الصالحات، وهي: كلُّ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاه من الفرائض والتطوعات أقوالاً وأفعالاً ظاهرةً وباطنةً، وأجلُّ ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ ولذلك عطفًا على الأعمال الصالحة من عطف الخاص على العام تعظيمًا لشأنهما وتنبهًا على فضلهما.

وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: بيانٌ لعاقبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فوعدهم اللهُ بالأجر العظيم عنده؛ وهو: ثوابٌ ما عملوا، وآمنهم مما يكرهون من الخوف والحزن؛ فقال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فلا يخافون من فوت مطلوبٍ ولا يحزنون على ذهاب محبوبٍ، ولم يتعرض المؤلف لهذه الآية بتفسير لظهور معناها، وكثرة ذكر كلماتها، وقد تقدم في أول السورة نظائرها.



(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣/٩٣).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۗ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٨١]:

يأمر الله عباده المؤمنين بتقواه؛ وهي: فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله؛ خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه، وتلك وصية الله للأوليين والآخرين والناس أجمعين.

ثم أمر تعالى المؤمنين أن يتركوا ما بقي لهم من دين الربا عند المدينين؛ فقال تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾، فإن الإيمان يقتضي ترك ما حرم الله والتوبة منه، ثم حذرهم من الإصرار على أخذ ما بقي من الربا وأن ذلك مؤذن بحرب من الله ورسوله؛ فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ﴾؛ أي: إن لم تتوبوا وتركوا ما بقي من الربا؛ فاعلموا أن الله ورسوله حربٌ عليكم، ومن كان الله حرباً عليه أخزاه وأهلكه، فباء بالخسران المبين، ثم بين حكمهم إذا تابوا فقال تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾؛ أي: وإن تبتم إلى الله من تعاطي الربا؛ فإنكم تستحقون رؤوس أموالكم التي عند من عاملتموه بالربا دون زيادةٍ عليها، لا تظلمون بأخذ الربا ولا تظلمون بالنقص من رؤوس أموالكم.

ثم أرشد تعالى من له الدين بإنظارٍ من أعسر فلم يقدر على وفاء الدين الذي وجب عليه أداؤه أو التصدق عليه بإبرائه وهو خير؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۗ﴾؛ أي: وإن وجد ذو عسرة؛ أي: إعسار، فكان: تامّة. و«ذو عسرة»: فاعل، و«نظرة»: مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير: فعليه نظرة؛ أي: على صاحب الدين إنذار المعسر، وبعد: فقد ذكر ابن كثير سبب نزول هذه الآيات ونقله عن جمع من السلف؛ قالوا: إن هذه الآيات نزلت

في بني عمرو بن عمير من ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم، وقالت بنو المغيرة: لا نؤدي الربا في الإسلام.. فنزلت الآية^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾: أي: اتقوا شرَّ ذلك اليوم وهو يوم القيامة، اتقوه بالأعمال الصالحة وترك المحرمات لتنجوا من عذاب الله.

وقوله: ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾: أي: تُردُّون في ذلك اليوم إلى الله فيُجازيكم على أعمالكم، ومن اتقى الله وخاف ذلك اليوم وقاه الله شرَّ ذلك اليوم وأناله الفوز والكرامة.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾: أي: كلُّ أحدٍ يُجزى بعمله خيره وشره، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: أي: لا يُنقص أحدٌ من ثواب حسنة، ولا يزداد في سيئاته، فحكمه تعالى الجزائي دائرٌ بين الفضل والعدل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، هذا وقد ذكر ابن كثير عن ابن عباس وغيره أن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن، وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاش بعد نزولها تسع ليالٍ^(٢).

وفي تعقيب آيات الربا بهذه الآية تأكيد لما تقدم في الآيات من النهي والوعيد، وترهيب شديد من ذلك اليوم الذي يقدم العباد فيه على الله فيجدون

(١) «تفسير ابن كثير» (٧١٦/١). وينظر: «أسباب النزول» (ص ٩٣)، و«العجاب في بيان الأسباب» (٦٣٨/١-٦٤٠).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧٢٠/١). والأثر: أخرجه الطبري (٦٨/٥)، وابن أبي حاتم (٢٩٤٤) بهذا اللفظ، وفي البخاري (٤٥٤٤) باب: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، ذكر بإسناده أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «آخر آية نزلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آية الربا». وفي المسألة أقوال تنظر في: «البرهان» للزركشي (٢٠٩-٢١٠)، و«الإتقان» للسيوطي (١٧٦/١) وما بعدها.

أَعْمَالَهُمْ مُحْصَاةً عَلَيْهِمْ، فَيُجْزَوْنَ بِهَا جِزَاءً لَا ظُلْمَ فِيهِ لِمُحْسِنٍ وَلَا مَسِيءٍ،
ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١)، كما قال تعالى: ﴿فَأَيُّومَ لَا تَنْظُرُ نَفْسٌ
شَيْئًا وَلَا حُجُوزَاتٍ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا﴾ اتركوا ﴿مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ صادقين في إيمانكم، فإنَّ من شأنِ المؤمنِ امْتِثَالَ أَمْرِ اللَّهِ.
نزلت لَمَّا طَالِبَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ بَعْدَ النَّهْيِ بِرَبًّا كَانَ لَهُ قَبْلُ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾
ما أمرتم به ﴿فَأَذْنُوا﴾ اعملوا ﴿بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لكم، فيه تهديدٌ
شديدٌ لهم. ولَمَّا نزلت قالوا: [لَا يَدَانِ]^(١) لنا بحربه ﴿وَإِن تَبْتُمْ﴾ رجعتم عنه
﴿فَلَكُمْ رُءُوسٌ﴾ أصولٌ ﴿أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ بزيادةٍ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾
بنقصٍ.

﴿وَإِن كَانَ﴾ وقع غريمٌ ﴿ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ﴾ له؛ أي: عليكم تأخيرهُ
﴿إِلَى مَيْسِرَةٍ﴾ بفتح الميسر والسين وضمها؛ أي: وقت يُسرهُ ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾
بالتشديد على إدغام التاء في الأصل في الصاد، وبالتخفيف على حذفها؛
أي: تتصدقوا على المعسر بالإبراء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خيرٌ
فافعلوه.

في الحديث: ((مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ؛ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ
لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ)) رواه مسلم^(٢). ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ﴾ بالبناء للمفعول،
تُرْجَدُونَ، وللفاعل: تصيرون ﴿فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ هو يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ثُمَّ تُوفَّى﴾ فيه

(١) هذا ما رجحه شيخنا - سده الله - وخطأ لفظ (لا يَدَانِ) المثبت في طبعة قباوة، وجاء في

حاشية الجمل، وطبعة دار ابن كثير، وطبعة دار السلام: (لا يد لنا).

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٠٦) عن أبي اليسر كعب بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دون زيادة: ((يوم لا ظل إلا

ظله))، وهي عند أحمد (١٥٥٢١) من هذا الوجه، وأخرجها الترمذي (١٣٠٦) عن أبي صالح، عن أبي هريرة، به. وقال: «وفي الباب: عن أبي اليسر، وأبي قتادة، وحذيفة، وابن مسعود، وعبادة، وجابر. وحديث أبي هريرة حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

﴿كُلُّ نَفْسٍ جَزَاءٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عملت من خيرٍ وشرٍّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾
بنقصِ حسنةٍ أو زيادةٍ سيئةٍ.

وقول المؤلف: (صادقين في إيمانكم): بيان أنَّ المراد بالإيمان في جملة الشرط هو الإيمان الصادق؛ لأنه هو الذي يمنع من مقارفة الذنوب، وبهذا يزول الإشكال عن التقييد بالإيمان مع أنَّ الخطاب في الآية للمؤمنين. وقوله: (فإنَّ من شأنِ المؤمنِ امتثالَ أمرِ الله): بيان لوجه تقييد ترك الربا بالإيمان؛ فالمعنى: أنَّ المؤمنَ هو الذي يترك ما حرَّم الله بوازع الإيمان. وقوله: (نزلت...): إلى آخره: يُشير إلى سبب نزول هذه الآيات، وقد سبق بيانه فيما نقله ابن كثير.

وقوله: (ما أمرتم به): يريد: ما أمرتم به من ترك ما بقي من الربا في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾.

وقوله: (اعلموا): الأذن بالشيء: العلمُ به بعد الإعلام، والإذان والأذان: هو الإعلام كما قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٣]^(١).

وقوله: (لكم...): إلى آخره: يريد: أنَّ الخطابَ للذين لم يفعلوا ما أمروا به، وأنَّ قوله: ﴿بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ تهديدٌ للذين أصرُّوا على أخذ الربا. وقوله: (لا [يدان]^(٢) لنا بحربه): أي: لا قدرة لنا بحربِ الله ورسوله، فمن كان الله ورسوله حرباً له فله الهلاك والخسران والعقاب الشديد.

وقوله: (رجعتم عنه): أي: رجعتم عن المطالبة بما بقي من الربا عند المدنيين.

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (ص ٧٠).

(٢) هذا ترجيح شيخنا كما سبق.

وقوله: (أُصُولُ): يُراد بالأصول في الديون ما عدا الربح، فالمعاملُ بالربا إذا تاب يستحقُّ رأسَ مالِهِ الذي أعطاه المدينَ دون الربح الذي هو الربا، فله المطالبةُ به دون الفوائد؛ فإنها هي الربا الذي لا تجوز المطالبةُ به.

وقوله: (بِزِيَادَةٍ): أي: لا تظلمون بمطالبة المدينِ بالزيادة على رأس المال؛ فإنَّ الزيادةَ هي الرِّبَا.

وقوله: (بِنَقْصٍ): أي: بنقص رأسِ المالِ، فالمطالبةُ بالزيادة ظلمٌ للمدينِ، والنقصُ من رأسِ المالِ ظلمٌ للدائن.

وقوله: (وَقَعَ غَرِيمٌ): هذا تفسيرٌ لِكَانِ التامة في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾، فمعنى (وقع غريم)؛ أي: وإن وجد مدينٌ ذو عسرة؛ أي: مُعْسِرٌ.

وقوله: (عليكم تأخيرهُ): يُبيِّنُ أَنَّ عَلَى الدائنينِ إِنْظَارَ المَعْسِرِ؛ أي: تأخير المطالبةِ برأسِ المالِ توسعةً على المَعْسِرِ، والإِنْظَارُ واجبٌ؛ لِأَنَّ المعنى: فعليه نظرة؛ أي: إِنْظَارٌ.

وقوله: (بِفَتْحِ السَّيْنِ وَضَمِّهَا): يُشيرُ إلى قراءتين في ﴿مَيْسِرَةٍ﴾، فُقِرَى بِفَتْحِ السَّيْنِ وَضَمِّهَا^(١).

وقوله: (أَيُّ: وَقْتُ يُسِرِهِ): بيانٌ لغايةِ الإِنْظَارِ، وهو وقتُ اليُسْرِ. وقوله: (بِالتَّشْدِيدِ...): إلى آخِرِهِ: يُشيرُ إلى أَنَّ فِي الآيَةِ قراءتين، بتشديدِ الصَّادِ وتخفيفِها^(٢)، وَأَصْلُ قِراءَةِ التَّشْدِيدِ بَتَاءِينِ فَسُكِّنَتِ الثَّانِيَةُ وَقُلِبَتِ صَادًّا، وَأَدْغَمَتِ الصَّادُ فِي الصَّادِ، وَالتَّقْدِيرُ: وَأَنْ تَتَصَدَّقُوا، وَالمَصْدَرُ المَوْوَلُ مِنْ أَنْ وَالفعلُ مَبْتَدَأٌ، وَخَبْرُهُ ﴿خَيْرٌ﴾؛ فَالتَّقْدِيرُ: وَتَصَدَّقْكُمْ عَلَى المَعْسِرِ بِإِبْرَائِهِ خَيْرٌ

(١) قرأ نافع: ﴿مَيْسِرَةٍ﴾ بضم السين، وقرأ الباقون: ﴿مَيْسِرَةٍ﴾ بفتحها. ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ١٩٢)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٣٦).

(٢) قرأ عاصم وحده: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بتخفيف الصاد، وقرأ الباقون: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بتشديد الصاد والدال. ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ١٩٢)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٣٦).

من إنظاره. وقوله: (أنه خير...) إلى آخره: تضمّن تقدير مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾،
وتقدير جواب الشرط المحذوف؛ وهو قوله: (فافعلوه).

وقوله: (بالبناء للمفعول...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ الفِعْلَ المضارع مبنيٌّ
للمفعول، فهو بضمّ التاء وفتح الجيم، وقُرئَ بكسر الجيم وفتح التاء^(١)، وفاعلٌ
﴿تُرْجَعُونَ﴾ هو الله أو الملائكة.

وقوله: (فيه): أي: في يوم القيامة.

وقوله: (جزاء): يريد: جزاء عمله، وهو تقدير المفعول الثاني لـ ﴿تُوفَى﴾،
و«جزاء» مُضَافٌ، والاسمُ الموصولُ مضافٌ إليه.

وقوله: (عملت من خيرٍ وشرٍّ): يُبَيِّنُ أَنَّ المعنى: ﴿كَسَبَتْ﴾ عملت، وأنه
عامٌّ للخير والشر، كما يفيدُه الاسمُ الموصولُ؛ لأنّه من ألفاظ العموم.

وقوله: (بنقصٍ حسنةٍ أو زيادةٍ سيئةٍ): يُبَيِّنُ أَنَّ الظلمَ في الجزاء يكون
بالزيادة على السيئات أو بالنقص من الحسنات، والله - تعالى - منزّهٌ عن الظلم؛
قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا
يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤].



(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ بفتح التاء وكسر الجيم. وقرأ
الباقون: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بضمّ التاء وفتح الجيم. ينظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ١٩٣)،
و«الحجة للقراء السبعة» للفارسي (٢/٤١٧).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاشِرٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ [البقرة: ٢٨٢-٢٨٣]:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ أَهْلَ الْفَضْلِ؛ وَهَمَّ الْمُنْفِقُونَ، وَأَهْلَ الظُّلْمِ؛ وَهَمَّ أَكَلَةُ الرِّبَا؛ ذَكَرَ أَهْلَ الْعَدْلِ؛ وَهَمَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْمَالَ لِلتِّجَارَةِ الْمَشْرُوعَةِ، وَمِنْهَا: الْبَيْعُ إِلَىٰ أَجَلٍ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ...﴾ الْآيَةُ: يَأْمُرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَدَايَنُوا بِأَنْ يَبْعُوا سَلْعَةً بِثَمَنِ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، أَوْ يَبْعُوا سَلْعَةً بِثَمَنِ حَاضِرٍ وَتَسْلِيمِهَا مُؤَجَّلًا وَهُوَ بَيْعُ السَّلَمِ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ (١)، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَهَمَّ يُسَلِّمُونَ فِي الثَّمَارِ السَّنَةَ وَالسَّنَتَيْنِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ فَلْيَسْلِفْ فِي كَيْلٍ

(١) قال ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ﴾، قال: نزلت في السلم في الحنطة في كيل معلوم إلى أجل معلوم. ينظر: «تفسير الطبري» (٧٠/٥ - ٧١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥٥٤/٢).

معلوم ووزنٍ معلوم إلى أجل معلوم^(١)، فالدينُ تارةً يكون الثمنَ وتارةً يكون المثلَّ؛ أي: المبيع، ولَمَّا كَانَ الدَّيْنُ الْمُؤَجَّلُ عرضةً للاختلاف فيه؛ في مقداره أو نوعه أو أجله؛ أمر الله المؤمنين في هذه الآية بالكتابة والإشهاد؛ فقال تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، بحفظ الحقوق وقطع النزاع، وأمر تعالى الكاتب بالكتابة بالعدل، ونهاه عن الامتناع عن الكتابة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾؛ أي: وليكتب بين الدائن والمدين بالعدل في كتابه، فلا يُظلم الدائنُ بالنقص من الحق الذي له، ولا يُظلم المدينُ بالزيادة على الحق الذي عليه، وعلى مَنْ علّمه الله الكتابةً ألاّ يمتنع إذا دعاه المتدائنان إلى الكتابة بينهما؛ شكرًا لله على ما أنعم به من تعليمه الكتابة، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾، ثم أكد سبحانه أمر الكاتب أن يكتب، وأمر أن يُملي على الكاتب مَنْ عليه الحق وهو المدين؛ فقال تعالى: ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلْيَسِّقِ اللَّهُ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾: وهذا الخطابُ للمملي الذي عليه الحقُّ أمرًا له بتقوى الله ونهيًا عن أن يبخس من الحقِّ شيئًا فيما يُمليه؛ أي: ينقص من الحقِّ شيئًا. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾: أي: لا يُحسن التصرف؛ فقد يُقرُّ بما لا يلزمه، أو ضعيفًا؛ كصبيٍّ، أو لا يستطيع أن يُملِّ هو نفسه؛ لخرسٍ أو غيره؛ ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾؛ أي: فليكن الإملاءُ على الكاتب من ولي المدين، وعلى الولي أن يكون إملاؤه بالعدل، لا يزيد في الدين ولا ينقص منه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾: يعني: اطلبوا شهيدين من رجالكم أيها المؤمنون يشهدان على إقرار مَنْ عليه الحقُّ عند كتابة العقد، وهذا هو الطريقُ الثاني لإثبات الحقِّ وحفظه وقطع النزاع؛ وهو استشهادُ شاهدين.

(١) أخرجه البخاري (٢٢٤٠)، ومسلم (١٦٠٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾: أي: فإن لم يكن الشهود رجلين، ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ أي: فيشهد أو يكفي رجل وامرأتان.

وقوله: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾: أي: الرجل والمرأتان من الشهود المرضيين عندكم لعدالتهم وأمانتهم.

وقوله: ﴿أَنْ تَضَلَّ أَحَدُهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾: تعليلٌ لاعتبار العدد في المرأتين. وقوله: ﴿تَضَلَّ﴾: أي: تنسى فتذكرها الأخرى ما نسيت من الشهادة، وأبهم تعالى كلاً من التي ضلّت والتي ذكّرت، فصار كلُّ منهما مذكرةً ومذكّرةً؛ لاحتمال وقوع النسيان من كلِّ واحدةٍ منهما، مما يجعلها محتاجةً إلى التذكير بما نسيت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾: نهى من الله للشهود عن الامتناع عن تحمّل الشهادة أو أدائها إذا دعوا إلى ذلك، والإجابة لتحمّل الشهادة مستحبةً، وقيل: فرض كفاية، وقيل: متعيّنة على من دعي^(١)، والإجابة لأدائها واجبة؛ لأنّ الشهادة أمانة، ولتوقّف ثبوت الحقّ وأدائه عليها. ثم نهى تعالى المتدائنين عن السّامة من كتابة الدّين صغيراً أو كبيراً؛ أي: قليلاً كان الدين أو كثيراً، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾: اسمُ الإشارة راجعٌ إلى ما تقدّم من الأمر بالكتابة والإشهاد. ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: أي: أعدل؛ لأنه من القسط الذي أمر الله به. والقول الثاني: أي: أخرى أن يقوم الشهداء بالشهادة على وجهها. ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾: أي: أقرب إلى عدم وقوع الرّيب في قلوبكم في شأن الدّين في نوعه أو قدره أو أجله.

(١) ينظر: «أحكام القرآن» للخصاص (٢/٢٥٥)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (١/٣٣٨)، و«أحكام القرآن» لإلكيا الهراسي (١/٢٥٨-٢٥٩)، و«المغني» لابن قدامة (١٤/١٢٤-١٢٥).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾: استثناء من الأمر بالكتابة في قوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾: أي: إلا أن تكون المعاملة تجارة حاضرة بحضور العوضين؛ لاستغنائهما عن الأجل. ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾: بتبادل الثمن والمثمن في وقت العقد.

وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾: أي: فلا إثم عليكم في ترك كتابة المبيعة بعد أسباب النزاع. ثم قال تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا بَاعْتُمْ﴾: فأذن بترك الكتابة في التجارة الحاضرة وأمر بالإشهاد، وقد اختلف العلماء في حكمه؛ فذهب الجمهور إلى أنه يُستحب، واستدلوا على صرف الأمر عن الوجوب بأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشترى من أعرابي فرساً ولم يُشهد^(١)، وباع

(١) أخرجه أحمد (٢١٨٨٣)، وأبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي (٤٦٤٧)، والحاكم (٢١٨٧) من طريق الزهري، عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدثه، وهو من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتاعه، فنادى الأعرابي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعته، فقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين سمع نداء الأعرابي؛ فقال: (أو ليس قد ابتعته منك؟) فقال الأعرابي: لا، والله ما بعته، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((بلى قد ابتعته منك))، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً، فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خزيمة فقال: ((بم تشهد؟))؛ فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهادة خزيمة بشهادة رجلين. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ورجاله باتفاق الشيخين ثقات ولم يخرجاه، وعمارة بن خزيمة سمع هذا الحديث من أبيه أيضاً».

وقال ابن كثير في «تحفة الطالب» (١٨٤): «إسناده صحيح، حجة»، وصححه: ابن عبد الهادي في «تنقيح التحقيق» (٧٨/٥)، والألباني في «الإرواء» (١٢٨٦).

عبدًا ولم يُشهد^(١)، وذهب جماعةٌ من السلف والخلف إلى وجوب الإشهاد^(٢)،

(١) أخرجه الترمذي (١٢١٦)، وابن ماجه (٢٢٥١) من طريق عباد بن ليث - صاحب الكرابيسي -، عن عبد المجيد بن وهب، قال: قال لي العداء بن خالد بن هوزة: ألا نقرئك كتابًا كتبه لي رسول الله ﷺ؟ قال: قلت: بلى، فأخرج لي كتابًا، فإذا فيه: «هذا ما اشترى العداء بن خالد بن هوزة من محمد رسول الله ﷺ، اشترى منه عبدًا - أو أمة - لا داء ولا غائلة ولا خبيثة، بيع المسلم للمسلم».

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عباد بن ليث، وقد روى عنه هذا الحديث غير واحد من أهل الحديث».

وعباد بن ليث صدوقٌ يُخطئُ، كما في «التقريب» (٣١٤١)، لكنه توبع، تابعه المنهال بن بحر: أخرجه ابن أبي حاتم كما في «تغليق التعليق» (٢١٩/٣)، وابن حجر (٣/٢١٨ - ٢١٩) من طريق المنهال بن بحر، عن عبد المجيد بن أبي يزيد، عن العداء، به. قال الحافظ: «والمنهال بن بحر المذكور في روايتنا وثقه أبو حاتم وابن حبان، وأما عباد فمختلف فيه، وعبد المجيد وثق، والحديث حسن في الجملة».

قلنا: المنهال بن بحر؛ هو أبو سلمة العقيلي، وثقه أبو حاتم كما في «الجرح والتعديل» (١٦٣٨)، وذكره ابن حبان في «الثقات» (١٥٩٩٨)، وقال العقيلي في «الضعفاء» (١٨٣٢): «في حديثه نظر».

وتابع عباد بن ليث أيضًا: أبو رجاء العطاردي كما في «المعجم الكبير» (١٥)، - ومن طريقه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٥٥٧٨)، و«السنن الكبرى» لليبيهقي (١٠٨٨٦)، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (٢٠٢٤) من طريق الأصمعي، عن عثمان الشحام، عن أبي رجاء العطاردي، عن العداء بن خالد بنحوه.

تنبيه: هذا الحديث أورده البخاري معلقًا في باب: إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا (٥٨/٣)، لكن بلفظ: «ما اشترى محمد رسول الله ﷺ من العداء بن خالد».

قال الحافظ في «التغليق» (٢٢٠-٢٢١/٣): «وقد تتبعت طرق هذا الحديث من الكتب التي عزوتها إليها؛ فاتفقت كلها على أن العداء هو المشتري، وأن النبي ﷺ هو البائع، وهو بخلاف ما علقه المصنف فليتأمل».

وقد تؤول، قال القاضي عياض: ما وقع في البخاري من ذلك بأن البخاري ذكره بالمعنى على لغة من يطلق اشترى مكان باع، وباع مكان اشترى، وهو تأويل متكلف، والله الموفق».

(٢) وممن قال بالوجوب: أبو موسى الأشعري، والضحاك، وسعيد بن المسيب، وجابر بن زيد، ومجاهد، وأشدهم عطاء، وإبراهيم ولو بأقل من ثلث درهم! وكان ابن عمر يفعله في قليل الأشياء وكثيرها، واختار وجوب الإشهاد: الطبري، وداود الظاهري، وابنه أبو بكر. ينظر: «تفسير الطبري» (١٠٩/٥-١١١)، و«المحرر الوجيز» (١٢٢/٢)، و«زاد المسير» (٢٥٢/١)، و«تفسير القرطبي» (٤٠٢/٣-٤٠٥).

وهو قوي؛ لظاهر الأمر، إلا في المحقرات؛ كالصرة من البقل وعود السواك، ونحوهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: نهي عن مضارة المتدائنين للكاتب والشهيد، وعلى هذا: الكاتب والشهيد نائب فاعل، ونهي للكاتب والشهيد عن مضارة المتدائنين، وعلى هذا: فالكاتب والشهيد فاعل، واللفظ يحتمل صورتين؛ لأنَّ الفعل المضعف يُضار لا تظهر عليه الحركة إلا مع فك الإدغام، والتقدير في الصورة الأولى: «ولا يضارر»، بفتح الراء الأول وسكون الثانية، مبني للمفعول، والتقدير في الصورة الثانية: «ولا يضارر»، بكسر الراء الأولى وسكون الثانية، مبنيًا للمعلوم^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَقَعُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ﴾: يعني: إن تفعلوا المضارة فإنَّ فعلكم ذلك فسوق بكم. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: ختم للأحكام السابقة بالوصية الجامعة، وتأكيده لامثال ما في الآية من الأوامر والنواهي، فإنَّ امثالها من تقوى الله.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾: جملة مُستأنفة فيها امتنان من الله على المؤمنين بتعليمه إيَّاهم كلَّ ما علموه وما سيعلمونه، ومن ذلك ما علمهم في هذه الآية من أحكام التجارة والمدائنة، وقد قيل: إنَّ بين الامتنان بالتعليم والوصية بالتقوى تناسبًا؛ وهو أنَّ التقوى سببٌ للتعليم؛ كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وهذا ظاهر في آية الأنفال دون آية البقرة^(٢).

(١) ينظر: «مشكل إعراب القرآن» (١/١٤٥)، و«البحر المحيط» (٢/٧٤٠)، و«الدر المصون» (٢/٦٧٥-٦٧٦).

(٢) ينظر: «البرهان» للزركشي (٤/١٤٣)، و«تيسير اللطيف الرحمن» (ص ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣/١١٨).

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢٣١): إخبارٌ من الله بإحاطة علمه بكلِّ شيءٍ، فتدلُّ الآيةُ أنَّ كلَّ ما يعلمه العبادُ من العلوم الكونيةِ والشرعيةِ فهو من علمه بتعليمهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً﴾: هذا مُتعلِّقٌ بقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، وبقوله: ﴿وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾: يُبَيِّنُ تعالى ما يحفظُ به الحقُّ إذا لم يوجد كاتبٌ؛ وهو الرهنُ، وجمعُ الرهنِ: رِهَانٌ ورُهُونٌ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً﴾، وخصَّ هذا الحكم بالسفر؛ لأنَّه مَظَنَّةٌ لعدم الكاتبِ. وقيدَ الرهنُ بالقبض؛ لأنَّ التوثقة لا تتمُّ إلَّا به، وذلك إذا لم توجد الثقة بين المتدائنين، فإنَّ تحققت الثقة بينهما لم يجب على المدين أن يوثقَ الدينَ برهنٍ، لكن يجب عليه أن يؤدِّيَ الحقَّ الذي عليه فلا جحدَ ولا مظلَ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِعَصَا فُلَيْوَدِّ الَّذِي أُوْتِينِ أَمْنَتُهُ﴾، والأمانةُ: هي الحقُّ الذي على المدين، والذي أوْتَمَنَ: هو الذي عليه الحقُّ، أَمِنَهُ صاحبه الدائن.

وقوله: ﴿وَلِيَتَّقِيَ اللَّهَ رَبَّهُ﴾: خطابٌ للذي أوْتَمَنَ؛ وهو المدينُ الذي عليه الحقُّ، عليه أن يتَّقِيَ اللهَ في الأمانة؛ وهي: حقُّ الدائنِ الذي لديه، فلا يجحدُه ولا شيئاً منه، ولا يَظْلَمُ، بل يُؤدِّيهِ للذي اتَّمَنَهُ؛ وهو الدائنُ صاحبُ الحقِّ.

وقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾: نهيٌ للشهداء عن كتمان الشهادة، ثم عَظَّمَ تعالى كتمانَ الشهادة فقال: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، وأضافَ الإثمَ إلى القلب؛ لأنَّ الكتمانَ يتعلَّقُ بالعلم الذي في القلب^(١).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٢٣٢): تهديدٌ لمن يكتُم الشهادةَ بأنَّ اللهَ به عليمٌ وسيجزيه بعمله، وكتمانُ الشهادةِ هو من الضَّرارِ الذي نهي عنه في قوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، بل هو من أعظم الضَّرارِ.

(١) ينظر: «تفسير النسفي» (١/٢٣١)، و«تفسير ابن جزي» (١/١٤١)، و«البحر المحيط» (٢/٧٤٦).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ﴾ تعاملتم ﴿بِدَيْنٍ﴾ كَسَلْمٍ وَقَرْضٍ
 ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ استيثاقًا ودفْعًا لِلنِّزَاعِ ﴿وَلْيَكْتُبْ﴾
 كِتَابَ الدَّيْنِ ﴿بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ بِالْحَقِّ فِي كِتَابَتِهِ، لَا يَزِيدُ فِي الْمَالِ
 وَالْأَجَلَ وَلَا يَنْقُصُ ﴿وَلَا يَأْبَ﴾ يَمْتَنَعُ ﴿كَاتِبٌ﴾ مِنْ ﴿أَنْ يَكْتُبَ﴾ إِذَا دُعِيَ
 إِلَيْهَا ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ أَي: فَضَّلَهُ بِالْكِتَابَةِ، فَلَا يَبْخُلُ بِهَا، وَالْكَافُ مُتَعَلِّقَةٌ
 بِ«يَأْبُ» ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ يُمَلِّ الْكَاتِبُ ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾
 الدَّيْنِ؛ لِأَنَّهُ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ، فَيُقَرَّرُ لِيَعْلَمَ مَا عَلَيْهِ ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فِي إِمْلَائِهِ
 ﴿وَلَا يَخْسُ﴾ يَنْقُصُ ﴿مِنْهُ﴾ أَي: الْحَقِّ ﴿شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ
 سَفِيهًا﴾ مَبْدَرًا ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ عَنِ الْإِمْلَاءِ؛ لِصِغَرٍ أَوْ كِبَرٍ ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ
 يُمِلَّ هُوَ﴾ لِحَرَسٍ أَوْ جَهْلِ بِاللُّغَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ مُتَوَلِّي أَمْرِهِ
 مِنَ الْوَالِدِ وَوَصِيِّ وَتَمِيمٍ وَتُرْجَمُ ﴿بِالْعَدْلِ﴾.

﴿وَاسْتَشْهِدُوا﴾ أَشْهَدُوا عَلَى الدَّيْنِ ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ شَاهِدَيْنِ ﴿مِنْ
 رِجَالِكُمْ﴾ أَي: بِالغِي الْمُسْلِمِينَ الْأَحْرَارِ ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا﴾ أَي: الشَّاهِدَانِ
 ﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ يَشْهَدُونَ ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ لِدِينِهِ
 وَعَدَالَتِهِ، وَتَعُدُّ النِّسَاءَ لِأَجْلِ ﴿أَنْ تَصَلَّ﴾ تَنْسَى ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ الشَّهَادَةَ
 لِنَقْصِ عَقْلِهِنَّ وَضَبْطِهِنَّ ﴿فَتُذَكَّرُ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿إِحْدَاهُمَا﴾
 الذَّاكِرَةُ ﴿الْأُخْرَى﴾ النَّاسِيَةُ، وَجَمَلَةُ الْإِذْكَارِ مَحَلُّ الْعِلَّةِ، أَي: لِتَذَكَّرَ أَنْ
 ضَلَّتْ. وَدَخَلَتْ عَلَى الضَّلَالِ لِأَنَّهُ سَبَبُهُ. وَفِي قِرَاءَةِ بَكْسَرٍ «إِنْ» شَرْطِيَّةٌ
 وَرَفْعٌ «تَذَكَّرَ» اسْتِثْنَاءٌ جَوَابُهُ ﴿وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا﴾ زَائِدَةٌ ﴿دُعُوا﴾
 إِلَى تَحْمُلِ الشَّهَادَةِ وَأَدَائِهَا. ﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾ تَمَلُّوا مِنْ ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ أَي: مَا
 شَهِدْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ؛ لِكثْرَةِ وَقُوعِ ذَلِكَ ﴿صَغِيرًا﴾ كَانَ ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾ قَلِيلًا
 أَوْ كَثِيرًا ﴿إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ وَقْتِ حُلُولِهِ. حَالٌ مِنَ الْهَاءِ فِي «تَكْتُبُوهُ». ﴿ذَلِكُمْ﴾
 أَي: الْكُتْبُ ﴿أَفْسَطُ﴾ أَعْدَلُ ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَأَفْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ﴾ أَي: أَعُونُ عَلَى

إقامتها؛ لَأَنَّهُ يَذْكُرُهَا ﴿وَأَدْنَى﴾ أَقْرَبُ إِلَى ﴿أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ تَشْكُوا فِي قَدْرِ الْحَقِّ وَالْأَجْلِ. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ﴾ تَقَعُ ﴿تِجَارَةٌ حَاضِرَةٌ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ بِالنَّصْبِ، فِي «تَكُونَ» نَاقِصَةٌ، وَاسْمُهَا ضَمِيرُ التِّجَارَةِ ﴿تُدِيرُ وَنَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أَي: تَقْبِضُونَهَا وَلَا أَجَلَ فِيهَا ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فِي ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ وَالْمُرَادُ بِهَا الْمَتَجَرُّ فِيهِ.

﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ أَدْفَعُ لِلِاخْتِلَافِ. وَهَذَا وَمَا قَبْلَهُ أَمْرٌ نَدْبٌ ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ صَاحِبُ الْحَقِّ وَمَنْ عَلَيْهِ؛ بِتَحْرِيفٍ أَوْ امْتِنَاعٍ مِنَ الشَّهَادَةِ أَوْ الْكِتَابَةِ أَوْ لَا يَضُرُّهُمَا صَاحِبُ الْحَقِّ بِتَكْلِيفِهِمَا مَا لَا يَلِيقُ فِي الْكِتَابَةِ وَالشَّهَادَةِ.

﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا﴾ مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ﴾ خُرُوجٌ عَنِ الطَّاعَةِ لِاحْتِقَاقِ ﴿بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ مَصَالِحَ أُمُورِكُمْ، حَالِ مَقْدَرَةٍ أَوْ مُسْتَأْنَفٍ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أَي: مَسَافِرِينَ وَتَدَايِنْتُمْ ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: (فَرِهَانٌ) جَمْعُ رَهْنٍ ﴿مَقْبُوضَةٌ﴾ تَسْتَوْثِقُونَ بِهَا. وَبَيَّنَّتِ السَّنَةُ جَوَازَ الرَّهْنِ فِي الْحَضَرِّ وَوُجُودَ الْكَاتِبِ، فَالتَّقْيِيدُ بِمَا ذَكَرَ؛ لِأَنَّ التَّوَثُّقَ فِيهِ أَشَدُّ. وَأَفَادَ قَوْلُهُ «مَقْبُوضَةٌ» اشْتِرَاطَ الْقَبْضِ فِي الرَّهْنِ وَالِاكْتِفَاءَ بِهِ مِنَ الْمَرْتَهَنِ وَوَكِيلِهِ.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أَي: الدَّائِنُ الْمَدِينُ عَلَى حَقِّهِ فَلَمْ يَرْتَهِنْ ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ﴾ أَي: الْمَدِينُ ﴿أَمَانَتَهُ﴾ دِينَهُ ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فِي آدَائِهِ ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ إِذَا دُعِيتُمْ لِإِقَامَتِهَا. ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ خَصَّ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ مَحَلُّ الشَّهَادَةِ، وَأَنَّهُ إِذَا آثَمَ تَبِعَهُ غَيْرُهُ فَيُعَاقَبُ عَلَيْهِ مَعَاقِبَةُ الْآثِمِينَ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ.

وقول المؤلف: (تعاملتم): يريد: بتجارة كالمبايعة، ولكن المعاملة أعم من المداينة، فالمداينة تختص بما إذا كان أحد العوضين مؤجلاً، ففسر المؤلف لفظاً: ﴿تَدَايَنْتُمْ﴾ بما هو أعم منه. وقوله: (كسَلَمَ وقرض) السَلَمُ المؤجل فيه هو المبيع، والقرض دين إرفاق لا معاوضة، والصحيح: أنه يقبل التأجيل. وقوله: (معلوم): أي: بتعيين وقت حلول الدين وتحديدِه بالسنة والشهر. وقوله: (استيثاقاً ودفعاً للنزاع): بيان لحكمة الأمر بالكتابة. وقوله: (كتاب الدين): بيان لمفعول ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾. وقوله: (بالحق في كتابته...) إلى آخره: فسّر العدل بالحق، والحق ضد الباطل، والمراد: بالعدل: العدل الخالص الذي ليس فيه باطل، ثم بين المؤلف ما يحصل به العدل في قوله: (لا يزيد في المال والأجل ولا ينقص).

وقوله: (يمنتع): يريد قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ أي: لا يمنتع كاتب من الكتابة إذا دُعِيَ إليها. وقوله: (من): أي: من الكتابة؛ يريد: لا يمنتع كاتب من الكتابة.

وقوله: (إذا دُعِيَ إليها): بيان لحال النهي عن الامتناع؛ أي: لا يمنتع من الكتابة في هذه الحال. وقوله: (أي: فضله...) إلى آخره: يبين أن علم الكتابة نعمة من الله على الكاتب، فالواجب مقابلتها بالشكر، والبخل بالكتابة ينافي شكر هذه النعمة.

وقوله: (والكاف؛ متعلقة بـ «يأب»): الصواب أن يقال متعلقة؛ بـ «لَا يَأْبَ»، وتكون للتعليل؛ فالمعنى: لا يأب كاتب أن يكتب من أجل أن الله علمه، فإن ذلك يقتضي شكر الله على هذه النعمة، ومن شكر الله: الإجابة إلى الكتابة إذا دُعِيَ إليها^(١).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٢/٢-١١٣)، و«البحر المحيط» (٧٢٤-٧٢٥)، و«الدر المصون» (٦٥٢/٢-٦٥٣).

وقوله: (تأكيدٌ): يبيِّن أن الأمر بالكتابة تأكيدٌ للنهي عن الإباءِ منها.
 وقوله: (الكاتب): تقديرٌ لمفعول: ﴿يُمَلِّلُ﴾ بتضمينه يُسْمِعُ؛ أي: يُسْمِعُ
 الذي عليه الحقُّ الكاتبَ ألفاظًا إقراره ليكتبها.
 وقوله: (الدينُ ...) إلى آخره: تفسيرٌ للحقِّ الذي يُقرُّ به المدين فيعلم
 ويُشهدُ عليه.

وقوله: (فيُقرُّ): يعني: بإملائه بالدين الذي عليه.
 وقوله: (في إملائه): يريد أن على المُملِّي الذي عليه الحقُّ أن يتقي الله
 ويراقبه فلا يُحرِّف في كلامه، ولا يلبس بل يكون كلامه واضحًا لا يلتبس على
 الكاتب ولا على الشهود.

وقوله: (ينقصُ): أي: لا ينقص في إقراره من الحق شيئًا، وهذا مما يدخل
 في التقوى.

وقوله: (أي: الحق): بيانٌ لمرجع الضمير المجرور في قوله: ﴿لَا يَبْخَسُ
 مِنْهُ﴾.

وقوله: (مبدّرًا): أي: لا يحفظ المالَ ويُفترطُ في صرفه، وهذا عنوانُ
 السَّفَه.

وقوله: (عن الإملاء ...) إلى آخره: يتضمن أن الضعيف هو الصبي أو
 الكبير الذي لا يعقل، ومن هذه حاله لا يُحسنُ الإملاء؛ لنقصِ عقله.

وقوله: (لخرس ...) إلى آخره: بيانٌ لأسباب العجز عن الإملاء.

وقوله: (مُتولي أمره ...) إلى آخره: بيانٌ للمراد بوليِّ الذي عليه الحق.

وقوله: (أشهدوا على الدين): يبيِّن أن المراد بالاستشهاد الإشهاد، فإذا

حصل الإشهاد فهو المطلوب، والسَّينُ والتاءُ للطلب عند الحاجة.

وقوله: (شاهدين): تفسيرٌ لـ ﴿شَهِيدَيْنِ﴾، والشاهد: من يشهد بما علم.

وقوله: (بالغي...) إلى آخره: بيان لما يدل عليه لفظ ﴿رَجَالِكُمْ﴾ وهو ثلاثة أمور: البلوغ، والحرية، والإسلام؛ أمّا البلوغ والإسلام فدلالة اللفظ عليهما ظاهرة، وأمّا الحرية ففي دعوى دلالة لفظ «الرجال» عليها نظر؛ فإنَّ عبيدَ المسلمين من رجالهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١] (١).

وقوله: (أي: الشاهدان): بيان لمرجع الضمير في قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا﴾ والضمير اسم: «يكون»، و«رَجُلَيْنِ» خبر. وقوله: (يشهدون): تقديرٌ لخبر المبتدأ وهو «رجل» وما عطفَ عليه، ويمكن جعله فاعلاً؛ بتقدير: فيشهد رجلٌ وامرأتان. وقوله: (لدينه وعدالته): بيان لصفة من يُرضى للشهادة، وهو المسلم العَدْلُ.

وقوله: (وتعدّد النساء لأجل): تبيهة على الحكمة من استشهاد امرأتين، وهي: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَها الأُخْرَى﴾. وقوله: (تنسى): تفسيرٌ للضلال، وهو نسيان الشهادة أو شيءٍ منها. وقوله: (لنقص عقلمن وضبطهن): بيان لسبب حصول النسيان من إحدى المرأتين أو من كلٍّ منهما كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((ما رأيتُ من ناقصات عقلٍ ودينٍ))، ثم فسّر ذلك بقوله: ((أليست شهادة المرأتين بشهادة رجلٍ؟)) (٢). وقوله: (بالتخفيف والتشديد): يريد بتخفيف الكاف من «أذَكَرَ»، وتشديدها من: «ذَكَرَ» وهو يشير بذلك إلى قراءتين.

(١) وبقبول شهادة العبيد: قال أنس بن مالك، وعروة، وابن سيرين، وداود، وغيرهم، وهو المعتمد في مذهب الإمام أحمد. ينظر: «المغني» (١٤/ ١٨٥-١٨٦)، و«شرح المتهي» (٦/ ٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤) عن أبي سعيد الخدري، ومسلم (٧٩) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وقوله: (الذاكرة): بيان للمراد من ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ الثانية ف﴿إِحْدَاهُمَا﴾ الأولى هي الناسية، فالذاكرة هي: التي تُذَكَّرُ الناسية.
وقوله: (الناسية): بيان للمراد بالأخرى، والمُذَكَّرَةُ للناسية هي الذاكرة التي لم تنس فالذاكرة تُذَكَّرُ الناسية.

وقوله: (وجملة الإذكار): يريد قوله تعالى: ﴿فَتَذَكَّرْ﴾.
وقوله: (محلُّ العلة): يبيِّن أن العلة في تعدُّ المرأتين هو: تذكيرُ إحداهما للأخرى إن نسيته، ويؤيِّد ذلك أنه قرأ: ﴿إِنْ تَضَلَّ﴾ بكسر الهمزة وتكون شرطية وجواب الشرط؛ ﴿فَتَذَكَّرْ﴾.

وقوله: (ودخلت على الضلال): يريد: لامَّ التعليل؛ لأن التقدير عند المؤلف: «لأن تَضَلَّ». وقوله: (وفي قراءة...) إلى آخره: يشير إلى أن قوله: ﴿أَنْ تَضَلَّ﴾ في همزة ﴿أَنْ﴾ قراءتان: بفتح الهمزة، وهي قراءة الجمهور، و﴿أَنْ﴾ مصدرية، ولذا نصب الفعل بعدها، والقراءة الأخرى: بكسر الهمزة، وتكون شرطية، ومن قرأ بكسر همزة ﴿إِنْ﴾ قرأ ﴿تَذَكَّرْ﴾ بالرفع^(١)، وعلى هذا يقول المؤلف: تكون جملة ﴿تَذَكَّرْ﴾ مُسْتَأْنَفَةً، وهي: جواب الشرط.

وقوله: (زائدة): يريد: أن ﴿مَا﴾ التي بعد ﴿إِذَا﴾ زائدة في الإعراب؛ لأنه ليس لها معنى إلا التأكيد.

وقوله: (إلى تحمُّل الشهادة وأدائها): بيان لما يُدْعَى إليه الشهود وهو إما تحمُّل الشهادة عند كتابة العقد، وإما إلى أدائها في حال الخصومة.

(١) قرأ حمزة: ﴿إِنْ تَضَلَّ﴾ بكسر الألف على محض الشرط، ﴿فَتَذَكَّرْ﴾ بتشديد الكاف وضم الراء، والفاء جواب الشرط. وفتح الباقون الألف من ﴿أَنْ تَضَلَّ﴾، والراء من ﴿فَتَذَكَّرْ﴾. وأسكن الذال من قوله: ﴿فَتَذَكَّرْ﴾ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب، وخفضوا الكاف، وقرأ الباقون: ﴿فَتَذَكَّرْ﴾. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٩٣)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/٢٣٦).

وقوله: (تملؤا من): بيان لمعنى: السَّام، وهو المملُّ والصَّجْرُ، وقوله: (من) بيان أن المصدر المؤول ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ في محلِّ جرٍّ بـ«من» فالمعنى: لا تملؤا من أن تكتبوا الدين. وقوله: (ما شهدتم عليه من الحق): يقتضي: أن الخطاب في قوله: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ للشهداء أمروا أن يكتبوا ما شهدوا به، والصواب: أن قوله: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾ خطابٌ للمُتدائنين فهو معطوفٌ على قوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾؛ تأكيداً للأمر بالكتابة^(١).

وقوله: (لكثرة وقوع ذلك): تعليلٌ لوقوع السامة بسبب كثرة المُدائِنات. وقوله: (كان): بيان أن «صغيراً» و«كبيراً» خبرٌ لكان المقدرة. وقوله: (قليلاً أو كثيراً): تفسيرٌ لـ«صغيراً» و«كبيراً»؛ لأن الكم هو الذي يوصفُ بالقلَّة والكثرة، والحجمُ يوصفُ بالصَّغَر والكِبَر.

وقوله: (وقت حُلُوله): بيانٌ لمعنى «أجل الدين» فأجلُ الدين وقتُ حُلُوله وهو وقتٌ وجوب القضاء.

وقوله: (حالٌ من الهاء في «تكتبوه»): يريد: أن الجار والمجرور ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾ في موضع نصبٍ على الحال من الضمير المنصوب في قوله: ﴿تَكْتُبُوهُ﴾. وقوله: (الكتُّبُ): يعني: كتابةُ الدين.

وقوله: (أعدلُّ): تفسيرٌ لـ﴿أَقْسَطُ﴾ أفعلٌ تفضيلٌ مِنَ القِسط وهو العدل. وقوله: (أعونٌ على إقامتها): أي: إقامةُ الشهادة على وجهها؛ لأن الكتابة تُذَكِّرُ الشاهد. وقوله: (أقربُ إلى): بيانٌ لمعنى ﴿أَدْنَى﴾؛ أي: أقربُ إلى ﴿أَلَّا تَرْتَابُوا﴾؛ أي: ألا تشكوا. وقوله: (في قدرِ الحقِّ والأجلِ): بيانٌ لما يقع فيه الشكُّ.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠٢/٥)، و«التفسير البسيط» (٥٠٤/٤)، و«التحرير والتنوير» (١٤٤/٣).

وقوله: (تَقَع): تفسيرٌ لـ ﴿تَكُونُ﴾، وعلى هذا فـ ﴿تَكُونُ﴾ تامّةٌ وـ ﴿تِجَارَةٌ﴾ بالرفع فاعلٌ على قراءة الجمهور.

وقوله: (وفي قراءةٍ بالنصب): أي: نصب ﴿تِجَارَةٌ﴾^(١)، وعلى هذا فتكون ناقصةً، واسمها ضميرٌ يعود إلى المعاملة، وـ ﴿تِجَارَةٌ﴾ خبرٌ ﴿تَكُونُ﴾ منصوب. وقوله: (أي: تقبضونها ولا أجل فيها): تفسيرٌ لقوله: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي: تتقاضون العوضين لحلول كل منهما فلا دين إذاً.

وقوله: (في): تقديرٌ لحرف الجرّ العامل في المصدر المؤوّل؛ فالمعنى: فلا جناح عليكم ألا تكتبوها؛ أي: المعاملة وهو تأكيدٌ للأمر بكتابة الدين.

وقوله: (والمرادُ بها المتجر فيه): يُبين أن المراد بالتجارة المتجر فيه وهو العوضان: الثمنُ والمُثْمَنُ، أو تقول: الثمنُ والسَّلْعَةُ.

وقوله: (عليه ...) إلى آخره: المعنى: أشهدوا على التبايع؛ فإنه أقطع على النزاع.

وقوله: (وهذا وما قبله أمرٌ ندب): يريد: الأمرَ بالإشهاد وما قبله من الأمر بالكتابة للندب، وهو قول الجمهور؛ لما ثبت أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشترى فرساً من أعرابيٍّ ولم يُشْهَد، وباع عبداً ولم يُشْهَد.

وقوله: (صاحبُ الحق ...) إلى آخره: يُبين أن لفظ الآية يشمل نهْيَ الكاتب والشاهد عن مُضَارَّةِ المتدائنين، ونهْيَ المتدائنين عن مُضَارَّةِ الكاتب والشهيد أي نوعٍ من المضارّة.

وقوله: (ما نُهيتم عنه): هذا تقديرٌ لمفعول: ﴿تَفْعَلُوا﴾.

وقوله: (خروجٌ عن الطاعة لا حق): تفسيرٌ للفسوق؛ المعنى: أن فعلكم ما نُهيتم عنه من المضارّة وغيرها فسوق لا حق بكم.

(١) قرأ عاصم وحده: ﴿تِجَارَةٌ حَاصِرَةٌ﴾ نصباً، وقرأ الباقون: ﴿تِجَارَةٌ حَاصِرَةٌ﴾ رفعاً. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٩٣)، و«معاني القراءات» (١/ ٢٣٥).

وقوله: (في أمره ونهيه): تقوى الله في أمره بفعل ما أمر به، وتقوى الله في نهيه بترك ما نهى عنه.

وقوله: (مصلح أموركم): هذا تقدير مفعول ﴿يُعَلِّمُكُمْ﴾؛ أي: يُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ ما تصلحُ به أموركم كالأحكام المتقدمة.

وقوله: (حال مقدرة أو مستأنف): بيان لمحلّ جملة: ﴿يُعَلِّمُكُمْ﴾، يقول: إنها تحتمل أن تكون حالية أو مستأنفة.

وقوله: (أي: مسافرين وتدايتم): بيان لمحلّ هذا الحكم وهو الرهن، ومحلّه التداين في السفر ولم يوجد كاتبٌ.

وقوله: (وفي قراءة: (فرهان) جمع رهن): يُبَيِّنُ أَنَّ فِي الآيَةِ قراءتان: «رُهْنٌ»؛ ككُتِبَ، و«رِهَانٌ» كجبال^(١)، وكلاهما جمع رهنٍ؛ وهو العينُ التي يُوثَّقُ بها الدين.

وقوله: (تستوثقون بها): أي: يستوثقُ بها صاحب الدين دينه وهو القابضُ للرهن، ويقال له: «المُرْتَهَن» ومن عليه الحقُّ هو «الراهن»، والعين المستوثقُ بها «رهنٌ».

وقوله: (وبينت السنة...) إلى آخره: يُنبِّهُ إلى أن السفرَ ووجود الكاتبِ ليس شرطاً في جواز الرهن؛ لدلالة السنة على ذلك؛ فإن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات ودرعه مرهونة^(٢). وقوله: (فالتقييد...) إلى آخره: أي: بما ذُكِرَ من السفر وعدم وجود الكاتب من أجل أن الحاجة في هذه الحال إلى التوثق أشد.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿فَرُهْنٌ﴾ بضم الراء والهاء من غير ألف، وقرأ الباقون: ﴿فِرِهَانٌ﴾ بكسر الراء وفتح الهاء وألف بعدها. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٩٤)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩١٦) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «توفي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودرعه مرهونة عند يهودي، بثلاثين صاعاً من شعير».

وقوله: (وأفاد...) إلى آخره: يُبَيِّنُ أَنَّ وَصْفَ الرَّهَانِ بِالْقَبْضِ يَدُلُّ عَلَى اشتراط قبض المرتهن للرهن؛ لأن التوثيق لا يتحقق إلا بذلك.
 وقوله: (أي: الدائن...) إلى آخره: بيان للمراد بالبعض الأول والثاني؛ فالأول هو: الدائن، والثاني هو: المدين الذي عليه الحق فإذا أملئ الدائن المدين على حقه فلم يرهنه شيئاً فعلى المدين أن يؤدي الحق الذي عليه فلا يجحد ولا يماطل.

وقوله: (أي: المدين): تفسير لـ ﴿الَّذِي أَوْثَمَنَ﴾ لأنه الذي ائتمنه صاحب الدين.

وقوله: (دينه): بيان للمراد بالأمانة. وقوله: (في أدائه): يبيِّن أن على الذي أوثمن أن يتقي الله. وقوله: (خص بالذكر...) إلى آخره: يريد: خص القلب بالذكر في قوله: ﴿أَثَمَ قَلْبُهُ﴾ وذكر لهذا التخصيص سببين؛ الأول: أن القلب محل الشهادة. الثاني: أنه إذا أثم القلب أثمت الأعضاء تبعاً له؛ كما في الحديث: ((إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله))^(١).



(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، بنحوه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي
 أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ
 وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَأَنْفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
 غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا
 اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا
 حَمَلْتُهُ وَعَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَأَطَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ
 لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ [البقرة: ٢٨٤-٢٨٦]:

هذه الآيات الثلاث؛ هي: خواتم سورة البقرة التي أنزلت مع سورة
 الفاتحة، نزل بهنَّ ملكٌ من الملائكة لأول مرة ينزل من بابٍ من السماء لم
 يفتح إلا لنزوله، وبشر جبريلُ عليه السلام النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك كما روى مسلمٌ
 في صحيحه بسنده عن ابن عباس؛ قال: بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 سمع نقيضًا من فوقه فرفع رأسه فقال: ((هذا بابٌ من السماء ففتح اليوم لم يفتح
 قطُّ إلا اليوم فنزل منه ملكٌ فقال: هذا ملكٌ نزل إلى الأرض لم ينزل قطُّ إلا اليوم
 فسلم)) أي: الملكُ ((وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيُّ قبلك؛ فاتحة
 الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرفٍ منهما إلا أعطيته))^(١)، وجاء في
 فضل الآيتين الأخيرتين أن: ((من قرأهما في ليلةٍ كفتاه)) رواه البخاري ومسلم
 عن أبي مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(٢).

وقد دلَّت الآية الأولى أن ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فهو مالُهما
 وما فيهما وله ملكُ السموات والأرض، وأخبر -تعالى- أنه مُحَاسِبٌ عباده
 بما في نفوسهم أبدوهُ أو أخفوه، ثم يغفرُ لمن يشاء ويُعَذِّبُ مَنْ يشاء وهو
 على كلِّ شيءٍ قدير. وقد ذهب جمهورُ المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخةٌ

(١) أخرجه مسلم (٨٠٦). (٢) أخرجه البخاري (٤٠٠٨)، ومسلم (٨٠٧).

بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وقال آخرون: إنها مُحْكَمَةٌ^(١)، ومعناها عندهم: الخبرُ من الله بأنه محاسبٌ عباده بما يُيدون من أعمالهم وما يُخفون، وهي عامةٌ في المؤمنين والكفار؛ ولهذا قال: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وهم: المؤمنون ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ وهم: الكفار، ولا منافاة بين القولين فمن قال: إنها منسوخةٌ أراد أنه نسخَ منها ما فهمه الصحابةُ وشقَّ عليهم وهو المحاسبةُ على حديث النفس مما لا يستطيع دفعه، وليس هذا رفعًا لحكم الآية في كلِّ ما يُيدي العبادُ مما في نفوسهم وما يُخفونه، وعلى هذا فيكون قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ رفعًا لحكم الآية في بعض أفراد العامِّ، وهذا من قبيل التخصيصِ، وكان المفسِّرون من السلف يُسمُّونه نسخًا، فالآية على عمومها، وخصَّ منها ما لا يُستطاعُ التحرُّجُ منه من الخواطر والأفكار التي تردُّ على القلب بغير إرادة العبد، وهو الذي خاف الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أنهم مُحاسبون به، واختار ابنُ جرير أن الآية مُحكمةٌ فلا تُسَخَّ ولا تُخصَّصُ، وأيد ذلك بأنَّ المحاسبة لا تستلزم عقوبةً^(٢)، وفي قوله هذا نظرٌ؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عَذَّبَ))^(٣)، وأيضًا فخوفُ الصحابة من الوعيد بالحساب يدلُّ على أنهم يرون الحساب قد يُؤدِّي إلى العذاب؛ قال بعد ذكر أقوال الناس فيها: «وأولى الأقوال التي ذكرناها بتأويل الآية: قول من قال: إنها مُحْكَمَةٌ، وليست بمنسوخة؛ وذلك أن النسخ لا يكون في حكم إلا ينفيه بآخر له نافٍ من كلِّ وجهه، وليس في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ نفي الحكم الذي أعلم عباده بقوله: ﴿أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ لأن المحاسبة ليست بموجبة عقوبة، ولا مؤاخذة بما

(١) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص ٢٧٣-٢٧٧)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (ص ٨٩-٩٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/١٤٣-١٤٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

حوسب عليه العبد من ذنوبه»^(١)، ولما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ أَنَّ هَوَاجِسَ النُّفُوسِ وَالخَوَاطِرِ الَّتِي تَرُدُّ عَلَى الْقَلْبِ لَيْسَتْ بِإِرَادَةِ الْإِنْسَانِ وَلَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَهَا وَلَا التَّحَرُّزَ مِنْهَا فَجَاؤُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْكُونَ مَا يَجِدُونَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي هَذَا التَّكْلِيفِ، فَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكَوا عَلَى الرَّكْبِ فَقَالُوا: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ، كُفِّنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نَطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكُتَابِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾...)) إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾: ثناء من الله على رسوله والمؤمنين بإيمانهم بالله وملائكته وكتبه وبجميع رسله، وبقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، وقد تضمن هذا الإقرار السمع والطاعة لله وسؤال المغفرة والإقرار بالمصير إليه، فتضمن الإيمان باليوم الآخر، فشمل إيمانهم الأصول الخمسة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر.

(١) «تفسير الطبري» (١١٨/٦) ط. شاكر، و(١٤٣/٥-١٤٤) ط. هجر.

(٢) صحيح مسلم (١٢٥).

وقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾: مقول قولٍ محذوفٍ؛ يُقدَّر: قالوا أو قائلين؛ المعنى: لا نُفَرِّقُ بين رُسُلِ الله في الإيمان ببعضهم دون بعضٍ كما فعلت اليهود والنصارى بل نؤمنُ بجمعهم، وقرأ الجمهور بالنون، وقرأ بعضُ السلف بالياء: ﴿لَا يُفَرِّقُ﴾ بلفظِ المفرد ردًّا إلى لفظِ ﴿كُلٌّ﴾^(١)، ورجَّح ابنُ جريرِ قراءةَ جمهور القراء، وقال: إنه لا يستجيزُ القراءةَ بغيرها^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾: معطوفٌ على «آمنوا»؛ المفهوم من قوله: ﴿كُلُّ آمَنٌ﴾ فالمعنى: كلُّهم آمنوا وقالوا، أو معطوفٌ على «قالوا» العامل في ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾، وتقديره: قالوا: لا نُفَرِّقُ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، ومعنى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: سَمِعْنَا ما أنزلتَ على رسولك من الكتاب والحكمة وقبلنا واستجبنا وأطعنا لك فيما أمرتنا به وما نهيتنا عنه فامتثلنا وفعلنا ما أمرتنا به واجتنبنا ما نهيتنا عنه. وقوله: ﴿غُفْرَانَكَ﴾: مفعولٌ لفعلٍ مُقدَّرٍ؛ أي: نسألكَ غفرانَكَ يا ربنا. وقوله: ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٣): أي: إليك وحدك المرجعُ والمآبُ في يوم الحساب.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: يخبرُ -تعالى- عن رحمته بعباده في شرعه بأنه لا يكلفُ نفسًا إلا وُسْعَهَا؛ أي: ما تسعُهُ قدرتها فلا يفرض على أحدٍ شيئًا من الفرائض إلا ما يستطيع ويقدرُ عليه بلا حرجٍ يلحقُهُ، وهذا الحكم من الله -تعالى- يرفع الحرجَ الذي خافه الصحابةُ فهمًا من قوله -تعالى- في الآية السابقة: ﴿وَإِن بُدِّدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَافُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ ولهذا قيل: إن هذه الآية ناسخةٌ للآية السابقة؛ لأنها دالةٌ على أن ما لا يُستطاعُ

(١) قرأ يعقوب: ﴿لَا يُفَرِّقُ﴾ بالياء؛ وقرأ بقية القراء: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ بالنون؛ فهي قراءة عشرية متواترة. ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص ١٥٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٣٧)، وهي أيضًا قراءة سعيد بن جبير، ويحيى بن يعمر، وأبي زرعة بن عمرو بن جرير. ينظر: «إيضاح الوقف والابتداء» (١/ ٥٦٠)، و«الكامل في القراءات» (ص ٥١٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/ ١٥١).

دفعه من الخواطر لم يُكَلِّفُوا دفعه، وقد تقدّم ذكر الخلاف في علاقة هذه الآية بالآية السابقة وهل هي ناسخة أو مُخصّصة؟ والصواب: أنها رافعة لحكم الآية عن بعض أفراد العامّ فهي ناسخة من حيث رفع الحكم ومُخصّصة من حيث تعلّق النسخ ببعض أفراد العامّ، فهي ناسخة من وجه ومُخصّصة من وجه، وبهذا يعلم أنه لا منافاة بين القول بأنها ناسخة، وبين القول بأنها مُخصّصة، وقد جاء هذا التخفيف بعد أن قال المؤمنون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨٥)، وذلت بها ألسنتهم فجزاهم الله بإيمانهم وانقيادهم بإنزال هذه الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ثم أخبر - تعالى - أن لكلّ نفسٍ ما كسبت من الخير والعمل الصالح وعليها ما اكتسبت من الأعمال السيئة؛ كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ط وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]. ثم علّم الله المؤمنين هذه الدّعوات: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦)، وهي سبع دعوات، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله أجاب دعاء المؤمنين، وأنّ الله قال بعد كلّ دعوة: «(قد فعلت)»^(١)، فعلم بذلك العفو عن الخطأ والنسيان في هذه الشريعة، وأنه لم يُحمّل على هذه الأمة فيما شرع لهم إصرًا كما حمّله على الأمم الماضية وأنه لا يُحمّلهم ما لا يطيقون ووعدهم العفو والمغفرة والرحمة والنصر على الكافرين، وما أحسن ما ختمت به هذه السورة من هذه الدعوات المجابة فذلك من فضل الله على أمّة محمد ﷺ فلله الحمد والمِنَّة والمُلْكُ والنعمة، لا نُحصى ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذُوا نُظْهِرُوا﴾ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴿من السُّوءِ والعزمِ عليه﴾ أَوْ تُخْفَوْهُ ﴿تُسْرُوهُ﴾ يَحَاسِبِكُمْ ﴿

(١) أخرجه مسلم (١٢٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

يُخْبِرُكُمْ ﴿بِهِ اللَّهُ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الْمَغْفِرَةَ لَهُ ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تَعْدِيْبَهُ. وَالْفِعْلَانِ بِالْجَزْمِ عَطْفًا عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ، وَالرَّفْعُ؛ أَي: فَهُوَ. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَمِنْهُ مُحَاسِبَتُكُمْ وَجَزَاؤُكُمْ.

﴿آمَنَ﴾ صَدَقَ ﴿الرَّسُولُ﴾ مُحَمَّدٌ ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عَطْفٌ عَلَيْهِ ﴿كُلُّ﴾ تَنْوِينُهُ عَوْضٌ مِنَ الْمِضَافِ إِلَيْهِ ﴿آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾ بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ ﴿وَرُسُلِهِ﴾ يَقُولُونَ ﴿لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ فَنُوْمُنٌ بِيَعْضٍ وَنَكْفُرٌ بِيَعْضٍ كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى. ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا﴾ أَي: مَا أَمَرْنَا بِهِ، سَمَاعٌ قَبُولٌ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ نَسَأَلُكَ ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ الْمَرْجِعُ بِالْبَعْثِ.

وَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي قَبْلَهَا شَكَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْوَسْوَسَةِ، وَشَقَّ عَلَيْهِمُ الْمَحَاسِبَةُ بِهَا، فَنَزَلَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أَي: مَا تَسَعُهُ قَدْرَتُهَا ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ مِنَ الْخَيْرِ؛ أَي: ثَوَابِهِ ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ مِنَ الشَّرِّ؛ أَي: وَزَرِهِ. وَلَا يُوَاخِذُ أَحَدٌ بِذَنْبِ أَحَدٍ وَلَا بِمَا لَمْ يَكْسِبْهُ مِمَّا وَسَّوَسَتْ بِهِ نَفْسُهُ. قَوْلُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ بِالْعِقَابِ ﴿إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ تَرَكَنَا الصَّوَابَ لَا عَنِ عَمْدٍ، كَمَا أَخَذْتَ بِهِ مَن قَبْلَنَا، وَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنِ هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ. فَسْؤَالُهُ اعْتِرَافٌ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ أَمْرًا يَثْقُلُ عَلَيْنَا حَمْلُهُ ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أَي: بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ فِي التَّوْبَةِ وَإِخْرَاجِ رُبْعِ الْمَالِ فِي الزَّكَاةِ وَقِرْضِ مَوْضِعِ النِّجَاسَةِ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ﴾ قُوَّةَ ﴿لَنَا بِهِ﴾ مِنَ التَّكَالِيفِ وَالْبَلَاءِ ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ امْحُ ذُنُوبَنَا ﴿وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ فِي الرَّحْمَةِ زِيَادَةً عَلَى الْمَغْفِرَةِ ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ سَيِّدُنَا وَمَتَوَلِي أُمُورِنَا. ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَالْغَلْبَةِ فِي قِتَالِهِمْ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمَوْلَى أَنْ يَنْصُرَ

مواليه على الأعداء، وفي الحديث: لَمَّا نزلت هذه الآية فقرأها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيل له عَقِبَ كُلِّ كَلِمَةٍ: ((قد فعلت)).

وقول المؤلف: (من السوء والعزم عليه): يبيّن ما تتعلّق به المحاسبة وقد يستلزم الحساب العقاب، ويدخل في ذلك ما يردّ على القلب من الخواطر السيئة وما يحدث به الإنسان نفسه من ذلك، وهذا هو الذي أشفق الصحابة حَرَجًا من محاسبتهم به حتى جاؤوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: «إن هذه الآية لا نطيقها» كما تقدّم في حديث أبي هريرة. وقوله: (يُخبركم): تفسير للمحاسبة بالإخبار، وفي هذا التفسير قصور، والمحاسبة قد تتضمّن التقرير بالذنوب وقد تكون مع مناقشة.

وقوله: (يوم القيامة): بيان لوقت الحساب.

وقوله: (المغفرة له): تقدير لمفعول ﴿يَسَاءُ﴾.

وقوله: (تعذّبه): تقدير لمفعول: ﴿يَسَاءُ﴾ الثانية.

وقوله: (والفعلان بالجزم...) إلى آخره: يشير إلى أنه قرئ الفعلان

﴿يَغْفِرُ﴾، و﴿يُعَذِّبُ﴾ بالجزم عطفًا على جواب الشرط^(١).

وقوله: (والرفع؛ أي: فهو): يشير إلى قراءة الفعلين بالرفع: ﴿يَغْفِرُ﴾،

و﴿يُعَذِّبُ﴾ وعليه: فالجملة مُستأنفة، والفعلان خبر لمبتدأ محذوف قدره

المؤلف؛ بقوله: «أي: فهو».

وقوله: (ومنه مُحاسبتكم وجزاؤكم): بيان لمناسبة هذه الجملة لما قبلها.

(١) قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَسَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَسَاءُ﴾ بالرفع، وقرأ الباقر بن جزم الراء والباء. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٩٥)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/٢٣٧).

وقوله: (صَدَّقَ): تفسيرُ الإيمانِ الشرعيِّ بالتصديقِ فقط فيه قصورٌ؛ فإنَّ الإيمانَ الشرعيَّ تصديقٌ وانقيادٌ واتباعٌ، فيدخل فيه العملُ كما يدلُّ لذلك حديثُ وفدِ عبدِ القيسِ^(١) وغيره^(٢).

وقوله: (مَحَمَّدٌ): بيانٌ للمرادِ بالرسولِ، ومحمدٌ أشهرُ أسماءِ الرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ورد في القرآن أربعَ مراتٍ، والرسولُ عَلِمَ على نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالغلبةِ. وقوله: (من القرآن): بيانٌ للمرادِ بما أنزلَ، وأكثر ما يُضاف إليه الإنزالُ والتنزيلُ: القرآن، وقد ورد إضافةُ الإنزالِ إلى السنةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

وقوله: (عطف عليه): أي: عطف على الرسولِ، وهذا أحدُ الوجهين في إعرابِ «المؤمنون»، والوجهُ الثاني: أنه مبتدأٌ والجملةُ التي بعده خبر^(٣). وقوله: (تنوينه عوضٌ من المضاف إليه): لأنَّ المعنى كلُّهم آمنَ فصار التنوينُ مكانَ الضميرِ المضافِ إليه.

وقوله: (بالجمع والإفراد): يُشير إلى أنه قُرئ: «كُتِبَ» بلفظ الجمع، و«كُتِبَ» بلفظ الإفراد^(٤)، وذكرَ القراءتين ابنُ جريرٍ ورجَّحَ القراءةَ بالجمع بضمِّ الكاف والتاء^(٥).

(١) حديث وفد عبد القيس: أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧) عن ابن عباس، وفيه: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس».

(٢) ينظر الآثار وأقوال أئمة السلف أن العمل من الإيمان في: «السنة» لعبد الله بن أحمد (٣٠٧/١)، والشريعة (٦١١/٢)، و«الإبانة» لابن بطة (٧٦٠/٢)، و«شرح أصول أهل السنة» (٩١١/٤).

(٣) ينظر: «التيبان في إعراب القرآن» (٢٣٣-٢٣٤)، و«إعراب القرآن وبيانه» (٤٤٨/١).

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿وَكِتَابِهِ﴾ مُوحِداً، وقرأ الباقون: ﴿وَكُتِبَ﴾ جمعاً. ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ١٩٥)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/٢٣٧).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤٩/٥).

وقوله: (يقولون): تقدير لقول المحذوف العامل في ﴿لَا نَفَرُ﴾.
 وقوله: (فَنُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفَرُ بِبَعْضٍ ...) إلى آخره: بيان لمعنى: التفريق بين الرسل بأنه الإيمان ببعض دون بعض كما فعل أهل الكتاب.
 وقوله: (أَي: ما أمرنا به، سماع قبول): يبين أن نوع السماع في هذه الآية سماع القبول والاستجابة، وأنه ليس المراد مجرد سماع الصوت.
 وقوله: (نَسْأَلُكَ): هذا تقدير للفعل الناصب لغفران.
 وقوله: (المرجع بالبعث): تفسير للمصير وأن ذلك يكون بالبعث يوم القيامة.

وقوله: (ولمَّا نزلت ...) إلى آخره: بيان لسبب نزول هذه الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقوله: (ما تَسَعَهُ قدرتها): معناه: ما تقدر عليه بلا مشقة ولا حرج، فإضافة الوُسْع إلى النفس من إضافة الصفة إلى الموصوف.
 وقوله: (من الخير؛ أي: ثوابه): يُفيد أن المعنى: لها ثواب ما كسبت من الخير.

وقوله: (من الشر ...) إلى آخره: المعنى: وعلى النفس عقوبة ما اكتسبت من الشر لا على غيرها كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].
 وقوله: (ولا بما لم يكسبه مما وسوست به نفسه): معناه: لا يؤخذ أحد بما تُوسوس به نفسه من الشر ما لم يعمل به في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّم))^(١).

وقوله: (قولوا): فيه بيان أن هذه الدعوات مقول قول محذوف قدره المؤلف: «قولوا» وعلى هذا فهذه الدعوات قالها المؤمنون بتعليم من الله وإرشاد لهم.

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: (بالعقاب): هذا ما يقتضيه معنى: المؤاخذة؛ فالمؤاخذة؛ هي: المجازة على الذنب بما يقتضيه فعله.

وقوله: (تركنا الصواب...) إلى آخره: يبين المؤلف أن ترك الصواب من القول والعمل يكون عمداً ويكون نسياناً وخطأً، والمطلوب: في هذا الدعاء عدم المؤاخذة بالنسيان والخطأ، وهذا الذي بشر به النبي ﷺ بقوله: ((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ))^(١)، وجاء في الحديث القدسيّ أن الله قال بعد كلِّ دعوةٍ: ((نعم، قد فعلت))، فكل هذه الدعوات مستجابة، وكلُّ مَنْ دَعَا بِهَا فهو موعودٌ بالاستجابة.

وقوله: (فسؤاله اعترافٌ بنعمة الله) معناه: أن الدعاء بهذا الدعاء إيمانٌ بنعمة الله على هذه الأمة وهي: تركُ المؤاخذة بالخطأ والنسيان.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٨٢٧٣)، من طريق الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس، به. وهذا إسناد منقطع، عطاء لم يسمعه من ابن عباس، بينهما: عبيد بن عمير، والوهم فيها من الوليد، فقد اختلف عليه في هذا الحديث.

وأخرجه ابن حبان (٧٢١٩)، والدارقطني (٤٣٥١)، والبيهقي (١٥٠٩٤) وغيرهم، من طرق، عن الربيع بن سليمان المرادي، عن بشر بن بكر، عن الأوزاعي، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، به.

وأخرجه الحاكم (٢٨٠١) من طريق بحر بن نصر بن سابق الخولاني، عن بشر بن بكر. ومن طريق الربيع بن سليمان، عن أيوب بن سويد، كلاهما عن الأوزاعي، به.

وقد رواه الوليد بن مسلم، واختلف عنه اختلافاً كثيراً، أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٢٧٦- ٨٢٧٣)، وساقها ابن أبي حاتم في «العلل» (١٢٩٦) وقال: «قال أبي: هذه أحاديث منكرة، كأنها موضوعة»، وأنكرها الإمام أحمد جداً، وقال -كما في «العلل» لابنه عبد الله (١٣٤٠)-: «ليس يروى فيه إلا عن الحسن، عن النبي ﷺ».

وأصل الحديث: أخرجه البخاري ومسلم باللفظ السابق. وينظر: «نصب الراية» (٢/ ٦٤- ٦٦)، و«البلدر المنير» (٤/ ١٧٧-١٨٣)، و«جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٦١-٣٦٥)، و«التلخيص الحبير» (٢/ ٨١١ رقم ٥٢٩)، و«المقاصد الحسنة» (٥٢٨)، و«إرواء الغليل» (٨٢).

وقوله: (أمرًا يثقل علينا حمّله): هذا تفسير «الإصر» في الآية، وأصل الإصر: الحمل الثقيل^(١)؛ المعنى: لا تفرض علينا ما يشقّ العمل به وقد تحقق ذلك بقوله تعالى: ((قد فعلت)).

ومن صفات نبينا في التوراة والإنجيل أنه يضع الإصر الذي كان في الشرائع السابقة.

وقوله: (من قتل النفس في التوبة... إلى آخره: هذه ثلاثة أمثلة من الأصار التي كانت محمولةً على من قبلنا، وهم: بنو إسرائيل، وقتل النفس في التوبة المذكور في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، وأما إخراج ربع المال في الزكاة وقرض موضع النجاسة فلعلهما مذكوران في التوراة^(٢).

وقوله: (من التكاليف والبلاء): يبيّن أن ما لا قوة عليه ولا يطاق قد يكون في بعض التكاليف الشرعية وقد يكون في المصائب التي يبتلى بها العبد. وقوله: (سيدنا ومتولي أمورنا): تفسير لـ ﴿مَوْلَانَا﴾ والمولى؛ بمعنى: الولي، والله وليّ المؤمنين، وقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقوله: (بإقامة الحجّة... إلى آخره: فيه أن النصر يكون بالحجّة واللسان والسيف والسنان، وفيه أن النصر على الأعداء من مقتضيات الولاية، ولهذا ربّبت هذه الدعوة بالفاء على قوله: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾.

وقوله: (وفي الحديث... إلى آخره: يشير إلى حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم، وقد تقدّم.

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ١٠٠)، و«المفردات» (ص ٧٨).

(٢) أورده الثعلبي والواحدي والرازي عن بعض أهل التفسير. ينظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٥٩٢-٥٩٣)، و«التفسير البسيط» (٤/ ٥٣٩-٥٤٠)، و«تفسير الرازي» (٧/ ١٢١).

قائمة المصادر والمراجع

(أ)

١. **الإبانة الكبرى**، ابن بطة العكبري، دار الراية للنشر والتوزيع - الرياض.
٢. **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، سنة النشر: ١٤٢٦هـ.
٣. **اجتماع الجيوش الإسلامية**، ابن قيم الجوزية، تحقيق عواد عبد الله المعترك، مطابع الفرزدق التجارية - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٤. **أحكام القرآن**، أحمد بن علي الجصاص الحنفي، تحقيق محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٥. **أحكام القرآن**، محمد بن عبد الله بن العربي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٦. **أحكام القرآن**، علي بن محمد إلكيا الهراسي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
٧. **الإحكام في أصول الأحكام**، الأمدي، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي - بيروت - دمشق - لبنان.
٨. **الأذكار**، يحيى بن شرف النووي، تحقيق عبد القادر الأرنبوط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.
٩. **إرشاد الفحول**، الشوكاني، تحقيق أبي حفص سامي العربي، دار الفضيلة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
١٠. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم = تفسير أبي السعود**، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١١. **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.
١٢. **أسباب نزول القرآن**، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح - الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٣. **الأسماء والصفات**، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عبد الله الحاشدي، مكتبة السوادي - جدة - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
١٤. **اشتقاق أسماء الله**، عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق د. عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
١٥. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الشنقيطي، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية.
١٦. **إعراب القرآن**، أبو جعفر النَّحَّاس، تعليق عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
١٧. **إعراب القرآن وبيانه**، محيي الدين بن أحمد درويش، دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، دار اليمامة - دمشق - بيروت، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ.
١٨. **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.
١٩. **إعلام الموقعين**، ابن قيم الجوزية، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
٢٠. **آكام المرجان في أحكام الجان**، محمد بن عبد الله الشبلي، تحقيق إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن - مصر - القاهرة.
٢١. **الانتصار لأهل الأثر**، ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن حسن قائد، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة.
٢٢. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل = تفسير البيضاوي**، عبد الله بن عمر البيضاوي، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٢٣. **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**، إسماعيل بن محمد أمين البغدادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.
٢٤. **إيضاح الوقف والابتداء**، أبو بكر الأنباري، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، عام النشر: ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.

٢٥. **الإيمان**، ابن تيمية، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، عمان - الأردن، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
٢٦. **الإيمان الأوسط = شرح حديث جبريل**، ابن تيمية، تحقيق علي بن بخيت الزهراني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤٢٣هـ.

(ب)

٢٧. **البحر الزخار = مسند البزار**، أحمد بن عمرو البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة النبوية، الطبعة الأولى.
٢٨. **البحر المحيط في أصول الفقه**، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، دار الكتبي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٢٩. **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، طبعة ١٤٢٠هـ.
٣٠. **بدائع الفوائد**، ابن قيم الجوزية، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد.
٣١. **البرهان في علوم القرآن**، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.
٣٢. **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - لبنان - صيدا.
٣٣. **البداية والنهاية**، ابن كثير، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٣٤. **البدر المنير في تخريج الشرح الكبير**، ابن الملقن، تحقيق مصطفى أبو الغيط، وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض، السعودية - الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٣٥. **بيان الوهم والإيهام**، ابن القطان الفاسي، تحقيق د. الحسين آيت سعيد، دار طيبة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٣٦. بيان تلبس الجهمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

(ت)

٣٧. تاج العروس من جواهر القاموس، المرتضى الزبيدي، دار الهداية.
٣٨. التاج والإكليل لمختصر خليل، محمد بن يوسف المواق، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٤م.
٣٩. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٤٠. تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري، دار التراث - بيروت، الطبعة الثانية - ١٣٨٧هـ.
٤١. التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، تحقيق علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٤٢. التبيان في تفسير غريب القرآن، أحمد بن محمد ابن الهائم، تحقيق د. ضاحي عبد الباقي محمد، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٢٣هـ.
٤٣. تحرير ألفاظ التنبيه، يحيى بن شرف النووي، تحقيق عبد الغني الدقر، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٤٤. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤م.
٤٥. الترغيب والترهيب، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق مصطفى محمد عمارة، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
٤٦. التسهيل لعلوم التنزيل = تفسير ابن جزي، ابن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق د. عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
٤٧. التصاريح لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه، يحيى بن سلام، تحقيق هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، عام النشر: ١٩٧٩م.
٤٨. التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٤٩. **التعليق على القواعد المثلى**، عبد الرحمن البراك، إعداد عبد الله المزروع، دار التدمرية - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
٥٠. **تعليقات على المخالفات العقدية في فتح الباري**، عبد الرحمن البراك، دار التوحيد للنشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.
٥١. **التعليقات على المسائل العقدية في كتاب التسهيل لابن جزي**، عبد الرحمن البراك، مؤسسة وقف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ.
٥٢. **تفسير أسماء الله الحسنى**، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية.
٥٣. **التفسير البسيط**، علي بن أحمد الواحدي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
٥٤. **تفسير الراغب الأصفهاني**، تحقيق ودراسة د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب - جامعة طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٥٥. **تفسير عبد الرزاق**، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
٥٦. **تفسير الفاتحة والبقرة**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
٥٧. **تفسير القرآن العظيم**، عبد الرحمن ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.
٥٨. **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٥٩. **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
٦٠. **تقريب التهذيب**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد - سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٦١. **التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد الثاني عمر بن موسى، دار أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

٦٢. **تهذيب التهذيب**، ابن حجر، مطبعة دائرة المعارف النظامية - الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.
٦٣. **تهذيب اللغة**، محمد بن أحمد بن الأزهري، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م
٦٤. **التوحيد وإثبات صفات الرب**، ابن خزيمة، تحقيق عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، مكتبة الرشد - السعودية - الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٦٥. **توضيح مقاصد العقيدة الواسطية**، عبد الرحمن البراك، إعداد عبد الرحمن بن صالح السديس، دار التدمرية، الطبعة الثالثة، ١٤٣٢هـ.
٦٦. **توضيح مقدمة التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية**، عبد الرحمن البراك، مؤسسة وقف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ.
٦٧. **التوقيف على مهمات التعاريف**، عبد الرؤوف المناوي، تحقيق عبد الخالق ثروت، عالم الكتب - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م
٦٨. **التيسير في القراءات السبع**، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق د. خلف حمود الشغدلي، دار الأندلس للنشر والتوزيع - حائل - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
٦٩. **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق أسامة بن عطايا، دار الصمعي، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
٧٠. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي.
٧١. **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

(ث)

٧٢. **الثقات**، ابن حبان، دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد - الدكن - الهند، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(ج)

٧٣. **جامع البيان في تأويل القرآن**، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٧٤. **جامع البيان في تفسير القرآن**، محمد بن جرير الطبري، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٧٥. **جامع الشروح والحواشي**، عبد الله محمد الحبشي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٤م.
٧٦. **جامع العلوم والحكم**، ابن رجب، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٧٧. **جامع المسائل**، ابن تيمية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - مكة.
٧٨. **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
٧٩. **الجرح والتعديل**، ابن أبي حاتم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٢٧١هـ - ١٩٥٢م.
٨٠. **الجنى الداني في حروف المعاني**، حسن بن قاسم المرادي، تحقيق د. فخر الدين قباوة ومحمد فاضل، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٨١. **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، ابن تيمية، تحقيق علي بن حسن وعبد العزيز بن إبراهيم وحمدان بن محمد، دار العاصمة - السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
٨٢. **جواب في الإيمان ونواقضه**، عبد الرحمن البراك، اعتناء، عبد الرحمن بن صالح السديس، دار التدمرية، الطبعة الأولى، ١٤٧٣هـ - ٢٠١٦م.

(ح)

٨٣. **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، ابن قيم الجوزية، تحقيق زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة.

٨٤. **الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي**، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
٨٥. **الحجة في بيان المحجة**، إسماعيل بن محمد الأصبهاني، تحقيق محمد عبد اللطيف الجمل، دار الفاروق - مصر، الطبعة الثالثة، ١٤٣٧هـ.
٨٦. **الحجة للقراء السبعة**، أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي، دار المأمون للتراث - دمشق - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٨٧. **حروف المعاني والصفات**، عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
٨٨. **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - مصر، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
٨٩. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتب العلمية - بيروت.

(خ)

٩٠. **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، محمد أمين بن فضل الله المحبي، دار صادر - بيروت.

(د)

٩١. **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دار القلم - دمشق.
٩٢. **الدر المنثور**، السيوطي، دار الفكر، بيروت.
٩٣. **درء تعارض العقل والنقل**، ابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
٩٤. **درج الدرر في تفسير الآي والسور**، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، مجلة الحكمة - بريطانيا، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٩٥. **دقائق أولي النهى لشرح المنتهى = شرح منتهى الإرادات**، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة - ناشرون، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
٩٦. **ديوان الضعفاء والمتروكين**، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق حماد بن محمد الأنصاري، مكتبة النهضة الحديثة - مكة، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

(ر)

٩٧. **رد المحتار على الدر المختار = حاشية ابن عابدين**، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٩٨. **الرد على المنطقيين**، ابن تيمية، تحقيق عبد الصمد الكتبي، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
٩٩. **الرسالة**، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٨هـ - ١٩٤٠م.
١٠٠. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني = تفسير الألوسي**، محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
١٠١. **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد - مكة.
١٠٢. **روضة الناظر وجنة المناظر**، ابن قدامة المقدسي، تحقيق عبد الكريم النملة، مكتبة الرشد، الطبعة السابعة عشرة، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م.

(ز)

١٠٣. **زاد المسير في علم التفسير**، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٢٢هـ.
١٠٤. **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(س)

١٠٥. **السبعة في القراءات**، أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف - مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
١٠٦. **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولى.
١٠٧. **سلسلة الأحاديث الضعيفة**، الألباني، مكتبة المعارف، المملكة العربية السعودية - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
١٠٨. **السنة**، أبو بكر بن أبي عاصم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.
١٠٩. **السنة**، عبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق د. محمد بن سعيد القحطاني، دار ابن القيم - الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
١١٠. **سنن أبي داود**، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
١١١. **سنن ابن ماجه**، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
١١٢. **سنن الترمذي**، أبو عيسى الترمذي، تحقيق د. بشار عواد، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨م.
١١٣. **السنن الكبرى**، البيهقي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
١١٤. **السنن الكبرى**، النسائي، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
١١٥. **سنن النسائي**، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
١١٦. **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.
١١٧. **السيرة النبوية**، ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

(ش)

١١٨. **شأن الدعاء**، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
١١٩. **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، عبد الله بن عبد الرحمن ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة - سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة العشرون، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
١٢٠. **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**، هبة الله بن الحسن اللالكائي، تحقيق أحمد بن سعد الغامدي، دار طيبة - السعودية، الطبعة الثامنة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
١٢١. **شرح تسهيل الفوائد**، محمد بن عبد الله ابن مالك، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
١٢٢. **شرح العقيدة الأصبهانية**، ابن تيمية، تحقيق محمد بن عودة السعوي، مكتبة دار المنهاج - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
١٢٣. **شرح العقيدة التدمرية**، عبد الرحمن البراك، إعداد عبد الرحمن السديس، دار التدمرية - الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
١٢٤. **شرح العقيدة الطحاوية**، ابن أبي العز الحنفي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
١٢٥. **شرح العقيدة الطحاوية**، عبد الرحمن البراك، إعداد عبد الرحمن بن صالح السديس، دار التدمرية، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤هـ.
١٢٦. **شرح العمدة**، ابن تيمية، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة.
١٢٧. **شرح مشكل الآثار**، الطحاوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
١٢٨. **الشريعة**، محمد بن الحسين بن عبد الله الأجرّي، تحقيق عبد الله بن عمر الدميحي، دار الوطن - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١٢٩. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، عبد الحي بن أحمد ابن العماد، تحقيق محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير - دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٣٠. **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، محمد بن محمد بن عمر بن مخلوف، تعليق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
١٣١. **شواذ القراءات**، محمد بن أبي نصر الكرمانى، تحقيق شميران العجلي، مؤسسة البلاغ - بيروت.

(ص)

١٣٢. **الصحيح**، الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
١٣٣. **صحيح ابن حبان**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
١٣٤. **صحيح البخاري**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٣٥. **صحيح بن خزيمة**، محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
١٣٦. **صحيح سنن أبي داود**، محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع - الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
١٣٧. **الصفدية**، ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية - مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
١٣٨. **الصواعق المرسلّة**، ابن قيم الجوزية، تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

(ض)

١٣٩. **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت.
١٤٠. **الضعفاء الكبير**، أبو جعفر محمد بن عمرو العقيلي، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار المكتبة العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
١٤١. **الضعفاء والمتروكون**، ابن الجوزي، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية - بيروت.

(ط)

١٤٢. **الطبقات الكبرى**، ابن سعد، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.
١٤٣. **طبقات المفسرين**، محمد بن علي الداودي، دار الكتب العلمية - بيروت.
١٤٤. **طبقات المفسرين**، حمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
١٤٥. **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، ابن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد - مكة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

(ع)

١٤٦. **العبودية**، ابن تيمية، تحقيق محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
١٤٧. **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، ابن القيم، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة.
١٤٨. **العذب النمير في مجالس الشنقيطي في التفسير**، محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق خالد بن عثمان السبت، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.
١٤٩. **العجاب في بيان الأسباب**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الحكيم محمد الأنيس، دار بن الجوزي.
١٥٠. **علل الحديث**، ابن أبي حاتم، تحقيق فريق من الباحثين بإشراف وعناية د. سعد بن عبد الله الحميد و د. خالد بن عبد الرحمن الجريسي، مطابع الحميضي، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
١٥١. **العلل الواردة في الأحاديث النبوية**، الدارقطني، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي، دار طيبة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
١٥٢. **العين**، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

(غ)

١٥٣. **غاية النهاية في طبقات القراء**، محمد بن محمد بن يوسف ابن الجزري، مكتبة ابن تيمية.
١٥٤. **غريب القرآن**، بن قتيبة الدينوري، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
١٥٥. **غريب القرآن = نزهة القلوب**، محمد بن عزيز السجستاني، تحقيق محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة - سوريا، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
١٥٦. **غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب**، محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، مؤسسة قرطبة - مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(ف)

١٥٧. **فتح الباري**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
١٥٨. **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب = حاشية الطيبي على الكشاف**، الحسين بن عبد الله الطيبي، إشراف د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
١٥٩. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، الشوكاني، دار ابن كثير - دار الكلم الطيب - دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
١٦٠. **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين بالدقائق الخفية = حاشية الجمل**، سليمان بن عمر الجمل، المطبعة العامرة الشرفية - مصر الطبعة الأولى، ١٣٠٢هـ.
١٦١. **فتيا في صيغة الحمد**، ابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الله البطاطي، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة.
١٦٢. **الفروق اللغوية**، العسكري، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع - القاهرة - مصر.
١٦٣. **فقه السيرة**، محمد الغزالي السقا، دار القلم - دمشق، تخريج الأحاديث: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

(ك)

١٦٤. **الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (نونية ابن القيم)**، دار عالم الفوائد - مكة.
١٦٥. **الكامل في التاريخ**، عز الدين ابن الأثير، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
١٦٦. **الكامل في ضعفاء الرجال**، عبد الله بن عدي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، عبد الفتاح أبو سنة، الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١٦٧. **الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها**، أبو القاسم الهُدَلِي الشكري، تحقيق جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، مؤسسة سما للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
١٦٨. **الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد**، المنتجب الهمداني، تحقيق محمد نظام الدين الفتيح، دار الزمان - المدينة النبوية - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
١٦٩. **كشاف القناع عن متن الإقناع**، منصور بن يونس البهوتي، طبعة وزارة العدل في المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
١٧٠. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
١٧١. **كشاف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، حاجي خليفة، مكتبة المثنى - بغداد، تاريخ النشر: ١٩٤١م.
١٧٢. **الكشف والبيان عن تفسير القرآن = تفسير الثعلبي**، أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي، دار التفسير - جدة - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
١٧٣. **كواشف زيوف**، عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني، دار القلم - دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
١٧٤. **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، نجم الدين محمد بن محمد الغزي، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(ل)

١٧٥. **لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن**، علاء الدين علي بن محمد الخازن، تحقيق محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
١٧٦. **اللباب في علوم الكتاب**، عمر بن علي بن عادل الحنبلي، تحقيق أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
١٧٧. **لسان العرب**، ابن منظور، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
١٧٨. **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**، ابن رجب الحنبلي، تحقيق عامر ياسين، دار ابن خزيمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

(م)

١٧٩. **المبسوط في القراءات العشر**، أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري، تحقيق سبيع حمزة حاكمي، مجمع اللغة العربية - دمشق، عام النشر: ١٩٨١م.
١٨٠. **مجاز القرآن**، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق محمد فواد سزكين، مكتبة الخانجي - القاهرة، طبعة ١٣٨١هـ.
١٨١. **المجموع شرح المهذب - مع تكملة السبكي والمطيعي - أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي**، مكتبة الإرشاد - جدة.
١٨٢. **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، جمع وترتيب ابن قاسم، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض.
١٨٣. **محاسن التأويل**، جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٨هـ.
١٨٤. **المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، طبعة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١٨٥. **المحرر الوجيز**، عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق الرحالي الفاروق وغيره، مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية في قطر، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ.
١٨٦. **المحلى بالآثار**، ابن حزم الأندلسي، دار الفكر - بيروت.

١٨٧. **مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع**، ابن خالويه، مكتبة المتنبى - القاهرة.
١٨٨. **مختصر الصواعق المرسله**، ابن قيم الجوزية، تحقيق د. الحسن بن عبد الرحمن العلوي، أضواء السلف - الرياض.
١٨٩. **مدارج السالكين**، ابن القيم، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة.
١٩٠. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل = تفسير النسفي**، عبد الله بن أحمد النسفي، تحقيق يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
١٩١. **المراسيل**، ابن أبي حاتم، تحقيق شكر الله نعمة الله قوجاني، مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ.
١٩٢. **المراسيل**، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
١٩٣. **المستدرک علی الصحیحین**، أبو عبد الله النيسابوري الحاكم، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
١٩٤. **المستصفي**، أبو حامد الغزالي، تحقيق حمزة بن زهير حافظ، شركة المدينة النبوية للطباعة.
١٩٥. **المسند**، أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
١٩٦. **مشكل إعراب القرآن**، مكي بن أبي طالب، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
١٩٧. **المصاحف**، أبو بكر بن أبي داود، تحقيق محمد بن عبده، الفاروق الحديثة - مصر - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
١٩٨. **المصنف**، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
١٩٩. **المصنف في الأحاديث والآثار**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢٠٠. **المطلع على ألفاظ المقنع**، شمس الدين البعلي، تحقيق محمود الأرناؤوط،
وياسين محمود الخطيب، مكتبة السوادي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ -
٢٠٠٣م.
٢٠١. **معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي**، أبو محمد الحسين بن مسعود
البغوي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٢٠٢. **معاني القراءات**، محمد بن أحمد بن الأزهري، مركز البحوث في كلية
الآداب - جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى،
١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
٢٠٣. **معاني القرآن**، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق أحمد يوسف النجاتي
ومحمد علي النجار وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف
والترجمة - مصر.
٢٠٤. **معاني القرآن**، سعيد بن مسعدة المعروف بالأخفش الأوسط، تحقيق
الدكتورة هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي - القاهرة.
٢٠٥. **معاني القرآن وإعرابه**، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي،
عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢٠٦. **المعجم الأوسط**، الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد
المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة.
٢٠٧. **معجم البلدان**، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر - بيروت، الطبعة
الثانية، ١٩٩٥م.
٢٠٨. **المعجم الفلسفي**، إعداد مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع
الأميرية - القاهرة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٢٠٩. **المعجم الكبير**، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد
السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الثانية.
٢١٠. **معجم المؤلفين**، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث
العربي - بيروت.
٢١١. **معجم المفسرين**، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة
والنشر - بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
٢١٢. **معرفة القراء الكبار**، الذهبي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ -
١٩٩٧م.

٢١٣. **المغني**، ابن قدامة المقدسي، تحقيق عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلوي، دار هجر.
٢١٤. **المغني في الضعفاء**، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق د. نور الدين عتر، إدارة إحياء التراث - قطر.
٢١٥. **مغني اللبيب عن كتب الأعراب**، بن هشام، تحقيق د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر - دمشق، الطبعة السادسة، ١٩٨٥ م.
٢١٦. **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ هـ.
٢١٧. **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، ابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ.
٢١٨. **المفردات غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ.
٢١٩. **المفصل في تفسير القرآن الكريم = تفسير الجلالين**، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان - ناشرون، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ م.
٢٢٠. **مقاييس اللغة**، ابن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
٢٢١. **مقدمة التفسير**، ابن تيمية، تحقيق عدنان زرزور، دار القرآن الكريم، الطبعة الثانية، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.
٢٢٢. **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، أبو حامد الغزالي، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار الجفان والجابي - قبرص، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
٢٢٣. **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
٢٢٤. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢ هـ.

٢٢٥. **منهاج السنة**، ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، أشرفت على طباعته جامعة الإمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
٢٢٦. **الموافقات**، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٢٢٧. **مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل**، محمد بن محمد الحطاب، تحقيق محمد يحيى بن محمد الأمين الشنقيطي، دار الرضوان، سنة النشر: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
٢٢٨. **موطأ مالك**، مالك بن أنس، محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٢٢٩. **موقف ابن تيمية من الأشاعرة**، عبد الرحمن المحمود، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٢٣٠. **ميزان الاعتدال**، الذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م.

(ن)

٢٣١. **الناسخ والمنسوخ**، أبو جعفر النَّحَّاس، تحقيق د. محمد عبد السلام محمد، مكتبة الفلاح - الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٢٣٢. **الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن**، أبو عُبيد القاسم بن سلام، تحقيق محمد بن صالح المديفر، مكتبة الرشد - شركة الرياض - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٢٣٣. **النبوات**، ابن تيمية، تحقيق عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٢٣٤. **نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، دار ابن كثير، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
٢٣٥. **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة - لبنان - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
٢٣٦. **النشر في القراءات العشر**، محمد بن محمد بن يوسف ابن الجزري، تحقيق علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى.

٢٣٧. **نصب الراهب لأحاديث الهداية مع حاشيته: بغية الألمي في تخريج الزيلعي**، الزيلعي، تحقيق محمد عوامة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر - بيروت، دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
٢٣٨. **نظم المتناثر من الحديث المتواتر**، محمد بن أبي الفيض الكتاني، شرف حجازي، دار الكتب السلفية - مصر، الطبعة الثانية.
٢٣٩. **نقض الدارمي على المريسي**، عثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق رشيد بن حسن الألمي، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
٢٤٠. **النكت والعيون = تفسير الماوردي**، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
٢٤١. **نواسخ القرآن = ناسخ القرآن ومنسوخه**، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق آل زهوي، شركة أبناء شريف الأنصاري - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
٢٤٢. **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ابن الأثير، تحقيق محمود الطناحي وطاهر أحمد الزاوي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
٢٤٣. **نهاية المطلب في دراية المذهب**، عبد الملك بن عبد الله الجويني، تحقيق عبد العظيم محمود الديب، دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
٢٤٤. **النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى**، محمد الحمود النجدي، مكتبة الإمام الذهبي - الكويت.

(هـ)

٢٤٥. **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن**، مكي بن أبي طالب، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
٢٤٦. **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي، وكالة المعارف الجليلة - إستانبول، ١٩٥١ م.

(و)

٢٤٧. **الوابل الصيب**، ابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة.

٢٤٨. **الوجوه والنظائر**، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
٢٤٩. **الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز**، الحسين بن محمد الدمغاني، تحقيق عربي عبد الحميد علي، دار الكتب العلمية - بيروت.
٢٥٠. **الوجوه والنظائر في القرآن العظيم**، مقاتل بن سليمان، تحقيق حاتم صالح الضامن، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - دبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.



فهرس الموضوعات

٥	منهج التحقيق
٩	التعريف بالجلالين
٩	ترجمة جلال الدين المحلي
٩	ترجمة جلال الدين السيوطي
١٠	التعريف بتفسير الجلالين
١١	مصادر تفسير الجلالين
١٢	عناية العلماء بتفسير الجلالين
١٥	مذهب الجلالين العقدي
١٦	مقدمة التعليق

تفسير سورة الفاتحة

١٧	عدد آيات الفاتحة
١٩	تفسير البسملة
٢٠	قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾
٢٣	قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ﴿٣﴾﴾
٢٤	قوله تعالى: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾
٢٥	قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾
٢٧	قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ إلى آخر السورة
٣١	مقدمة السيوطي

تفسير سورة البقرة

٣٣	قوله تعالى ﴿الرَّ ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ...﴾ إلى آخر الآية ٥
----	--

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...﴾ إلى آخر الآية ٧..... ٣٨
- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ...﴾ إلى آخر الآية ١٠..... ٤١
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ إلى آخر الآية ١٢..... ٤٦
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ...﴾ إلى آخر الآية ١٣..... ٤٨
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامِنُوا قَالُوا ءَامِنَّا...﴾ إلى آخر الآية ١٥..... ٤٩
- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَتُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى...﴾ إلى آخر الآية ١٦..... ٥٢
- قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ إلى آخر الآية ١٨..... ٥٤
- قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ...﴾ إلى آخر الآية ٢٠..... ٥٧
- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٢٢..... ٦٢
- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا...﴾ إلى آخر الآية ٢٤..... ٦٦
- قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ إلى آخر الآية ٢٥..... ٧١
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ...﴾ إلى آخر الآية ٢٧..... ٧٦
- قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ ءَامِنًا...﴾ إلى آخر الآية ٢٨..... ٨١
- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾ إلى آخر الآية ٢٩..... ٨٣
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ...﴾ إلى آخر الآية ٣٠..... ٨٦
- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾ إلى آخر الآية ٣٣..... ٩١
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾ إلى آخر الآية ٣٤..... ٩٥
- قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ...﴾ إلى آخر الآية ٣٧..... ٩٨
- قوله تعالى: ﴿فُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا...﴾ إلى آخر الآية ٣٩..... ١٠٤
- قوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي...﴾ إلى آخر الآية ٤٦..... ١٠٦
- قوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي...﴾ إلى آخر الآية ٤٧..... ١١٧
- قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا...﴾ إلى آخر الآية ٤٨..... ١١٨
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٥٠..... ١٢٠

- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ...﴾ إلى آخر الآية ٥٣..... ١٢٣
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ...﴾ إلى آخر الآية ٥٤..... ١٢٦
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ...﴾ إلى آخر الآية ٥٧..... ١٢٨
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ...﴾ إلى آخر الآية ٥٨..... ١٣٤
- قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا...﴾ إلى آخر الآية ٥٩..... ١٣٧
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ...﴾ إلى آخر الآية ٦٠..... ١٣٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ...﴾ إلى آخر الآية ٦١..... ١٤١
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا...﴾ إلى آخر الآية ٦٢..... ١٤٦
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٦٣..... ١٥١
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ...﴾ إلى آخر الآية ٦٤..... ١٥١
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ ءَعْتَدُوا...﴾ إلى آخر الآية ٦٥..... ١٥٢
- قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا...﴾ إلى آخر الآية ٦٦..... ١٥٤
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٦٧..... ١٥٦
- قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ...﴾ إلى آخر الآية ٧١..... ١٥٨
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَاتَلْتُمْ نَفْسًا...﴾ إلى آخر الآية ٧٢..... ١٦٢
- قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا...﴾ إلى آخر الآية ٧٣..... ١٦٤
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ...﴾ إلى آخر الآية ٧٤..... ١٦٦
- قوله تعالى: ﴿أَفَظْتُمِعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٧٥..... ١٦٨
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا...﴾ إلى آخر الآية ٧٦..... ١٧٠
- قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ...﴾ إلى آخر الآية ٧٧..... ١٧٢
- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ...﴾ إلى آخر الآية ٧٨..... ١٧٣
- قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ...﴾ إلى آخر الآية ٧٩..... ١٧٥
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ...﴾ إلى آخر الآية ٨٠..... ١٧٧

- قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً...﴾ إلى آخر الآية ٨٢..... ١٧٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ إلى آخر الآية ٨٣..... ١٨١
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٨٦..... ١٨٥
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ...﴾ إلى آخر الآية ٨٧..... ١٩٠
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ...﴾ إلى آخر الآية ٩٠..... ١٩٣
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ...﴾ إلى آخر الآية ٩١..... ١٩٩
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى...﴾ إلى آخر الآية ٩٢..... ٢٠١
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٩٣..... ٢٠٣
- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدُّرُ الْآخِرَةُ...﴾ إلى آخر الآية ٩٦..... ٢٠٦
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ...﴾ إلى آخر الآية ٩٧..... ٢١٠
- قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ...﴾ إلى آخر الآية ٩٨..... ٢١٣
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾ إلى آخر الآية ١٠٣..... ٢١٥
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا...﴾ إلى آخر الآية ١٠٤..... ٢٢٦
- قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ إلى آخر الآية ١٠٥..... ٢٢٨
- قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ ءَايَةٍ...﴾ إلى آخر الآية ١٠٧..... ٢٣٠
- قوله تعالى: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ١٠٨..... ٢٣٥
- قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ إلى آخر الآية ١٠٩..... ٢٣٧
- قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ...﴾ إلى آخر الآية ١١٠..... ٢٣٩
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ...﴾ إلى آخر الآية ١١٢..... ٢٤٠
- قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ...﴾ إلى آخر الآية ١١٣..... ٢٤٤
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ...﴾ إلى آخر الآية ١١٤..... ٢٤٧
- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾ إلى آخر الآية ١١٥..... ٢٥٠
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ...﴾ إلى آخر الآية ١١٧..... ٢٥٣

- قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ... ﴾ إلى آخر الآية ١١٨..... ٢٥٦
- قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ... ﴾ إلى آخر الآية ١١٩..... ٢٥٨
- قوله تعالى: ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ... ﴾ إلى آخر الآية ١٢٠..... ٢٥٩
- قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ... ﴾ إلى آخر الآية ١٢١..... ٢٦١
- قوله تعالى: ﴿ يَبْنِي إِسْرَاءَ يَلْذُكُرُوا نِعْمَتِي... ﴾ إلى آخر الآية ١٢٣..... ٢٦٣
- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ... ﴾ إلى آخر الآية ١٢٥..... ٢٦٤
- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا... ﴾ إلى آخر الآية ١٢٦..... ٢٦٩
- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ... ﴾ إلى آخر الآية ١٢٩..... ٢٧٢
- قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ... ﴾ إلى آخر الآية ١٣٠..... ٢٧٧
- قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ... ﴾ إلى آخر الآية ١٣٣..... ٢٧٩
- قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ... ﴾ إلى آخر الآية ١٣٤..... ٢٨٤
- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا... ﴾ إلى آخر الآية ١٣٥..... ٢٨٦
- قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا... ﴾ إلى آخر الآية ١٣٦..... ٢٨٨
- قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ... ﴾ إلى آخر الآية ١٣٧..... ٢٩٠
- قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ... ﴾ إلى آخر الآية ١٣٨..... ٢٩٢
- قوله تعالى: ﴿ قُلْ اتَّحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ... ﴾ إلى آخر الآية ١٣٩..... ٢٩٥
- قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ... ﴾ إلى آخر الآية ١٤٠..... ٢٩٧
- قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ... ﴾ إلى آخر الآية ١٤١..... ٣٠٠
- قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ... ﴾ إلى آخر الآية ١٤٢..... ٣٠١
- قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا... ﴾ إلى آخر الآية ١٤٣..... ٣٠٣
- قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ... ﴾ إلى آخر الآية ١٤٤..... ٣٠٧
- قوله تعالى: ﴿ وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ... ﴾ إلى آخر الآية ١٤٥..... ٣٠٩

- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ...﴾ إلى آخر الآية ١٤٧..... ٣١١
- قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُومُؤَلِّيَهَا...﴾ إلى آخر الآية ١٤٨..... ٣١٣
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ...﴾ إلى آخر الآية ١٥٠..... ٣١٤
- قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ١٥٢..... ٣١٧
- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ...﴾ إلى آخر الآية ١٥٣..... ٣٢٠
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ...﴾ إلى آخر الآية ١٥٤..... ٣٢٢
- قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ...﴾ إلى آخر الآية ١٥٧..... ٣٢٣
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾ إلى آخر الآية ١٥٨..... ٣٢٦
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا...﴾ إلى آخر الآية ١٦٠..... ٣٣٠
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ...﴾ إلى آخر الآية ١٦٢..... ٣٣٢
- قوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ...﴾ إلى آخر الآية ١٦٣..... ٣٣٤
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ إلى آخر الآية ١٦٤..... ٣٣٦
- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا...﴾ إلى آخر الآية ١٦٧..... ٣٣٩
- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ...﴾ إلى آخر الآية ١٦٩..... ٣٤٥
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ...﴾ إلى آخر الآية ١٧١..... ٣٤٧
- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ١٧٣..... ٣٤٩
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ...﴾ إلى آخر الآية ١٧٦..... ٣٥٤
- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ١٧٧..... ٣٥٨
- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ...﴾ إلى آخر الآية ١٧٩..... ٣٦٣
- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ...﴾ إلى آخر الآية ١٨٢..... ٣٧٠
- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...﴾ إلى آخر الآية ١٨٤..... ٣٧٥
- قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ...﴾ إلى آخر الآية ١٨٥..... ٣٨٠

- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي...﴾ إلى آخر الآية ١٨٦..... ٣٨٦
- قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ...﴾ إلى آخر الآية ١٨٧..... ٣٨٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ...﴾ إلى آخر الآية ١٨٨..... ٣٩٣
- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ...﴾ إلى آخر الآية ١٨٩..... ٣٩٥
- قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ١٩٥..... ٣٩٨
- قوله تعالى: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...﴾ إلى آخر الآية ١٩٦..... ٤٠٨
- قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ...﴾ إلى آخر الآية ١٩٧..... ٤١٧
- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا...﴾ إلى آخر الآية ١٩٩..... ٤٢١
- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٢٠٢..... ٤٢٦
- قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ...﴾ إلى آخر الآية ٢٠٣..... ٤٢٩
- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ...﴾ إلى آخر الآية ٢٠٧..... ٤٣٢
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً...﴾ إلى آخر الآية ٢١٢..... ٤٣٦
- قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ إلى آخر الآية ٢١٣..... ٤٤٢
- قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ...﴾ إلى آخر الآية ٢١٤..... ٤٤٥
- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ...﴾ إلى آخر الآية ٢١٥..... ٤٤٧
- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٢١٦..... ٤٤٩
- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ...﴾ إلى آخر الآية ٢١٧..... ٤٥١
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا...﴾ إلى آخر الآية ٢١٨..... ٤٥٧
- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾ إلى آخر الآية ٢٢٠..... ٤٥٩
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ...﴾ إلى آخر الآية ٢٢١..... ٤٦٦
- قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ...﴾ إلى آخر الآية ٢٢٢..... ٤٦٩
- قوله تعالى: ﴿نَسَأُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٢٢٣..... ٤٧٣

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٢٢٥..... ٤٧٧
- وقوله تعالى: ﴿لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ...﴾ إلى آخر الآية ٢٢٧..... ٤٨١
- قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَضَّنَ بِأَنْفُسِهِنَّ...﴾ إلى آخر الآية ٢٢٨..... ٤٨٤
- قوله تعالى: ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ...﴾ إلى آخر الآية ٢٣٠..... ٤٨٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ...﴾ إلى آخر الآية ٢٣١..... ٤٩٤
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ...﴾ إلى آخر الآية ٢٣٢..... ٤٩٦
- قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ...﴾ إلى آخر الآية ٢٣٣..... ٤٩٩
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفَوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا...﴾ إلى آخر الآية ٢٣٤..... ٥٠٧
- قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ...﴾ إلى آخر الآية ٢٣٥..... ٥١١
- قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ...﴾ إلى آخر الآية ٢٣٧..... ٥١٤
- قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى...﴾ إلى آخر الآية ٢٣٩-٢٣٩..... ٥١٩
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفَوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً...﴾ إلى آخر الآية ٢٤٠..... ٥٢٣
- قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ...﴾ إلى آخر الآية ٢٤٢..... ٥٣٤
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ...﴾ إلى آخر الآية ٢٤٣..... ٥٣٧
- قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ...﴾ إلى آخر الآية ٢٤٥..... ٥٤٠
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى...﴾ إلى آخر الآية ٢٤٦..... ٥٤٢

- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا...﴾
إلى آخر الآية ٢٤٧..... ٥٤٦
- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ...﴾ إلى آخر الآية ٢٤٨..... ٥٤٩
- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ...﴾ إلى آخر الآية ٢٥٢..... ٥٥٣
- قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ إلى آخر الآية ٢٥٣..... ٥٦٠
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٢٥٤..... ٥٦٣
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ إلى آخر الآية ٢٥٥..... ٥٦٥
- قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ إلى آخر الآية ٢٥٦..... ٥٧٢
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ إلى آخر الآية ٢٥٧..... ٥٧٦
- قوله تعالى: ﴿الْمَرْتَرِ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ...﴾ إلى آخر الآية ٢٥٨..... ٥٧٩
- قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ...﴾ إلى آخر الآية ٢٥٩..... ٥٨٢
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى...﴾ إلى آخر الآية
..... ٥٨٩ ٢٦٠
- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٢٦٣..... ٥٩٣
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٢٦٤..... ٥٩٨
- قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ...﴾ إلى آخر
الآية ٢٦٥..... ٦٠١
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ هُمْ يُعْتَبِرُونَ...﴾ إلى آخر الآية ٢٦٦..... ٦٠٥
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ...﴾ إلى آخر الآية
..... ٦٠٨ ٢٦٧
- قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ...﴾ إلى آخر الآية ٢٦٨..... ٦١٤
- قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ...﴾ إلى آخر الآية ٢٦٩..... ٦١٧

- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ...﴾ إلى آخر الآية
٢٧١..... ٦١٩
- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ...﴾ إلى آخر الآية ٢٧٤..... ٦٢٤
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا...﴾ إلى آخر الآية ٢٧٦..... ٦٣١
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ إلى آخر الآية ٢٧٧..... ٦٣٦
- قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا...﴾ إلى آخر الآية
٢٨١..... ٦٣٧
- قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ...﴾ إلى آخر الآية ٢٨٣..... ٦٤٣
- قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ إلى آخر الآية ٢٨٦..... ٦٦٠
- قائمة المصادر والمراجع ٦٧١
- فهرس الموضوعات ٦٩٣



ISBN 978-603-91528-5-9



9 786039 152859 >